

إنه سبحانه حكم فيما يملك ولا أحد يستطيع أن يخرج من ملكه ، ومادام الله ملك السماوات والأرض ، فحين يقول : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهم عذاب اليم » فهذا الوعيد سينتقم ، لأن أحداً لا يفلت منه ، ولذلك يقول أهل الكشف وأهل الملاحية وأهل الفيض : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل شكره لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فـ « والله ملك السماوات والأرض » تدل على أن الله حين يوعد فهو - سبحانه - قادر على إنفاذ ما أوعده به ، ولن يفلت أحد منه أبداً . وهذه تؤكد المعنى . فإذا ما سرُّ أعداء الدين في ثورة توهم الفوز ، فالمؤمن يفتن إلى النهاية وماذا ستكون ؟ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّدْيَ ۝ ﴾
(سورة البلد)

وهذه السورة قد نزلت في عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت هذه السورة دليلاً من أدلة الإيمان بصدق الرسول في البلاغ عن الله ، لأن أبا لهب كان كافراً ، وكان هناك كفرة كثيرون سواء ، ألم يكن عمر بن الخطاب منهم ؟ ألم يكن خالد بن الوليد منهم ؟ ألم يكن عكرمة بن أبي جهل منهم ؟ ألم يكن صفوان منهم ؟ كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا ، فمن الذي كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أنه بعد أن يقول : « تبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّدْيَ » من كان يدرى محمداً بعد أن يقول هذا ويكون قرآناً يُتل ويحفظه الكثير من المؤمنين ، وبعد ذلك كله من كان يدرى أن أبا لهب لن يأتى ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقد يضيف : إن كان محمد يقول : إني سأصل ناراً ذات لهب فهأنذا قد آمنت ، من كان يدرى أنه لن يفعل ، مثلياً فعل ابن الخطاب ، وكما فعل عمرو بن العاص . إن الذي أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً ، فيسجلها القرآن على

نفسه ، وبعد ذلك يموت أبرهه كافرًا .

وكان الله يريد أن يؤكد هذا فيوضح لك : إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف ؛ لأننا أنا ، أحد صمد ، ، ولا أحد يعارضني في هذا الحكم ؛ لذلك يقول في سورة الإخلاص : « قل هو الله أحد الله الصمد » .

فما دام « هو الله أحد » ليكون ما قاله أولاً لن ينقضه إله آخر ، ويستظل قوله دائماً . إذن نقول الحق سبحانه وتعالى بعد قوله : « فلا تحسبنهم بغاية من العذاب وهم عذاب أليم » ، « والله ملك السماوات والأرض » يوضح لنا أنه قد ضم هذا الوعيد إلى تلك الحقيقة الإيمانية الجديدة : « والله ملك السماوات والأرض » وجاء بالقوسين ؛ لأن السماء تظل ، والأرض ثقيل ، فكل منا محصور بين علو كين الله ، وما دام كل منا محصوراً بين علو كين الله ، فإين تذهبون ؟ « والله ملك السماوات والأرض » وقد يكون هناك الملك الذي لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه ؛ لا ، إن الله الملك وله القدرة .

« والله على كل شيء قدير » ثم يأتي بعد ذلك إلى تصور إيماني آخر ليحققه في النفوس بعد المقدمات التي أثبتت صدق الله فيها قال بواقع الحياة :

﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ فِيهِنَّ
أَنبَاءً لِّقَوْمٍ أَلْبَسُوا الْأَلْبَابَ ﴾

سبحانه يريد أن يبنى التصور الإيماني على جذور ثابتة في النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذي يفتاح بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل ؛ بلا عمد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألا يفكر ليعين صنع هذا ؟ والله لو أن واحداً

استيفظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب في الميدان ليلا لوقف ليال : ما الحكاية ؟
فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذي يعطيه أسبب الحياة ؟

ولذلك يحىء في سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحا يحل لنا قضية الإيمان
بالفكر الإنسانى ، فلا نتظر الواعظ فقط الذى يأتينا بالرسالة والنبوة ليبدل على المنهج
المراد لمن خلق ، بل يحتم علينا أن نتنبه بالفطرة إلى من خلق ، لأننا قلنا من قبل : لو
أن إنساناً وقمت به طائفة في صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناساً ولأنه
يجهد قلبه الثرم ، فاستيفظ فوجد مائدة عليها أطيب الطعام ، ياله قبل أن يجد يده
ليفتح بها ، ألا يهرول فكره ليمس صنع هذه ؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن
جاء بها قبلها يذوق الطعام ، رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم
فوجدوا هذا الكون المعجيب ، وبعد ذلك لم يدع أحد منهم أنه خلقه ، ولو كان أحد
قد ادعى أنه خلقه . . لكانت المسألة تسهل ، لكن أحدا لم يدع صنعه . هذا الكون
الذى نراه جميعاً بانتظامه الرائع ، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد : إننى صنعت ؟ لا ،
إذن فالذى قال : إننى صنعتة تسلم له الدعوة ، حتى يأتي واحد آخر يقول : أنا الذى
صنعتة . لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله ، ولذلك جاء قوله
تعالى :

﴿ أَفَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النمل)

كان الحق يقول : إن لم أكن أنا الذى خلقت فمن الذى خلق إذن ؟ ولم يجرؤ أحد
على أن ينسب الكون لنفسه ، لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شيء نافع من
عدم . ومثال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقه على الصورة التى هو عليها ،
كى يصعبه لفهموا أن كى شيء تم بخلقه . سبحانه . كوب الماء هذا شيء نافع أثروا
الحياة . وقبل أن تشبع صناعته الكوب كان يشرب ولم يكن هناك شجر يفرح وينثر الثوباً بل
صنعه إنسان أراد أن يشرب الحياة . فإذا كان هذا الشيء الصغير له صانع جال في
نواحي عوالم شتى وفي المدة . ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التى عندما تصهر
تعطى هذه الشفاقة واللحم ، فجرب في عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل (١) .

(١) قل إن رمل سيناء من أفضل المواد لهذه الصناعة .

واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء ، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذي قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصنعه ؟ احتاج طاقات جالت في جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيميائية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم نحتاج ؟

إن كل صنعة تحتاج عمل قدرها ، ولم يقل أحد : إني صنعتها ، فيقول الحق : من الذي صنع كل هذا ؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول : أنا الذي خلق السماء والأرض ؟ فإذا فعل المسئول ؟ إنه يتخبط في إجابته ثم في النهاية لا يجد إلا الله .

وكان السائل لا يطرح هذا السؤال إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد « أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به » وجاء هنا بالحاجة المباشرة . . . « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » أي أنها تسر النظر بما فيها من خضرة ، ونضارة ، وطراوة ، وظل ، وأزهار ، وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول : « لتأكلوا منها » لأن الذي يأكل هو الذي يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل من يرى ، ويستمتع بما يراه . وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسره منظره ، صحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك ، لكن هل يمنعك أحد أن تمتع به نظرك . وأن تمتع أنفك برائحته الجميلة ؟ لا .

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك فقال : « ذات بهجة » ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك : إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ، لأن هناك أشياء جميلة لا تنتفع بها أكلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لا بد أن له عملاً ؛ فورقه الجميل قد يفيد في الظل وما يشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه تحبب نحتاج إليه ، ويحتاج هذا نجد أشجاراً لها نهار جميلة تنتفع بها .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخْرُجُ مِنْهُ نَبَاتٌ كَثِيرٌ ۖ فَتَخْرُجُ مِنْهُ خَضِرًا

خَرَجُ مِنْهُ جِبَامَتَا كِبَا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ
وَالْزُّبُونُ وَالرَّهْمَانُ مِنْتَنِيهَا وَخَيْرٌ مِّنْ شَرِيحٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

(سورة الأنعام)

وسبحانه يستفهم من الإنسان « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم
يعدلون » .

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد : أبتنى الله على الخلق ويعيب عليهم أن
يعملوا ؟ ذلك أنه لم يفهم المعنى الصحيح ، فالعدل هنا بمعنى العدل عن الحق أو
الميل عنه . ويقول :

﴿ أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَهْلُكُم مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾

(سورة النمل)

إنه سبحانه الذي خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسي ،
ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسي في موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَشْكُرَ لَكُمْ تَكْفُرُونَ أَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ تَحْتِهَا وَبَرَكَّ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا
فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ يَلِينٌ ﴾ ﴿٢٢﴾

(سورة فصل)

فلماذا باركت يا الله ؟ بارك الله في الجبال وقدر فيها أقواتها ، فالقوت هو ما يُستفاد
به في استبقاء الحياة . ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع ، والزرع ينمو دائماً في

الأرض الخصبة ، وخصوبة الأرض تكون في الوديان ، والوادي هو المكان الذي يكون بين جبلين . ولماذا يكون الوادي خصباً بين جبلين ؟ لأن المطر حين يتزل من السماء ، إنما يتزل على الجبال ، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية ، فالحرارة تلي بعد البرودة ، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحي . وعندما يتزل المطر فهو يجري هذه التشققات ، فتزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن الغرين أو الطمي ، كالذي كان يأتي لنا من الحبشة ، والذي أحدث خصوبة وادي النيل .

إذن فالجبال هي مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن يجعل الجبال صلبة ، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر ، لكان سهل واحد من المطر كفيلاً بلزائنها كلها ، ولجعل الأرض سطحاً واحداً ، ولا أنتفع البشر بنصف متر من الخصوبة . وبعد ذلك يأتي الجذب . ونعلم أن الحق جعل مع الكائنات الإنسانية تكاثراً لأسباب القوت ، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت ؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة ، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادي ، ونعرف أن ضيق الوادي يكون في أذناه ، واتساع الوادي في أعلاه ، والجبل عكس الوادي . فضيقة الجبل يكون في القمة واتساعه في القاعدة أي أن قمة الجبل أقل اتساعاً من قاعدته . وعندما يتزل الغرين بواسطة المطر من الجبل فهو يتزل إلى الوادي ، فيرفع من مستوى سطح الوادي ، وتوسع مساحة الوادي . وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التي بين الجبال ، لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين . وعندما يشاء الحق سبحانه إيدان النهاية ، تنفت كل الجبال ويقول للساعة : « قومي الآن » .

وهو يقول : « وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفي مرقع آخر يقول الحق :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۚ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۚ ﴾

(سورة الرحمن)

الماء له استطراق فسلكه الله يتابع في الأرض ، فالإنسان يحفر في مكان من الأرض فيجد الماء عذباً ، وفي موقع آخر يندق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح . لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض ؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطغى أحد على الآخر .

لماذا ؟ لأننا نجد أن الماء العذب يلى من أعلى . ونجد دائماً منابع الأنهار عالية وتصب في البحر . والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطغى الماء المالح على الماء العذب ، لأنه سبحانه يريد أن يرزق الناس من الطعما بالماء ، ويريد للزروع أن ينمو ، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى غزن الماء سواء في بطن الأرض أو في البحار ، وتأتى من بعد ذلك عملية التبخير فتصاعد الماء بخاراً ليصير سحابة ، ثم يحطر من بعد ذلك ماء عذباً . والقدر الذي خلقه الله من الماء أزلاً ، هو . هو ، لا يزيد ولا ينقص .

فالإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طوال حياته ، فهل ظلت تلك الأطنان في جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت في فضلات الإنسان ؟ إن الإنسان لا يحتزن إلا الموجود فيه الآن من الماء . والجسم الإنساني به حوالى تسعين بالمائة من مكوناته من الماء ، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتبخر منه الماء وتنزل بفيه العناصر للأرض . إذن فكمية المياه واحدة ، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ الْخَبَاءَ الْأَرْضِ أَوَّاهُ ۚ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ ۚ ﴾

(من سورة النمل)

ومعنى المضطر هو الإنسان الذي استغنى أسباب شربه ولم يدرك ما يحفظ به حياته ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَّةٍ أُوقَاعِدًا أَوْ قَاعِدًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانَ زِدْعَانًا إِنَّ ضُرَّ مُسْرِئٍ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِئِينَ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١)

(سورة يونس)

وكذلك يقول الحق في موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْفُضْرُ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا تَجَلَّى إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (١٢)

(سورة الإسراء)

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحدوث جسيم ، فهو لا يكذب على نفسه ، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التي أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف بأن هناك إلهاً واحداً خالقاً . فيقول : يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَمْحُلُ الْخَلْقَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدْرُونَ ﴾ (١٣) أَمَّنْ يَهْدِيكَ فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُرًّا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَمُ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٤) أَمَّنْ يَلْقَاكُمْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ مَا تَوْفَى بَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٥)

(سورة المل)

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة آل عمران)

إنها ظواهر كونية . واختلاف الليل والنهار يعنى أن هناك شيئاً يناقض شيئاً آخر أو يأتى بعد شيء آخر . إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان : فمجيء الليل بعد النهار يعنى اختلافهما أى كل منهما خليفة للآخر . والزمن يمثل ذلك .

واختلاف آخر يتمثل في أن النهار منير ، والليل مظلم ، والنهار محل حركة ، والليل محل سكون . فاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين .

وكان الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن الفرد أصغر من أن يستشيط كل ما في الآيات ، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستشيط آية ، وكل إنسان يستشيط آية يتفهم بها هو وغيره من الناس وهكذا .

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشرح الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة ، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة ، لأن الله إمداداً حين خلق من عدم ، وإمداداً حين أمّد من عدم ، وإمداداً آخر حينما يلقي على نعمته شيئاً من البركة ، فالذي أخذ نعمة الله التي سبقت وجوده ، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه ، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة .

ومعنى البركة أن يكون الشيء الحاصل والمستشيط من حركتك لا يأتي منه لك ولا للناس إلا الخير . فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات . لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخفت النعمة وتركت المنعم . فلو أنك عند كل شيء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة . فحين ترى لك شيئاً تحبه عليك أن تقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

إنه ليس من شغلك ولا من عملك . ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه .

ولذلك يقولون : إنك إذا رأيت أى نعمة لك فى مال أو ولد أو خلق أو هتاف تقول حين تراها : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فانت لا ترى فيها سوءاً أبداً ، لأنك رددتها إلى من خلقها ، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد ، والذي يجرسها هو الكلمة الواضحة « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

ولذلك نرى فى قوله تبارك ونعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝١٩ جَنَّاتِنِ اثْنَتَيْنِ أَكَلَا مِنْهُمَا وَلَمْ يُظْلِمُوا مِنْهُ شَيْعًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۝٢٠ وَكَانَ لَهُ مُرْتَقَا لِيَصْبِغَ بِهِ وَهُوَ بِالْأُولَىٰ أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٢١ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰهْنَا أَبَدًا ۝٢٢ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٢٣ ﴾

سورة الكهف

فيما قال له صاحبه ؟

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٢٤ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٢٥ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَنَعْلًا ۝٢٦ فَسَوَّىٰ رَبِّي أَنْ يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتَّصِحَّ صَعِيدَ زَلَقًا ۝٢٧ ﴾

سورة الكهف



فكان يجب ألا يعثر الإنسان بوجود النعمة وأن يعروها ويسبها ويردها إلى انهم
وهذا يوضح له معنى قول الحق :

﴿لَنْ شُكْرُكُمْ لَا يُبْدِيَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فقد تعطىكم الأسباب مسبباتها ، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه
سبحانه بالبركة ، بل ربما كانت فجيرة لصاحبها ، فتعطيه الأسباب ثم يزرع العطاء
فتكون حسرة عليك

إذن فمن هم أولو الألباب ؟

تكون إجابة الحق .

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَسًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَٰبًا مَا خَلَقَتْ
هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٧)

انهم يقولون

وربنا ما خلقت هذا باطلاً ، لأنك حق ، وخلقنا السموات والأرض بالحق ،
ورضعت لنا نواصيصها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التي خلقتها لنا
بالحق ، فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال .
إن المؤمن الصادق في بني إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله
بإخلاص ثلاثين سنة فإن غيابة تظله حيث سار فكانوا عندما يرون واحداً من
هؤلاء يسير تظله غيابة ، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاماً .

وعبد واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلمه ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئا فرط منك . فقال لها : يا أمه لا أذكر . فقالت له : لعلك ظننت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذي يأتيك من ذاك وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير في الله دائماً

ويروى عن سيدنا الإمام عليّ - رضي الله عنه وكرم الله وجهه - أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استيقظ في الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو . والنظر إلى الأرض أيضاً هو تأمل في حكمة الخالق . لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفيض إلى علو الخالق . ولذلك فاعبري الذي استلقى على ظهره دائماً ، واسيقظ فمطر إلى لون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لك رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لي . لقد عرف الرجل متى يدمر الله وكيف يدمر ، لذلك غفر الله له .

وفيها روت كتب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء ليلة ونام ، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبد الله بن عمر رضوان الله عليه : فنام بجوارى حتى مس جلدي جلده ، ثم قال : « يا عائشة هل تأذنين لي الليلة في عبادة ربى ؟ » (١)

لقد استأذن منها رسول الله في حقها لأن الليلة ليلتها . وأصافت عائشة : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ، وقد أذنت لك .

لقد احتاطت الاحتياط الجميل ، فهي تحب الرسول ، وتقول : « وأنا أحب قربك » وهذا القول له معنى جميل ، وحدث أن قال بعض المنتطعين على دين الله : إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه

(١) رواه الزمعي عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبراني عن مطوية

لكنها عائشة - رضي الله عنها - ردت على ذلك من قبل أن يقال : فقالت : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نتعلم كيف نعامل أهلنا ، حتى ولو كان الأمر الذي يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن يشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أدائه ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة في العبادة غير المفروضة ألا تطوع حتى نستأذن زوجها . فالزوجة إن صلت تطوع ، أو صامت تطوعاً لا بد أن تستأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فيها ، وإن لم يأذن فليس لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم لأهله وأما خيركم لأهله »^١

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عن التطوعات البشرية ؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخذ وقتها وخصوصاً إن كان لها ضرائر ، فهذا الوقت حق لها . فإن أراعه الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقد تكون الحالة النفسية للمرأة في عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول استئذان الزوج لها لينتفرغ للعبادة . ولذلك فأنت نرى من أهل الفتوى الإيضاح الناجح لكل هذا الأمر لقد ذهبت امرأة تشكو زوجها لحرر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان مصموم الشكوى أن زوجته لا يقرأها ، وكان مع عمر صحابي جليل . فقال له عمر ابن الخطاب : افتها . فقال الصحابي للزوج : يا هذا ستفرض أنك تزوجت أربعاً ، فلزوجتك إحد ليلة بعد كل ثلاث ليالٍ . وإذا كاد الرسول صلى الله عليه وسلم قد استأذن عائشة في عبادة ربه ، بهذا معناه درس للأزواج أن يحسنوا معاملة الأهل إحساناً لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أماساً لا يستأذنون أهلهم لا في العبادة ، ولا حتى في سهرات المعصية وهذا ما يعسد البيوت والأسر . إن ما يعسد البيوت أن يكون الزوج مشغولاً عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه في المنهى أو في مكان آخر ولا يهتم بأفراد أسرته .

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ ويشبع رغبتهم ويحس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطلعن الزوجة أن رجلها معها وليس لى مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلذ عائشة رضى الله عنها فتأذنه . قالت عائشة رضوان الله عليها :

« فقام إلى قرية فتوضأ ثم قام فبكى ثم فرا فبكى ، ثم أتى على الله وحده فبكى ، حتى ابتلت الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . ففرا فبكى . فقال : يا رسول الله أتبكي وقد عمر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا . . يا بلال لقد نزل على الليلة :

﴿ إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفْتُ إِلَهِي وَأَتْلُو الْأَنْبِيَاءِ ﴾
 ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَتَعَالَى جُودِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سَخَّرَكَ خِطَابَ النَّارِ ﴾
 ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ﴿ رَبَّنَا إِنَّا نَمُوتُ مَتَابِعًا بِأَبْدَانٍ فَلَا يَمْنُنُ أَنْ نَمُوتَ بِرَبِّكَ فَهَلَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ﴿ رَبَّنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُوكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ ﴿ فَاسْتَجِبْ لَهُمْ رَبِّهِمْ إِنِّي لَا أَمْنِعُ عَنْ عِبادِي شَيْئاً مَنْ ذَكَرَ أَرْسَلْنَا بِقَضَائِهِمْ مِنْ بَعْضِ قَالَتَيْنِ هَابِرُوا وَاتَّخِذُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَلْزَمُوا فِي سَبِيلٍ وَقَتَلُوا وَأَكْفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تَحِطُّهُمْ حَتَّى تَخْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ ﴿ لَا يَغْفِرُكَ تَطَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلَدِ ﴾

﴿ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَرِثَاسَ الْيَهُودِ ﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَفَرَّاهُمْ
هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَمُوتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ
اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ زَارَهُ ﴿ وَإِنْ مِنْ لَدُنِّهِ أَنْ يَكْتَسِبَ لَكُمْ يَوْمَ يَوْمِ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ نَحِيشٌ ﴾ لَا يَشْكُرُونَ بِقَائِنَا إِلَهًا تَمَنَّا قَلِيلًا
أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عَدَّ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ لَكُمْ
وَأَمْرًا أَصِيرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿

(سورة آل عمران)

واضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (فويل من قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل
لن لاكها بين فكيه ولم يتأملها) (١) .

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله في لواخر سورة آل عمران ، تلك الأواخر التي
تبدأ بقوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار)

إن في تلك الآيات المنهج والاستدلال ، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره
على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب . إن الحق يقول : (الذين يذكرون الله
فيما وقعدوا وعلى جنوبيهم ويذكرون في خلق السموات والأرض . ربما ما خلقت
هذا بطلا سبحانه ففنا عذاب النار) .

ها نحن أولاء نرى أن مطلوب أولى الآيات هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى
جنوبيهم . وقال بعض العلماء في تفسير قول الحق : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا
وعلى جنوبيهم » إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قائما يصلي
قاعدا . . ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مصطجعا .

(١) روى البخاري في التهجد ورواه مسلم والترمذي في الصلاة والسلي في تمام الليل وابن ماجه في الاكفلة والترمذي

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا ؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عند صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكَ وَلَا تُنَافِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَّا يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَّا تَعْلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ فَيَلْبِغُونَ عَلَيْكُمْ قِتْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَّعَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَظْفَرُ لِكَثِيرٍ مِنْ عَذَابِ الْمُهِينَ ۝١٠١ ﴾

(سورة النساء)

وحتى لا يظن المزمع أن الفروض الخمسة هي انى يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِي مَآثِرِهِمْ وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا ۝١٠٢ ﴾

(سورة النساء)

أى إنه حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كان ذكر الله أمر متصل راجب فى الصلاة ، وفى غيرها ، وبعدها يتصغر المزمعون فى خلق اسموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلا . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿ سُبْحَانَكَ رَبَّنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة آل عمران)

لماد ؟ لأن كل هذا الذكر لا يورث حق ربنا علينا . لذلك قالو :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴾ ١١٢

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون أخرى
الله لم يدخل النار . وكان الخزي مرتبة أشر من عذاب النار ، من الذي أعطانا كل
هذا الفصل ، إنه - سبحانه - أعطانا توبيخا لذكره ، وتوبيخا لتفكر في خلق السموات
والأرض ، فهل يصح أن نقابل بكفران النعمة ؟ وما الذي يحدث هؤلاء الذين
يدخلون النار ؟

إنه الخزي والمعاذ بالله . « وما للظالمين من أنصار » أي وليس لهم أنصار يمتنون
عنهم عذاب النار

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ
عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ١١٣

فكان الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يحى ، له الرسول يجب أن يتنه إلى ما في الكون

من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمه في
دعاه . ماهي ؟ إنه يرى لكون العجيب فيقول بنفسه : من المستحيل أن يكون هذا
الكون بلا خالق . إن وراءه قوة فما حكمة وله قدرة . هذا قصارى ما يصل إليه
العقل ولكن أين يستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله ؟ أين يستطيع العقل أن يدرك
ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا إن تلك هي المرة
التي وقع فيها العلاسفة ، لأن العلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة . ونحن نعلم أن
العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مدنى قائم على التجربة ، وقسم ميثافيزيقى يبحث
فيها وراء المادة . وهذا العلم متاعه الفلاسفة . وهو المصلحة التي لم تلتق فيها مدرسة
بمدرسة ، ولا تلميذ في مدرسة مع تلميذ آخر في مدرسة .

لماذا لم يلتقوا ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والعيب
لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطى نتائج تحليلات
لا يجامل في هذه النتائج . فالذى يدخل التجربة العلمية في المعمل ينزاهة فالمعمل
يعطيه . والذي يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئا

ولذلك نقول دائما : إنما لا نجد في العلوم المادية عارفا بين علم شيوعى روسى ،
وعلم أمريكى رأسالى ، فلا توجد كيمياء رأسالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد
كهربية روسية وأخرى أمريكية . إنما كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها أبناء
المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذى لا يضطر له الخلق المفرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادى
ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التي لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من
غيره . ويجدد الجواسيس يساقرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصحيحات
الطائرات والصواريخ . وأن بعضهم يتخلص على بعض حتى يعرفوا العلم المادى

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إنما نجد أن كل طرف يقيم حدارا حتى
لا يفترق علم الأهواء المجتمع

هم يقيمون الحواجز في الأهواء ولكن في العلم المادى يتحولون إلى لصوص .
فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص على العداء مع
مذاهب الغير في الحكم والاجتماع والاقتصاد . لكنهم في العلم المادى يسرق بعضهم
بعضاً ، لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى - كما قلنا - يتبع
الحقيقة العملية التي لا تخامل .

إذن مساعاة بفكر الإنسان بعقله لا بد أن يقول : إن وراء خلق كون قوة خارقة
وقد عرفها العرب بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير ، أفلا
يدل كل ذلك على اللطيف الخبير !!؟

إنه دليل فطرى ، بذلك على وجود القوة ، لكن ما اسم هذه القوة ؟ لا نعرف .
إذن فالأذن تستشرف إلى من يدلها على اسم هذه القوة . وإذا جاء واحد وقال : أنا
مُرْسَلٌ من ناحية هذه القوة ، وأن اسمها الله ، كان من المقروض أن تنهات الناس
عنه ؛ لأنه سيحل لها اللعن الذى يشغلهم ، لذلك هانئون يقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي بِالْإِيمَانِ أَنْ ءَامُرُوا بِرَبِّكُمْ فَعَمَّانَا ﴾

(سورة آل عمران)

كان دهن كل واحد فيهم كان مشغولاً بضرورة التعرف على الخالق وبعد ذلك
يقولون .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (١٩٦)

(من سورة آل عمران)

فالون حاجة فكروا فيها هي درء الفسدة ؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم
بالتقصير دائماً ؛ لذلك قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » .

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن « الذنب » شيء ، و « السيئة » شيء
آخر . فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، على سبيل المثال « كفارة
اليمين » تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن بما وحيث فيه ، وهذا التكفير هو المقابل

يلحنت في اليمين ، أما الأشياء التي تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهي الذنب ، والسببة هي الأمر الذي يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية في أمر بينك وبين الله فأنت لم تسع إلى الله ، فمن أنت أيها الإنسان من صرلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذهب ، والذنب تأتي بعده العقوبة أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهي سببة ؛ لأنك بها تكون قد أسأت

لذلك فالمؤمنون قلوبا « ربنا ما غفر لنا ذنوبنا وكفرنا عما سيئنا » .

ومن الذي هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسببة ، وأن الذنب يحتاج إلى غفران ، وأن السببة تحتاج إلى تكفير ؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم حامل الرسالة من الله . وهو الذي علما لفرق بين الذنب والسببة . فقد كان جالسا بين أصحابه فأخذته سببة من النوم ، ثم استيقظ فصحك

عن أنس رضي الله عنه قال : « بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه . ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمقي بين يدي رب العرة فقال أحدهما . يارب حذ لي مظلمتي من أخى . قال الله : أعط أحاك مظلمته . قال يارب . لم يبق من حسناتي شيء . قال : يارب يحمل عني من أوزاري . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكاء ثم قال . إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يتحمل عنهم من أوزارهم . فقال الله للمطالب : ارفع صررك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكدلة باللؤلؤ لآي بى هذا ؟ لآي صديق هذا ؟ لآي شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يارب قد عصمت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصبحوا دات بكم قرن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » (١) .

(١) رواه أبو بكر بن أبي شيبة والحاكم وصححه ورواه السيوطي في قلل الشرح وابن كثير في التفسير

هذا هو معنى الكفر أى أن نتحمل ، لذلك نقول فى الدعاء كما عسى . « اللهم ما كان لك منها فاعفره لى ، وما كان لعبدك فتحمله عفى » . أى أن اعبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عبده ، وما عبده لا يبعد أبدا .

والعبد المؤمن يقولون « ربنا فاعفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّا مَعَ الْأَبْرَارِ » أى انضم لنا سبحانه هذا الحتام مع الأبرار ومن بعد ذلك يأتى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١١٤)

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة هم :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنكُرُ بِعَصَاكُم مِّن بَعْضِ قَالِذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِينِهِمْ وَأُودُوا بِسُبُلٍ قَالِذِينَ وَقْتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخُلَنَّاهُمْ جَنَّتِ جَحْشَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (١١٥)

ولم يفرق الفتنه الجملة في الاستجابة . فاستجاب لهم ربهم أن لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . لقد كانوا يذكرون الله فيلما ونمودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض . ويخشون عذابي الدحول إلى النار . ودعوا الله بغفرا انذوب وتكبير اسبغات . ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على السنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه استجبت لكم ، لكنه جعل الاستجابة هي قبول العمل فقال : « أن لا أضيع عمل منكم من ذكر أو أنثى » فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل في حيز التطبيق والنروع العمل ، فالمسألة ليست بالتمنى صط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد استجابة الحق فلا بد له من العمل . إن التكبر في يدع صبح الله لا يعنى عن العمل ، لأن الحق سبحانه يريد التكبر فيه وأنت تعمل في أسبابه . فأسباب الحق لا تشعلك عنه .

﴿ فَاسْتَجَبْ لَهُمْ رَبِّهِمْ إِنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَتُلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ نَوَافِلًا ۖ مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأَقْرَبُ عِنْدَهُ حَسَنُ التَّوَابِ ۝١٥٥﴾

(سورة النجم)

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبائهم ، دون إكراه فهجرتهم هذه هي فرع وجودي ، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك في سبيل الله ، أي ، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم ، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم ، وقاتلوا في سبيل الله ونحملوا الأذى وقتلوا - هؤلاء - يملكون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة .

لقد جاء الحق هنا بالعملية التي تنضج فيها الأسرة الإيمانية ، لأن الإنسان يشغل بآله وأهله ووطنه وباستيفاء الحياة ، فإذا ما ضحى الإنسان بهذا كله في سبيل الثبات

على كلمة الله أولا ، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيا . فاللؤمن من هؤلاء لم يكف بنفسه بل جاهد في سبيل الله لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره ، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه نفسه .

مخرج من كل هذا برؤية واضحة هي أن الفكر وحده لا يكفي وإذا قال واحد إن إيماني حسن فلا تأخذني بالمسائل الشككية . رده عليه قائلين : إن الله ليس في حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمم الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله في الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله في الأرض ، أدمت للوجود جماله .

ومن بعد ذلك يفوز الحق :

﴿ لَا يَعْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾

وإذا ما سمعت كلمة « تقلب الذين كفروا في البلاد » فاعلم أن التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة . والعبرة على الحركة تكون في مكان الإنسان وبلاده ، فإذا اتسعت قدرتك على الحركة وانتقلت إلى بلد آخر ، فعندئذ يقل عن هذا الإنسان . « فلان نشاطه واسع » أي أن البيئة التي يحيا فيها ليست على قدر قدرته ، بل إن قدرته أكبر من بيئته . لذلك فإنه يخرج من بلده . وكان ذلك يحدث ، فكما قرئش كانوا يرحلون من بلدهم في رحلات خارجها . لذلك قال الحق

﴿ لَا يَعْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾

(سورة آل عمران)

والتقلب كما عرفنا بشأ عن : قدره وحركة واتساع طموحه . وسبحانه يريد أن يبين لنا أن رخايف الحياة قد نأتى لغير المؤمنين . إن كل زخرف هو متاع للحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الإنسان في الوجود . ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وعمرها ؛

صحاحه هو القائل :

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إنها حياة لها مهلة أما الذي يريد أن يُصعد النعمة ويصعد السُّع فهو يعمل العمل من أجل حياة لا تنتهي والكافرون قد يأخذون العاجلة المسهية ، ولكن المؤمنين يأخذون الأجلة التي لا تنتهي

وحيث نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة ، نرى أن الصفة نستحق أن نناقشها من نواحيها وهي كما يلي : لا نقس عمر الدنيا بالنسبة لداتها ، ولكن نقس عمرها بالنسبة لعمر الفرد في الحياة ؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقائه فيها ، فهب أن الدنيا دامت لغيري ، فبأنى ولها ، إن عمر الدنيا نصير بالنسبة بقاء الإنسان فيها ، وإياك أن تضرها يقولت . إن الدنيا سوف تبقى لملايين السنين ؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك ، وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها ، وعمرك فيها محدود ، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار . هي مالك وعمرك فيها ممترون ؛ لأن الموت يأتي بلا من ولا يرتبط بسبب أو برمان . ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار . وعمر الآخرة ممتن وهو إلى خلود .

إذن عمر الإنسان في الدنيا ممترون وعمره في الآخرة ممتن ، والدنيا محدودة ، والآخره خلود ، ويعيمك في الدنيا موط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها ولكن يعيمك في الآخرة على قدر عظمة ربك وعظمته العميم ؛ لذلك قال الحق عنها : إنها متاع العرور ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا ، فهل هناك اسم أقل وأحق من هذا ؟ إن الذين يعمرن بما يناله الخارجون عن صبح الله من تقلبهم في البلاد عبيهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى روال وصياح . وعيب أن نقارن التقلب في البلاد بما أعد الله لنا في الآخرة . وساعة نقارن هذه المصاير تكون المقارنه سليمة

ولذلك يتابع الحق قوله عن تقلب الدين كفروا في البلاد :

﴿ مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾

والمهاد هو المكان الذى ينام فيه الطفل . ومعنى ذلك أن الحق يقلب قلوبهم في جهنم كما يريد ، لأنه لا قدرة لهم على أى شيء ، شأهم في ذلك شأن الطفل ، يزال ملاذاً ما لفراشه ومهداً حتى يقلبه ويحركه غيره . ويأتى المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون فيقول :

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

وانزل هو المكان الذى يعد لبرور الضيف ، والبرل حياً تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشر في إحدى السفريات تولنا في فندق داخر فقال لى زملائى وإخوانى .

هذا لون من العظمة البشرية

قلت لهم : هذا ما أعدّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه الله للمؤمنين ؟

وعندما ترى تقلب الكفار في البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله في تقلبهم ، ول ذلك يقول

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهَنَّمَ هَلْ لَّيْهَكُمْ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١١)

(سورة الأنعام)

ويقول - سبحانه -

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ فِي نَفْسِهِمْ قِسَامٌ بِمَعْجِرَاتِ الْكَوْثَرِ ﴾ (١٢)

(سورة اسفل)

والكافر من هؤلاء يملكه المرور ، وهو يتقلب فيأبى عذاب الله بعته والعذاب يأل مرة بعته ، ومرة أخرى جهنم إنه يأل بعته حتى يكون الإنسان متوقعا له في أى لحظة ويأتى جهنم حتى يربح الإنسان ومعه قبل أن يقع . وبذلك يقول الحق

﴿ لَنْ نُبْرِئَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذْنَاكَ الْأَصْنَفَةَ وَأَنْتُمْ سَاطِرُونَ ﴾

(من الآية ٥٥ من سورة المائدة)

فاللوت إن جاءهم بعته فقد لا يشعرون به إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينئذ يأتهم الموت وهم يظنون ، فهم يرونه وهم في فزع ورعب

والحق يقول من بعد ذلك .

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا

يَسْتَرْوْنَ بِمَا يَمِيتُ اللَّهُ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنْ كُنَّ اللَّهُ سَرِيعَ

الْحِسَابِ ﴿١٣﴾

فلاح الدنيا بأن تنصروا على خصومكم ، وأن تعيشوا معيشة أمة مستقرة رعدة ، وفلاح الآخرة أن ياحدو خصمكم من الخنود في العيم المقيم ، ومادام سبحانه يقول اصبروا فلا بد أن يكون هذا إيذاناً بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدي إلى الحنة ، والحنة بحفرة بالمكاره ؛ لذلك لابد أن تكون فيه مشقات .

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها في ذات النفس معصلة عن المجتمع نارة ، وتجد في ذات النفس مع المجتمع نارة أخرى ، لها في ذات النفس مفصلة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضي أن يصبر على تنفيذ أمر الله في فعل الطاعات وعلى تحمل الألم منه في ترك المعاصي وإن كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها فإنك تصبر عن تلك الشهوة التي تلح عليك ، فمجاهدة المؤمن أن يصبر عن الشهوات التي هي الله عنها ، والأشياء التي تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة في النفس يصبر عليها ، والأشياء التي يصبر عنها من التواهي هي الشهوات والمتع التي يحرمها الله

وكان الحق سبحانه وتعالى يقول : إني نجعتك وأعلم صابرة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التي في الطاعة إن فعلتها ستورثك مشقة في ذاتك ، اصبر عليها ، إذن فمن الأوامر صبر على تنفيذها ، وفي المعاصي صبر عن إيقاعها ، هذه كلها في الذات ، وبعد ذلك إذا بعدت المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجي فالحق يقول :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

(مر الآية ١٧٧ سورة البقرة)

يقول : « صابرين في » ، فعبارة « صابرين على » ، « صابرين عن » ، « صابرين في » ، « والصابرين في البأساء والضراء » التي تقع عليهم من المحن والضراء عليهم ، وكيف تصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم ؟ نعم ، لأن صبرهم في البأساء ليس صبراً الخطأ في حركة المجتمع والخطأ في حركة المجتمع إنما يصبر منه أبناس وهم يحرسون جاهدين أن يصدروا من يريدون تبني مذهب الله ، إذن فهم لا يفصرون في إيمانهم ، وفي السخرية منهم ، وفي إيمانهم وفي حريتهم ، وهذا صبر في البأساء

والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذي جئت لتدحض منهجه الباطل بمنهجك
الحق صابرك وصابر أيضا على إيدائك ، فعليك أن تصابره .
ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن « اصبر » غير « صابر » ، فاصبر هو أمر فى نفسك
تصبر عليه ، ولكن هب أن خصمك صبر أيضا على إيدائك ، وصار عنده جلد
ليقف أمامك هنا .

الحق يلزمك هنا بأن تصابره ، أى إذا كان عدوك يصبر قليلا فعليك أنت أن تقوى
على الصبر عليه ، أى أن تحمى بصبر فوق الصبر الذى يمارضك ، وكل مادة
« فاعل » هكذا .

مثال ذلك . عندما تقول : فلان نافس فلانا . واسافسة تكون بين اثنين يحتاجان
ويقتصدان غاية ، وكل واحد يريد أن يصل إليها ، والذى يريد أن يصل إليها يريد
أن يصل بحرص ، فإن كان معانداك يحرم عليها بخطوة فاحرص عليها أنت
بحطونين ، هذه هى السافسة ، فالمنافسة معالية على العرز ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَبِّهُونَ ﴾

(سورة المؤمنون ٢٦ سورة المطففين)

والأصل فيها هو إطالة النفس حين يعطس الإنسان فى الماء ، وسيدنا عمر
رضى الله عنه - قال للعاس - رضى الله عنه - : أتافسنى ؟ أى عرص عليه أن ينزلا
معا تحت الماء ، ويرى من منها أطول نفسا . إذن فالعطس الكيس هو من يتمرس على
هذا السمل ولا ينزل إلى الماء فى نفس متردد ، بل يأخذ كمية من الهواء بشهيق يتسع
له تجويف صدره كله ليكون عنده حصيلة يستطيع بها أن يمكث فى الماء أطول مدة من
الآخر ، أم الذى يعطس وليس عنده هذه الحصيلة ، فسيأخذ مقدار شهيق وزفير
فقط ، « منافسى » تعنى أن يعطس فى الماء معا لئلا يرى من منا أطول نفسا . أى أنه
قادر على أن يحصط بكمية من الهواء تستطيع أن تؤدى وظيفة حياته مدة طويلة ،
ولا يمكن أن يتأذى هذا إلا إذا أحدث شهيقا يملأ الصدر حتى إنك لا تقدر أن تزيد ،
ولذلك فانطبيب عندما يريد أن يحصص حالة الرئة يقول للمريض - حذر نفسك
طويلا ، لأنه يريد أن يرى المريض وقدرته

إذن فالصابره تعنى إن كان خصمك يصابرك فانت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت .

أكثر . وهذا محتاج المسألة إلى أن يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنْصَبِرْ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۚ ﴾

(سورة العنكبوت)

أي أنك إذا رأيت أحدا من إخوانك المؤمنين يحور ويضعف في مصابرة فتحته على المصابرة وقل له : إياك أن تحور ، لماذا ؟ لأن لنفس البشرية من الأعيار ، وقد يأتي لها حدث يقوى عليها ، فالمؤمن الذي ليس عنده هذه الأعيار يتفخ بالعزيمة فيصبر يحور فقال الحق : « تَوَاصَوْا » ، ولم يقل : جماعة يوصون جماعة ، لا « فالتواصى » أن تكون أنت مرة موصيا ، ومرة موصي ، وساعة لا يكون عندك صعب الأعيار قوصي ، وساعة يكون عندك صعب الأعيار توصي ، فكل واحد موصي في وقت ، وموصي في وقت آخر ، ولا نواصي هذه التوعية على الصبر إلا إذا كنا توصي أولا على الحق الذي من أجله نشأت المعركة بين صابر وصابر .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وعرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تشعر عدوك بأنك مستعد دائما للقتال ، هذا هو معنى الرباط . ولحق يقول .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَخْلِي تَرْجُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۖ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

« يا أيها الذين آمنوا أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط خيل ترجون به عدو الله وعدوكم » وسلم يقول : « خيركم محسبك معان فرسه كلما سمع هجمة طار إليها » (١) .

أي أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتي الأمور الداهية ننتقل لمواجهتها ولكن يكون استعدادنا من قبل الأمر الداهي ، ولذلك حين يكون عدوك

(١) رواه مسلم في الإمارة وابن ماجه في الفتر ورواه أحمد

علما بأنك مرابط له ومستعد للحركة في أي وقت يرهك ويخافك ، أما إذا كنت في استرخاء وعقلة ، فإنه يدهمك ، فإلى أن تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى ، إذن فما فائدة الرباط ؟

فائدة الرباط أن يُعدهم أنك لم تغفل عن عدوك وأنت لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتي بالدهمة ، ولكن تكون أنت مستعداً لها في كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيال للعدو المهاجم هجوماً مادياً ، بل المراقبة تعنى : الإعداد لكل ما يمكن أن يرد عن الحق صيحة الباطل ، فمن المراقبة أن تعد الباشة للإسلامية لواءات الإلحاد قبل أن تعد ، لماذا ؟

لأن أسئلة ليست كلها غرواً يخيل وسلاح وُعد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذي يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، وإذن لا بد أن تكون أيضاً في لرباط الذي يمد المؤمن بقدرة وطاقاة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التي قد تعد على المؤمنين ، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها .

لقد قلنا إن آفة المذاهب العلمية أهم أخذوا مساهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ورسوا أن لا ديناً يحمينا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتي رجل التاريخ بمسجده من الغرب ، ويقول إن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندما مترط ، ويقول له : في أي سنة نشأت لثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سوات قليلة ، قد تزيد أو تنقص على المائتي سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامي جاء منذ أربعة عشر قرناً بحقوق الإنسان ، واقرأوا القرآن هلو أن كل تعبد حين يسمع أن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث في القرن السابع عشر لكن لماذا لا نلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرناً جاء الإسلام بهذا المبدأ وانتصت إلى الاساءة في استعمال الحق ، فإذا كنت تجهل تشريع الله فلا يصح أن يؤدي بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق في مسج الله

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدت الحيوان الغلابى باللون الذى يناسب البيئة التى يعيش فيها حتى لا يعتك به عدوه وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة ممددة من الله ، لا تقبل إن الطبيعة أمدت إذن فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب بل بالقوة العلمية أيضا ، فحصول الإسلام قد يشوا من أن يتصوروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتلوا كل قواهم فى الحروب الصليبية ، ولم يبق لهم إلا أن يدخلوا علينا من حلال ما هجمهم ومن حلال المستشرقين هناك ، واستغربين ما يفتلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن مهجنا ، وهم معلورون لأنهم لا يعلمون مبع الله فى دين الله . إذن فالرباط لا بد أن يكون أيضا فى رباط الأفكار ، ورباط العلم ابداً

إن حصول الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة فيجب أن نسه النشء إليها ، يقولون : أوروبا ارتقت حضاريا وأتم يا مسلمون تحلمتم . نقول لهم هل كان التحلف مقارن للإسلام ؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هى الدولة الحضارية الأولى فى العالم لمدة ألف سنة ، وأوروبا التى تشذقون بحضارها كانت تعيش فى العصور المظلمة . إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم .

إذن فالمراسلة أن توضح أمر ديك توضيحا يقف أمام أى وافدة قل أن تمد بالعنوان المسلح ، ويجب أن تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادئ ، ولذلك قال الحق « اصبروا » و « صابروا » . و « رباطوا » ، و « اجتمعوا كل ذلك » الصبر على « وه الصبر عن » وه الصبر فى « ، والمصابرة لعدو والتواصى بالصبر ، والرباط بجميعه لمادى والمعوى ، أى بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمة ، ويحكم الحق الآية بقوله : « وانتقوا الله لعلكم تفلحون »

ويعرف أنه حين قال لك « اتق الله » تساوى أن يقول لك : « اتق النار » فمعنى « اتقوا الله » : أى احفظوا بكم وبين غضب ربكم ودية ما هى الوقاية ؟ أن تطيع ، وما هى الطاعة ؟ أن تسعد أمر ، وأن تنتهى عما هى فالذى يفسر التقرى بأنها الطاعة يقول له : نعم لأنها الوسيلة إلى وقايتك من غضب الله وعذابه ، فالذى

يفسرها بهذا يفسرها بالوسيلة ، والذي يفسرها بالآخرى يفسرها بالعاية ، فعندما يقال لك : اتق الله ، أى اجعل بينك وبين النار التى هى من حدود الله وقاية ، أى اجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وإذا قال لك : اتق الله يعنى أطعه فى أمره وفى نهيهِ ، فما هى الوسيلة لانتفاء النار وانتفاء غضب الله ؟ إنها الصلوة ، فمرة تفسر التقوى بالوسيلة ومرة تفسر بالعاية .

وقلت فى قوله : « لعلكم تفلحون » إن الفلاح إما أن يكون فى الدنيا وإما أن يكون فى الآخرة . فى الدنيا . بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلكم ولا يجعلكم أحد تابعين له . هذا لون من الفلاح ، ولكن على عرض أهم فلتحوا وضعفتم أنتم ، فى فترة من الزمن مثقوا أنكم تعملون لفلاح آخر هو فلاح الآخرة ، وإلا فالدين يحاطون بهذه الآية قبل أن يدركوا نصرا للإسلام على أعدائه ، يفسرون الفلاح بماذا ؟ الذين جاهدوا ونعموا وعاشوا مضطهدين لا استقرار فى حياتهم ، وبعد ذلك ماتوا قبل أن يتمكنوا للإسلام ، كيف يكون فلاحهم ؟ إن فلاحهم فى الآخرة ، ولذلك تمهد الاحتياط فى قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَعْتَبُهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا الَّذِينَ هُمْ أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رِزْقِي رَبِّهِمْ وَلْيُنْزِلُوا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ وَإِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَبِّدُوكُمْ فِي مَلْتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا ۝١٥﴾

(سورة الكهف)

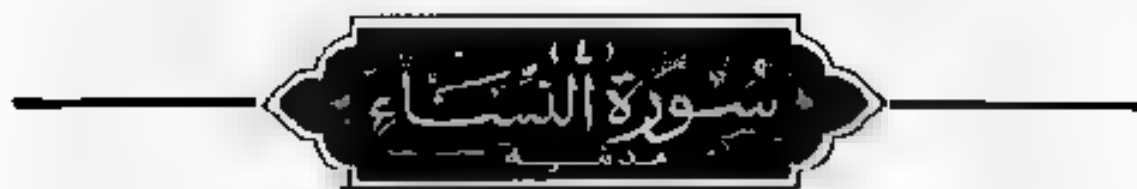
ونلاحظ فى هذه القصة قوله الحق : « يرجمكم » هذه واحدة ، « أو يعبدكم » ملتهم ولن تفلحوا إذن أئدا .

إن كانوا يرجمونكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن



ردوكم إلى دينهم ، هلن نعلموا في الدنيا ولا في الآخرة ، إذن فمعاصر الفلاح المرادة
للإنسان ، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما معا. إن عناصر الفلاح أن نعد أواخر
الله في قوله : « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .





عرضاً - فيما سبق - حواطرن حول تسمية السور ، وهما تان سورة النساء والاسم المختار لها اسم مكرم للجنس الآخر من النوع الانساني ، ولنلاحظ أن الحق لم يزل سورة باسم سورة الرجال ، وجاء بسورة وسماها سورة النساء ، وتعلق بها احكام كثيرة ، وأيضا سيكنم في سورة المائدة عن حقوق النساء ، وأيضا سيتكلم في سورة الاحزاب عن اساء ، وأيضا سيتكلم في سورة الممتحنة عن النساء ، وفي سورة المجادلة عن النساء وفي سورة الطلاق ، وفي سورة التحريم عن اساء ، إنها احكام مصوص عليها في الفرق عن حقوق المرأة ، وهذه الاحكام جاءت لتتكلم عن النوع الخاص للنفس البشرية

ونحن نعرف أن مهمة الرجل مع الاجناس لذنب في الحياة مع اخيه في العمل ، ومع الحيوانات يربي ، ومع الزرع يزرع ، إن الرجل يعمل مع تلك الاجناس ، والاجناس كما نعلم هي جماد ، وسمات ، وحيوان ، وإنسان ، ومجال للإنسان الرجل هو العمل مع اخيه ومع السمات ومع الحيوان ، أما مجال المرأة ومع الإنسان ، أيوجد تكريم للمرأة أكثر من أن الله جعلها الخاضعة لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان ؟ انظر إلى طفولة كل الأشياء ، النبات والحيوان تجدها طفولات قصيرة . هناك حيوانات لا تطول طفولتها لأكثر من شهر ، وهناك حيوانات تستمر طفولتها أيام ، وهناك نبات تكون طفولته سبع سنين - وهذه طفولة الشجر المعمر - لكن طفولة الإنسان تستمر من الميلاد حتى أربع عشرة سنة ، وهي فترة حضانة طويلة ، ولذا يجعل الله لهذا الإنسان المكرم حضانة طويلة ؟

إن مهمة الإنسان في الحياة جلييلة إذن عظمولته نحتاج إلى عناية ، وفي مرحلة الطفولة يتشرب الإنسان نصيح ما حوله ليكون سلوكياته ، وعندما يكون في حضن أمه فهو في حضن المرأة ، يسها يكده والد في الحياة ، ريان لها بالبرق ، ويسكن عند الزوجة

فلما قاصت الرجل وخاصته أمام القاضي وهو يريد أن يأخذ منه ، قالت للقاضي : لقد حبه حباً ، يعني حمله في ظهره حميلاً لا يدري به ووضعته شهوة ، ولكنني هلكه كرهاً على كره ؛ لذلك سعد أن أزل الحق في آل عمران بسورة وهم قدوة الأصطفاء في الرسائل وفي التكميمات ، ومنهم جاء لنا بعصر الرسل ، وجاء منهم بمنزلة لمهج الله مثل امرأة عمران ، فلم تكن هي ولا مريم عليهما السلام نية ولا رسالة ولكن بقدت كل واحدة منهما ما أمرت به .

وبعد تخصيص سورة لآل عمران يأتي ما الحق بسورة النساء .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يحاطب النبي أسوأ فانتصروا منه تكبيرا ساعة يقول : يا أيها النبي أسوأ فامهم أنه يريد أن يكلفك وسيحانه يوضح لك أما لا أقبح عليك اختيارك ، ولا أكلحك إلا بما كلفك أنت به نفسك لأنك أصب بـ ، ومعدمت أصت بـ ربا لها فادرا حكيما فاسمع مني .

إن الله لم يدحك في الإيمان فأنك الذي دخلت باختيارك في الإيمان يجب أن تستمع إلى من أمنت به ، وقلنا ؛ - والله المثل الأعز - الإنسان منا عندما يذهب إلى الطبيب فهو يختار هذا الطبيب ؛ لأنه أنسب الأطباء لعلاج ، وساعة يذهب إلى مثل هذا الطبيب فهو يلتزم بأوامره ، ويأخذ تذكرة العلاج ويصرعها من الصيدلية ، وإن لم يجدها يجتال على أي واحد يسافر للخارج ليأتى بها ، وينفذ المريض ما بها من أوامر .

وسبحانه يقول هنا : « يا أيها الناس » إنه لا يعذب من الإنسان أي تكيفات ، لكنه يطلب منك أيها الإنسان أن تؤمن فيوضح « يا أيها الناس » إنه يهدي الناس تعالى إلى جناسي كي تروا أيؤمن بـ أم لا يؤمن بـ ؟ والمقصود بـ « يا أيها الناس » هم آدم وذريته .

والحق يبدأ سورة النساء بقوله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدة » ومعنى « اتقوا ربكم » أى اجعلوا بينكم وبينه وقاية ،
وماذا أعمل لأتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلهاً ، وتؤمن أنه إله بعقلك ، إنه - سبحانه - يعرض لك
القضية العقلية لناس يقول « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ولم يقل « اتقوا
الله » لأن الله مفهومه العبادة ، فالإله معبود له أوامر وله نواهي ، لم يصل الحق
بالناس هذه بعد ، إنما هم لا يزالون في مرتبة الربوبية ، والرب هو المتولى تربية
الشيء ، خلقاً من عدم وإمداداً من عدم ، لكن أبس من حق المتولى خلق الشيء ،
وتربيته أن يجعل له قانون صيانة ؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة . ونحن نرى الآن أن كل
مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذي صنعه قانون صيانة ، بالله أيجلق
سبحانه الشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم
عملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا ، لكي تؤدوا مهمكم في الحياة ؟ إنه يضع
دستور الدعوة للإيمان فقال « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم » .

إذن فالمطلوب منهم أن يتعوا ، ومعنى يتعوا أن يقيموا اوقايه لأسمهم بأن ينفدوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم ، وبالله أن يجعل حلفهم عليه إلا إذا كان مشهودا بها .
 له ؟ هو سبحانه يقول : « اتقوا ربكم الذى خلقكم » . كان حجة ربنا لا مشهود بها ،
 وإلا لو كان مشكوكا فيها لقنا له . بك لم نخلفنا . والله المثل الأعلى

أنت تسمع من يقول لك : أحسن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فانت
 معر بأنه صنع أم لا ؟ وإذا أدبرت بآته صنع ما صنع فانت تستحيى لمن يقول بك
 مثل ذلك الكلام . إذن يقول الله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » فكأن
 خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد ، فأراد - سبحانه - أن يجذبها إليه
 ويأخذها إلى جنبه بالشيء الذى يؤمن به جميعا وهو أنه - سبحانه - خلتها إلى الشيء
 الذى يريد وهو أن يتقوا من الله ما يقبى من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة
 « رب » ولم يقل : « اتقوا الله » ، لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عدم وأمد من
 عدم ، وتعهده وهو المولى ويطلع بالإنسان مرتبه الكمال الذى يريد منه وهو الذى
 خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَٰكِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَشَجَرَ الشَّجَرِ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ
 هَٰذَا يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن ففضية الخلق فضية مستقرة . ومادامت قضية مستقرة فمعناها . ملامتهم أمتم
 بأنى حالكم على قدرة إذن ، هذه واحدة ، وريبتكم إذن على حكمة ، وإله له قدرة
 وله حكمة ، إما أن نحاف من قدرته فربيه وإما أن بشكر حكمه فنقر به ، « يا أيها
 الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . لم يقل الحق : « وجعل منها
 زوجها ، لما كملت ، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَ زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، والناس تريد أن تدخل فى
 مناعة . من خلق منها المقصود به خلق حواء من صلب آدم أى من نفس آدم ؟ أناس

قالوا ذلك ، وناس قالوا . لا ، « منها » تعني من جسدها ، ودلوا على ذلك قائلين .
حين يقول الله :

﴿ نَقَدْ جَاءَ ذِكْرَ رَسُولٍ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أأخذ الله محمداً صل الله عليه وسلم من نعوت وكونه ؟ لا ، إنما هو رسول من
جنسنا البشري ، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل : لأن خلق حواء قد انطمست
المعالم عنه ، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وسويته من طين ومراحل حقه إلى أن صار
إنساناً ، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول ،
وبعد ذلك تكون حواء مثله ، فيكون قوله سبحانه . « خلق منها » أي من جنسها ،
خلفها من طين ثم صورها إلخ ؛ ولكن لم يعد عليها التجربة في حواء كما قالها في
آدم ، أو المراد من قوله : « منها » أي من الطلع ، وهذا شيء لم يشهد أوبه ،
والشيء الذي لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون بمن شاهده ، وسبحانه أراد أن
يرحمنا من متاهات انظون في هذه المسألة ، مسألة كيف خلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كمية خلقك ليس لك شأن بها ، فابني خلقك هو الذي يقول لك فاسمع
كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبي ؛ ولدت عندما جاء « دارون » وأراد أن
يتكبر ويتكلم ، جاءت النظرية الحديثة تهتم كلامه ، قالت النظرية الحديثة
لدارون . إن الأمور التي أثرت في القرد الأول يكون إنساناً ، لماذا لم تؤثر في بقية
القرد ليكونوا أناساً ويعدم جس القرد ؟ وهذا سؤال لا يجيب عليه دارون ؛
لذلك نقول هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع عن فعل ، والحق سبحانه يقول .

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّبِعًا

الْمُضِلِّينَ عَصِدٌ ٥١ ﴾

(سورة الكهف)

ومادام لم يشهدهم ، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتي بعلم فيها ؟ إن أحداً لا يأتي
بعلم فيها ، وبعد ذلك يرد على من يجيء بادعاء علم فيقول « وما كنت متخذ
الضالين عصداً » ، معنى مصلون أنهم سيصلونكم في الحق . كان الله أعطان مناعة

في الأقوال الزائفة التي يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال : « وما كنت متخذ المصلين عصداً » ، فقد أوضح ما طبيعة من يصللون في أصل الخلق وفي كيفية الخلق ، فهم لم يكونوا مع الله ليعاينوه ساعة الخلق حتى يجبروا الشر بكيفية الخلق . فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذي يقول كيف خلقتكم وعلى أي صورة كنتم ، ولكن من يقول كذا وكذا ، هم المصللون ، و المصلوب ، هم الذين يلتفتونكم عن الحق إلى الباطل

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » ولماذا لم يقل خلقكم من زوجين وانتهى ؟ لأنه علم يرد الشيء إلى الشيء قد يكون لواحد من الاثنين هوى ، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط ، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة ، لأنكم مردودون إلى نفس واحدة ، أما عن نظرية « دارون » وما قاله من كلام فقد قبض الله لقضية الدين وخاصة قضية الإسلام عداء من غير المسلمين اهتموا إلى دليل يوافق القرآن ، فقام العالم الفرنسي « موبه » ، عندما أراد أن يرد على الخرافات التي يقوونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا ، وقال أنا أعجب من يفكرون هذا التفكير ، هل توجد المصادفة ما نسميه « ذكراً » ثم توجد المصادفة شخصاً نسميه « أنثى » ويكون من جنسه لكنه مختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معاً جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثاني ؟

كيف تعمل المصادفة هذه العملية ؟

مسلم أن المصادفة خلقت آدم ، فهل المصادفة أيضا خلقت له واحدة من جنسه . ولكنها تختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معاً ينشأ بينهما سيال عاطفي حار وهو أصعب العرائر ، ثم ينشأ منها تلقح يُشَيء ذكر كالأول أو أنثى . أنثى كالثاني ؟ أي مصادفة هذه ؟ هذه المصادفة تكون عاقبة وحكيمة ، سموها مصادفة ونسبها لله

لقد قلنا « موبه » - هداة الله إلى الإسلام وعمر له - أنه جاء بالدليل الذي يرد به على دارون ، نقول له إن القرن قد مر من هذه المسألة حين قال : « اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وهذه هي

العظمة ، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى ، وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التفتا معا أمسا الله منهما رجالا ونساء . إذن فهو عليه مقصود ، وعناية وعناية وحكمة ، إذن نقول الله سبحانه وتعالى : « الذى خدقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » هذه جاءت بالدليل الذى هدى إليه العالم المرسى « موبه » الأخير

« وبث منها رجالا كثيرا ونساء » وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله « وبث » أى « نشر » وسنقف عند كلمة « نشر » لأن المخلوق يجب أن يتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعا من حيرات الله فى الأرض جميعا

و « النشر » معناه نريق المشور فى الخير ، فهناك شيء مطوى وشيء آخر مشور ، والشيء المطوى فيه تجمع ، والشيء المشور فيه نريق وتوزيع ، إذن يحيز الشيء المتجمع صيق ، وحيز الشيء المشور واسع ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول : « وبث منها » أى من آدم وحواء « رجالا كثيرا ونساء » واكتفى بأن يقول « نساء » ولم يقل : كثيرات لماذا ؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة . وأنت إذا نظرت مثلا فى حقل فيه نخل ، تجد كم ذكرا من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكرا لو اثنين .

إذن الفنة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر محصب ويستطيع الذكر أن يحصب ألافا ، وهذا قال الله : « وبث منها رجالا كثيرا » فالذكورة هى العنصر الذى يفرص أن يكون أقل كثيرا ، لماذا هو العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لابد أن يكون أكثر ، والمرأى باقى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقرئه . « وبث منها » أى من آدم وحواء وهما الثان « رجالا كثيرا ونساء » . فكون جمعا وهذا ليدللك على أن المتكلم يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة .

ونريد أن نفهم هذه كى نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق ، فهو « بث منها رجالا كثيرا ونساء » واجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبت منه أكثر . . وبعد ذلك يبت من المشور اثنان مشورا ثالثا ، وكلما استدنا فى البث تنشأ

كثرة ، وعندما ننظر لأي بلد من البلاد نجد تعدادة منذ قرن مضى أقل بكثير جدا من تعدده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومن قريب كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل ، ومن عشرين قرناً كان أقل ، إذن فكلما أنت بك المستقبل فالتعداد يريد ، لأنه سبحانه يست من الذكورة والأنوثة رجلاً كثيراً ونساءً وسيث منهم أيضاً عدداً أكبر

إذن فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة في السكان ، ونحن نرى ذلك في الأسرة الواحدة ، في الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم ، وبعد ذلك يمكن أن تولى منها أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله في عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد إذن كلما تقدم الزمن بالتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضي يقل ، فابدين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قورين ، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء .

فعدما يقول الحق إنه خلق آدم وحواء ، وتحول أنت أن تسلسل العالم كله سترجعه ههنا ، ومادام التكاثر يشأ من الاثنين ، فمن أين جاء ؟ الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء . وكان من الضروري أن يأتي هذه الآية كي نحمل لنا اللعز في الإحصاء ، وكلما أتى الزمن المستصل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضي قل التعداد إلى أن يصير وينتهي إلى اثنين ، وإياك أن تقول إلى واحد ، لأن واحداً لا يأتي منه تكاثر ، فالتكاثر يأتي من اثنين ومن أين جاء الاثنين ؟ لابد أن أحدا خلقها ، وهو قادر على هذا ، ويعلمها الله ذلك فيقول : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً ، ونأخذ من حيث نريد ، وننشر ما نريد ، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتضيع في حيرة وتقول : تسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين ، والاثنان هذان كيف جاء ؟ - إذن لابد أن يؤمن بأن أحدا قد أوجدهما من غير شيء »

« وبث منها رجالاً كثيراً » لأن انشر في الأرض يجب أن يكون خاصا بالرجل ، والحق يقول .

﴿ فَأَنْشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَبْنُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة النمل)

والحق يقول :

﴿ فَأَنْشِرُوا فِي مَآكِبِهِمْ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة النمل)

والأنثى تمس في بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك في هذا الكون ، وهي بذلك تؤدي مهمتها

ويعلم قل : « اتقوا ربكم » يقول « اتقوا الله » لقد قدم الدليل أولاً على أنه إله قادر ، وحقيقكم من عدم وأمدكم وسحر العالم لخدمتكم ، وقدم دليل البت في الكون المشهور الذي يوضح أنه إله ، فلا بد أن تندعوا تعليباته ، ويكون معبوداً منكم ، أي مطعاً ، والعبادة تتطلب منهجاً : اعمل ولا تفعل ، وأمر الحق القرآن كمنهج حاتم ، ويقول : « واتقوا الله الذي تاءلون به »

انظر إلى « القمصة » ، للمخلق الواحد ، إنه - سبحانه - بعد أن أحدهم بما يتعاملون ويرحمون ويتعاطفون به أوضح لهم أنتم مع أنكم كسم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التي تتعاملون عنها يعرف بالله كمحالي لكم .

وانت إذا أردت إتمام أمر من الأمور ، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً ، تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك ، لقد أخذ منهم الدليل ، فكونك تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك فلا بد أنك سألته بمعظم ، إذن فتعظيم الله أمر فطري في البشر ، والعظموس هو المنهج الذي يقول : اعمل ولا تفعل . والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهر ، ويطلب حاجة همه من آخر ، فهو يقول له : سألتك بالله أن تفعل كذا . ومادام قد قال : سألتك بالله فكان هناك قصة فطرية مشتركة هي أن الله هو الحق ، وأنه هو الذي يُسأل به ، ومادام قد سئل بالله فلن يجيب رجاء من سأله

إنه في الأمور التي تريدون بها تحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسالون أيضاً بالآرام

وتقوون بحق الرحم الذى بيني وبينك ، أنا من أهلك ، وأما قريبك وأنا واحدة ، أرجوك أن تحق لي هذا الأمر . ولماذا جاءت « الأرحام » هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام لهم يعملون المسئولية من الفرد على الفرد طائفة في العكس ، فهذه أنا وأنت من رحم واحد ، ليحب أن تقص لي هذا الشيء . إذن فمرة سألتون بالله الذى خلق ، ومرة سألتون بالأرحام لأن الرحم هو السبب المباشر في الوجود المادي ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

لقد جاء لنا بالوالدين الذين هما السبب في إيجادنا ، والله يريد من كل منا أن يبر والديه ، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذى أوجدهما ، وأن يصعد الأمر قليلا ليعرف أن الذى أوجدهما هو الله سبحانه

ويحتم الحق الآية بقوله : « إن الله كان عليكم رقيب » ، لأن كلمة « اتقوا » تعنى اجعل بيت بيني وبين عصب ربك وقاية بإتباع أوامر الطاعة ، واجتناب ما هيى الله عنه . إن الله كان عليكم رقيباً ، والرقيب من « رقب » إذا نظر ويقال « مرقب » ، ويعد مثل هذا المرقب في المنطقة التي تحتاج إلى حراسه ، حيث يوجد « كشك » مبنى فوق السور ليحرس فيه الخارس كي يراقب . ومكان الحراسة يكون أعلى داتها من لمنطقة المحروسة ، وكلمة « رقيب » تعنى مائلاً عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانا أى ينظره ، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقباً ، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول : « إن الله كان عليكم رقيباً » . فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً . والله المثل الأعلى .

نحن نحمد الإنسان قد يبصر مالا غاية له في إصابته ، فهو يمر على كثير من الأشياء ويبصرها ، لكنه لا يراقب إلا من كان في بابه . والحق سبحانه رقيب علينا جميعاً كما في قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

(سورة الفجر)

وبعد أن تكلم سبحانه عن خلق آدم وأمه وأنه ثلث منها رجالاً كثيراً وساء ، أراد أن يعمى هذه المسألة وأن يعمى الميثوث والميثوث قسمان قسم اكتسبت له القوة وأصبحت له صلاحية في أن يحقق أمره النفعية بدائه ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية في أن يقوم بأمر ذاته ، ولأنه سبحانه يريد تنظيم المجتمع ، لذلك لابد أن ينظر القادرون في المجتمع إلى القسم الضعيف في المجتمع ، ومن القسم الضعيف الذي يتكلم الله عنه هنا ؟ إنهم الهامى ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه حينما خلقنا من ذكر وأنثى ، آدم وحواء ، جعل لنا أطواراً طفولية ، فالأب يكذب والأم تحب ، ويريدان الإنسان التربية التي تتبع من الختان الدائى ونعرف أن الحنان الدائى والحافظة يوجدان في قلب الأبوين على مقدار حاجة الابن إليهما ، الصغير عادة يأخذ من حنان الأب والأم أكثر من الكبير ، وهذه عدالة في التوزيع ، لأنك إذا نظرت إلى الولد الصغير والولد الكبير والولد الأكبر ، نجد الأكبر أعطاهم زمناً مع أبيه وأمه والصغير أعطاهم زمناً ، ف يريد الحق أن يعرض الصغير فيعطى الأب والأم شحنة زائلة من العاطفة تجاهه ، وأيضاً فإن الكبير قد يستعصى والصغير عازل في حاجة ، ولذلك قال سبحانه في أخوة يوسف :

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُيَسِّفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْتَاتٍ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

أى أنهم أقرباء وظنوا أنه كان يجب على أبيهم أن يحب الأقرباء وهذا الضن دليل على أن الأب كان يعلم أنهم عصبة لذلك كان قلبه مع غير العصبة ، وهذا هو الأمر الطبيعي ، فهم جاءوا بالليل الذي هو ضلهم .

إذن فحين يوجد الشيء الذي يحتاج إلى أن يُربى لتربية التي يعين عليها الحنان والعطف ، فلا بد أن نأى لليتيم الذي فقد مصدر الحنان الأساسى ونقص له ، ويأتى الحق سبحانه وتعالى ليوزع المجتمع الإنسانى قطاعات ، ويجعل كل واحد القطع المباشر ، وإذا حل كل واحد من القطاعات المباشر له تتداخل الميائات في القطاعات ، هذا سيذهب لأبيه وأمه ولأولاد أخيه ، وهذا كذلك ، فتجتمع الدوائر . وبعد ذلك يعيش المجتمع كله في تكامل ، وهو سبحانه يريد أن يجعل وسائل الحنان ذاتية في كل نفس ، وما دام اليتيم يقيم معاً كفرد فلا بد من العناية به .

إن اليتيم هرد فقد العائل له ولذلك يقولون : « نره يتيمة » أى وحيدة فريدة ، وهكذا اليتيم وحيد فريد ، إلا أنهم جاءوا فى لإنسان وفى الأنعام وفى الطير وقالوا اليتيم فى الإنسان من فقد أباه ، واليتيم فى الأنعام من فقد أمه ، لماذا ؟ لأن الأنعام طلوقة تلقح الذكور فيها الإناث وتنهى . ولأم هى التى تربى وترضع ، فإذا جاء أحد آخر يحسها تنصر منه

أما اليتيم فى الطير من فقد أمه ، فالطير عادة الروح منها يألف الآخر ؛ ولذلك يتخذون عشا ويشاويان العاية بالبيض ويعملان مما فيه حياة أسرية ، والحق سبحانه وتعالى جاء فى اليتيم الذى هو مظهر لصصف فى الأسوة الإنسانية وأراد أن يقن له فقال :

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّكُمْ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

وكيف نؤق اليتيم ماله وهو لم يبيع مبلغ الرجل بعد ، ونخشى أن نعطيه الما ، فيضيعه ؟

انظر إلى دقة العبارة فى قوله من بعد ذلك :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ أَنتُمْ مِنْهُمْ رُشَدًا فَأَدْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وقبل ذلك ماذا فعل ؟ هل مدفع لهم لأموال ؟ الحق يوضح أنك ساعة تكون وليا على مال ليتيم فاحرص جيدا أن نعطي هذ اليتيم ماله كاملا بعد أن يستكمل نصجه

كاملا ، فانت حميظ على هذا المال ، وذاك أن تحمط مالك بماله أو تتبدل منه ، أى تأخذ الحميل والتمير من عنده وتعطيه من مالك الأهل حمالا أو فائدة .

إذن فقوله « وآتوا اليتامى أموالهم » أى أن الله جعل المال لليتيم ولم يجعل للفقير عليه أن يتصرف في هذا المال إلا تصرف صيانة ، وأيضا هنا ملحظ آخر هو ما شرحه لنا « وآتوا اليتامى » فهناك أمانس يريدون أن يعطوا أمد الوصاية على التيم ، لكن يستفح الواحد منهم هذا المال فيوضح سبحانه لا تنتظر إلى أن يبلغ الرشد ثم تقول نظره ، لا أنت تدبره بالتجربة في بعض التصرفات ونظر أسبحسن التصرف أم ؟

إن قول الحق . « وآتوا اليتامى » أى اختروهم ، هل يستطيعون أن يقوموا بمصالحهم وحدهم ؟ فإن استطعوا فاطمنوا إلى أنهم ساعة يصلون إلى حد الحنم سيحسنون التصرف ، أعطوهم أموالهم بعد التجربة ؛ لأن اليتيم يعيش في قصور عمرى ، وهو سبحانه يفرق بين ليتيم والسفيه ، فالسفيه لا يمانى من قصور عمرى بل من قصور عقل ، وهذا تكلم سبحانه عن هذه المسألة قال .

﴿ وَلَا تَوَرَّوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

هل هي أموالكم ؟ لا فحين يكون المرء سفيها فاعلم أنه لا إدارة له عن ملكه ، وتنتقل إدارة الملكية إلى من يتصرف في المال تصرفا حكيب ، فاحرص على أن تدير مال السفيه كأنه مالك ؛ لأنه ليس له قدرة على حسن التصرف لكن لما بلغ اليتيم إلى مرحلة البامة والنكاح والرشد يقول الحق .

﴿ فَأَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه سبحانه يقول مرة في الوصاية « أموالكم » وفي العطاء يقول « أموالهم » إذن فهو يريد ألا تبدد المال ، ثم يوضح احرص على ثروة اليتيم أو السفيه وكأها مالك ؛ لأنه مادام سفيها فمستوليها الولاية مطلوبة منك ، وإذناك ليس منكك لك حد منه ما يقاض إدارة المال وقت السفه أو اليتيم ، وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه

وتعالى ليعلم القاعين على أمر اليتيم أو على أمر أسفه، الذين لا يحسنون إداره
أموالهم فيقول

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

احملوا الزُّرْقَ مما يخرج منها ، وإياكم أن تنفروا عندكم ، وإلا فما قيمة ولايتك
روصيتك وقيامك على أمر السفه أو اليتيم ؟ إنك تشتر له المال لا أن تأكله أو
لا تحسن التصرف فيه بحيث ينقص كل يوم ، لا «أرزقوهم فيها» ، وفي «ها»
للسمية ، أي أرزقوهم بسببها ، أرزقوهم رزقا خارجا منها

«وأتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب» والخبيث هو الحرام والطيب
هو الحلال ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، فقد يكون ضمن مال اليتيم شيء حيل ،
فيأخذه الوصي نفسه ويستبدله بمثل له قبيح ، مثال ذلك ، أن يكون ضمن مال
اليتيم عرس حيل ، وعند الوصي عرس فيبيع فيأخذه ويقول عرس بفرس ، أو
جاموسة مكان جاموسة ، أو بحلة عليه بنحلة لا ثمر ، ها بهول الحق .
«ولا تشدوا الخبيث بالطيب»

وقوله سبحانه وتعالى «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» يعني إياكم ألا تجعلوا عرف
بين أموالهم وأموالكم فأكلو هذه مع تلك ، بل عرفوا بين أكل أموالكم وحفاظ على
أموالهم ماذا ؟ تأتي الإجابة «إن كان حوبا كبيرا» أي شيء عظيما

ثم ينتقل الحق إلى قضية أخرى يجتمع فيها ضعف اليتيم ، وضعف النوع :
ضعف اليتيم سواء أكان ذكرا أم أنثى ، وإن كانت أنثى فتهبط أشد ؛ فهي قد
جتمعت عليها ضعف اليتيم وضعف النوع . طبعها فاليتيمة عندما تكون تحت وصية
وليها ، يجوز أن يقول إنها تملك مالا فليأدا لا أتزوجها لكني أحد المذل ؟ وهذا
يحدث كثيرا

ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مِائَاتَ بَابٍ
لَّكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلِي وَتِلْكَ وَرِيعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا
فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَتَىٰ الْأَتَّعُولُوا﴾

ها يؤكد الحق الأمر بأن ابتعدوا عن اليتامى ، فاليتيم مظن أن يُظلم بصعفه ، وبحاجة إذا كان أنثى ، إن الظلم بعامة محرم في غير اليتامى ، ولكن الظلم مع الصميمة كبر ، فهي لا تقدر أن تدفع عن نفسها ، فالبالغة الرشيدة من النساء قد تستطيع أن تدفع الظلم عن نفسها وقوله الحق . « وإن خفتم ألا تقسطوا ، من « أقسط » ، أى عدل ، والقسط من الألفاظ التى تحتلظ الأذهان فيها ، و« القسط » مرة بطلق ويراد به « العدل » ، إذا كان مكسور القاف ، ولذلك يأتى الحق سبحانه فيقول :

﴿ثُمَّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَأَتُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا يعرف أن كلمة « قسط » تأتى مرة للعدل ومرة للجور .

ف« قسط » ، « يَـقْـسِـطُ » ، « قَـسْـطًا » ، و« قُـسْـوْطًا » ، أى ظلم بفتح القاف في « قَـسِـطُ » ، وضمها في « قُـسْـوْطُ » .

والقسط بكسر القاف هو العدل ، والقسط بفتح القاف - كما قلنا - هو الظلم وهناك مصدر ثابى هو « قسوط » لكن الفعل واحد ، وعندما يقول الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا ، من أقسط » أى خفتم من عدم العدل وهو لظلم . وهناك في اللغة ما سمي به همة الإزالة ، وهى همة تدخل على الفعل فزيله ، مثال ذلك . فلان عتب على فلان ، أى لامة على تصرف ما ، ويقال لمن تلقى العتاب عندما يرد

على صاحب العتاب : اعتهبه ، أى طمأن خاطره وأزال مصدر العتاب

ويقال : محمد عتب على عليّ فهذا كان موقف عليّ ؟ يقال : اعتب محمدًا أى طيب خاطره وأزال العتاب . ويقال أعجم الكتاب فلا تفهم من ذلك أنه جعل الكتاب معجماً ، لا ، فأعجمه أى أزال إبهامه وعرضه كذلك « أقسط » أى أزال القسط والظلم إذن « القسط » هو العدل من أول الأمر ، لكن « أقسط » إقسطاً ، تعنى أنه كان هناك جور أو ظلم وتم رفعه . والأمر ينتهى جميعه إلى العدل . فالعدل إن جاء ابتداء هو : قسط بكسر القاف . وإن جاء بعد جور تحت إزالته فهو إقسط . فحين يقال « أقسط » وه نقسطوه « بالصم ، بمعناه أنه كان هناك جور وظلم تم رفعه ، وبذلك فعندما نقرأ القرآن نجد يقول :

﴿ وَمَا أَقْسَطُونَ لَكَأَنوَاجِهِمْ حَطَبًا ﴾ (١٥)

(سورة احقر)

والقاسطون هـا من اقسط - بالفتح - ومن القسوط بالصم ، أى من الحور والظلم ، وسجد القرآن الكريم يقول أيضا :

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ مَاخُكُم بَيْنَهُمْ يَأْتِئِطْ إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْمُتَّقِينَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المائدة)

أى أن الله يحب الذين إن رأوا ظلماً أزالوه وأحلوا محله العدل

الحق هنا فى سورة النساء يقول : « وإن جعلتم ألا تقسطوا فى الدين » أى إن جعلتم ألا ترفعوا الظلم عن الدين ، ومعنى أن تخاف من ألا تقسط لا أنك بار نعرف كيف نقدر نفسك من مواطن الرلل . أى فإن خفتهم أيها المؤمنون ألا ترفعوا الحور عن الدين فابعدوا عنهم وليس كل مؤمن هذه اللريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يحور على البيمة فيظلمها . وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير الدين الكثير من الساء

ومدامت الساء كثيرات فالتعدد يصح وارداً ، فهو لم يقل : أترك واحدة وحده

وقوله الحق : « ما طلب لكم من النساء ، أى عبر المحرمات في قوله تعالى

(سورة الباء)

وقی قوله سبحانه

(سورة النساء)

إِذْ قَالَتْ لَكُمْ مِنْ أَنْسَاءٍ غَيْرَ الْمُحَرَّمَاتِ هُنَّ اللَّائِي يَحْسِنُ لِلرَّجُلِ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ
مِنَ السَّاءِ مِثْقَى وِثْلٍ وَرِمَاءٍ إِذْ يُخَفِّمُ إِلَّا تَعَدَّلُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

أيماكم ذلك أدنى ألا تعولوا ، وهذا يجب أن يفهم لماذا جاء هذا النص : ولماذا جاء بالمشي والثلث والرابع ها ؟

إنه سبحانه يريد أن يرشد الناس في نكاح لينبيها مخافة أن تاق إلى الرجل خصة صعب فيزوج اليتيمة ظالماً ها . فأوضح سبحانه أن ترك اليتيمة ، والسوء غيرها كثير ، فأماكث مشي وثلث ورباع ، وأبعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعاً في ماها أو ناظراً إلى صعبها أو لاسها لم يعد ها ولي يقوم على شأها عيرك .

ويريد أن ينفذ هنا وقد أمام قوله تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مشي وثلث ورباع ما معنى مشي ؟ يقال : مشي : أي اثنين مكررة ، كأن يقال : جاء اليوم مشي ، أي ساروا في طيور وصعب مكون من اثنين اثنين . هذا يدل على الوحدة الخاتمة .

ويقال : جاء القوم ثلاث ، أي ساروا في طيور مكون من ثلاثة ، ثلاثة ويقال : جاء القوم رباع ، أي جاء القوم في طيور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى

ولو قال واحد : إن المقصود بالمشي والثلث والرابع أن يكون المسموح به تسعة من النساء نقول له : لو حبسنا بمثل ما تحسب ، لكان الأمر شاملاً لغير ما قصد الله ، فالمشي تعني أربعة ، والثلث تعني ستة ، والرابع تعني ثمانية . وبذلك يكون العدد ثمانية عشر ، ولكنك لم تفهم ، لأن الله لا يحاطب واحداً ، لكن الله يخاطب جماعة ، فيقول : وإن حفظتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مشي وثلث ورباع ،

إذا قال مدرس لتلاميذه : افتحوا كتبكم ، أي هذا الأمر أن يأتي واحد لفتح كل الكتب ؟ لا ، إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه ، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تفتحي القصة آحاداً

وعندما يقول المدرس : أخرجوا أقلامكم أي على كل تلميذ أن يخرج قلمه

وعندما يقال اركبوا سياراتكم ، أى أن يركب كل واحد سيارته إذن فمقدمة الجمع بالجمع تقتضى انقصة أحداً ، وقوله الحق : فاكبحوا ما طاب لكم من النساء منى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ، هو قول بحطب جماعة ، فواحد ينكح اثنتين وآخر ينكح ثلاث نساء ، وثالث ينكح أربع نساء

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرعه مرة إيجاباً ومرة بشرعه إباحة ، فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل ، ولكنه أباح للرجل ذلك ، وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة . والرواج نفسه حق من واحدة مباح إذن ففيه فرق بين أن يملك الله أن يفعل وأن يبيع لك أن تفعل . وحين يبيع الله لك أن تفعل ، ما المرحح في فعلك ؟ إنه مجرد دعبتك .

ولكن إذا أحدث الحكم ، فحدد الحكم من كل حوبه ، فلا تأخذ الحكم ، بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة ، وإلا سينشأ الفساد فى الأرض ، وأول هذا الفساد أن يشكك الناس في حكم الله . لماذا ؟ لأنك إن أحدث التعدد ، وامسعت عن العدالة فأنت تكون قد أحدثت شقا من الحكم ، ولم تأخذ الشئ الآخر وهو العدل ، فالناس تجمع أمام التعدد وتتمدد وتقبل عنه لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيراً بالتعدد أخذوا لحكم الله في التعدد وتركوا لحكم الله في العدالة .

والمبجع الإلهى يجب أن يؤخذ كله ، فلماذا نكروه الزوجة التعدد ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة التفت بكلية وبحيرة ويسمته وحنانه إلى الزوجة الجديدة ، لذلك فلا بد للمرأة أن نكروه رواج الرجل عليها بامرأة أخرى

إن الذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضاً في العدالة ، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله ، وسيجد الناس حثيات هذا التمرد ، وسيفال انظر ، إن فلاناً تزوج بأخرى وأهمل الأولى ، أو ترك أولاده دون رعاية والمجه إلى الزوجة الجديدة .

فكيف تأخذ إباحة الله في شيء ولا تأخذ إلزامه في شيء آخر ، إن من يفعل ذلك

يشكك لناس في حكم الله ، ويجعل الناس تنمرد على حكم الله - والسطحيون في الفهم يقولون : إهم معذرون ، وهذا مطلق لا يتأق

، آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئى دون مراعاة الظروف كلها ، والذي يأخذ حكما عن الله لا بد أن يأخذ كل منهج الله .

هاب إنساناً عدل فى العشرة وفى البففة وفى البيتوة وفى المكان وفى الرمان ولم يرجع واحدة على أخرى ، فالروجة الأولى إن فعلت شيئاً فهو لن نجد حنية لها أمام الناس . أما صلح يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف نجد الحشية بلاعتراف ، والصراخ الذى نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضاً قد أخذ حكم الله فى إباحة التعدد ولم يأخذ حكم الله فى عدالة المعدد . والعدالة تكون فى الأمور التى للرجل فيها حيار . أما الأمور التى لا حيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها .

ومن السطحيين من يقول إن الله قال : اعدلوا ، ثم حكم لنا لا نستطيع أن نعدل . نقول لهم بالله أهذا تشريع ؟ ، أيعطى الله باليمين ويسحب بالشمال ؟ ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال :

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۚ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ

فَتَدْرُوهُمَا كَالْعِصْوَاقِ ۚ وَإِنْ فَضِلْتُمْ عَلَيْهِنَّ وَتَقَوَّيْتُمْ اللَّهَ كَانَتْ غَيْرَ رَحِيمًا ۝٢١﴾

(سورة النساء)

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة فى العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم ولم يلغ ، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له فى حركة حياته عصير بمعنى أنه يأخذ حكماً فى صالحه ويترك حكماً إن كان عليه . فالمهيج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس ، لأن أى انحراف فى مرد من أراء الأمة الإسلامية يصيب المجموع بصر . فكل حق لك هو واجب عند غيرك ، فإن أردت أن تأخذ حقك فاذ واجبك . والذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضاً فى العدل ، رالا أعطوا خصوم دين الله حججاً قوية فى إبطال ما شرع الله ، وتغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر .



والعدل المراد في التمدد هو القسمة بالسوية في المكان ، أي أن لكل وحدة من المتعددات مكاناً مساوياً مكان الأخرى ، وفي الزمان ، وفي متاع المكان ، وفيه يخص الرجل من متاع نفسه ، وليس له أن يحمل شيئاً له قيمة عند واحدة ، شيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى ، يأتي مثلاً بيعة « سامية » صُوف ويضعها عند واحدة ، ويأتي بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عن واحدة ، لا لابد من المساواة ، لا في متاعها فقط ، بل متاعك أنت الذي تتمتع به عندها ، حتى أن بعض المسلمين الأرائل كان يثوي بينهم في العمل التي يلبسها في بيته ، فيأتى به من لون واحد وشكل واحد وصف واحد ، وذلك حتى لا تُلِدَ واحدة عنهم على الأخرى قائلة : إن روجي يكون عندي أحسن عندما منه عندك والعدالة المصنوعة - أيضاً - هي العدالة فيما يدخل في اختيارك ، لأن العدالة التي لا تدخل في اختيارك لا يكلف الله بها ، فأنت عدلت في المكان ، وفي الزمان ، وفي المتاع لكل واحدة ، وفي المتاع لك عند كل واحدة ، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل عميل طبعك وحب نفسك ؛ لأن ذلك ليس في مكنتك .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطيا هذا فيقول : عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب) .
إذن فهذا معنى قول الحق :

﴿ وَلَنْ نَسْتَطِيعُوا أَنْ نَعْدِلَ بَيْنَ الْبَنَاتِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

لأن هناك أشياء لا تدخل في قدرتك ، ولا تدخل في اختيارك ، كأن ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى ، أو ترتاح حنسياً عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى ، لكن الأمر الظاهر للجميع يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تُلِدَ واحدة عن واحدة . وإذا كان هذا في النساء المتعددات - وهن عوارض - حيث من الممكن أن يخرج ارجل عن أي امرأة - بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه ؟ لابد أيضاً من العدالة .

والذى يفسد جو الحكم المهجى لله أن أناساً يجنون رجلاً عتد ، فأخذ إباحه الله في التعدد ، ثم لم يعدل ، فوجدوا ألباءه من واحدة مهملين مشردين ، فباحذون من ذلك حجة على الإسلام ، والذين حاولوا أن يفعلوا ما فعلوا في قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك ، النباين الشديد الذى يحذنه بعض الأباء المحققى نتيجة تفصيل ألباء وحدة على أخرى في الماكل والملس والتعليم !

إنن عالمسلم هو الذى يهجر دينه ويعرضه للشد والليل من أعدائه له فكل إنسان مسلم على شجرة من ثمرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أى انحراف أو شعط ، لأن كل مسلم بهركته وبصرفه يقف على شجرة من منيح الله ، ولا تظنوا أن الثمرات فقط هى الشئ الذى يدخل مع أعداء الله على الأرض كالشعور ، لا ، الشجرة هى العجوة حتى في القيم يدخل منها خصم الإسلام لئلا من الإسلام

إنك إذا ما تصرفت تصرفاً لا يتيق فأت فتحت ثغرة لخصوم الله . فسد كل ثغرة من هذه الثغرات ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توسع في العدل بين الزوجات توسعاً لم يقف به عد قدرته ، وإن وقف به عد اختياره ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين موص كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر في بيت واحدة من نسائه ، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه في أيامهن فأخذ قدرة العير . وكان إذا سافر يقرع يمينه ، هذه هى العدالة

وحين توحد مثل هذه العدالة يشيع في الناس أن الله لا يشرع إلا حقاً ، ولا يشرع إلا صدقاً ، ولا يشرع إلا خيراً ، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله ، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله ، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستعانة فليعلم نفسه بواحدة . ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بروحة واحدة ، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة ؟ لا ، فلا يصح ولا يستقيم ولا يحسن أن يحمل الرجل زوجته . ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن زوجها لا يأتي إليها وهى واحدة وليس ما غيرها ، فكان عنده أحد الصحابة ، فقال له : أفتها « أى أعطها الفتى » .

قال الصحابي لك عدة أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال .

فذلك أن الصحابي فرض أن لها شريكتان ثلاثا ، فهي تستحق الليلة الرابعة .
وصر عمر - رضي الله عنه - من الصحابي ، لأنه عرف كيف يفتي حتى في أمر المرأة
الواحدة

إذن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

أي لا تطوا أن المطلوب منكم تكديماً هو العدالة حتى في ميل لقلب وجهه ، لا
إنما العدالة في الأمر الاختياري ، وما دام الأمر قد خرج عن طاعة النفس وقدرتها فقد
قال - سبحانه - : «فلا تميلوا كل الميل» . ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا
المخروج عن منهج الله فيقولوا : «المنطق هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع
العدل» .

ولمؤلاء نقول : هل يعطى ربا باليمين ويأخذ بالشمال ؟ فكأنه يقول : اعدلوا وأنا
أعلم أنكم لن تعدلوا ؟ فكيف يتأتى لكم مثل هذا المهم ؟ إن الحق حوى قال :
«ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» أي لا يتعدى العدل ما لا تكون
من الهوى والميل ، لأن ذلك ليس في إمكانكم ، ولذلك قال : «فلا تميلوا كل
الميل» .

نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله ،
ويقولون كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلّسوا على منهج الله ، وهذه المسألة من
الساكن التي تتعرض للأسرة ، وبها الرجل فصب أن رجلاً ليس له ميل إلى
زوجته ، فإذا يكون الموقف ؟ أم الأحسن أن يظنّها ويسرحها ، أم تظنّ عنده
ويأتى بامرأة تستطيع نفسه أن ترقح معها ؟ أو يظنّ عرائزه في أحرام الناس ؟

إن الحق حينما شرع ، إنما شرع ديناً متكاملًا ، لا تأخذ حكمًا منه لتترك حكم
آخر .

والأحداث التي أرهقت المجتمعات غير المسلمة أبحاثهم إلى كثير من قصايا الإسلام . وأما لا أحب أن أطيل ، هناك بعض الدول تكلمت عن إبادة التعدد لا لأن الإسلام قال به ، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا ، حتى يهروا مسألة الخيالات والخيالات هي اللاتى يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن ويأتوا منهن بلقطاء ليس لهم أب .

إن من الخير أن تكون المرأة الشدية ، امرأة واضحة في المجتمع ومسألة رواح الرجل منها معروفة للجميع ، ويحمل هو عبء الأسرة كلها . ويمكن لمن يريد أن يشرح كثيراً من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير في هذا الموضوع للدكتور محمد خماسة حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها في إبادة التعدد عند هذه الآية

وهنا يجب أن نشبه إلى حقيقة وهي : أن التعدد لم يأمر به الله ، وإنما أباحه ، فالذي ترهقه هذه الحكاية لا يعدد ، فانه لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد . وأباح أمر يكون المؤمن حراً فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها ، ثم لنبحث بحثاً آخر إذا كان هناك تعدد في طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين في العدد ، فإن التعدد في واحد لا يتأتى ، والمثل هو كالآتي :

إذا دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسي فكل واحد يجلس على كرسي ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسيًا للجلوس وكرسيًا آخر ليمد عليه ساقه ، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسيًا ، فواحد من الناس يأخذ كرسيًا للجلوس وكرسيًا آخر ليستند عليه ، إذن فتعدد طرف في طرف لا ينشأ إلا من فائض . فإذا لم يكن هناك فائض ، فالتعدد - واقعاً - يمتنع ، لأن كل رجل سيتزوج امرأة واحدة وننتهي المسألة ، ولو أراد أن يعدد لزوج فلي يجد .

إذن فإباحة التعدد تعطينا أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضاً . والعناصر كما قلت معلوم ، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث . وضرراً المثل من قبل في النحل وكذلك البيض عندما يتم تعريجه ؛ فإننا نجد عدداً

قليلاً من الديوك والبقية إناث . إذن فالإناث في البيت وفي الحيوان وفي كل شيء أكثر من الذكور .

وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور ، ثم أخذ كل ذكر مقابله مما يصير الأعداد التي نفيض وتزيد من الإناث ؟ إما أن نعب الرائحة فتكت غرائزها ونحط ، ونفس في كثير من تصرفاتها بالنسبة للرجل وللصبيط بالرجل ، وإما أن نتعلق ، نتعلق مع من ؟ إنها تتعلق مع متزوج . وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تصد .

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتصاص العائض من النساء ، ولكن بشرط العدالة . ونحن يقول الحق : « إن حتمت ألا تعدلوا فواحدة » أي إن لم يستطع العدل الاختياري فيلزم الإنسان واحدة .

وبعد ذلك يقول الحق : « أو ما ملكت أيمانكم » .

وهناك من يقف عند « ما ملكت أيمانكم » ويتحادل ، ويطمش هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ويقول : لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين ، لأن المسلمين الآن في خنوع ، وقد اجترأ عليهم الكفار ، وصاروا يفتطعون دولاً من دولهم . وبهت المسلمون ليقتلوا حياة أرض إسلامية . ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار ، بحيث يكون فيه أسرى ، وملك اليمين .

ولكننا ندفع عنه أيام كان هناك ملك يمين . ولتر المعنى الباصح حين يبيع الله متعة السيد بما ملكت يمينه ، انظر إلى المعنى ، فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن يصح الرق ، ولم يأت ليبيد بالرق .

وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد . عند الإسلام مصارف تصفية الرق : فارتكاب ذنب ما يقاد للمذهب : اعتق رقعة كفارة اليمين . وكفارة ظهار فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقعة وكفارة فطر في صيام ، وكفارة قتل . . إلخ . . إذن فالإسلام يوسع مصارف العتق .

ومن يوسع مصارف العتق أريد أن يقضى عن الرق ، أم يريد أن يصفيه ويحموه ؟

وليفترض أن مؤمناً لم يذنب ، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة ، وعنده جوار ، هنا يضع الإسلام الفواعد لمعاملة الجوارى .

- إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير ، فعليك أن تطعم الجارية بما تأكل وتلبسها ما يلبس أهل بيتك ، لا تكلفها ما لا تطيق ، فإن كلفتها فأعنت . أرى فصل هذا ، بعدها بيد سيدها وسيدتها ، فما الذى ينقصها ؟ إن الذى ينقصها إرواء الخرج الغريبة ، وخاصة أنها تكون فى بيت للرجل فيه امرأة ، وتراها حين تترى لزوجها ، وتراها حين تخرج فى الصباح لتستحم ، والنساء عندهن حساسية لهذا الأمر ، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمس السيد هذه المواقف ؟ ألا تهاج فيها العرائز ؟

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تستمتع به ، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها امرأة الرجل فسمتع مثلها . ويريد الحق أيضاً أن يعق بصمة الرق ، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أمة ، ولذى تلده يكون رقيقاً ، لكن عندما تتمتع مع سيدها وثأى منه بولد ، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها ، رى ذلك ريادة فى تصفية الرق ، وى ذلك إكرام لغريبتها . لكن الحمقى يريدون أن يؤاسدوا الإسلام عن هذا !!

يقول الحق : « فإن حمتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أمائكم ذلك أدنى ألا تعدلوا ، فاعديل أو الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت اليمين ، ذلك أقرب ألا تجوروا . وبعض الناس يقول : « أدنى ألا تعدلوا » أى ألا تكثروا ذريتهم وصياهم . ونقول هم . إن كاد كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين ، وبذلك يكون لسبب فى وجود العيال قد اتسع أكثر ، وقوله : « ذلك أدنى ألا تعدلوا » أى أقرب ألا تظلموا وتجوروا ، لأن العوب فيه معنى الميل ، والعول فى الميراث أن تزيد أسهم الأنساء على الأصل ، وهذا معنى عالت المسألة ، وإذا ما أراد العدد فإن الصيب فى التوزيع ينقص

وبعد ذلك يقول الحق

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقُلُوا هِيَ مَا مَرَّ بِكُمُ﴾

والمقصود - « صدقاتهن » هو المهور ، و« النحلة » هي العطية ، وهل الصداق عطية ؟ لا إنه حق وأجر يصح ولكن الله يريد أن يوضح لنا : أى عليك إيتاء المهور للنساء نحلة ، أى وارع دين لاحكم قضاء ، والنحلة هي العطية

واسطر إلى النساء الإلهية والأداء الإلهي للمعاني ، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآي .

الرجل يتزوج المرأة ، وللرجل في المرأة متعة ، وللمرأة أيضا متعة أى أن كلاً منهما له متعة وشركة في ذلك ، وفي رغبة الإيجاب ، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئاً ، لأنها ستستمتع وأيضاً قد تجد ولداً لها ، وهي ستعمل في المنزل والرجل سيبذل خارج البيت ، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء « وأتوا النساء صدقاتهن نحلة » والأمر في « أتوا » لمن ؟ إما أن يكون للزوج فقوله . « وأتوا النساء صدقاتهن » يدل على أن المرأة صدرت زوجة الرجل ، وصار الرجل ملزماً بالصدقات ومن الممكن أن يكون ديناً إذا تزوجها بمهر في ذمته يؤديه لها عند يساره ، وإما أن يكون الأمر لولي أمرها فالذي كان يزوجه أخته مثلاً ، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها ، والأمر في هذه الآية - إذن - إما أن يكون للأرواح وإما أن يكون للأولياء . وحين يُشرع الحق لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأرباب الفضل .

لذلك يقول : « فإن طيب لكم من شيء منه نفساً فكلوه هيباً مريباً »

لقد عُرف الحق الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج لولي أمره أن مهر لزوجته لها لأنه أجر النصح . ولكنه سبحانه فتح باب أربحية المصالح فإن تدرلت الزوجه فهذا أمر آخر ، وهذا ادعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما . والمراد هنا هو طيب

العسل ، وإياك أن تأخذ شيئاً من مهر الزوجة التي تحت ولايتك بسبب خيائ ،
 هلهم أن يكون الأمر عن طيب نفس . « فإن طيب لكم عن شيء منه نفساً فكلوه
 هيئاً مريئاً » . وطيب هو الشيء لماكول ونسيجه حين يدخل فمك لكك قد
 تأكل شيئاً هيئاً في اللذة وفي المصغ وفي الأكل ولكنه يورث متعة صحية . إنه
 هيء . لكنه غير مريء . والمقصود هو أن يكون طيب بلظعم وليس له عواقب
 صحية رديئة . وهو يختلف عن الطعام اهنيء غير المريء الذي يأكله الإنسان فيطلب
 من بعده العلاج

إذن فكل أكل يكون هيئاً ليس من الضروري أن يكون مريئاً . وعليها أن تلاحظ
 في الأكل أن يكون هيئاً مريئاً

والإمام علي - رضوان الله عليه وكرم وجهه - جاء له رجل يشتكى وجعاً ، والإمام
 عن - كما يعرف - مدينة العلم والعتيا ، وهبه الله مقدرة على إبداء الرأي ولقترى

لم يكن للإمام علي طيباً . . لكن الرجل كان يطلب علاجاً من فهم الإمام علي
 وإشفاقه .

قال الإمام علي للرجل : خذ من صديق امرأتك درهمين واشتر بها عسلأ ، وأدب
 العسل في ماء مطر نارل لساعته - أي قريب عهد بالله - وأشرمه فزى سمعت الله يقول
 في إماء ينزل من السماء

﴿ وَزَلَّنا مِنْ السَّماواتِ ماءً مُبَرَّكا ﴾

(من الآية ٩ سورة ق)

وسمعت سبحانه وتعالى يقول في العسل

﴿ فِيهِ شِفاءٌ لِّلناسِ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

وسمعت يقول في مهر الزوجة :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

فإذا اجتمع في دواء البركة والشفاء المني والمريء عاصك الله ، إن شاء الله . لقد أخذ الإمام عليّ - رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه - عناصر أربعة ليبرجها ويصنع منها دواءً ناجعاً ، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صاغ الإمام عليّ علاجاً من آيات القرآن

وبعد ذلك ينتقل الحن إلى قصايا البناني والسفهاء والمال والوصاية والقوامة ، ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٥ ﴾

ومن هو السفهاء ؟ إنه الذي لا صلاح له في عقل ولا يستطيع أن يصرف ماله بالحكمة . ومن الذي يعطى ماله إلى سفيه ؟ إن الحق يقول ذلك ليعلمنا كيفية التصرف في المال - ومثال على ذلك بقول الحق .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

هل أحد منا يلعب نفسه ؟ لا ، ولكن الإنسان يلعب شخصه ، ولما الخصم يؤدي إلى لمر النفس لأن خصمه سيلعبه ويعيه أو لأنكها سواء . إذن فقول الحق . « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم » يعني أن الله يريد أن يقول : إن السفيه يهدك المال ، إلا أن سفيهه يمنع من أن يحسن التصرف . وعدم التصرف الحكيم يذهب بالمال ويفسده ، وحين يكون سفيهاً فمالك ليس له - تصرفاً وإدارة - ولكن المال لمن يصلحه بالقوامة .

أو أن الحق سبحانه وتعالى يبالغ قضية كان لها وجود في المجتمع وهي أن الرجل إذا ما كان له أبناء ، وكبروا قليلا ، فهو يحب أن يتملص من حركة الحياة ، ويعطى لهم حق التصرف في المال وإن كان تصرفهم لا يتفق مع الحكمة ، فكأنه قال سبحانه « لا ، إياك أن تعطى أموالك للسفهاء بدعوى أنهم أولادك . وإياك أن تملك أولادك ما وهبه الله لك من رزقك ، لأن الله جعل من مالك قياماً لك ، وإياك أن تجعل قيامك أنت في يد غيرك .

« ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها ، وهل السفية لا يعيش ؟ وهل يأكل السفية دون أكل الرشيد ؟ أينس السفية دون لس الرشيد ؟ أينس السفية دون مسكن الرشيد ؟ أينس الإنسان في وجه الرشيد ولا ينس في وجه السفية ؟ لا ، لذلك يأمر الحق ويقول . « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ، ذلك أمر بحسن معاملة السفية ، وإياكم أن تعيروهم بسفهم ، ويكفيهم ما هم فيه من سوء .

ويرجع الحق من بعد ذلك إلى أيتامى :

﴿ وَإِنلُوا إِلَيْنَى حَقَّ إِذْ أَبْلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنِ أَفْسَمْتُمْ
مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا
وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِفِفْ وَمَن
كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ٦ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى يأمر في التعامل مع اليتامى بأن يبدأ الولي في احتياذ اليتيم

وتدريته على إدارة أمواله من قبل الرشد ، أى لا تنتظر وقت أن يصل اليتم إلى حد البلوغ ثم تبليه بعد ذلك ، فقبل أن يبلغ الرشد ، لا بد أن تجربته في مسائل جرئية فإذا تيسر واتضح لك اعتدائه منه وحسن تصرفه في ماله ، لحظتها نجد الحكم جاهز ، فلا نضطر إلى تأخير إنشاء الأموال إلى أن تبليه في رشده . بل عليك أن تختبره وتدريته وتمنحه وهو تحت ولايتك حتى يأتى نوان بلوغ الرشد يستطيع أن ينسلم منك ماله ويديره بنفسه . وحتى لا نمر عن المال لحظة من رشد صاحبه وهو عندك .

سبحانه يقول : «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن أسستم منهم رشدا فادفروا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا .

فعندما يبلغ اليتيم الرشد وقد تم تدريسه على حسن إدارة المال . وعرف الوصى أن اليتيم قد استطاع أن يدير ماله ، ومن فور بلوغه الرشد يجب على الوصى أن يدفع إليه ماله ، ولا يصح أن يأكل الوصى مال اليتيم إسرافا . والإسراف هو الريادة في احد ؛ لأنه ليس ماله ، إنه مال اليتيم . وعندما قيل لرجل شره . ماذا تريد أيا الشره ؟ قال الشره : «أريد قصعة من ثريد أصرب فيها يدي كما يصرب الولي السوء في مال اليتيم» . أنجانا الله وإياكم من هذا الموقف ، وبعد الحق يقول : «ولا تأكلوها إسرافا ومدارا أن يكبروا»

إن الحق سبحانه يحظرنا من الإسراف في مال اليتيم في أثناء مرحلة ما قبل الرشد ، وذلك من الخوف أن يكبر اليتيم وله عبد الولي شيء من المال أى أن يسرف الولي فيفق كل مال اليتيم قبل أن يكبر اليتيم ويرشد ، والله سبحانه وتعالى حين يشرع فهو بجلال كماله يشرع تشريعا لا يمنع قوامه الفقير العادل غير الواحد . كان الحق قادرا أن يقول . لا تعطوا الوصية إلا لإنسان عنه مال لأنه في غنى عن مال اليتيم

لكن الحق لا يمنع المغير انتزيعه صاحب الخبرة والإيمان من الرلاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الولي : «ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا

فليأكل بالمعروف ، فلا يقول أحد من أحد آخر : إنه فقير ، ولو وضعه يده على مال اليتيم فإن يأكله ، لا ، فهذا قول بمقاييس البشر ، لا يجوز أن يمنع أحد فقيرا مؤمنا أن يكون وليا ليتيم ؛ لأننا نريد من يملك حصيدا إيمانيا يعلو به فوق الجمع في المال ؛ لذلك يقول الحق عن الوصي على مال اليتيم : إن عليه مسئولية واضحة .

فإن كان غيبا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . وحددوا المعروف بأن يأخذ أجر مثله في العمل الذي يقوم به .

وكلمة المعروف تعني الأمر المتداول عند الناس ، أو أن يأخذ على قدر حاجته ويقرب الحق ، فإذا دعتهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا . وانظروا الحماية ، هو سبحانه يصح الحماية للولي أو الوصي ، فالحق يعلم خلقه ، وخلق من الأعيان والولي عن اليتيم لابد أن يل الأمر بحكمة وحرص ؛ حتى لا يكرهه اليتيم . وربما قد يراصبه في كل شيء . يقول له : لا ، أعطه بقدر حق لا نفسه . فإذا ما أعطى الولي ليتيم بقدر ربما كرهه اليتيم ؛ لأن اليتيم قد يرغب في أشياء كماله لا تصلح له ولا تناسب إمكاناته ، وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد قد يركز كرهه ضد الوصي ، فيقول له : لقد أكلت مالي ؛ لذلك بوضح الحق للولي أو الوصي ، كما حيت ليهيم بحسن ولايتك أحميك أنا من رشد اليتيم .

لذلك يجب عليك - أيها الولي - حين تدفع المال إليه أن تشهد عليه ، لأنك لا تملك الأعيان المسبية ، وربما وجد عليك وكرمك ؛ لأنك كنت حارما معه على ماله ، وكنت تضرب على يده إذا انحرف . وإذا ما كرمك ربما التمس فترة من الفترات وقم صدك واتهمك بما ليس بك ؛ لذلك لابد من أن تحضر شهيدا عدولا لحظة تسليمه المال . وهذه الشهادة تستبرئ بها من المال فحسب ، أما استبراء الذين هموكول إلى الله ، وكفى بالله حسيبا .

هذا وإن سورة النساء تعالج الضعف في المرأة والضعف في اليتيم ، لأن الحال في المجتمع الذي جاء عليه الإسلام أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار الذين لم تشتد أوجعهم ، وكانت القاعدة العربية عدهم هي . من لم يطمع بربح

ولم يند عن حريم أو عن مال ولم يشهد معارك فهو لا يأخذ من التركة وكانت هذه قمة استضعاف أقوياء لضعفاء . وجاء الإسلام ليصمى هذه القاعدة بل فرض وأوجب أن تأخذ النساء حقوقهن وكذلك الأطفال ، ولهذا قال الحق سبحانه :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٧ ﴾

ومن الذى يفرض هذا النصيب ؟ إنه الله الذى ملك وهو الذى فرض .

هنا نلاحظ أن المرحوم الشهيد صاحب الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب لحظ ملحظاً جليلاً هو : كيف يكون للمتوفى أولاد أو نساء محرمون عليه ولا يأخذون ؟ إن الصغار كانوا أولى أن يأخذوا لأن الكبار قد اشتدت أحوالهم وسواهم ، فالصغار أولى بالرعاية ، وأيضاً إذا كانت قوانين (مبادئ) في الوراثة توضح أن الأولاد يرثون من أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم الخصال الحسنة أو السيئة ، أو المرض أو العنة أو الخلق ، فلماذا لا تورثونهم أيضاً في الأموال ؟

وحين نسمع قول الحق : « نصيباً مفروضاً » فلا بد أن يوجد فرض ، ويوجد مفروض عليه ، والفرض هنا هو الله الذى ملك ، وفيه فرق دقيق بين « فرض » و « أرجب » فالفرض يكون قادماً من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يوجب على نفسه شيئاً

وحين يتكلم الحق عن النصيب المفروض ، فقد بين أن له قدراً معلوماً ، ومادام للنصيب قدر معلوم ، فلا بد أن يتم إيضاحه . . ولم يبين الحق ذلك إلا بعد أن يُدخل في عملية أناساً قد لا يورثهم ، وهم ممن حول الميت ممن ليسوا بوارثين ،

ويوضح سبحانه الدعوة إلى إعطاء من لا نصيب له ، إياكم أن يلهيكم هذا النصيب المفروض عن لا نصيب له في التركة .

فذلك يقول سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
مَعْرُوفًا ۝٨﴾

وحين يحضر أولو القربى واليتامى والمساكين مشهد توزيع المال ، وكل واحد من الورثة الذين يتم توزيع مال المورث عليهم انتهت مسأله ، قد يقول هؤلاء غير الوارثين . إن الورثة إنما يأخذون عينة نادرة هبطت عليهم مثل هذا الموقف برك شيئا في عموم أولي القربى واليتامى والمساكين .

صحيح أن أولي القربى واليتامى والمساكين ليسوا وارثين ، ولن يأخذوا شيئا من التركة مرسا لهم ، ولكنهم حضروا القسمة ، لذلك يأتي الأمر الحق : « فأرزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » ، فلو أنهم لم يحضروا لقسمة لاحتلف الموقف . فيأمر سبحانه بأن يرقق اليتامى وأولي القربى والمساكين حتى تستل منهم الحقد أو الحسد للمورث ، أو الضغنى على المورث ، وبذلك يشبع في الناس شيء من الألفة ومن المحبة ومن حب الخير لأنهم قد نالوا شيئا من الخير مع هؤلاء ، فلا يكونون حاقذين عن الورثة ولا على المورث ، ولا يكتفى الحق بالأمر بزرع هؤلاء الأغارب واليتامى والمساكين ، ولكن يأمر أن تقول لهم : قولا معروفا ، مثل أن ندعو الله لهم أن يزيد من رزقهم ، وأن يكون لهم أموال وأن يتركوا أولادا ويورثوهم ، ومن الذى يجب عليه أن يقوم عند هذا العمل ؟ إسم الوارثون إن كانوا قد بلغوا الرشد ، ولكن ماذا

يكون الموقف لو كان الوارث يتيم ؟ فالخصور هم الذين يقولون لأولى القرى واليتامى والمساكين : إنه مال يتيم ، وليس لك ولاية عليه ، ولو كان لك ولاية لأعطيناكم أكثر ، وفي مثل هذا القول تطيب للمخاطر

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » يجب أن تكونوا في ذلك الموقف داعمين أنه إذا كنتم اسم الضعفاء واليتامى وغير الوارثين فمن المؤكد أن السرور كان سيدخل إلى قلوبكم لو شرعنا لكم نصيباً من الميراث إذن فليذكر كل منكم أنه حين يطلب الله منه ، أنك قد تكون مره في موقف من يطلب الله له ولأولاده إذن فالحكم التشريعي لا يوحّد من جانب واحد ، وهو أنه يلزم المؤمن بأشياء ، ولكن لناخذ بجانب ذلك أنه يلزم غيره من المؤمنين للمؤمن بأشياء

إن الحكم التشريعي يعطي ، ولذلك يأخذ منك . وهذا قلنا في الزكاة - إياك أن تلتفت بما من تؤدي الزكاة أننا نأخذ منك حيناً ثمرة كدحك وعرقك لمصبتها بلناس ، نحن نأخذ منك وأنت قادر لوئمتك إن صرت عاجزاً وسوف نأخذ لك من القادرين . إنه تأمين ربان حكيم .

ويقول الحق بعد ذلك -

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا

سَدِيدًا ﴿١﴾

والإنسان حين يترك حرية ضعيفة بتركها وهو خائف عنهم أن يضيعهم الرمان .

فإن كان عندك أيها المؤمن درية صغيرة وتحاف عليها فساعة ترى درية ضعيفة تركها عبرك فلتعطف عليها ، وذلك حتى يمطف انبهر على دريتك لصعيفة إن تركتها . واعلم أن رينا رقيب وقيرم ولا يترك الخير الذي فعلته دون أن يرقه إلى دريتك . وقلنا ذات مرة : إن معاوية وعمر بن العاص اجتمعا في أراحر حياتهما ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ماذا بقي لك من حظ الدنيا ؟ وكان معاوية قد صار أميراً للمؤمنين ورئيس دولة قوية عية ، فقال معاوية : أما الطعام فقد مللت أطيه ، وأما اللباس فقد سئمت ألبسه ، وحطى الآن في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف .

وصب معاوية قليلاً وسأل عمرًا : وأنت يا عمرو ماذا بقي لك من متع الدنيا ؟

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عقيرة قهاريّة فقال : أنا حظي عين حرارة في أرض حرارة قلدر على حياقي ولولدي بعد محاق .

إنه يطلب عين ماء منسمر في أرض فيها أنعام وروع تعطى الخير

وكان هناك خادم يخدمها ، يقدم لها المشروبات ، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يدعبه ليشاركه معها في الحديث

فقال للخادم : وأنت يا د وردان ، ماذا بقي لك من متاع الدنيا ؟ أحباب الخادم . بقي لي من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنعة معرووف أصعبها في أعناق قوم كرام لا يؤدونها إلى طول حياقي حتى تكون لعن في عقبهم . لقد فهم الخادم عن الله قوله .

وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ
وَلْيَبْتَغُوا قَرْلًا سَدِيدًا ﴿٣﴾

فالدنيا يتفوق الله في قدره الضعيفة يفسمون أن الله سيردهم عن يقين الله في
ذريتهم الضعيفة

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذي ذهب إليه موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ تُبِيعْتُ عَلَى أَنْ تُعَلِّينِي بِمِثْلِ هَذِهِ رُشْدًا ۖ ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ﴿٦٦﴾ وَكَذَبَ تَضَيُّعٌ عَنْ مَا لَمْ يُحِيطْ بِهِ حُبْرًا ۖ ﴿٦٧﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ ﴿٦٨﴾ قَالَ فَإِنَّ أَنَاخُفِي فَلَا
تُشْغِلْنِي عَنْ نَفْسِي ۖ حَتَّىٰ أَجِدَ لَكَ مِنْهُ دَخْرًا ۖ ﴿٦٩﴾ فَأَسْطَفَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا
فِي السَّيِّئَةِ نَازِقًا قَالَا أُنَاقِفَهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ ﴿٧٠﴾ ﴿

(سورة الكهف)

لقد حرب العبد الصالح موسى في حرق السينة - كما يوضح الآيات - فقال العبد
الصالح :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ تُبِيعْ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ﴾ ﴿٧١﴾ قَالَ لَا يُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ
وَلَا تُؤَمِّقُنِي مِنْ أَمْرِي عَصْرًا ۖ ﴿٧٢﴾ ﴿

(سورة الكهف)

ثم ما كان من أمر لفلان الذي قتله العبد الصالح وقول موسى له : لقد جئت
شيئًا نكرا .

ثم جاء إلى أهل قرية فطلب منهم الطعام ، وحين يطلب منك امر سبيل طعاماً
فاعلم أنها الحاجة الملحة ، لأنه لو طلب منك مالاً فقد نظن أنه يكثر المال ، ولكن إن
طلب لقمة يأكلها فهذا أمر واجب عليك

فماذا فعل أهل القرية حين طلب العبد الصالح وموسى طعاماً لها ؟ .

يقول الحق .

﴿ فَاطْلُقْنَا هَٰؤُلَاءِ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا مِنْهَا فَأَنزَلْنَا عَنْهُمْ غِيظَهُمْ فَأَجْزَأَ الْيَهُودُ أَنْ يَتَنَفَّسُوا مِنْ قَرْيَةٍ فَقَدْ لَوِشْتَ لَسَخَدَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمَ ﴾

(سورة الكهف)

إنها قرية لثيمة ، ووجد العبد الصالح في القرية جداراً يريد أن يسقط ويقصر فأقامه ، واعترض موسى ؛ لأن عبده حفيظة على أهل القرية فقد طلبوا منهم طعام فلم يطعموهم ، وقال سيدنا موسى : إنك لو شئت لاتخذت عليه أجراً ؛ لأن أهل القرية لثام ، وما كان يصح أن تقيم لهم الجدار إلا إذا أحدث منهم أجراً .

لقد غاب عن موسى ما لم يعييب الله سبحانه عن العبد الصالح ، والله لو أن الجدار وقع وهم لثام لا يطعمون من استطعمهم ، ثم رأوا الكنز المتروك لبياني المساكين ، فلا بد أنهم سيغنصون الكنز إذن فعندما رأيت الجدار سيقع أقمته حتى أوارى الكنز عن هؤلاء اللثام . ويقول الحق سبحانه .

﴿ وَأَمَّا الْجِبَالُ فَوَكانَ لِلنَّاسِ حِصْنًا فِي الْأَرْضِ وَكانَ يُخَفُّ كَثُفًا وَّكانَ يُؤْتَمِنُ صُلْبًا فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَسُدَّ الْأَرْضَ وَاسْتَحْجَرَها كَثُفًا رِجْمًا مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تُلْوِيلٌ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالعلة في هذه العملية هي الحماية لليتيمين ، وتلوي بالاً ولهمم بملاجئ النص ، لا بد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب جند عمراً افتراضياً للجدار بحيث إذا بلغ اليتيم الرشد وقع الجدار أمامها ؛ ليرى كلاهما الكر ، لقد تم بناء الجدار على شال الفسلة الموقوفة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار لهما هذا الكر إنه توقفت إلهي أراده الله ؛ لأن واد اليتيمين كان صاخاً ، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنوداً لا يعلمهم ولم يرثهم ليحموا الكر لولديه اليتيمين ، لذلك ملئهم حياءً في معاملتنا ، قول الحق .

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ رَكَّبُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً صَعَنَتْ حُجُوعاً عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ
وَيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿٩﴾

(سورة النساء)

لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يكون شديداً فدانيتته تكون هي الموجهة . لكن كلما تقدم
الإنسان في السن تقدمت دانيته أولاده عنه ، ويحرم نفسه بيعطي أولاده ، وعندما
يرى أن عماله مارأوا صعباً ، وحاءت له مقدمات الموت فهو يحزن عن مفارقة هؤلاء
الصغار ، فيوضح الحق لكل عند طريق الأمان . إنك تستطيع وأنت موجود أن
تعطي للصغار قوة ، قوة مستمدة من الانعام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك
من بنات ، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك ونحوه وأنت مطمئن عليهم

والقول السديد من الاوصياء . ألا يؤذوا البنات ، وأن يكلموهم كما يكلمون
لولائهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بنفوسهم يا بني ويا ولدي
وحين ينقضي المؤمن الله في يده يرزقه الله بمن ينقضي الله في أولاده .

ومارال الحق يضع المنهج في أمر البنات .

﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ﴿١٠﴾

لماذا يركز القرآن على هذه الجريمة ؟ لأن الله يريد من خلقه أن يستعملوا قدر الله
فيمن يحزن ويحس يحتاجون إليهم مرض ، فإذا كان الضمير صعباً ويرى أباه يسعى

في شأنه ويقدم له كل جمل في الحياة وبعد ذلك يموت ، فإن كان هذا الصغير قد رأى واحداً مات أبوه وكمله المجتمع الإيمان الذي يعيش في كماله عوصته عن أب واحد ببناء إيمانين متعددين ، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وحظه بدون فرع ، فالذي يحمل الناس تستقبل الخطوب بالفرع والجرع واهلج أنهم يرون أن الطفل إذا مات أبوه وصار يتيم فإنه يضيع ، ويقول الطفل لنفسه : إن أبي عندما يموت سأصبح مضطرباً لكن لو أن المجتمع همى حق اليتيم وصار كل مؤمن أباً لليتيم وكل مؤمنة أمّاً لليتيم لاحتفت الأمر ، فإذا ما برل قضاء الله في أبيه فإنه يستقبل بالقضاء برضا ونسليم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَيَصْنَعُونَ سَعِيرًا ۝ ﴾

(سورة البقرة)

إن كل العملية السلبية والسيئة أهم ما فيها هو الأكل ؛ لأن الأكل هو المتكرر عند الناس ، وهو يختلف عن اللباس ، فكل فصل يحتاج الإنسان إلى ملابس تناسبه ، لكن الأكل عملية يومية ؛ لذلك فأي نهب يكون من أجل الأكل ولذلك نقول في أمثاله العامة عن النهاب : « فلان بطنه راسعة » إنها مسألة الأكل .

وقد أوضح الحق هذا الأمر لأكل مال اليتيم ، أنت تحشون بطنك ناراً . ويعنى ذلك أنه يأكل في بطنه ما يؤدي إلى النار في الآخرة . وهذا قد يحدث عقاباً في الدنيا فيصاب أكل مال اليتيم في بطنه بأمراض تحرق أحشائه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون هؤلاء القوم الذين أكلوا مال اليتيم ، وعليهم سمات أكل مال اليتيم ، فالله سبحانه يجرح من أموالهم وإياك أن تفهم أن البطون هي التي ستكون ممتلئة بالنار فقط ، وألا يكون هناك نار أمام العيون بل سيكون في البطون نار وسيصنعون سعيراً

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِهِ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَى فَإِنْ كُنَ نِسَاءً فَرَقَ اثْنَتَيْنِ فَلِلَّهِنَّ نِشَامَا
تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ
فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ
كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَنْدُرُونَ
أَيْهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهُ
كَانَ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا ﴿١﴾

وبعم الرب حالفنا ؛ إنه يوصينا في أولادنا ، سبحانه رب العرش العظيم ، كأنا
عند ربنا أحب ما عند آبائنا ، وقوله الكريم : « يوصيكم الله في أولادكم » توصح
أنه رحيم بنا ومح لنا ، ومادة الوصية إذا ما استقرأناها في القرآن نجد - بالاستقراء -
أن مادة الوصية مصحوبة بالياء ، فقال سبحانه :

﴿ ذَايَكُرْ وَصِيكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

وقال سبحانه

﴿ مَرَع لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَأْوَصِي بِهِ نَوْحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وقال الحق ايضاً

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنَةً أَمْرٌ وَهَئِنَّا عَلَيَّ وَهْرٌ﴾

(من الآية ١٤ سورة لقمان)

كل هذه الآيات جاءت الوصية فيها مصحوة بالناء التي تأتي للإصاق

لكن عندما وصي الأباء عن الأبناء قال : «يوصيكم الله في أولادكم» فكان
الوصية مغروسة ومثبتة في الأولاد ، فكلمها رأيت الطرف وهو الوند ذكرت الوصية
وما هي الوصية ؟ إنها «لذكر مثل حظ الأنثيين» وقل من قبل . إن الحق قال
﴿لِلرِّجَالِ نِصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

ولم يحدد النصيب بعد هذه الآية مباشرة إلا بعد ما جاء بحكمة الياضي وتحديد
الناس من أكل مال اليتيم ، لماذا ؟ لأن ذلك يرب في نفس الاشيق للحكم ،
وحين تستشرف النفس إلى تفصيل الحكم ، ويأت الحكم بعد طلب النفس به ، فإنه
يتمكن منها . والشئ حين تطلبه النفس تكون مهياً لاستقباله ، لكن حينها يعرض
الأمر بدون طلب ، فالنفس تقبله مرة وتعرض عنه مرة أخرى . ونلاحظ ذلك في
مناسة تحديد أنصبة الميراث .

فقد قال الحق سبحانه أولاً :

﴿لِلرِّجَالِ نِصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

وعرض بعد ذلك أمر القسمة ورعاية اليتامى والمساكين وأولى الأقرب ، ثم يأتي الأمر والحكم برعاية مال اليتيم والتحذير من هبه ، وبعد ذلك يقول : « يوصيكم الله في أولادكم » ويقام السد الأول في الوصية « للذكر مثل حظ الأنثيين » ولماذا لم يقل « للأنثيين مثل حظ الذكر » أو « للأنثى نصف حظ الذكر » ، هذه معان يمكن أن تعبر عن المصلوب .

لقد أراد الله أن يكون المقياس ، أو المكيال هو حظ الأنثى ، ويكون حظ الرجل هنا منسوبا إلى الأنثى ، لأنه لو قال : « للأنثى نصف حظ الرجل » لكان المقياس هو الرجل ، لكنه سبحانه جعل المقياس للأنثى فقال : « للذكر مثل حظ الأنثيين »

والذين يقولون : هذا أول ظلم يصيب المرأة ، يريد مساواة تقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا فالذكر مطلوب له زوجة ينق عليها ، والأنثى مطلوبة لها ذكر ينق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون رواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذي يحصلها سيقي لها ، وسيكون لها زوج يعوها .

إذن فأيه أكثر خطأ في القسمة ؟ إما الأنثى . ولديك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » فهل في هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة ؟ إن في هذا القول محاباة للمرأة ؛ لأنه أولا جعل مصيبتها المكيال الذي يرد إليه الأمر ؛ لأن الرجل مطلوب منه أن ينق على الأنثى ، وهي مطلوبة لها روح ينق عليها . إذن فما نأخذ من نصف حظ لذكر يكون خالصا لها ، وكان يجب أن تقولوا : لماذا حابى الله المرأة ؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عرض ، فصانها ، فإن لم تتزوج تجد ما تنعقه ، وإن تزوجت فهذا فضل من الله ، ثم يقول الحق : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك » .

وإنما أريد أن نستجمع لذهننا جيدا لتعرف تماما على مراد الحق ومساالك القرآن في تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله . فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، والعقل لا بد له من رياضة . ومعنى الرياضة هو التدريب على حل مسائل ، وإن طرأت مشكلات هيأ نفسه لها بالحل ، وأن يمدد القدرة على الاستيعاب والتقييم ، كل هذه من مهام العقل . فيأتى الحق في أهم شيء يتعلق بالإنسان وهو الدين ، ويدبيل إلى

الدين وحافظ منهجه هو القرآن ، فيجعل للمعلم مهمة إبداعية .

إنه - سبحانه - لا يأتي بالنصوص كمواد القانون في الجنايات أو الجنح ، ولكنه يعطي في مكان ما جزءاً من الحكم ، ويترك بقية القانون لتصبح معاملة في موقع آخر من القرآن بجزئية أخرى ، لأنه يريد أن يوضح لنا أن المنهج الإلهي كمنهج واحد متكامل ، وأنه ينقلك من شيء إلى شيء ، ويستكمل حكماً في أكثر من موقع بالقرآن . وذلك حتى تتعرف من المنهج ككل . وأنت إذا كنت مصدقاً شيء فلا تطعن أن هذا الشيء بمفرده هو المنهج ، ولكن هناك أشياء ستأتي استطراداً تتداخل مع الشيء الذي تبحث عن حكم الله فيه ، مثال ذلك : مسألة اليتيم التي تتداخل مع أحكام الميراث . وهذه الآية تعطينا مثل هذه المسألة لماذا ؟ لأن الله يريد لك يا صاحب العقل الدربة في الإطار الذي يضم الحياة كلها . وما يصحك أولاً هو دينك ، فتعمل عقلك فيه ، فإذا أعملت عقلك في الدين أعطيت عقلك النشاط ليعمل في المجال الآخر .

لكن إذا غرق ذهنك في أي أمر جزئي فهذا قد يبعد بك عن الإطار العام لتشمل بالتفاصيل عن الهدف العام .

وأولادنا من الممكن أن يعلمونا من تجربة من ألعابهم ، فالطفل يلعب مع أقرانه « الاستغماية » ، ويختبئ كل قريش في مكان ، ويبحث الطفل عن أقرانه

ونحن نلعب أيضاً مع أولادنا لعبة إخفاء شيء ما في يد ونطبق أيدينا ونترك الأب يضمن بالحدس في أي يد يكون الشيء ، إنها دربة للعقل على الاستنباط ، فإن كان الولد سريع البديهة قوى الملاحظة ويمتثل بالدكاء ، فهو يرى يَدَيَّ والده ليقرر أي يد ترمش قليلاً ، أو أي يد ليست طبيعية في طريقة إطلاق الأب لما فيه تخرها ، ويقتصر بذلك دكاء الولد ، وهذه عملية ترويض للطفل عن الاستنباط والفهم ، ولذلك نعلم للطفل ألا يأخذ السائل ضربة لازب بدون فكر ولا دربة .

والحق سبحانه أراد أن تكون أحكامه موزعة في المواقع المختلفة ، ولننظر إلى قوله : « بوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » ، فإن كن نساء فوق اثنين

فلهن ثلثا ما تركه ، أى أنه إن لم ينبج المورث ذكرا وكان له أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .

أما لو كان معهن ذكر ، فالواحدة منهن ستأخذ نصف نصيب الذكر ، وإن كانت الوارثة بنتا واحدة ، فالأية تعطيهما النصف من الميراث ، وإن كانت واحدة فهما النصف ، وبقي شيء لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك اثنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للأنثى ن إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلث من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم يحس حل ذلك بوضوح ؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما تورث مع الذكر تأخذ ثلث التركة ، وعندما تكون مع اسة أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث .

هذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، وبذلك فس المنطقى أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك اثنتين . وهناك شيء آخر ، نعرف أن القرآن يأتى كله كمنهج متناسك ، هناك آية أخرى في سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر لترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُعَذِّبُكَ فِي أَنْتَ كَلِمَةٍ إِنْ أَسْرَفْنَا عَنْكَ لَبِيسٌ لَّهُ وَلَهُ وَمَنْ أُنْصِتَ لَهَا بِصَفٍ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرُوتُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الْثُلُثَيْنِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجُلًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِصِّ الْأُنثَىٰ
يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾

(سورة النساء)

لقد جاء الحق هنا بأختى المورث وأوضح أن لها الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد - ابن أو بنت - فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما ألحق بالمورث ، البتان أم الأختان ؟ إن أمتى المورث ألحق به من أخيه ، ولذلك فلبتيتي الثلثان ، فالأية إن كانت مع أخيها فتأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فتأخذ النصف . وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن

كانتا اثنتين فستأخذ كل منهما الثلث ، لماذا ؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثي ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد .

ومن العجيب أنه جاء بالجمع في الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالثنى في الآية التي تورث الأخوات ، لنأخذ الثنى هناك - في آية توريث الأخوات - لينسحب على الجمع هنا ، ونأخذ الجمع هنا - في آية توريث البنات - لينسحب على الثنى هناك .

لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى تأخذ الأحكام بعشق وحسن فهم ، وعندها يقول سبحانه : « يستفتونك » فمعنى يستفتونك أي يطلبون منك الفتوى ، وهذا دليل على أن المؤمن الذي سأل وطلب الفنى قد عشق التكليف ، فهو يحب أن يعرف حكم الله ، حتى فيها لم يبدأ الله به الحكم . وقد سأل المؤمنون الأوائل وطلبوا الفتى عشقا في التكليف « يستفتونك قل الله يمتكم في الكلالة » والكلالة مأخوذة من الإكليل وهو ما يحيط بالرأس ، والكلالة هي القرابة التي تحيط بالإنسان وليست من أصله ولا من فصله .

﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَهَذِهِ أُسْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّبَّانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ يُكَلِّمُ مَن يَشَاءُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

وهذه الآية تكمل الآية الأولى . ونعود إلى تفصيل الآية الأولى التي نحن بصددها نلاحظنا الإيمانية عنها : « ولأبوية لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

ومعنى ذلك أن المورث إن لم يكن له أولاد فلأم الثلث ، والأب له الثلثان ، فإن كان للمورث إخوة أشقاء أو لأب أو لأم فللأم السدس حسب النص القرآني « فإن

كان له إخوة فلأمة السلس من بعد وصية يوصي بها أو دين ، ، وذلك بعد أن تنفذ وصية المورث ، ويؤدى الدين الذى عليه . والوصية ها مقدمة على الدين ؛ لأن الدين له مطالب ، فهو يستطيع المطالبة بدينه ، أما الوصية فليس لها مطالب ، وقد قدمها الحق للعناية بها حتى لا نهملها . ويدل الحق هذه الآية

﴿ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

فإياك أن تحدد الأنصبة على قدر ما تظن من النفعية في الآباء أو من النفعية في الأبناء ، فالنفعية في الآباء تنضح عندما يقول الإنسان . « لقد رباني أبى وهو الذى صنع لى فرص المستقبل » . والنفعية في الأبناء تنضح عندما يقول الإنسان . إن أبى راحل وأبائى هم الدين سيجعلون ذكرى وسمى والحياة مقبلة حينهم . فبوصح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم ، فليس لك شأن بهذا الأمر . ولا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً .

ومادمت لا تدري أيهم أقرب لك نفعاً فالترحم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها في الأنصبة كما يجب أن تكون

ومحس حين نسمع : « إن الله كان علياً حكيماً » أو نسمع : « إن الله كان غفوراً رحيماً » فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير ، ومدام كان فى الأول علياً حكيماً وغفوراً رحيماً فهو لا يزال كذلك إلى الأبد .

فالأعيار لا تال إلى الله ، وثبت له العلم والحكمة والخبرة والغفرة والرحمة أزلاً وهو غير متغير ، وهذه صفات ثابتة لا تتغير . لذلك فعندما نقرا : « إن الله كان علياً حكيماً » أو « إن الله كان غفوراً رحيماً » فليسلم منا يقول بيه وبين نفسه : ولا يزال كذلك

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ
لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ
الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي بُوَصِيَّتِي
بِهَآ أَوْ دِينَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ
لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ
فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي
تَوْصُونَ بِهِآ أَوْ دِينَ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ
كَتْلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا الشُّدُّ إِنْ كَانَوَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَهُنَّ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي
بُوصِيَّتِي بِهِآ أَوْ دِينَ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّتِي مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ ﴿١٤﴾

والآيات تسبرني لإيضاح حق الذكر مثل حظ الأنثيين ، وهذه عدالة ، لأن الرجل حين يموت امرأته قد يتزوج حتى يبقى حياته ، والمرأة حين يموت زوجها فإنها تأخذ ميراثها وهي عرضة أن تتزوج وتكون مشغولة من الزوج الجديد

إن المسألة كما أرادها الله تحقق العدالة الكاملة . والكلالة - كما قلنا - أنه ليس للمتوفى والد أو ولد ، أي لا أصل له ولا فصل مفرع من .

فإذا كان لرجل لكرالة أخ أو أخت فلكل واحد منها السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ، وذلك أيضاً من بعد الوصية التي يوصي بها أو دين . ولماذا يسم تقرير هذا الأمر ؟ لرجوع مرة أخرى إلى آية الككرالة التي جاءت في آخر سورة النساء .

إن الحق يقول فيها :

﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلَهُمْ مِثْلُ حَقِّ الْأَثْنَيْنِ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَصِلُوا وَأَنْ تَكُونُوا شَرَفًا عَظِيمًا ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

في الآية الأولى التي نحن بصددھا يكون للواحد من الإخوة سدس ما ترك إذا انفرد ، فإذا كان معه غيره فهم شركاء في الثلث ، هذا إذا كانوا إخوة من الأم . أما الآية التي يختص بها الحق الأحيين بالثلثين من التركة إذا لم يكن معها ما يعصبها من الذكور فهي في الإخوة الأشقاء أو الأب ، هكذا يفصل القرآن ويوضح بدقة مطلقة

ولماذا يعنى قوله الحق . « غير مضر وصية من الله والله عليم حلیم » ؟

إنه سبحانه يريد إقامة العدل ، فلا صرر لأحد على لإطلاق في تطبيق شرع الله ، لأن الضرر إنما يأتي من الأهواء التي تمسك قسمة الله . فقد يكون هناك من يرغب ألا يرث العم من بنات أخيه الشقيق ، أو لأب ، أو يريد آخر ألا يتدخل أولاد الإخوة الذكور أشقاء أو لأب في ميراث العم أو بنات العم للشقيق أو لأب ، مثل هؤلاء من أصحاب الهوى يقول : إن الغرم من قبل الغنم ، بالله لو أنك مت وتركت بنات وبن عم ، ألن مطلوياً من العم أن يرث البنات ؟ فليماذا يجبر الحق العم على رعاية بنات أخيه إن توفي الأخ ولم يترك شيئاً ؟ لذلك يجب أن تلتفت إلى حقيقة الأمر عندما يأتي نصيب للعم في الميراث . وعلينا أن نعرف أن الغرم أمله الغنم .

وقلنا: إن القرآن الكريم يجب أن يؤخذ جميعه فيما يتعلق بالأحكام ، فإذا كان في

سورة النساء هذه يقول الحق سبحانه وتعالى في آخر آية منها :

﴿ يَسْتَعْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُعَذِّبُكَ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّهُ بَنٌ لَّهُ وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أَثْمَنِ فَلَهُمَا اثْنَتَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّسَالًا وَرِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَىٰ ۚ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَن تَصِلُوا ۖ وَأَنَّهُ يَكْلَفُ شَيْءٌ عَسِيمٌ ۖ ﴾

(سورة النساء)

فما الفرق بين الكلالة حين يجعل الله للمنفردة النصف وللأثنين الثلثين ، وبين الكلالة التي يجعل الله فيها للمنفردة السدس ، ويجعل للأكثر من فرد الاشتراك في الثلث دون تمثيل للذكر على الأنثى ؟

لا بد أن نفرق بين كلاله وكلالة ..

هما متحدتان في أنه لا أصل ولا فرع للمتو . والمساة هما تتعلق بالإخوة .

وتقول: إن الإخوة لها مصادر متعددة . هذه المصادر إما إخوة من أب وأم ، وإما إخوة لأب، وإما إخوة لأم . فإذا كان أخ شقيق أو لأب فهو من العصاة الأصلية ، وهما المعينان في الآية ١٧٦ من السورة نفسها .

وبذلك تكون آية السدس والثلث التي نحن بصدد ما الآن متعلقة بالإخوة لأم . إذن فالكلالة إما أن يكون الوارث أمها لأم فقط ، وإما أن يكون أمها لأب ، أو أمها لأب وأم . فالحكماء لذلك مختلفان ، لأن موضع كل منها يختلف عن الآخر . وإلا لو أن مستشرقاً قرأ هذه الآية وقرأ الآية الأخرى وكلتاهما متعلقتان بميراث الكلالة ، وأراد هذا المستشرق أن يبحث عن شيء يطلع به دينا ويطعن به القرآن يقال . ولعمري بالله . القرآن متضارب ، فهو مرة يقول : للكلالة السدس، ومرة يقول : الثلث ، ومرة أخرى النصف، ومرة أخرى الثلثان، ومرة لذكر مثل حظ الأنثيين . ويرد

على من يقول ذلك : أنت لم ملاحظ المقصود العمل والراعى للكلالة ، لذلك قامت
تفهم شيئا وتعيب عتث أشياء .

والحق قال : « من بعد وصيه يوصى بها أو دين » ولنا أن نلاحظ أن في كل توريث
هذه « البعدي » أى أن التوريث لا يتأتى إلا من بعد الوصية الواجبة النقاد والذين .

ولنا أن نسأل . أيجب تنفيذ أولاً ، الوصية أم الدين ؟

والإجابة : لا شك أنه الدين ، لأن الدين إلزام بحق في الذمة ، والوصية تطوع ،
فكيف تقدم الوصية - وهي التطوع - على الدين ، وهو للإلزام في الذمة .

وعندما يقول : « غير مضار » لابد أن نعرف جيداً أن شرع الله لن يضر أحداً ،
وما المقصود بذلك ؟ المقصود به الموصى ، ففى بعض الأحيان يكون المورث كارهاً
لبعض المستحقين لحنهم في ميراثه ، فيأتى ليوصى بمع توريثهم أو تقليل الأصباء ،
أو يأتى لواحد بعيد يريد أن يعطيه شيئاً من الميراث ولا يعطى لمن يكرهه من أهله
وأقاربه المستحقين في ميراثه ، فبقر لذلك الإنسان بدين ، فإذا ما أقر له بدين حتى
وان كان مستحقاً للتركة كلها ، فهو يأخذ الدين ويترك الورثة بلا ميراث .

وهذا يحدث في الحياة ونراه ، فبعض من الناس أعطاهم الله البنات ولم يعطهم
الله ولداً ذكراً يعصهم ، فيقول الواحد من هؤلاء نفسه : إن الأصهار
ستدخل ، وأبناء الأصهار سيدخلون في ميراثي ، ف يريد أن يوزع التركة على بنته
فقط ، فيكتب دية على نفسه للبنات ونقول هذا الإنسان . لا تجب ، أنت
نظرت إلى أن هؤلاء يرثون منك ، ولكن يجب أن تنظر إلى الطرف المقابل وهو أنك
إذا مت ولم تترك لبناتك شيئاً ومن لا عصبة له ، فمن المسئول عنهم ؟ إنهم
الأصهار ، فالعزم هنا مقابل العزم .. ولماذا تطلب البنات الأصهار أمم الفضاة لباخذن
النفقة منهم في حالة وفاة الأب دون أن تكون له ثروة فكيف تجمع من إخوانك
ما قرره الله لهم ؟

وهناك بعض من أساس يرغب الواحد منهم ألا يعطى عمومته أو إخوانه لأى سبب

من الأسباب ، فإذا يفعل ؟ إنه يضع الوصية ؛ لذلك حدد الإسلام الوصية بمقدار الثلث ، حتى لا تحدث مضارا للورثة .

وقد حاول البعض من هؤلاء الناس أن يدّعوا كذباً ، أن هناك ديناً عليهم ، والدين مستغرق للفرقة حق ، لا يأخذ الأقارب شيئاً .

ولإنسان في هذا الموقف عليه أن يعرف أنه واقف في كل لحظة في الحياة أو الممات أمام الله ، وكل إنسان أمين على نفسه

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿عَابَاؤُكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْمَهُمْ أَقْرَبُكُمْ تَعْمًا فَرِيضَةً عَنِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

(من الآية ١١ سورة النباء)

ولحق بلفتنا إلا نضر أحناً بلبي تصرف ؛ لأنها توصية من الله لكل ما يتعلق بالحكم توريثاً ووصيةً وأداء دين ، كل ذلك توصية من الله ، والتوصية ليست من مخلوق لمخلوق، ولكنها من الله ؛ لذلك فيها إرغام وهرض ، فسمعاه الفاتل :

﴿ تَرَعَّ نَكْمٌ مِنَ الَّذِينَ مَاضَى بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

والوصية هنا فتراضى ، ومثل ذلك يقول الحق :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ۖ لَا بِالْحَبِّ ذِكْرٌ وَبِالْحَبِّ تُقْتَلُونَ﴾

(س. الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ومادامت التوصية تأتي من المثلث الأعلى ، فمعنى ذلك أنها مختصصة ، ويسيل الحق سبحانه الآية الى نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية . « والله عليم حكيم » أى إياكم أن تنصرفوا تصرفاً قد يقره ويغضيه القصاص ، ولكنه لا يبرئكم أمام الله ؛ لأنه قد قام على باطل .

مثال ذلك : هناك إنسان يموت وعليه دين ، عندئذ يجب تسديد الدين ، لكن أن يكتب الرجل ديناً على نفسه غير حقيقى ليحرم بعضاً من أقربيه من الميراث فعليه أن يعرف أن الله عليهم بالنوايا التى وراء التصرفات . فإن عميت أيها البشر على قضاء الأرض ، فلن تعملوا على قضاء السماء .

وهذه مسألة تحتاج إلى علم يتغلغل فى النوايا ، إذن فمسألة القضاء هذه هى خلاف بين البشر والبشر ، ولكن مسألة الديانة وما يفترضه الحق ، فهو موضوع بين الرب وبين عبده ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف : « إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ ، فاعلم بعضكم أن يكون الحق بعصية من بعض ، فأقضى له حل نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » (١) .

إن الرسول يعلمنا أنه بشر ، أى أنه لا يملك علم الغيب ومدخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة عن الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقاً ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبی بمقتضى البينة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق ، لذلك يعلمنا أنه بشر ، وأنا حين نختصم إليه يجب ألا نستخدم واحد منا ذلاقة اللسان في أخذ ما ليس له ، لأنه حتى لو أخذ شيئاً ليس له بحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم

إذن فمعنى ذلك انه يجب علينا أن نحذرى الأمور ، فلا نغشى ولا نأخذ شيئاً بسططان القضاء ونهمل مسألة الديانة . فالأمور التى تتعلق بالدين لا يجوز للمؤمن المساس بها ، إياكم أن تظنوا أن حكم أى حاكم بحلل حراماً أو يحرم حلالاً ، لا . فالخلال بين ، والحرام بين ، والقاضى عليه أن يحكم بالبيّنات الواضحة .

ومثال على ذلك . عيب أنك اقترعت من واحد ألفاً من الجبهات ، وأخذ عليك صكاً ، ثم جاء المقترض وسدد ما عليه من قرض وقال لمن اقترضت منى « عسما

(١) روى مالك ، واحد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها .

تذهب إلى منزلك أرجو أن ترسل لي الصك « ثم سبق قضاء الله ، وقال أهل الميتة « إن الصك عندما « واحتكموا إلى القضاء ليأخذوا الدين . هنا يحكم القضاء بضرورة تسليم الدين مرة أخرى ، لكن حكم الدين في ذلك يختلف ، فالرجل قد سدد الدين ولا يصح أبداً أن يأخذ الورقة الدين مرة أخرى إذا علموا أن مورثهم حصل على دينه

ولذلك يقول لنا الحق . « والله عليم حكيم » حتى نفرق بين الديانة وبين القضاء . والحق يقول لنا إنه « حكيم » فليكن أن تغتر بأن واحداً حدث منه ذلك ، ولم يستقم الله منه في الدنيا ، فعلم انتقام الله منه في الدنيا لا يدل على أنه تصرف حلالاً ، لكن هذا حلم من الله وإمهال وإرجاء ولكن هناك عقاباً في الآخرة .

وبعد بيان هذه الأمور يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣ ﴾

الاحكام المتقدمة والامور السابقة كلها حدود الله ، ونحن نحدد الله حدود . أي تمنع أن يلتبس حق بحق ، أو أن يلتبس حق بباطل ؛ فهو الذي يصح الحدود وهو الذي فصل حقوقاً عن حقوق .

وسنرى عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق في البيوت والأراضي فنحن نضع حدوداً واضحة ، ومعنى « حد » أي فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحدهما ليس له

من آخر الحدود التي نصحبها نحن والتي قد لا ينتبه إليها كثير من الناس ، هي نوعان : نوع لا يتعدى بالبناء ، فعندما يريد واحد أن يبني ، فالأول بيتي على الأرض التي هي حق له ، ويكون الجداران ملتصقين ببعضهما ببعض . وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فلاح يزرع في أرضه وبين القطعتين حد ، وهذا يحدث في النعم .

لكن لنفترض أن فلاحا يريد أن يزرع أرزا ، وجاره لن يزرع أرزا ، فقلبي لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياهها زائلة ، فاليه تصلح للأرز وقد تصد غيره ، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم رابع الأرز حدا اسمه « حد الحيرة » ليمنع الضرر ، وهو ليس « حد الملكية » فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين ، ويصنع بها حد الحيرة ، حتى لا تتعدى المياه التي يروي بها الأرز إلى أرض الجار . إنه حد يمنع الضرر ، وهو يختلف عن الحد الذي يجمع الملك .

إذن نفس ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة : « لا تجعل حنك عند آخر حدك » بل اجعل حنك في الانتفاع بعيدا عن حدك ، وهذا في الملكية . وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجارك . وكذلك يعاملنا الله ، ويقول في الأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

وفي الرواى يقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أنك إذا ما تلقيت أمرا ، فلا تعد هذا الأمر ، وهذه هي الملكية ، وإذا ما تلقيت نهيًا فلا تقرب الأمر المنهى عنه . مثال ذلك النهى عن الخمر ، فالحق لا يقول : « لا تشرب الخمر » ، وإنما يقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأرلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . أى لا تذهب إلى المكان الذي توجد فيه من الأصل ، كن في جانب وهذه الأشياء في جانب آخر .

وبذلك قلنا في قصة أكل آدم من الشجرة : أقال الحق : « لا تأكلا من الشجرة » أم قال ولا تقربا هذه الشجرة ؟ سبحانه قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة الأعراف)

وهذا حد اسمه « حد عدم المضارة » إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان شهوة أو رغبة الأكل من الشجرة . وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تغريك ففى الأوامر يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » وهذا ما يتعلق بالملكية .

وفى النواهي يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الحديث : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لمرصه ودينه ، ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام ، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعها ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »^(١)

لذلك نجيب حدود الله . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا تَبْشِرُوا مَن وَاثَمَ عَنْكُمُ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يَسِّرُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأل له زوجته لتناقشه فى أمر ما فعل المؤمن أن يمثل لأمر الله بعدم مباشرة الروجة فى المسجد . ولا يجمل المسائل قريبة من لمباشرة ، لأن ذلك من حدود الله . وسبحانه يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

وهما فى مسائل الميراث يقول الحق :

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(سورة النمل)

وكان يكفي أن يقول الحق - من بعد بيان الحدود - : «ومن يطع الله» ولكنه قال :
«ومن يطع الله ورسوله» وذلك لبيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع
حدودا من عنده لما حل ، وأن يضع حدودا لما حرم . وهذا تفويض من الله لرسوله
في أنه يشرع ؛ لذلك فلا نقص في كل شيء «أريد الحكم من القرآن» .

ونرى من يقول : بينا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ،
وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم
مفوض في التشريع وهو القائل :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىكُمْ عَنْهُ فَأْتُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

إنه صلى الله عليه وسلم مفوض من الله ، وهؤلاء الذين ينعون بالاحتكام إلى
القرآن فحسب يريدون أن يشككوا في سنة رسول الله ، إنهم يحتكمون إلى كتاب
الله ، ويسرون أو يتجاهلون أن في الكتاب الكريم تفويض من الله لرسوله صلى الله
عليه وسلم أن يشرع .

هم يقولون : بينا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا
فيه من حرام حرّمناه . وقولهم لئلا هذا الكلام دليل على صدق رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما يقول ، لأنهم لو لم يقولوا بقلنا :

يا رسول الله لقد قلت : روى المقدم بن معدي كرب قال : حرم النبي صلى الله
عليه وسلم «أشياء يوم خيبر منها الخمر والأهل وغيره فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: يوشك أن يقدم الرجل منكم على أريكته يحدث بعديشي فيقول: بئس وبينكم

كتاب الله فيها وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله^(١) .

فكيف يا سيدي يا رسول الله ذلك ، ولم يقل أحد هذا الكلام ؟
إذ فهو لهم الأحق دليل على صدق الرسول فيما أخبر . وسحروهم الحق ،
فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول حصوم السبي على صدق كلام النبي .

والحق يقول : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات » والذي يطيع الله ورسوله في
الدنيا هو من أخذ التكليف وطبقه ويكون الجراء هو دخول الجنة في الآخرة . لكن
إدخال الجنة هل هو منهج الدين ، أو هو الجراء على الدين ؟

إنه الجراء على الدين ، وموضوع الدين هو السلوك في الدنيا ، ومن يسير على
منهج الله في الدنيا يدخل الجنة في الآخرة ، فالآخرة ليست موضوع الدين ، لكن
موضوع الدين هو الدنيا ، فمتى تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك : لم
نعمل للدين موضوعا ، إليك أن تقول بموضوع الدين هو الآخرة لأن الآخرة هي دار
الجاء ، وفي حياتنا نأخذ هذا المثل : هل الامتحان موضوع المناهج ، أو أن المناهج
يقراها الطالب طوال السنة ، وهي موضوع الامتحان ؟

إن المنهج التي يدرسها الطالب هي موضوع الامتحان ، وكذلك فالدنيا هي
موضوع الدين ، والآخرة هي جزاء لمن نجح ولم يرسب في الموضوع ؛ لذلك فإياكم
أن تقولوا : دنيا ودين ، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين ؛ لأن الدين هي موضوع
الدين . فالدنيا تقابلها الآخرة والدين لها . الدنيا مزرعة والآخرة محصدة . مهد نرد
على من يقول : إن الدنيا متعصلة عن الدين .

ومن يطع الله ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات ، وهل دلالة « من »
للواحد ؟ لا ، إن « من » تدل على الواحد ، وتدل على المشي وتدل على الجميع ،

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر

مثال ذلك نقول : جاء من لقيته أمس ونقول أيضا جاء من لقيتهما أمس ، ونقول
ثالثا : جاء من لقيتهم أمس . إذن فـمَنْ « صاحبة للمفرد والمثنى والجمع .

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا لو جمع . كما قلنا في أول العائنة .

﴿إِنَّا لَكَ نَفِئِدٌ وَإِنَّا لَكَ نَسِيعٌ﴾

(سورة الفاتحة)

على الرغم من أن القلمس أن تقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » . لكن قال الحق سبحانه : « إياك أعبد وإياك مستعين » ، ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة في العبادة .

وهناك من يقول إذا دلت : (مَر) على المقرد فقد لحظنا لقطها ، وإذا دلت على
المتنّى أو الجميع فقد لحظنا معناها .

ولمن يقول ذلك نقول . إن هذا الكلام غير عطف علميا ، لأن لفظ « من » لم يقل أحد إنه للمفرد . بل إنه موضوعة للمفرد والمثنى والجمع . فلا تقل : استعمل لفظ « من » مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى ، لأن لفظ « من » موضوع لمعان ثلاثة هي المفرد والمثنى والجمع .

وقد سألني أخ كريم في جلسة من الجلسات : لماذا يقول الحق سبحانه في سورة الرحمن :

﴿وَمِنْ حَافِ مَقَامِ رَبِّهِ حِشَابٌ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿

(سورة الرحمن)

فقلت له : إن سورة الرحمن استهلها الحق سبحانه وتعالى :

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝﴾

(سورة الرحمن)

وبعد ذلك قال الحق :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ① وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَرْجٍ مِنْ نَارٍ ② ﴾

(سورة الرحمن)

وقال سبحانه :

﴿ سَنَسْرِغُ لَكَ آيَةَ الْفَلَاحِ ③ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال تعالى :

﴿ يَسْتَحْشِرُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَرَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُطُنٍ ④ ﴾

(سورة الرحمن)

إذن فمن خالف مقام ربه ، هو من الجن أو من الإنس ، إن كان من الجن فله جنة ، وإن كان من الإنس فله جنة أخرى . إذن فمن خالف مقام ربه فله جنتان .

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن ، لأن الله لا يعاقب من أزمة أماكن ، فحين شاء أزالا أن يخلق خلقا لمصاهم حدا من لندن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وعمل الكل على أنه مؤمن مطيع ، وأنشأ لكل واحد مكانه في الجنة ، وعامل سبحانه الكل على أنه عاصي ، وأنشأ له مقعدا في النار ، وذلك حتى لا يفهم احد أن المسألة هي أزمة أماكن

فلذا دخل صاحب لجة جنته ، بقيت جنة الكافر التي كانت معه له على لرض أنه مؤمن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑤ ﴾

(سورة الفرقان)

فيرث المؤمن ما كان قد أعد لعبه لو أموا .

إذن فالمعان نجدها صوابا عند أي أسلوب من أساليب القرآن .

وهو يقول الحق . « بدخله جنت تجري من تحتها الأنهار » ويجب أن نفهم أن
النهر هو الشق الذي يسيل فيه الماء وليس هو الماء ، الحق يقول : « جنت تجري من
تحتها الأنهار » فأي تجري الأنهار ؟

أنجري الأنهار تحت رروعه ، أم تحت بنياها ؟ ونعرف أن الزروع هي التي نحتاج
إلى مياه ، ونحن نريد أن نبعد المياه عن المباني كيف ؟ ولكن ليس هناك شيء
مستحيل على الله ، لأنها تصميمات ربانية .

فالخلق قد تشق نهرا ، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب في الميا ، لكن
تصميمات الحق بطلاقة القدرة ، تكون فيه الجنت تجري من تحتها مياه الأنهار ،
ولا يحدث منها نشع ، سواء من تحت أبنية الجنت أو من تحت رروعه والذي يقبل
على أسلوب ربه ويسأله أن يفيض عليه ويلهمه ، فهو - سبحانه - يعطيه ويمنحه
فالحق مرة يقول : « جنت تجري من تحتها الأنهار » ومرة أخرى يقول : « جنت
تجري تحتها الأنهار » فهذا ممكن وذاك ممكن .

فهو - سبحانه - « جنت تجري تحتها الأنهار » قد يشير إلى أن الأنهار تكون
أمية من موقع آخر وتجري وغمر من تحت الجنت . لا . هي تجري منها أيضا يقول الله
تعالى : « جنت تجري من تحتها الأنهار » حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد
عنك المياه من أعلى إنها أنهار ذاتية . وعندما نقرا أن الأنهار تجري من تحت الجنت
بما فيها ومن فيها من قصور فقد يقول قائل : ألا أستطيع أن آخذ من هذه وأنا
مهندس أصنع تصميمات مباني الدنيا وآخذ من قول الحق إنه من الممكن أن نقيم مباني
تجري من تحتها الأنهار ؟ وبالفعل آخذ البشر هذا الأمر اللافت .

نحن نقيم القناطر وهي مباني وتجري من تحتها الأنهار ، وعندما تكون المواصفات

صحيحة في الطوب والأسمعت إلى آخر المواصفات فلا شئ يحدث ولا حلحلة في المبنى . فلخلل الذي يحدث في المبنى عندما ، إنما يأتي من أثر الخيانة في السلوك ومن الممكن أن تجري الأنهار تحت قصور الجنة . لقي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ألا يوحى ذلك للمهندس المسلم أن يحيا في هذه اللفظة الإلهية ويأخذ منها علما ويستطيع أن يقيم مبان تجري من تحتها الأنهار ؟ لو تسهب إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل لفعل ذلك بتوفيق الله .

ولنتكلم على مصر لقي تعانى من أزمة إسكان ، ونحدد أن المساحة المأهولة تأخذ قدرا كبيرا من الأرض ، سواء أكانت الليل ، أم القروى التى تأخذ من الليل ، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك حنسة إيمانية لاستغلت المساحات والمسطحات المعطلة ، نقيم عليها مبان نضع مرافق الدولة كلها ، ونصمم إنجاز المباني فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف . وليس معنى ذلك أن نبني كل الأماكن حتى تصبح مسدودة بالمباني ، ولكن نبني الثلث ، ونترك مراعيا مقدار الثلث حتى لا نفقد المنظر ، ولا نتعدى على أرض خضراء مزروعة ، إنما إيمانية على المهندس المسلم أن يفكر فيها .

إن بلدا كالعاهرة تحتاج إلى مرافق مختلفة متنوعة ، ويستطيع أن نبني عن الفراغات سواء أكانت فراغات في مساحات الليل شرط مراعاة الفراغات وانزوع اللامعة لجبال البيئة وتنقيتها من اللوث . أم نبني المرافق تحت الأرض ، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق ، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحرى في هذا المجال .

واحق يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » صحيح أن الجنة ستكون نعيميا ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتمتع به الإنسان يكون على قدر التصور في معطيات النعيم ، وقلنا قديما : إن عمدة إحدى القرى قال : أريد أن أبني مضيضة وحجرة للتليفون ، ومصطبة نفرشها هذا هو النعيم في تصور العمدة . ونحن في الحياة نخاف أن نترك النعيم باللوث أو بتركنا النعيم لكن كيف يكون النعيم عند صانع كل التصورات وهو

الحق سبحانه وتعالى ؟ لذلك تكون جنات النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هي تذهب .

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا دناء بعده « وذلك الفوز العظيم » وما هو « الفوز » ؟

إنه النصر ، إنه افضلية ، إنه النجاح ، إنه الظفر المطلوب

فيذا كان فوزنا في الدنيا يعطينا جائزة نخرج بها ، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التي يملكها الواحد منا ، فما بالنا بالفوز الذي يأتي في الآخرة وهو فوز الخلود في حبه من صنع ربنا ، أليس ذلك فوزا عظيما ؟

إننا إذا كنا نفرح في الدنيا بالفوز في أمور جارية فما بالنا بالفوز الذي يحسنه الحق ويوسع بعظمته سبحانه وتعالى ، ولو قسمنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة ، ومهما ضحى المؤمن في سبيل الآخرة ، فهناك فوز يعوض كل التضحيات ، ويسمو عن كل هذا

وإذا قال قائل : ألم يكن من الأفضل أن يقول : ذلك الفوز الأعظم نقول له : إنك سطحي الفهم لأنه لو قال ذلك لكان فوز الدنيا عظيما ، لأن الأعظم يقابله العظيم ، والعظيم يقابله الحقيق فحين يقول الحق عن فوز الآخرة : إنه عظيم ، بمعنى ذلك أن فوز الدنيا حقير ، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه .

وبعد ذلك يأتي الحق بالمقابل . فيقول .

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
فِي الْأَخْيَادِ الَّذِينَ فِيهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِمٌ ﴿١﴾

وسبحانه قال من قبل : « تلك حدود الله » . والحدود إما أن تين الأوامر وحدها وإما أن تين النواهي وحدها . فهي شاملة أن يطيعها الطائع أو يعصها العاصي .

فإن كنت تطيع فلك جزاء الطاعة وتأخذ الجنات والخلود والفوز العظيم .
لكن ماذا عن يعصى ؟ إن له المقابل ، وهذا هو موقفه وجزاؤه أن له العذاب « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

ها نجد « نارا » واحدة ، وهناك مجد « جنات » . هذا ملحظ أول ، وإنا كنا متنبهين ونقبل على كتاب الله ، ونعرف أن المتكلم هو الله ، وإنا نجد الملحظ الثاني وهو خلوه للمؤمنين في جنات ، أما الكافر فيدخل النار . ولم يقل الحق نيراناً ، ولم يقل الحق أبصاراً « خالدين » لماذا ؟ لأن المؤمنين سيكونون في الجنة على سرر متقابلين ، ويتزاوون ، وكل واحد يستمتع بكل الجنات ، وأيضاً إن المرء إذا كان له من عمله اصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه في الإيمان ، فإن الحق - سبحانه - يلحق به ذريته ويكون هو وذريته في النعيم والجان كرامة له فتكون الجنات مع بعضها وهذا ادعى للإنس

ولكن الموقف يختلف مع الكافر ، فلن يلحق الله به أحداً وكل واحد سيأخذ ناره ، وحتى لا يأنسوا مع بعضهم وهم في النار ، فالأنس لن يعطوه أبصاراً ، فكل واحد في ناره تماماً مثل الحبس المفرد في زنزانة . ولن يأنس واحد منهم بمعذب آخر . إذن فهناك « جنات » و « نار » و « خالدين » و « خالداً » ، وكل استخدام للكلمة له معناه . والطائع له جنات يأنس فيها بذريته وذوته أهل الإيمان ويكونون خالدين جميعاً في الجنات ، أما العاصي فهو في النار وحده خالداً « وله عذاب مهين » .

إن العذاب يكون مره أليماً ، ومنال ذلك أن يؤلم واحد عدوه فينجلد عدوه حتى لا يرى شئانة الذي يعذبه . ويقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أرمو

أن ليريب الدهر لا أنضمض

فيكنتم الألم عن خصمه ، لكن هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فهناك بهاته في النفس ، فعذاب الله يجمع الألم والإهانة . إياك أن تمنهم أن هنالك من يقدر على أن يتجند كما يتجلد الشر عند وقوع العذاب في الدني - إن عذاب الآخرة مهين ومذل للنفس في أن واحد .

وهكذا نجد أن المرحلة الأولى من سورة النساء عالجت وحدة الإنسان أولاً ، ووحده أمماً ، وعالجت كيف بث الله منها رجالاً كثيراً ونساء . وعالجت السورة أيضاً ما يطرأ مما يجري به قدر الله في بعض خلفه بأن يتركوا أيتاماً صغاراً ، وأنه سبحانه أراد استبقاء الحياة الكريمة للنفس الإنسانية ؛ لذلك طلب أن تصنع الخير والمودة مع اليتامى ، ووضع أسلوب التعامل الإيمان معهم . وأن نكون أوصياء قائمين بالعدالة والإرادة الحسنة المفضية لأموالهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد فيتسلموها .

وأيضاً عالجت السورة أمراً آخر وهو استبقاء الحياة الكريمة للنساء والأطفال ضمن السبيح الاجتماعي . ذلك أن العرب كانوا يمنعون النساء من الإرث ، ويعسرون - كذلك - من الميراث من لم يطلعن برمح ولم يضرب بختنجر أو سيف ولم يشترك في رد عدوان . فأراد الله سبحانه هذه لفظة الذليلة المضطهدة أن تأخذ حقها ليحسب النصران في كرامة ويستبقها الحياة في عزة وهمة وفي قوة ، فشرع الحق نصيباً محددًا للنساء يختلف عن نصيب الرجال مما قل أو كثر ، وبعد ذلك استطرد ليتكلم عن الحقوق في الموارث وأوضح سبحانه الحدود التي شرعها لهذا الأمر ، فمن كان يريد جنات الله فليطع الله ورسوله فيها حد من حدود . ومن استغنى عن هذه الجنات فليعص الله ليكون خالداً في النار .

إذن فالحياة الإنسانية هبة من الله لعباده ، ومن كرمه سبحانه أن أوحد لها - قبل أن يوجد لها - ما يقيم أود الحياة الكريمة لذلك الإنسان المحكوم ، هوحد الإنسان على الخير ، ولم يعد الخير على الإنسان ، أي أن الحق سبحانه لم يخلق الإنسان أولاً ثم صنع له من بعد ذلك الشمس والقمر والأرض والعصر ، لا ، لقد خلق الله هذه العاصر التي تخدم الإنسان أولاً وأعد لها لاستقبال الطارق الحديد - الإنسان - الذي اختاره سبحانه ليكون خليفة في الأرض فالخير في الأرض الذي نسبى به الحياة سبق وجود

الإنسان ، وهذه عناية من الحق الرحمن بمخلوقه المكرم وهو الإنسان . وجعل الله للإنسان وسيلة للتكاثر وربطها بعملية الإمتاع ، وهذه الوسيلة في التكاثر تختلف عن وسائل التكاثر في لزروع والحيوانات ، فوسيلة التكاثر في كل الكائنات هي لحفظ النوع فقط .

وأراد - سبحانه وتعالى - أن يكون الإمتاع مصاحباً لوسيلة التكاثر الإنساني ، ذلك أن المشقات التي يتطلبها النسل كثيرة ، فلا بد أن يجعل الله في عملية التكاثر متعة تعزى الإنسان .

وأراد الحق سبحانه بذلك أن يأتى بالضعفاء ليجعل منهم حياة قوية .

ويوصينا الحق باليتيم من البشر ، وقد يقول قائل :

مادم الحق سبحانه وتعالى يوصينا حتى نشيء من اليتيم إنساناً قوياً وأن نحسن إلى اليتيم ، فلماذا أراد الله أن يموت والد اليتيم؟ . نقول : جعل الحق هذا الأمر حتى لا تكون سياة الإنسان ضربة لازب على الله ، إنه يخلق الإنسان بعمر محدد معروف له سبحانه ويجهول للإنسان ، فالإنسان قد يموت جنيناً أو طفلاً أو صبيّاً أو رجلاً أو هرمّاً . بل نحن نجد في الحياة إنساناً هرمّاً مازال يحيا بيت ويموت حفيد حفيده ، لماذا؟ .

لأن الله أراد أن يستر قضية الموت عن الناس ، فلا معرفة للإنسان بالعمر الذي سوف يحياه ولا بزمان الموت ، ولا مكان الموت ، حتى يكون الإنسان منا دائماً على استعداد أن يموت في أى لحظة . ومادم الإنسان يعيش مستعداً لأن يموت في أى لحظة ، فعليه أن يستحى أن يلقى الله على معصية . وأيضاً لنعلم أن المنهج الإيماني ؛ صحيح يجعل المؤمنين جميعاً كالبيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً ، فإذا مات رجل وبرك طفلاً يتيماً ، ووجد هذا اليتيم آباء من المجتمع الإيماني ، فإن المنهج الإيماني يستغرق في قلب اليتيم طمأنينة وقيت . ومن حكمة الموت ألا يفتن أحد في آية أوفى الأسباب المسوحة من الله للآباء ، بل نكون جميعاً موصولين بالله .

ومادم الحق سبحانه قد وضع لنا الأسباب لاستيفاء الحياة ، ووضع لنا أسلوب

السمي في الأرض لتستقي الحياة بالحركة بها ، فقد وضع أيضا الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرع ، فسمي يفر الله الإنسان وحده بالحركة لنفسه ، ولكن أغراه أن يتحرك في الحياة حركة تسعه وتسع من يقول ، ويوضح الحق للإنسان : أن حركتك في الأرض مستفيع أولادك أيضا

ولذلك أوجد الله سبحانه في نفس كل والد غريزة الحنان والحب ونحن نرى هذه الغريزة كآية من آيات الله متعمكة في نفوس الآباء ولهذا يسمى الأب في الحياة ليستفيد هو وأولاده . والذي يتحرك حركة واسعة في الحياة قد يأتى عليه زمان يكفه هائل حركته بقيه عمرا ؛ لأنه تحرك بهمة وإخلاص ؛ وأفاد الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجل لمدة عشرين عاماً لو يريد ويضم لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة ، وهناك من يكند ويتعب في الحياة ويكسب رزقا يكفيه ويكفي الأبناء والأحفاد .

وهكذا نجد الذين يتحركون لا يستفيدون وحدهم ، فقط ولكن المجتمع يستفيد أيضاً وتشاء حكمة الله العلية بأن يفتت الثروة بقوانين الميراث لتنتشر الثروة وتتوزع بين الأبناء فتشيع في المجتمع ، وهذا اسمه التمتع بالانسياب . كأن نجد واحداً يملك مائة فلان وبه عدد من الأبناء والبنات وبعد وفاة الرجل يرث الأبناء والبنات كل تركته ، وهكذا تفتت الثروة بين الأبناء فتفتت اسباباً وليس بالتوزيع الفهري الذي يفتت الحقد والعداوة ، ويريد الحق أن نحترم حركة المتحرك ، وأن تعود له حركة حياته ولن يقول فقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمَلْعٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَسَّوْا وَتَنَفَّوْا يُوْرِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا

يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝

(سورة محمد)

هو سبحانه لا يقول لأي واحد . هات المال الذي وهبت لك وقلب سابقا . إنه سبحانه ونعالي يحسن عبداً على عبد فيقول :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا مِمَّنْ يَعْطِيهِ لَهٗ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝

(سورة الحديد)

إن الله سبحانه يحترم حركة احد ، ويحترم ما ملك العبد بعرقه ، ويوصي الحق العبد الغني^١ إن أعانك العبد الفقير في حاجة ، فأقرضني - أن الله - بإعطائك الصدقة أو الزكاة لأخيك الفقير ولم يقل للعبد الغني : أقرص أخاك ، ولكنه قال أقرضني لماذا ؟ لأنه سبحانه هو الذي استدعى الخلق إلى الوجود ، وهو لتكفل برزقهم جميعاً . المزمس منهم والكافر . ولذلك صم الرزق للجميع وأمر الأسباب بأن تستجيب حتى للكافر ، لأنه سبحانه هو الذي استدعاه للوجود .

وسبحانه وضع هذا التورث ، ليصنع التفتيت الإنسيب للملكية حتى لا يأت التفتيت القسري الذي يجعل بعضاً من الأبناء وقد نشأوا في نعمة وأخذوا من مسائل الحياة ما يريدون ، وعندما يأت عليهم هذا التفتيت القسري ، يصحون من المساكين الذين فاجأتهم الأحداث القسرية بالحرمان ، فهم لم يستعدوا لهذا الفقر المفاجيء . لكن عندما يأت التفتيت الإنسيب فكل واحد يعد نفسه لما يستقبله ، ويدأية راسبة ويقدره عن الحركة ، وبذلك قال الحق

﴿ إِنَّمَا الْخِزْيَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝٥١﴾

(سورة محمد)

إنه سبحانه لا يتوب : أنا الذي ملكتك هذا المال ، ولا أنا الذي رزقك هذا الرزق ، مع أنه - سبحانه - هو الذي ملكك ورزقك هذا المال حقا ولكنه بوصح لك حقا في الحركة ، يقول بعد ذلك :

﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَبِمَا كُنْتُمْ تَبْعُونَ أَوْ بِمَخْرِجِ أَصْفَانِكُمْ ۝٥٢﴾

(سورة محمد)

ولو ألع عليك فانت تبجل بها لأنك جيتها بتعب وعرق ولكن ما الفرق بين إنسان لم يسرف على نفسه ، بل عاش معتدلاً ، ثم أبقى شيئاً لأولاده ، والذي جاء بدخله كله ويلدده فيها حرمه الله وأسرف على نفسه في المخدرات وغيرها ، ما الفرق بين هذا وذلك ؟

الفرق هو احترام الحق سبحانه لأثر حركة الإنسان في الحياة ، لذلك يوضح : أنا لا أسألكم أموالكم ، لأني إن سألتكم أموالكم فقد نبخلون ، لأن مالكم عائد من أعمالكم .

ويقول الحق . « ويخرج أضغانكم » وإذا ظهر وخرج الضغن في المجتمع فالويل للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن كل حركة من هذه الحركات القسرية ينشأ منها بروز الضغن في المجتمع كله ، وساعة يبرر الضغن في المجتمع ، انتهى كل شيء جميل . ولذلك وضع الحق أسس ووسائل استبقاء الحياة الكريمة .

وضع أسسا للضعف بما يحويه ، وكذلك لنساء اللاتي كن محرومات من الميراث قبل الإسلام ، وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لتوريث الأطفال والأبناء والنساء حدوداً « تلك حدود الله » ولإياكم أن تتعدوا هذه الحدود ، لأن الإنسان إذا ما تعدى هذه الحدود ، فلا بد أن يكون من أهل النار - والعياد بالله - فقد وضع الله تلك القواعد لاستبقاء حياتك وحياة من نعول .

وهالك لؤن آخر من الاستبقاء ، هو استبقاء النوع ، لأن للإنسان عمراً محدوداً في الحياة وسيتهى ؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع في غيره ، كيف ؟ نحن نتزوج كي يرزقنا الله بالذرية والبيت والحفلة وتستمر حلقات ، وهذا استبقاء للنوع الإنسان

واحق يريد أن يكون الاستبقاء للشوع كريماً ؛ لذلك يأمرنا الحق - سبحانه - أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر ، فليالك أن تستبقى نوعاً من وعاء خبيث نجس ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين ، فلا يدري أحد من ينسب الولد فيصير مضيئاً في الكون ، مجهول السب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف لاستبقى النوع بكرامة .

والحصول على الأهمية النظيفة يكون بالزواج . فيختار الرجل أنثى حليمة ذات دين ونرمي به زوجاً أُملم أحب الناس جميعاً ، ويصير معروفًا للجميع أن هذه امرأة هذا ، وهذا زوجها ، دخوله وحروجه غير محقوت أو موقوت وما يشأ من الذرية

بعد ذلك يكون قطعاً منسوباً إليه . ونجعل الإنسان أن يكون ابنه مهيناً أو عارياً أو جاثماً أو خيراً معترف به ؛ لذلك يحول الأب أن يجعل من ابنه إنساناً مستوفياً لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين ، لا يقدحه واحد فيسبّه وينال منه قاتلاً . جنت من أين ؟ أو من أبوك ؟ فلا يعيش الطفل كسير الجراح ذليلاً طوال عمره . فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع ، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعي .

ومن العجيب أننا نجد هذه لمسألة ذات آثار وضحة في الكون ، فالتى نحاول أن نزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطيبي كأم ألا تلقى ابها الوليد في البحر بل أمام مسجد ؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعي ولذلك ترمى الأم الزانية بظلمها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من النسس الطيبين ، والزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يمن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأموناً عليه .

وهي لا تلقى بوليدها عند دخارة أو دار سبنا ، ولكن ذاتها تضعه عند أبواب المساجد ، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي في مثل هذا المكان ؛ لأنها تخاف عليه ، لذلك تلفه وتضعه في أحلى الملابس ، وإن كانت غيبة فإنها تضع معه بعض من المال ؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك ، والخياء من الذنب هو الذى يجعلها تتخلص من هذا الطفل .

إنما - كم فك - تحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب ، يأخذه ويكون مأموناً عليه . إذن فحقى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتسب في دين الله ؛ وهذا شيء عجيب .

والله يريد أن يبنى بقاء الشرع على النظافة والطهر والعماف ولا يريد للجرائم المفسدة أن توجد في البيوت ؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زوجاً أمام أعين الناس . ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله .

وأضرب هذا المثل . نحن نجد الرجل الذى يحيا في بيت مطل على الشارع وله

ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها ، ولو عرف الرجل أن شابا يحىء ويتمدد ليظهر إلى ابنته فهذا يكون موقف الرجل من الشاب ؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يهر به أو يبلغ ضده الشرطة ويغل الرجل بالغيب والغيرة .

وما موقف الرجل نفسه عندما تنق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته ؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها ، ويبارك للام ويأتى بالمشروبات ويوجه الدعوات لحمل عقد اقران ، هي الفرق بين الموقفين ؟

لماذا بغضب الأب من الشاب الذى يتلصص ؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ بنت بغير حق الله ، أما الشاب الذى جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردا وسلاما . وبعد ذلك يتسلمى الأمر ، ويتم الرفاف ويזור الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها .

إن الفرق بين الموقفين هو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء فلاهن غوايا فى أيديكم » (١) أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٢)

وملأه الله هو الذى خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب : « أريد أن أتزوج ابنتك » بردا وسلاما على قلب الأب ، ويكون الفرح والاحتفال الكبير ؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر . والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنسانى استبقاء نظيفا لا يتنجس أن تحىء منه ولادة ، ولا يتنجس منه المولود نفسه ، ولا يذم فى المجتمع أبدا ، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل ؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل بتنوع واستبقاء النوع هو الذى تأتى من أحله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالا على علم الناس ويعرفها الجميع .

وقد سألتى سائل وأنا فى الجرائر : لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات

(١) عراين . أسيرات جمع عاتية

(٢) رواه النسائ وابن ماجه

نحو : « زوجتك موكلتي » أو تقول هي : زوجتك نفسي « ويذبل الرجل ، وتنكر العلاقة بكلمة « أنت طالق » ؟ وأجبت : لماذا يستيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الروجة بكلمتين ؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين ؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة .

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التي تقدمت ، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التي تأتي ، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لأبد له من إخصاب ، والإخصاب يعني أن يأتي الحيوان المنوي من الذكر ليرضة الأنثى كي ينشأ التكاثر ، والتكاثر في غير الإنسان يتم بحسية فسرية .

ففي الحيوانات نرى الأنثى وهي تجار بالصوت العالي عندما تنزل البوصة في رحمها كالبقرة مثلا ، حتى يقول الناس جميعا إن البقرة تطلب الإخصاب ، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهادا ، ولا تمكن فحلا آخر منها من بعد ذلك ، وهكذا يتم حفظ النوع في الحيوانات

أما في النباتات : فالأنثى يتم تلقيحها ولو عمل بعد أميال . ونحن نعرف بعضا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والحمير ، لكننا لا نعرف التعريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات ، وقد يعرفها المتخصصون فقط ، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة في عود واحد كالذرة مثلا ، فالأنوثة توجد في « الشراشيب » التي توجد في « كوز » الذرة ، وعناصر الذكورة توجد في اسنبله التي يحركها الهواء كي تنزل لتخصب الأنوثة . وكذلك القمح . وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها ! بالله أوجد أحد هذه ذكر مانجو أو ذكر برتقال ؟

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها ، لكن لا بد من أن تتلاحق إخصاب لينشأ التكاثر ، فيوضح ربنا . اطمئنا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح ، بأخذ الريح اللوايح إلى النباتات ، والنبات الذي يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعا من الحشرات غذاؤها في مكان مخصوص من النبات وله لون يجلبها ، حشرة يجذبها اللون الأحمر ، وحشرة يجذبها اللون الأبيض ، لأن الحشرة تذهب للذكورة فيملق بها حيوان الذكورة ، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة ، وهذه العملية تحدث

ولا يدري عنها شيئا .

من الذى يلقح ؟ من الذى يعلمها ؟ ، نه الله القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، فاستبقى لنا الأنواع هريزها وقسريا ، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئا ، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح . ولذلك يقول الحق :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ مَّن السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ

بِخَبْرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(سورة الحجر)

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك في لا تسريه ، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدي كل كائن وظيفته وتنتهي المسألة ، لكن حين كان لك اختيار ، وتوجد مشقات كثيرة في الإنجاب وحفظ النوع ، فقد قرن - سبحانه - حفظ النوع بالمتعة ، وإليك أن تعلم حفظ النوع من المتعة ، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل ، فلا بد أن تعملها لحفظ لنوع المحسوب عليك .

إذن فإليك أن تلقى حيوانك المنوى إلا في وعاء نظيف ، محسوب لك وحدك كي لا تنشأ أمراض خبيثة تفك بك وبغيرك ، ولكيلا ينشأ جيل مضموم السبب ، ولكيلا يكون مهينا ولا ملنسا في حياته ؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها .

ولذلك - سبحانه - سيحكم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاى ، أو الرجل . يكفى بالرجل باللواط لمتعة ، أو رجل يتبع بامرأة على غير ما شرع الله . فعندما تنتفع امرأة مع امرأة ، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع ، يقول لها : أنت أيتها المرأة أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معا . فيوضح سبحانه أنه لا بد أن تكون المتعة في ضوئ منهج الله .

واسمعوا قول الله :

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجِيشَةُ مِنْ نِسَائِكَ
فَأَمْسِكُوهُنَّ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ
أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ مَسْجِلًا﴾

«و اللاتي» اسم موصول لجماعة الإناث ، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة . وماذا يقصد بقوله : « فاستشهدوا عليهن أربعة » ؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراس ، فلا يبلغ كل واحد في عرض الآخر ، بل لا بد أن يضع لها الحق احتياطاً قوياً ، لأن الأعراس ستجرح ، ولماذا « أربعة » في الشهادة ؟ لأنها اثنتان تستمتعان ببعضهما ، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنتان فيكونوا أربعة ، وإذا حدث هذا ورأيها وعرفنا وتأكدنا ، ماذا تفعل ؟

قال سبحانه : « فامسكوهن في البيوت » أي احجروهن واحبسوهن عن الحركة ، ولا تجملوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت « أو يجعل الله لهن مسجلاً » ولد جعل الله .

والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة ، نقول له . إن كلمة « واللذان » هذه اسم موصول لجماعة الإناث ، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر . ففي هذه الحالة يقول الحق :

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَاهَا مِنْكَ فَأُذِوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل ، ولذلك تكون المسألة الأولى تختص للمرأة مع المرأة ، ولماذا يكون العقاب في مسألة لقاء المرأة بالمرأة طلباً للمتعة هو الإسلام في البيوت حتى يتوقامن الموت ؟ لأن هذا شر ووباء يجب أن يحاصر ، فهذا الشر معناه الإفساد لتام ، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة ، فلأن تحبس المرأة حتى تمرت حير من أن تعود على العاشقة ونحن لا نعرف ما انذى سوف يحدث من أصرار ، والعلم مازال قصراً ، والذي خلق هو الذي شرع أن يلتقى الرجل بالمرأة في إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود ، وسبحانه أعد المرأة للاستقبال ، وأعد الرجل للإرسال ، وهذا أمر طبيعي ، فهذا دخن إرسال على استقبال ليس له ، فالتشويش يحدث

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التي قررناها من حلقة فلا بد أن يحدث أمر خاطئ ، ومضر ، ونحن عندما نصل سلكاً كهربائياً مسلك آخر من اسود نصه . . . أى سالب مع سالب أو موجب مع موجب نشأ الحرائق ، ونقول . « حدث ماس كهربائي » ، أى أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة . فإذا كانت اتوصيلة الكهربائية الخاطئة في قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث مما من الأصرار ، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة في العلاقات الحسية مضرّة في الشر ؟

إنني أقول هذا الكلام ليُسجل ، لأن العلم سيكشف . إن متأخراً أو متقدماً . أن الله سرا ، ونحن يشخص رجل بأمرأة بمنهج الله « روجني » . ونقول له روجتك ، فإن الحق يجعل اللقاء طبيعياً . أما إن حدث اختلاف في الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماس صاعق ضار ، وهذا هو الحرائق في المجتمع .

أكرر هذا الكلام ليسجل وليقال في الأجيال القادمة . إن الدين من قبلنا قد اعتدوا إلى نعمة من نفعات الله ، ولم يركنوا إلى الكل ، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله . ففعلوا إلى نفعات الله والحق هو العائل .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَّهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة هك)

فإذا كنا قد اهتمدنا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطى نورا جميلا أما إذا حدث خطأ في الاتصال ، فاللاس يحدث ونتج منه حرائق ، كذلك في العلاقة البشرية ، لأن المسألة ذكورة وأنوثة

والحق سبحانه القائل .

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الداربات)

فإذا كان الور الجمين يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسلب في غير الإنسان ، وتحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئا ، فما بالنا بالإنسان ؟ وفي بعض رحلاتنا في الخارج ، سألنا بعض الناس .
- لماذا خُذتم للرجل نساء ، ولم تعدوا رجلا للمرأة ؟

هم يريدون أن يثيروا خيفة المرأة وسخطها على دين الله ، حتى تقول المرأة الساذجة - منمردة على دينها - . « ليس في هذا الدين عدالة » ، لذلك سألت من سألتهم أعتدكم أماكن يستريح فيها الشاب المتحطل جسا ؟

فكان الجواب : نعم في بعض الولايات هناك مثل هذه الأماكن .

قلت : لماذا احتطتم لصحة الناس ؟

قالوا : بالكشف الطبي الدوري المفاجيء

قلت : لماذا ؟

قالوا : حتى نعرف المصابه بأي مرض .

قلت : أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟

قالوا : لا

قلت : لماذا ؟؟ مسكتوا ولم يجيبوا ، فقلت : لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون المرأة وحده للرجل وحده لا يشأ منها أمراض ، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال في المكان الواحد .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقاء نظمه، لذلك قال :

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَتْحَةُ مِنْ إِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَشِيرَ أَرْبَعَةٍ مِّنْكَ فَإِنْ شَهِدُوا
فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ سَبِيلًا ٥٥﴾

(سورة النساء)

والمقصود بـ «سائكم» هنا المسلمات ، لأننا لا نشرع لغيره ، لأنهم غير مؤمنين بالله . وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين ، لأن للمسلم يعرف قيمة العرض والعدالة . وإن شهدوا فليحدث حكم الله بالحبس في البيوت .

وقد عرفنا ذلك فيما يسمى في العصر الحديث بالحجر الصحي الذي نصح فيه أصحاب المرض المعدي . وهناك فرق بين من أصيب بـ «مرض معدي» ومن أصيب بـ «المعطب والمضبوحة»

فإذا كنت نزل أصحاب المرض المعدي فكيف لا نزل اللاتي أصيبن بالمعطب والمضبوحة ؟ لذلك يقول الحق : «فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله من سبيلا» أى أن نفل كل منهما في المنزل إلى أن يأتى لكل منهما منتهى الموت . وحدثننا كتب التشريع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حل الآية على أنها تخص بزنا باقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين .

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «حنوا عني خدوا عني» البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جند مائة والرجم^(١)

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصصى نصية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد . والثيب بالثيب رجم . وبعض من الناس يقول : إن الرجم لم يرد بالقرآن .

(١) رواه مسلم عن عبادة بن الصامت

مره فقول ومن قال. إن انشريع جاء فقط بالقرآن ؟ لقد جاء لقرآن معجزة
ومنهجا للأصول ، وكما قلنا من قبل . إن الحق قال :

﴿ وَمَا أَسْكُرُ الرُّسُلَ فُجُودُهُ ﴾

(من الآية ٢ سورة الحشر)

وبعد ذلك نتناول المسألة . حين يوجد نص ملوم بحكم ، قد نفهم الحكم من
النص وقد لا نفهمه ، فإذا فهمنا فله تطبيق عملي في السيرة النبوية .

فإذا كان لرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بأصل
نفسه ، فالأسوة تكون بالفعل في إقامة الحد ، لأن الفعل أقوى من النص ، فالنص
قد يوجد ولا يطبق لسبب كالتنسخ للحكم مثلا ، أما العمل فإنه تطبيق ، وقد رجم
الرسول ماعزا والعامدية ورجم اليهودي وابهودية عندما جاءوا يطلبون تعديل حكم
الرجم الوارد بالتوراة . إذن فالعمل من الرسول أقوى من النص وخصوصا أن
الرسول مشرع أيضا .

وقال واحد مرة إن الرجم لن تروج ، فهذا فعل برجل متزوج قد رنا يفتاة
بكر ؟

والحكم هو : يُرجم الرجل وتجلد الفتاة ، فإن اتفقا في الحالة ، فهما يأخذان حكم
واحد . وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذي يناسبه

وحينما تكلم الحق عن الحد في الإمام - المملوكات - قال :

﴿ قُلِّبْنَ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُخَصَّصَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾

(سورة النساء)

وفهم من ذلك الحد فقط ، لأن الرجم لا يمكن أن نقرم بتقسيمه إلى نصفين ،
فالأمة تأخذ في الحد نصف آخر ، لأن الحرة البكر في الرن تجلد مائة جلدة ، والأمة
تجلد خمسين جلدة .

وما دام للأمة نصف حد المحصنة ، فلا يأق - إذن - حد إلا فيها بنصف ، والرجم لا بنصف ، والدليل أصبح نهائيا من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشرع وليس مستنطا ، وقد رجم رسول الله ولما تأخذ الأمة نصف عقاب الحرة ؟ لأن الإمام مهدورات الكرامة ، أما الحرائر فلا . ولذلك يهد امرأة أبي سفيان قالت . أو ترى الحرة ؟ قالت ذلك وهي في عتف جاهليتها . أي إن الزنا ليس من شيمة الحرائر ، أما الأمة فمهدورة الكرامة نظرا لأنه مجترا عليها وليست عرض أحد .

لذلك فعلها نصف عقاب المحصنات ، وقد تعامل بعضهم عن وضع الأمة المتروجة التي زنت ، وانرجم ليس له نصف .

نقول الرجم فقد للحياة فلا نصف معه ، إذن فنصف ما على المحصنات من العذاب ، والعذاب هو الذي يؤلم ونشهد على ذلك بأية لتبين الرأي القاطع بأن العذاب شيء ، والقتل وإزهاق الحياة شيء آخر ، ونجد هذه الآية هي قول الحق على لسان سليمان عليه السلام حينما تفقد الطير ولم يجد المهدد :

﴿ لَا عَذِيبَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَدْبَحْنَهُ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة النمل)

إذن ، فالعذاب غير الدبح ، وكذلك يكون العذاب غير الرجم . فالذي يحتاج به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم ، لأن الأمة عليها نصف ما على المحصنات ، والرجم ليس فيه تنصيف نقول له : إن ما تشهد به باطل ، لأن الله فرق بين عذاب وبين الدبح ، فقال على لسان سليمان : لَا عَذِيبَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا دَبَحْنَهُ ، فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح ، والعذاب أيضا غير إزهاق الروح بالرجم . إذن فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته ولتناقش الأمر بالمقل :

حين يمتدئ إنسان على بكر ، فما دائرة المجوم على العرض في البكر ؟ إنها أضيق من دائرة المجوم على الثيب ، لأن الثيب تكون متزوجة غالبا ، فقصارى ما في البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ . أما الثيب فالاعتداء يكون على

عرص الروح أيضا ، وهكذا نكون دائرة الاعتداء أكبر ، إنه اعتداء على عرص الأب والأم . والإحوة والأعمام مثل البكر ، وراد على ذلك الروح والأبناء المتسلسلون . فإذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهي ، فالأبناء طبقة تستديم ، لذلك يستديم العار . واستدامة العار لا يصح أن نكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع ، فإن سويت بين الاثنين بالجلد فهذا يعنى أن القائم بالحكم لم يلاحظ اتساع جرح العرص .

إن جرح العرص في الكرم محصور وقد ينتهى لأنه يكون في معاصرين كالأب والأم والإخوة ، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم في الشيب المتروجة ولها أولاد يتناسلون ؟ إنها رقعة متسعة ، مهمل يساوى الله - وهو لمعادل - بين ثيب وبكر بجلد فقط ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا .

إذن فالمسألة يجب أن تؤخذ بحسبها رسول الله وهو المشرع الثاني الذي امتاز لا بالهم في النص فقط ، ولكن لأن له حق التشريع فيها لم يرد فيه نص ! فسنأخذ بما عمله وقد رجم رسول الله فعلا ، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيا ، الشيب بالثيب هو الرجم ، وأبكر بالبكر هو الجلد ، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه ، ويكون الحكم متطبقا تماما ، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع ، لأن حفظ النوع هو أمر أساسي في الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه ، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه ، ونحسب تربته ونطعمه خللا ، وحفظ النوع بالمحافظة على صهارة المخالطة .

والحق سبحانه وتعالى يمد خلقه حين يغفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج من غير المؤمنين بمنهج الله ، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله ، فثبت لك بأن المنهج سليم . ولقد تعرضنا لذلك من قبل مرارا وبكررها حتى ثبت في أذهان الناس قال الحق :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ

وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فلا يقولن قائل إن القرآن أخبر بشيء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها ونرد عليه لو عهت أن الله قال «ليظهره على الدين كله» وأضاف سبحانه : «ولو كره المشركون» ، «ولو كره الكافرون» كما جاء في موقع آخر من القرآن الكريم ، لقد أوضح الحق أن الإسلام يظهر ويتجلى مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرک ولم يقل سبحانه : إن الإسلام سيمنع وجود أى كافر أو مشرك .

وكيف يكره الكفار والمشركون إظهار الله للإسلام ؟ إسم لا يديون بدين الإسلام ، لذلك يحزنهم أن يظهر الإسلام على بقية الأديان . وهل يظهر الإسلام على الأديان بأن يسيطر عليها ويظل تلك الأديان ؟ لا . إنه هو سبحانه يوضح بالقرآن والسنة كما يوضح لأهل الأديان الأخرى

بأنكم ستضطرون وتضغظ عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مخلصا لكم مما أنتم فيه إلا أن تطبقوا حكما من حكم الإسلام الذي نكرهوه .

وحين تصغظ الحياة على الخصم أن ينفذ رأى حصسه فهذا دليل على قوة الحياة ، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولركره الكافرون والمشركون ، وهذا قد حدث في زماننا ، فقد روعت أمة الحضارة الأولى في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٨١ بما ثبت صديق الإسلام في أنه حين ضمن ووضع لسمخاطات التي تبغى النوع نظاما ، وهو التعاقد العلفى والزواج المشروع ، فالحق قد ضمن صحة الخلق لكن الحضارة الأمريكية لم تنب إلى عظمة قانون الحق سبحانه فرَّعت بظهور مرض جديد يسمى « الإيدز » و« إيدز » مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات حرف « A » ، وحرف « I » ، و« D »

ومعنى اسم المرض بالترجمة العربية الصحيحة « نقص مناعى مكتسب » والوسيلة الأولى للإصابة به هي المخالطة الشاذة ، ونشأت من هذه الملاحظات الشاذة فيروسات ، هذه الفيروسات ملوالت العلماء يدرسون تكوينها ، وهي تفور صحوما وتسبب آلاما لا حصر لها ، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية حول الفرع والمطلع من هذا المرض .

ومن العجيب أن هذه الفيروسات تأتي من كل المحالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى عناصر الزواج : «يجابا» و«قبولا» و«علانية» إنه جعل من الزواج علاقة واضحة محسوبة أمام الله ، هذا هو النظام الرباني للزوج الذي جعل في التركيب الكيميائي للنفس البشرية «استقبالا» و«إرسالا» .

والبشر حين يستعملون الكهرباء . . فالسلك الموجب والسلك السالب - كما قلنا - يعطيان نورا في حالة استخدامهما بأسلوب طبيعي ، لكن لو حدث خلل في استخدام هذه الأسلاك فالذي يحدث هو ماس كهربائي تنتج منه حرائق . وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعها الله بمنطق الإيجاب والقبول العلني على مبدأ الإسلام ، فإن التكوين الكيميائي الطبيعي للنفس البشرية التي توصل ، والنفس البشرية التي تستقبل تعطي نورا وهو أمر طبيعي .

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجد شابا ينظر إلى إحدى محارمه ، فهو يتغير ويتفعل بمعنى الفتك به ، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوألد الفتاة : «أنا أريد خطبة ابنتك لابني» فالموقف يتغير وتفرج الأساور ويقدم الفرح .

إنها كلمة الله التي أثرت في التكوين الكيميائي للنفس وتضيق كل هذا الإشراف والبشر ، وإعلان مثل هذه الأحداث بالطبول والأنوار والزينات هو دليل واضح على أن هناك حاجة قد عملت وأحدثت في النفس البشرية مفعولها الذي لوأله الله من الاتصال بالطريق النظيف الشريف المعيف .

فكل اتصال عن غير هذا الطريق الشريف والمعيف لابد أن يشأ عنه خلل في التكوين الإنساني يؤدي إلى لويثة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن .

وعلى هذا فيكون قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِينَ الْفِتْنَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ رُبْعَةً بَعْدَ مَكْرٍ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَكُنَّ لَكُمْ فِي السُّيُوفِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

(سورة النساء)

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طبق الرسول إقامة الحد . ويقول الحق :

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

والحق سبحانه وتعالى تواب ورحيم ، ونعرف أن صفة المبالغة بالنسبة لله لا تعني أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية ، وكل صفات الله واحدة في الكمال المطلق . وقلت من قبل : إنني عندما أقول : « فلان أكل » قد يختلف المعنى من قولي : « فلان أكل » ، فبمثل هذا القول أبالغ في وصف إنسان يأكل بكثرة ، فهل هو يأكل كثيرا في الوجبة الواحدة ، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف يعدد الوجبات ، فبدلا من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات ، عندئذ يقال له : « أكل » ، أي أنه أكثر عدد الوجبات ، وإن كانت كل وجبة في ذاتها لم يزد حجمها

أو هو يأتي في الوجبة الواحدة فيأكل أصعاف ما يأكله الإنسان العادي في الوجبة العادية ، فيأكل بدلا من الرغبة أربعة ، فنقول إنه « أكل » ، إذن فصفة المبالغة في الخلق إما أن تنشأ في قوة الحدث الواحد ، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد .

إن قولك « الله ثواب » معناه أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر ، فالتوبة تتكرر وإذا تاب الحق في الكبائر اليست هذه توبة عظيمة ؟ هر ثواب ورحيم لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع ، وهو الذي خلق النفس الشرية ثم قن لها قوانين وبعد ذلك جرم من يخالف هذه القوانين ، وبعد أن جرم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة .

والثنتين في ذاته يقطع العذر ، فساعة أن قن الحق لا يستطيع واحد أن يقول : « لم أكن أعلم » ، لأن ذلك هو الفانون ، وحين يجرم فهذا لئذان منه بأن النفس البشرية قد تضعف ، وتأت بأشياء مخالفة للمنج ، فمن لسا ملائكة ، وسبحانه حين يقن يقطع العذر ، وحين يجرم فهو لئذان بأن ذلك من الممكن أن يحدث وبعد ذلك يحاقب ، وهناك أفعال مجرمة ، ولكن المشرع الأول لم يجرمها ولم يضع لها قانونا ، لا عن تقصير منه ، ولكن التجريم يأتي كفرع .

إن الله سبحانه قد قدر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك ، كالسرقة - مثلا - إنه سبحانه وضع حدا للسرقة ، وقد تضعف النفس البشرية تسرق ، أو ترقى ؛ لذلك فالحد موجود ، لكن هناك أشبه لا يأت لها بالتجريم والعقوبة ، وكأنه سبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفي على أنها مسائل ما كان يتصور العقل أن تكون . مثال ذلك اللواط ، لم يذكر له حدا ، لماذا ؟ لأن الفطرة السليمة لا تفعله ، بلليل أن اللواط موجود في البشر وخير موجود في الحيوان .

لكن ليس معنى ألا يجرم الحق حدا أنه لا يدخل في الحساب ، لا ، إنه داخل في الحساب بصورة أقوى ؛ لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن النفس من الممكن أن يحدث ، وحين يترك هذه المسألة بدون تجريم ، فمعنى ذلك أن الفطرة السليمة لا يصح أن تفعلها ، ولذلك لم يضع لها حدا أو تجريما ، وترك الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكف بالشرع أن يضع حدا لهذه المسألة

إذن فعلم وجود نص على جريمة أو عقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب عليها ، لا . هناك حساب ، فقد تكون العقوبة أقطع ، وقد أمر الرسول صلى الله

عليه وسلم بإلقاء الفاعل للوط والمعمول به من أهل جبل . إن عقوبتها أن يموتا بالإلقاء من شاطئ جبل ، إذن فالمعقوبة أكثر من الرجم . وهكذا نعرف أن عدم التجريم وعدم العقوبة لأي أمر غير مناسب للعقل والمطرقة السليمة دليل على أن هذا الأمر غير مباح ، والحق لم يترك تلك الأمور سكوتاً عنها ، ولكن هو إجماع من طرف خفي أن ذلك لا يصح أن يحدث ، بدليل أنها لا تحدث في الحيوانات التي هي أدنى من الإنسان .

وبعد ذلك قد يتعلل الإنسان الفاعل لثل هذا الفجح الفاحش بأنها شهوة بيمية . نقول : يا ليت شهواتك المحظرة في التعبير عن نفسها بيمية ، لأن للبهائم لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبداً ، فلا أنتى الحيوانات تقترب من أخرى ، وكذلك لا يوجد ذكر حيوان يقترب من ذكر آخر ، وإذا ما حملت أنثى الحيوان فإنها لا تسمح لأي ذكر من الحيوانات بالاقتراب منها ، إذن فالقبح الفاحش من المحالطة على غير ما شرع الله يمكن أن نسميها شهوة إنسانية ، فالبهائم لا ترتكب مثل تلك الأفعال الشاذة . ومن يقول عن الشهوة إنها بيمية فهو يظلم الحيوانات . والحق سبحانه وتعالى على الرغم من هذه الخطايا يوضح لنا : أنه التوب الرحيم ، لماذا ؟

انظر الحكمة في التوبة وفي قهرها ، فلو لم تحدث معصية من الإنسان الذي آمن ، لفقد التكليف ضروره . معنى التكليف أنه عملية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهلها لمقاومة تنفيذ المعاصي أو لحملها على مشقة الطاعة .

فمقاومة الإنسان للمعاصي خضوعاً للتكليف الإيمان دليل على أن التكليف أمر صحيح ، اسمه « تكليف » وإلا خلفنا الله كالملائكة وانتهت المسألة . وحين يشرع الله التوبة ، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف ، قد يضعف في يوم من الأيام أمام معصية من المعاصي ، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه ، بل هو يفتن العقوبة ، وتفتن العقوبة للمعاصي دليل على أنه سبحانه لم يخرج الذي اختار الإسلام ومعنى من حظيرة الإسلام أو التكليف ، ولو فرضنا أن الحق سبحانه لم يفتن التوبة لصارت اللذة مصير كل من يضعف أمام شهوة ، ولصار المعاصي متمرداً لا يأبه ولا يلمصت من بعد ذلك إلى التكليف ، يبلغ في أعراض الناس ويرتكب كل الشرور .

إذن فساعة شرع الله التوبة سدَّ على الناس باب « الفاعدين » الذين يعملون ذنباً ثم يستمرون فيه ، ومع ذلك فسبحانه حين تاب على المعاصي رحم من لم يعص إنه القائل : « إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً » . ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكي يكون الوصف معه وقائم به لا محالة ، ولكنه أيضاً قال : « تَوَّاباً رَحِيماً » أي أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أي معصية من ابتداء فالرحمة ألا تقع في المعصية .

وبعد ذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى للتوبة :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ
بِجَهْلٍ ثُمَّ يَتَوُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمًا ١٧ ﴾

ولنلتفت إلى دقة الأداء القرآن ، هو سبحانه يقول : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ » وقد يقول واحد . مادام الحق شرع التوبة ، فلا فعل ما أريد من المعاصي وبعد ذلك أتوب . تقول له : إياك لم تلتفت إلى الحكمة في إتمام ساعة الموت ، فما الذي أوحى لك أنك ستجاء إلى أن تتوب ؟ لقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية ، وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآن :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلٍ ثُمَّ يَتَوُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ
يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمًا ١٧ ﴾

(سورة النساء)

وفعل السوء بجهالة ، أي بعدم استحصار العقوبة المناسبة للذنب ، فهو استحضار الإنسان لعقوبة ما فعل المعصية بل هو يتجاهل العقوبة ؛ لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)^(١) .

فلو كان إيمانه صحيحاً ويتذكر كلما أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هي الجلد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق قد قال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » فهناك من يفعل للمعصية ويخطئ لها ويفرح بها ويؤثر بها ارتكبا ويفخر بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية ويجرد أن تنتهي بظلم ماداماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتسائل لماذا فعلت ذلك ؟ .

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما لسفر إلى باريس ، واحد منهما يأل قبل سفره عن حبرة من عاشوا في عاصمة فرنسا ، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إن يلعب إلى باريس حتى ينغمس في اللهو ، وعندما يعود يقتل بفانخر بما فعل من المعاصي .

ولما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين ، إذن هو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أن هدأت شيرة الشهوة غرق في الندم ، وبعد أن عاد استتر من زمن المعصية . هكذا نرى العارق بين المحلطة للمعصية وبين من وقعت عليه المعصية

والله سبحانه حين قدر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتعنين هذه التوبة ، وإلا لفرق العالم في شرو ولا نهاية لها ، بداية من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملاً له ، والمهم في الثالث أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب . والرسول صلى الله عليه وسلم حين حدد معنى « من قريب » قال :

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ خَرِيفٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، فِي رِوَايَةٍ عَنْ مَسْمُودٍ وَاحِدٍ (وَلَا يَقْتُلُ سَدُكُمُ حِينَ يَقْتُلُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِدِينِكُمْ) وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (وَلَا يَتَّهَبُ النَّبِيَّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

(إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يفرغ) (١).

والحوار الذي دار بين الحق وبين إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتُوبُكَ لِأَزِيدَنَّ لَكَ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْنِيَنَّكَ الْجَنَّةَ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا عِبَادَتُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ۝١٩﴾

(سورة الحجر)

إن إبليس قال ذلك وظن أنه سيهلك الشر جميعه ويوقعهم في المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له ، لكن الله - سبحانه - غيَّب ظنه وشرح قبول توبة العبد ما لم يفرغ ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد . فإذا ما قدم العبد التوبة لحظة العزفة فهاذا يستفيد المجتمع ؟ لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ؛ لأنه تلب وقت ألا شر له ، لذلك فعل العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من ضرور للمعاصي . « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » هل يتوب أولاً ، ثم يتوب الله عليه ؟

أنه سبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٢٠﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

هنا وقف العلماء وحق هم أن يتساءلوا : هل يتوب العبد أولاً وبعد ذلك يقبل الله التوبة ؟ أم أن الله يتوب على العبد أولاً ثم يتوب العبد ؟ ، صريح الآية هو : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » ونقول : وهل يتوب واحد لرجحاً له ، أو أن الله شرع التوبة لعباده ؟ . لقد شرع الله التوبة فتتاب العبد ، فقبل الله التوبة .

نحن إذن أمام ثلاثة أمور هي أن الله شرع التوبة لعباده ولم يرتجل أحد توبته ويفرضها على الله ، أي أن أحداً لم يتكرر التوبة ، ولكن الذي خلقنا جميعاً قدّر أن ابواحد قد يضعف أمام بعض الشهوات فوضع تشريع التوبة . وهو المقصود بقوله « ثم تاب عليهم » أي شرع لهم التوبة وبعد ذلك يتوب العبد إلى الله « ليتوبوا »

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرک .

ويعمد ذلك يكون القبول من الله وهو القاتل :

﴿ غَايِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ ﴾

(من الآية ٢ سورة توبة)

قابل كلمة « إنه التوبة على الله » نحتها في منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد مقبلاً ومديناً وأحال دأبه إلى غنى من العباد فإن الدائن يفرح ؛ لأن الغنى سيقوم بسداد الدين وأدائه إلى الدائن ، فما بالنا بالتوبة لقي أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ، إنه قد أحال التوبة على نفسه لا على خلقه ، وهو سبحانه أوجب التوبة على نفسه ولا يملك واحد أن يرجع إليها ، ثم قال : « ثم يتوبون من قريب » أى أن العبد يرجو التوبة من الله ، وحين قال : « فأولئك يتوب الله عليهم » أى أن سبحانه قابل للتوب وغافر للذنوب وحين يقول سبحانه : « وكان الله علياً حكيماً » فحين يعلم أن كل تقصير لأى شيء يتطلب عفو واسعاً بما يمكن أن يكون وينشأ والذين يتحفظون في تقصيرات البشر ، لماذا يفرقون اليوم ثم يعدلون عن التفتيش غداً ؟ لأهم ساعة فسوا غاب عنهم شيء من الممكن أن يحدث ، فلما حدث ما لم يكن في بالهم استدركوا على تقصيرهم .

إذن فلا اضطراب يشأ من عدم علم المقن بكل أحوال من يقترن لهم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، والمقن من البشر قد لا يستوعب الأحداث الماضية ، وذلك لأنه لا يستوعبها إلا في بيته أو في البيعة التي وصله خبرها ، فحق في الماضي لا يقدر ، ولا في المستقبل يقدر ، وكذلك في الحاضر أيضاً ، فالحاضر عند بيعة ما يختلف عن الحاضر في بيعة أخرى . ونحن نعرف أن حواجز الخيب ثلاثة أى أن ما يجعل الشيء قبيحاً من الإنسان هو ثلاثة أمور :

الأمر الأول : هو الزمن الماضي وما حدث فيه من أشياء لم يرها المعاصرون ولم يعرفوها ، لذلك بالماضي قد حُجِرَ عن البشر بحجاب وقوع الأحداث في ذلك الماضي ، ولذلك يلمتنا الله سبحانه وتعالى في تصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ورسول الله لم يكن مع موسى ساعة أن قضى الله لموسى الأمر ، ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً لا يمكنه أن يقرأ التاريخ أو يتعلمه . ويقول أيضاً سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ يَكْمُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ١٤ آل عمران)

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشهد تلك الأزمان التى يأتيه خبرها من الله ، والرسول أمى شهادة الجميع ولم ينجس إلى معلم إذن عالى احترق حجاب الزمن وأحبر الرسول بتلك الأحداث هو الله .

والأمر الثانى هو حجاب الحاضر ، حيث يكون الحجاب غير قادم من الزمن لأن الزمن واحد ، ولكن الحجاب قادم من اختلاف المكان ، فأننا أعرف ما يحدث فى مكان ، ولكن لا أعرف ما الذى يحدث فى غير المكان الذى أوجد به ، ولا يقتصر الحجاب فى الحاضر على المكان فقط ولكن فى الذات الإنسانية بأن يصمر الشخص الشيء فى نفسه فالحق بقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة البقرة)

هنا يخبر الله سبحانه الرسول عن شيء حاضر ومكتوم فى نفوس أعدائه . وبالله لو لم يكونوا قد قالوه فى أنفسهم ، لما صدقوا قول الرسول الذى جاءه إجباراً عن الله وقد حرق الله أمام رسوله حجاب الذات وحجاب المكان

والأمر الثالث : هو حجاب المستقبل ، فيقول القرآن

﴿ سِيرَهُمُ الْجَسَعُ وَيُرَوْنَ الدَّرَبَ ﴾

(سورة القمر)

ونلاحظ أن كلمة « سيرهم » فيها حرف « السين » التى تُنبئ عن المستقبل ، وقد نزلت هذه الآية فى مكة وقت أن كان المسلمون قلة وهم مضطهدون ولا يستطيعون

الدفاع عن أنفسهم . وعندما يسمعونها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يفعل ويقول لرسول الله : أى جمع هذا ؟

وجاء الجمع في بدر وول الدبر . حدث ذلك الإحيدر في مكة ، ووقعت الأحداث بعد الهجرة . وكانت الهجرة في الترتيب الزمني مستقبلاً بالنسبة لوجود المسلمين في مكة .

أكان من الممكن أن يقول سبحانه : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » لولا أن ذلك سيحدث بالفعل ؟

لو حدث غير ذلك لكذبه المؤمنون به .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك إبلافاً عن الله وهو واثق ، ويطلقها الله على لسان رسوله حجة فيمسكها الخصم ، ثم يثبت صدقها لأن الذي قالها هو من يخلق الأحداث ويعلمها .

ويأتى في الوليد بن المغيرة وهو ضخم وفحل وله مهابة وصيت وسيد من سادة قريش ، فيقول الحق :

﴿ سَنَسِيرُ عَلَى الْخَرْطُومِ ۝ ﴾

(سورة الفلم)

أى سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنه علامة في أهل منطقة فيه . ويأتى يوم بدر ، فيجدون الضربة على أنف الوليد . لقد قالها الحق على لسان رسوله في زمن ماضى ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقُرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله في كل شيء . ويأخذون الجزية البسيطة ويرقبونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة . ويقولون :

- إذا أخبرنا رسول الله بغير يحدث في الآخرة فهو الصادق الأمين ، ويأخذون من أحداث الدنيا الواقعة ما يكون دليلاً على صدق الأحداث في الآخرة .

وبدليل الحق الآية : « وكان الله علماً حكياً » أي علماً بالتقنيات فشرع التوبة لعلمه - جل شأنه - بأنه لو لم يشرع التوبة ، لكان المذنب لمرة واحدة سبياً في شقاء العالم ، لأنه - حيثئذ - يكون بلائاً من رحمة الله

إذن فرحة من - سبحانه - بالعالم شرع الله التوبة . وهو حكيم فليدرك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة ، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضاً . وساعة نسمع الزمن في حق الحق سبحانه وتعالى كقوله : « كان ، فلا نقول ذلك قياساً على زماننا نحن ، أو على قدراتنا نحن ، فكل ما هو متعلق بالحق علينا أن نأخذ في إطلاقه ليس كمثله شيء » .

فقد يقول كافر : « إن علم الله كان » ويحاول أن يعمها على أنه علم قد حدث ولا يمكن تكراره الآن ، لا ، فعلم الله كان ولا يزال ، لأن الله لا يتغير ، وما دام الله لا يتغير ، فالثابت له من قبل أزلاً يثبت له أبداً . والحكمة هي وضع الشيء في موضعه . وما دام قد قدر سبحانه وضع الشيء ، فالشيء إنما جاء من علم ، وحين يطابق الشيء موضعه فهذه هي مطلق الحكمة .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ

يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ١٧ ﴾

(سورة التوبة)

لقد شرع الله سبحانه التوبة لينوب عباده ، فإذا تابوا قبل نوبتهم ، وهذا مبني على العلم الشامل والحكمة الدقيقة الراسخة . وانظروا إلى دقة العبارة في قوله : « إنما التوبة على الله » ، فساعة يوجد فعل إيجابي يقال : عمل من ، لكن عندما لا يأتي بفعل إيجابي لا يقال : عمل من ، بل يقال : ليس بالنفي . إن الحق عندما قرر التوبة عليه - سبحانه - وأوجبها على نفسه ، للذين يعملون السوء بجهالة ويتوبون فوراً ، إنه يملك أيضاً على مقابل هؤلاء ، فيقول :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا

الْيَا ١٨ ﴿١٨﴾

هنا يوضح الحق أن توبة هؤلاء الذين يعملون السيئات لم توجد من قريب . وهم يختلفون عن الذين كتب الله قبول توبتهم ، هؤلاء الذين يعيشون وتستحضر نفوسهم قيم المنهج ، إلا أن النفوس تضعف مرة . أما الذين لا يقبل منهم التوبة فهم أصحاب النفوس التي شردت عن المنهج في جهات متعددة ، وهم لم يرتكبوا « سوءاً » واحداً بل ارتكبوا السيئات . فالحدي ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعني أنه ضعيف في ناحية واحدة ويبالغ ويجهل في الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التي لا ضعف له فيها ليحاول ستر ضعفه .

إنك ترى أمثال هذا الإنسان في هؤلاء الذين يببالغون في إقامة مشروعات الخير ، فهذه المشروعات تأتي من أناس أسرفوا على أنفسهم في ناحية لم يقدروا على أنفسهم فيها فباتوا في نواحٍ غير كثيرة ، ويزيدوا في فعل الخير رجاء أن يحو الله سيئاتهم التي تركوها وأقلعوا وتابعوا عنها .

ومن ذلك نعلم أن أحداً لا يستطيع أن يكرر مع الله ، فالحدي أخذ راحته في ناحية ، يوضح له الله : أنا سأتابعك من نواحٍ أخرى لصالح منهي ، ويسلط الله عليه الوهم ، ويتخيل ماذا ستمثل السيئة به ، فيتدفع إلى صنع الخير . وكان الحق يثبت للمسيء : أنت استمعت ب ناحية واحدة ، ومنهي وحيد استغدا منك كثيراً ، فأنت تبني المساجد والمدارس وتتصدق على الفقراء ، كل هذا لأن عندك سيئة واحدة .

إذن فلا يمكن لأحد أن يكر على الله ، وعبر القرآن عن صاحب السيئة بوصف هذه الزلة بكلمة « السوء » ، ولكنه وصف الشاؤد الموغل في الشرود عن منهج الله بأنه يفعل « السيئات » ، فهو ليس صاحب نقطة ضعف واحدة ، لكنه يفترق سيئات متعددة ، ويصن في الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل ، بل إنهم قد لا ينسبون الخير الصادر منهم إلى الدين مثلاً بفعل الملاحقة ، أو الجهلة الذين لا يعلمون بأن كل خير إنما يأمر به الدين .

مثال ذلك مذهب « الماسونية » ، يقال : إن هذا المذهب وضعه اليهود ، والظاهر في سلوك الماسونيين أنهم يجتمعون لفعل خير ما يستفيد منه المجتمع ، وما يخص من أفعال قمة أعضاء الماسونية أنهم يجنحون أغراض الصهيونية ، وقد يتضمن إليهم بعض من لا يعرفون أهداف الماسونية الفعلية ليشركوا في عمل الخير الظاهر . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أنظر إلى دينك ، تجده يمحضك على فعل مثل هذا الخير ، فلماذا تنسب إلى الماسونية ولا تفعله على أنه أمر إسلامي . ولماذا لا تنسب هذا الخير إلى الإسلام وتنسب لغير الإسلام ؟

وفي هذا العصر هناك ما يسمى بأندية « الروتاري » ويعتد الإنسان غرور الفخر بالانتماء إلى تلك الأندية ، ويقول : « أنا عضو في الروتاري » وعندما تسأله : لماذا ؟ يجيب : إنها أندية تحض على التعاون والتواصل والمودة والرحمة ، ونقول له : وهل الإسلام حرم ذلك ؟ لماذا تفعل مثل هذا الخير وتنسب إلى « الروتاري » ، ولا تفعل الخير وتنسب إلى دينك الإسلام ؟ إذن فهذا عداء للمنهج .

ويجد الشاؤدين عن المنهج ، مثلهم كمثل الرجل الذي قالوا له : ما تريد نفسك الآن ؟ ولما رد الرجل أن يحاد الله فقال : تريد نفسي أن أفطر في يوم رمضان ، وعلى كأس خمر ، وأشتري كأس الخمر هذه بشمن خنزير مسروق .

إنه يريد فطر رمضان وهو محرّم ، ويفطر على خمر وهي محرمة ، وبشمن خنزير والخنزير حرام على المسلم ، والخنزير مسروق أيضاً . وسألوه : ولماذا كل هذا التعقيد ؟ فقال : حتى تكون هذه الفعلة حراماً أربع مرات .

إذن فهذه مضارة الله ، وهذا رجس شارد عن المنهج . فهل هذا يتوب الله عليه ؟ لا ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت » وعند لحظة للموت يبدأ الجبن وتمثل أخلاق الأرانبي ، ولماذا لم يصر على موقفه للنهاية ؟ لأنه جاء إلى اللحظة التي لا يمكن أن يكذب فيها الإنسان على نفسه « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن » لكن التوبة لا تقبل ، ولن يستفيع بها المجتمع ، وشر مثل هذا الإنسان انتهى ، وقربه ثاق وهو لا يقدر على عمل ، إذن فهو يستهزئ بالله ، فلا تنفعه التوبة .

ولكن انظروا إلى رحمة الله واحترامه لشهادة الإيمانية التي يقر فيها المؤمن بأنه : « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

هذا المؤمن جمعه الله في سقاين الكافر ، فيأخذ عذاباً على قدر ما فعل من ذنوب ، ويأبى احترام الحق سبحانه لإيمان القصة لقوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فهو ضيع سبحانه : لن يجعلك كالكافر ، بلليل أنه عطف عليه « ولا الذين يموتون وهم كفار » ، وإنما يقدر للمؤمن المعاصي من العذاب على قدر ما ارتكب من معاصي ، ويحترم الحق إيمان القصة ، فيدخلون الجنة ، لذلك لم يقل الحق : إلهم خالدون في النار . وإنما قال : « أولئك اعتدنا لهم عذاباً ألياً » « أولئك » تعني الصغرى - المؤمن والكافر - فالعذاب لكل واحد حسب ذنبه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ
أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهْنَآ وَلَا تَقْضُوا عَنْهُنَّ إِتَّهَبُوا
بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ

فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا

كَثِيرًا ﴿١٩﴾

وفلنا : ساعة ينادى الحق عباده الذى آمنوا به يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ، فمماها : يا من آمنتم به بمحض اختياركم ، وآمنتم به إلهاً له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، مدعتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم . إذن فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق يقول :

﴿ لَا إِسْرَافَ فِي الدِّينِ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة البقرة)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء ويستضعفهم . لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غيب وظلم وحيف عليهن . وسبحانه - قال : « يا أيها الذين آمنوا لا يحمل لكم أن تراثوا النساء كرهاً ، وكلمة « وراث » تدل على أن واحداً قد توفى وله وارث ، وهناك شيء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحد بعده ، لأنه عندما يقول : « لا يحمل لكم أن تراثوا » ، فقد مات مورث ، ويخاطب وارثاً . إذن فالكلام فى الموروث ، لكن الموروث مرة يكون جلاً ، ولذلك شرع الله تقسيمه ، وتناولناه من قبل ، لكن الكلام هنا فى متروك لا يصح أن يكون موروثاً ، ما هو ؟

قال سبحانه : « لا يحمل لكم أن تراثوا النساء كرهاً » ، وهل المقصود ألا يرث الوارث من مورثة إماء تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثة الإماء اللاتي تركهن ، ولكن عندما ننصرف كلمة « النساء » تكون لأشرف مواقعها أى للمحررات ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين ، « لا يحمل لكم أن تراثوا النساء كرهاً » ، وهل فيه ميراث للنساء برضى ؟ وكيف تورث المرأة ؟

نتبه هنا إلى قوله سبحانه « كرهاً » ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات

وعنده امرأة جاء وليه ، وبلغ ثوبه على امرأته فتصير ملكا لعزوان لم تقبل فإمه يرثها كرها ، أو إن لم يكن له هوى منها فهو يجلسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتي واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه ؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك ؛ لذلك جاء القول الفصل :

« لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » ، وه الفصل « في الأصل هو المع ، ويقال : « عضلت المرأة بولدها » ، ذلك أصل الاشتقاق بالعضط . فالمرأة ساعة تند فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتبسط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلا من أن تنبسط العضلات لتتسع للولد أن يخرج تنقبض ، فتأخرها العمليات التي يقومون بها مثل القيصرية .

إذن فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها أي انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الولد ، وعصلت اندجاجة بيضاء أي أن البيضة عندما تكون في طريقها لتزول فتقبض العضلة فلا تنزل البيضة لأن اختلالا وظميا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة ، ولماذا تأخر الحركة ناقصة لليسط ؟ لأن الحق سبحانه ومعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب في الكون تعمل آليا وميكانيكيا بحيث إذا وجدت الأسباب يوجد السبب ، لا . فتكون الأسباب مسبب إن شاء قال للأسباب : قفى فتقف .

إذن فكأن المخالعات التي تراها تتم على خلاف ما تزوده الأسباب إنما هي دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت لأشياء تسير هكذا ميكانيكيا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتحصف . لكن الحق بلغتنا إلى أنه يراد سلطانه في ملكه ، فهو لم يزاو السيطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا في الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا فيوم لا تأخذني ميتة ولا نوم ، أقول للأسباب اعصم أو لا تعمل ، وبذلك نتفقت إلى أنه المسيطر .

ونجد هذه المخالعات في الشواهد في الكون ، حتى لا تقفنا رتبة الأسباب ، ولذكر الله باستمرار ، ويكون الإنسان على ذكر من واجب الأسباب ومن خلفها ، فلا تتولد عندما بلادة من أن الأسباب مستمرة دائما ، وبلغتنا الحق إلى وجوده ، فتختلف

الأسباب لتعلمك إلى أنها ليست فاعلة بداتها ، بل هي فاعلة لأن الله خلقها وتركها
تفعل ، ولو شاء لمعلمها

قلنا هذا في معجزة إبراهيم عليه السلام ، حيث ألقاه أهله في النار ولم يحرق ،
كان من الممكن أن ينجي الله إبراهيم بأي طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة
إبراهيم ؟ إن كانت المسألة كذلك فما كان ليكنهم منه ، لكنه سبحانه مكنهم منه
وأمسكوه ولم يقلت منهم ، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما القوه في
النار ، وكان المطر كفيلا بإطفاء النار ، لكن لم تطر السماء بل وتأجج النار . وبعد
ذلك يقول لها الحق :

﴿ لَمَّا يَنْتَرُكُونِي يردًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۚ ﴾

(سورة إبراهيم)

بالله أمدا غيظ لهم أم لا ؟ هذا غيظ لهم ، فقد قدرتم عليه وألقيتوه في النار ،
وبعد ذلك لم ينزل مطر ليطفى النار ، والنار موجودة وإبراهيم في النار ، لكن النار
لا تحرقه . هذه هي عظمة القدرة .

إذن فما معنى « تعصوهم » ؟ العصى : أخذنا من كلمة « المح » : فعصيت المرأة
أى قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعصلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها
الطبيعي حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضى العدة أن تتزوج من تريد أو
من يتقدم لها ، وينهى الحق : « ولا تعصوهم » أى لا تعصوهم عندكم وتعصوهم ،
لماذا تفعلون ذلك ؟ « لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ، كأن هذا حكم آخر ، لا ترثوا
النساء كرها هذا حكم ، وأيضا لا تعصوهم حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارهها لامراته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا
سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجا ولا أمكنك أيضا من أن تتزوجي
وذلك حتى تفندى نفسها فتريء الرجل من العفة ومؤخر الصداق ، فيحصى
الإسلام للمرأة ويحرم مثل تلك الأعمال .

ولكن متى تعصوهم ؟ هنا يقول الحق : « إلا أن يأتي بفاحشة مبينة » لأنهم

مسيحيين ، وهذا قبل التشريع بلحد . وقال بعض الفقهاء ، للزوج أن يأخذ من زوجته ما تقتدى به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بها حنة من ربه أو سوء عشرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج .

ويتابع الحق . « وعاشروهن بالمعروف » وكلمة « المعروف » أوسع دائرة من كلمة المودة : فالمودة هي أنك تحسن لمن عندك ودادة له وترتاح بمسك هواه ، أنك فرح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبدل ولو لم تكره ، وهذه حنت لما إشكالات كثيرة ، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا في القرآن ليجدوا شيئا يدعون به أن في القرآن تعارض فيقولون : قرآنكم يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَمِلَتْهُمْ أَرْكَانُكُمْ كُنْتُمْ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنَ وَأَبَدْتُمْ بُرُوجَ بَنِي وَبَدَّلْتُمْ جَنَّتِ تَحْرِي مِنْ تَحِبَّ الْأَهْلُ حَلِيلِينَ مِمَّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره . والقرآن في موقع آخر به يقول ؟

﴿ وَإِنْ سَأَلْتَهُ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا يَسِّرُ لَكَ بِهِ عِيشَ فَلََّا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا ﴾

مَعْرُوفٌ ﴿٢٣﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ونقول إن هؤلاء لم يهتموا بالفرق بين المودة والمعروف . هذه الودع شيء هو المعروف ، شيء آخر ابود يكون عن حب ، لكن المعروف ليس ضروريا أن يكون عن حب ، ساعة يكون جوعان ساعطيه ليأكل وإلى احتياجاته المادية هذا هو المعروف ، إنما الود هو أن تعمل لإرضاء نفسى . وساعة يعطى الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطى عليه شيعة للود ، إنما هو يعطى عليه نتيجة للمعروف ، لأنه حتى لو كان كافرا سيعطيه بالمعروف .

ألم يعاتب الحق - سبحانه - إبراهيم في ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه : أنه غير مؤمن لدلت لم يضيفه ؟ فقال له ربما : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أوردته أربعين سنة وهو كافر ؟ فلماذا فعل سيئاً إبراهيم ؟ جرى فالحق بالرجل . وناداه فقال له الرجل : ما الذي جعلها تتغير هذا التغيير المفاجيء ؟ فقال له إبراهيم : والله إن ربى عاتبنى لأنى صممت معك هذا . فقال له الرجل : أريك عاتبك وأنت رسول في وأنا كافر به ، فعم الرب رب يعاتب أحبائه في أعدائه ، فسلم .

هذا هو المعروف ، الحق يامرنا أننا يجب أن نتنبه إلى هذه المسائل في أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قصية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعاً كي لا يخربوا البيوت . إنهم يريدون أن يسوا البيوت على المودة والحب ولو لم تكن المودة والحب في البيت لحرب البيت ، فنقول لهم : لا . بل وعاشروهن بالمعروف ، حتى لو لم تحبوهن ، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائذك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ؛ ليس المفروض في المرأة أن تثير غريزتك ، ولكن المفروض في المرأة أن تكون مصرفاً ، إن هاجت غريزتك كهاويها بطبيعتها وجدت لها مصرفاً . فانت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك بك الغريزة ، ولذلك قال صل الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن الضيع واحد ومعها مثل الذي معها » (١) .

أي أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأى مصرف يكفيك ، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا حمزة رضي الله عنه - وقال : يا أمير المؤمنين أنا كاره لا أمراً وأريد أن أطلقها ، قال له : « لو لم تكن البيوت إلا على الحب ، فأين القيم ؟ . لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها عاطمة لقلبه ، ويدخل كل يوم ليقبلها ، فبلغت سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولاً وبعد ذلك تنبت في الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل .

لذلك يقول الحق : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهنموهن فعسى أن تكرهها شيئاً ويعمل الله فيه خيراً كثيراً » ، أنت كرهتها في زاوية وقد تكون الزاوية التي كرهتها فيها

هي التي ستجعلها تحسن في عدة زوايا ، لكن تعوض بإحسانها في الروايات الأخرى هذه الزاوية الناقصة ، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أرياء لشير غرائذك عندما تكون هادئا ، لا . فالمرأة مصروف طبيعي إن هاجت غرائذك بطبيعتها وجدت لها مصرفا ، أما أن ترى في المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط . وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هي زاوية الانفعال الجنسي ، وخذ زويا متعددة .

واعلم أن الله ورح أسباب صله على حلفه ، هذه أعطاهما جمالا ، وهذه أعطاهما عدلا ، وهذه أعطاهما حكمة ، وهذه أعطاهما أمانة ، وهذه أعطاهما وفاء ، وهذه أعطاهما فلاحا ، هناك أسباب كثيرة جدا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفا حكيما فعُد كل الروايات ، أما أن تنظر لسرعة من زاوية واحدة فقط هي زاوية إهانة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هي الزاوية التي تصلح لتقدير المرأة فقط . فمضى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

وانظر إلى الدقة في العبارة ، فمضى أن تكرهوا ، فانت تكره ، وقد تكون محق في الكراهية أو غير محق ، إنما إن كرهت شيئا يقول لك الله عنه : « ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، فاطمئن إنك إن كرهت في المرأة شيئا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك في بقية الزوايا خيرا كثيرا . وما دام ربنا هو من يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك نصبر عليها ، فانت تعلم أن ربنا سيجعل لك خيرا في نواح متعددة ، إن أي زاوية تعلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيرا كثيرا .

إن الحق يطلق القضية هنا في بناء الأسرة ثم يُعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فمضى أن تكرهوه من يجعل الله فيهن خيرا ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة في كل شيء قد تكرهه ، وتأتي الأحداث لتبين صدق الله في ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها . وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها ، لذلك عني أن حكم الإنسان على الأشياء دائما غير دقيق ،

لقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بسحب شيء وهو لا يستحق الحب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يأق بالاشياء مخالفة لأحكامه « فمسي أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فقدر دائما في المقابلة أن الكره منك وجعل الخير في المرأة من الله ، فلا تحمل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مِّمَّكَاتِ زَوْجٍ
وَأَتَيْتُمُ إحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا بِهِ
شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

إذا صاقت بك المسائل ، بعد أن عانرت بالمعروف ولم يعد ممكنا أن تستمر الحياة الزوجية في إطار يرضى عنه الله ، ولحاف أن تغت من نفسك إلى ما حرم الله ، ماذا تفعل ؟ يقول سبحانه . « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، أي لك أن تستبدل مادامت المسألة متصلة إلى جرح منهج الله ، وعليك في هذا الاستبدال أن ترضى المنهج الإيماني مثلما أشار به سيدنا الحسن رضي الله عنه على الرجل الذي كان يستشير في واحد جاء ليحطب ابته . قال سيدنا الحسن - رضي الله عنه - : إن جاءك الرجل الصالح فزوجه ، وإن أحب ابتهك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

والحق يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، فهذا يعني أن الرغبة قد انصرفت عن الأول نهائيا ، ولا يمكن التغلب عليها بخير الانحراف عن المنهج . وقد يحدث أن يصيب الرجل بزوجته وهو لا يعاني من إلحاح في الناحية الغريزية ، فيطلقها ولا يتزوج ، لما شروط المنهج في هذا الأمر ؟

يقول الحق : « وآتيتهم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » . كلمة « قنطار » وكلمة « قنطرة » مأخوذة من الشيء العظيم . وقنطار تعني « المال » . وقدروه قدما بأنه ملء منسك البقرة ، وه المنسك هو الجلد ، فعندما يتم سلع البقرة يصبح جلداهما مثل القرية ، وملء منسكها يسمى قنطارا ، والقنطار المعروف عندنا الآن له ستة وزنية ، والحق حين يعظم المهر بقنطار يقول : « وآتيتهم إحداهن قنطارا » فهو باقى لنا بمثل كبير وبنهانا بقوله : « فلا تأخذوا منه شيئا » . لماذا ؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذى تدفعه يس مناسحا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهى حياتكما ، بل المهر مجعول تمنا للبضع الذى أحبه الله لك ولو للحظة واحدة ، فلا تحسبها بمقدار ما مكنت معك ، لا ، إنما هو ثمن البضع ، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة .

إذن فهذا القنطار عمره ينتهى فى اللحظة الأولى ، لحظة تمكيت منها . « وآتيتهم إحداهن قنطارا » وهذه هى أسألة النى قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- . أخطأ عمر وأصابى امرأة ، لأنه كان يتكلم فى غلاء للهور ، فقالت له المرأة : كيف تقول ذلك والله يقول : « وآتيتهم إحداهن قنطار » ، فقال : أصابى امرأة وأخطأ عمر .

عن عمر رضى الله عنه أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صدق المرأة على أربعمئة درهم ثم نزل ، فاعترضته امرأة من فريش فقالت . أما سمعت الله يقول . (وآتيتهم إحداهن قنطارا) ؟ فقال : ألستم عفا كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال : « إن كنت قد نهيتكم أن تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمئة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب »^(١)

وعن عبدالله بن مصعب أن عمر -رضى الله عنه- قال : « لا تزيدوا فى مهر النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلت الزبادة فى بيت المال ، فقالت امرأة : ما ذاك لك ، قال ولم ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : « وآتيتهم إحداهن قنطارا » فقال عمر : « امرأة أصابى ورجل أخطأ » .

(١) روى محمد بن منصور ، وأبو يعلى

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول : « تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » لماذا ؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلاً ، بل هو ثمن تمكثك منها ، وهذا يحدث أولاً ما دخلت عليها وإن أخذت منها شيئاً من اهر بعد ذلك فأنت آثم ، إلا إذا رضيت بذلك ، والإثم لمين هو الإثم المحيط .

ويأتى الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول : « وكيف تأخذونه » إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ
إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
غَلِيظًا ۝ ٥ ﴾

فلو أدركتم كل الكميات قلن لمجدوا كيفية تبرد لكم الأحد ، لماذا ؟ لأن الحق قال : « وكيف تأخذونه » وانظر للتعليل : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » إذن فتمس البضع هو الإفضاء ، وكلمة « أفضى بعضكم إلى بعض » كلمة من إله ، لذلك تأخذ كل المعان التي بين الرجل والمرأة ، وه أفضى « مأخوذة من « الفضاء » والفضاء هو المكان الواسع ، وه أفضى بعضكم « يعنى دخلتم مع بعض دخولاً غير مضيق .

إذن فالإفضاء معناه : أنكم دخلتم معاً أوسع مداخلة ، وحديث من فمه للمداخلة أن عورتها التي تسترها عن أبيها وعن أحبها وحتى عن أمها وأختها تبينها لك ، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ، ودخلت معها في الاتصال الواسع ، أنفاسك ، ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، خرجك ، في حمامك ، في المطبخ ، في كل شيء حدثت إفضاءات ، وأنت ما دمت قد أفضيت لها وهي قد أفضت لك كما قال الحق أيضاً في المداخلة الشاملة .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى شيء تريد أكثر من هذا؟! ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها ، قد يمتص ، ونقول له : يكميك أن الله أحل لك منها ما حرمه على غيرك ، وأعطتك عرضها ، فحين تشتد عليك لا تعصب ، وتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»^(١)

«وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا» والميثاق هو العهد يؤخذ بين اثنين ، ساعة سألت ولها : «زوجي» فقال لك : زوجتك ، ومعهم أن كسرة الزواج هذه تمنع أسرة جديدة ، وكل ميثاق بين خلق وحلق في غير العرض هو ميثاق عادي ، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التي يتزوجها ، فهذا هو الميثاق الغليظ ، أى غير اللين ، والله لم يصف «إلا ميثاق السبيل فوصفه بأنه غليظ»^(٢) ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ . ففى هذه الآية «أفضى بعضكم إلى بعض» لها إضفاء وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لسا وسترا للآخر «هن لباس لكم وأنتم لباس هن» لهذا كان ميثاق غليظا ، وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعترت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف ، وإن تعلوت وليس هناك فائدة من استدائها فيصح أن تستبدلها ، فإن كنت قد أعطيتها فظناراً إليك أن تأخذ منه شيئا ، لماذا؟ لأن ذلك هو نفس الإضفاء ، وما دام هذا الظنار هو ثمن الإضفاء وقد تم ، فلا تأخذ منه شيئا ، بالإضفاء ليس شالعا في الرمن كى نوره ، لا .

والحق يقول : «وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا» هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق ، ولكنه لا يمنع الفضل ، بدليل أنه قال :

﴿ فَإِنْ طَلِقَ لَكَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُوْهُ هِيَ حَرِيْرَةٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

(١) رواية الترمذي عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبراني في الكبير عن مطوية

(٢) الآية دلم ٧ من سورة الأحزاب .

إذن ففيه فرق بين الحق وما طلب لكم ، والأثر يحكى عن القاضي الذي قال لقومه : أنتم اخترتموني لأحكم في النزاع القائم بينكم فهذا تريدون مني ؟ ! الحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فقالوا له : وهل يوجد خير من العدل ؟ قال : نعم ، الفضل . فالعدل : أن كل واحد يأخذ حقه ، والفضل : أن تتنازل عن حقتك وهو يتنازل عن حقه ، وننتهي المسألة ، إذن فالفضل أحسن من العدل ، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس .

فيقول - حين شأنه - :

﴿ وَلَا تَسْرَآ الْقَصَلَ يَنْكَرُ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

ويقول الحق في آية الدين :

﴿ وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَدِيرًا أَوْ لُجِيمًا إِنَّ أَجْلِيَهُ ذِكْرًا أَقْسَطُ حِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾

(من الآية ٧٨٢ سورة البقرة)

ويلزمكم الحق أن توثقوا الدين لأنكم لا تحمرون مال الدائن فحسب بل تحمون الدين نفسه ، لأنه حين يعلم أن الدين موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوباً فقد تحدثه فيه أن ينكره ، إذن فالحق يحمي الدائن والمدين من نفسه قال : « ولا تسمعوا أن تكتبوه » ، وقال بعدها :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

فقد تقول لمن يستدين منك . لا داعي لكتاتبة إيصال وصيك بيني وبينك ، وهذه أريحية لا يسمعها الله فإدام قد أمن بَعْضُكُمْ بَعْضًا فليستح كل منكم وليؤد الذي أؤتمن أمانته وليثق الله ربه

ومادام قد جعل للمفضل عيالا مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك . فما بالناس بالميتاق العليظ بين الرجل والمرأة . . . غلط الميتاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميتاق ، ولا يوجد ميتاق أغلظ مما أحله الله من البيِّن وما بين الرجل والمرأة ؛ لأنه تعرض لمسألة لا جناح من الزوجة لغير زوجها ، ولا من الزوج لغير زوجته . إن على الرجل أن يوفى حق المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئا إلا إذا تطلعت هي . فقد سبق أن قال الحق :

﴿ فَإِنْ حِينَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هِيَكَامَ مَرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

ومادامت النفس قد طابت ، إذن فالرضا بين الطرفين موجود ، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة . فالمرء حقها ، ولكن لا يجب أن يقضى بالفعل ، فهو في دعة الزوج ، إن شاء أعطاه كله أو أخره كله أو أصلى بعضه وأخر بعضه . ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملا في مهرها ، إن كان قد أخره كله فللواجب أن تأخذه ، أو تأخذ الباقي لما إن كان قد دفع جزءا منه كمقدم صداق . ولكن حين تستقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله باب الرضا والتراضي بين الرجل والمرأة فقال : ﴿ فَإِنْ طِبَّنْ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هِيَكَامَ مَرِيئًا ﴾ فهو عبة تخرج من تراضي . وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين . وبعد ذلك يبقى حكم آخر هب أن الخلاف استمر بين الرجل والمرأة

حالة تكره هي وتحب أن تخرج منه لا جناح أن تفتدي منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة ، ومادامت هي كارهة ، فيصطر هو إلى أن يبيى بزوجة جديدة ، إذن فلا مانع أن تحتلع المرأة منه بشيء تعطيه للزوج :

﴿ فَإِنْ يَحْتَمِ الْأُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يحفظ لها ، ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أحد الزوج لبعض مهر الزوجة في أسلوب التعميم :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُمْ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا طَيبًا ﴾

(الآية ١١ سورة النساء)

فكان موكيف تأخونه « هذه دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها ، فساعة يستفهم فيقول « كيف « فهذا تعجيب من أن تحدث هذه ، وقلت : إن كل الموائيق بين اثنين لا تعطى إلا حقوقاً دون العرض ، ولكن ميثاق الزواج يعطى حقوقاً في العرض ، ومن هنا جاء غلط الميثاق ، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصب إلى المال ، وقد ينصب إلى الخدمة ، وقد ينصب إلى أن تعقل عنه الذبّة ، وقد ينصب إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة ، هذه ألوان من الموائيق إلا مسألة العرض ، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين ، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ .

وبعد ذلك يتناول الحق سبحانه وتعالى قضية يستدبر بها طهر الأسرة وحفاظها وكرامتها وعزتها ، ويبنى لأطراف الأسرة المحبة والمودة فلا يدخل شيء يقضى على هذه المحبة والمودة ويدخل نزع الشيطان فيها . قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ
النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً
وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

فكان هذه مسألة كانت موجودة ، كان ينكح الولد زوج أبيه التي هي غير أمه . وروى صفوان بن أمية « وهو من سادة قريش قد خلف أباه أمية بن خنيفة على « فاخته بنت الأسود بن المطلب ، كانت تحت أبيه ، فلما مات أبوه تزوجها هو ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعد هذه القضية من محيط الأسرة ، لماذا ؟ لأن الأب والابن لها من العلاقات كاللوة والرحمة والحنان والمطف من الأب ، والبر والأدب ، والاستكانة ، وجناح الدل من الابن ، فحين يتزوج الرجل امرأة وله ابن ، فذلك دليل على أن الأب كان متزوجاً أمه قبلها ، وكأن الزيجة الجديدة طرأت على الأسرة .

وسبحانه يريد ألا يجعل العين من الولد تتطلع إلى المرأة التي تحت أبيه ، ربما راقته ، ربما أعجبه ، فلماذا راقته وأعجبه فاقبل أنواع التكبر أن يقول بينه وبين نفسه : بعدما يموت أبي أتزوجها ، فحين يوجد له الأمل في أنه بعدما يموت والده يتزوجها ، ربما يفرح بموت أبيه ، هذا إن لم يكن يسمى في التخلص من أبيه ، وأنتم تعلمون سعار الفرائر حين تأتي ، فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على الولد أمل الالتقاء ولو بالرجاء والنسي ، وأنه يجب عليه أن ينظر إلى الجارية أو الروجة التي تحت أبيه نظره إلى أمه ، حين ينظر إليها هذه النظرة تمتنع نزعت الشيطان .

فيقول الحق : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » والنكاح هنا يطلق فينصرف إلى الوطء والدخول ، وقد ينصرف إلى العقد ، إلا أن انصرافه إلى الوطء والدخول - أي العملية الجنسية - هو الشائع والأول ، لأن الله حينما يقول : « الزاني لا ينكح إلا رانية » معناها أنه ينكح دون عقد وأن تتم العملية الجنسية دون زواج .

ولحق هما ينون : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » فما هو السلف هذا ؟ إن ما سلف كان موجوداً ، أي جاء الإسلام فوجد ذلك الأمر متبعاً ، وجاء الإسلام بتحريم مثل هذا الأمر فالزمن الجديد بعد الإسلام لا يحمل أن يحدث فيه ذلك وإن كان عقد النكاح قد حدث قبل الإسلام ، ولذلك قال - سبحانه - : « إلا ما قد سلف » فجاء بـ (ما) وهي راجعة للزمن . كان الزمن الجديد لا يوجد فيه هذا

هب أن واحداً قد تزوج بامرأة أبيه ثم جاء الحكم . . . أيقول سلف أن تزوجها قبل الحكم ! نقول : لا الرمز انتهى ، إذن نقوله : « ما قد سلف » يعني الزمن ، وما دام الزمن انتهى يكون الرمز الجديد ليس فيه شيء من مثل تلك الأمور . لذا جاءت (ما) ولو جاءت (من) بدل (ما) لكان الحكم أن ما نكحت قبل الإسلام تبقى معه ، لكنه قال (إلا ما قد سلف) فلا يصح في المستقبل أن يوجد منه شيء التة ويجب التفريق بين الزوجين فيما كان قائماً من هذا الزواج .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه حين بشرع فهو بشرع ما تقتضيه الفطرة

السيمة . فم يقل : إنكم إن فعلتم ذلك يكون فاحشة ، بل إنه برعهم وجوده من قديم كان فاحشة وكان فعلاً قبيحاً ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سيلاً ، وما كان يصح بالمطرة أن تكون هذه المسألة على تلك الصورة ، إلا أن الناس عندما صددت بطرهم لجأوا إلى أن يتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولذلك إذا استقرت التاريخ القديم وجدت أن كل رجل تزوج من امرأة أبيه كان يُسمى عندهم نكاح « المقت » والولد الذي ينشأ يسمونه « المقتى » أي المكروه .

إذن فقوله : « إنه كان » أي قبل أن أحكم أنا هذا الحكم « كان فاحشة ومقتاً وساء سيلاً » . فاقطع يوضح : إنني أشرع لكم ما تقتضيه الفطرة والمطرة قد تنطس في بعض الأمور ، وقد لا تنطس في البعض الآخر لأن بعض الأمور مألوفة وظاهرة والتحرير فيها يتم بالفطرة

مثال ذلك : أن واحداً ما تزوج أمه قبل ذلك ، أو تزوج ابته ، أو تزوج اخته . إذن فقبله أشياء حتى في الجاهلية ما اجتراً أحدٌ عليها . إذن جاء بالحكم الذي يحرم ما اجترات عليه الجاهلية وتجاوزت وتحطت فيه الفطرة ، فقال سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف » أي مضي .

لقد وصف سبحانه بجاح الأبناء لزوجات آمالهم بأنه « كان فاحشة » أي قبيحاً ، « مقتاً » أي مكروهاً ، « وساء سيلاً » أي في بدء الأسرة .

ثم شرع الحق سبحانه وتعالى يبين لنا المحرمات وإن كانت الجاهلية قد اتفقت فيها ، إلا أن الله حين يشرع حكماً كانت الجاهلية سائرة فيه لا يشرعه لأن الجاهلية فعلته ، لا . هو يشرعه لأن الفطرة تقتضيه ، وكون الجاهلية لم تفعله ، فهذا دليل على أنها مطرة لم تستطع الجاهلية أن تغيرها ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ
وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُم مِّن الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ بِلَآئِكُمْ
وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن
بَنَاتِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ
أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنَ أَصْلَابِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٣﴾

من الذى يحال ويحرم ؟ إنه الله ، فهم رغم جاهليتهم وغفلتهم عن الدين حرموا
زواج المحارم ، فعن الذى لم يتدين بدين الإسلام توجد عنده محرمات لا يقربها .
أى أنهم قد حرموا الأم والبنت والأخت . إلخ ، من أين جاءتهم هذه ؟ الحق
بوضح :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة طه)

ومنع السماء أنزل الله من قديم بدليل قوله

﴿ قَالَ أَهَطَّامِنَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا بُنَيَّ كُفِّ عَنِّي هُدًى فَنَنَ

أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

فبمجرد أن خلق الله آدم وخلق زوجته ، أنزل هما المتنجس ، هذا المتنجس مستنوي الأركان ، إذن فبقاء الأشياء التي جاء الإسلام لوجودها على احكام الذي يريد الإسلام إنما نشأ من واسب الديانت القديمة ، وإن أخذ عمل العادة وعمل العطرة . أي أن السمس اعتادوه وفطروا عليه ولم يخطر ببالهم أن الله شرعه في ديانات سابقة .

والعلوم الحديثة أعانتنا في فهم كثير من احكام الله ، لأنهم وجدوا أن كل تكاثر سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان أيضاً ، كلها ابتعدت عن النوع الذكورة والأنوثة ، فالنسل يحمى قوياً في الصفات . أما إذا كان لزواج والزوجة أو الذكر والأنثى من أي شيء : في النبات ، في الحيوان ، في الإنسان قريين من اتصال البنية الدموية والجنسية فالنسل ينشأ ضعيفاً ، ولذلك يقولون في الزراعة والحيوان : « نهجن » أي نأق الأنوثة بذكورة من بعيد . والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لا :

(اغتربوا لا تفسدوا) وقال : « لا تتكفوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضالواً »^(١)

فالرسول يأمرنا حين نريد ازواج ألا نأخذ الأقارب ، بل علينا الابتعاد ، لأننا إن أخذنا الأقارب فالنسل يحمى هزلاً . وبالأستقراء وجد أن العائلات التي جعلت من ستمها في الحياة ألا تنكح إلا منها ، فبعد فترة ينشأ فيها ضعف عقل ، أو ضعف جنس ، أو ضعف مناعى ، يقول رسول الله « اغتربوا لا تفسدوا » أي إن أردتم لزواج فلا تأخذوا من الأقارب ، لأنكم إن أخذتم من الأقارب يهرلوا ، فإن « ضوى » بمعنى « هزل » وإن أردتم ألا تفسدوا ، أي ألا يهرلوا فابتعدوا ، وقبلها يقول النبي هذا الكلام وجد بالاستقراء في البيئة الاجتماعية هذا . ولذلك يقول الشاعر الجاهلي :

أنصح من كان بعيد المم

(١) رواه إمام الحرم تروىها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ورواه تروىها عن عمر ، وقد روى إمام الحرم في غريب الحديث عن عمر رضي الله عنه قال : (يا أي الساب قد أنصتتم فلنكفوا في القراب) من كتاب إمام علوم الدين للإمام الغزالي

تزوج أبناء بنات العم فليس يسجوا من ضوى وسقم

فقد بضوى سليل الأقارب ، وهذا في الأحياء الشعبية عندما يمدحون واحداً يقولون « فتوة ، أى فتى لم تلده بنت حم قريبة وفى البات يقولون . إن كنت تزرع ذرة فى محاطة الغربية لابد أن تأتى بالتقوى من محاطة الشرقية مثلاً ، وكذلك فى البطيخ الشيليان باترون ينوره من أمريكا ، فيزرعونها فيخرج البطيخ جيلاً لذيذاً ، بعض الناس قد يرفض شراء مثل تلك ليدور لعلو ثمنها . يأتد من بدور ما زرع ويحمل منه التقوى ، ويخرج المحصول ضعيفاً لكن لو ظل يأتى به من الخارج وإن وصل نس الكيلو مبلغاً كبيراً فهو يأخذ محصولاً طيباً

وكذلك فى الحيوانات وكذلك هنا ؛ ولذلك كان العرب يقول : ما ذك رءوس الأبطال كاهن الأعجمية ؛ لأنه جاء من جنس آخر . أى أن هذا الرجل البطل أخذ الخصائص الكاملة فى جنس آخر . فلفاح الخصائص الكاملة بالخصائص الكاملة يعطى الخصائص الأكمل ، إذن فتحريم الحق سبحانه وتعالى زواج الأم والأخت وكافة المحارم وإن كانت عملية أدبية إلا أنها أيضاً عملية عضوية . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » لماذا ؟ لأن هذه الصلة صلة أصل ، والصلة الأخرى صلة فرع ، الأمهات صلة الأصل ، والبنات صلة الفرع ، « وأخواتكم » وهى صلة الأخ بخته لأنها بنت من والد واحد ، « وعماتكم وأخواتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي لو صعنكم وأخواتكم من الرصاعة » .

إذن فامسألة مشبكة فى القرابة القريبة . والله يريد قوة النسل ، قوة الإنجاب ، ويريد أمراً آخر هو : أن العلاقة الزوجية دائماً عرضة للأغيار النفسية ، فالرجل يتزوج المرأة وبعد ذلك تأتى أغيار نفسية ويحدث بينها خلاف مثلما قلنا فى قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » ، ويكره منها كذا وكذا ، فكيف تكون العلاقة بين الأم وأبها إذا ما حدث شيء من هذا ؟ والمفروض أن لها صلة تحتم عليه أن يظل على وفاء لها ، وكذلك الأمر بالنسبة للبنت ، أو الأخت ، أو العمّة ، أو الخالة ، فإمر الحق للرجل : ابتعد بهذه المسألة عن مجال الشقاق

ومن حسن العقل وبعد انظر ألا ندخل المقامات في الزواج ، أو ما يسمى « بزواج البديل » ، حيث يتبادل رجلان الزواج ، يتزوج كل منهما أخت الآخر مثلاً ، فإذا حدث الخلاف في شيء حدث ضرورة في مقابلة وإن كان الوداع سائداً . فحسن الفطنة يقول لك : إليك أن تزوج أختك لواحد لأنك ستأخذ أخته ، فقد تنفق زوجة مع زوجها ، لكن أخته قد لا تتوافق مع زوجها الذي هو شقيق للآخرى . وتصوروا ماذا يكون إحساس الأم حين ترى العريضة مرتاحة عند بنتها لكن ابنتها تعاني ولا تجد الراحة في بيت زوجها ماذا يكون الموقف ؟ نكون قد وسعنا دائرة الشقاق والتفاني عند من لا يصح أن يوجد فيه شقاق ولا نفاق .

والحكمة الإلهية ليست في مسألة واحدة ، بل الحكمة الإلهية شاملة ، تأخذ كل هذه المسائل ، « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » والمحرم مما بطبيعة الحال من الأمهات وإن علون ، فالتحريم يشمل الجدة سواء كانت جدة من جهة الأب ، أو جدة من جهة الأم . وما ينشأ منها . وكل واحدة تكون زوجة لرجل فأمها محرمة عليه ، « وبناتكم » وبنات الابن وكل ما ينشأ منها ، وكذلك بنات البنت ، « وأخواتكم وصهباتكم وحالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم » .

ولذا يحرم الحق « أمهاتكم اللاتي أرضعنكم » ؟ لأنها بالإرضاع أسهمت في تكوين خلايا فيمن أرضعته ؟ ففيه بقعة منها ، ولهذا البقعة حرمة الأمومة ، ولذلك قال العلماء يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تشبه خلايا ، وحلل البعض زواج من رضع لرجل منها مصة أو مصنين مثلاً ، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أي امرأة رضع منها الرجل ، وأفتى المحققون وقالوا : لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل ، أو رضع الرجل معها خمس رضعات متتعات ، أو يرضع من المرأة يوماً وليلة ويكفيها ، وأن يكون ذلك في مدة الرضاع . وهي بنص القرآن مستان . « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » .

وهذه المسألة حدث الكلام فيها بين سيدنا الإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله

وجهه - سيدنا عثمان - رضى الله عنه - حينما جاءوا بامرأة ولدت لستة شهور وكان الحمل الشائع بمكث تسعة أشهر ، وأحيانا بادرة يولد الطفل بعد سبعة أشهر ، لكن أن تلد امرأة بعد ستة شهور فهذا أمر غير متوقع . . ولذلك أراد عثمان - رضى الله عنه - أن يقيم الحد عليها ، لأنها مادام ولدت لستة أشهر تكون غاطلة ، لكن سيدنا هل - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - أدرك المسألة .

قال : يا أمير المؤمنين ، لماذا تقيم عليها الحد ؟ فقال عثمان بن عفان : لأنها ولدت لستة أشهر وهذا لا يكون . وأجرى الله فتوحاته هل سيدنا هل ، وأجرى النصوح هل على خياله ساعة الفتيا ، وهذا هو الفتح ، فقد يوجد النص في القرآن لكن النفس لا تتب به ، وقد تكون المسألة ليست من نص واحد بل من اجتناع نصين لو أكثر ، ومن الذى يأتى فى خاطره ساعة الفتيا أن يطوف بكتاب الله ويأتى بالنص الذى يسعفه ويساعده على الفتيا ، إنه الإمام هل ، وقال لسيدنا عثمان . الله يقول غير ذلك ، قال له : وماذا قال الله فى هذا ؟ قال :

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

إذن فإتمام الرضاعة يكون فى حولين كاملين أى فى أربعة وعشرين شهرا ، - والتاريخ محسوب بالتوقيت العربى - والحق سبحانه قال أبهى :

﴿وَحَمْلُهُ وَرِضَاعُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا كان مجموع أشهر الحمل والرضاع ، ثلاثين شهرا ، والرضاع التام أربعة وعشرون شهرا ، إذن فمدة الحمل تساوى ستة أشهر .

هكذا استنبط سيدنا هل - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - والإنسان قد يعرف آية وتغيب عنه آيات ، والله لم يختص زما معيننا بحسن الفتيا وحرم الأزمنة الأخرى ، وإنما فبوصات الله تكون لكل الأزمان ، فقد يقول قائل : لا يوجد فى المسلمين من يصل بعمله إلى مرتبة الصحابة ، ومن يقول ذلك يسى ما قاله الحق فى سورة الواقعة :

﴿وَالسَّيْقُونَ سَيِّفُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝﴾

(سورة الواقعة)

لئى أن الآخرين أيضا لن يحرموا من أن يكون فيهم مقربون فالدرون على استيعاب الصوص لاستنباط الحكم ، إذن فالرضاع : ممة أو مصتان ، هذا مذهب ، وعشر رضعات مذهب آخر ، وخمس رضعات مشعات مذهب ثالث ، وأحد جمهور الفقهاء بالمتوسط وهو خمس رضعات مشعات فحرم من الزواج ، لكن بشرط أن تكون في مدة الرضاع ، فلورضع في غير مدة الرضاعة ، نقول إنه استغنى بالاكل وأصبح الأكل هو الذى يعطيه مقومات البنية .

إذن فمسألة الرضاع متشعبة ؛ لأن النسي عليه الصلاة والسلام قال . : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب (١) .

والمحرم من الرضاع هو : الأم من الرضاع ، والنسب من الرضاع ، والأخت من الرضاع ، والعمة من الرضاع ، والحالة من الرضاع ، وهكذا نرى أنها عملية متشعبة تحتاج من كل أسرة إلى اليقظة ، لأننا حين نرى أن بركة الله لا تقوم حول كثير من البيوت لا بد أن ندرك لها أسبابا ، أسباب البعد عن استقبال البركة من الله . . فالإرسال الإلهي مستمر ، ونحن نريد أجهزة استقبال حساسة تحس الاستقبال ، فإذا كانت أجهزة الاستقبال خربة ، والإرسال مستمرا فلن يستفيد أحد من الإرسال ، وهب أن محطة الإذاعة تذيع ، لكن المذياع خرب ، فكيف يصل الإرسال للناس ؟

إذن فمدد الله وبركات الله المنتزلة موحودة دائما . ويوجد أناس لا يأخذون هذه البركات ، لأن أجهزة استقبالها ليست سليمة ، ولول جهاز لاستقبال البركة أن البيت يبقى على حل في كل شيء . . معنى : لقاء الزوج والزوجة على حل ، وكثير من

(١) رواد أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن عائشة

اناس يدخلون في الحرمه وإن لم يكن بقصد ، وهذا ناشئ من الفرس والاختلاط والفرس في شأن الرضاة ، والناس يرضعون أبناءهم هكذا دون ضابط وليس الحكم في بالغم . وبعد ذلك نقول لهم : يا قوم أنتم استعظم أولادكم فيها يؤدي إلى سلامة بنيتهم ، فكان لكل ولد ملف فيه : شهادة الميلاد ، وفيه معاد تلقى التطعيمات ضد الدتريا ، وشلل الأطفال وغير ذلك .

فلماذا يا أسرة الإسلام لا تضعون ورقة في هذا الملف لتضمنوا سلامة أفراسكم ، ويكتب في تلك الورقة من الذي أوضع للطفل غير أمه ، وساعة يأتي للزواج نقول : يا موقت هذا ملفه إنه وضع من فلانة ، في هذا الملف تخرج أسماء السله اللاتي وضع منهن . . فبني بذلك أسرة جديدة حل أسس إيمانية سليمة ، بدلا من أن نعاجر رجلا تزوج امرأة ، وعاشا معا وأنجبا وبعد ذلك يتبين أنهما رضعا معا ، وبذلك تصير المسألة إلى إشكال شرعي وإشكال مدني وإشكال اجتماعي ناشئ من أن الناس لم تعد لتبجها الإيمان ما أصدته لتبجها المادى .

إذن فلا بد من التزام كل أسرة أن تأني في ملف ابنها أو بنتها وتضع ورقة فيها أسماء من رضع منهن المولود ، وعلى كل حال لم تعد هناك الآن ضرورة أن تأني بموضعة للأولاد ، فاللبس الجفاف من الحيوانات يكفى ويؤدي المهمة ، وصرنا لا ندخل في المتاعه التي قد تؤدي بنا في المستقبل إلى أن الإنسان يتزوج أخته من الرضاة أو أمه من الرضاة ، أو لى شيء من ذلك ، وبعد ذلك تمتنع بركة الله من أن تمتد إلى هذه الأسرة . « حرمت عليكم أمهاتكم ومياتكم وأخواتكم وعمياتكم وأخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاة » . ويقول الرسول صل الله عليه وسلم . « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (١) .

وجاء القرآن بالأمور البارزة فيها فقط ، « وأمهات نسائكم » فإذا تزوج رجل من امرأة ولها أم ، بالله أيتزوج أمها أيضا ؟ إنها صلية غير مقبولة ، « وربائكم اللاتي حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بين » . الربيبة هي بنت المرأة من غير زوجها ، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترملت أو طلقت بعد أن ولدت

(١) رواه أحمد والبيهقى ومسلم وأبو داود والنسائ وابن ماجه عن عائشة .

بتا . هذه البنت يسمونها « ربيبة » ، وزوج الأم الجديد سيدخلها في حياتها وفي تربيتها ، وبذلك تأخذ مرتبة البنتوة . والأمر هنا مشروط . « من نسأكم اللان دخلتم بهن فإن لم تكونوا قد دخلتم بهن فلا جناح عليكم » فهدام الرجل قد عقد على المرأة ولم يدخل بها تكون بنتها غير محرمة . أما العقد على البنت حتى دون دخول فإنه يحرم الأمهات

« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » أى زوجة الابن ، وكلمة « من أصلابكم » تدل على أنه كان يطلق لعقد « الأبناء » على أناس ليسوا من الأصلاب ، وإلا لو أن كلمة « الأبناء » اقتصررت في الاستعمال على أولاد الإنسان من صلبه ، لما قال : « أبنائكم الذين من أصلابكم » .

إذن كان يوجد في البيت الجاهلية أبناء ليسوا من الأصلاب هم أبناء التبي ، وكانت هذه المسألة شائعة عند العرب ، فكان الرجل يتبنى طفلا ويلحقه بسبه ويطلق عليه اسمه ويرثه . وجاء الإسلام ليحول . لا ، لا يصح أن تسب لنفسك من لم تنجبه ، لأنه سيدخل في مسألة أخوة لابنتك مثلا ، وسيدخل على محارمك ، ولذلك أنهى الله هذه المسألة ، وجاء هذا الإنهاء على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت المسألة متأصلة عند العرب .

ونعلم أن زيد بن حارثة خطف من أهله ، وبعد ذلك بيع على أنه رقيق ، واشترأ حكم بن حزام . وأخذته سيدتنا حديجة وبعد ذلك وهبتة لسيدنا رسول الله . وصار زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما علم أهل زيد أن ولداهم الذى خطف قديما موجود في مكة جاءوا إليها ، فزلوا زيد بن حارثة ، ولما سأله أن يعود معهم قال هم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخيره بين أن يذهب معكم أو أن يبقى معي ، انظروا إلى زيد بن حارثة كيف صنع به إيمانه وحيه لسيدنا رسول الله : قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحدا . وظل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأراد الرسول أن يكرمه على العادة التي كانت شائعة فسأه « زيد بن محمد » وتبناه .

إذن فالمسألة وصلت إلى بيت النبوة ، انتهى وصل بيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وأراد الله أن يسي هذه المائة قتال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الاحزاب)

هذا يدل على أن صرامة التشريع لا تجامل أحداً حتى ولا محمداً بن عبد الله وهو رسول ، وما كان محمد أباً أحد من رجالكم .

وبعض الناس الذين يتسفلون للقرآن يقولون : إن رسول الله كان عنده إبراهيم وكان عنده الطيب وكان عنده القاسم ، ويقول : أكان هؤلاء رجالاً ؟ لقد ماتوا أطفالاً ، والكلام « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » ، وهب أنهم كبروا وصاروا رجالاً ، أقال من رجالكم أم من رجاله ؟ قال : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » أي لا يمنع أن يكون أباً أحد من رجاله ، هو أبو القاسم وأبو الطيب وأبو إبراهيم هم أولاده فافهموا القول .

وهذه المائة اتخذت خبطة عند خصوم الاسلام والمستشرقين والحق سبحانه وتعالى وإن كان قد عدل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فتعديل الله لرسوله يشرف رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن من الذي يعدل لمحمد ؟ إنه الله الذي أرسله .

ويقول : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » . ومفهوم هذه العبارة أن المحرمة إنما هي حليلة الابن من الصلب . وقوله : « من أصلابكم » يدل على أنه كان هناك أبناء ليسوا من الصلب ، إذن فالتي كان موجوداً قبل نزول هذا الحكم ، ولواد الله أن يطل علة النبي ، وكانت متغلغلة في الأمة العربية ، فأبطلها على يد سيدنا رسول الله ، لا مشرعاً ينقل حكم الله فحسب ، ولكن مطبقاً يطبق حكم الله في ذاته وفي نفسه حتى يأخذ الحكم قداسته ، ويجب أن نعلم إلى أن فكرة النبي كانت في ذاتها تهدف إلى أن ولداً نجيباً يلحقه رجل به ليعطيه كل حقوق أولاده كنون من التكريم .

ولذلك علينا أن نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف بالكمال الشري

في إطار العدل البشري ، والعدل هو : القسط ، وساعة نبي زيد بن حارثة وسماه زيد بن محمد إنما كان يهدف إلى أن يعوضه والده ، لأن زيدا اختار رسول الله على أبيه ، إذن فكان ذلك التنبؤ من رسول الله كمالا وعدلا بشريا بالنسبة للوفاء لواحد أثر اختياره على اختيار أهله فإذا أراد الله أن يصوب فيكون كمالا إلهيا وعدلا إلهيا ، فلا غضاظة عند أحد أن يُصوّب الكمال الشري بالكمال الإلهي ، ولا أن يصوب العدل البشري والقسط البشري بالعدل الإلهي والقسط الإلهي ، وأنزل الله وهو لحكم العاتلين هذا الحكم بعبارة تعطي ذلك كله .

﴿ اَدْعُوهُمْ لَابَائِهِمْ هُوَ اَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

(س الآية ٨ سورة الاحزاب)

أي إن دعاءهم لأبائهم « أقسط عند الله » . وكلمة : « أقسط » إياكم أن تكونوا بعدتم ونهيتهم بها عن « عظيم » و« أعظم » ، إنك ساعة تأن بصفة التفضيل يكون للمقابل لها وصفا من جنسها ، فـ « أعظم » المقابل لها « عظيم » ، و« أقسط » المقابل لها « قسط » ، فما فعله رسول الله هو قسط وعدل ، ولكن ما عدله الله أقسط مما صممه رسول الله . إذن فيجب أن نقطن إلى أن الكمال الشري والعدل البشري شيء ، والكمال الإلهي والعدل الإلهي شيء آخر . ومن فضله الله من عدل بشريته إلى عدل ألوهيته يكون قد تلقى نعمة كبرى .

وإذا ما حاول المستشرقون أن يأخذوا هذه المسألة على أن ربنا عدل له ويحاولوا أن يلصقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ما ، نقول لهم : أنتم لا تحسنون تقدير الأمر ولا تفهمون الرد من ذلك ، فالذي صوب هو الله الذي أرسله ، وقد صوب له فعلا فعله في إطار الشريعة ، وقال الحق : « هو أقسط عند الله » ومن الذي يحمل البشر متساوين مع الله في القسط والعدل والكمال ؟

إن هناك قصة طار بها المستشرقون فرحا وكذلك يروجها خصوم الإسلام من أبناء الإسلام ، لأن من مصلحة خصوم الإسلام ، وكذلك الدين لا يحصلون من الإسلام إلا أسمة ، يروجون أن هذا الدين يحتوي على أكاذيب - والعياذ بالله - فإمام الواحد منهم لا يقدر أن يحمل نفسه على منهج الدين لا يكون له متدوحة ولا نجاة إلا أن يقول :

هذا الدين غير صحيح ، لأن هذا الدين إن كان صحيحا فسوف يهلك هو ومن على شاكلته ، فيكذبون أنفسهم وينكرون على الدين أملاً في النجاة لظنهم إذ لا منجى ولا أمل لمؤلا إلا أن يكون الدين كذبا كله

لنتظر إلى القصة التي طار بها المستشرقون فرحا : النبي صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، وكان عبدالمطلب له بنت اسمها . أميمة بنت عبدالمطلب ، وهي بذلك تكون أختا لعبدالله بن عبدالمطلب وأنجبت أميمة بنتا اسمها « برة » ، وغير النبي صلى الله عليه وسلم اسمها ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان له مسقط في الأسماء ، اسمها « برة » . والاسم جميل لأنه من البر وهو صفة تجمع كل خصال الخير ، لكن رسول الله كره أن يقال فيها بعد : خرج رسول الله من عند « برة » ، فسماها « زينب » .

« برة » هذه هي بنت أميمة فهي ابنة عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزيد ابن حارثة - كما قلت - كان طفلا ثم خطف ومُرق ، وبيع وانصرف إلى ملكية رسول الله ، وبعد ذلك أراد رسول الله أن يكرمه على ما يقتضيه كماله البشري وعذله البشري فسماه « زيد بن محمد » .

وعندما أراد زيد بن محمد أن يتزوج . . زوجته رسول الله من « برة » على مضمون منها ، لأنه مؤلى ، وهي بنت سيد قریش . وكان ملحظ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يريد أن يجعل من المسلمين مزيجا واحداً ، فلا فرق بين مؤلى وسيد ، وذو زوج بنت عمته لزيد ، وبعد الزواج لم يشأ بينهما وة ، وكل هذه تمهيدات الأقدار للأقدار .

بأنه لو أنها كانت أخذته من حب وكان بينها ولأم ، وبعد ذلك أراد الله أن يشرع فهل يشرع على حساب قلوب متعاطفين متحابين ليعرقها ؟ لا ، المسألة - إذن - تمهيد من أولها ، فلم تكن لها رغبة فيه . وعندما يجد الرجل أن المرأة ليس لها رغبة فيه ، تهيج كرامته ، وخصوصاً أنه صار ابناً بالنبي لرسول الله ، ويكون رفض امرأته له مسألة ليست هيئة ، وتصعب عليه نفسه ، فليأتى لرسول الله شاكياً ، وقال له : لم

تعجبنى معاشره « برة » وأريد أن أفارقها ، وكان ذلك تمهيداً من الله سبحانه لأنه يريد أن ينهى مسألة التنبى ، فقد كانوا فى الجاهلية يحرمون أن يتزوج الرجل امرأة ابنه التنبى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

ومادم يقول له : « أمسك عليك زوجك » فالكلام إذن قد جاء معبراً عن رغبة زيد فى أن يفارقها ، لكن خصوم الإسلام وأبوائهم من المسلمين يقولون فى قوله : « وتخفى فى نفسك » إن محمداً كان معجباً بالمرأة ويريد أن يتزوجها ، ويحصى هذه الحكاية

يقول لهم : كونوا متطقيين وادعوا النص ، فربنا يقول : « وتخفى فى نفسك » ، أنتم أخذتم منها أن النبى كان يريد أن يتزوجها . ولحق قل : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . فهذا كنت تريد أن تعرف ما أخفاء رسول الله ، فاعرف ما ألداه الله ، هذه هى عدالة الاستفصال ، وبدلاً من أن تقول هذا الكلام كى تشفى مرض نفسك انظر كيف أعطاك ربنا من تفاصيل الحكاية . قال سبحانه : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فماذا أبدي ربنا ؟ وحين يبدي ربنا أمراً يكون هو عين ما أخفاه رسوله ، فلما ذهب زيد للنبي وقال له : أريد أن أفارق « برة » قال له : « أمسك عليك زوجك » لأن رسول الله عليم من الله أنه يريد أن يزوجه « برة » التى هى امرأة زيد الذى تبناه كى ينهى مسألة التنبى ، وأن امرأة التنبى لا تحرم على الرجل ، ويطلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

لَكَرَّ هَٰذَا أَنَسُ مَوَالِ عَدُوِّهِمْ مَرَّصٌ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَبَاسُ صَافِلِينَ ، وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ هَٰذَا الْأَمْرُ وَارِدًا مِنْ اللَّهِ فِي قِرْآنِهِ . فَلَوْ كَانَ قَدْ قَالَ هَٰذَا الْأَمْرُ بِمَحْرُودِ الْإِجْمَاعِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ لَقَالُوا : هَٰذَا كَلَامُ مَنْ هُوَ ؟ بِذَلِكَ قَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَزَيْدٍ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ وَجْهَكَ ، فَيُزِنُ رَبُّنَا الْأَمْرَ كُلَّهُ قِرْآنًا ، فَلَمْ يَقُلْ مُحَمَّدٌ اأَهْمَىٰ وَشَأْنًا ، أَوْ الْفَقَىٰ فِي دُرُوعِي ، لَا ، جَاءَ هَٰذَا لِأَمْرِ قِرْآنًا ، وَلِلَّذَلِكَ يَقْدَمُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ يَقُولُ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ إِلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ أَنْ يَنْتَهِبُوا أَمْوَالَهُمْ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فَرْقَاطًا أَنْ يَدْنُوا مِنْ حُرَّتِهَا وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ آلُهُمْ صَالِحًا مِنْهَا وَلَهُمْ عِلْمٌ بِمَا يُسْلُبُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَوَاحِلَ الْأَرْضِ فَإِلَيْهَا يَبْطِشُ إِذَا وَقَعْتُمُ النُّجُومَ ثُمَّ رَاى إِلَهُكُمُ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمُقْتَدِرِ ﴿٦٨﴾

(سورة الأحزاب)

فالله لنعم على زيد بالإسلام وأبغمت أنت يا رسول الله عليه بالنبي فلا تخش
الناس أن يقولوا . طلق المرأة من زيد ليُتزوجها . كأن رواج « زيد » من « رينب » ،
كان لعاية واحدة وهي أن تكون « برة » التي سهاها رسول الله « زيب » صكوجة لزيد
الذي تباه رسول الله بدليل : « قلنا نضى زيد سها وطرا ، أى أدنى المهمة ، فأرشنا أن
نعطى الحكم : « زوجا » فمن الذى زوج ؟ إنه الله ، وليس رسول الله صلى الله
عليه وسلم هو الذى تزوج .

فلما كنتم تريدون أن تصعدوا المسألة فاتركوا رسول الله في حاله ، وصحبوها إلى ربنا ، فقلوه سبحانه : « علما قصي زيد منها وطرا » يدل على أن أصل الزواج من البداية مهاد له ، فالعاية منه أن يقصى زيد منها وطرا وهو متبني رسول الله ، ويكون هذا الزواج عن كره منها ، إنما غير مراخضة عليه ، وتنقل المسألة عند زيد إلى حزة

ويقول : لا أريدها . ويذهب إلى الرسول ويقول : أريد أن أصلق « برة » فيقول له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه » . والذي أبداه الله هو قوله لرسوله « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » كأن الغاية من النكاح أن يقضى زيد منها وطرا وتنتهي الحكاية بالنسبة لزيد ، ويأتي الحكم بالنسبة لرسول الله فيقول ربنا : « زوجناكها » .

فالذي يريد أن يمسك المسألة لا يمسكها على الرسول ، لكن عليه أن يصعدا إلى ربنا ، « زوجاها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . كأن العملية جاءت من أجل أن ما أبداه ربنا في زواج الرجل من مطلقة الولد المتبنى إذا قضى منها وطرا ، هذا ما أبداه ربنا ، إن الله حكم بأن الذي أنفاه النبي صلى الله عليه وسلم سيديه ، إن الوحي هو الذي بين السبب الباعث على زواج الرسول بريب إنه قوله تعالى : « لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا »

فالعلة في هذه العملية . يا ناس ، يا محمد ، يا زيد ، يا زينب ، أو يا من يحب أن يرجف ، العلة في كل ذلك علة إلهية من كمال إلهي وعدل إلهي يركز في قوله سبحانه « لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » وكان أمر الله مفعولا ، والأدعية . هم الذين يتبوه من غير ولادة .

وما دام ربنا يريد أمرا فلا بد أن يفعل ، وأنتم آمنتم بأنه رسول ، وإن لم تؤمنوا بأنه رسول يكون تكذيبكم برسالته أكبر من أنكم تنقدون نصرته ، فإن كنتم مكذبين أنه رسول ، فما شأنكم إذن ؟ إن تكذيبكم له كرسول هو أشد من أن تنقدوا نصرته من نصرته بأنه تزوج من كانت امرأة ابنه المتبنى . وإن آمنتم بأنه رسول ، فهذا الرسول مبلغ من الله .

إذن ففعل الرسول المبلغ عن الله هو الميزان للأعمال لا ما تصبونه أنتم من موازين . اتقولون للرسول الذي أرسله ربنا كي يبلغ منجه ويطبق هذا المنهج . ويكون هو ميزانا للتصرفات ، فقولوا له : سنأخذ تصرفاتك وبعملها على الميزان

الذي نضعه ؟ ما كان يصح أن يفعل أحد هذا ، فإن قلت ذلك فقد جعلت الميزان من عندك ، ونقلت الأمر إلى غير الحق ، وهذا أول خطأ ؛ فالأصل في الرسول أن كن فعل له هو الكمال ، ولا تثنى أنت بميزان الكمال وثائق للرسول وتقول به : كيف فعلت هذه العملية ؟ لأنك عندما تقول ذلك فقد نصبت ميزان كمال من عندك ، وتأخذ تصرف الرسول لتزنه بميزان الكمال من عندك ، وهذا مناقض للحق لأنك آمنت بأنه رسول .

وبعد ذلك يأتي بالتضيعة العامة ليقول سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكلمة « أبا أحد » أي لم يكن أباً لأحد ، ماذا تفهم منها ؟ نفهم منها أنه أبوكم كلكم ، « ما كان محمد أباً أحد » لأنه أبو الجميع ، بدليل أن أزواجه أمهاتكم ، وعمرات عليكم ، فهو إذن والدكم كلكم ؛ إذن فنحن بالك من دقة الأداء « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » ويمطوق الواقع هو أب لكم كلكم ؛ لذلك هو لا يأخذ واحداً فقط ويقول : هذا ابني ، لا ، هو أب لكم كلكم وكل المؤمنين أولاده بدليل أن أزواجه أمهات لهم ، قد يقول واحد : لقد كان عنده أبناء .

نقول له : إن أبنائه لم يلبثوا سن الرجولة ، وهب أنهم بلغوا سن الرجولة حتى باعتبار ما سيكون . مهؤلاء ليسوا رجالكم ولكنهم رجاله « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » والرسالة وختم النبوة به فوق شرف الأبوة . وجاء الحق بذلك حتى لا يحزن زيد ، فرسول الله قد شرفه ، وإن شرفك يا زيد أنك كنت تدعى ابن محمد ، فما شرفك أكثر أنك مؤمن بمحمد كرسول ، فالمعظمة في محمد صل الله عليه وسلم أنه جاء رسولاً .

ولذلك قلنا : إن هذه جعلت نواة الدم بلا قيمة عند الأنبياء ، ونجد أن النبي جاء بسليمان وهو من فارس وليس من قبيلته ولا هو بعربي وقال :

(سليمان منا آل البيت) (١)

ونقول الحق : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » بمفهوم العبارة ونصحها الدلوقى والأداتى والأسلوبي أنه أبوكم كلكم ، فلا يبعد به أحد دون الآخر ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ، وعندما كان زيد ابن محمد ، أصبح زيداً ابن حنيفة ، ومحمد هو رسول الله ، ولدت أمّ مؤمناً به - يا زيد - فرسول الله هذه نعوص إلماء الأبوة بالتبني بالنسبة لك ، ثم إنك داخل في الأبوة العامة من رسول الله للمؤمنين ، لأمك أمّت به كرسول ، إذن فعندما نحقق في هذه العبارة نجد أنه يُسَمَّى زيداً أباً . وحير من هذا - أنك يا زيد - إن فقدت بين الناس اسم زيد ابن محمد ، وكنت تجعل ذلك شرفاً لك ، فأنت الوحيد من صحبة رسول الله الذي يُذكر في القرآن باسمه المتحصى ، ونصبح كلعه « زيد » قرأنا بذكر ونس ، وبعد تلاوته ، ونحسوط على الآية : ومرجع الذكر ، إذن فقد عوضك الله يا زيد ، فقد قال الحق : « فلما قضى زيد منها وطراً » وهذا أنه بقى زيد ابن محمد ، فما الذى يحدث ؟ سقرأه في السيرة ، لكن يرتفع شرف ذلك عندما يقرأها في كتاب الله المحجرة المتعدد تلاوته ، الذى ضمن الله حفظه ، فقد ضمن الله تحليد اسم زيد إلى أن تقوم الساعة ، إذن فذكره كزيد ابن محمد في حياته أولى أو ذكر زيد في القرآن ؟ إن ذكر اسمه في القرآن أولى ، « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً »

إذن فنقول الحق سبحانه : « وحلائل أمّاتكم الذين من أصلانكم » بدل على أن حلائل الأماء المتبوع حل لكم ، بعد أن كانوا - في الجاهلية - محرّمين ذلك ، ويقول الحق من بعد ذلك : « وأن تجمعوا بين الأختين » وتحريم الجمع في الزواج بين الأختين لأن بينهما رَحماً يجب أن تظل معه المودة والرحمة والصفاء ، لكن إذا كانت تحت رجل واحد تحدث عداوة ، « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إلى الله كان فحوراً رَحماً » وهذا الحرم من الآية : « وأن تجمعوا بين الأختين » مع استثناء الحق

في قوله : « ولحق لكم ما وراء ذلك » قد حصل في فهمها والراء منها خلاف .

ونقول لولا المرأة في ملك اليمين ليس لها حق قَبْلَ سبدها في أن يطأها أو يستمتع بها ،
ملك اليمين لا يوجب على السيد أن يجهن إماءه أمهات أولاد

إنَّ الأمام عليا - رضي الله عنه وكرّم الله وجهه - وسيدنا عثمان - رضي الله عنه - أخذ
كل واحد منها موقفاً ، فسيدنا عثمان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين ؟ فقال :
« لا أمرك ولا أنكأ أحلتها آية » ، وحرمها آية « فتوقف رضي الله عنه ولم يفت . أما
سيدنا علي فقد حرم الجمع في وطء الأختين بملك اليمين ، أما التملك من غير وطء
فهو حلال ، وهذا هو الذي عليه أهل العلم بكتاب الله ولا اعتبار برأى من شذ عن
ذلك من أهل الظاهر

ويتابع الحق . « إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » أي أن هذا الأمر مادام
قد سلف قبل أن يشرع الله ، فهو سبحانه من غفرانه ورحمته لم يضاعفنا بالقانون
الرجعي ، فلا تحريم إلا بهن ولا عقوبة إلا بتجريم ، ومادم احكم لم يأت إلا الآن
فيطبق من الآن ولا يصح أن يجمع أحد الأختين تحت في نكاح أوى وطء بملك يمين ،
ولا يجمع أيضاً بينهما في زواج من إحداهما وطء بملك يمين لأخرى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَُمْ أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرُ مُسْفِحِينَ^٤ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ^٥
مِنْهُنَّ فَنُافِثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ^٦ فَرِيضَةٌ^٧ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ^٨ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

وقول الحق : « والمحصنات من النساء » هو قول معطوف على ما جاء في الآية السابقة من المحرمات ، أي سيضم إلى المحرمات السابقات للمحصنات من النساء ، ومن هن المحصنات من النساء ؟ الأصل في الاشتقاق عادة يوجد معنى مشتركاً فهذه مأخوذة من « الحصن » ، وهو مكان يتحصن فيه القوم من عدوهم ، فإذا تحصنوا به امتنعوا على عدوهم . . أما إذا لم يكونوا محصنين فهم عرضة أن يُغير عليهم عدوهم ويأخذهم ، هذا هو أصل الحصن ، والاشتقاقات التي أخذت من هذه كثيرة : منها ما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَرْيَمَ الَّتِي عَمَّرْنَا آلَئِيَّ أَحْصَتْ فَرْجَهَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

وهـ أحصنت فرجها ، يعني أنها عفت ومنعت أي إنسان أن يقترب منها ، وهذا قوله : « والمحصنات » في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، المقصود بها المتزوجات ، فهادمت المرأة متزوجة ، فيكون بضعها مشغولاً بالغير ، فيمتنع أن يأخذها أحد ، وهي تمتنع عن أي طارئ جديد يقد على عقدها مع زوجها . هذا معنى « المحصنات من النساء » ، فالمحصنات هنا هن العفيفات بالزواج ، وأحق يقول :

﴿ فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَنَيْنَ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ

الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النساء)

فهادمت الإمام قد أحصن بالزواج ، هل يكن من المحصنات كالحرائر ؟ لا ، فهذه غير تلك ، هن لا يدخلن في المحصنات من الحرائر ، وإلا لو دخلن في المحصنات يكون الحكم واحداً ، فهو سبحانه يقول : « فإذا أحصن فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، وأصل الإحصان وهو العمة . . توصف به الحرة ، لأن الحرة عادة لا يقربها أحد . وهذه امرأة أبي سفيان في بيعة النساء قالت : وهل قرى الحرة ؟ كأن الزنا كان خاصاً بالإماء ، لأنهن المهينات . وليس هن أب لو أم أو عرض ، قد يهترى عليها أي واحد ، وليس لها شركة

ولا أمل ، ولذلك جاء عقبها نصف حجاب الحرة ؛ لأن الأمة يحرم حرلها من الناس من تسول له نفسه فعل الفاحشة .

إذن فالإحصان يُطلق ويراد به العمة ، ويطلق الإحصان ويراد به أن تكون حرة ، ويطلق الإحصان ويقصد به أن تكون متزوجة ، وتطلق المحصنات على الحرائر فالوضع العام للحرة هو الذي يجعلها أملاً ولا يجترى عليها أحد ، لكن حب أن امرأة متزوجة ثم حدث خلاف أو حرب بين قومها وبين المؤمنين وصارت أسيرة لدى المسلمين مع أنها متزوجة بطريقتهم في بلادها ، وهي بالأسر قد انتقلت من هذا الزواج وجاءت في البيئة الإسلامية وصارت مملوكة ، ومملوكيتها وأسرّها اسقطت عنها الإحصان ، فقال : « إلا ما ملكت أيمانكم » .

إذن فهي بملك اليمين سقط عنها الإحصان ، ولمسلم أن يتزوجها أو أن يستمتع بها إذا دخلت في ملكه وإن كانت متزوجة لأن هناك اختلافاً في الدارين ، هي في دار الإسلام ، وخرجت من دار حرب فصارت ملك يمين ، ولا يكون هذا إلا بعد استيرائها والاستيثاق من محوريها من جبين يكون قد جاءت به من قومها لقوله صلى الله عليه وسلم في سبأيا أوطاس : « لا نوطاً حمل حق نصع ، ولا غير ذات حمل حق نحيس » وهذا تكريم لها لأنها عندما عدت عن زوجها وصارت مملوكة ملك يمين ظلم يرد الحق أن يحصلها بل جعلها تتمتع بسيدها وتعيش في كنفه كي لا تكون محرومة من التواصل العاطفي والجسدي ، بدلا من أن يبلغ سيدها في أمراض الناس

« والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ، و كتاب الله »
يعنى : كَتَبَ الله ذلك كتباً عليكم ، وهو أمر مسجل موثق ، وكما هو كتاب عليكم فهو لكم أيضاً ، ويقول الحق : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » . إذن فله حرمت من : حرمت نسب ، وحرمت رضاع ، وحرمت إحصان بزواج .

« وأحل لكم ما وراء ذلكم » أي أحل لكم أن تزوجوهن ، ولذلك قال :
« وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا » أي تطلبوا « بأسوالكم محصنين » ولذلك نعلم أنه ثمرة الحركة والحركة تقتضي التبع والمشفة ، وكل إنسان يحب ثمرة عمله ، وقد بدافع عنها إلى أن يموت دون ماله ؛ لأن المال ما جاء إلا ثمرة جد ، وحتى إذا

ما جاء المال من ميراث ؛ فالذي ورثك أيضاً ما ورثك إلا نتيجة كدّ وتعب ، وعرفنا أن الذي يتعب مدة من الزمن تسوى عشر سنوات قد يورقه الله ما يكفيه أن يعيش بعدها مرتاحاً ، والذي يتعب عشرين سنة قد يورقه الله ما يكفيه أن يعيش ولده مرتاحاً ، والذي يتعب ثلاثين سنة يعيش حفيده مرتاحاً

إذن فكل ما تراه من مال موروث كان نتيجة جدّ وكدّ ومشقة من الآباء ، وإذا ما قال الحق : « أن تبغوا بأموالكم » دلّ على أن مقابل البضع يكون من جهة الرجل . « أن تبغوا بأموالكم » التي قال عنها سيدنا رسول الله : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغص للبصر وأحصى للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجه)^(١) .

ومادام المال عزيزاً على الإنسان وأخذ من طريق الحركة وطريق الجدّ وطريق العرق فيجب ألا ينفقه إلا فيما يعود عليه بالخير العاجل ولا ينسى الخير الآجل ، فإن هو حقق به خيراً عاجلاً ثم سها وغفل عن شرّ آجل فهو لم يضع المال في موضعه . « أن تبغوا بأموالكم محصين » « محصين » كما عرفنا لها معان متعددة . « محصين » أي متحصين أن تقلبوا وتقلعوا في أعراض الناس بأموالكم ، أي ضع مالك الذي كسبه بكّد فيما يعود عليك بالخير العاجل والآجل ، فلا تلعبوا به في أعراض الناس ، لأنه من الممكن أن يبتغي إنسان لقاء امرأة بأمواله لكنه غير محص ، ويقول له : أنت حققت ثمة ونفعاً عاجلاً ولكنك ذهلت عن شرّ آجل ، يقول فيها ربا : « محصين غير مسافحين » ومنه أخذ اليباح .

فإياك أن تدفع أموالك لكي تأخذ واحدة تقضى معها وطراً . فكلمة « محصين » تعني التزام الحفة ، وشرح الحق كلمة محصين بمقابها وهو . مسافحين ، من السفح وهو . الصب ، والصب هطول ونزول الماء بقوة ، فالماء قد ينزل نقطة نقطة ، إنما السفح صبّ ، ولذلك سمي السفح الجبل بذلك لأن الماء ينزل من كل الجبل مصبواً .

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن جابر بن سمرة

هنا يلاحظ أن الحق حين يتكلم عن الرجال يقول « محصين » بكسر الصاد ، وحين يتكلم عن النساء يقول « محصات » بالفتح لم يقل « محصات » بالكسرة ، لأن العادة أن الذكورة هي الصفة دائماً للأنوثة ، والأنوثة مضمونة دائماً

« غير مسافحين » فما استمتع به منهن فأنوهن أجورهن « والاستمتاع هو إدراك متعة للنفس ، والمتعة توحد أولاً في الخطوة ، مساعة يحطب رجل امرأة فهذا استمتع ، وساعة يعقد عليها وساعة ترف له ، هذه كلها مقدمات طويلة في الاستمتاع ، لكن الاستمتاع ليس هو الغرض فقط ، يقول لك إذا استمتعت من فلان أن تعطيهن مهرهن ، ولذلك إذا تزوج رجل امرأة ثم عنفها قبل أن يدخل بها يقول له : ادفع نصف المهر ، لأنك أخذت نصف المتعة ، ولو أن المتعة هي العملية الجنسية فقط لم يكن قد أخذ شيئاً وبالتالي فلا شيء عليه من المهر ، لكن نقول : إن المتعة في أنه تقدم إلى بنت فلان وحطب وعقد ، كل هذه مقدمات متعة ، فعندما يكون ذلك فإنه يكون قد استمتع ببعض الشيء

الحق سبحانه وتعالى يريد ما أن يبي حياة الأسرة على طهر ، وعلى أمن ملكات ، فأنبت نحمد الرجل حين يكون بين أهله لا يجد عصابة في أن يفلق عندها الباب ، لكن تصور وجوده مع امرأة دون رواح ، فملكات النفس تتصارع فيه ، ويترصد ، ويمكننا أن نطرح رجفته إذا سمع أي شيء ، لأن ملكاته ليست مسحية ، هو يتمتع ملكة واحدة ، لكن الملكات النفسية الباقية ملكات مغرقة ، مما يدل على أن ما يعنيه ليس أمراً طبعياً ، وما دام ليس أمراً طبعياً فملكات النفس تتناقصه ، الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبي لأسرة على طهر وعلى أمن ، وهذا الأمن النفسي يعطى لكل ملكات النفس متعة

وقتنا من قبل إن الإنسان إذا كان له بنت ثم رأى شاباً يمر كثير على البيت ويذم كثير إلى الشرفة ، ثم يقع بصر والد الست عليه ، ماذا يكون موقفه ؟ تهب كل جوارحه ، فإذا ما جاء الولد أو أبوه وطرق الباب وقال : يا فلان أنا أريد أن أحطب انتك لنفسي ، أو أريد انتك لابي . ماذا يكون موقف والد الفتاة ؟ إنه السرور والانشراح وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة ، ويتم إعلان البهجة وهو الذي

يدعو الناس ويقيم فرحا ، لأن الذي تحقق الزوجين الذكر والأنثى حينها شرع
الانتقاء ، أعطى في النفس الشربة وفي دراهم رضا بهذا الحكم بالانتقاء

ولذلك روى . « جَدَّخَ الحلال ألف الغيرة »

أى أن من يعار على ابنه هو الذى يوجه الدعوات لروحها ، فكان العيرة فيها
حية ، وإن طُلب عرص عن غير طريق خالق لأعراض فلا بد أن تهيج النفس ، فإن
طلبها على وفق ما شرع خالق الأعراض تطمئن النفس وهذه عملية قد يكون من
الصعب تصورها . هي التى يسبب لرضا ، ومن الذى يدفع في القلب الحمية
والعصب والثورة ؟ إنه - سبحانه - هو الذى يفعل ذلك .

والإنسان عليه أن يلتفت إلى أن كلًّا مما يكون من ملكات متعددة ، فعقد الرواح
وقول « رويحي » و « رويحتك » وحضور الشهود ، ماذا يعمل في درات تكوين النفس
لكي تُسر ؟ إنها إرادة الحق . وهذا شيء معروف . وأنت حين يكون لك إنسان
تعرفه فقط ، والإلف السبيل بينك وبينه مارال في أوله ، يكفى عندما تقابله أن يلقى
عليه السلام وينتهي الأمر ، لكن هناك إنسان آخر لا يكفى هذا السبيل الودى بينك
وبينه ، بل لا بد أن تسلم عليه بيدك ؛ لأن هناك جاذبية ومردة ولكل منهما تأثير

إذن عملية الود والولاء أمر يصنع تعبيرا كيمياويا في النفس ، ويكون انتشارا إذا
ما جاء النقاء عن طريق ما حرم الله ، والذي يأتي عن طريق ما شرع الله يحقق
التجاذب . والشاعر عندما حطبت من بحه قل .

بأي من وددته فافترقنا
رقضى الله معد داك اجتيعا
ومحسينه فلما السفينا
كان تسليمه عن ودعا

كان الشاعر يريد تطويل أمد التسليم ومساكنته كي يعتدى ما عنده من الود ، وكأنه
يريد أن يقول : أن التفتت مع من أوده فاحتفى في واختتمت فيه ، وهذا ناشئ من
الامتزاج

إذن فالتكوين لماعظم أو السبيل أوجده الله كسبيل النقاء . هذا إذ ما كان على
شرح الله ، أما في الحالة الأخرى فهو سبيل كرامة . وما لدى يسبب ذلك ؟ إنه
عطاء من الله وهو خالق الرجل وخالق المرأة ، فساعة يحى . للقاء على وفق ما شرع
الله فلا تستبعد أن يعدل الخالق الذرات ، فعندما يحدث الامتزاج فلا بد أن الوفاء
يأتى كمنهج طبيعية وكذلك لولاء ، ويتحقق الانسجام هذا ، يجب ، أما إذ كان
النقاء على غير طريق الله فلا انسجام فيه وهذا سلب

إذن فالخلق سبحانه وتعالى يبي الأسرة على هذا المعنى وأنتم تعلمون أن
الانتفاءات التي تحدث عن غير طريق الله إنما تحدث في الخفاء ، ومذكورة الثمرة ، فإن جاء
منها أثر وحمل فسيلقى الوليد في الشارع ويكون لقبطاً وقد يميتونه ، إنما الثمرة التي
تأتى بالحمل فالكل يصرح بها

فالخلق سبحانه وتعالى يقول : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم
محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن ، والاستمتاع أشياء
كثيرة ، وجاء الشيعة في قوله . « فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن » . وقالوا
هذا نكاح المتعة بدليل أنه سبحانه سمى ما أخذ في نظير ذلك أجراً ونقول : كلمة
« أجر » هذه واردة في الرواح ، فسيبدأ شبيب عندما جاء سيدنا موسى عليه السلام
قال له . أعطني أجر ثمان حجج . وسيلقى في الآية نفسها التي يقولون بها ويقول :
« وأتوهن أجورهن بالمعروف » . فسمى المهر « أجر » أيضاً ، فلماذا تأخذون هذا
المعنى ؟ هم يقولون . نكاح المتعة حدث . ونقول لهم نكاح المتعة حدث ولسطر
إلى أسبابه .

إن هذا النكاح قد حصل على يد مشرع وله حكمة ، ولكن ماذا بعد أن انتهى
المشرع هذا الحكم وانتقل إلى الرفيق الأعلى ؟ لقد انتهى الحكم ، إن الرسول صل
الله عليه وسلم أحل زواج المتعة في فترة وحيزة حبيبا كانوا في عزوة من العزوات ،
ودهب قوم إلى رسول الله صل الله عليه وسلم ، لأهم يريدون أن يسوا حركة حياتهم
على الإيمان الناصح . كان من الممكن أن يواروا هذه المسألة عن الرسول ، إنهم قالوا
له يا رسول الله أئستحي ؟ أى يحيى أنفس ؟ فهذام الجهاد يظن ما أن نكون

في هذا الموضع بعد من هذا فليستحس حتى لا يكون عندما رغبة فأنصح هم رسول الله صلى الله عليه وسلم رواح المتعة ، ولكنه أهله ، والدليل على أنه أهله ، أن عمر من الخطاب - رضى الله عنه - ، وأنتم تعلمون منزلته - رضى الله عنه - من التشريع في أحكام الله ، إنه كان يقترح الاقتراح فيرون القرآن موافق له ، يقول عمر ما يجيء واحد ليستمتع إن أحل إلا رحمة

إذن انتهت المسألة وسيدنا على - كرم الله وجهه - أقر بهي سيدنا عمر ، وقالوا إن ابن عباس قال به نكه قال . إني كنت قد أحطت فيه ، ويعلم أن صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجلسوا في فصول تعليمية لسماع الوحي ، بل كان كل منهم يذهب إلى رسول الله بعد أن يفرغ من عمله . فهذا سمع وذلك لم يسمع . وهذا هو السبب في أن هذا بروى وذلك لم يرو ، فسيدنا ابن عباس قال إني كنت أعرف مسألة المتعة ، ولم يصح عدى حذر معها إلا في آخر حيات

إذن بقول الشيعة . إن المتعة موحودة هو نتيجة استدلال خاطيء ، فقول سبحانه . ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ علما أن بقرته بقوله أيضا في المهور في الآية اسالية . ﴿ فَاتُكْحِنُهُنَّ بِأَدْنَىٰ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ لأن هناك فرق بين الشمس وبين الآخر ، فائتمن للعين ، والآخر للمصلحة من العين ، وم يملك الرجل بمهره المرأة . فمما ملك الانتفاع بالمرأة ، ومادام هو ملك انتفاع فيقال له أحر أيضا .

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مَرِيضَةً ﴾ أي أن الذي فرض ذلك هو ربنا . ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرَاصِبْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ ونلاحظ هنا أن هناك مرقا بين أن يشرع الحق حق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحا ، فمن حقه أنها تأخذ المهر . لكن ماذا إن تراضت المرأة مع الرجل في ألا تأخذ المهر وتساو له عنه ؟ أو أن يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل في قوله تعالى . ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ، فلا لوم ولا تثريب فيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة ، وكلمة « تراصبتم » تلحل في قوله سبحانه

﴿ فَإِنْ طِبِّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسٌ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

وفي عصرنا نجد أن المرأة تأخذ مهرها من الرجل وتجهز به البيت ، مع أن المفروض أن تجهز الرجل لزوجته ليب وأن يبقى المهر كاملاً لها ، ولكن التعاون هو الذي يعطى العطف والتكاتف .

ويذيل الحق الآية : « إن الله كان عليهما حكيمًا » إذن فكل أحكام الله مبنية على العلم بما يصلح خلقه ، ولا يغيب عنه أمر كي يؤخر تشريعه ، فتأخير التشريع يعني أن الذي شرع عاب من دمه جرثومات ما كانت في ناله ساعة شرع ، وحين يأتي الواقع يأق له جرثومات لم تكن موجودة ، فيضطر إلى إصدار تشريع جديد يستدرك به ما لم يكن في ناله . والدين يقوبون . إن التشريع الإلهي لا يغطي حاجة البشر بقول لهم . من الذي سيمطيه ؟ أنتم يا مفكرون أتعدلون على الله ؟ إن الله يكشفكم أنكم تأثرون بتفنيات ، وبعد ذلك يظهر عيوبها وعوارضها وأخطرها . فتضطرون أن تعدلوا . فسبحانه عليم حكيم . فإن أمر حكيم عن مبدءه فقد اقتضت الحكمة أن يكون كذلك .

ومثال ذلك تحريم الخمر ، لم يحى* به مرة واحدة ، لأن الشيء الذي يحكمه العادة والإلف ، لا بد فيه من الترتيب ، وأن يصدر التشريع على مراحل ، وكل مرحلة تسهل المسألة بالنسبة لما سبقها ، ويكون الأمر صعباً إذا كان التشريع دفعة واحدة لأن ترك العادة دون تدرج يكون عسيراً شاقاً ، لأن أهم شيء في الخمر أنها تعود إلى الاعتياد ، بدليل أن مدمن الخمر عندما يمر عليه الوقت يضطرب فيأخذ كأس ليستريع ، ولول مرحلة في التحريم أن الحق كسر الاعتياد ، ومادامت هي عادة متعمدة فمن الصعب جداً أن يرعها صاحبها من نفسه مرة واحدة . فأولاء جاء الأمر كعظة ، وبعد ذلك يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ومادمت لا تشربها وأنت تصل فكم مرة تصل ؟ خمس مرات في النهار ، إذن فعودك أن تترك وقتاً من الأوقات غير ملتبس بالخمر ، وتكون قد تعودت على ترك الخمر طوال النهار . وبعد ذلك يتدرج فيقول .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ ﴾

أَلْعَنَتُ مِسْكُمُ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

والاستطاعة تعني أن يدخل الشيء في طاعتى فلا يعصى ولا يتأبى على ، والمرس
أبى أمسكت قطعة حديد ولزبتها ، هنا تكون قطعة الحديد قد دخلت في طوعى ،
ومثال ذلك أبى آدم ، حين قدم كل منهما قريبا لله يتقبل من أحدهما ولم يتقبل من
الأخر ، فالذى لم يتقبل الله منه القربان قال :

﴿لَأَقْلُبَنَّ﴾

(من الآية ٢٧ سورة المائدة)

فماذا كان ردُّ الذى تنفى التهديد ؟ قال :

﴿لَيْسَ سَطَتْ إِلَيَّ يَدُكَ يَتَقَلَّبُ مَا أَسَاطِرُ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْلُبَنَّ إِنَّي أَخَافُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَمُوتَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونُ مِنَ أَتَحْتَبِ الْبَارِ وَذَلِكَ
بِرَأْيِ الطَّائِفِينَ ﴿٢٧﴾ فَطَرَعْتُ لَهُ نَفْسَهُ فَمَتَّعْتُ قَتْلَ أَخِيهِ فَمَتَّعْتُ قَاتِلَهُ فَمَتَّعْتُ قَاتِلَهُ

الْخَيْرِ بِرَأْيِ

(سورة المائدة)

ما معنى « طوعت له » ؟ طوعت يعنى • جعلته في استطاعته ، وعندما يحس البشر
في « فطوعت له نفسه » يجد أن « الهاء » تشير إليه هو ، وذلك يدل على أن الإنسان
فيه ملكات متعددة • ملكة تقول : اقتله ، وملكة أخرى تقول له . لا يقتله
صغيره يقول له : لا تفعل ، والنفس الأماره بالسوء تقول له . اقتل ، ويكون هو
مرتددا بين الأمرين

وقوله الحق • « فطوعت له » دليل على أن نفسه كانت متأبية عليه ، لكن النفس

الأمانة بالسوء طغت وراءه بالإلحاح حتى أن نفسه لماعة طوعت له أن يقتل أخاه .
ومع أن نفسه طوعت له أن يقتل أخاه إلا أنه صبح بعد ذلك من النادمين ، وبعد
أحد شهوره من القتل مدم ، وبأن هذا الدم على لسانه

﴿ يَتَوَلَّىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِ امْكُوتْ مِثْلَ هَٰذَا الشَّرَابِ ۖ فَوَرَىٰ سَوْءَةً أُنْحِ ۖ فَصَحَّ

مِنَ الشُّعْبِ ۖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

أنت الذي قتلت ، لكنك أصبحت من النادمين لماذا ؟ لأن ملكات الخير دلتها
تصعد عمل الخير وتحبط عمل الشر . والإنسان قد يبدأ شريراً ، وإن كانت ملكاته
ملكات خير عالية ، فهو يزل من هذا الشر العالی ونعمه ، وإن كانت ملكات الشر
عابه فهو يبدأ في الشر قبلاً ثم يصعد ، فيقول في نفسه فلان فعل في كذا وأريد
أن أصفعه صفعة ، وبعد ذلك قد يرجع من شره فيقول « أو أضربه ضربة » لكن
إذا ما كان الإنسان خيراً ، فيقول « فلان كاد لي ، أريد أن أضربه رصاصة أو
أضربه صفعتين أو أوجهه » إنه يزل من الشر ويصعد من الخير . كما في قصة سيدنا
يوسف وإخوته حين قالوا

﴿ إِذْ نَادَىٰ يُوْسُفُ وَأَخُوهُ أَحِبُّ إِلَيَّ آيَاتٍ وَنَحْنُ عُصَّةُ ۖ إِنَّ أَنَا لَفِي صَلِيلٍ

مِثْلِي ۖ ﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْلُ سَكْرَ وَحَهُ أَبَيْكَ وَتَكُونُوا مِن

عِيدِهِ ۖ قَوْمًا صَالِحِينَ ۖ ۝ قَالَ قَدِ لَ مِنْهُمْ لَا تَفْتَنُوا يُوسُفَ وَالْقَوَىٰ فِي

عَيْنَيْكَ الْحَبِّ يَنْتَقِطُهُ مَغْصُ السَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ۖ ۝

(سورة يوسف)

إنهم أساط ، وأولاد البني يعقوب ، فيفلتون من الشر ، يحفظونه مباشرة
قائلين : « أو اطرحوه أرضاً ، يعنى يلقونه في أرض بعيدة ، إذن صفعوا القتل في
نفس واحد ، كيف تم هذا الانتقال من القتل إلى اطرحوه أرضاً ؟ ثم خففوا الأمر
ثانية حتى لا يأكله سبع أو يبتوه ، فقالوا « والقوى في غيابة الحب يلتقطه بعض
السيارة »

إذن قوله : « ومن لم يستطع منكم » أى من لم يستطع دخول الشيء فى طوعه أو أن تطوله يده . وهذا هو المقصود بالطول ، « عطائه يده » يعنى صار فى استطاعته ، وفلان تطول على ، أى تمصل على بشئ ، « وفلان تطاول عن » أى ما كان يصح أن يجترى على ، وكلها من الطول ، « وطولا » تعنى قدرة تطول بها الرواح بمن تحب ، أى أنت لا تملك مالا ولا تستطيع الطول ، فهناك مرحلة أخرى ، لا داعى للحرة لأن مهرها عالٍ عالٍ ، فحد من الإمام الأسيرات لأن مؤنتهن ونفقتهن خفيفة ، وليس لها عصبة ولا أهل يجادونك فى المهر ، فقال : « ومن لم يستطع منكم طولاً أن يكسح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيماكم من فتيانكم المؤمنات » .
والذى يلحقه فى الآية ، أن تكاح ما ملكت اليمين يكون لغير مالكها ، لأن مالكها لا يحتاج ذلك ، إنه يستمتع بها ويتعشاها ، لأنها ملك يمينه وليست مملوكة للغير .

إذن فقد أباح الله للمسلم أن يكسح بما ملك يمين غيره على شرط أن يكون ذلك بإذن مولاهما ، لأنها بالرواح تقطع حرة من رقبها وخدمتها لمن يملك رقبها ، فلا بد أن يستأذن حتى يكون أمر انقضاءها إلى الروح فى بعض خدماته مما هو معلوم لأوليائهن ، وأمر ايضاً سبحانه ألا يستهين بأنها مملوكة ومهينة فلا تأتينا مهرها . بل يجب أن يؤذى هؤلاء مهورهم بما يعرف ، أى بالمعارف عليه ، لأن ذلك عوض الصنع ، فإذا كان الحق قد أمر بأن تستأذن مواليتهم وأمر بأن تأتينا أجورهم ، هنا بعض الإشكال لأن المملوكة لا تملك ، لأن العبد وما ملكت يدها لسيده .

نقول له : نعم ، ولكن إذا قلت العبد وما ملكت يدها لسيده فلا بد أن تحقق لها ملكاً أولاً ثم يكون ما تملكه لسيدها . أما أن تتعدها وتعطي المال لسيدها فإياها فى هذه الحالة لم يتحقق لها مهر ، فقولك : لعبد وما ملكت يدها ، أى أعطها فترة وفرصة لتكون مالكة بأن تُعطي الأجر تكريماً لها ، أم كون ماها لسيده فهذا موضوع آخر وبعد ذلك تذهب لتزوجه إن ذلك يصح ، فهل بهم من ذلك نك إن استمعت طولاً لا تنكح الإمام ؟ لا . وهل هذا يقلل من شأن الإمام ؟ لا لماذا ؟ انظر للحكم العالية التى لا يهونها إلا رب .

الله يريد أن يصفى مسألة الرق ، فحين يأتى وسجد ويتزوج أمة مملوكة لغيره

فأولادها يتبعونها في لرق . فالأولاد في الدين تتبع خير الأبوين ، وفي الحربه والرق يتبع الأولاد الأم ، فإذا ما تزوج إنسان أمة مملوكة غيره فأولاده الذين سيأتون يكونون عبيدا . وحين يتركها لسيدها ويزوج غيرها من الخواثر ، فمن يملكه من سيدها يكون حرا . إذن سبحانه يريد أن يصفي الرق ، هذه واحدة ، الشيء الآخر أن الروح النماء الذكر بالأنثى ليكونا نواة أسرة ، فإذا ما كان الروح والزوجة أكفاء فالروح لا يجد في نفسه تعاليا على الزوجة ، والزوجة لا تجد في نفسها تعاليا على الزوج ؛ لأن كل واحد منهما كسء للآخر ، وهذه تضمن اتزان الحياة واتزان التعامل ، لكن حين يتزوج واحد أمة ليس لها أهل فقد يستضعفها وقد يستعص عليها وقد يذلها . وقد يعبرها ، وحين يكون لها أولاد قد يقولون لهم : ليس لكم حال مثلا . والمنشع يريد أن يهيئ حياة أسرية مترفة ، ولذلك اشترط الكفاءة ، وقال .

﴿ وَالْحَيْثُوتُ لِحَيْثٍ وَأَطَّيْتُ لِلطَّيِّبِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وبعض من الناس فهم عندما ترى طيبة فلا بد أن يتزوجها وحل طيب ، يقول لهم إن هذا تشريع والتشريع تكليف وعرضة أن يطاع وعرضه أن يعصى ، فسبحان حين يشرع أن الطيبات يكن للطيبين والخبيثات للخبيثين ، فإن طبقتم التشريع تكون المسائل مستقيمة ، وهذا يحسن الرد على من يقولون مادام ربنا يقول « اطيبات للطيبين » فكيف يتزوج فلان بفلانة وأحدهما طيب والآخر خبيث ؟

ونقول : إن هذا الحكم ليس في قضية كريمة حديثة ، بل هو قضية تشريعية تقتضي ما أن تنصه وأن تجعل العيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات يتحقق التوازن . فإن كان خبيثا وقال لها . أنت كذا وكذا تقول له : أنت كذا وكذا . فلا يقول هذه كي لا تقول له مثلها ، أما لإنسان الطيب فهو يلين جانبه مرة وهي طيبة وتلين جانبها مرة

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » كلمة « المحصنات » تعني هنا الخواثر ؛ لأنها لو كانت متزوجة فلن تكون ممن تزوج لآخر « فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » وكلمة « فتي » نطلقها في الحر على من له

إن إيمان ملك اليمين ضعيف وتعملها عنه يقول لك الحق لا والله أعلم
بإيمانكم ، ولعل أنه خير في الإيمان منك ، لأن هذه مسألة دلائل قلوب ، وأنت
يكفيك أن تعلم الظاهر

والحق سبحانه وتعالى حين يعالج الأمور يعالجه معاملة رب يعلم واقع ما خلق
ويعطي كل مطبوعات المحلول ، هو أولا أوضح . أسم إن كسم لا تستطيعون طولا
أن تنكحوا امحصات فانكحو لإماء ، وهذا من أجل مريد من نصيبه الرق

بعد ذلك يقول : والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض « فإن كنت متزوج
يجب أن تجعل نصف عيبك أمرا هو أن « بعضكم من بعض » أي أنكم جميعا
من آدم ومادمت قد آمنت ، فلا إيمان سوى يسكن ، فإذا ذهبت فتزوج فلا بد أن
تضع هذا نصف عيبك ، إنه سبحانه يعالج واقع

ويقول بعد ذلك : « فانكحوهن بإذن أهلهن » وهذا إشعار بأن من تحت يده
فتاة بملك يمينه فعليه أن يعاملها معاملة الأهل ليعرضها عن فقدته عند أهلها هناك ،
ولتشعر أنها في حصانة الإسلام مثلها كانت في حصانة أهلها وأبنائها أو أكثر

إذن فالذي يحدث لابد أن يجعل نصفه من الأهل ، وبذلك يزيد الحق سبحانه
وتعالى من أبواب تصفية الرق ، وأوضح . فإن لم يدخل واحد منكم من بملكه في
هذه المصالح سوف يقبه رفيقا ، وإذن فعليه أن يطعمه ، يأكل ويلبس بما ليس
ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفه ما لا يطيق فبذلك بيده . وعندما يوحد معك إنسان
تلبسه من لابسك وتطعمه من أكلتك ، وعندما يعمل عملاً بصعب عليه فأن
تساعده ، فأى معاملة هذه ؟ إنها معاملة أهل .

انظر كم مسألة يعالجها الحق . يعالج طالب ارواح ويعالج المملوكة ، ويعالج
السادة ، إنه تشريع رب الجميع . فلا يشرع لواحد عن حساب آخر ومادامت
ملك يمين وفما سيد فهذا السيد له مصالح لابد أن تتأده ، فقد لا يستطيع أن
يستغنى عنها لأنها تخدمه ، فقال . « بإذن أهلهن » ، لكن في المهور فإن

« فانكحواهن بدين هلهن واتوهن أحورهن بالمعروف » فالأمة تكبح بأذن من يمكنه
 كي يعرف أن هناك من دخل شريكاً به في العملية ويأخذ الصبح وهو الروح ، وحين
 يستأذن السيد ويرؤجها فهو يعلم أنها لم تعد له ، وبذلك لن يأخذها أحد من حلف
 ظهره ، وهو بالاستئذان والتزويج يرتب نفسه على أن لصبح قد أعلق بالنسبة به ، وفيت
 له ملكية الرقة أما ملك الصبح فهو سروح

« واتوهن أحورهن بالمعروف » فإياكم أن تقولوا : هذه مملوكة بيمين وأى شيء
 يرصيهما ويكفيها ، لا فهذا مهر بالمعروف أى بالمتعارف الذى يعطيها ميزان الكرامة
 في البيعة ، « محصنت غير مسافحات ولا متحدثات أحداً » وقلنا : إن المحصنة هي
 العفيفة ، « غير مسافحات » ولمسافحة : هي من تمارس وتزاول عملية الزنا ، ويسمونها
 امرأة عامه ، ومتحدثات أحداً : أى تتحدث عشاقاً وأحدانا

« فإذا أحصى فإن أتيت بها حشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب »
 أى إذا تزوج الإمام وحامات الواحدة منهن بها حشة فلهن عقاب أما إن لم تحصى
 فليس عليهن حاكم ويقوم سيدها بتعريضها وتأديبها : لأن الأمة عادة مسدلة ، لكن
 عندما تزوج تصبح محصنة ، فإن أتت بها حشة بقول لها أنت لك عفتك
 الخصوصى ، لن نعاقت عقاب الحرة : لأن آخره يصعب عليها الزنا ، لكن الأمة قد
 لا يصعب عليها أن يحدث بها ذلك ، فليس لها أب ولا أخ ولا أسرة ، فقال :
 « فإن أتيت بها حشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، أى نصف ما
 على الحرائر من العذاب

لكن الخوارج أخذوا الكلمة في معنى من معانيها ليخدم قضية عددهم وقتلوا : إن
 « المحصنات » هن المتزوجات ، هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كي
 يفتنوا مادامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة ، إذن فالمتزوجة ليس عليها
 رجم : لأن الرجم لا ينصف والخوارج أخذوا هذه وقالوا : إن القرآن لا يوجد
 فيه رجم واكتفوا بجلد الراية مائة جلدة

ويكون لهم أنهم أخذتم المحصنة على معنى أنها المتزوجة ، وبسببهم ومن لم

يستطع منكم طولاً أن يكبح المحصنات ، فالمحصنات هن الحرائر ، فلهذا أحدثتم المحصنات هناك بمعنى الحرائر والمحصنات هنا بمعنى المتزوجات ١٩ إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر ولا حاجة لكم في مثل هذا الباطل . وبذلك تسقط الحاجة ، فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال

ثم نبحث بحثاً حر ، بقول : يقول الحق : « فليهن نصف ما من المحصنات » لو أن الحكم على إطلاقه لم قال الحق : « من العذاب » ، فكان الذي عليها فيه النصف هو العذاب ، وما هو العذاب ؟ العذاب هو إيلاام من يتألم ، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إسماء حياة ، والآية تنص الماصفة فيها يكون عذاباً ، أما ما لا يكون عذاباً فهو لا ينصف والحكم غير متعلق به . فالعذاب إنما يأتي لمن يتألم ، والألم فرع الحياة . والرجم مريب للحياة ، إنما فارجم لا يعتبر من لعذاب . وللدليل على أن لعذاب مقبل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان ونمطه الطير قال :

﴿ مَا لِي لَا أَرَىٰ لَهُ هَذَا ۖ مَا كَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ۚ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ۚ أَوْ لَأَأْتِيَنَّهُ ۚ ﴾

(مر الآية ٢١/٢٠ سورة النمل)

فالدخ وإزهاق الحياة مقابل للعذاب ، فقوله : « نصف ما على المحصنات » فلتكلم فيه الآن العذاب وليس الرجم ، وليس إرهاب الحياة وهذا يسقط الاستدلال

والذين يقولون إن آيات القران لا تدل على رجم منول لهم ومن الذي قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام صبح الله في الإسلام وأنه فصل كل شيء ؟ القرآن لم يحىء كتب صبح فقط ، وإنما جاء معجزة وكتاب صبح للأصول ، ثم توث للرسول صلى الله عليه وسلم ن بين الناس ما رول إليهم فصلا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم نص القرآن عبده تعريض من الله أن بشرع ، وتلك مبرة تمير بها صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فانه قد أعطاه الحق في أن بشرع ، بدليل أنه سبحانه قال في صلب القرآن الذي يشتمل على أصول منهج الإسلام .

﴿وَمَا تَنْسِكُ أَرْسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَسَكَ عَنْهُ فَأْتَهُوا﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فالرسول عمل مع القرآن ، وإلا فليقل لي من يدعى أن في القرآن كل حكم من أحكام دين الله ، من أين أخذ تفصيل حكم الصلوات الخمس ؟ ومن أي آية أخذ أن الصبح ركعتان ؟ وأحد الظهر أربعاً وأحد العصر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والمساء أربعاً ، من أين أحدها ؟! إذن لا يوجد شيء من ذلك ، فيما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة وفيه منهج يتعلق بالأصول ، ومادام المصح الذي يتعلق بأصول الأشياء قد أعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرع ، إذن فنشر به مأموريه ومأذون فيه من صلب القرآن . ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المصنف . هاب لي هذا الحكم من القرآن ، وبظرت في كتاب الله فلم تجد ، فقل له دليل الحكم في القرآن هو قول الله : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وأي حكم من الأحكام يأتي ولا تجد به سداً من كتاب الله ويقال لك : ما سنه ؟ قل : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

والمصح أوامر ونواه . إذن فالطاعة أن تتمثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هي الطاعة . كل موهج أو دين أمر ونهي ، فامتثل الأمر واجتنب النهي . وأنت إذا تصفحت القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمصح الله والذي شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تتمثل في الأمر والنهي . فإذا ما استقرأت القرآن وجدت - كما قلنا سابقاً - أن الحق سبحانه وتعالى يقول مرة في الطاعة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة ، فالطاع هو المكرر ، « أطيعوا » أمر واحد ، نطيع من ؟ . . الله والرسول . المطاع هنا هو الله والرسول ، ومرة يكرر أمر الطاعة ويقول :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ وَأَطِيعُوا أَرْسُولَ لَعَنُوكُمْ رَحْمُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

ومرة رابعة يقول :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَذِلَّ الْأَمْرُ مِنْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وإدخل هنا أولى الأمر أيضاً ، إذن مرة يأمر بالطاعة ويكرر المطاع فقط أى :
يوحد أمر الطاعة ، ويكرر المطاع « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، فوحد أمر الطاعة
وكرر المطاع ، ومرة يكرر أمر الطاعة ، ويكرر معها المطاع . « وأطيعوا الله وأطيعوا
الرسول » ، ومرة يقول « وأطيعوا الرسول » فإذا قال لئ « أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول » قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا
كان في أمر إجماع وللرسول أمر تعصلي كالصلاة وبركة والحج ، إذن فتطيع الله
وتطيع الرسول .

وإذا لم يكن لله أمر فيه مل جاء من باطل التعريض في قوله سبحانه « وما أتاكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فهذا الأمر أطيع فيه الرسول ، لأنه جاء في
آية أخرى قوله « من بطح الرسول فقد أطيح الله » ، لماذا ؟ لأن الرسول عمل
بالتعويض الذي أعطاه الله به حسب قول الحق : « وما تأتاكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا »

وبقيت طاعة أولى الأمر التي جاءت في قوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم » أى أطيعوا أولى الأمر من باطل طاعة الله وطاعة رسوله ، قسم
يفرد ولي الأمر بطاعة وإنما جعل طاعته من « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، قسم
يقل « وأطيعوا أولى الأمر » بل قال « وأولى الأمر » أى من باطل طاعة الله
والرسول ، إنها دقة الأداء في القرآن . تأمل ما يقوله الحق سبحانه . « وما أتاكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

لقد قلنا إن الطاعة امتثال أمر واجتناب نهى الموجود لها « آتاكم »
 و« نهاكم » ، « آت » هذه جاءت بدل وما أمركم والنهي موجود بلعطف « وما نهاكم
 عنه » الأمر هو « آتاكم » ، ولماذا لم يقل « وما أمركم به الرسول محذوه وما نهاكم
 عنه فأنتهوا ؟ » ولماذا لم يختصر فيقول « وما آتاكم الرسول محذوه ! » لأن الإتيان من
 الرسول إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً ، ولكن أليكون المنهى عنه فعلاً بفعله
 الرسول ! ؟ لا يمكن

إذن فالنهي لا يتأتى إلا شيئاً وصحياً من الفعل ، لكن الإتيان يكون قولاً أو فعلاً ،
 لأنه عندما يقول لك : لا تشرب الخمر ، فهذا كان بفعل النبي كي نأخذ من
 الفعل ؟ إن الرسول قطعاً لم يشرب الخمر ، إذن فعول الرسول وفعله يتأتى في الأمور
 به ، وأما في المنهى عنه فلا يتأتى إلا قولاً ، بالله أمم الممكن أن يأتي بهذا عقل
 بشري ؟ لا يمكن ، ولا يقولها إلا الله .

ثم بحث بحثاً آخر يا حوارج ، إن الرسول إذا جاء ليبغ عن الله - ومواد التلخ
 أن يعلمنا بالحكم ، لنؤدى منلوله ، فإذا جاء حكم قولاً بالنص ، فإلى بشرحه لنا
 هو ما يفعله الرسول ، وحين يفعله الرسول أوجد مجال للكلام في هذا النص ؟
 لا يوجد ، بل تكون المسألة متتهية . إذن فالمعمل أقوى ألوان النص في الأوامر ، لأن
 الأمر قد يأتي كلاماً نظرياً ، وقد يتأول فيه البعض . لكن عندما يفهم الرسول يكون
 الحكم لازماً ، لأن الذي فعل هو المشرع .

أوجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفعله هو نص حمل .
 إنَّ العمل ليس نصاً قولياً يتأول فيه ، لقد رجم الرسول ماعزاً والعامدية ورجم
 اليهودي واليهودي وكافاً قد أحصنا بالزجاج والخربة . وعص الرسول هو الأصل في
 الحكم . فذليل الخوارج إذن قد سقط به الاستدلال وبقي ما فعله المشرع وهو
 الرسول الموضح من الله في أن يشرع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل
 فعلاً فيقره عليه .

ثم نسحبها بالعقل . إذا كتب تريد ألا يوجد في الرد حد إلا الجند ، أتسوى بين
 من لم يزوج ومن فوج ؟ إن المتروجة لها حرص ولها زوج ولها نسب وسكن . هن

هذه مثل تلك التي لم تتروح ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا بالعقل ، إذن محكم الرجم موجود من فعل الرسول ، والدليل الذي استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتيال . والدليل إذا تسرب إليه الاحتيال سقط به الاستدلال .

« فإن أتيت بمحشة فعلين نصف ما على المحصات من لعنات ذلك لمن حشى العنت مكم » ومن هو المقصود بـ « ذلك » ؟ المقصود به إباحة نكاح الإماء لمن لم يجد طولا أن ينكح من الحرائر . وما هو « العنت » ؟ « العنت » هو المشقة والجهد ، وإرهاق الأعصاب ، وتلف الأخلاق والقيم ، لأن الإنسان إذا هاجت غرائزه إما أن يحف وإما أن يثقل . فإن أمنت فقد تسرب المساد إلى قيمه وإلى خلقه ، وإن لم يمتلئ والتم ، ماذا يحدث ؟ سيفتح بين أبواب المرض انفسى وتأثيره الأمراض المصيبة . فأباح له الله أن يتزوج الأمة ، إن لم يجد طولا في لزواج من الحرائر .

وبذلك يكون مفهوم الآية . إن الذي لا يحشى العنت فليس ضروريا أن يتزوج الأمة (١) . وليس هذا تزهيدا في الأمة بل فيه احترام لها ، لأنها إن تزوجت ثم ولدت من تزوجته فسيصبح ولدها عبدا ، والله يريد أن يصمى الرق والعبودية ، فيوضح له دعها لسيدها فإن أعجبته وحلت في عبيه ووطنها وجاءت به بولد فتستكون هي والولد من الأحرار إنها قد دخلت في دائرة الحرية .

إذن فالحق يريد أن يصمى الرق ، ثم قال . « وأن تصبروا حبركم لكم » أي وصبركم عن نكاح الإماء . وأنتم في عفة وطهر عن مفارقة الإثم إن ذلك خير لكم من دواجهن . فنكاح الحرائر أفضل .

وبذلك الحق الآية . بقوله « والله عفو رحيم » أي إنه (عفو) لما قد بدر وحصل مكم من دنوب استغفرتكم ربكم بها (رحيم) بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقة عليكم وحبا في رجوعكم إليه .

(١) من النسخة من يشرح لصحة نكاح الأمة شروطا هي : ألا يجد ما يتزوج به امرأة حرة ، وأن تكون الأمة مسلمة . وأن يخلط المولود في الإثم .

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُخْلِصَ إِلَيْكُمْ سُنَنَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴾

ماذا يبين لنا ؟ إنه - سبحانه - يبين القوانين الحاكمة لانتظام الحياة . ولما إنه لا يمكن أن يوجد تجريم إلا بنص ولا نوجد عقوبة إلا بتحريم . فحينما يعاقبك على أمر فهو يقول لك . هذه جريمة ونص عليها ، إنه لا يأثم ليقول لك : فعلت الشيء المأثم وهذه عقوبته ، لأنك قد نقول له . فعلت هذا الفعل من قبل ولم أعرف أنه جريمة وعليه عقوبة . إذن فلا يمكن أن تعاقب إلا إذا أوجرت ، ولا يمكن أن تجرم إلا بنص ، يريد الله أن يضرركم بيان ما تصح به حركة حياتكم ، والله أرحم
عليكم من أنفسكم ، لأنه هو سبحانه الذي خلق وهو يعلم من خلق .

إن سبحانه وحده - الذي يقنن ما يصلح مخلوقه ، أما أن يخلق هو وأنت نفس
فهذا عنده ، لأنه سبحانه يقنن لما يعلم - والله المثل الأعلى - وقلنا سابقا : إن
المهندس الذي يصنع التليفزيون هو الذي يضع له قانون الصيانة ، لأنه هو الذي
صمم الآلة ، وهو الجدير بأن يضع لها قانون صيانتها ، فبعلمنا - المفتاح هذا
لكذا ، وهذا للصورة وهذا للصوت

إن الذي خلق الإنسان هو الذي يضع قانون صيانتها التمثيل في « افعل
ولا تفعل » ، وترك سبحانه أمورا لم يرد فيها فعل ولا تفعل ، وهي متروكة على
الإرادة ، تفعله أو لا تفعله ، إنه سبحانه « يريد الله ليخلى بينكم وبين
الذين من قبلكم » ، والسنة هي الناموس الحاكم لحركة الحياة . والحق يقول .

﴿ سَأَلَ اللَّهَ فِي الَّذِينَ سَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(سورة الأحزاب)

والرسل سقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعرفنا الذين أطاعوا رسلهم
 ماذا حدث لهم ، والذين كذبوا رسلهم ماذا حدث لهم . لقد قال الحق في شأنهم
 ﴿ فَكَلَّا أَحَدًا بِذَنِّهِ قَتَلَهُمْ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الْعِصْمَةُ
 وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّقَ يَدَ الْأَرْضِ وَمِنْهُمْ مَنْ عَرَفُوا وَمَا كَانَ اللَّهُ بِمُضِلِّهِمْ وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ١

(سورة الحكور)

قال الله يريد أن يبين لنا سن من قلنا ، أي الطرق التي حكموا بها ، وماذا حدث
 لأهل الحق وماذا حدث لأهل الناطل . إذن فهو ليس تقييد أصم ، بل هو تقييد
 مسبوق بوقائع مؤكدة وبنوثة ، « ويهديكم من الذين من قبلكم ويوب عليكم »
 وهو سبحانه يبين ويوضح ويورث ، « والله عليم » لأنه خالق ، « حكيم »
 يضع الأمر في موضعه والهي في موضعه ، فالحكمة هي وضع الشيء في موضعه ،
 وسبحانه يضعه عن علم ، فالعلم يقتضي اتساع المعلومات ، والحكمة هي وضع كل
 معلوم في موضعه

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ
 يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمْسُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ ٢

سبحانه قال في الآية السابقة : « يريد الله ليبين لكم » ، وبعد ذلك يقول :
 « ويهديكم » ، وبعد ذلك « ويتوب عليكم » ، وفي الآية التي نحن بصدد خواتمها
 منها : « والله يريد أن يتوب عليكم » ، فلهذا جاء أولا بـ « ويتوب عليكم » وجاء
 ها ثانيا بـ « والله يريد أن يتوب عليكم » ؟

يقول التوبة لا بد أن تكون مشروعة أولاً من الله ، وإلا فهل لك أن تنوب إلى الله من الذنب لو لم يشرع الله لك لتوبة ؟ أنصح هذه التوبة ؟ به سبحانه إذن يشرع التوبة أولاً ، وبعد ذلك أنت تنوب عن صوء ما شرع ، ويقول هو التوبة ، وبذلك نكون أمام ثلاث مراحل أولاً مشروعية التوبة من الله رحمة به ، ثم توبه العبد ، وبعد ذلك قبول الله لتوبة عن ذنب رحمة به - سبحانه - إذن فتوبة العبد بين توبتين من الرب . توبة تشريع ، وتوبة قبول

والله يريد أن يتوب عبيده ، مادم سبحانه قد شرع التوبة أبشر بها ولا يقلها ؟ لا ، فمادم قد شرع وعلمني أن أتوب فمعنى ذلك أنه فتح لي باب التوبة ، رفح باب التوبة من رحمة المعلم الحكيم بحقيقته ، لأن الحق حينما خلق الإنسان روده دون سائر الأجاس بطاقة من الاختيارات الفاعلة . أي أن الإنسان يستطيع أن يفعل هذه أو يفعل تلك ، وحمل أجهزته تصلح للأمر وللنهي ، فالعين صالحة أن ترى إية في كون الله نعتريه ، والعين - أيضاً - صالحة أن تمتد إلى المحارم واللسان صانع أن تسب به ، وصالح أن تذكر الله به فتلا لا إله إلا الله وسائر أنواع الذكر واليد عضلاتها صالحة أن ترفعها وتضرب بها ، وصالحه لأن تقبل وترفع بها عاتراً واقعاً في الطريق

هذا هو معنى الاختيار في القول وفي الفعل وفي الحوارح ، فالاختيار طاقة مطلقة توجعها إرادة المختار ، وإذا بطرب إلى اليد تجد أنك إذا أردت أن ترفعها ، فإنك لا تعرف شيئاً عن العضلات التي تسعملها كي ترفع اليد فالتدي يرفع يده مثلاً ، يفعل ؟ وما العضلات التي تخدم هذا الرفع ؟ وأنت ترى ذلك مثلاً في الإنسان الميكانيكي أو تراه في راحة الأتقال - الوش - التي ترفع الأشياء ، انظر كم عملية لتصل ذلك ؟ أنت لا تعلم شيئاً عن هذه المسألة في نفسك ، لكنك بمجرد أن تريد تحريك يدك فأنت تحركها وتطيعك وعندما يريد لمهندس أن يحرك الإنسان الآلي فهو يوجهه بحسابات معينة ليفعل كذا وكذا ، أن الإنسان فيحرك اليد أو القدم أو العين بمجرد الإرادة

والحق حين يسلب قدرة الإنسان - والعياذ بالله - يهيه بالشلل ، إنه يريد

فلا تتعمل له اليد أو غيرها ولا تعلم ما الذي تعطل إلى أن يذهب إلى الأطباء ليبحثوا في الجهاز العصبي ، ومعرفوا لماذا لم تعتمد أعصابه الأوامر ، إنها عصبية طويلة . إذن فالإنسان - عندما يريد الحركة - يوجه الطاقة المخلوقة لله فقط ، فليس له فعل في الحقيقة ، ما إن أثابني الله وحاروا عن طاعة فذلك لأن وجهت الآلة الصالحة للفعل إلى عمل الخير ، وعندما تسمع أنه لا أحد بيده أن يفعل شيئاً فهذا صحيح ؛ لأن أحداً لا يعرف كيف يعمل أي شيء ، إنه فقط يريد ، فإن وجهت الطاقة للفعل فهذا عملك أنت بمعنى الاعتبار - إذن - أن تكون مسلحاً للفعل ومقابل الفعل وهو الانتهاء والترك

وعندما يبين الحق سبحانه وتعالى لك ويرسل لك المصح الذي يقول لك : وجه طاقتك لله ولا توجهها لله ، معنى ذلك أن طاعتك صاحبة ثلاثين . إذن فأنت مخنوق على صلاحية أن تفعل وألا تفعل ، وما تركه المصح دون أن يقول لك فيه « افعل » ولا « تفعل » فإن فعلت على أي وجه لا يصعد به الكون ولا تصعد به حركة حياتك فهذا هو الساج لك .

وحين شرع الحق سبحانه التوبة أوضح أنه إذا افعل فريد لعمل شيء فوجه طاقته لعمل شيء مخالف ، قد يكون شهوته أو شرته قد غلب عليه ، فوجه في ساعة صعب إلى عمل شر ؛ لذلك شرعت التوبة لماذا ؟ لأننا لو أخرجنا هذا الإنسان من حظيرة المطيعين بمجرد فعل أول عمل شر لصارت كل انفعالاته من بعد ذلك شرواً ، وهذا هو الذي سميه « فاقداً » ، فيشرع الحق إن فعلت ديباً فلا تيأس ، فنحن سنساعذك ونثوب عيبك

ساعة شرع الله التوبة رحم المجتمع من شراسة أول عاصي ، فهو لم تأت هذه التوبة لكثرت المعاصي بعد أول معصية ومقابل قول الحق « والله يريد أن يتوب عليكم » ونسبه أن الذنوب التي فعلتها قبل ذلك يطهرك منها بالتوبة ، مقابل ذلك الذين يتبعون الشهوات ويريدون منك أن تنال بدروب جديدة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه « ويريد الذين يبعون الشهوات أن تميلوا » والميل هو مطلق عمل الذنوب إنك بدلت تميل عن الحق ؛ لأن الميل هو انحراف عن جادة مرسومه الحكيم ، والحادية هي الطريق المستقيم

هذه الحادثة من الذي حسنها ؟ إنه الحكيم . فإذا مال الإنسان مرة فربما يعذله على الحادثة مرة ثانية ، ويقول له : أنا تبت عليك ، إنه - سبحانه - يعصم ذلك كي يحمي العالم من شره ، لكن الذين يتحون اشتهوا لا يحسبون لكم عطف أن تغفلوا لمرة واحدة ، بل يريدون لكم ميلاً موصوفاً بأنه ميل عظيم . لماذا ؟ لأن الإنسان بطبيعته - كما قلنا سابقاً - إن كان يكذب فإنه يحترم الصادق ، وإن كان خائفاً فهو يحترم الأمين ، بدليل أنه إن كان خائفاً وعنده شيء يخاف عليه فهو يحار واحداً أميناً ليصع هذا الشيء عنده

إذن فالأمانة والصدق والوفاء ، وكل هذه القيم أمور معترف بها بالعظيمة ، فبإساعة
يوجد إنسان لم يقو على حمل نفسه على جادة القيم ، ووجد هذا الإنسان واحداً آخر
قدر على أن يجعل نفسه على جادة القيم فهو يصاب بالصيق الشديد ، وما الذي
يشفيه ويريجيه ؟ إنه لا يقدر أن يصوب عمله وسلوكه ويقوم من اعوجاجه ،
لذلك يحاول أن يجعل صاحب السلوك القويم محرراً مثله ، وإن كانت الصداقة
ترتبط بين اثنين وانحرف أحدهما فانسحرف يستحدي أمام نفسه بالانحراف ، ويحاول أن
يشد صديقه إلى الانحراف كي لا يكون مكسور العين أمامه وهو لا يريد محرراً
مثله فقط بل يريد أشد انحرافاً ، ليكون هو متعبراً عليه ، إنك فالتقييم معترف بها
أيضاً حتى لدى المحرفين ، وادكروا جيداً أننا نقرأ في سورة يوسف هذا القول
الحكيم .

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّحَرَةُ فَتَبَيَّنُوا أَنَّهُمْ أُخْرِجُوا بِسَاحِرٍ ذَكِّيٍّ ۚ
وَأَنَّهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ

(۱۲۹۰)

هم في السجى مع يوسف ، لكن لكل سبب في أنهم سحروه . فـ هؤلاء الذين سألوا يوسف هـر أنهم أجروا ، لكن سبب وجود يوسف في السجى أنه برى . والبرى كل فكره في الله ، أما الذين اسحرفوا ودخلوا معه السجى عديم يظنرون إليه يحنونه على حاله حسنة ، بدليل أن أمراً جديهم وهمهم في دافعهم بأن راوا رؤيا ،

فذهبوا لمن يعرفون أنه إنسان طلب برعم وجوده معهم في السحر ، فقد أعجبوا به
بدليل أنهم قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » . ومن يقول : « إنا نراك من
المحسنين » لا بد أن تكون عنده قدرة على تمييز القيم ، ثم فاسموا فعل يوسف عليها
فوجدوها حسنة ، وإلا فكيف يُعرف ؟ . إذن فالقيم معروفة عندهم ، فلي جاء أمر
بهم في ذاتهم ذهبوا إلى يوسف

ومثال ذلك هالك لص لا يمل من السرقة ولا يكف عنها ، وبعد ذلك جاء له أمر
يستدعيه للسفر إلى مكان غير مأمن ، فالتص في هذه الحالة يبحث عن إنسان أمين
ليقصي الليل عنده ولا يذهب للصوص مثله . إذن فالقيم هي القيم ، وعندما قال
أصحاب يوسف في السجن : « إنا نراك من المحسنين » ، استغل سيدنا يوسف هذه
المسألة ووجدتهم وثقين فيه فلم يقل لهم عن حكمتهم ابتداء ويؤول لهم الرؤيا ، بل
استغل حاجتهم إليه وعرض عليهم الإيمان قال :

﴿ يٰٓصٰحِبِّ السِّجْنِ اٰرٰىكَ اٰتٰىكَ مُتَرٰثِقُوْنَ خَيْرٌ اَمْ اَللّٰهُ اَلْوَحِدُ الْقَهَّارُ ۝٥٥﴾

(سورة يوسف)

لقد قلهم من حكائهم لحكايتهم ، ههنا ما يريدان استغلال رحبته فلماذا
لا يستعمل حاجتهم له ويعطيهما ويشرهما بدين الله ؟ وكأنه يقول لهما : أنتما جئتما إلى
لأنكما تقولان إني من المحسنين . وأنتما لم تريا كل ما عندي بل إن الله أعطاني الكثير
من فضله وفضلته ، ويقول الحق على لسان يوسف :

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا عَصَا مُرَرَّقَانِيَّةٍ إِلَّا بِآيَاتِنَا يَتَوَفَّيْهِ ۝٥٦﴾

(من الآية ٢٧ سورة يوسف)

أي أن يوسف الصديق عنده الكثير من العلم ، ويقر لها بفضل الله عليه . فليس
هذا العلم من عندي

﴿ ذٰلِكُمْ مَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۝٥٧﴾

(من الآية ٢٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك يدعوها لعبادة الإله الواحد كي يستجدا به بدلاً من الإله المتعدد

التي يتخذها معبودا هي وهي لا تضر ولا تنفع .

﴿أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ٢٩ سورة يوسف)

إذن فالقيم واحدة ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، حتى لا تكونوا مميزين عنهم تميزاً يحقرهم أمام أنفسهم ، فهم يريدون أن تكونوا في الانحراف أكثر منهم ، لأنهم يريدون أن يكونوا متميزين في الخير أيضاً ويقولون لأنفسهم . « إن كنا شريرين فهناك أناس شر منّا » ثم يقول الحق سبحانه .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

ضَعِيفًا﴾ (٢٨)

فسبحانه بعد أن قال : « يريد الله لييسر لكم ، ليسر ، والله يريد أن يتوب عليكم » ليسر ، والآن يقول : « يريد الله أن يخفف عنكم » ليسر ، وهي ثلاثة أمور هامة . ويقول سيدنا ابن عباس - رضي الله عنه وعن أبيه - : « في سورة النساء ثمان آيات لأمة محمد هي خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب الأول قول الحق .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُيسِّرَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ﴾ (٢٩)

(سورة النساء)

والثانية هي قول الحق .

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٣٠)

(سورة النساء)

والثالثة هي قول الحق :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكَ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ٢٨ ﴾

(سورة النمل)

والرابعة هي قول الحق :

﴿ إِنْ تَحِبُّوا كَافِرَاتٍ مَآ تَهْوَنَ عَنْهُنَّ كُفْرُكُمْ سِيقَانِكُمْ وَمُدْخَلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ٢٩ ﴾

(سورة النساء)

والخامسة هي قول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ٣٠ ﴾

(سورة النساء)

والسادسة هي قوله سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ٣١ ﴾

(سورة النساء)

والسابعة هي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ٣٢ ﴾

(سورة النساء)

والثامنة هي قوله تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ٣٣ ﴾

(سورة النمل)

هذه هي الآيات الثماني التي لم تؤت مثلها أي أمة إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام . ومنها قول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » .
وب هو ضعف الإنسان ؟ . الضعف هو أن تشبهه الخريات ولا يملك القدرة على استصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية ، لأن الذي تمتنع نفسه إلى شهوة ما يستعمله غالباً - خاطر العقوبة ، وعلى سبيل المثال ، لو أن السارق وضع في

ذهنته أن يده مستقطع إن سرق ، فسبّرد في لسرقه ، لكنه يقدر لفه السلامة
 فيقول : أنا أحتار وأعمل كذا وكذا حتى أخرج .
 إذن فصعف الإنسان من ناحية أن الله جعله مختاراً تستهويه الشهوات العاجلة ،
 لكنه لو جمع الشهوات أو صعد الشهوات فلن يجد شهوة أحطى بالاهتمام من أن يفوز
 برضاء و لقاء الله في الآخرة .
 وقول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » نلاحظ فيه أن
 التخفيف مناسب للضعف ، والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختاراً
 وخاصة في أمور التكليف ، فالذي جعل فيه الضعف جعله مختاراً يفعل كذا أو يفعل
 كذا ولكل أمر معرياته ، ومعريات الشهوات حاضرة . ومعريات الطاعة مستقبلة .
 فهو يعلب دائماً جانب المحاصر على جانب المستقبل .
 ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا
 أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 بَيِّنَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩ ﴾

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت حلقه إلى أن يؤمنوا به يلفتهم إلى
 الكون ، ويلفتهم إلى ما خلق الله من ظواهر ليتأكدوا أن هذه الظواهر لا يمكن أن
 تكون قد نشأت إلا عن قادر عليهم حكيم ، فإذا ما انتهوا إلى الإيمان به استظلوا
 التكليف الذي يتمثل في الفعل كذا ولا تفعل كذا ، فعين يخاطبهم بالتكليف يجعل
 لأمر التكليف مقدمة هي أنك ألزمت نفسك في أن تدخل إلى هذا التكليف ، ولم
 يرغبك الله على أن تكون مكلفاً ، وإنما أنت دخلت في الإيمان بالله باختيارك

وطواعيتك ومادمت قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك بالله
حشية كل حكم يحكم به الله عليك من أفعك كذا ولا تفعل كذا ، ولا تقبل كذا
أفعل كذا يارب ، ولماذا لا أفعل كذا يارب ؟ بل يكفي أن تقول : الذي أمت به إلهي
حكيماً قادراً هو سبحانه مأمور على أن يأمرني وأن يهتني . ولذلك يحق ، الحق دائماً
فيل آيت التكليف بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا » فهو لم يكلف مطلق
الناس ، وإنما كلف من آمن به

إذن فحين يكلف من آمن به لا يكون قد اضط وجار عليه لأنه قد آمن به بمحض
اختياره .

وإذا أمت بساكن ونهته وأمرته بأمر تكليفي مثل صل . أو امتنع عن فعل المنكر
فقال لك : « لا إكراه في الدين » هنا يجب أن تقول له : أنت لم تفهم معنى قول
الحق : « لا إكراه في الدين » فأصل الدين والإيمان بالله ألا يكرهك أحد عليه ، بل
ادخل إلى الإيمان بالله باختيارك ، لكن إذا دخلت إلى الإيمان بالله فاتزم بالسماح من
الله في « أفعل » و « لا تفعل » فحين يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » فهو يعطينا
حريات التكليف ، أي علة الحكم . فعلة الحكم أنك أمت بالله إلهي حكيماً قادراً
ومادمت أمت بالله إلهي حكيماً قادراً فسلم رمام الأوامر والنواهي له سبحانه ، فإن
وقفت في أمر بشيء أو نهى عن شيء فراجع إيمانك بالله .

إذن فقول : « لا إكراه في الدين » أي أنك حر على أن تدخل في الإيمان بالله أو لا
تدخل ، لكن إذا ما دخلت فبإياك أن تكسر حكماً من أحكام الله الذي أمت به ،
وإن كسرت حكماً من أحكام الله تدخلت مما في إشكال ارتكاب الميثاق أو
الذم .

والأحكام التي صيغت للدين أموا هي أحكام تعلقت بالأعراض وبإمضاء الأسرة
على نظام طاهر فقي كمن يأتي التكاثر تكاثراً نقياً طاهراً ، وتكلمت الآيات عن
المحرمات من النساء وكذلك المحللات ، وهما ود سبحانه يتكلم عن المال ، وهو
الذي يقيم الحياة ، والمال كما تعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتحول بغير مال ،
إلا أن المال ينقسم قسمين . مال يمكن أن تستفع به مباشرة ، فهناك من يملك

الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثوابا ، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال ، وهو النقد ، ولا ينتفع به مباشرة ، بل ينتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة .

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورق غير مباشر . ولحق سبحانه وتعالى يريد أن يحصى حركة الحياة ، لأنه لحماية حركة الحياة بغري المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة . ولو لم يحص الحق حركة الحياة ، وثمرة حركة الحياة فإذا يقع ؟ تتمتع حركة الحياة

وإننا نلاحظ أن كل مجتمع لا يؤمن فيه على العناية والثمره من عمل الإنسان تعمل حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته . ويقول لنفسه . لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن . لكن إذا كان أمنا على ثمره حركته يغريه الأمن على ماله على أن يريد في حركة العمل ، وحين تريد حركة العمل بالمجتمع يسع و . لم يقصد المتحرك . فليس ضروريا أن يقصد الإنسان بكل حركته أن يسع المجتمع . لا ، أحسنه يعمل لمع نفسه .

لقد ضربنا هذا المثل سائعا . إنسان مثلاً عبده آلاف الحبيات وبعد ذلك وضعها في خزانة ثم تساءل . لماذا أصعبها في خزانة ؟ لماذا لا أني بها بيتا آخر وأكرى منه شقتين ، سياطيني منه عائد ؟ هل كان المجتمع في مال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إن ياله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان في ماله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته قصد أو لم يقصد . لأنه ساعه بأن ليحضر الأساس سيعطي أناساً أجورهم ؛ وساعة يأتي بالطوب يشتره ثمن ، وساعة يبيع المهدس والعمال أجورهم ؛ لذلك أقول : اعمل نفسك في صوة شرع الله ، وسيتفع المجتمع قهراً عنك

ومن العجيب أنك تريد أن تتمتع نفسك قتيباً لك ربنا . أنت ستنتفع غيبك قبل أن تنتفع بماله المنزل الذي بنيت ، ولا تفكر أن أحداً سيأخذ ورق ربنا ون يجره على الحق ، لا . إن المجتمع سيتفع بالرغم منك

إذن من حظ المجتمع أن يصفون حركة الحياة . ويؤمن كل متحرك في الحياة على ماله . لكن إن كنا حاكمين يجب أن نكون أمينا مبصرين : أبكسب من حل أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً شكري ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فحسب سائله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة فهذا أمر ضار بالدين لا يقدرون على الحركة ، لماذا ؟ لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركي ، ولا يملك كل إنسان فكراً يحفظ به ، وقد لا يكون في المجتمع إلا فئة تخطط ، والباقي هم جوارح تنفعل للمكر المحض ، والمكر يعمل جوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذي يصنع خطة ينفذ بها الكثير من الناس .

إذن فلا بد أن نرى حركة المتحرك وسميها ، لأن المجتمع يتبع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذي ليس في باله إلا نفسه إنما يحبط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس في باله إنما يدهي ثمره عمله ويأخذ ثواباً أيضاً من الله .

والحق سبحانه وتعالى يأتي في مسائل المال ويوضحها توضيحاً تاماً ليحمي حركة الحياة ويعري الناس بالحركة - وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستعيد المجتمع ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بكم بالباطل » وساعة نجد أمراً للجماعة في جمع مأمور به فنقسم الأفراد على الأفراد .

مثال ذلك . عندما نقول للجماعة . اركبوا سياراتكم أي ليركب كل واحد منكم سيارته ، والمدرس يدخل الفصل ويقول لللاميذ اخرجوا كتبكم . أي أن كل تلميذ عليه أن يخرج كتابه . فمقابلة الجمع بالجمع تضيي الدقة أحياناً ، وقول الحق . « لا تأكلوا » بهذا أمر لجمع . وه أموالكم « أيضاً جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟ - يوضح الحق « بالباطل » . فيكون معلوماً من كل واحد منكم ألا يأكل ماله بالباطل . والإنسان يأكل الشيء لينصع به . ولحق يوصيك ويأمرك . إياك أن تصرف قرشاً من مالك وتضيعه إلا في حق . هذا إذا كنا سنقبل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله

بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر السامع ، انتهى ليس فيه حرمة ، وانذى لا يأن يعذب في الآخرة .

وإذا كان المراد أن لا أحد يأكل مال الآخر ، فسوضحه بالمثل الآتي . لتفحص أن تلميذاً قال لمرسه . يا أستاذ قمى كان هذا وضاع . يقول الأستاذ للتلاميذ لا تسرقوا أقدامكم ، مهن معنى ذلك أن الأستاذ يقول . لا يسرق كل واحد قلمه أو لا يسرق كل واحد قلم أخيه ، إذن فيكون المعنى الثانى « لا تأكلوا أموالكم » ، أى لا يأكل كل واحد منك مال أخيه بالباطل .

وكيف يقول « أموالكم » ؟ ومداً ما لم عليس عليهم حرج ؟ لا ، لأن معناه المقصود . لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه . ولماذا لم يقل ذلك وقال « أموالكم » ؟ لأن عادة الأوامر من الحق ليست موجهة إلى طائفة حُبقت عن أن تكون آكلة ، وطائفة حُبقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عرضة في مرة أن يكون آكلًا لمال غيره ، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً . فإنا إذا أكلت مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى فأكون قد عملت له أسوة ويأكل مالى أبصاً ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما يحمى لك مالك

إن الحق سبحانه وعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيماني مجتمعاً واحداً ويقول إن المال الذى عند كل واحد هو للجميع . وأنت إن حفظت على مال غيرك حفظ غيرك على مالك . وأنت إن احترأب على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك . وأنت ساعة تأكل مال واحد فتهترىء آلاف الناس على أن يأكلوا مالك . وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك .

« لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وكلمة « أكل » معناها : الأخذ ، لأن الأكل هو أهم ظاهرة من ظواهر الحياة ، لأنها الظاهرة المتكررة ، فقد تسكن في بيت واحد طوال عمرك ، وتلس جلداً كل ستة أشهر ، لكن أنت تتناول الأكل كل يوم ، وحينما نزلت الآية قال المسلمون نحن لا يأكل أموال بالباطل . ونخرجوا أن يأكلوا عند إخوانهم . وبعد ذلك رفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح أن

أكل التكاثم ليس بالباطل - أنزل الله قوله .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِمَّا فِي بُيُوتِكُمْ لَا تَأْكُلُوا مِنْهَا حَتَّى تَكُونَ حَتًّا أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهَا لَكُمْ وَآلَتُهَا مَا فَخَّرَتْكُمْ قُلُوبًا ۚ لَكُمْ مِنْهَا حَقٌّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّكُمْ لَأَبْصَارٌ ۚ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

هذه رفعت عنهم الحرج ، إنما ساعة سمعوا أكل الباطل قالوا لا أحد حاجة من أحد إلا بمقابل

وما هو الباطل ؟ الباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه . مثال ذلك الربا ، لأن معنى « ربا » أن واحدا عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل أنطلب منه أن يرد لأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتى هذا ؟ هذا هو الأخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس أو بالرشوة أو بالمشى في لسلم ، كل ذلك هو أكل مال الباطل ، وساعة تريد أن تأكل مالا بالباطل ، كأنك تريد أن تستمتع بشجرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بشجرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أحدك من غيرك . أخذ ماله كرهاً ويصير وجهه حق وبدلك تتعطل حركة متحرك في الحياة وهو ذلك العاقل « البهائم » ، ويخاف التحرك في الحياة وهو من تفرض عليه لإتارة فينزل ويضعف نشاطه في الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع في هذه الحالة سيعاني من كرب وصعوبات في الحياة

فقوله سبحانه . « لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، هُوَ أَمْرٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَا تَرَابٍ ، وَلَا نَسْرَقَ ، وَلَا نَغْشَ ، وَلَا تَدْلِسَ ، وَلَا تَلْعَبَ مَيْسَرًا ، وَلَا تَحْتَلِسَ ،

ولا يرتش ؛ لأن كل هذه الأمور هي أكل أموال بالباطل . وعندما تدقق في مسألة لعب لميسر يجد أمراً عجيباً ؛ فالذين يلعبون الميسر يدعون أنهم 'أصدقاء' ، ويستطرون بعضهم بعضاً ويأكلون معاً ، وكل واحد منهم يحسن أدم الآخر وهو حريص أن يأخذ ما في جيبه ، فأى صداقة هذه ؟

إذن فساعة يقرب الحق . « لا تأكلوا أموالكم بيسكم بالباطل » . ساعة يأمرك الحق إياك أن يصعب عليك التكليف ؛ لأنه شاق عليك . ولكن قدر ما يأخذه منك التكليف من تضيق حركة تصرفك . وما يعطيك التكليف من تضيق حركة الآخرين ، الحق قال لك . لا تأخذ مال غيرك لكي لا يأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، حين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعاً كي يكموا عن سرقة هذا الإنسان ، لذلك حين تستقبل أي حكم من الله لا تنظر إلى ما أحده الحكم من حرمتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين

ومثال ذلك - حين يوضح الحق - ومن عن النظر إلى المرأة الأجنبية إياك أن تمد عينك إلى محرم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر للملايين الناس ألا يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما يوازن الأمر فأنت الذي تكون أكثر كسباً .

إني لذلك أقول دائماً لا تنظر إلى ما في التكليف من مشقة أو إلى ما أخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ؛ فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت . وإلا لو أننا أطلقنا يدك في الناس جميعاً لا بد أن نقدر أننا نطلق أيدي الناس جميعاً فيك . وأنت إذا أطلقت يدك في الناس فس تؤثر فيهم مثلاً يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك ومما يخصك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك في الناس .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بيسكم بالباطل إلا أن تكون تجارة من تراض منكم » وكلمة « إلا أن تكون تجارة » عن تراض منكم ، أي إلا في النعمة المتبادلة تبادل الأعراض ، شيء عوض شيء . وجاءت التجارة ؛ لأن التجارة هي

الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ؛ فالناحر هو وسيط بين من ينج سلعة ومن يستهلكها والسلع في حركتها إنتاج واستهلاك والإنساح قد يكون رراعيا أو صناعيا أو حديما إذن فالشجرة جامعة لذلك كله

وكلمة « عن تراص » تدل على أن رضا النفس البشرية في الأعراض مشروط ، حتى ما أخذ بسيف الحياء يكون حراما ؛ لذلك أقول ، عن كل واحد أن يغربل إيمانه ، ويظهر هل حياته في أعراض الأموال وأعراض التجارة وأعراض السدلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ؛ فعليه أن يفكر فيها قبل أن يعطى كل ذي حق حقه وحتى لا يدخل في دائرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« إنا أنا بشر وإنكم تختصمون إلينا ، فاعمل بعصمكم أن يكون الخن بحجته من بعض فاضى له على نحو ما أسمع ، فمن قصبت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها »^(١)

ويتبع الحق . « ولا تقتلوا أنفسكم » وهنا أيضاً مقالته جمع نجمع ، ويعنى لا يقتل كل واحد منكم نفسه ، وهذا ما يفعله المتحرر - ولا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه في طرف لا يستطيع في حدود أسانه أن يخرج منه . ويقول له ، أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن حائق أعلى ، لكن المؤمن لا يعرف نفسه عن حالقه ؛ فساعة يأتيه طرف فوق أسبابه ولا يعوى عليه فعليه أن يهكر وهل أنا في الكون وحدي ؟ لا ، إن لي رباً ومادام لي رب فأنا لا أقدر وهو - سبحانه - يقدر ، وهذا يطرد فكرة الانحار ؛ لأن المتحرر هو إنسان تصبى أسانه عن مواجهة ظروفه يقتل نفسه

وإن فائدة الإيمان أنه ساعة يأتي طرف عليك وتنتهى أسبابك تقول إن الله لن يمددني وهو يرزقني من حيث لا أحسب ، ويفتح لي أبواباً ليست في بالي ، وهرب مثلاً كي يقرب المعنى ، وقبلنا : هب أن إنساناً يسير في الطريق ومعه « حبه واحد »

(١) رواه مالك في الموطأ ورواه أحمد في مسنده ورواه البخاري ومسلم وأبو طود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أم سلمة

في جيه ، ثم ضاع الجيه . وليس في بيته إلا هو ، لذلك يحزن جداً عن ذلك الجيه لكن من يضيع منه « جيه » وعنده في البيت خمسة « حبهات » فالحضبة تكون ضعيفة ، كذلك من فقد أسبابه فعليه أن يهدف الأمر على نفسه فلا ييأس . هل يمكن يقتل نفسه ؟ الله يقول في الحديث الفلسفي :

(يا قاتل عبيد بنفسه حرمت عليه حتى)^(١)

وهل أنت من وهبت الحياة لنفسك ؟ لا ، ولذلك هواهب الحياة هو الذي يأخذها ، ومن يتحجر لا يدخل الجنة ، لأنه لم يتذكر أن له إلهاً . ولندكرها موقف قوم موسى عليه السلام عندما خرجوا ، وصاردهم قوم فرعون . فماذا قال قوم موسى ؟ قالوا .

﴿ إِنَّا نَحْنُ كَاكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

وهذا كلام صحيح فأمامهم البحر ومن ورائهم فرعون ، وهم قد قالوا ذلك بأسبابهم وبشريتهم لكن ماذا قال سيد موسى ؟

﴿ قَالَ كَلَّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

« كلاً » هذه هي ، وكيف يقول موسى « كلاً » وصارصيدها ؟ إنه لم يقل : « كلاً » ببشريته ، ولكن قائما برصيده من الإيمان بالله العظيم فقال

﴿ كَلَّا إِنَّمَا مَعِيَ رَبِّي سَتَهِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

إذن فقوله « ولا تقتلوا أنفسكم » أي ولا يقتل كل واحد منكم نفسه ، لأنك لا تقتل نفسك إلا إذا ضاقت أساك عن مراجعة ما تعابه ، وهذا يدل على أنك

عزلت نفسك عن ربك ، ولو ظننت على الإيمان بأن لك حائفاً لا مرجع عنك
الكروب ، وأي مسألة تأتي تفوق : « إن معي رب سيدين » .

إن الإيمان يعطيك صلابة استعمال الصعاب . وقد تأمل : « ولا تقتلوا أنفسكم »
معنى آخر أي ، ولا تؤذوا أنفسكم لأن تفلوا ، أي لا تلق بنفسك إلى التهلكة ، أو
« ولا تقتلوا أنفسكم » على أن المؤمنين هم وحدة إيمانية ، أو أن المشرع هذه الوحدة
قال : الذي يقتل يقتل ذنباك أن تقتل نفسك ، أي لا تقتل غيرك حتى لا يصير الأمر
إلى أنك تقتل نفسك لأنه سيقتص منك

فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » يعني لا تعملوا ما يؤدي بكم إلى القتل ، وبحسب
الحق الإنسان على نفسه وليس على الناس محب ، فلا يقول لك : لا تقتل حتى
لا تقتل ، لأنه سبق أن قال

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِيهِ الْأَنْبِيَاءُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(سورة الفرق)

وعندما يعرف القاتل به إن قتل يقتل ، فهو يتجنب ذلك ، ويلاحظ أن الحق قال
في آية أخرى

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّتُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ومل أنا سألهم على نفسي أو على الناس ايدخل عليهم ؟ إن الإنسان يسلم على
هؤلاء الناس ، وعندما تقول : « السلام عليكم » ، يعني الأمن لكم . فسيقولون
لك : « وعليكم السلام » مكانك قد سلمت على نفسك . أو أن الحق قد جعل
المؤمنين وحدة واحدة ، ومعنى « وحدة » يعني أن ما يحدث لواحد يكون للكل .

إذن فعول « ولا تقتلوا أنفسكم » أي ولا يقتل واحد منكم نفسه ، فتصلح
« ولا تقتلوا أنفسكم » بمعنى ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن يتعز ، هذه واحدة ،
ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن يلقي بها إلى التهلكة ، أو لا يقتل واحد منكم نفسه
بأن يقتل غيره فيقتل فصاحب ، أو لا تقتلوا أنفسكم يعني . لا يقتل أحد منكم نفس

غيره لأنكم وحدة إيمانية وليس واحداً بعينه هو المأمور بل الكل مأمور ، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره

ويبدل الحق الآية : « إن الله كان بكم رحيماً » وبالله ، ساعة ينهز الحق عن أن تقتل نفسى أو تقتل غيرى ، أليست هذه منتهى رحمة الصديق بصنعتة ؟ إنها منتهى الرحمة

ويقول سبحانه بعد ذلك .

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٢ ﴾

« ذلك » : « دا » وحدها للإشارة ، و « الكاف » للحطاب ، ولخطاب إذا أُمرد ، فإيراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون في طي ذلك الخطاب . ومرة يقول « ولكم » أى أنه مخاطباً بحس ، مثل

﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَا لَكُمْ ﴾

(من الآية ٣٣٢ سورة الفرق)

وذلك إشارة لما تقدم مباشرة في الآية الخاصة بقتل النفس ، وكذلك ما قبلها وهو اكل الأموال والحض بأحدها لكل ما تقدم من أول قوله « ولا تكحوا ما يبيع أبؤكم من النساء إلا ما قد سلف » . وانعص الآخر بأحدها من أول الأوامر والنواهي من أول السورة إلى هنا ، وكلها تصح

« ومن يفعل ذلك عدوياً وطمعاً » والعدو هو التعدى ، واستعدى قد يكون ظلماً وقد يكون نسياناً ومن يستعدى بالظلم يكون عارفاً ويأخذ حق غيره ، أما

التعدي بالسبب فيقتضي أن يراجع الإنسان سلوكه ، لماذا ؟ لأن العاقبة مريرة .

وقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً » والتعلل إذاً أسد لماعله أخذ قوته من فاعله فعندما يقول لك أحد : إن عملت هذه غايي لصغير سيصمغك صمعة ، وهو قول يختلف عن التهديد بأن يصربك شاب قوي ، لماذا ؟ لأن قوة الحدث تأخذها من فاعل الحدث ، من الذي يُصَلِّ النار ؟ إنه الله ، وسحانه سيحمله بصطلي بها .

ويقول الحق : « وكان ذلك على الله يسيراً » لأن فعل الله ليس عن معالجة بل يفقد فوراً . ويعلم أن فعل المعالجة هو كل فعل يحتاج لوقت ، فهناك عمل يحتاج لساعة وكل دقيقة من هذه الساعة تأخذ جرنية من العمل ، وعندما تقسم العمل لستين جزئية ، ينتهي العمل في ساعة ، وإن كان العمل ينهي في عشرة أيام تقول له : أسقط أوقات لراحة وعدم مزاولة العمل ، وقسم العمل على الباقي من الوقت هذا هو ما يسمى علاجاً ؛ لأن ذلك من عمل الإنسان ، لكن عمل الله يختلف ، فالخلق يقول للشيء : « كن فيكون » إذن فكل فعل على الله يسير مادامت المسألة « كن فيكون » قال سبحانه .

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ وَجِدَّةٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة النمل)

وسبحانه يوضح : أنا لا أؤحد كل واحد مثلاً خلقت آدم وأنشأته وأحلته ثم أبعثه ، لا ، بل كل الخلق كنس واحد ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ
عَنْكُمْ سَيُنَازِلُكُمْ وَتُذْخِرُكُمْ مَدْخَلًا

كَرِيمًا ﴿٣١﴾

هذه الآية هي إحدى ثمان آيات قال عنها ابن عباس - رضى الله عنه - : في هذه السورة - سورة النساء - ثمان آيات خير هذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، ولهذا إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه : « يريد الله ليبين لكم » ، « والله يريد أن يتوب عليكم » ، « يريد الله أن يخفف عنكم » ، ثم جاءت « إن تجتنبوا كثائر ما تنهون عنه » و « الاحتساب » ليس معناه عدم مراوغة الحدوث أو الفعل ، ولكن عدم الاقتراب من مغان الحدوث أو الفعل حتى يستل المؤمن على نفسه غائلة شهوة المعصية له وتصوره لها وراثتها .

هذه الآيات الكريمات كانت خير هذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لأنها تحمى من حق الاختيار الذى وجد فى الإنسان حين لا يلتزم بمهج الله ، ولو أن الإنسان كان مسير ومكرها على الفعل لارتاح من هذا الاختيار وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اختار بغيره على سائر خلق الله ، والميزة التى مير الله بها الإنسان هي العقل الذى يختار به بين ابديلات . بينما سائر الأجناس كلها وصيت من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار . ونعرف أن الحق قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٥٦)

(سورة الاحزاب)
فالإنسان قد ظلم نفسه ، لأنه أرحح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله ، بينما المقهورون أو المسحرون ليست عندهم هذه المسألة . وكل كائن منهم يقوم بعمله آتيا وارتاح من حق الاختيار . فهذه الآيات طمأت الإنسان من أنه إن حق اختياره في شيء فله يريد أن يبصره ، والله يريد أن يتوب عليه ، والله يريد أن يخفف عنه . والله يريد أن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها . كل هذه مطمئانات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حق الاختيار ، فيوضح : أما حالئك وأعرف أنك ضعيف لأن عليك مسلكن كمن مسلك يعريك . تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله في الآخرة بخير ، وشهوة النفس العاجلة تعري

ومادامت المسألة قد تخلصت بين اختيار واختيار فالصعب ينشأ ؛ لذلك يوضح

سبحانه . أما أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار ، وأنا الذي وهبت لك هذا
الاختيار

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجاس كلها ، نَجِبُ أن
يأتى لربه راعياً محباً لأن هناك داراً يرى أن يسحر المسحر ولا يستطيع أن يفلت عما
قدر له أن يعمل ، وتلك تؤذيها صفة القدرة لله ، لكن لم تعط الله صفة المحبوبة ؛
لأن المحبوبة أن تكون مختاراً أن تطيع ومختاراً أن تعصى ثم تطيع ، هذه صفة
المحبوبة ، والله يريد من الإنسان أن يشت بطاعته صفة المحبوبة به سبحانه ،
والإنسان لمحب لمولاه برغم أنه محار أن يفعل الطاعة أو لا يفعلها بحار بالإيمان إلى
جانب الطاعة

« إن نحسوا كباثر ما تمون عنه » كأن الله بعد تكليماته في أمور الأعراض والأموال
وتكليماته في ادماء من قتل النفس وغيرها ، أوضح إياكم أن تستقوا الأشياء
استقلاً بجممكم تياسون من مكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور ، فأننا
سأرضي باحتساب الكباثر من مساوى ، فالصلاة في الصلاة كفارة لما بينها ، والجمعة
لجمعة كفارة ، ومن رمضان لرمضان كفارة ، لكن بشرط ألا يكون عدكم إصرار
على الصعائر لما ؟ لأنك إن قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر على استقاء حياتك إلى
أن تسمر ، فلا تقل سأقبل اللب ثم استعمر ، هذه لا نضمها ، وأبصا نكون كالمستهري
برته

« إن نحسوا كباثر ما تمون عنه نكمر عنكم سيئاتكم » - في السيئات يقول .
« نكمر عنكم سيئاتكم » ولما إن « الكمر » هو « السر » أى يسترها - ومعنى يسترها
يعنى لا يعاقب عليها ، فالتكثير إمالة للعقاب ، والإحباط إمالة للثواب . فإن
ارسك إنسان أمراً يستحق عليه عقاباً وقد احتسب الكباثر يكمر عنه الله أى يضع
ويسر عنه العقاب ، أمأ من عمر حسة ولم يقبلها الله ، فهو يحطها ، إذن فالتكثير
- كما قلنا - إمالة للعقاب ، والإحباط : إمالة للثواب كما في قوله
﴿ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

أى ليس هم على تلك الأعمال ثواب ، لأنهم فعلوها وليس في بالهم الذى يعطى الثواب وهو الله . بل كان في بالهم الخلق ، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم :
(فعلت ليقال وقد قيل) .

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، وقالوا عليك إنك محسن كبير ، قالوا : إنك سبت المسجد ، وقرأوا الالفة التى وصعتها على المسجد وسط اجتماع كبير . ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْتَ إِذْ نَايِبُوا مِنْ عَمَلٍ فَعَلِمْتَ لَهُمْ مَقَرًا مَشُورًا ﴾

(سورة الفرقان)

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، ولذلك فالذين عملوا مثل هذه روضوا لافان من رحام عليهم أن يغطوا لهذا الأمر ، وإن كان الواحد منهم حريصاً على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه الالفة ويسترها وتنتهى المسألة ، فإله سبحانه وتعالى يحب من يتصدق أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم :

(ورجل تصدق بصدقة فأسفاها حتى لا تعلم شئاله ما تنفق بيده)^(١)

فأت حين تصدق ماذا تفصح من يتقبل لصدقة والحق يقول : « إن تجتسوا » ، و « الاجتناب » هو إعطاء الشيء جانباً ولذلك يقولون فلان أزور جانبه عى ، أى أنه عندما قبلوا أعطاه جانباً ، والمراد في قوله : « إن تجتسوا » هو التباعد ، والحق ساعه يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتسه ، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ ، لأن الاجتناب معه ألا تكون مع المسمى فيه في مكان واحد فعندما يقول الحق :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

وعندما يقول

﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فاجتنبوه أى . ابتعدوا عنه . لماذا ؟ لأن حى الله محارمه .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إخلال بين والحرام بين وبينها أمور مشتهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استترأ لفرصه ودينه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كزعم يرمى حول الحمى يوشك أن يواقعها ألا وإن لكل ملك حى ألا وإن حى الله تعالى فى أرضه محارمه . » (١)

والحق يقول

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْزَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

واحتمايه يكون ألا توجد معه فى مكان واحد بحايك وبشاعلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً فى منطقة الدين يشربون الخمر يقول لك الحق اجسبها أى لا تذهب إليها ، لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون فقد نشرها ، لكن عندما تجنب الخمر ومحاسنها فأت لا تقع فى براثنها وإصرانها ، ولذلك قتا . إن الاجتناب أبلغ من التحريم ، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون إن الخمر لم يرد فيها تحريم بانص !! نقول لكل واحد منهم حيك أن شرب الخمر قرن بالرجس من الأوثان ، والحق يقول .

﴿وَأَجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النحل)

فاجتناب الطغوت ليس معناه ألا تعد ، بل إياك أن تراه ، إذن فاجتناب الخمر ليس ألا تشربها ، بل إياك أن تكون فى محضرها .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه

« والكبائر : جميع « كبيرة » ، ومادام فيه « كبيرة » يكون هناك مقابل لها وهي « صغيرة » و« أصغر » ، « لأقل من « الكبيرة » ، ليس « صغيرة » فقط ، لأن فيه « صغيرة » ، وفيه « أصغر » من « الصغيرة » وهو « اللحم » .

والحق يقول : « إن تجتسو كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم » و« السيئات » موطئة بالأمر الصغير وبالأصغر ، لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء ، قالوا : معنى ذلك أننا سنعري الناس بعمل السيئات ماداموا قد اجتسو الكبائر فقد يفعلون الصغائر نقول لا ، فالإصرار على لصغيرة كبيرة من الكبائر ، لذلك لا تجز الصغائر لك ، فالحق يكفر ما غدت منك فقط ، ولذلك يقول الحق

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

يفعلون الأمر السيء بدون ترتيب وتفكير سابق وهو مسحاه فان بعد ذلك

﴿ وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ﴾

أَنْفُسٍ

(من الآية ١٨ سورة النساء)

إذن فمعنى أنك تصر عن صغيرة وتكررها إنها بذلك تكون كبيرة ، وإن لم تجتنب الكبائر ووقع فيها فيما يكون ٩ يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لذهب ورحمة عن الخلق لا كبيرة مع الاستمرار ، ولا صغيرة مع الإصرار فإن أخذت هذه فخذ تلك ، خذ الاثنين ، فلا كبيرة مع الاستمرار ، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار

وحينها أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا : الكبيرة هي ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الأخرة ، أو جاء فيها عقوبة كاحد مثلاً فهذه كبيرة ، وانتي لم يأت فيها حد فقد دحيت في عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر .

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها ، وهو اندي قال فيه أحد الخلفاء : كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد ، أي أن كل العلماء

يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وعذبا إلا عمرو بن عبيد ، إذ قد شهد له ، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مذبول الكبيرة ، وأصر ألا يعرف مذبولها بكلام علماء ، بل قال : أريد أن أعرفها من نص القرآن ، الذي يقول في على الكبيرة يأتي بني من القرآن ودخل ابن عبيد البصري على سيدنا أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق ، وعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى أساس بأن يسأل : لأنه عالم من البيت ، ولأنه قد بحث في كنوز القرون وأخرج منها الأسرار وعاش في رحاب الميصر ، فقال ابن عبيد : هذا هو من أسأله ، فلما سلم وحلّس قرأ قول الله سبحانه

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّحَمَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

ثم سكت !! فقال له سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق : ما أسكتك يا ابن عبيد ؟ قال : أحب أن أعرف الكناثر من كتاب الله

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن ، ساعة قال له : أحب أن أعرف الكناثر من كتاب الله ، قال أبو عبد الله نعم ، أي على حبر بها سقطت ، أي حثت من يعرفها ، ثم قال : « انشرك بالله » قال تعالى :

﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَعْبُدُ إِلَّا يُشْرِكُ بِهِ وَيَعْبُدُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَسَاءُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة النساء)

وقال تعالى .

﴿ إِنَّهُ مِنْ شُرِكِ اللَّهِ فَهُوَ حَرَمٌ اللَّهِ عَلَيْهِ الْحَسَةُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة المائدة)

وأضاف : والياس من رحمه الله فإن الحق قال .

﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَقْرُ الْكَفَرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

ومكثنا جاء سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق بالحكم وجاءه تدليبه ، وأضاف :

ومن أمن مكر الله ، لأنه سبحانه قال

﴿ فَلَا يَأْتِيَنَّ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْفَقْرُ الْكَفَرُونَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الاحزاب)

والكبرة الرابعة . عقوب الوالدين ١ لأن الله وصف صاحبها بأنه حار شقي ،
قال تعالى

﴿ رَبِّأُتْلُ مَا تُرِيّ وَلَا تَجْعَلْنِي حَارًّا شَقِيًّا ٢١٥ ﴾

(سورة مريم)

وقتل النفس قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَقَدْ هَرَبَ هَرَبًا حَثِيثًا ٢١٦ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة النساء)

وقذف المحصنات الغافلات لموصاف قال تعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَمَلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ يَكُونُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢١٧ ﴾

(سورة النور)

وأكل الرب قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْرَأُونَ إِلَّا كَمَا يَقْرَأُ الَّذِي يَتَحَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ٢١٨ ﴾

(من الآية ٢٧٥ سورة البقرة)

والقرار يوم الرحف ، أى إن هوجم المسلمون من أعدائهم ورحب المسلمون فر
وحد من الرحف . فقد قال تعالى في شأنه

﴿ وَمَنْ يُرْمِمْ يَوْمَئِذٍ رِيًّا إِلَّا مَنَحَرًّا لِقِتَالٍ أَوْ مَنَحَرًّا إِلَىٰ شَيْءٍ فَقَدْ سَاءَ بِعَصِيبٍ مِّنَ
اللَّهِ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٢١٩ ﴾

(سورة الاحمال)

راكل مال اليتيم قال تعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ٢٢٠ ﴾

(سورة النساء)

والربا . قال تعالى

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثْمًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْتَدُّ فِيهِ ۚ هَٰذَا ۖ ﴾

(جزء من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ سورة العنكبوت)

وكتبت الشهادة . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمُهَا فَرِيَّةً ۖ إِنَّهُ يَكْتُمُهَا ۖ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

واليمين النعوس وهو أن يحلف إنسان على شيء فعله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله ، وهو قد فعله ، أي القسم الذي لا يتعلق بشيء مستقل . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تَحَا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ ﴾

(سورة آل عمران)

والغلول أي أن يحون في الغنمة . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ يَتْرِكْهَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

وشرب الخمر ؛ لأن الله قرنه بالوثبة . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

وترك الصلاة ؛ لأن الله قال

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ ﴾

(سورة المدثر)

ونقص العهد ، وقطعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى

﴿ الَّذِينَ يَفْقُصُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ مَّعْدٍ مِّثْقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ

وَيَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١﴾

(سورة البقرة)

إذن فكل هذه ، هي الكائنات بنص القرآن ، وكل كبيرة معها حكمة ، عرصها له سيدنا بن عبيد لأنه حاطب عدلاً ، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذي جاء به سيدنا ابن سيدنا جعفر الصادق ، عندما سأله ، ثم يجيبه بهذا الترتيب وشجاعة من يقول لابن عبيد . « نعم » أي إن جوبك عندي ، ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير ، وهذا دليل على أنها مسألة قد احتضرت في ذهنه ، وخصوصاً أنها ليست آيات رتيبة سلسلة متتابعة ! بل هي آيات يختارها من هـ ومن هـاك ، مما يدل على أنه يُعائش أسرار القرآن

لقد نشأ هذا الرجل في بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذي وضع للمؤمن مهجاً بحيث لا يصيبه شيء في نفسه إلا وجد له علاجاً ودواء في كتاب الله ، إنه وحده أن الروايات التي تنعكس على الإنسان أنه يخاف من شيء ، والذي يخاف من شيء يكون هذا الشيء - غالباً - محدوداً معروفاً

أنا أخاف من الشيء الغلابي ، ولكن واحداً يصيبه غم وهم لا يدري منه ، فيقول لك أنا مغتم دون أن أعرف السبب إذن فقيه بخاص لا يعرف منه ، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون به ويأغترون به ، وهناك ثالث يحب الدب ويريد أن تكون الدب عنده ، كل هذه هي مشاغل النفس البشرية أن تخاف من شيء ، أن نعم من شيء ، أن تشفق من مكرتك وكيدك ، أن تتصلب أمر من أمور الدنيا ، وسيدنا جعفر هو الذي قال عجب لمن يخاف ولم يفرغ إلى قول الله سبحانه .

﴿ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَعَهُ الْوَكِيلُ ﴾

(من الآية ١٧٣ سورة آل عمران)

انظر لاساط الدليل ، الذي يقوله سيدنا جعفر فإذا سمعت الله يعفها يقول

﴿ فَأَتَقَلَّبُوا مِن بَيْنِهِمْ فَوَقَعَ عَلَيْهِمُ غَلَابٌ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة آل عمران)

انظر دقة الأداء ، يقول سمعت الله ، ولم يقل قرأت ، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآنًا لا بد أن يتأكد أن الله هو الذى يتكلم وحلال القديم يعطى على جدية الحادث ، فالذى يقرأ أمامك حادث ، لكنه يقرأ كلام الله ، إذن فجلال القديم يعطى على جدية الحادث . ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يهرع إلى قول الله سبحانه :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧)

(من الآية ٨٧ سورة الأبياء)

ثم يقول فإن سمعت الله بعفوها يقول

﴿ فَاسْتَجِبْ لَهُ وَنَجِّنْهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨)

(سورة الأبياء)

ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لم مكره ولم يهرع إلى قول الله سبحانه .

﴿ وَأَفِصْصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة طه)

فإن سمعت الله بعفوها يقول

﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ سَيَبْرِئْكَ مِمَّا مَكَرُوا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة طه)

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يهرع إلى قول الله سبحانه .

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإن سمعت الله بعفوها يقول

﴿ يَا زَيْدُ ابْنَا أَقْبَلَ مِنْكَ مَا لَكَ وَلَدَا ۖ ﴿٣٩﴾ فَمَعَى رَبِّي أَنْ يُؤْزِنَ خَيْرًا مِنْ حَبْثِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

هذه هي الاستباطات الإيمانية ، والاستباطات ها كالاستباطات هناك ، وإذا ما نظرت إلى الاستباطات التي قالها سيدنا جعفر رحمه الله تغطي زوايا النص الاجترائية ، لأن التكليف حينها يأتي بمحذ حركة الإنسان عن الشهوات ، فالآيات

جاءت لتُحدِّث من الاجتراء ، ونجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء عن الوحدانية في الألوهية إلى قطيعة الرحم ، وقد عطفت الآيات كل جوانب الاجتراءات في النفس البشرية ، أول اجتراء . هو الشرك . . لأنه قال (إن الشرك لظلم عظيم) والظلم الذي معرفه . أنت تحكم بشيء للغير وليس من حقه ، فبأنه عندما تحكم أن ربنا له شريك ، أليس هذا أعظم الظلم ، وهو ظلم لنفسك ، فإياك أن تظن أنك تظلم الله ؛ لأن ربنا أضفى الشركاء على الشرك ؛ ولذلك يقول في الحديث القدسي .

(أنا أضفى الشركاء على الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي هبى تركته وشركه)^(١)

إن هذا ظلم لنفسك ؛ لأنت حين تعتقد أن الله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأعباء . واقرأ قول الله

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَبًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فبعد عنوك لعشرة أسياد ، وبأليت العشرة الأمياد منعفون ؛ بل هذا يقول له اذهب ، وهذا يقول له تعال ، إذن فقد أتعب نفسه وأرعبها . إذن فقد ظلمها . قال تعالى :

﴿ وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يونس)

إن الإيمان بإله واحد يجهلك غير حاصع إلا لوجهة واحدة ، ولا أوامر من جهة أخرى أبداً ، إذن فقد أرحت نفسك ، وهذه قصية يشتهها الواقع ؛ لأن الله قد أنزل في قرآنه المحفوظ المتلو المقرء :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

فالإنسان يقول . هذه كلمة صدق ، والكافر يقول - والعباذ بالله - . هذه الكلمة غير صدق ، والمسألة على أي تقدير متتهية ، واحد جاء وأخذ الكون وقال لا يوجد

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة

إله إلا أن ، والذي أخذ منه الكون إله ولكن أخيم أن الكون أخذ منه أم م يعلم بذلك ؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة في هذا الإله ، وإن كان قد درى فما الذي أسكنه ؟ فلسالة - إذن - محلوبة ، هذه مسألة الشرك .

إن الإيمان بوحداية إله جاءت لترفع النعم البشرية من كثرة تلمنتها إلى آله متعددين ، إنه هو الحق ، وهو الذي يتمتع ويضر ، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لذلك واحد ، أما عندما نعبدون آلهة متعددين تكونون كممثل العبد الذي له شركاء وبإلتهم متفنون ، بن هم مختلفون .

بعد ذلك يأتي في المرحلة الثانية وهي اليأس من روح الله ، والروح ، من الرائحة ، وهي النسيم ، فساعة تكون في ضيق وأخو حار تلتفت لتجد واحة فتأوي إلى ظلها وهوائها وتنجأ إلى حضنها ، هذه الراحة يعطيها الله لمن لا يئس من روح الله فتعطيه صلاية إيمانية لاستقبال أحداث الحياة ، لأن الحياة أعيار ، وأحداثها متعددة ، وللعالم وليكون الظاهر سنن في الأسباب والمسببات

فب أن أسبابك ضاقت بشيء ولم يعد عندك أسباب له أبداً ، فالذي لا يؤمن بالله قوى يحرق الأسباب ، ماذا جعل ؟ ينحر كمي فلما .

إذن فالبيأس من روح الله هو من جعل قوة الله العليا التي خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها الشرية في شيء يش منها ، أما المؤمن فنقول له : أنت لا تيأس ، لأنك مؤمن بالله قادر فوق النواميس ، فالذي يئس من روح الله كأنه يعطل علاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية ، إن الله ، هو خالق هذه النواميس . فعندما يئس إنسان من روح الله ، يكون قد سوى الله - بعلاقة قدرته - بالناواميس ، إن الذي تأباه النواميس سبحانه قادر أن ييسره .

وبعد ذلك جاء بـ « عتوق لوالدين » وهما الحلية الأولى التي يواجهها الإنسان ، وهما السبب المباشر في إيجادك ، لأنك حين تعمق ونعمص من كان سبباً مباشراً لوجودك تكون قد عتقت وعصيت من كان سبباً أولياً لوجودك ، وهو الله الذي لم تره ، إذن

فاحترامها والبرّ بها ليس - فقط - لأنها مسبب في وجودك وإنما - أيضاً - لأنها ريبك صغيراً فعليك بالبرّ بها ، وهذا عثك ويدفعك إلى أن تحفظ الجمل لمن كان مسبباً في إيمانك ، وتربيتك ، وعندما ترفيها وتساءل : من أوجد أباك ؟ جدك . ومن أوجد جدك ؟ نصل إلى أين ؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له ، وهو أن الله قد خلق آدم

ثم قال : قتل النسر ، والدنل هو نفخ بية الكائن ، وهو يختلف عن الموت ، فالموت أن يموت الإنسان ويبتس سليمة ، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها ، هذا هو نفخ البية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأي شيء ، ولتقرأ القرآن بإمعان ، إن الحق يقول .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَأْتِ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْتَلَبْتُمْ عَلَيَّ أَغْنِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو سلب الحياة بدون نفخ بية ، وهذا لا يجره إلا الله ، إنما القتل يهدم البية ، فأى إنسان يستطيع أن يعمله ، فتخرج الروح بإذن الله ، وليس معنى ذلك أن أحدٌ يحل بأجل القتل ، لا ، ولكنه تدخل في بيان أقامه الله فهدمه ، ولو لم يتدخل أحد في بيان الله لهدمه لكان أجله قد جاء . إذن فالقاتل يعاقب لأنه تدخل في هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحل إلا في بيان له مواصفات خاصة تقتضى أن يكون اصغ سليماً ، وكذلك القلب ، وبقية أجزاء الجسم لكن حين يحىء الأجل يموت الإنسان ولو م ينقص أحد البنية

وصرنا مثلاً لنفرب هذا الأمر - والله المثل الأعلى :

إن هذه الروح تشبهها بالكهرباء ، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمها ولم تذوقها ، إذن فأى وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها . لكك تعرف أنها تدبر حياة جسمك كله ، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير دمة وقد جعلها الله كدليل فاق في النفس البشرية عن وجود إله لا تدركه الأبصار وهو

يسرك الأبصار ، تقول : لا يرى الله . نقول لك : نعم ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَاقَةٌ تُنْصِرُونَ ٢١ ﴾

(سورة النوريات)

إن الحق لا يبدل بك بأن تبصر ما في الكون فقط من آيات ، بل إن الأدلة لاتنعداك أنت أولاً ، فروحك التي تدبر جسمك أين هي ؟ ما شكلها ؟ ما لونها ؟ ما رائحتها ؟ أنعرف ؟ لا ، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها ، فكيف نطلب أن ترى إلهاً وقد خلق شيئاً لم تقو على أن تراه ؟ المحبوق لا تقدر أن تراه ، وبعد ذلك تريد أن ترى حاله . إذن فمن عظمت أنه لا يُدرك ، ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لحظة تنزل الروح في الجسم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٢٢ ﴾

(سورة ص)

لأنه سيكون إنساناً سوياً ، فإن شبهنا تلك الروح بالكهرباء - والله المثل الأعلى - هل تعرف ماهي هل رأيها ؟ . لم تراها ، هل أحد عرفها ؟ الدين اكتشفها ، أعرفوا ماهي ؟ لم يعرفوا ، إنما نعرفها بآثارها ، ساعة نرى المصباح منيراً نقول : جاءت الكهرباء ، وساعة تدور العروحة نقول : الكهرباء جاءت . إذن فأنت تعرفها بآثارها ، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لاتجد له حركة . وعندما تمف الحركة وتحممت يقولون : حذ الحركة من شيء إن وقف يكون الموت ، وليس من اليد ، لأن اليد قد لاتتحرك لإصابتها بالشلل ، بينما الإنسان مزال حياً ، وبذلك مات المرأة وضاعها أمم مخرج النفس ، فإن وجدت بخاراً على المرأة فهذا يعنى أن هذا الإنسان مزال حياً ، وبه روح ، وكذلك عندما يكمر المصباح الكهربائي بالكهرباء لاتعمل عملها ؛ لأن الكهرباء لاتظهر إلا في قالب من هذا النوع ، زحاجة مفرغة الهواء مصوغة بشكل خاص إن انكسرت أو تلفت يذهب النور .

إذن فعندما سيم الجسم لاجد الروح الوعاء الذي تظهر فيه ، فكذلك المصباح الكهربائي إن انكسر تكون الكهرباء موجودة في الأسلاك إنما لا يوجد نور ، وعندما تأتي بمصباح جديد يأتى النور ، كذلك الروح لاتظهر إلا في الجسد الذي له مواصفات خاصة ، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل ، لأن القاتل حين يقتل خصمه بهذه شهادة

منه أنه أعجز من خصمه ، صحيح أنه قد قدر عليه وصر به وأما أنه وهذا مظهر قدرة بشرية حمقاء لكن في الواقع أن هذا عجز

إن معنى القتل ونقص الحياة أن القاتل يعلم أمام الملائكة أنه لا يستطيع أن يواجه حركة حياة خصمه ، ولا يرتاح إلا إذا مات هذا الإنسان ، إذن فقد شهد القاتل حين يقتل بعجزه . فلو علم القاتل أن قتله لنفس أخرى ليس دليل قدرة وقوة له ولكنه شهادة عجز ، وأنه لا يمكن أن يواجه حياة هذا الحي إلا بأن يميت لما قتله ، والحق يحسم النفس البشرية من القتل حتى لا يكون أي أساس مهلدا ، وحتى لا تتعطل الخلافة التي أرادها الله في الكون

ثم تأتي كبيرة أخرى وهي قذف المحصنات الخرائر ، ويعرف أن ركناً من أركان المجتمع السليم أن تظل الخرائر مصوبات كي لا يعاين الشرء والسل الذي ينسل منهم من ظن الريبة والعار ، وحين لا تظن النفس البشرية بريئة فهي تواجه الحياة بمتهم طلائنها ويمتشي قدرها ، لذلك عالدي يجب أن تشيع الفاحشة ويقذف المحصنات والخرائر بغير ما اكتسبن فهو يحدث زلولة في المجتمع ، زلولة في سب أفراد المجتمع ، ويضاربها من ليس له ديب ، يضاربها الأرباد الصغار ، وما ذنبهم وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَرِدُّوا رِءُوسَهُنَّ وَأَنْتُمْ كَارِهِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وبعد ذلك قال : أكل الربا ، لأن الربا يصنع خللاً اقتصادياً فهو يحمل غير الواجد أن يزيد ثروة الواجد .

والزنا كبيرة من الكبائر والحق يقول

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

(سورة البقرة)

فالزنا يحمل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط ، وإبعاده الأولى التي أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هي أن تكون المرأة سكناً وليست أداة استمتاع

فقط ، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه في النفس البشرية ؛ لأن آثار هذا الاستمتاع نعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طعولهم ويحتاجون لرعاية ، ولو لم يرتبط بها هذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد في الأولاد

وكذلك العرار يوم الزحف كبيرة من الكبار ، لأن العرار يصنع حنلاً في المجتمع الإيمانى ؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الاسلام أعاروا علينا ، وماداموا قد أعاروا علينا فكل مسلم يعف على ثعرة من ثغور الاسلام ، حتى لا يمكن أعداء الاسلام من ديلر الاسلام ، وتنقل كلمة الله هي العليا ، ففرار المسلم يعطى أسوة على ضعف الإيمان في النفس ، ولذلك لا تعتزوا بأن هذا صار مؤمناً وذاك صار مؤمناً ، فلر كان مؤمناً حقاً ووثق بالخاية فهو لا يهاب القتال ؛ لأنه إن قتل صار شهيداً ومبشراً من الله بكذا وكذا ، لذلك فالعرار في يوم الزحف يعطى أسوة سيئة ليس في الحرب فقط ، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية في النفس البشرية ، والحق سبحانه وتعالى أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب في أحد أمرين كلاهما حسن النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَوُونَ سَاءَ مَا يَحْدِثُ الْحُسَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

والمؤمن يترهب بالكافر ليحقق ما قاله الله :

﴿ وَتَحَنُّنٌ تَرْتَوِيكُمْ أَنْ يَصْحَبَكُمْ اللَّهُ يَعَذِّبُ مَنْ عَدِيَهُ أَوْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يشتت يقين إيمانه بأن يعقد الحياة التي هي سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يحب للمؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بسبيل قوله الحق .

﴿ وَمَنْ يُؤَيَّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّقًا إِنْ قِتْلَةٍ فَذَءَابَ يَعَصَبُ ﴾

﴿ مَنْ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالإنسان لا يدخل في معركة وهو غير مستعد لها ، أو ليس لديه مظنة النصر ، إنه إن فعل ذلك فإنما ينتهز المسلمين واحداً ، فإذا أفادنا ؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بشئ يخصه وهو الجنة ، وبشئ يُبقى للجبهة الأمان أو النصر .

وبعد ذلك قال : واليمين الممرس . واليمين الغموس مثل قضية من قضايا خلل المجتمع ، لأن اليمين الغموس هي السبب الذي يعمس صاحبه في النار ؛ لأنه حلف على شيء أنه كان وهو لم يكن ، أو على شيء لم يكن وهو قد كان ، وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق ، ولا يعرف القاصي التمييز حين يفصل في الحقوق ، هناك إسلان بكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدي ذلك إلى ضرر بالغير ، فمن يريد أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة يخلصان له ، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه

ونأتي كبيرة أخرى وهي العنول . وتعني أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهي ما سميها « السلب » . وهي أسلحة الأعداء وما عندهم من أشياء . . فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويحصد غنيمة ويأخذها ، أليكون قد خسر عملية الحرب في سبيل الله أم لا ؟ إنه يقض عملية الحرب في سبيل الله ، إن الحرب في سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هي العليا ، وبذلك يقول الحق : ﴿ وَمَنْ يَظُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

لقد قلنا : إن كان قد غل بقره . . فبجملته يوم القيامة ، وسيكون لها حوار .

وإن غل في أسمت سيأتي حامله يوم القيامة ، ومن غل في حديد أو استورد لحوماً فاسدة أو سمكا نتا فإنه سيأتي وهو يحمل يوم القيامة

ثم نأتي كبيرة وهي شهادة الزور . شهادة الزور أبغض ركن من أركان فساد المجتمعات كلها ، لأنها لا تجعل المؤمن مطمئناً عن حقه .

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يعزج كيانه ، لأنه ينتهي إلى قوة خفية ، إذ

ليس أمام الذي يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه ، حتى يوتب لنفسه الحماية منه . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾

(من الآية ٦٠٢ سورة البقرة)

أى ليس له نصيب فى الآخرة ، وربما يقول قائل : إذا كانت هذه مفسدة السحر فى هدم كيان المجتمع وتفريجه ، فبماذا وحد ؟ نقول له : إن الكائنات مخلوقة لله ، وكل كائن له قانون ، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر ، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد . وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد فى ذلك الجنس تكافؤ الفرص ، بمعنى أن لك فرصة هى لعبك . أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لعبك ، فهذا يمثل خللاً فى تكافؤ الفرص فى الجنس الواحد .

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذى يحمى المجتمع ، بأن تكون فرصك أنت وفرصى أنا متساوية ، فيكون صاحب الحركة فى مادة الكون هو الذى يغلب ، وبذلك لا أحد أنا فرصة غير موجودة عندك فتكافؤ الفرص هو الذى يرحم البشرية

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل فى الشيوعية فى روسيا قد سقطت وبقيت قوة فى الغرب تتمثل فى أمريكا ، هناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان ، اليابان ، ألمانيا الموحدة ، وأوروبا التى تبحث عن الوحدة ، وكل ذلك من أجل أن تتوازن القوى فى الفرص المادية الموحدة . وهذا هو ما يحمى الكون من الدمار ، لأن أى واحد يفكر فى أى شر جارف يخاف من رد الفعل ، ويخاف أن يردوا عليه بشر أشد ، ولو تفكروا أن وحدة أقوى من الأخرى لحاء الخراب ، إذن فحماية الجنس البشرى إنما تبدأ من تكافؤ الفرص بين أفرادها ، ولكن لإنسان جنس ، والجنس حسى آخر ، والانس والجنس مكنعان من الله ، فعصر الاختيار موجود فيهما ، ولذلك حكى القرآن

﴿ قُلْ أَوْسَى إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرَيْنِ الْإِنَّمَنِ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدَى إِلَى

الرُّشْدِ فَآمَنَ بِهِهُ وَكَلَّ شَرِيكَ بَرِيئًا أَحَدًا ② ﴾ (سورة الحجر)

وعندما نسحوا قال القرآن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصُّلَحُونَ وَمِنَّا ذُو دَلِيلٍ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قَدَدًا ۝١٦﴾

(سورة النحل)

إذن هم مثلنا .. لكنهم هم قانون ولنا قانون :

﴿ أَتُؤَيِّرُتَكَ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رَوْحَهُمْ ۝١٧﴾

(سورة النحل ١٧)

إذن فقانون النحل أنه يرى الإنسان ، والإنسان لا يرى ، وقانونه أنصف من قانون الإنسان ؛ لأن كل جنس يستند قانونه من جراثيمته الأولى ، فنحن البشر مخلوقون من طين . أي أن لنا مادة محبة وكثيفة ، ونحن مخلوق من النار ، والمخلوق من مادة الطين مثلاً ، النبات والحبيوب ، ثقافة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أحدث عناصر عدائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها . هب أنها خلف حدار وانت جالس . أيتعدى طعمها لك ؟ أيتعدى رائحتها لك ؟ أيتعدى لونها لك ؟ لا ، إذن فالحرمة المحيطة لا تجعلك تستغنى به

لكن هب أن ناراً موضوعة وراء الحدار ، وبعد مضي مدة مستشعر بالحرارة ، أي أن الحرارة قد بعدت . والحر له شعاعيه وله خصه في قانونه وفي انتقاله ولا توجد مثل هذه الشعاعيه والخصه للإنسان ، ولذلك لا حظوا أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن يبين لنا هذا ، صرّب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى سينا السلام الذي سحر الله له الجن

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرُوبٍ وَيَتَّبِعُ الْجِنَّ أَجْرَآءَ وَفِي رُءُوسِهِمْ

(سورة النحل ١٨)

وحيما اجتمع في جنوده ومن حوله من الناس قال :

﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْمُدْهَدَامَ كَانَ مِنَ الْعَاطِيِينَ ۝١٩﴾

(سورة النحل ١٩)

وبعد ذلك جاءه المدهد وقال له :

﴿ أَطِطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَلَمٍ سَلَامٍ ۝٢٠﴾

وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ نَحْوٍ وَهَذَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

(جزء من الآية ٢٢ والآية ٢٣ سورة النمل)

وهذا كله ليس بهمهم ، إنما المهم هو قول الهمد :

﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا بِسُجُودٍ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

وهذا ما هم سيدنا سليمان كرسوه فسيدهن سليمان يتميز بأنه رسول وملك ، فجاء بالملكية أولاً ، إلى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم « هذه مقومات الملك ، أما المسألة التي تهم سيدنا سليمان » « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ، والسجود للشمس من دون الله صديق الهمد وهو الطائر ، كان الهمد عارف لعصية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه عصب ، ثم يقول :

﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فهو يعرف من الذي يستحق السجود ، ولاحظ أنه جاء به الخبء ، لأن طعامه دائماً من تحت الأرض ، ينقر ويخرج رزقه

واستمرت القصة حتى قال سليمان لن يهيم معه :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِنِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان عن عدم يأل بلقيس - ملكة سبا - في الطريق إليه ، ومعنى أن يقول : « أيكم يأتي بعروشي قبل أن يأتوني مسلمين » . معناه أن الذي يتصدي لهذا الأمر عليه أن يذهب من حد بيت المقدس إلى اليمن ويحل ويحل العرش ويأت به قبل أن تأل بلقيس .

بالله هل من قانون بشري يأتي به ؟ وكيف ذلك ؟ . ولذلك لا يتكلم إنسي عادي ، فالإنس العادي يعرف أن قانونه البشري لا يقدر على تلك المهمة ، لأن سليمان قال :

« قبل أن يأتوني » ، وما دام قال ذلك فقد علم أنهم في الطريق . فهل يذهب إنسان عادي ويحمل العرش ويحمله ويأتي به قبل أن يأتوا ؟ لا ، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق :

﴿ وَلَا تَقْبُ مَالِيَسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

وهنا يتصنى أحد لادكياء من الجن قائلاً :

﴿ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ ؕ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِّنْ مَّقَامِكَ ؕ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾

(سورة النمل)

ومن يقول ذلك يس بعن عادى ، فالجن أيضاً فيهم عفرية أذكيا وميهم من هو عاجز قليل الدكاء ، مثل الإنسان ، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، فكيف يكت من الرقت ؟ لا يعرف ، ترى هل يجلس سليمان مع انقوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا يعرف ، إذن فتأخذ هذه العملية من مقامه ، لكن ها هو ذلك الإنسى الذى أعطاه الله فتحة من الكتاب وعلمها يقول :

﴿ قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ ؕ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

الإنسى العادى لم يتكلم ، والعفريت من الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أما الإنسى الذى أعطاه الله الفتحة من الكتاب فقد قال : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » وبذلك نظر إلى أداء العاجل في القرآن أداء الحركة :

﴿ فَلَبَّأْ رَوَّاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

فالمسألة حدثت على الفور .

والهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » ، وميها نعرف أن له قانوناً في الحركة والسرعة ، والإنسان الذى وهب الله علماً بالكتاب له قسرة وحركة . إذن فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له .

سورة التوبة

٢١٧٢

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحى المفكرين قائلين ما الجن والملائكة والعالم الخفى الذى تحدثون به ؟ نقول : ألا تؤمن إلا بالمحس بالنسبة لك ؟ فيما رايتك فى اميكروبات التى ظهرت الآن بعدما اخترع المجهر ؟ لقد كانت موجودة ، أكنت نعرفها ؟ لقد كنت غيباً عنك ، فلماذا لا تأخذ من أن شيئاً لم يكن موجوداً تحت حسنت وغير مدرك بإدراكك ، كان موجوداً وكنت لا تملك آلة إدراكه ، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجود أحناس عبر مدركة ، وعندما تحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة نتساءل عنها ؟ فما المشكلة فى هذا ؟ .

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف .

(وزن الشيطان يحرق من ابن آدم مجرى الدم) (١)

قد تتساءل وهل للشيطان يحرق مجرى الدم ، أم هو سائل أم ماذا ؟

نقول : هو حلق لطيف حتى له قانونه الخاص ، فربنا فضح المكر المسند ووضح التشكيك فى العبيات التى يذكرها الله ، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هى الميكروبات ، وهى من الجنس المادى من لطيف ، لكن صلبة جداً ، وماذا يفعل الميكروب ؟ إنه ينهد فى الجسم ولا تدرى أنت به وهو داخل فى جسمك ، وبعد ذلك ماذا يفعل فى حرارتك ؟ وماذا يفعل فى جسمك ؟ - فعندما يقول لك الرسول لمبلغ عن الله : إن الشيطان سيجرى من مجرى الدم فما التناقص فى هذا ؟ إذا كان هناك شيء من مادتك صلب ولا تعرف كيف دخل ، ولا تشعر به وهو داخل ، ثم يقلب ميرانث فى الحرارة ويخلص العبت بكل جسمك ، فتتهيج الكرات البيضاء لتماومه وتخرج الصديد . أى تناقص إذن ؟

إن ربنا ترك من عبيات كونه المادى ما يثبت صدقه فى التحديث بعبيات أخرى .
د قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، ، لقد جاء

الحق بواحد من الإيس حتى لا يظن الجس أنه أخذ حجة قانونه وشعافيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أعدها بإرادة المكون - سبحانه - إذن فالحسالة ليست حصرية بل هي إرادة الله إنه - جلّت قدرته - أوضح : أنا أستطيع أن أجعل من الجس القوى بقانونه وهو الجس محكوماً لواحد من الإيس ، ويجعله يعمل ما يريد . ولم يخلقها الله كصفة محسوسة لكل الشر حتى لا تحدث فتنة عند من يعمرها . لأنها تمنعها فرصة ليست موجودة عند غيره . وقد يظن بها وهذا هو السحر . وأوضحنا ذلك عند قوله سبحانه

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَسُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرُ سَلِيمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعْبِدُونَ السَّمَّ السَّحَرَاءَ مَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِن سَبِيلٍ هَنُوتَ وَمَنُوتَ وَمَا يُعِيمَانِ مِنْ أَهْلِ حَقٍّ يَقُولُونَ لَا تَمْنَحُنْ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرُ ۚ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فتنة ، لماذا ؟ . لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لعيرك ، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لعيرك فانت لا تضمن نفسك أن تستعملها في الصار فقد تستعملها في ذلك ، فستذهب بث إلى النار . والحق يقول :

﴿ فَيَتْلُونَ مِنْهَا مَا يَتْلُونَ بِهَا بَيْنَ أَمْرٍ وَزَوْجَةٍ ۚ وَمَا هُمْ بِبَارِقِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَذَنُ اللَّهُ ۚ وَيَتْلُونَ مَا يُصْرَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى من خلاله قدرته يعطي للجس الضعيف وهو الإنسان شيئاً يستطيع به أن يسحر الأقوى وهو الجن ، ولجن يعرف هذه الحكمة . ولذلك فكل الذين يمثل لهم الجن لا يأتون ويدوم بل يأتي حجة خاطئة ؛ لأنه لا يستطيع أن يستمر على صوره التي يتحلل فيها ، فلو تمثل بإنسان أو حيوان مثلاً لحكمته الصورة ، وإن حكمته الصورة ، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة من مسدسه ، لقتله !

ولذلك فالجن يأتي لحجة مثل ومضة الرق ويحتفى ، إنها طلاقة قدرة الحق التي

يمكن أن تعطى للجسد الأقل - الإنسان - قوة القدرة على أن يسحر الجنس الأقوى - الجن - ، لكن هذه ليست في مصلحة الإنسان ، ولذلك فالمؤمن من الجن يقول : أن أكتفى في جسي طناني ، فرجا يجعلني عدم تكافؤ الفرص طاعيا ، لأن من يملك هذه القدرة يطفون في الناس ، والذي يقوم بعمل تكره به المرأة زوجها ويكره به الزوج امراته هو نفسه من يحل مثل هذا العمل ، ومن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية

ولذلك لا أحد يتغيب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق : « وما هم بصارين به من أحد إلا بإذن الله » والسحر وارد بعض القرآن ، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعية في السحرة ولا ذاتية فيهم ، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلم يرفع السحر ، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس ، والذي يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليهلكوا له السحر ، ويذهب لهم يسحروا له الخصوم ، وينفتن فيهم بعيش طوال عمره مرهقا مصداقا لقوله الحق :

﴿ وَأَمَّا كَلَّالٌ كَانَ مِنَ الْأَنْفِيسِ يَعْزُفُونَ يَرِجَالُ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٤﴾

(سورة الجن)

صحيح أنهم يقدرون أن يسحروا ، لكن ذلك اسحر يريد التسبب فيه رهقا وتعبا .

وعلى المؤمن أن يحمي نفسه بهذا الدعاء ، « انلهم قد أقدرت بعض مخلقتك على السحر ، واحتفظت لذاتك بإذن الصبر ، فأعوذ بما أقدرت عليه بما احتفظت به » .

عندئذ لن يخافهم ولن يجدوا سبيلا لهم إليه ، فهم يتغلون الضعيف فقط ، والسحر يوجد عدم تكافؤ فرص ، وينفتن الناس في الناس ، ويؤدي إلى إخلال توازن المجتمع .

وبعد ذلك نحى كيرة مع الزكاة ، وأحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نزكى ، إنما يبعثنا إلى أننا لم نأت بشيء من عندنا ، فالعقل الذي يخطط للعمل مخلوق لك ، والجوارح التي تعمل مخلوقة لك ، والأرض التي تعمل فيها أو لصناعة التي

نصنعها مخلوقة لله . إذن فكل حاجة لله ، لكنه أوضح لك . سأحترم عملك ، وعليك أن تعطي أحاك العفير بعضاً مما رزقتك به

ويقول قائل : مادام هو رب الكون ، فلماذا يترك واحداً فقيراً ؟ نفوس . لكي يُثبت الأغيار في الكون ، ويعرف العي أن الفقر قد يلحقه ، ويعرف القوى أن الصعف قد يلحقه ، إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون ، فيحس الخالق قلب الواحد على انعدم لمعطيه ، فيوم تمنع الركاة يظهر أثر ذلك في الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب دقيق . ولذلك فإذا رأيت واحداً جوعان يحزن فاعرف أن واحداً صبيح زكاته فلم يؤدها ، وإن رأيت عورة في المجتمع فاعرف أن فيه حداً مضيقاً لله ، لأن رب جعل المجتمع متساوياً والنقص ما يكمله من هناك ، فإن رأيت نقصاً عاماً فاعرف أن فيه حقاً لله مضيقاً

ويعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة ، ونعرب أن الصلاة هي إعلان دوام الولاء للإله الواحد ، فقلت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، وتركيت إن كنت واحداً وفادراً مرة واحدة في السنة ، ونحج مرة واحدة في العمر ، ونصوم شهراً واحداً في السنة ، وإن كنت مريضاً لاتصوم وقد بسفط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لا يرجي شفاؤه أو أصبح لشخص لا يقوى على الصوم لكبر سنه ، وإذا كنت فقيراً لاتركي ، فقد سقطت الركاة عنك أيضاً ، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج وسفط عنك الحج .

هلم في ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها . وبقي ركان الثمان من أركان الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، وشهادة أن لا إله إلا الله بكفي أن تفعلها في العمر مرة ، فهاذ بقي من أركان الإسلام ؟ بنيت الصلاة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة عمود الدين » (١) .

(١) برواه أبويعهم الفضل بن عكرين في الصلاة من عمر وهو حديث حسن ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان بسلف (الصلاة عمود الدين) من عمر ولكنه ضعيف .

إن فترك الصلاة معناه : أنه تمرد عن إعلان العبودية والولاء للحق . وقد طلبها الله في اليوم خمس مرات ، وحتم الجماعة فيها في يوم الجمعة في الأسبوع . لماذا ؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيداً . فلا يعبد واحد ربنا سراً وبعد ذلك لا يرى أحد منا أحداً فكلنا نسجد لله ولا بد من إعلان الولاء لله ، في يوم فترك الصلاة بعدم إعلان الولاء له . سبحانه .

ومن المجيب أن الصلاة مرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات في اليوم ، هذا بالأمر والتكليف ، وإن لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له في أى وقت تجده في استقبالك في أى مكان تقف وتقول : الله أكبر تكون في حضرة ربنا ، وقبلنا سابقاً : إن من له السيدة في الدنيا حين تطلب لقاؤه تقدم طلباً حتى تلقاه . ويحدد لك الموعد ، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله : متكلم في ماذا . وقد يقف المسئول أو السيد في الدنيا وينهى المحادثة لكن ربنا ليس كذلك . أنت تذهب له في أى وقت وفي أى زمان وتظيل كما تحب ولن ينهى المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت . ولذلك يقولون :

حسب نفسى عراً بأن عبيد

يخفى به بلامواعيد رب

هو في نفسه الأعز وكس

أما النفس متى وأين أحب

صحيح هو يأمر أن ألقاه خمس مرات في اليوم ، لكن الباب مفتوح للقاء في أى وقت ، وأرضعنا سابقاً . والله المثل الأعلى . ما أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم . أ يوجد فيها عطب ؟ لا . وأنت تعرض عن خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات . والصنعة العادية يصلحها صانعها يسلك أو يمسار أو يوصله بضعها ، أما أنت المخلوق لله وربك غيب وهو يصلح جهازك بما يراه مناسباً

وبعد ذلك بقى من الكيثر نقض العهد وطيعه الرحم ، ونقض العهد لا يجعس إنساناً يتق في وعد إنسان آخر . هيتشر التشكك في نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض ، والوعد قد يحل مشاكل للناس / العسرين ، فعندما يقول قادر لعير قادر : أعطك بكذا . ويعطيه ما وعده به ، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلى

يصدق بعد ذلك . وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق ، يصح صادقاً ، وكل ما عند الناس يصح عنده ، ولذلك يقولون : من يأخذ ويعطي يكون المال ماله .

وبعد ذلك تأتي كبيرة فطيمة الرحم : لأن الحق سبحانه وتعالى اشتق للرحم اسماً من اسمه فهو لقائل في الحديث القدسي .

(أما الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)^(١)

وبعلم جميعاً حكمة سيدنا معاوية عندما دخل عليه لحاجب وقال له : يا أمير المؤمنين هناك واحد باللب يقول : إنه أخوك ، فيقول معاوية للحاجب : أي إخوان هو ؟ ألا تعرف إخواني ؟ فقال للحاجب : إنه يقول : إنه أخوك . فلما دخل الرجل ، سأله معاوية : أأنت أخي ؟ قال : نعم فقال معاوية : وأي إخوان أنت ؟ فقال : أنا أخوك من آدم ! فقال معاوية : رجم معطوعة ، لأكرس أول من وصلها

تلك هي الكائرات التي ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهي تمثل ما يمكن أن يكون نقصاً للمجتمع كله من أساسه ، فكل كبيرة تنقص ناحية من نواحي المجتمع ، وهذا يخالف الإيمان ، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعاً عشت في أمن . والإسلام أيضاً منهج إن اتبعناه جميعاً عشت في سلام . فيوم تأتي - أي المسلم - كبيرة من هذه الكائرات فأنت تزلزل بها ركناً من الأركان ، وحيت لا يكون هناك أمن ولا سلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه : « إن تجتبرا كبائر ما تنهون عنه » وعندما ندقق في كلمة « تنهون عنه » نلتفت إلى أن أصل الفصائل أن تسلب نقیصة وأن توجب كمالاً ، فليها توجب الكمال بالأوامر اسلب الفرائض بالسوءى ؛ ولذلك يقولون : التحلية قبل التحية .

« إن تجتسوا كبائر ما تنهون عنه تكفروا بكم سيئاتكم » ولا تكفروا أي سئروا ، لأن

(١) رواه أحمد وأبو داود في اللب نهره . وأبو داود والترمذي وصحاحهم عن عبد الرحمن بن عوف

الكفر هو السر ، وقلد . إن التكفر للديوب إمطة للعقاب ، وإحباط إمطة للثواب ، وندخلكم مدخلاً كريماً ، فلن يسقط عنكم العذاب قط بل يعطيك المدخل الكريم . يقول الحق .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يوسف)

وقد كان يكفى ألا تعاقب ، بكك حياً تنجب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط ، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً ، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك في مدخله ، فانظر ، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى :

(أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم . « فلا تعلم نفس ما أحفى لهم من قرأ أعين » (١) .

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد ، وهو الموازن بين أفراد الجنس الإنساني ، كل هذا الكلام كى يحفظ الجنس الإنساني مع بعضه ، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توارثاً ومصاحبة إيمانية بين نوعي الجنس الإنساني ، والجنس الإنساني فيه ذكورة وفيه أنوثة . ويعرف أن كل جنس من الأجنس لا ينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس ، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعاً وهذا نوعاً ولو لم يكن فيه شيء مفترق لما كان نوعين ، إذن فما دام الجنس الواحد نوعين فلا بد أن يجمعها في شيء مشترك ، وما دام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة . والذكورة والأنوثة هم نوعان لجنس البشر ، فالذكر والأنثى يشتركان في مطلوبات الجنس ، وبعد ذلك ينفردان في مطلوبات أسوع ، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد . والأفراد أبصاً ليسوا مكررين ، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله شظارة في مجال كذا أو كذا ، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشري .

وما دام الجنس البشري قد انقسم لنوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء

خصوصية . ورنما سبحانه وتعالى لا يأتى حتى في البنية العامة ليجعل الحسنين مستويين في خصائص البنية ، صحيح البنية واحدة : رأس وحذق وأرجل ، إنما يأتى ويميز بنية كل نوع بشيء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز . ولذلك فالذين يقولون : سوى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل تقول لهم المرأة لها تكوين خاص ، والرجل له تكوينه الخاص ، فإذا سويت المرأة بالرجل أعصيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها التي لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها ، معطلة لا يقوم بها أحد . إذن قامت حلتها فوق ماتطين وأنت مخطيء ، لأنك تأتيها بمناعب أخرى .

إن الحق سبحانه وتعالى ساحة بمحق جنساً ، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين ، يوضح : تسهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك ، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، مامو ؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان فطالبت منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر في عقيدته الإيمانية ، الإنسان متساويان فيها ، ولا يفرصها واحد على الآخر ، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخيص الذكورة وتشخيص الأنوثة في الأمر الأول للإيمان ، وإن احتلمت في الأمر الثاوي للأحكام ، فيقول .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا بَيْنَ يَدَيْكَ كَفَرُوا أَمْرًا تَوْج رَأْمَرْت لَوْط كَأَنَّ تَحْت عَمْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

صَالِحِينَ تَحَاكَا هُمَا فَلَمْ يَعْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقَبِلَ ادْخُلَا السَّامِعَ الدَّخِيلِينَ ﴿١٧﴾

(سورة التهم)

وهذان رسولان ، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد إذن فكل إنسان له حرية العقيدة والتفكير ، ولا أحد تابع لأخر في هذه المسألة أبداً . ويقول الحق :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْرًا فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْحَبْشَةِ

وَتَجْعَلْ لِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَجْهًا وَيَجْعَلْ لِي مِنَ الْفُتُورِ الطَّالِبِينَ ﴿١٨﴾

(سورة التهم)

فرعون الذي ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم إمرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها :

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَتَزِيلُنِي عَنكَ يَتَايَا آلِجَنَّةِ وَتُخَيِّرُنِي مِثْلَ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة النحل)

إذن هنا مسألة العفيفة الكل فيها سوء ، الذكورة والأنوثة ، فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأى قد يعر على كثير من الرجال . ولنا مثل من زوج رسول الله (أم سلمة) وموقعها في صلح الحديبية فعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليعقد المعاهدة ، ويحزن أصحابه ومنهم عمر رضى الله عنه الذى قال . أنقل لدنية في حبنا فيقول له سيدنا أبو بكر : أرم حررك يا عمر إنه رسول الله . فدخل رسول الله منصباً ، طبعاً من حبة عمر وحرن الصحابة ، لأنها مسألة تعر على النفس البشرية ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها . هلك المسلمون ، ألا تربين إلى الناس أمرهم بالأمر فلا يعملوه وهم يسمعون كلامي ويظنون وجهي ؟ فقالت يا رسول الله : لا تلمهم فإنهم قد داخهم أمر عظيم مما أدخلت هل نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبي الله أخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تتحرر بذلك وتدعو حالقك فيحلفك .

بعد وقع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقعوا أمام رسول الله في هذه المسألة ، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح هم الرسول : سأبين لكم : أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لا تعرفونهم إنهم يكتفون بإيمانهم وإسلامهم ، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم ، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أى ما تكرهونه وشنق عليكم مصداقاً لقول الحق تعالى :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّاعِبُوهُمْ أَنْ تَفْشَرَهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الفتح)

لوتزايلا أى لو غمر المؤمنون في منطقة لعانت الكافرين عذاباً شديداً . إذن لقد أوضح هم العلة ، فرضى الكل ، ولما أن بلغت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا

أم سلمة ، وهذا دليل على أن الله لا يجمع أن يكون لامرأة عقل وتفكير واضح ، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك في قصة بلقيس ، لقد فكرت بلقيس في الرجس الآن ليؤزل ملكها : يا ترى هل هو طالب ملك ، وجاء على لسانها في القرآن الكريم .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّهُ لِيْ كِتَابٌ كَرِيْمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَإِنَّهُ بِرِيسَمِ
 اَللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ﴿٣٠﴾ اَلَا تَعْلَمُوْا عَلٰى وَاٰوِيْ مُسْلِمِيْنَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا
 اٰفْتَرِيْ فِيْ اَمْرِىْ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً اَمْرًا حَتّٰى تَشْهَدُوْا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

فإذا قال القادة ؟ قالوا لا ، هذه ليست مسائلنا ، وجاء القرآن بقولهم .

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَىٰ قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْوَءِ شَيْءٍ لِّلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣٦)

(سورة النمل)

كان رجل الحرب يُؤثر غفط ، بحارب أو لا يحارب ، نكس الذي يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركة القتال . نقول لقائد الجند : أنت تنتظر الأمر ، وتعمل الساسة المحدثين يفكرون في عواقب الأمور ، لذلك قال قادة الجند لبلقيس : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك » لقد وضعوا الأمر في رقتها وهي امرأة ، ففكرت : سأجرب واختبره وأمطر أهر طلب ملك أم صاحب دين - فأرسلت هدية له ، فلما جعلته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية

[illegible]

(من الآية ٣٦ سورة الجمل)

فعرفت بـلقبى أن الملكَ ليس مدفعه ، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة ،
فقلت : أذهب له وأسلم ، انظر أدناه العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة
قالت .

﴿وَأَسَلْتُكَ مَعَ سُلَيْمَانَ إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

يعنى : أنا وهو أصبحنا عبيداً لله ، هذه رفعة الإيمان ؛ فلا غفصاة مادامت هي وهو عبيداً لإله واحد ، ولبليس امرأة ولم يجرمها ربنا من الرأى الحسن أيضاً ومن الأداء الجميل ، وهي عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه ، لقد تركت العرش في بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها ، وكان لابد أن يلتبس عليها الأمر ، وقالوا لها . أهكذا عرشك ؟ :

﴿ فَلَمَّا حَافَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النمل)

فاجابت إجابة دبلوماسية وكياسة :

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُمْ مُّو ﴾

(من الآية ١٢ سورة النمل)

هي امرأة وم يجرمها الله من نميز المكر ؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر . لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً في إطار نوعيتها ، ولا تعتبر النقص في شيء للرجل أنه نقص فيها ، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى في البنية يختلف الرجل عن المرأة ؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة ، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستمكة ، ولها عاطفة فياضة ، وفيها حنان ، والرجل فيه صلابة حرم وعزم ، إذن لكل واحد معدة لمهمة . فلا يقرن أحد إلى أنا ناقص في هذه ، لكن انظر غيرك إنه ناقص في ماذا وهو عندك أيضاً كامل .

ويأتى الدين لوضح : بما يؤمنون . التحرير حرام على الذكور وحلال للإناث الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث ، أى تدليل أكثر من هذا ؟ . لقد حرم على الرجال التمتع بالتحرير والذهب وأعطاهما للنساء ، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل ، فالفروض أن الرجل هو الذى يتحرك حركة الحيلة خارجاً ، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه ، والذى يصقل السيف ويحده ، مثل الشجاع الذى يضرب به ثمناً. كل له عمل يكمل عمل الآخر ، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويعد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة .

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿وَلَا تَحْتَمُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى
بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه اجناس ، وكل جنس يشمل أنواعاً او
نوعين ، ونحت كل نوع افراد . فإذا ما رأيت جنساً من الاجناس انقسم إلى نوعين ،
فاعلم انهما يشتركان في مطلوب الجنس ، ثم يختلفان في مطلوب النوع ، ولو كانا
متحدين لما انقسما إلى نوعين . كذلك في الأفراد . وإذا نظرنا إلى الجهاد وجعلنا الجهاد
جنساً عاماً ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة ، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة
مختلفة ، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء ، فهذا البناء يتطلب زملاً ، ويتطلب أسمتاً ،
ويتطلب آجرًا ، ويتطلب حديدًا ، فجنس الجهاد كله مشترك في إقامة البناء ، ولكن
للاسمت مهمة ، وللجنس مهمة ، وللزميل مهمة ، وللزمن - وهو الزلطة - مهمة ،
فلا تأخذ شيئاً في مهمة شيء آخر . وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين ، إلى ذكورة
تتمثل في الرجال ، وإلى أنوثة تتمثل في النساء ، وبينهما قدر مشترك يجمعهما
كجنس ، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما . فلو أردت أن تصنع نوعاً مكان نوع لما
استطعت

إذن فمن العبث أن يخلق الله من جنس نوعين ، ثم تأتي لتقول . إن هذا النوع
يجب أن يكون مثل هذا النوع . وأيضاً نعرف ذلك من الزمن ، فالزمن ظرف
للأحداث ، أي أن كل حدث لا بد له من زمن ، لكن لكل زمن حدث ياسبه .
فالزمن وهو النهار ظرف للحدث في زمنه ، والليل أيضاً ظرف للحدث في زمنه
ولكن الليل حدثه السكون والراحة ، والنهار حدثه الحركة والنشاط . فإن أردت أن
تمكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين التناقضين .

لقد أوضحنا أن الله يلمتنا إلى شيء قد نختلف فيه بشيء قد اتفقا عليه ، فبين

لك : هذا الذي يختلف فيه ركنه إلى المتنق عليه . فالرسم لا خلاف في أنك تجعل الليل سكناً ولياساً وراحة وهدوءاً ، والنهار للحركة . وكل الناس يصنعون ذلك . فالحق سبحانه وتعالى يوضح : كم جعل الرسم ظرفاً لحركة إلا أن حركة هذا تختلف عن حركة هذا ، وهل معنى ذلك أن الليل والنهار نقيضان أو خيضان أو متكاملان ؟

إيهما متكاملان ؟ لأن راحة الليل إنما جعلت لتصح حركة النهار . فانت تمام وترتاح لتستأنف نشاطاً جديداً . إذن فالليل هو الذي يعين النهار على مهمته . ولو أن إنساناً استيقظ ليلة ثم جاء صباحاً ما استطاع أن يفعل شيئاً . إذن فما الذي أعاد حركة النهار ؟ إنه سكون الليل ، فالحق سبحانه وتعالى بين : أن ذلك أمر متفق عليه بين الناس جميعاً متدينين وغير متدينين . فلماذا اختلفتم في أن الذكورة والأنوثة يجب أن يتجدا في العمل والحركة والنوع يقول لكم : لا ، هذا أمر متفق عليه في الزمن ، فحللوا ما اتفقتم عليه دليلاً على صحة ما اختلفتم فيه . ولذلك ضرب الله المثل فقال :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ① ﴾

(سورة الليل)

فعندما يغشى الليل يأتي السكون وقال الحق بعد ذلك :

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ② ﴾

(سورة الليل)

وعندما تنزع الشمس تدب الحركة ، ثم جاء بالشيء المختلف فيه ، فاتبع سبحانه ذلك بقوله :

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④ ﴾

(سورة الليل)

أي أن لكل جنس مهمة .

وهكذا نعرف أن الإنسان ينقسم إلى نوعين : الذكورة والأنوثة وفيهما عمل مشترك وخاصية مشتركة . وأن كلا منهما إنسان له كرامة الإنسان وله حرية العقيدة فلا يوجد رجل يرغم امرأة على عقيدة ، وضربنا المثل بامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطان لنوع على نوع ، وكذلك حرية التعقل في الميقات ، وعرفنا كيف أن أم سلمة - رضي الله عنها - أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخديبية إشارة أمنت المسلمين من انقسام فطبع أمام حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا قصة بلقيس - ملكة سبأ - التي استطاعت أن ترمي أمراً تحلى عنه الرجال ، إذ أن من الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر ، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لم يكن أصالة الرأي ، وحكمة المشورة في نوع مهمتها .

مثلاً نجد في التاريخ أن ملك « كنة » سمع عن جمال امرأة اسمها « أم إياس » بنت عوف بن محل الشيباني ، فأراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من « كنة » يقال لها « عصام » وكانت ذات أدب وبيان وعقل ولسان ، وقال لها : ادعيني حتى تعلمي لي علم ابنة عوف . أي أرسلها لحاطبة . فلما ذهبت إلى والدتها « أم إياس » وسمها « أميمة بنت الحارث » وأعلمتها بما جاءت له . وأرسلت الأم تستدعي الابنة من خيمتها ، وقالت لها : هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تستري عنها شيئاً لو أدت البطر إليه من وجه وحلق وباطنيها في مستطقتك به . فلما احتلت « عصام » ما كنت فعلت مثل ما أمرتها أمها . وكشفت للحاطبة « عصام » عن كل ما تريد من محاسنها ، فقالت الحاطبة كلمتها المشهورة . « ترك الحداد ما انكشف القبع » ، وصار هذا القول مثلاً ، أي أن القناع عندما يزول يرى الإنسان الحقيقة ، وعادت الحاطبة « عصام » إلى الملك مسألها : ما وراءك يا « عصام » إنه يسأل : أي خبر جئت به من عند « أم إياس » ؟ . فقالت : أبدي المحض عن الزيد والمحض هو : هر الحليب في الفرة ليحصل الزيد من اللبس . وذلك يعني أن رحلتها قد جاءت بنتيجة .

فقال لها : أخبريني .

قالت : أخبرك حقاً وصدقاً . ووصفتها من شعرها إلى ندمها وصعباً أغرى الملك . فأرسل إلى أبيها وخطبها وزفت إليه .

وفي ليلة الزفاف نرى الأم العاقبة توصي ابنتها في ميدان عملها ، في ميدان

أمومتها ، في ميدان أنوثتها . قالت الأم لابنتها . « أى بنية ، إن انصبيحة لو تركت لفضل أدب لتركك لذلك منك . أى أنها كأم تثق في أدب ابنتها ولا تحتاج في هذا الأمر لصبيحة . ولكنها معونة للخالل وتذكرة للعاقب . إنك غداً مستذهية إلى بيت لم تعرفه ، وقرين لم تألفه . فكون له أمةً يكن لك عبداً . واحفظى عن عشر خصال تكن لك ذمراً » .

وانظروا إلى الخصال التي استنبطتها امرأة من ميدان رسالتها ، تستمر كلمات الأم « أما الأولى والثانية : فالعاشرة له بالسمع والطاعة والرضا بالقناعة ، وأما الثالثة والرابعة . فالتعهد لموقع عينه وموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . والخامسة والسادسة . التصدق لو فت طعمه والهدوء عند منامه فإن تنقبض النوم مغضبة ، وحرارة الجوع ملهبة . أما السابعة والثامنة : فالتيدير لماله والإرعاء على حشمه وعن عياله . وأما التاسعة والعاشرة : فالأ تقضى له سرّاً ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أقشيت سره لم تأمنى صدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، وإياك بعد ذلك والفرح إن كان ترحاً والحزن إن كان فرحاً » .

فذهبت أم إلياس هذه النصائح إلى زوجها وأجبت له البين والنيات وسعدت معه وسعد معها .

تلك نصيحة من أم تدل على منتهى العقل ، ولكن في أى شيء ؟ في ميدان مهمتها . إذن فالمرأة بمنحها الله ويعطيها أن تتعقل وعا ميدان ولا بأن هذا العقل غالباً إلا في ميدانها . لأن ميدان الرجل له حركة تتطلب الحرم ، وتتطلب الشدة ، والمرأة حركتها تتطلب العطف والحنان ، والأمثال في حياتنا اليومية تؤكد ذلك ، إن الرجل عندما يدخل بيته ويجب أن ينام ، قد يأنى له طفله صارعاً باكياً ، فيثور الأب على زوجته ويسب الولد ويسب أمه ، وقد يقول ألقاظاً مثل : « اكتمى أنفاسه إلى أريد أن أسريح » . وتأخذ الأم طفلها وتذهب تربت على كتفه وتسكته ، ويشجب لها الطفل ، وهذه مهمة الأم ، ولذلك نجد أن الأحداث التاريخية العصبية تبرز الرجل في مكانه والمرأة في مكانها .

فمثلاً : سيدنا إبراهيم عليه السلام أسكن عاجر وابنها إسماعيل براد غير دى

زرع ، قالت له : أتتركنا في مكان ليس فيه حتى الماء ، أهدأ تركه برأيك أم الله أنزلك فيه ؟ قال لها : أنزلي الله هذا المكان . فقالت له : اذهب كما شئت فإنه لا يضيع . هذه المهمة للمرأة . هاجر مع طمل في مكان ليس فيه مقوم الحيلة الأول وهو الماء . فانظروا عظمها وحنانها ، ماذا فعلت ؟ لقد سمعت بين الصفا والحروة ، صعدت الجبل إلى أن أنهكت قوما .

إن الذي يذهب إلى الحج أو العمرة ويحرب الأشرار السبعة هذه يعرف أقصى ما يمكن أن تتحمله المرأة في سبيل ابنها ، لأن هذا موقف عطف وحنان ، أبها يريد أن يشرب . وكان الله قال لها : إنك قد سمعت ولكني سأجعل رزقك من حيث لا تحسبين ، أنت سمعت بين الصفا والحروة ، والماء ينبع تحت قدمي ولذلك إذن صدقت في قولها : إنه لا يضيعنا ، ولو أن سمينا جاء ببناء لظننا جميعاً أن السمي هو الذي يأتي بالماء ، ولكن اسمع ولا تعتد في السمي ، بل اعتد في الرزاق الأعلى ، تلك مسأله ظاهرة في أمنا هاجر .

وحينما جاء موقف الابتلاء بالذبح ، احتضت هاجر من المسرح ، وجاء دور سيدنا إبراهيم بحرمه وعمره ونبوته . ورأى في الرزق أنه يذبح ابنه ، أين أمه في هذا ؟ اختصت من المسرح ، لأن هذا موقف لا يتفق مع عواطفها وحنانها . إذن فكل واحد منهما له مهمة والسجاح يكون على قدر هذه المهمة ولذلك يقول الحق : « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ساعة نرى جنساً أخذ شيئاً وجسماً آخر أخذ شيئاً ، إليك أن تشغل بالك وتتمنى وتقول : « أريد هذه » ، ولكن أسأل الله من فضله ، لأن كلمة « ولا تمنوا » هي عن أن تمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض ، ولذلك يقول : « واسألوا الله من فضله » وما دمت تسأل الله من فضله ، فهنا أمل أن يعطيك .

وقد يرى البعض هنا مشكلة فيسأل : كيف ينهانا الله عن أن نتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض فقال : « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » مع أن فضل الله من شأنه أن يعضل بعضنا على بعض بدليل قوله : (ورحمنا بعضكم فوق بعض درجات) فصلا على أني أطمع في أن أسأل الله ليعطيني ، لأنه - سبحانه -

ما أمرنا بالسؤال إلا ليعطينا .

ونقول : لا ، التمسى عادة أن تطلب شيئاً يستحيل أو لم تجر به عادة ، إنما السؤال والدعاء هو مجال أن تأتي إلى شيء تستطيع الحصول عليه ، فأوضح : لا تلعب إلى منطقة التمسى ، ولذلك ضربوا المثل للتمسنى بيت الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

تمنى الشاعر أن يعود الشباب يوماً فهل هذا يتأتى ؟ إنه لا يتأتى . أو أن يقول قائل ليت الكواكب تدنو لي فأعطها ، هل يمكن أن يحدث ذلك ؟ لا . ولكن هذا القول يدل على أن هذا الشيء محبوب وإن كان لم تجر به عادة ، أو هو مستحيل ، إذن فالسؤال يجب أن يكون في حدود الممكن بالنسبة لك . والحق يوضح : لا نظروا إلى ما فضل الله به بعضكم على بعض . وما دام الله قد فضل بعضاً على بعض فليسأل الإنسان لا في منطقة ما فضل الله غيره عليه ويطلبه لنفسه ويسلبه من سواه ، ولكن في منطقة أن توفق في إبراز ما فضلك الله به ، ولذلك نجد الحق في آيات التفضيل يقول .

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الحن)

وما هو الرزق ؟ هل هو نقود فقط ؟ لا . بل الرزق هو كل ما يتنفع به ، فالعلم رزق ، والعلم رزق ، والشجاعة رزق ، كل هذا رزق ، وقرله الحق : « ما فضل الله به بعضكم على بعض » يميلنا لتساءل : من هو المفضل ومن هو المفضل عليه ؟ لأنه قال . « بعضكم » . لم يبينها لنا ، إذن بعض مفضل وبعض مفضل عليه

وسؤال آخر : وأي بعض مفضل وأي بعض مفضل عليه ؟ إن كل إنسان هو فاضل في شيء ومفضل عليه في شيء آخر ، فإتسلن بأخذ درجة الكمال في ناحية ، وإتسلن بفقد أدنى درجة في تلك الناحية ، لكنه يملك موهبة أخرى قد تكون كاملة

ومكتوبة . وهذا يعنى التكامل في المواهب ، وهذا التكامل هو أساس الحركة في المجتمع .

لننتبه إلى التروس ، نحن نجد الترس الرائد يدخل في الترس الأفل ، فتدور الحركة ، لكن إذا وصفت ترساً رائداً مقابل ترس زائد مثله فلن تحدث الحركة إذن فلابد أن يكون متميزاً في شيء والآخر متميزاً في شيء آخر فيحدث التكامل بينهما ، ومثل ذلك قلنا ، الليل والنهار ، الليل يعنى على حركة النهار ، وقلنا : إن السيف في يد الفارس يضرب به ويقتل ، ولو لم يسه حير في الخداعة وبشطاء ويصفله لما أدى السيف مهمته ، وقد لا يستطيع هذا الأخير في حقل السيف الذهب للمعركة ، وقد يحاف أن يضرب بالسيف ، لكن له فضل مثل فصل المحارب بالسيف .

إن كل واحد له مهمة يؤديها ، والأقدار تعطى الناس مواهبهم المتكاملة وليست المتكررة المتعاندات ، ومادامت المواهب متكاملة فلا أحسد من تفرق على في مجال ما ، لأننى أحتاج إليه ، وهو لا يحسدنى إن تفوقت عليه في موهبة أو عمل لأنه يحتاج إلى ، إذن فأنا أريده أن يفوق ، وهو يريدنى أن أتفوق ، وذلك مما يحب الناس في نعم ومواهب الناس ، فأنا أحب انعمة التى وهبها الله للآخر ، وهو يحب الصمة والموهبة التى عندى .

مثال ذلك عندما نجد رجلاً موهوباً في تفصيل الملابس ويحبك أجود الحلاليب فالكل يفرح به ، وهذا الرجل يحتاج إلى نجار موهوب ليصنع له باباً جيداً لذكاه ، ومن مصلحة الاثنين أن تكون كل بعمة عند واحد محمودة ، ولذلك سبحانه الله « بعضاً » و « بعضاً » ويتكون الكل من بعض وبعض ، فأنتم موهوبون في بعض الأمور ولا تؤدى كل الأمور أبداً ، ولكن بمهمة البعض الآخر تلك جميعاً موهبة بعضنا بعضاً .

ويتابع الحق . « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » فمهمة النجاح للرجل أو المرأة هو أن يكون كل منهما صالحاً ومزدياً للمهمة التى خلق من أجلها ، بعد ذلك يكون حساب الثواب والعقاب وكل واحد على قدر تكليفه .

فالثواب والعقاب يأتي على مقدار ما يقوم كل مخلوق بما كلف به .

والثال على اختلاف مهمة الرجل عن مهمة المرأة ، يتحل في أننا نجد الرجل عندما تغضب امرأته أو تمرض ، ويكون عنده ولد رضيع ، فهل يستطيع هو أن يرضع الطفل ؟ طبعاً لا ؛ لأن لكل واحد مهمة ؛ فالعاقل هو من يحترم قدر الله في خلقه ، ويحترم مواهب الله حين أعطاها ، وهو يسأل الله من فضله ، أى بما فضله به ليعطى له البركة في معامه . وحين يقول الحق : « ولا تتموا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » يلحظ أن هذه تاروى تلك تماماً

« واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً » ومن واسع علمه سبحانه أنه ورح المواهب في خلقه حتى يتكامل المجتمع ولا يتكرر ؛ لأن تكرار المجتمع هو الذي يولد الشقاق ، أما تكامله فيولد الوفاق ، وسبب نزول الآية « ولا تتموا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أن النساء قلن : إنا لم نكتب عينا الجهاد وأعطانا ربا نصف الرجل من الميراث ، وقد أوضح الحق من قبل للمرأة أنها أخذت نصف الرجل لأنها محسوبة على غيرها ولن تصرف وتنفق من دخلها على نفسها ، بل سيصرف الرجل وينفق عليها ، والسألة بذلك تكون عادلة . وكذلك قال الرجال : مادام الله قد فضلنا في الميراث ، وأعطانا ضعف نصيب المرأة فلعله يفضلنا في الآخرة ويعطينا ضعف ثوابها ، فيصع الرجل العمل الواحد ويريد الضعف .

وانظر لذلك المرأة ، حينما قالت : مادام ربنا أعطانا نصف ميراثكم فلماذا لا يعطينا نصف العقوبة إذن ؟ فلو صبح لهم الله : اهدأوا « ولا تتموا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أى أن على كل واحد أن يرضى بما قسمه الله له .

ويعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَلِكُلِّ جَنْبَلًا مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَثَأْنُهُمْ
نَصِيبُهُمْ إِنْ آتَاهُ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

وساعة ترى لفظه « لكل » ونجدها منونة ، ناعرف أن هناك حاجة مقدرة ، وأصعبها
« لكل إنسان » ، وحلف الاسم وجاء بدلاً منه التثنية ، مثل قوله :

﴿ قُلُوا لَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴿٣٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ونجد التثنية في « حينئذ » أي حين بلغت الروح الخلقوم ، فحذف حين بلغت
الروح الخلقوم وعوض عنها التثنية في « حينئذ » إذن فالتثنية جاء بدلاً من
المحذوف .

وقول الحق : « ولكل جعلنا موالى » ، « والموالى » جمع « مؤن » . وقبل أن تنزل
آيات الميراث ، أخى النبي بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يتولون هذه المواخاة ،
وكان هناك شيء اسمه « مولى الماصرة » وهو أن يستريح ثمان لبعضهما ويقول كل
منها للآخر : أنا أحوك وأنت أخى ، حربى حربك ، وسلمى سلمك ، ولحمى
دمك ، ونثر مى وأرث منك ، ونعقل عى وأهقل عك ، أى أن فعلت جناية تدفع
عنى ، وإن فعلت أنت جناية أطف عك . مواخاة .

هؤلاء كان لهم نصيب من مال التوفى ، فالحق بين : لكل إنسان من الرجال
والنساء جعلنا وريثة يرثون بما ترك الوالدان ، والأقربون . . . أى لهم نصيب من ذلك
والأولياء المناصرة بعض من الميراث كذلك . فليأكلهم أن تأقوا أنتم وتقولوا : لا ، لا بد أن
تعطوهم نصيبهم الذى كان مشروطاً لهم وهو السلم

لكن اطل ذلك الحكم ؟ لا لقد نوح وانزل الله قوله

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَأَوَّلَىٰ أَرْحَامِهِمْ وَأَوَّلَىٰ نِسَائِهِمْ فِيمَا تُنْفِقُونَ لِحُلُمِهِمْ إِنْ آتَاهُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ يُكَلِّمُ مَن يَشَاءُ فِيمَا يَحْسَبُ عِلْمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

فيأدام الله قد قال : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » . أى ولكن إنسان من الموالى شيء من آثار ما ترك الوالدان والأقربون . فإياكم أن تقولوا . هم ذهبوا فلا نعطيهـم شيئاً ، لا ما كانوا متفقين فيه وعقدوا أيمانهم عليه آتوهم نصيبهم مصداقاً لقوله الحق « نآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً ، فافه شهيد على هذه . وشهيد على أنكم تنفذون أو لا تنفذون .

وبعد ذلك جاء ليتكلم فى قصة متصلة بقول الحق سبحانه . « ولا تبتغوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فقال :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ
اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ
فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا
حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ شُرُوهُنَّ فَعِظْلُوهُنَّ
وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَصَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِن
أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ مَكِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

«الرجال قوامون على النساء» أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلا على الرجل وزوجه على الرغم من أن الآية تكلمت عن مطلق رجل ومطلق نساء ، فليست الآية مفصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوام على البنات ، والأخ على أخواته . ولنعهم أولاً « الرجال قوامون » ولماذا تعنى ؟ وننظر أهله تعطى انشاء التعوق والمركز

أم تعطيهن التعب والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كريمة ، وهو الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه وأوضح القضية الإيجابية « الرجال قوامون على النساء » والذي يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدي إلى المخالفة ، والمرأة التي تخاف من هذه الآية ، نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لفضيت ، وإذا سألها : لماذا إذا ؟ تقول : أريد ابناً لبحميا كيف وانت تعارضين في هذا الأمر ؟ .

ولنفهم ما معنى « قوام » ، القوام هو المانع في القيام . وجاء الحق هنا بالقيام الذي فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على لقوم أي لا يرتاح أبدا . إذن فليذا تأخذ « قوامون عن النساء » على أنه كنتم أنفاس ؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى في مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيم على النساء ، أي أن يقوم بإداء ما يصلح الأمر . ونجد أن الحق جاء بكلمة « الرجال » على عمومها ، وكلمة « النساء » على عمومها ، وشيء واحد نكلم فيه بعد ذلك في قوله . « بما فضل الله بعضهم على بعض » مما وجه التفضيل ؟ .

إن وجه التفضيل أن الرجل له الكدح وله الضرب في الأرض وله السعى على المعاش ، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها . وفي قصة آدم عليه السلام لنا المثل ، حين حذر الحق سبحانه آدم وروجه من الشيطان ، إبليس الذي دعى إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى ، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم ، وحيثيتها :

﴿ قَالَ أَتَسْتَعِدُّ لِمَنْ خَلَقْتَ طَبًا ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الاسراء)

وأوضح الحق لآدم . إذا هبطت إلى الأرض فادكر هذه العداوة وأعلم أنه لن يتركك ، وسيظل يعويك ويفريك ؛ لأنه لا يريد أن يكون عاصياً بمفرده ، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذي أبى أن يسجد هو لأبيه آدم يريد أن يخزيهم ، كما حاول إهواء آدم :

﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

وهل قال الحق بعدها : ختشفيا لو فتشقي ؟ قال سبحانه .

﴿ فَتَشْقَى ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

فأعانة جاء الشقاء في الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل . وهذا يدل على أن القوامه تحتاج إلى تعب ، وإلى جهد ، وإلى سعى ، وهذه المهمة تكون للرجل .

ونلاحظ أنه ساعة التفضيل قال : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » لقد جاء به بعضهم ، لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوام فضل المرأة أيضا لشيء آخر وهو كونها السكن حين يستريح عنده الرجل وتقوم بمهمتها .

ثم تأتي حيثية القوامه . « ربما أنفقوا من أموالهم » . والمال يأتي نتيجة الحركة ونتيجة التعب ، هالذي يتعب نقول له . أنت قوام ، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك ، لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولا فيها : الرقة والحنان والمعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل ، لأن الكسب لا يريد هذه الامور ، بل يحتاج إلى القوة والعزم واشد ، فقوله الله : قوامون ، يعنى مبالغين في القيام على أمور النساء .

ويصح للنساء . لا تذكرن فقط أنها حكيمة روج وزوجة . قدرون أن القيام يكون على أمر النساء والأخوات والامهات . فلا يصح أن تأخذ « قوام » على أنها السيطرة ، لأن مهمه القيام جاءت للرجل بمشقة ، وهي مهمة صعبة عليه أن يبالغ في القيام على أمر من يتولى شئونهم .

« ربما أنفقوا من أموالهم » فإذا كان ازواج متعة للأنثى وللذكر . والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع في لفرية ، هي دامت المتعة مشتركة وطلب اللذة أيضا مشتركا فالتبعات التي تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما ، ولكنها جاءت على

الرجل فقط . . . صدقاً ونفقة حتى ولو كانت المرأة ضحية لا يفرص عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها .

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب . فلماذا نحزن امرأة منها ؟ فـ « الرجال قوامون على النساء » أى قائمون إدامة دائمة ؛ لأنه لا يقال قوام لمطلق قائم ، فالقائم يؤدي مهمة مرة واحدة ، لكن « قوام » نعى أنه مستمر في القوامة .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وما أنفقوا من أموالهم » وما دمتا نكدح ونشعب للمرأة فلا بد أن تكون للمرأة مهمة توازي ذلك وهي أن تكون مسكناً له ، وهذه هيها تفضيل أيضاً

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى في صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يلتزم به، لإثبات حكم الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه ، فالوصح القضية الإيمانية : « الرجال قوامون على النساء » ثم جاء بالحجتيات فقال : « بما فضل الله بعضهم على بعض وما أنفقوا من أموالهم » ويتابع الحق : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » والمرأة الصالحة هي المرأة التي استقامت على المنهج الذي وضعه لها من خلقها في نوعها ، فإدامت هي صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام انطاعة لله ، ومن قنوت الفجر الذي يفتته ، وتدعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فعين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره بما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء ، « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة . فالمرأة حين يغيب عنها الرعي لها والحامي لعرضها كالآب بالنسبة للبنات والابن بالنسبة للأم ، ولزوج بالنسبة للزوجة ، فكل امرأة في ولاية أحد لا بد أن تحفظ عيبتها ، ولذلك فالرسول صل الله عليه وسلم حينما حدد المرأة الصالحة قال في حديث عن الدنيا :

« الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »^(١)

لقد وضع صلى الله عليه وسلم قانوناً للمرأة الصالحة يقول فيه

«خير النساء التي نُسِرَ إذا نظر وتطبع، إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره»^(١)

وأى شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك وكلمة «إن نظرت إليها سرتك» إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط، جمال المبنى، لا، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حذرنا من أن تأخذ صفة في المرأة وتترك صفة أخرى، بل لا بد أن نأخذها في مجموع صفاتها فقال .

«تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها»، فاعظرو بذات الدين تربت يداك»^(٢) .

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة في الجمال، بل انظر إلى كل الروايا، فلو نظرت إلى الراوية التي تشغل الناس، الراوية الجمالية، لو وجدت أقل الروايا بالنسبة إلى تكوين المرأة؛ لأن عصر هذه المسألة «شهر حل» - كما يقولون - وتنتهي، ثم بعد ذلك تبدو المفومات الأخرى. فإن دخلت على مفوم واحد وهي أن تكون جيلة فانت تخدع نفسك، وتظن أنك تربتها سيئة صالون! ونقول لك: هذه الصفة أمدتها بسيط في عصر الزمن، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة، أن تكون مخلصه، أن تكون مدبرة؛ ولذلك فالفضش ينشأ في الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية، وهذا المقياس الواحد عمره قصير، يذهب بعد فترة وتبدأ شيرته وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى فواحي الجمال الأخرى، فلا يجدها فيحدث الفضل؛ لذلك لا بد أن تأخذ مجموعة الروايا كلها إياك أن تأخذ زاوية واحدة، وخير الروايا أن يكون لها دين. وكذلك المقياس بالنسبة بقول المرأة للزوج، أيضاً خير الزوايا أن يكون له دين، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(١) رواه أحمد والشافعي والحاكم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والشافعي وابن ماجه

« إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تعملوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض »^(١).

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال : زوّجها من ذى الدين ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

إذن فالدين يؤشدها : لا بد أن منظر إلى المسألة التي سيكون لها عمر طويل في الحياة الممتدة ، وبعد ذلك إذا أردت أن تكون ناجحة فعلية أن ترى إطار بوحيها وتنع فيه ، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهنتها في بيتها ، فإذا كان عندها أولاد فعلية أن تتعلم الخياكة وتقوم بتجهيل وحياتها ملابسها وملابس أولادها خوفاً القود ، أو تتعلم التطريز كي لا تدفع أجرة ، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن ترضيه وترعاه ، أن تتعلم كي تفنى عن مدرس خصوصي يأخذ نفوساً من دخل الأسرة ، وإن بقي عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السبك إذا فسد صنوبر ماء ، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة . وتسطيع المرأة أن تقوم بأي عمل وهي جالسة في بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التي لا تغدر أن تفعلها ، والمرأة تكون من « حافظات الغيب » ليس بأعمال من عندها أو باحتيار ، بل بالمنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب ؟

فما المنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب ؟ تحافظ على عرضها وعن مال زوجها في غيبته ، فتظفر المأخذ التي تأتي منها الفتنة وتجتمع عنها ، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كي لا ترى أحداً يفتنها أو يفتن بها ، لأن هذه هي مقدمات الحفظ ، ولا تذهب في رحمة الحياة ، وبعد ذلك يقول لها : « حافظي على الغيب » بل عليها أن تنظر ما بين يدي الله في ذلك . فإن اضطرت أن تخرجي فلتعطي ابصر ؟ ولذلك قال سبحانه .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَنَصَّصْنَ مِنْ أُنْصُرِهِنَّ وَيُحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُدْرِكْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(عن الآية ٢١ سورة النور)

فلما إن لم تغض النظر يحدث التضايف عاطفي ؛ لأن كل شعور في الإنسان له ثلاث مراحل : مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد في نفسه ، ومرحلة أن يتزعج ، أي يحول الأمر إلى سلوك ، ونضرب دائماً المثل بالوردة . وأنت تسيرون في وردة في بستان ومجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، وإذا أعجبك الوردة وحشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان . وإذا التحمت لتعطفها فهذه عملية نزوعية ، فكيف مرحلة ؟ ثلاث مراحل : إدراك ، وجدان ، فنزوع

ومنى يتدخل الشرع ؟ الشرع يتدخل في عملية النزوع دائماً يقول لك : أنت نظرت الوردة ولم تعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبك فلم يقل لك شيئاً ، لكن ساعة جئت لتعذب بك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن فانت حر في أن تدرك ، وحر في أن تعجب في نفسك ، إنما ساعة تنزع نقول لك : لا ، هي ليست لك ، وإن أعجبك فازرع لك وردة في البيت ، أو استأذن صاحبها مثلاً .

إذن فالشرع يتدخل في منطقة النزوع ، إلا في أمر المرأة فالشرع يتدخل من أول الإدراك ؛ لأن الذي علمنا علم أننا إن أدركنا حياءً ، نظرنا له ، وستولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التي نراها وشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، لا يمكن أن يفصل هذا عن النزوع ؛ لأنك - كرجل - مركب تركيباً كيميائياً بحيث إذا أدركت شيئاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ، فالاشتهاء لا يبدأ إلا بنزوع ، فبين لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة وكل شيء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

ماذا ؟ لأنك إن أدركت فتستجد ، وإن وجدت فتستحاول أن تسرع وتزحف ويكون عريضة في أعراض الناس ، وإن لم تنزع لم يبق عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال .

﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُونَ مِنْ آبْصَرِهِمْ وَيَحْمَلُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

غَيْبِرٌ يَبْعَثُونَهُ ﴿٢٠﴾ وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ ﴿٢١﴾

(الآية ٢٠ وجزء من الآية ٢١ سورة النور)

فاسمعوا المسألة من أول مراحلها ماذا ؟ لأنني عندما أرى وردة ، ثم قالوا لي : هي ليست لك فلا تقطفها ، فلا يحدث عندي ارتباك في ماضي ، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل في وجدانه فيحدث عنده النزوع ؛ لأن له أجهزة مخصوصة تتفعل لهذا الجمل ، ولذلك يوضح لك الحق : أنا خالقك وسأدخل في المسألة من أول الأمر ، فقله : « بما حفظ الله ، أي بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ : ألا أعرض نفسي إلى إحراك ، فيشأ عنه وجدان ، وبعد ذلك أفكر في النزوع ، فإن نزعته أقسدت ، وإن لم تنزع تعذبت ، فيأتي شر من ذلك ، هذا معنى : « بما حفظ الله » ، بمعنى انظروا إلى المنهج الذي وضعه الله لأن تحفظ المرأة عيبة زوجها ، وهي تحفظه ليس بمنهج من عندما . بل بالمنهج الذي وضعه خالقها وخالفه

وهو هذا الحق سبحانه وتعالى حينما يبرر في عبده حاسة اليقظة قال : « واللاتي تخافون نشوزهن » فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث ، فاليقظة تفتضي الترقب من أول الأمر ، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز ، و« النشوز » من « نشر » أي الارتفاع في المكان ومنه « النشز » وهو المكان المرتفع ، وصادم الحق قد قال : « الرجلان قوامون على النساء » فالمعنى هنا : من تريد أن تتعالى ونوصع في مكانة عالية ؟ ولذلك فالشاز حتى في النغم هو : صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون : هذه النعمة بشاز ، أي خرجت عن قاعدة اسعنة التي سبقته . وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة ، فإن شعرت أن في باها أن تتعالى فليكن أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر بيوادر النشوز قسمته ، ومعنى قوله . « واللاتي تخافون » يعني أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد .

وكيف يكون العلاج ؟ يقول الحق : « فمظومهن » أي ساعة تراها تنوى هذا فمظها ، والرعظ : النصيح بالركة والرفق ، قابوا في النصيح بالركة . أن تتهز فرصة

انسجام المرأة معك ، وتنصحها في الظروف المناسب لكي يكون الوعظ والإرشاد مقبولا فلا تات لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك .

ولنفترض أن ابناً طلب من والده طلباً ، ولم يحضره الأب ، ثم جاءت الأم لتشكر للأب سلوك الابن ، فيحاول الأب إحضار الطلب الذي تمناه الابن ، ويقول له :

« تعال هنا يا بني ، إن الله قد وفقني أن أحضر لك ما طلبت .

وفي لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى ، يقول له الأب : لو تذكرت ما قالته لي أملك من سلوكك الرقى لما أحضرته لك

ولو سب الأب ابنه في هذه اللحظة فإن الابن يضحك .

لماذا ؟ لأن لأب أعطى الابن الدرس والعظة في وقت ارتباط قلبه وعاطفته به . ولكن نحن نعمل غير ذلك . فالثاوي يأتي للولد في الرقة الذي يكون هناك نفور بينهما ، ويحاول أن يعظه ، لذلك لا تنفع الموعظة ، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا ، وأن نتهمز فرصة التصاق عواطف من نرغب في وعظه فأنق ونعطي العظة .

هكذا « فعقولهم » هذه معانها : يرفق ويلطف ، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة ، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام ، فإن لم تتمتع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الرهبة ، والشوز فانتبه . والمرأة عادة قبل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها . وقد نصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها ، لأن تكوين الرجل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لا يفكر أن يصبر ، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة ، فلنت ساعة نرى هذه الحكاية ، وهي نعرفك أنك رجس تحب نتائج العواطف والاسترسال ، فأعط لها درساً في هذه الناحية ، اهجرها في المضجع .

وانظر إلى الدقة ، لا تهجرها في البيت ، لا تهجرها في الحجرة ، بل تدم في جانب وهي في جانب آخر ، حتى لا تضجع ما بينكما من غضب ، اهجرها في المضجع ، لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام في حجرة مظلة لو تركت البيت وهربت ، فانت تثير فيها غريزة العناد ، لكن عندما تهجرها في المضجع فذلك أمر يكون بينك وبينها فقط ، وسيأتيها ظرف عاطفي فتغاضى ، وسيأتيك أنت أيضاً ظرف عاطفي فتغاضى ، وقد يمتنى كل منكما أن يصالح الآخر .

إذن فقله : « واهجروهن في المضاجع » كأنك تقول لها : إن كنت ستدلين بهله فانا أقدر على نفسي . ويتساءل بعضهم : وماذا يعنى بأن يهجرها في المضجع ؟ . نقول : لماذا المضجع واحداً فليعطها ظهره وبشرط ألا يمضج للسائلة ، بل ينام على السرير وتخلق الحجرة عليها ولا يعرف أحد شيئاً ، لأن أى خلاف بين الرجل والمرأة إن ظل بينهما فهو ينتهى إلى أقرب وقت ، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلهب قليلاً ، يرجع ويتلمسها ، وهي أيضاً تتلمسه . والذي يفسد البيوت أن عناصر من الخارج تتدخل ، وهذه العناصر تورث في المرأة عداً إلى الرجل عداً ، لذلك لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبينه المرأة عند الأم والآب والأخ ، ولنجعل الخلاف دائماً محصوراً بين الرجل والمرأة فقط . لهذا أمر بينهما سيلجئها إلى أن يتساعها معاً .

« فمظروهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن » وقالوا : إن الضرب بشرط ألا يسيل دماً ولا يكسر عظماً . . أى يكون ضرباً خفيفاً يدل على عدم الرضا ، ولذلك فبعض العلماء قالوا : يضربها بالسواك .

وعلمنا ربنا هذا الأمر في قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة ، قال له ربنا :

﴿ وَخُذْ بِسَبِّكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ يَدَهُ وَلَا تَحْمَتْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة ص)

والضعت هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة حود ، ويضربها ضربة واحدة فكانه يضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشواً بحنان الضارب

فهي تطيع من نفسها ، وعلى كل حال فلا يباكم أن تفهموا أن الذي خلقنا يشرع حكماً
تأبى له انعطاف ، إنما بأباه كبرياء المواطن ، والذي شرع وقال هذا لابد أن يكون
هكذا .

« واللاتي يخافون نشوزهن فمظومن واهجروهن في المضاجع واضربوهن » أي
ضرباً غير مبرح ، ومعنى : غير مبرح أي ألا يسيل دماً لو يكسر عظماً وينابيع
الحق : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » .

فالمسألة ليست استدلالاً : بل إصلاحاً وتقويماً ، وأنت لك الظاهر من أمرها ،
إليك أن تقول : إنها تطيعني لكن قلبها ليس معي ، وتدخل في دوامة الغيب ، تقول
لك : ليس لك شأن لأن المحكوم عليه في كل التصرفات هو ظاهر الأحداث . أما
باطن الأحداث فليس لك به شأن مادام الحق قال : « أطعنكم » ، فظاهر الحدث
إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه ، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن
أطاعتك ، كنت قوياً عليها فيجب أن تنبه إلى أن الذي أحلها لك بكلمة هو أقوى
عليك منك عليها وهذا تهديد من الله

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح : هذه صنعتي ، وأنا الذي جعلتك تأخذها
بكلمتي « زوجتي .. زوجتك » .. وما كنت قد ملكتها بكلمة مني فلا تتعال عليها ،
لأنني كما حيت حقك أحس حقها . فلا أحد منكأ أولي من الآخر ، لأنكما صنعتي
وأنا أريد أن تستقر الأمور ، وبعد هذا الخطاب للأرواح بأن خطب جديد في قول
الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْشِرُوا بَحَكْمٍ
مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِمَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا
يُوفِّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

وقوله . « وإن خفتن شقاق بينهما » يعنى أن الشقاق لم يقع بعد ، إنما تخافون أن يقع الشقاق ، وما هو « الشقاق » ؟ الشقاق مادته من الشق ، وشق : أى أبعد شيئاً عن شيء ، شقت اللوح : أى أبعدت نصفه عن بعضها ، إذن فكلمة « شقاق » بينهما ، تدل على أنها التحم بالزواج وصاروا شيئاً واحداً ، فأى شيء يبعد بين الاثنين يكون « شقاقاً » ، إذ بالزواج والمعاشرة يكون الرجل قد التحم بزوجه هذا ما قاله الله :

﴿ وَقَدْ أَقْصَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخْلَدَ مِنْكُمْ نِشَاقًا عَلِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النساء)

ويتأكد هذا المعنى فى آية أخرى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

وهذا يعنى أن المرأة مظلوفة فى الرجل والرجل مظلوف فيها . فالرجل ساتر عليها وهى ساترة عليه ، وإذا تعداها الأمر ، يقول الحق : « وإن خفتن شقاق بينهما » من الذين يخافون ؟ .. أهو لى الأمر أم القرابة القريبة من أولياء أمورهما وأموره ؟ أى الناس الذين يحتم هذه المسألة .

« وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » إنهم البيعة والمجلى المائلى ، إذن فلا تدع المسائل إلى أن يحدث الشقاق ، كان الإسلام والقرآن يبهنا إلى أن كل أناس فى محيط الأسرة يجب أن يكونوا يقطبين إلى الحالات النفسية التى تعترض هذه الأسرة ، سواء أكان أباً أم أمناً أم قريباً عليه أن يكون متنبهاً لأحوال الأسرة ولا يترك الأمور حتى يحدث الشقاق بدليل أنه قال : « وإن خفتن شقاق بينهما » . فالشقاق لم يحدث ، ويجب ألا تترك المسألة إلى أن يحدث الشقاق ، « وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا » وهذا القول هو لوى الأمر العام أيضاً إذا كانت عيونه يقطعة إلى أنه يشرف على علاقات كل البيوت ، ولكن هذا أمر غير وارد فى سوء مسئوليات لى الأمر فى العصر الحديث . إذن فلا بد أن الذى سيتيسر به تطبيق هذا الأمر هم البارزون من الأهل هنا وهناك ، وعلى كل من لهم وجهة فى الأسرة أن يلاحظوا الخط البيانى للأسرة ، يقولون . نرى كذا وكذا .

ونأخذ حكماً من هنا وحكماً من هناك وننظر المسألة التى سنؤدى إلى عاصفة قبل أن

نحدث العاصفة ، فالصلحة انتقلت من الزوجين إلى واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة ، فهؤلاء ليس بينهما مسألة ظاهرة بأدلتها ، ولم تبلور المشكلة بعد ، وليس لى صدر أى منها حُكْمٌ مسبق ، ويجوز أن يكون بين الزوجين أشياء ، إنما الحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة ليس فى صدر أى منها شيء ، وما دام الاثنان متوكل إليهما مهمة الحكم . فلا بد أن يتصفا على ما يحدث بحيث إذا رأى الإنسان أنه لا صلاح إلا بأن تطلق ، فهما يحكيان بالعلاق ، والناس قد تفهم أن الحكم هم أناس يصلحون بين الزوجين فإن لم يعجبهم الحكم بقى الزوجان على الشقاق ، لا . فمن نختار حكماً من هما وحكماً من هناك .

إن ما يقوله الحكماء لا بد أن ننفذه ، فقد حصرت هذه المسألة فى الحكمين فقال : « إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » . . فكان المهمة الأساسية هى الإصلاح وحل الحكمين أن يدخلوا بنية الإصلاح ، فإن لم يوفق الله بينهما فكان الحكمين قد دخلوا بالأصلاح .

إن على كل حكم أن يخاف على نفسه ويحاول أن يخلص فى سبيل الوصول إلى الإصلاح ، لأنه إن لم يخلص فستنتقل المسألة إلى فضيحة له . فالذى خلق الجميع : الزوج والزوجة والحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة قال : « إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » فليذهب الاثنان تحت هذه القضية ، ويصرّا بإخلاص على التوفيق بينهما ، لأن الله حين يطلق قضية كوبة ، فكل واحد يسوس نفسه وحركته فى دائرة هذه القضية . وحين يطلق الله قضية عامة فهو العليم الخبير ، ومثال ذلك قوله :

﴿ وَإِنْ جُندَاكُمْ آلَيْتُمُ الْقَلِيلَ ﴾ (١٣٧)

(سورة المائدة)

إنه سبحانه قال ذلك ، فليحرص كل جندى على أن يكون جندياً لله ، لأنه إن انهزم فسنقول له : أنت لم تكن جندياً لله ، فاحلف من هذه . إذن فوضع القضية الكثرية فى إطار عقلى كي يجند الإنسان كل ملكاته فى إنجاح المهمة ، وعندما يقوى الله : « إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » ، فليأكد أن تغتر بحزم الحكمين ، وبذلك الحكمين ، فهذه أسباب . ونؤكد دائماً : إليك أن تغتر بالأسباب ، لأن كل شيء من

المسبب الآخر ، ولنلاحظ دقة القول الحكيم : « يوفى الله بينهما » فسيحانه لم يقل : إن يريدنا إصلاحاً يوفىنا بينهما . بل احتفظ بسيحانه لنفسه بفضل التوفيق بين الزوجين .

ويطيل سبحانه الآية : « إن الله كان عليماً حبيراً » أى بأحوال الزوج ، وبأحوال الزوجة ، وبأحوال الحكم من أهله ، وبأحوال الحكم من أهلها ، فهم محطون بعلمه . وعلى كل واحد أن يحرص على تصرفه ، لأنه مسئول عن كل حركة من الحركات التى تكتنف هذه القضية ، فربما عليهم وحبير .

وما الفرق بين « عليهم » و« خير » ؟ . . . فالعلم قد تأخذه من علم غيرك إنما الخبرة فهى لذاتك .

وبعد أن تكلم الحق على ما سبق من الأحكام فى الزواج وفى المحرمات ، واخذنا من مقابلها المحلات ، وتكلم ضمن لا يستطيع طولاً وتكلم عن المال . . . وحذرننا أن نأكله بالباطل ، وتكلم عن الحلال بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك لفتنا الحق ورجعنا ونبينا إلى النهج الأعلى وهو قوله سبحانه :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾

وعندما يقول لنا الحق : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، أي : إياكم أن تدخلوا في قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله في منهجه . . والعبادة هي : طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التي نفعلها فقط من : الصلاة والصوم والزكاة والحج ، لأن هذه أركان الإسلام ، ومادامت هذه هي الأركان والأسس التي بنى عليها الإسلام ، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هي الأسس التي بنى عليها الإسلام ، والأسس التي بنى عليها البيت ليست هي كل البيت ؛ لذلك فالإسلام ببناء متعدد . فالدين يحملون أن يأخذوا من المصطلح التصنيهي ، أو للمصطلح المعنى في العلوم ويقولون : إن العبادات هي : الصلاة وما يتعلق بها . . والزكاة والصوم والحج ؛ لأنها تسمى في كتب الفقه « العبادات » فلقد قلت : إن هذا هو الاسم الاصطلاحي ، لكن كل أمر من الله هو عبادة

ولذلك فبعض الناس يقول : عباد الله ولا تعمل . نقول لهم العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبادة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هي إعلان استدامة الولاء لله . وتعطي شحنة لاستقبال أحداث الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقي للعبادة أنها تشمل هجرة الأرض ، فالحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِئَ الصَّلَاةُ فَاسْتَوْثِقُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾
(من الآية ٩ سورة الجمعة)

كانه أخرجهم من البيع إلى الصلاة ، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء به البيع ؛ لأنه العملية التي يأخذ ربحها مباشرة ؛ لأنك عندما تزرع زرعاً تنتظر مدة تطول أو تقصر لتخرج الثمار ، لكن البيع تأخذ ثمرته مباشرة ، تباع فتأخذ الربح في الحال . والبيع - كما نعلم - ينظم كل حركات الحياة ، لأن معنى البيع : أنه وسيط بين منتج ومستهلك ، فعندما تباع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مستهلكاً . فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها في البيع وفي الشراء ، ومادام هناك بيع فيه شراء . فهذا استمرار لحركة الحياة . والبائع دائماً يجب أن يبيع ، لكن المشتري قد لا يجب أن يشتري ؛ لأن المشتري

سيدفع مالا والبائع يكسب مالا ، فيوضح الله : أنتركوا هذه العملية التي بأن ربحها مباشرة ، ولتبدأ النداء للصلاة الجمعة . لكن لماذا بعد الصلاة ؟ يقول الحق :

﴿ إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تُفْسِحُونَ ﴿١﴾

(سورة الجمعة)

إذن فهذا أمر أيضاً . فإن أطلعنا الأمر الأول : « فاسمعوا إلى ذكر الله » فالأمر في « فانتشروا في الأرض » يستوجب الطاعة كذلك . إذن فكل هذه عبادة ، وتكون حركة الحياة كلها عبادة : إن كانت صلاة فهي عبادة ، والصوم عبادة ، وبعد ذلك.. إلا محتاج للصلاة لقوام حياة ؟ لا بد أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تحصل . وما هي مقومات حياتك ؟ إنها طعام وشراب ومسكن وتلبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . إذن صجاع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة ، ولذلك فالخلق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٢﴾

(من الآية ٢١ سورة هود)

إذن فكل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستتباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله ، لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان

وليك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصيفية التي في الفقه وقسم العبادات ، وقسم المعاملات .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر بها العبادة مباشرة : لأنك تعمل لنفسك ، أما في الصلاة فأنت تقطع من وقتك ، فسميها العبادة الصحيحة : لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بالله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات ؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين . إنما الأفعال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فقير المتدين يفعلها ولكن كل أمر له طبعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي

خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، في المادة المخلوقة وهي الأرض وعناصرها لنرلى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه .

« واحبذوا الله ولا تشركوا به شيئا » . بعدما قال كل هذا الكلام السابق ، لقننا ربنا إلى قضية يجب أن نلاحظها دائما في كل تصرفاتنا هي أن نأتمر بأمر الله في منهجه ، والا نشرك به شيئا ، لأن الشرك يضر قضية الإنسان في الوجود ، فإن كنت في عمل إليك أن تجعل الأسباب في ذهنك أمام المسبب الأعلى . بل أقصد في كل عمل وجه الله .

ويضرب الحق المثل لواحدة الموحدة ولتعب المشرك فقال :

﴿ حَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهذا عبد مملوك لجماعة ، والجماعة مختلفة ومتشاكسة ، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التي تتضارب ، فإن أرضى هذا ، أفضب ذاك . إذن فهو عبد مبدد الطاقة موزع الجهد ، مقسم الالتفاتات ، ولكن العبد المملوك لواحد ، لا يتلقى أمراً إلا من سيد واحد وبها من السيد نفسه . والحق يشرع القضية لعباده بصيغة الاستعظام ، وهو العليم بكل شيء له جعل المؤمن به بشاركه في الجواب حتى إذا ما قال الحق : « هل يستويان » ؟ هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب ، فإذا يقول ؟ سيجيب بطبيعة العطرة وطبيعة متطق الحق قائلًا : لا يلزم لا يستويان .

إذن فانت أيها العبد المؤمن قد قلنا ، ولم يفرغها الله عليك . وقد طرحها الحق سبحانه سؤالاً منه إليك ، حتى يكون جوابك الذي لن نجد جواباً سواه . فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتفعت في الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد وبشي واحد ، هنا تصبح سيداً في الكون ، فلا تمهد في الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكون . وتلك هي راحتنا في تنفيذ قول الله : « واحبذوا الله ولا تشركوا به شيئا »

لأن الإشراف بالله - والعبادة بالله - برهق صاحبه . وبالنسبة للمشركين حين يشركون
بأعصون عون الله ، ولا يأخذون عون الشركاء . لكن الله يتخلل عن العبد المشرك ،
لأنه سبحانه يقول .

(أنا أعني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى تركته
وشركي)^(١) .

الحق إذن يتحلى عن العبد المشرك . وبنت العبد المشرك يأخذ محظه من الله
كشريك . . وإنما ينعم من حظ الله ، لأن الله غنى أن يشرك معه أحداً آخر
وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيمان ، وبخيار في كد وتمب . ويرد الحق سبحانه
وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين فيأتى قوله - جل شأنه - : « وبالوالدين إحساناً »
والوالدان هما الأب والأم ، لأنها السبب المباشر في وجودك أيها المؤمن . وما دامت
عبادتك لله هي فرع وجودك ، إذن فإيمانك من آية وأم كسيتين يجب أن يلفتك إلى
السبب الأول : إن ذلك يلفتك إلى من أوجد السلسلة إلى أن تصل إلى الإنسان
الأول وهو آدم عليه السلام .

« وبالوالدين إحساناً » . . انظر إلى المنزلة التي أعطها الله للوالدين ، وهما الأب
والأم . والمخاطب لك أيها المسلم لتعبد الله ، والتكليف لك وأنت فرع الوجود : لأن
المخاطب المكلف ، والتكليف فرع الوجود ، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك .
إذا صعدت السبب فالوالدان من أين جاءا ؟ . . من والدين ، وهكذا حتى تصل
إلى الله ، إذن فانتصت للسلسلة إلى الواحد : لأن التكليف من المكلف إلى المكلف فرع
الوجود . والوجود له سبب ظاهري هما : والوالدان ، وعندما تسلسلها تصل إلى الله
- سبحانه - أمر . اعبدي ولا تشركي بشيئا ، ويوجد ذلك . « وبالوالدين
إحساناً » . . كلمة « الإحسان » تدل على المبالغة في العطاء الزائد . . الذي نسميه
مقام الإحسان

« وبالوالدين إحساناً » الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته لأنه إله
واحد ولا تشرك به شيئاً ، ثم بذكر أو يتعرض لإيمانها أو كفرهما ، لأن هناك آية أخرى

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة،

يقول فيها :

﴿ وَإِنْ جَنَّهُكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة النبا)

صحيح لا تطعمها ولكن احترمها ؛ لأنها السبب المباشر في الوجود وإن كان هذا السبب محالاً لمن أنشأه وأوحده وهو الله - جنت فطرته - ، (وصاحبيها في الدنيا معروفان) والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه ، إياك أن يكون قلبك متعلقاً بهما إن كان مشركين ، لكن صاحبيها في الدنيا معروفان ؛ ولذلك قال : « وصاحبيها في الدنيا ، أي انظر مصلحتيها في أمور الدنيا معروف منك . والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب .

والحق يقول : « وبإلوالدين إحساناً » . ويكررها في آيات متعددة . فقد سبق في سورة البقرة أن قال لنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا سَعُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٨٣ سورة البقرة)

وبعد ذلك تأتي هذه الآية التي نحن بصددنا . « واعبوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبإلوالدين إحساناً » .

وبعد ذلك يأتي أيضاً قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ آبَائِهِ كَرِهَ اللَّهُ مُشْرَكَةً ذُرِّيَّتِهِ كَرِهَ اللَّهُ مُشْرَكَةً ذُرِّيَّتِهِ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَرَبُّكَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

﴿ تَلْتَمِذُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأسطاف)

ويأتي أيضاً في سورة المكوث فيقول
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾

(من الآية ٨ سورة المكوث)

لكن إن جاهدك هل أن تشرك في ما ليس لك به عزم فلا تطعمها ، فإن كان
الوالدان مشركين فلا بد أن نعطف عليهما معروفا . . والمعروف كما أوضحنا يكون
لمن تحب ومن لا تحب ، ولكن الممنوع هو : الرذالة انقلية ، ولذلك قال :
﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التي نحن بصددنا وبين آية سورة
المجادلة . وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين ، وهناك
آيات جاء الأمر فيها بالتوصية بالوالدين استقلالا

ودلك في قوله تعالى :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحزاب)

وفي قوله سبحانه :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾

(الآية ٨ سورة التكاثر)

فيه «إحسان» ، وفيه «حسن» ، «الإحسان» هو أن تعمل فوق ما كلفك
الله مستشعراً أنه يراك ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وه «الحسن» من «أحسن» ،
فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه . وعندما يريد الإنسان على
ما كلفه الله أن يصل الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة ، ويصوم شهر رمضان ، ثم
يصوم يومى الاثنين والخميس أو كذا من الشهور ، ويذكر حسب ما قرر الشرع
بائتين ونصف في المائة وقد يريد الزكاة إلى عشرة في المائة ، ويحج ثم يزيد الحج
مرتين . إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله ، فيكون قد أدخلك الله في مقام
الإحسان ، لأنك حين جريت أداء الفرائض ذقت حلاوتها . وعلمت بما أقامه الله
عليك من معين التقوى ومن وصيد قوله :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

علمت أن الله يستحق منك أكثر مما تكلف به ؛ ولذلك فيحضر الصالحين في أحد سبحاته قال : « اللهم إلى أخشى ألا تثيق علي الطاعة لأنني أصبحت أستهيها .. » أي صارت شهوة نفس ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول : يا رب لأنني أصبحت أحبها ، ومفروض منا أننا نلجج شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة فماذا العمل ؟

إذن فهذا الرجل قد دخل في مقام الإحسان وأطمانت نفسه ورضيت وأصبح هوذا تبعها لما أمر به الله ورضيه .

ولذلك يجب أن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقون قال

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ ﴿١٦﴾ إِذْ يُخْرِجُ مَاءً ثَمَرِهِمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ۝ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾

(سورة النازعات)

لماذا هم عسكرون يا رب ؟ ..

يقول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾

(سورة المائدة)

وجل كلفني الله . ألا أجمع إلا قليلاً من الليل ؟ إن الإنسان يهمل العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر ، هذا هو التكليف ، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان في القلب واجوارح ، ويأنس العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يؤد مثل هذا العبد بل إنه يستقبله ويدخله في مقام الإحسان .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ۝ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ ﴿١٧﴾ ۝

وَبِالْأَتْعَافِ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾

(حرره من الآية ١٦ ، والابتان ١٧ ، ١٨ سورة الذاريات)

وربنا لم يكلفهم بذلك ، إنما كلفهم فقط بحمسة عروض . ويعرف قصة الأعرابي الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم . هل علي غيرها ؟ قال له : لا ، إلا أن تطوع . وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة ، فقال : هل علي غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع ، قال : فادبر الرجل وهو يقول . والله لا أريد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (أفلح إن صدق)^(١) .

وبذلك دخل هذا الأعرابي في نطاق المفسحين . إذن فالذي يزيد على هذا يدخله الله في نطاق المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ مَنِيعُونَ ﴿١٩﴾ وَبِالْأَتْعَافِ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الداريات)

ولنلاحظ دقة الأداء ، إن الحق لم يذكر أن للمحرومين في أموال المحسنين حقاً مضموناً . لماذا ؟ لأن الحق سبحانه ترك للمحسن الحرية في أن يزيد على سببة الزكاة التي يمنحها للسائل والمحروم ، وحينما يتكلم سبحانه عن مطلوب الإيمان يقول :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّقْلُومٌ ﴿٢٢﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المادج)

إذن فالذي يزيد على ذلك يتنزل من مقام الإيمان ليدخل في مقام الإحسان . كأنه يقول لك في الآية التي نحن بصددنا ، إياك أن تعمل مع والدك القدر المفروض فقط ، بل ادخل في برهم والإنعام عليهما والتلطف بهما وبرحمة هما وذلك الانكسار فوق ما يطلب منك ، ادخل في مقام الإحسان ، ثم يأت في آية أخرى ليرشدنا بعد أن لدخلنا في مقام الإحسان ، إنه يصف ذلك الإحسان بشيء آخر وهو « الحسن » .

﴿وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَحْنُ مُّشْرِقُونَ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

وما هو المقابل «للحسن» ؟ إنه «الفضح» ، إذن فالخلق أدخلنا في مقام الجمال مرة ، وفي مقام الإحسان مرة أخرى . وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم ، أولاً : نجد أن المفروض في الشائع الغالب أن الوالدين يربيان أبنائهما ، ومن النادر أن يصبح الولد يتيماً ويربيه غير والديه ، فقال : الملحظ سبب التربية بعد الوجود ، بسبب الوجود : يوجب عليك أن تعطيها حقوقها وتوفى حقوقها وتدخل في مقام الإحسان ، ولكنه جاء في آية وعمل ذلك فقال :

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾

(من الآية ٧٤ سورة الإسراء)

لقد جاء الحق بالتربية حيثية في الدعاء لها وفي البر التوضعية بها ، لكن لو أن
إنساناً أخذ فبك منزلة التربية ولم يأخذ فبك سببية الإيجاد ، أله حق عليك أن يكون
كرم الديك ؟

إن الحق يقول : « كما ربياني » ، فإذا كان والدي هما هذا الحق ، فكل ذلك من قلم يربي من غير الوالدين له هذا الحق أيضا ! مادام جاء الحق بالوالدين في علة الإحسان : « قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .. فمرة نلاحظ أنه لا يحى بمسأله التربية كي نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود ، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين ، ومضى آخر : وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحسانا ، جاء في أخريات بما يتعلق بالأم ولم يأت بما يتعلق بالآب :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِضْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ وَكَانَ قَوْلُهُ لَوِ اتَّبَعَ الْإِنْسَانُ أُحْسَنُ مَا أَفْتَرَا ۚ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ أَفْتَرَاءٌ ۖ يَكْفُرُونَ ۚ ﴾

قَالُوا قَهْرًا ﴿١٠٠﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا جاء الحق بالحديث للأم وترك الأب بدون حيشة ، وهذا كلام رب ؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وجد وقت أن صار جنيئاً . فهي قد حافظت على نفسها وصارت بحساب وحرص فاشغلت به وهو مارال جنيئاً . وحاولت أن تومر كل المطالب قبلها يتكون له عقل وفكر . بينما ولده قد يكون بعيداً لا يفرقه إلا عندما يكبر ويصير غلاماً ليربيه لكفاح الحياة ، أما في فترة الحمل واهتمام فكل الخدمات تؤديها الأم ولم يكن

للطفل عقل حتى يدرك هذا ، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره ، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم : أبوك يحقق لك ، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها ، ونسى الطفل حكاية أمه وحملها له في بطنها وأنها أرضعت وسهرت عليه ؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك ، فمن الذي - إذن - يحتاج إلى الحيشة ؟ إنها الأم ، أما حيشة إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ ولد وبجبهه لأنه رأى كل حاجته معه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴿

(من الآية ٦٥ سورة الاحقاف)

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه ، وعندما يتببه يجد أن والده هو الذي يأتي بكل حاجة ، ولماذا أبوه هو الذي في الصورة ، فتكون الحيشة عنه موجودة ، ولأن حيشتها مغفولة ومستورة ، فكان لابد من أن يذكرنا الله بالحيشة المتروكة عند الإنسان مكتئباً بالحيشة للأب الموجودة والواضحة عند الابن ، ولذلك تعبد النبي صلى الله عليه وسلم حينما يوصي قال : أمك ثم أمك ثم أمك ، وبعد ذلك قال : ثم أبوك . كما جاء في الحديث : من أبي هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » (١)

ولر حشيتها نجلها واحصه ، وأيضاً فالأبوة رجولة ، والرجولة كفاح وسعى . والأمومة حنان وستر ، فهي تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس بقضاء مصالحها ، أبوك إن خرج ليعمل فعمله شرف له . إنما خروج الأم للسعى للرزق فامر صعب حل النفس ، فالحنس سببها وتعالى يقول . « وبالوالدين إحسانا » . أو وبوالديه إحسانا . إنها . . مقرونة في ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به ، ثم أفردتها بالإحسان في آيتين ، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال :

﴿ وَإِنْ حَسَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة النحل)

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه ، ولاحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهم على الشرك والكفر كما طلبها فما في قوله :

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لأنهما وإن ربياً جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه ، فلا يستحقان أن يفوز : ارحمهما ، لأن الحق أراد أن يسمع الولد والديه في الدنيا وإن كانا على الكفر .

ولحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان في الكون كله ، ينتهي بالأقرب فالقريب فالأخار ، فقال : « وبالوالدين إحسانا وبذي القربى » . إذن ففيه دوائر ولو أن كل واحد أحسن إلى أبيه فلن نجد واحداً في شيفوخته مهيناً ابداً ، لذلك يوسع سبحانه دوائر المحبة الإيمانية فجاء بالوالدين ثم قال بعدها : « وبذي القربى » أي صاحب القربى ، وما القربى ؟ إن كل من له علاقة نسبية بالإنسان يكون قريباً . هذه هي الدائرة الثانية ، ولو أن كل إنسان موسعاً عليه ونادراً أخذ دائرة الوالدين ثم أخذ دائرة القربى فستدخل ألوان البر من أقرباء متعددين على القريب الواحد ، وما دامت الدوائر ستدخل ، فالواحد القريب سيجد له كثيرين يقومون على شأنه فلا يكون أحد محتاجاً .

وبعد ذلك يتكلم سبحانه عن اليتيم ، واليتيم - كما نعلم - هو : من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ، إنه يحتاج إلى حنان أولى . لكن بعد أن يبلغ مبلغ الرجال فهو لا يعتبر يتيماً ، فقد أصبح له ذاتية مستقلة ؛ ولذلك يتخلل عنه الوصف باليتيم ، والذي تموت أمه لا نسميه « يتيماً » ، لكن اليتيم في الحيوانات ليس من فقد أباه بل من فقد أمه ، وإن كانت طفولة الحيوانات تنتهي بسرعة ، لأن والدة الحيوان هي التي ترعاه في طفولته القصيرة نسبياً . إذن فيتم الحيوان من جهة الأم ، والإنسان يتمه هو فقد الأب ؛ لأن الإنسان أطول الحيوانات طفولة لأنه مُرَبَّى لمهمة أسمى من الحيوانية ، وعرفنا من قبل أنك عندما تأق لتزرع - مثلاً - فيجلاً . فبعد خمسة عشر يوماً تأكل منه ، لكنك حينما تزرع نخلة أو تزرع شجرة « مانجو » تحكث كذا سنة ،

حتى تشر... إذن فطول مدة الطفولة وعدم النسل للمثل يتوقف على المهمة الموكلة للشئ... فإن كانت مهمته كبيرة، تكن مدة طفولته أطول.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوسع دائرة الإحسان. فربما أن تقتصر على الوالدين فقط أو أصحاب القرى فقط. حذ في الدائرة أباء اليتيم، لأن ليتيم فقد أباه، ثم يرى كثيراً من زملائه وأقربائه لهم أباء، ولو لم يوص الحق سبحانه وتعالى بهذا اليتيم لنشأ هذا الولد وفي قلبه جذوة من الحقد على المجتمع، وقد يتمرد على الله، ويتساءل: لماذا لا يكون لي أب وكل واحد من أقراني له أب يأتيه بحاجته، لكن حين يرى أنه فقد أباً واحداً ثم وجد في الجور الإيمان أباء متعددين فهو لا يسخط على أن الله أملت أباه.

إن الذين يخافون أن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافاً، عليهم بالإحسان إلى اليتيم. فلو رأى الواحد من يتيماً يُكرم في بيته أيوه إيمانية لما شغل نفسه ولما حاف أن يموت ويترك ولداً صغيراً، بل يقول الإنسان لنفسه: إن المجتمع فيه خير كثير، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفسه راضية، ولا يوزق نفسه، وهذه مسألة تشغل قدامن منقول لكل إنسان قادر: إذا كنت في بيته إيمانية واليتيم يجد رعاية من أباء إيمانيين متعددين فينشأ اليتيم وليس فيه حقد، ولذلك يقول الحق:

﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا

قَوْلًا سَدِيدًا ۝٤﴾

(سورة النساء)

لأنك إن رأيت المجتمع الإيماني قد دعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرحم أيتامك، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به، لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيقاً، فهو يحرص على أسباب الحياة ويريد أن يأمن بالدنيا كلها لولده، ويقول لخلق هذا الأب: اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له في يد الله، لأن الذي خلقنا من المخلوق، ولذلك قلنا من قبل: إن سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص كانا يملسان - في أخريات حياتهما - يتكلمان معاً، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين: ماذا بقي لك من متاع الدنيا؟ قال معاوية: أما الطعام فقد سئمت

أطيه ، وأما اللباس فقد ملئت ألينه ، وحظي الآن في شربة ماء بارد في يوم صائف تحت ظل شجرة .

وهذه كلمة تعطى الإنسان طموحات إجابة في الكون ، فبعدما صار معلومة عليمة وأميراً للمؤمنين والكل مقبل عليه قال : حظي في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف ، وهذه توجد عند داس كثيرين . كان الطموح انتهى إلى ما يوجد عند كل أحد : شربة ماء بارد ، ثم قال معلومة لعمر : وأنت يا عمرو . ماذا بقي لك من متاع الدنيا ؟ قال عمرو بن العاص . بقي لي أرض خوار - يعني فيها حيوانات تخور مثل البقر - فيها عين حرارة . . أي تعطى ماء وثير لتروى الأرض ، وتكون لي في حياتي ولولدي بعد مماتي ، وكان هناك خادم يخدمهما اسمه « وردان » . أراد أمير المؤمنين أن يلاحظه فقال له : وأنت يا وردان ، ماذا بقي لك من متاع الدنيا ؟ انظروا إلى جراب العبد كي تعرفوا أن الإيمان ليس فيه سيد ومسود ، فقال له : حظي يا أمير المؤمنين : « صنعة معروف أضعه في أعناق قوم كرام لا يؤدونه إلي في حياتي » أي لا يرون هذا الجميل لي حتى تبقى لعقبى في عقبهم إذن فحظه صنعة معروف يضعه في أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليه في حياته حتى تكون لعقبه أي لمن سبترك من أولاده .

كأنه يفهمنا أنه لا شيء يصيب ، فكما تمد يلك بمد غبرك بدء لك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذه المنزلة فيقول : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بإصبعه متجاورين ، أي منزلة هذه ، والله بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منا عن ينيم يكفله لكي يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابي .

فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عروى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا فلان مالي أراك عروياً » فقال : يا نبي الله شيء فكرت فيه فقال : (ما هو ؟) قال : نحن بغزو عليك ونروح فنظر إلى وجهك ونجاسك وغدا نرفع مع البison فلا نصل إليك ، فسم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ونزل عليه جبريل بهذه الآية :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ٥٥ ﴾

(سورة النساء)

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيشره (١).

فالخلق يقول هؤلاء : لا تحزنوا ، فليدعكم محبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرحون في الدنيا لأنكم معه فلا تخشوا مسألة وجودكم معه بالخفة فسوف أبعثكم معه في الجنة ، فالمرء مع من أحب ، ولذلك أقول لكل مسلم : ابعث عن يتيم تكفله كي تأخذ المنزلة الإيمانية ، المنزلة العلية في الآخرة .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » (٢) .

فقل لي إذا عاملنا اليتيم في ضوء هذه التعاليم فهذا يحدث ؟ سيتشتر التكافل في المجتمع .

ويقول الحق بعد ذلك : « والمساكين » .. ويعرف أن لمساكين . كما قال الفقهاء عنهم وعن الفقراء إن كلهم في حاجة ، فهل المسكين هو من لا يملك حاجة ، أو الفقير هو الذي لا يملك حاجة أو يملك دون حاجته . كأن يكون إيرادته مثلاً عشرة بينما حاجته تحتاج إلى عشرين ؟ المهم أنه يكون محتاجاً . وكلمة « فقير » مأخوذة من فقر الظهر أي مصلب بما يقسم الوسط والظهر . وهو اسم معبر .

وهو مسكين ، أيضاً اسم معبر من المسكنة والسكن أي ليس له استعلاء في شيء .. مقلوب ومقهور .. فاللفظ نفسه جاء معبراً ، وهو الجار : كلمة « جار » تعني : عدل ، كقولنا : جار عن الطريق أي عدل عنه ، فكيف أسكن من في جاني « جاراً » ؟ لأن من في جانبك حدد مكاناً له من دنيا واسعة ، فيكون قد ترك الكثير

(١) من تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخاري .

وجاء للقليل ، وأصبح جارك ، أى أنه عدل من دنيا واسعة وجاء بجانبك ، فسموا
الجار لمن جار ، أى عدل من كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك .

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب ، وبالمسلمين ، وللجار حقوق كثيرة ؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في
الحديث : « الجيران ثلاثة : فجار له حق واحد ، وهو الحق الجيران حقاً . وجار له
حقان ، وجار له ثلاثة حقوق : فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له
حق الجوار ، وأما الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما
الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق
الرحم » (١) .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى حق الجار :

« مازال جبريل يوصى بالجوار حتى ظننت أنه سيورثه » (٢) .

أى سيجعل له من الميراث ، وماهى حدود الجار ؟ . حدوده الأقرب بابا
إليك ، إلى أربعين ذراعاً ، وقالوا : إلى أربعين داراً ، هنا يقول الحق . « والجار فى
القربى » . فأعطاه حق القربى وحق الجوار ، وقال : « والجار الجنب » لأن فيه
جاراً قريباً وجاراً بعيداً وقوله . « الجنب » أى البعيد ، « والمصاحب بالجنب »
« المصاحب » هو المرافق . « بالجنب » أى بجانبه . قالوا : هو الزوجة أو رفيق
السفر ؛ لأن الرفقاء فى السفر مع بعضهم دائماً ، أو التابع الذى يتبعك طمعاً فيما
عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علماً أو حرفة يريد أن يتعلمها منك ، فهو
الملازم لك ، والملازم أيضاً يكون « بالجنب » وكل هذا يوسع الدائرة للإحسان ، ولو
حسبت هذه الدوائر لوجدتها كلها متداخلة .

وما هو ذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول لأبى ثر رضي الله عن

(١) رواه الترمذى وأبو الشيخ فى الثواب ، وأبو نعيم فى الحلية عن جابر ، وهو حديث ضعيف .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

« يا أباذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك »^(١)

والمهم أن تتواصل مع جارك ، أو الجار ذى القربى : أى الذى قربته المعرفة ، وكثير من الجيران يكون بينهم ودٌ ، وهماك جبر لا تعرف حتى اسمه ، فهذا هو الجار الجنب ، وهماك صاحب بالجنب وابن السبيل ، وابن السبيل ، فقد تقول مثلاً : فلان بن فلان ، كأنك لا تعرف أباه ، أو تقول فلان ابن البلد الفلانية أى لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه منسوب لبلد معين ، وعندما تقول : ابن سبيل تعنى أنه غريب انقطعت به كل الأسباب حتى الأسباب التى يمكن أن تعرفه بها ، فساعة تراه تقول « ابن سبيل » أى ابن طريق ، ولا تُحدد مكاناً ينسب إليه إلا الطريق ، لا يجد أبا ينسب إليه ، لا يجد أمّاً ، لا يجد قبيلة ، لا تعرف عنه شيئاً .

« وما ملكت إيمانكم » - وسبق أن تكلمنا عن ملك اليمين وقتلنا : إن الإسلام إنما جاء لا ليشرع رقاً . ولكن جاء لينهى رقاً ، ويسد منابعه التى كانت موجودة قبل الإسلام ، ولا يبقى إلا منبع واحد . هذا المنبع الواحد هو الحرب المشروعة ، ولماذا لم يطلقهم ؟ لأن الحرب المشروعة عرصة أن يأخذ الخصوم من أبنائى وأنا آخذ من أبنائهم ، فلا أطلق أبنائهم إن جاءوا فى يدي حتى يطلقوا أبنائى الذين فى أيديهم ، ويصير الأمر إلى المعاملة بالمثل ، التى انتهت إليها العالم الحديث وهى قتل الأسمى .

وقد نهانا الإسلام فى ملك اليمين عن أن يقال : « عبنى » بل يقال : قتلى . ولا يقال : « أبنى » بل يقال : قتلى ، حتى التسمية أراد الشرع أن يهبطها ، كى لا تنصرف العبودية إلا لله .

الحق سبحانه وتعالى جاء بالإسلام والرق كان موجوداً ، وله منابع متعددة فوق العشرين ، وليس له إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، فجاء الإسلام ليصفى الرق ، وأول تصفية لشيء هو أن تسد منابعه . وبذلك أن يكون مجرد مصرف واحد ، وهى رغبة السيد ، جعل له الإسلام مصارف متعددة ، إذن نكون قد حددنا المنابع فى نوع واحد ، وحددنا المصارف . فالدين بينك وبين الله تكفره بأن تعتق رقبة ،

أو أحدثت ظهراً مثلاً نعتى ربة ، وهذه ربة من يريد أن يصفى الرق ، فإذا لم توجد عند أى مالك أسباب لتصفيه الرق وظل الرق أو الفتنة تحت يمينه ، فالإسلام يرشدك ويهديك : مادمت لم تؤثر أن تعتقه واستيقنت فأحسن معاملته ، أطعمه مما تطعم واللبسه مما تلبس ، ولا تكنه ما لا يطيق ، فإن كلفته عليك معه ، وهات لي واحدا يلبس من ملابس سيده ويأكل مثله وعندما يعمل عملاً فوق طاقته تجدد يد السيد بينه . . أليست هذه هي المعاملة الطيبة ؟ قال الله : « وما ملكت أيمانكم » .

وبعد ذلك يجيء الحق سبحانه وتعالى في حتام الآية بما يدلك كبرياء نبي الإحسان ، فإليك أن تكون النعمة أو البذل الذي سبذله يعطيك لي نفسك حرور الاستملاء ؛ لأن حرور الاستملاء هذا يكون استملاء كاذباً . وأنت إذا استمليت عن غيرك تباعراض الحياة ، فهذه الأعراض تتغير ، ومعنى « أعراض » أنها تأتي وتزول . قالذي يريد أن يستعمل ويستكبر فعليه أن يستعمل ويستكبر بحاجة ذاتية فيه ، ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله ، إنما الأغيار من البشر فنحن نرى من كان قوياً يصير إلى ضعف ، ومن كان غنياً يصير إلى فقر ، ومن كان عالماً يصبح كمن لا يعلم :

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عَلِيمٍ شَيْئًا ﴾

(من الآية « سورة الحج)

فلا كبرياء إذن لمخلوق ، ومن يريد أن يستعمل ويتكبر على غيره فليتكبر - كما قلنا - بحاجة ذاتية فيه ، أى بشيء لا يسلب منه ، والمخلوق كلهم في أحوال ، والوجود الإنساني تطراً عليه الأغيار ، إذن فاجعل الكبرياء لصاحبه ، وإليك أن تظن أنه عندما قلنا لك : اصبر كذا ، وأحسن لدى القرى واليتامى والمساكين ، إياك أن تحبط هذه الأحوال بأن تستعمل بها ؛ لأنها موهوبة لك من الله ، ومادامت موهوبة لك من الله فاستح ؛ لأن الذي يتكبر هو الذي لا يجد أملاً عيته من هو أكبر منه .

هات واحداً يتكبر لأن عنده مليوناً من الينابيع ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه ماذا يفعل ؟ إنه يستنحي ويتضعد ، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه ، لكنه لو ظل ناظراً إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده .

إذن فعلمنا يتكبر المتكبر ، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس في بآله . لكن لو كان الحق المتكبر بذاته في بآله لاستحي ، فإذا كان في بآلك من يعطيك لاستحييت .

إذن معنى المتكبر أن رب غائب عن بآله ؛ لذلك يقول الحق في ختام الآية : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ، وما الاختيال ؟ وما الفخر ؟ »

إن المائدة كلها تدل على زهو الحركة ، ولذلك نسمى الحصان « حيلة » ؛ لأنها تتحامل في حركتها ، وعندما يركبها أحد تتختر به ؛ ولذلك نسمى الخيلاء من هذه . إذن « لاختيال » . حركة مرئية ، « والفخر » حركة مسموعة ، فالحق ينهي الإنسان عن أن يمشي بعتبية ، كما جاء عن أن يسير مثلاً بجانبه ولا أن يحتر نفسه مصدراً للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه :

﴿ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا رَأَى أَنَّهُ يُدْبِرُ يَوْمَ الْفِتْنَةِ مَذَابَ الْحَرِيِّ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَسَمْتَ بِدَاك وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ ۝ ﴾
(سورة الحج)

أما الفخر فهو أن يتشدد الإنسان بالكلام فيحكي عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر ، والخيلاء والفخر ممنوعان ، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر ، وإذا جاء الحق بهذا ما ؟ إنه جاء به حتى لا يظن عبداً أنه يحسن إلى غيره من ذاته ، إنه يحسن عما رجه الله .

ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخطهم عبداً ؛ لأنك تحسن عليهم . وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم ، فلماذا لا تنظر إلى سيادة من أعطاك ؟ إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد التزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك ، يقول الحق .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فُخُورًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

وعندما قال الحق : « وبالوالدين إحساناً » قال : « ويلى القرى واليتامى » .

ونحدث عن البذل والأريحية والحمود والسماح وبسط اليد ، أرى سبحانه بالحديث عن
المقابل وهو :

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٣٧)

وما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء . فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها
لغيره يجد في ذلك مشقة ولا يقبل عليها ، لكن الكريم عنده بسط يد ، وأريحية .
ويرتاح للمعروف ، إذن فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز
الحد بضم الشخص بالشئ الذي لا يضر بملكه ولا ينفع منه ، لأنه لا يريد أن
يعطى . وهذا البخل والشح يكون في نفس البخيل ، لأنه أولاً قد يخل على نفسه ،
إذا كان قد يخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟

والشاعر يصور بخيلاً اسمه « عيسى » ويريد أن يلحقه ؛ لأنه بخيل جداً ، ويظهر
صورة البخيل بأنه ليس على الناس ضغط بل على نفسه أيضاً ، فيها لا يضر بملكه
ولا ينفعه منه . ومادام يفتر على نفسه فيكون فقيره على غيره أمراً متوقفاً :

يفتر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا عائد
فلو استطاع لتفتيره تنفس من متغير واحد

إنه بخيلٌ للدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ،
حتى لا يتنفس بفتحتي أنفه .

والشاعر الآخر يأتى بصورة أيضاً توضح كيف يمنع البخيل نفسه من الأريحية

والإنسانية فيقول :

لو أن بيتك يابن عم محمد إبر يضيق بها فضاء المنزل
واناك يوسف يستميرك إبرة ليخيط قد قيمه لم تفعل

فالشاعر يصور أن سيدنا يوسف لو جاء إلى هذا البخيل وقال له : أعطني إبرة لكي
أخيط قد القميص الذي مزقته رليخاء ، وهذا البخيل عنده بيت يمتلئ فناءً بالإبر ، لمن
البخيل ورفض .

إذن فالبخيل : هو من يضيق بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بإعطائه شيء لا يضر أن
يبدله ولا ينفعه أن يمنعه ، ويقول الحق عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ مِمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لِّمِمَّا يَكْسِبُونَ
سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْمِلُونَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَبْرِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٧٥ ﴾

(سورة آل عمران)

فالحن يحمل للبخيل ما يخن به طوقاً حول عنقه ، ولو أن البخيل قد بذل ثلثاً ،
لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة . لكن الخيل كلما منع نفسه من العطاء
ازداد الطوق ثقلاً .

ولقد قال الحق أيضاً عن الذين يكتزون الذهب والفضة

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّنُ بِهَا جَبَاهُهُمْ وَخُرُوجُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا
مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ١٧٦ ﴾

(جمعه من الآية ٣٤ والآية ٧٥ سورة التوبة)

لأن كان اكتنزههم لكميات كبيرة فما سيحرق على النار منها يكون كثيراً ، ويكفون

به . إذن فالإنسان لا بد أن يخفض عن نفسه الكبر ، والذين يبخلون لا يكتفون بهذه الحسيسة الخلقية في نفوسهم بل يحبون أيضاً أن تمتد إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ، ويؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً ، يقول لك البخل : لا تنفق ؛ لأنه يتألم حين يرى إنساناً جواداً ، ويريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ؛ كي لا يكون أحد أحسن منه .

إنه يعرف أن الكرم أحسن ، بلبل أنه يريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ، وابخل - ضن بما أوتيته من لم يؤت . وهل البخل يكون في المال فقط ؟ . لا بل يكون في كل موهبة أوتيته وتنقص عند غيرك ويفتقر إليها ، إن ضنت بها فأنت داخل في البخل .

إن الذي يبخل بقدرته على معونة المحرز من القدرة ، والذي يبخل بما عنده من علم من لا يعلم ، هذا بخل ، والذي يبخل على السعي حق بالحلم هذا بخل أيضاً ، فإن كانت عندك طاقة حلم فابدأها . إذن فالبخل معناه : أنك تمنع شيئاً وحببه الله لك من محتاجه ، معهم - مثلاً - عنده عشرة تلاميذ يتعلمون الصنعة ، ويحاول أن يستر عنهم أسرار الصنعة ؛ يكون قد بخل .

والذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، والآية معناها يتسع لكل أمر مادي أو قيمي ونحن نأخذها أيضاً في المعاني العالية ، فالذين أوتوا الكتاب كانوا يعرفون صفته صلى الله عليه وسلم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلم يجاءهم مصداقاً لما معهم كفروا برسالة صلى الله عليه وسلم وكتموا معرفتهم به عن الناس ، وكتموا معرفتهم بما جاء به من علم وهو الصادق المصدوق . وهذا بخل في النعمة ، وبعد ذلك استعروا يأمرؤن الناس بالبخل

وأنتم تعرفون أن الأنصار كانت عندهم الأريحية الأنصارية ، وساعة ذهب إليهم المهاجرون ، فاسموهم أمال ، حتى لنعمة التي غرس الله في قلب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد حتى ولو كان كارهاً لها ، وهي نعمة المرأة ؛ لأن الرجل حتى وإن كره امرأته فهو يغار أن يأخذها أحد ، ولكن الأنصار اقتسموا الزوجات ، فكم من

رجل كان متزوجاً من أكثر من واحدة ، طلق زوجته ليزوجها لمهاجر ، فالحق سبحانه وتعالى يصعد أروحية الأنصار حتى أن الأنصارى يأتى بالمهاجر ويقول له : انظر إلى إحدى زوجتي أو إحدى زوجتي فاختر ما يروقك فأطبقها وتزوجها .

آية أروحية سامية هذه ؟ فإذا كنت ذا نعمة وأنت مؤمن فأنت تحب أن تعدى أثر نعمتك إلى غيرك ، فإذا كان عندك سيارة فاخرة قد تحب أن تصدق بها ، لكن المرأة ، لا . لكن هذه الإروحية جاءت من الأنصار وقالوا : هؤلاء مهاجرون وتاركون أهلهم . وكان هذا ارتقاء إيمانياً في ذات الأنصار .

لقد جاء إليهم المهاجرون وميهم شباب يمثلون فترة ، وكانت قريش قد سمعت أنهم عندهم ، ليس معهم زوجات . فيقول الأنصارى : لماذا لا أطلق إحدى زوجتي ، وليزوجها أخى المهاجر لأنفس عن عواطفه . وأقل ما فيها أن تمنح نظره أن يتحول حراماً لكن اليهود والمشركيين والمنافقين يقولون لهم : لا تنفخوا على من عند رسول الله . ويقول القرآن الكريم في هذا الموقف :

﴿ مِمُّ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ تَزَاهَىٰ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝۱ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد أخطأوا النظر بمن آمنوا برسول الله ، ظنوا أنهم إن لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم . ونسوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمن ترك أمواله للهجرة في سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا ؛ لأنه ترك كل شيء في سبيل الله . وما هوذا سيدنا مصعب بن عمير المدلل في قريش ، وكانت أمه تغلق عليه النعمة وهو صاحب لعطور ، وبعد ذلك يذهب إلى المدينة ، فيلبس جلد شاة ، فينظر له النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لأصحابه : انظروا كيف صبح الإيمان بصاحبكم ، فعندما يقول المنافقون كعبداً لله بن أبي الأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، يظنون أن المؤمنين يمكن أن يسعوا إيمانهم بلقمة وكأنهم نسوا أن الذي يبيع إيمانه باللقمة هو من يحمل على مبدأ باطل ، لكن من يعتق ويعتقد مبدأ حق يجد حلاوته في النفس ، وأجره مدخر عند ربه . إنه

لا يتحول عنه . قال عل بن أبى طالب رضى الله عنه .

« نجت المسجد ، فطلعت علينا مصعب بن عمير فى بركة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأزفة ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله الذى هو عليها فدفعت عنه عليه ، ثم قال : أنتم اليوم خير أم إذا خدنى على أحدكم بجنة من خبز ولحم ؟ فقلنا : نحن يومئذ خير نكفى المنة وننتفخ للعبادة ، فقال : « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ »^(١) .

وقلنا : يجب أن نذكروا جيداً أن من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أن المؤمن يضحى بكل شيء فى سبيل رفعة الإيمان . لكن أصحاب المبادئ الباطلة لا يدخلون غيرهم فيها إلا إن دفعوا الثمن مقدماً ، أى أنهم يشترطونهم . فإذا رأيت مبداً من المبادئ يشترى البشر فاعرف أنه مبداً باطل . . . ولو كان مبداً حق لدفع الإنسان من أجل أن يدخل فيه نعيم ماله ، بل ويضحى فى سبيله بنفسه أيضاً .

ومن عجائب مبادئ الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أخذ العهد لنفسه فى بيعة العقبة ، قال له الأنصار : فإن نحن وقفنا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذت مالك فماذا يبقى لنا ؟ . .

انظروا إلى سمو الإيمان ، ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشرهم بأنهم سيملكون الأرض ؟ هل بشرهم بأن هؤلاء المستضعفين هم الذين سيمكنون منها ؟ لا ، بل قال لهم : لكم الجنة . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا ، لكان فى ذلك نظر ، صحيح أن الدنيا دانت وخضعت لهم ، لكن منهم من مات قبل أن تدنو له الدنيا وتذل ، فأيمن صدق النبوة ؟

إذن فقد قال لهم من الشيء المضمون ، الشيء الذى يجد المؤمن فيه نفسه من نور أن يموت . قال لهم : لكم الجنة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وحوله

(١) رواه الترمذى فى صفة النبیة باب حال مصعب بن عمير بعد الإسلام وأخرجه الحاكم ، وأورده ابن سعد فى

طبقاته وابن الأثير فى « أسد الغابة »

عصاة من أصحابه - : « تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بيهتان فتفرونه بين أيديكم ولرجلكم ولا تعصون في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه » (١) .

لم يعرفهم بأنهم سيكونون أصحاب سلطان ، ولم يقل لهم : أنتم ستجلسون على البُط والدنيا ستدين لكم ، إنما قال لهم في أول البيعة : لكم الجنة ، فإياكم أن يطعم أحدكم من شيء إلا في الجنة ، ولذلك فالأنصار محببون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما كانت غزوة حنين وأعطى المهاجرين بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصار منها شيء ، وجد الأنصار في موسمهم فلفتهم رسول الله لفته إيمانية وقال لهم :

« ألا ترهبون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالنساء والبيع وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ؟ » فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً أحرست لسانك من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » (٢) .

فبكى القوم حتى انفضوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحفظاً .
أي سموا إيماناً هذا ؟ لكن المنافقون قالوا للأنصار : لا تنفقوا أموالكم على من صد رسول الله حتى يتعضوا .

لكن المؤمنين لم يتعضوا . إنهم قد تركوا النعيم والأموال في مكة وجاءوا إلى الهجرة ، فهم لم يأتوا ليأخذوا نعيماً مظهرتاً محدوداً قليلاً ، وحسبهم ما وعدوا به من نعيم متيقن عريض بلى . لقد عرفوا بالإيمان أن نعيم الدنيا إما أن تفوته بالموت وإما أن يفوتك بالتقلب ، لكن نعيم الآخرة ليس له حد ينتهي عنده ، ولا يفوتك ولا تفوته .

(١) رواد البخاري .

(٢) رواد البخاري و كتاب التلذذ ورواه مسلم في كتاب الزكاة باب إعطاء الثلاثة للرسول .

ثم سبحانه يقول : « ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله » ، وساعة نرى شيئاً يكتُم شيئاً ، لأمداً أن نفهم منها أن هذا الکتُم معناه . منع شيء يريد أن يخرج بطبيعته ، وكما يقولون : اکتُم الدم فلو لم تکتُمه يستطرق . كأن المال أو العلم يريد أن يخرج للناس ولكن أصحابه يكتُمونه . وكان المطرة الطبيعية في كل رزق سواء أكان رزقاً مادياً أم رزقاً معنوياً أنه يستطرق ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة الإنسان ، فعندما يأتي إنسان ويحور شيئاً عما هو مخصص لخدمة الإنسان ويحجبه فهو بذلك يمنع الشيء . المکتوم من رسالته ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة بني آدم ، فعندما تموفه عن هذه الخدمة فالشيء يحزن ، ولتسمع ظنكم إلى أن الجهادات نحزن لبعضاً .

﴿ قَابِغَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الدخان)

والسما والأرض لما بكاء ، ليس بكاء دموع إنما بكاء يعلم الله كنهه وحقيقته ، إذن فقله : « ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله » . كأنه يقول . ما آتاه لك الله من فضله ليس ملكك ، وليس ذاتية فيك ، فأنت لم تأت به من عندك . ونظر إلى الكون حولك مجده كله أغياراً ، ألم ترو في حياتك قلداً أصبح عاجراً ؟ ألم ترو خياً أصبح فقيراً ؟ فاللذنا دول ، وما من واحد إلا وهو أمام عبيده وفي تاريخه وفي سماع من يتق مكلامه أنه « كان » هناك غنى ثم صار فقيراً ، فلماذا لا نعتبر بالأغيار التي قد تمر بك ، وبعد أن كان يُطلب منك أن تعطى ، صرت في حال يطلب الحق سبحانه من غيرك أن يعطيك ، ادخر لنفسك الآن - بالخير تبذله - حتى إذا جاءتك الأغيار تجد لك ما يتفرك .

« الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » انظر ماذا فعل فيه البخل ، إنه جعل صاحبه كافراً ، لأن البخل سرنعمة كان من الممكن أن تتسع له ولغيره ، فجاء له بالشئ الذي يحيف : « واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » « اعتدنا » أى أهددنا وهيأنا . فالسألة موجودة وقد أهدت ، والنبي صل الله عليه وسلم حينما ينكس من الجنة يقول :

(فُرِصَتِ عَلَى الْجَنَّةِ لَوْ مَدَدْتُ يَدِي لَتَنَاوَلْتُ مِنْ قَطْرِهَا)^(١).

(١) روى الشيخ واحد . ولزمه الشيخ في كثر السيل .

هذه ثقة اليقين في أنها مسألة جاهرة وليست تحت الإعداد ، ومن الذي أعد ؟ إنه الله ، قوى القوى ، قدرة القدر هي التي تعد ، وهو يعدها على قدر سعة قدرته ، عذاب مهين ؛ لأنه قد يتناول أحد ويقول أنا أحمل العذاب ، كما قال الشاعر :

ونجلى للشامتين أوصو أن لرب الدهر لا أتضعص

فسبحانه يوصح - لن يلقى البخل العذاب فقط ، بل سيلقى عذابا مهينا ثم يأتي الحق سبحانه بالمقابل ، يأتي بغير البخل ، فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ
الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ ٢٨ ﴿

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الذي ينفق ، لكن الغاية عبر واضحة عنده . الغاية ضعيفة لأنه ينفق رياء الناس ، إنه يريد بالإتفاق مראה الناس ؛ ولذلك يقول العارفون بفضل الله . اختر من يضمن عطائك ، فأنت عندما تعطى شيئا لإنسان فهو يضمن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلا أو بغير ذلك ، لكن المعطاء قد كيف يُثمنه سبحانه ؟ لابد أن يكون الثمن غاليا

إذن فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة في سيدنا عثمان رضي الله عنه عندما علم للتجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا وقال لهم : جاعن أكثر من ثمنكم ، وفي النهاية قال لهم : أنا بعتها لله - إذن فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، فالذي يعطى لثناء الناس يقول له : أنت خائب ؛ لأنك ما تمنعت نعمتك ، بل ألقيتها قافهة الثمن ، ماذا سيعمل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ،

فليأذا تراليهم ؟ إذن فهذه صفقة فاشلة خاسرة ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْحَيَاةَ ۖ

(من الآية ١١١ من سورة النمل)

ومادام سبحانه هو الذي اشترى فلا بد أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطي العجم الذي ليس فيه أعمار ، هي لحنة لا تموت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها فالذي يرأى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ؛ لأنه لم يحرف طعم التجارة مع الله ؛ ولذلك شبه عمله في آية أخرى بقوله :

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ زُنَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

و « الصفوان » هو المروة وجمعه مرو وهي حجارة بيض يراقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة . لكن بها بعض من الشايبا يدخل فيها التراب ؛ ولأن المروة ناعمة جداً فقليل من الماء ولو كان رذاذا يذهب بالتراب . والذي ينفق ماله رقاء الناس هو من تنضح له قضية الإيمان ولكن لم يثبت الإيمان في قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك ناظر يعطيك فيها ثمننا أغل فبماذا تعطيهما للأقل ثمننا ؟ إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت فلو ضح لك الحق . مادمت تريد رقاء الناس إذن فانت ليس عندك إيمان بالذي يشتري بأعلى ، فتكون في عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً ، ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطي أن يخاف من العطاء . فالعطاء يستقبله الله بحسن لأجر ، ولكن عليه ألا يعطي بضجيج ودعاية تفصح عطاءه ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم - ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله :

(رجل تصدق بصدقة فأحفاها حتى لا تعلم شالها ما تنفق بيمينه)^(١)

إن العبد الصالح حين يعطي فهو يعلم أن يده هي العليا ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة . ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال :

(١) روى أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عمر .

﴿ إِن تَبَدُّوا أَلصَدَقَاتِ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتَرْزُقُوهَا الْمُقْرَاءَ هِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَبُكَرٌ
عَمَّكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٧٦)

(سورة البقرة)

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحطه إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رياء ، أما من يخرج الصدقة وفي قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء معطى ، لأنه سبحانه يؤكد حذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع يستضع .

إن الذين ينفقون أموالهم رياء الناس هم من الذين لا يؤمنون بالله ، لأنه سبحانه هو المعطى ، وهو يجب أن يضع المسلم عطاءه في يده ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزء الباقي ، فأنت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها مشمرة . . أي كثيرة الثمر ، فإلذي لم يتصدق من ماله ولم ينفقه حتى على نفسه يكون قد أنهى مسألة المال وعمر ماله معه عند هذا الحد ، أما الذي أنفقه في سبيل الله سيسجده في الآخرة ، فيكون قد أطال عمر ماله

فالبخيل هو عدو ماله ، لأنه لم يستطع أن يشمره ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

« إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليفحص بينهم وكل أمه جاثية ، فإول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله للقرىء : ألم أعلمت ما أنزلت على رسولى ؟ قال . بلى يا رب ، قال . فهذا عملت فيها علمت ؟ قال . كنت أقوم به أمام الليل وآناء النهار ، فيقول الله له . كذبت وتقول الملائكة . كذبت ، ويقول الله له . بلى أردت أن يقال : فلان قرىء . فقد قيل ذلك ، ويقول بصاحب المال (١) لكن هل قال لك الدين . لا تعمل . لا ، اعمل لينتفع الناس بالرغم منك .

والبحيل عندما يكثر ماله يكون قد حرم على نفسه هذا المال ثم يأتي ابن له يريد أن يستمتع بالمال ، ولدلت يقال في الريف : مال الكثرى للتزوي ، ولا أحد بقادر أن يمدح خالفه أبداً !! سبحانه يوضح : أنا أعطيتك نعمة أنت لم تعطها لأحد ، لكني سأبسر السبل لطالع لي ، إياك أن تظن أنك خدعتني عندما بخلت ، فبخلتك بضع حلقك . إذن فانت قد ضيقت رزقك بالبخل ولو أمنت لأعطاك الله خيراً كثيراً « وما أنتمنم من شيء فهو بخله » لكنك تركته لورثتك وسأخلونه ليكون رزقهم متسماً ، وأيضاً فإنك حين تمنع المال عن غيرك فانت قد بشرت سيلاً لمن يبدل .

كيف ؟ لتفترض أن إنساناً كريماً ، وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل ، ولتأمن لها أمل فيه . وبعد ذلك لم ينهض دحله بتبعاته ، فإن كان عنده « فدايان » فهو يبيع فداياناً ليمرح به على المحتاجين ، وعندما يبيع الفدايان سيشتريه من يكثر ، فيكون المكتسب قد يشر سيلاً للكريم ، وإياك أن تظن أنك قادر على خدع من حلقك وحلق الكون وأعطاك هذه النعمة ، وهذا يشبه صاحب السيئة الذي من الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله ، إنا نقول له : إياك أن تعتقد أنك احتسبت شهوة من الله أبداً . أنت احتسبت شهوة متلهمك أخيراً ، ولجعلك تعمل حساب متلهم عشرين مرة ، لأنه سبحانه قد قال .

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الْشَّرَّاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

فانت لمن تضحك على خالفك لأنه سيجعلها ورامك ، فتعمل خيراً كثيراً ، كذلك البخل نقول له : ستبسر سيلاً للكريم بذال ، والحق سبحانه وتعالى بين لي آخر الآية اسبب الذي عمله على ذلك ، إن الأسباب متصلة لكن تجمعها كلمة « شيطان » ، فكل من يبعك من سبل الهدى هو شيطان ، ابتداء من شهوات نفسك وعقله عقلت عن المنهج ، إنها قرين سوء يرين لك الفحشاء ، ويزين لك الإثم ، إن وراء كل هذه الأمور شيطاناً يوسوس إليك ، وكل هؤلاء سميهم « شيطاناً » لأن الشيطان هو من يبعك عن المنهج ، وهالك شياطين من الجن ، وشياطين من الإنس ، فالنفس حين تحدث الإنسان ألا يلتزم بالمنهج ، لأن الترامه بالمنهج سيفوت عليه فرصة شهوة - هي شيطان . إن النفس التي ترى الشهوة العاجلة وتضيق منها شهوة آجلة لا حدود لها - هي شيطان . فالشيطان إذن هو الذي جعلهم

يُخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ .. وهذا الشيطان وساعة يكون قريباً للإنسان ، فمعنى ذلك أنه مقترن به ، والقرن بكسر القاف - هو من تنازله .

وكلمة « قَرْن » تطلق أيضاً على فترة من الزمن هي مائة عام ، لأن تقرن الأجيال ببعضها ، فالشيطان قريب أى ملازم لصاحبه ومقترن به ، فيقول الحق : « ومن يكن الشيطان له قريباً فساء قريباً » أى بشىء من هذا القرن لأنه القرن الذى لا ينمى ولا يهدن عن مجال ضار .

ولذلك فاناس قد يجب بعضهم بعضاً فى الدنيا لأهم يحشرون على معصية . أما فى الآخرة فماذا يفعلون ؟ يقول الحق :

﴿ الْأَحْيَاءُ يَوْمَئِذٍ يَعْلَمُونَ لِعَذَابِنَا لَا الْمُتَفِينِ ﴾ (١٧)

(سورة الرحيم)

لأن المتفين يعين بعضهم بعضاً على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه : كنت تعينى على الطاعة ، كنت توجهنى وتذكرنى إن عفت ، فيزداد الحب بينهما لكن الإنسان يلعن من أغواه وأول من نلعن يرمى القيامة نلعن الشيطان ، وكذلك الشيطان أول ما يتبرأ منا ، ولذلك فعندما نحين المجادلة مع الشيطان يقول لمن أغواهم وأضلهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان هو القوة العالبة التى تخبر من دونها ، والإنسان كحجر مادته وبنيت بسلطان القهر المادى ، ويُفهرى اعتقاداته بالدليل والحجة . والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القلب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فقد تكون ضعيفاً أمام واحد قوى ولكنك تمسك له سوطاً وتقول له اسجد لى احصع ، فمسجد لك ويخضع وأنت بذلك تفهر القلب ، لكنك لم تفهر القلب ، هذا هو السلطان المادى الذى يفهر القلب ، لكن إذا جاء لك إنسان بالحجج وأقنعت ، فهذا قهر لإقناع ، وقطرة قهر العقول بالإقناع نوع من السلطان أيضاً .

إذن فالسلطان يأتي من ناحيتين . سلطان يقهر الغالب ، وسلطان يقهر فقه لقلب ، فسلطان انقلاب يجعلك تخضع قهراً منك ، وسلطان الحجة والبرهان يجعلك تفعل برضى منك ، والشيطان يقول لمن اتعوه . يا من جعلتموني قريباً لكم لا تعادوني ؛ أنتم أعياء ؛ فليس لي عليكم سلطان ، وما كان لي من القوة بحيث أستطيع أن أرغمكم على أن تتركبوا المعاصي ، وما كان عندي منطق ولا حجة لكي أقنعكم أن تعملوا المعاصي ، لكنكم كنتم خاملين ، أنا أشرت لكم فقط فليست أملك قوة أقهر مادنتكم بها ، ولا برهان عندي لأسطر على عقولكم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْؤُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

إذن فلسية منكم أنتم ، ولذلك يفون الحق :

﴿ مَا أَنْ يُصْرِخَكَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِشِيْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ماذا يعني « مصرخكم » ؟ إنها استعانة واحد في أزمة لا يقدر عليها وضائت به الأسباب ، عدو يستنصر بغيره ، فيصرخ على غيره ، أي يناديهم لإنقاذه ولنجدته ، فالذي يستجيب له ويأتي لإنقاذه يقال له . أوّل صراخه ، إذن فأصمرحه . يعني سارع وأجاب صرخته ، والشيطان يقول : إن استجدم بي فلن أنجدكم وأنتم لن تنجدوني ، فكل واحد منا عرف مسئوليته وقدرته . وبالنسبة للإنسان فقد قال الحق :

﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتُهُ مَكْرُفَتِيْ عُنْفِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الإسراء)

فمن يتخذ الشيطان قريباً ، « فساء قريباً » وكلمة « ساء » مثل كلمة « بشى » كلتاهما تستعمل للذم وتقيح الشيء أى ، فتش أن يكون الشيطان قريباً لك ، لأن الشيطان اتخذ على نفسه العهد أمام الله ألا يفرى من يطيعه سبحانه ويفرّى من سواه من الناس أجمعين .

وعندما تأمل الآية ، نجد أن الحق يقول : « والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » . فالآية إذن تتناول لونا من الإعاقى يحيط الله ثوابه . فنغفة المرائى تتعدى إلى نفع غيره لكن لا ينتفع المرائى منها ، بل تكون قد أنقصت من ماله ولم تثمر عند ربه .

والحق يلفتنا إلى أن ذلك كله راجع إلى معوقات الإيمان الذى يتطلب من الإنسان أن يكون فى كل حركات حياته على منهاج ربه ، هذه المعوقات تظهر فى النفس البشرية وفى شهواتها التى تزيى الإقبال على المعصية لشهوة العاجلة ، وتزيى الراحة فى ترك الأوامر ، والشيطان أيضاً يتسلل فى المعوقات ، والشيطان كما نعلم . اسم للمعاصى من الجنس الثاقب من المكلفين وهم الجن ويتمثل فى إبليس وفى جنوده ، ويطلق على كل منمرّد من الإنس أيضاً يقول تعالى : « وكذلك جعلنا لكل مبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، وأنت حين تريد أن تعرف المعوق أهر من نفسك أم من الشيطان ؟ . فانظر إلى نفسك حيال المعصية ، أهي معصية تلذمتك نفسك أن نأتمها وحدها ، أم معصية إن عزّ عليك أن تفعلها فأتت تتقل إلى معصية سواها ؟ هل هي معصية ملازمة أم معصية تتقل منها إلى غيرها ؟ .

فهب أن إنساناً كانت معصية نفسه فى أن يشتهى ما حرم عليه ، أو أن يسرق ماله غيره ، نقول له : أوقفت فى المعصية عند هذه بحيث لا تتعداها إلى غيرها ؟ يقول نعم . فبقية المعاصى لا ألتفت إليها . نقول : تلك شهوة نفس ، فإن كانت المعصية حين تمتنع عليك من سرقة مثلاً فأنت تلتفت إلى معصية أخرى فهذا لون من المعاصى ليس من حظ النفس ، وإنما هو حظ الشيطان منك ؛ لأن الشيطان يريد المعاصى عاصياً على أى لون من المعصية ، فإن عزّ عليه أن يلوى زمامه إلى لون من المعصية ، انتقل إلى معصية أخرى لعلّه يصادف ناحية الضعف فيه .

لكى النفس حين تشتهى ماها تشتهى شيئاً بعينه ، فأنت إذن تستطيع أن تعرف المعوق من قبل نفسك أم من قبل الشيطان ، فإن وقفت عند معصية واحدة لا تتعداها وتلتع عليك هذه المعصية ، وكلما عزّ عليك باب من أبوابها تجد باباً آخر

لتصل إليها ، فذلك شهرة نفسك . وإن عُرِّت عليك معصية تنتقل إلى معصية أخرى فهذا من عمل الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريد عاصياً من لون واحد ، وإنما يريدك عاصياً على إطلاقك .

وعداوة الشيطان - كما نعلم - هي عداوة مسبقة ، فقد امتنع الشيطان عن اسجد لآدم بحجة أنه خير من آدم وحذر الله آدم . ولابد أن آدم عليه السلام قد نزل هذا التحذير لتربيته وأعلمهم أن الشيطان عدو ولكن الغفلة حين تسيطر على النفوس تصحح مجالاً للشيطان لينقل إلى نفس الإنسان ، والشيطان - كما نعرف - لا يأتي للمعاصي الذي تعوبه نفسه ؛ لأن المعاصي تكفيه نفسه ؛ لذلك يأتي الشيطان للطائع ليمسك عليه طاعته ، ولهذا يقول الله عنه .

﴿ لَا أَقْنِدَنَّ لَهُمْ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

إذن قممعد الشيطان ليس في الخيارة أر في مكان فساد ، إنما يجلس على باب المسجد ، لكي يمسك على كل ذاهب إلى الطاعة طاعته . وهذا معنى : « لا أقنيدن لهم سراطك المستقيم » ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الطوائف الأقلية غير المسلمة في أي بلد إسلامي لا تحدث بينهم الشجاعة ، ولا البغضاء ، ولا حرق الزروع ولا سب المواشي ، ولا القتل ، وثاني هذه المعاصي في جبهة المسلمين ، نقول : نعم ؛ لأن الشيطان ضمن أن هؤلاء وصلوا إلى قمة المعصية فابتعد عن إخوانهم ، أما المسلمون فهم أهل الطريق المستقيم ، لذلك يركز الشيطان في عمله معهم ، إذن فهادام عمل الشيطان على الطريق المستقيم فهو يأتي لأصحاب منهج الهداية ، أما الفاسق بطبيعته ، والذي كَفَرَ كُفْرَ القمّة فالشيطان ليس له عمل معه ؛ لأنه فعل أكثر مما يطلب الشيطان من النفس البشرية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « والذين ينفقون أموالهم رياء الناس » أي : أنفقوا وأنقصوا ما هم فلهذا المراءاة إذن ؟ لأن الشيطان قريبهم ، وعندما ينفقون فهذا عمل طاعة ، ولماذا يترك لهم هذا العمل ليسلم الثواب لهم ؟ فلا بد أن يفسد لهم هذا العمل الذي عملوه ، وهو يقول : « ومن يكن الشيطان له قريباً فساء قريبنا » مثل هذا القرن أمدح أم يدم ؟ إنه يدم بطبيعة الحال ؛ ولذلك قال الله : « فساء

قرينا ، أي بشئ ذلك القرين ، فالقرين الذي بلغتك عن فعل الخير هو الذي بعد أن
أنقصر مالك بالنفقة أفسد عليك الثواب بالرياء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

وقوله سبحانه . « وماذا عليهم » رأى تبعة ومشقة وضرر عليهم من الإيمان
والإتفاق في سبيل الله ؟ إنه سبحانه لم يستفهم منهم عما يصيبهم من ذلك ولكنه - جل
شأنه - يذمهم ويوبخهم ويصفهم ويصممهم بالجهل والغفلة عما ينصهم .

فالتلميذ الذي يلعب ، يرسب تقول له : وماذا عليك لو أنك ذاكرت ؟! يعني
أي ضرر عليك في هذا ، إذن معنى ذلك أنها لا تقال إلا للإنسان في قدرته أن يعمل
انفعل ، فمثل هذا التلميذ يقدر أن يذاكر . لكننا لا نأت للإنسان فيه صعة لا تدخل له
فيها كالفقر في الفاقة مثلاً ثم يقول لك . ماذا عليك لو كنت طويلاً ؟! هذا قول
لا ينفع ولا يصح .

إذن ماذا عليك لا تقال إلا لمن في قدرته الاختيارية أن يكون كذلك ، أما
من لا يكون في قدرته ألا يكون كذلك فلا تقال له . ونقول ذلك لأن طائفة الخيرية
قالت . إن الذي كفر لا يقدر أن يؤمن بالكافر يظل كافراً ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قول
ربنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » فمعنى هذا القول أن الباب
مفتوح . وإلا لو كانوا ملزمين بالكفر لما قال رسا : « وماذا عليهم » وهذه الآية
لا ترد فقط على مذهب الجبرية ، من تهم مذهب الجبرية كنه . فالإنسان ليس مجبراً
على فعل وتنتهى المسألة ، وكما يقولون . كالريشة في مهب الريح . ومثلها قال
الشاعر .

الفه في الم مكتوفاً وقال له
إياك إياك أن تتل بالماء

يقول لهم : أنتم نسيتم الله - والعياذ بالله - الظلم ، فأنه سبحانه وتعالى لم يطلب من الإنسان أن يؤمن به إلا وقد أودع فيه قوة اختيارية تختار بين البديلات . وأنتم لم تعطوا إلى حقيقة كذبة كل شيء أولاً فأخذتم منها الشيء الذي لا يد للناس أن تتفكه ، ولم تلتفتوا إلى أن هناك فرقاً بين أن يكون قد كتب لهزم ، وأن يكون قد كتب لأنه علم .

هو سبحانه كتب لماذا ؟ لأنه علم أولاً أن عبده سيختار كذا ويختار كذا . إذن فالكتابة ليست للإلزام ولكن لسبق العلم . والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير .

وحتى نوضح ذلك نقول : إن الصفات نوعان . صفة تكشف لأشياء على ما هي عليه بصرف النظر عن أن تظهر أو لا تظهر ، والقدرة صفة إبراز وليست صفة انكشاف ، ومثال ذلك عميد الكلية الذي يأتي ليقول لأستاذ مادة من المواد . جاءت لي مكافأة للطلاب الناجح في مادة كذا ، فأصنع اختباراً للطلاب حتى تعطى هذه الجائزة لمن يستحقها . فيقول أستاذ المادة : لا ضرورة للاختبار لأنني أعلمهم وأعرف مواقعهم من الجهد ومواقعهم من الاجتهاد ومواقعهم من فقه اعلم ، فلان هو الأول وأعطه الجائزة ، فلا يقتنع عميد الكلية . ويضع هو اختباراً أو يأتي بأستاذة آخرين يضعون الاختبار دون هذا الأستاذ . وبعد ذلك يفوز الطالب الذي حده الأستاذ مسبقاً بالدوجة الأولى .

أساعة أجاب الطالب عن الأسئلة التي وضعت له . أكان مع الطالب الذي فاز بالمركر الأول من يوحه على أن يكتب المادة العلمية التي جعلته يحصل على الجائزة ؟ لا . فلماذا قال الأستاذ هو ذلك ؟ لأنه علم بم عنده قدرة من العلم . لقد حكم الأستاذ أولاً لأنه يعلم .

وله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فالخفي سبحانه وتعالى أعطى للناس الاختيار

بين البدلات ، لكنه أوضح : أنا أعلم أن عبدي سيختار كذا وكذا . إذن هذه سبق علم لا قهر قسرة . فالقدرة لها تأثير والعلم لا تأثير له ولا قهر . وقول الله هنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » فقوله : « وماذا عليهم » تعني أى ضرر يلحقهم . كلمة « عليهم » دائماً تكتشف للإنسان ما عليه ، لذلك لا يقول « لهم » من يقول . أى ضرر كان يلحقهم لو آمنوا بالله ، ولذلك يقول الحق .

﴿ الَّذِينَ يَطُوبُ أَسْمُهُمْ فَلْيُنقُوا رِيْبَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

لم يقل سبحانه الذين يتقنون . بل إن مجرد العلم بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إن المتيقن يقوم بالعمل الصالح من باب أولى . ولذلك هذه المسألة أخرجت « المعري » عما اهموه به من أنه يكرر البعث ، صحيح أنه ن أول حياته قال :

تخطما الأيام حتى كئت زجاج ولكن لا يُعاد لنا سبك

يقالوا إن قوله « لا يعاد له سبك » معناه أنه ينفي قدرة الحق على أن يبعثنا مرة ثانية ، مع أنه من الممكن أن يتأول فيها ، أى لا يعاد لنا سبك في حياتنا هذه ، ونحن لا نرى من مات يعود مرة ثانية . ونقول كذلك : إن هذه قائلها ن أول حياته ولكنه قال في آخر الأمر :

رهم المنجم والطبيب كلاماً لا تحشر الأجساد قلت إليكم
إن صح قولكم فلاست بحاسر أو صح قولى فالخسر عليكم

فهو يطلب من الطبيب والمنجم أن يكفيا عن إسناد العقول بالثبوت وهب أنه اعتقد ألا بعث ، وواحد آخر اعتقد أن فيه بعثاً ، يقول له : إما أن يحىء بعث فيكذب من قال : لا بعث ، وإما ألا يحىء بعث ، فإذا لم يحىء البعث ، ما الذى ضر من آمن بالبعث ؟ وإذا جاء البعث فمن الذى خسر ؟ سيخسر من أنكره ، إذن فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن من قال . إن هناك بعثاً لا يخسر ، وهكذا

وقول الحق : « وماذا عليهم » إنه تساؤل عن أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله . واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله « إن من يعطى الصدقة ويضعها فى يد الله يستمرها عند المعطى ، لكن عندما يقوم بذلك رثاء الناس فهو يشر عند من لا يعطى ، وبذلك يكونون قد خسروا أموالهم وخسروا تشهير الأموال فى يد الله بالثواب فى الآخرة .

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً » . وعلم الله متقاعل وسيحانه بعلم الخفايا . وسيحانه بحيط بكل شيء علياً . لذلك بقول الحق بعد ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠ ﴾

والظلم الأصل فيه حبة الانتفاع بجهد غيره ، فعندما تظلم واحداً فهذا يعنى أنك تأخذ حقه ، وحقه ما جاء به بجهد وعرقه ، وتأخذ أنت بدون جهد ولا عرق . ويشع هذا أن يكون الظالم قوياً . لكن لماذا عن الذى يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر ؟ إنه لم ينزع بظلمه ولكن غيره هو الذى انتفع . وهذا شر من الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يدروا بالأعمال ستكون فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمس كافراً أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا)^(١) .

لأنه ظلم إنساناً لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه .

إذن فالظلم إما أن يكون الانتفاع بشمرة جهد غيرك من غير كد ، وإما أن تنفع شخصاً بجهد غيره ، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه - وهو قوة القوى - إذا أراد أن يظلم - وحاشا له أن يظلم - فإذا يكون شكل ظلمه ؟ إن الظلم يتناسب مع قوة

الظالم ، إذن ففوة أقوى عندما تظلم فظلمها لا يطلق ، ثم لماذا يظلم ؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من ذهب ؟ إنه سبحانه مستغن ، ولن يأخذ من هذا ليعطي ذلك ، فكلهم بالنسبة له سواء ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، كلهم متساوون ، فبماذا يظلم ؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقلياً ومحال منطقياً ، فلا يمكن لله أن يضيع عمل حنة ولا أن يضاعف سيئة . فهذه لا تأتي ، وتلك لا تأتي ، والله وهب كل النعم للناس جميعاً . ومادام هو من وهب كل النعم ، فسبحانه غير مستمع بأثارة في خلقه إن الحق سبحانه وتعالى ينفي عن نفسه الظلم في قوله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة فصلت)

نكلمة « ظلام » مثل قولنا : فلان « أكل » وفلان « نائم » . وهي تختلف عن قولنا : فلان نائم ، يعني نام مرة ، ولكن « نائم » فهذا يعني مداومة على النوم كثيراً ، أي أنه إما أن يكون مبالغاً في الحدث ، وإما أن يكون مكرراً للحدث ، فالمبالغة - كما نعرف - تأتي مرة لأن الحدث واحد لكنه قوي ، ومرة يكون الحدث عادياً لكنه مكرر ، هذه هي المبالغة ، ففوة سبحانه وتعالى « وما ربك بظلام » نفى للمبالغة ، وهذا لا يقتضي نفى غير المبالغة . ونقول : الله لو ظلم لكان ظلمه منسباً فليوته فيكون كبيراً كثيراً ، وبوكان ظلمنا لنعمل ظلمه وعمّ الخلق جميعاً فيكون كذلك كبيراً كثيراً ولكن الله - سبحانه - يقول : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » . وسبحانه يحسب لسبيته سيئة واحدة . أما الحسنه فيضاعفها ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « مثقال » . يعني ثقل ووزن ، والثقل هو مقدار حادية الأرض للشيء ، فعندما يكون وزن الشيء قليلاً وتلقيه من أعلى ، فهو ينزل ببطء ، أما الشيء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة ؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى ، والإنسان ما حين ينظر إلى كلمة « مثقال » ، ويعبر عنها بأنها وزن ، فمعيار الميزان هو « الذرة » . وما « الذرة » ؟

قال العلماء فيها : هي رأس النملة الصغيرة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها . هذه مقولة ، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سئل عنها : أخذ شيئاً

من تراب الأرض ثم نفضه ، فلما نفخ تطاير التراب في الهواء ، فقال لهم كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « الهباء » ، ونحن الآن الموحدين في مكان واحد لا نرى شيئاً في الجو ، لكن انظر إلى حزمة صوئية - أي ثقب تدخل منه أشعة الشمس - فساعة ترى ثقباً يدخل أشعة الشمس ترى ضاراً كثيراً يسبح . والمهم أنك لا تراه جازياً إلا في شعاع الشمس فقط ، فهو كان موجوداً ونستشقه ، مما الذي جعل لا أراه ؟ . لأنه بلغ من الصغر واللطيف مبلغاً فوق طوق المير أن تراه ، فالذرة واحدة من هذا العبار ، واسمه « الهباء » ، وواحدة الهباء هي الذرة .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن كل شيء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة ، وهي الهباء ، ونحن لا نراها إلا في نور مجبوز ، لأنها في النور القوي لا يرى تلك الذرات ، بل نراها فقط في نور من مصدر واحد وبأخذ ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وهذا تمثيل فقط ؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر ، فالذي يكبر يمكن أن يصغر ، وقال الحق ذلك ولم يكن عند الإنسان المقياس الذي يفتت به الطبيعة ، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك ، فبعد الحرب العلمية الأولى صنعت ألمانيا أسطوانات ضخمة الجواهر الفرد ، أو الحرة التي لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديماً ، ومعنى جزء لا يتجزأ أي لا يمكن أن يأتي أقل منه . ولم يلتفتوا إلى أن أي شيء له مادة إن كان يقبل الكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التي تدرك الصغر .

ومثال ذلك عندما صنعت الأنهار الصناعية وأخذوا من البحر صورة لمدينة نيويورك ، خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك . بعد ذلك كبروا الصورة ؛ فخرجوا لوقام السيارات التي كانت تسير ؛ كيف حدث هذا ؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوي تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة ، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شيء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة ، وإن كنت موجوداً في نيويورك في هذه الساعة أكنت تظهر بها ؟ لا يمكن أن تظهر . لماذا ؟ . لأن صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذي لا يمكنك أن تراها وهي بهذا الحجم وهكذا ، فالنور عندما يكون معزوماً ، فالخزمة الصوئية التي تدخل إلى مكان ما ، لها من القوة التي تظهر ذرة الهباء الذي لم تكن تراها .

إذن فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الدرة ، أبغى على نور الخالق درة ؟ لا يمكن أن تخفى عليه سبحانه درة ، لأن النور الذي خلقه أظهر النور والهباء الذي كان موجوداً ولا نراه ، فلي يخفى عن نور النور درة في الأرض .

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية ، وعندما اخترعوا أسطوانة ضخيم الجوهر العود كانت مثل عصارة القصب ، ونحن نعرف أن عود القصب يوصع بين عمودين من الحديد . والعمود الواحد اسمه « أسطوانة » وعندما يصيقلون الأسطوانتين تم يمررون عود القصب بينهما ، فلا بد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب يُعصر ، إذن فكلمة صيقت بين الأسطوانتين يزداد العصر ، ومادامت الأسطوانتان تجري كل واحدة منهما على الأخرى لها فراغ ضئيل جداً ، وحاول العلماء الألمان تضيق الأسطوانتين تضيقاً يفتت لما هذه الدرة ، وبجحوا ، وأصبح هناك شيء آخر أثقل من الدرة

وظن السطحيون الذين يترهبون بالإسلام ويكتب الله الدوائر ، ويريدون أن يجدوا فيه متعدياً . قالوا : إن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » على أنها أقل شيء وظهر أن هناك أصل من مثقال ذرة ، لأن لدرة انحطت وقلنا لخزلاء . أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات ، فالقرآن قد جاء معجزة ليواجه محتمعات شتى من لدن رسول الله إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن يكون فيه ما يشيع العقول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . ولو أن عطاء القرآن حسب مرة واحدة في عصر الرسالة لخامت القرون التالية وليس للقرآن عطاء . فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتخصص للأحكام والكليات ، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة لكن لا يزال هناك كونييات وبراميس للحق في الوجود لم تظهر بعد ، سبحانه يعطي كل عصر على قدر اتساع فهمه .

وعندما نعرف أسرار قصبة كوبي لا يزيد عليها حكم ، فعندما نعرف قصبة مثلاً كقصبة الدرة وتفتينها ووجود إشارات لها في القرآن الكريم لا يزيد ذلك علينا أي حكم بل طلب الأحكام كما هي فالأحكام واضحة كل الموصوح ، لأن من

يفعلها بثاب ، ومن لا يفعلها يعاقب . والناس الذين سيقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة ، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحاً لا ريبه فيه ، ولم يهمل المعاصر لرسول الله حكماً ثم جاء الإنسان في زماننا ليفهم حكماً آخر ، بل كل الأحكام سواء .

والقرآن كمعجزة هو أيضاً معجزة للجميع . ولابد أن تكون هناك معجزة لكل جيل . ولكل عصر ، وبأن الإعجاز في الآيات الكونية التي لو لم يعرفها فلن يحدث شيء بالنسبة للأحكام . مثال ذلك . لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل ؟ لا . . . فحين نتفع بالأرض سواء أعلينا كرويتها أم لم نعلم ، لكن الحق سبحانه ونعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطبقه . فإذا ما ارتقت العقول وتطورت واستثارت بمنحصر طموحاتها العلمية في الكون . فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها .

وعندما فتوا الذرة قال المشككون : إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شيء . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، لكن هناك ما هو أقل من الذرة . ونرد عليهم : أنتم نظرتهم إلى آية ونسيت آيات . أنتم لم تنتبهوا . كما قلنا . إلى أن من فتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتوا ما فتت . والآية التي نحن بصليها الآن : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » أرضت العقول التي تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة ، ولماذا لا نسمع قول الله :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْعَلُونَ بِهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

(سورة يونس)

إذن فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة ، ولم تلخذاوا بالكم أن « أصغر » هذه أفضل تفضيل ، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير ، إذن فهناك ذرة ، وهناك صغير

عن الذرة ، وهناك أصغر من الصغير ، هناك إذن ثلاث مراحل ، فمن فتوها فتنا
رصيد في القرآن يقول بالصغر ، فإن فتتم الفت ، فتنا رصيد في القرآن بأصغر ،
لأن كل أصغر لا بد أن يسبقه صغير ، وإن كثرت الفت فتنا رصيد عندنا رصيد
من القرآن يسبق عقولكم في الابتكار ، فإن قلت فتيت جاز ، وإن قلت تجمع
جاز ، لأنها أصغر وأكبر ، فتيت أو تجمع ، والمعقول أنك تقول لا يعيب الأصغر
والصغير ، والذرة كذلك لا تعيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يعيب مع أنه ظاهر
وواضح ؟

ونقول لك - إن المتكلم هوربا ، قال شيء لا يدرك إما لأنه لطيف في غاية الدقة
بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يرى ، وإيضاً لا يُترك لأنه كبير بصورة أكبر من أن
يحيط به الباصرة ، فحين ترى جبلاً كبيراً على بعد اثنين من الكيلومترات أو ثلاثة
فانت لا تدرك ، لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك ، ولكن الأمر بالنسبة لله
يختلف فلا يوجد صغير يلقى لا يراه ، ولا كبير يكبر لا يراه ، إذن فلا بد أن تأتي
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ولي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْعَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْغُ فِيهَا وَهُوَ

الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ① ﴾

(سورة سبا)

وانظروا إلى دقة الحق في الرد على الإنكار للساعة وهي قضية كونية تنحب على
كل العصور - فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِي السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَنِ الْغَيْبِ لَا يَحُزُّ

عَنهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُّبِينٍ ② ﴾

(سورة سبا)

كان يكفي أن يقول : إن الساعة آتية ، لكنه أوضح : اعرفوا أن الساعة آتية ،
وكل ما فعلتموه معروف ، ولماذا يقولون . لا تأتي الساعة ؟ إن هذا لون من تكذيب
الناس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطله قيام الساعة ، فالذي لم يعمل لذلك بود

لأن من مصلحته ذلك - أن تكون مسألة الساعة كذب ؛ لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها ، فجاء سبحانه بالآية لكي تردّ على المقالة وعلى الدافع للمقالة . وكل مقولة ما دافع . لقد كان ادافع لقولتهم هو إسرائيلهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحاً ممن مصلحتهم الأمانة ألا تأتى الساعة ، كي لا يعاقبوا ، وسبحانه يعلم أزلاً ما فعلوا وردّ على المقالة وردّ على الدافع الذمى للمقالة ، فأوضح سبحانه . أما عالم كل أمر ولن يعيب على عمل من أعمالكم .

وقول الحق في الآية التي نحن بصددها : « وإن تك حسنة » يعني :
 وإن يكن الورع حسنة بضاعفها الله ، وعندنا يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها
 تضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة بمثلها ، والحق قد تكلم
 عن المضاعفة للحسنة في كثير من الآيات « والله بضاعف لمن يشاء »

وفي آية أخرى يقول الحق :

﴿مَنْ أَدْرَاكَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُلْ حَتَّىٰ أُبَيِّنَ سَمْعَ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةَ حَةٍ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويعد ذلك حقاً

﴿ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٢٦٩ - سورة البقرة)

فيه فرق بين نظام حساب المحسبات ونظام حساب السيئات ، فالحسنة تضاعف عشر أمثالها لسبعمئة ضعف ، هذا هو نظام احساب ، وإزادة خالق هذا النظام تعطى كما تريد ، إذا كما نحن - كبشر - عندما نوظف واحداً نقول : أنت تدخل السلم الوظيفي ، وتبدأ السلم الوظيفي من أول درجته ثم نترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتي رئيس الدولة ليعينك في درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالك بحساب الرب الأعلى ؟ إنه يعطي بعملية حسابية فيها زيادة ضل ؛ ولذلك قال بعد هذه الآية .
« وإن لك حسنة يضاعفها ويؤت من لئنه أجراً عظيماً ، أى إنه سبحانه يعطى من عبده ذلك الأجر العظيم ، وهذا اسمه « محض الفضل » وكيف بسمي الله أجراً مع

أنه زائد ؟ لأن هذا الفضل جاء تابعا للأجر ، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً ، وبالتالي فلا ينال فضلا وحين يصرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعاني ، لأن الله قال والله صادق فيما يقول ، فيعطى الحق سبحانه وتعالى مثلاً إيجابية في الكون ، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب هذه الأصحاب المصاعفة فيوضح لك هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وصنعها في الأرض تخرج لك سبع سابل وكل سنبله فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض - وهي مخلوقة لله - أعطت سبعائة ضعف ، فكيف يعطى من خلق الأرض ؟ إنه يعطى بغير حساب

إذن فكلمة « من لديه » هذه تعطيك الباب الواسع الذي يتناسب مع الله . فالأرض تعطيك على قدر جهدها ، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها . . . والذي عنده ويده الخير وخلق كل الكون يوضح : إذا كان خلق من خلقي يعطى حتى الكافر ، سبعائة ضعف فالذي خلق هذا يعطى للمؤمن أجراً للحسنة بلا حدود ، ولذلك فالإيساسات التمثيلية في الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى المبدى الذي قد يقف فيه . فالإنسان ما مائة هي البدن يتحل فيه الروح . وعندما تسحب الروح من البدن ، ماذا يصير ؟ يصير الحسد رمة ، ويتحلل لعوامله الأخرى وتنتهى منه مظاهر الحياة .

إذن فالروح هي السبب في الحركة ، وفي أن كل جهاز يقوم بعمله ، وفي النمو ، وعندما تسحب الروح ينتهى الأمر ، إن الروح هي التي تدبر كل هذا الجسم ، والروح لا لون لها ، ولا أحد يراها ، ولا يشمها كائى ، فكيف يدركها إذن ؟

يقول : إن الجوهر الذى يدخل في جسدك ويعطيه الحركة فيديره . أنت لا تراه ولا تحسه ، وهو غيب بالنسبة لك ، فإذا حدثت أن ربك غيب فلا تتعجب ، فروحك التى بين جنبيك لا تعرف كنهها ، وعليك إذن أن تصدق عندما يقال لك : ربك ليس بمحدود يمكن وعندما يقول سبحانه :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

فكلما نقول : نعم هذا كلام صحيح ؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم

تدركه الأبصار ، أفتريد أن يُدْرَكَ من خَلَقَ ؟ لا يمكن . وهو سبحانه من عظمت أنه لا يُسْرَك .

وسبحانه يقول : « ويؤت من لذه أجراً عظيماً » ويقف عند كلمة « من لذه » . ويعرف أن فيه فرقاً بين الإتيان بالناموس . وهو النظام الموضوع للعطاء المباشر ، وعندما يقول الحق : « من لذه » فهذا يعنى أن الوسائط تمتنع . ويعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى في وصف العبد الصالح ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الكهف)

وهذا يعنى أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد بل من الله مباشرة ، بدليل أن الذى جاء ليتعلم منه وتعلم عنه ثم وقف معه في أمور جاءت على خلاف ما تجرى به النواميس والعادات . فكلمة « من لذه » تعنى تجاوز الحجب ، والوسائط ، والأنظمة

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمى عطاءه لك « أجراً » ، لأنه أعطى من لذه بعدما أعطى له النصيب المقدر كاجر ، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم ، لأنه مناسب للمعطى .

ثم يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَاكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (٤١)

وساعة تسمع كلمة « كيف » فأعرف أن هناك شيئاً عجيبياً ، نقول مثلاً . أنت سبيت السلطان فكيف إذا واجهوك ووجدته أمامك ماذا تفعل ؟ كأن مواجهة

لسلطان ذاتها مسألة فوق التصور فكل شيء يتعجب منه يؤق فيه بـ « كيف » ،
ومثال ذلك قوله الحق
﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا يعنى تعجبا من مصيبة وكارثة هي الكفر بالله ، فقولوا كـ « كيف جاءت
هذه ؟ إنها مسألة عجيبة ، ويقول : فكيف يكون حال هؤلاء الكافرين ، كيف يكون
حال هؤلاء العصاة ، في يوم العرض الأخير ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد »
و « الشهيد » هو : الذى يشهد ليقرر حقيقته ، ونحن نعلم أن الحق أحقنا -
﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة طه)

وهذا النذير شهيد على تلك الأمة أنه بمعها المنهج ، ورسول الله صلى الله عليه
وسلم شهيد على أمته أنه بلغ ، مقوله . « وجئنا بك على هؤلاء » من هم ؟ نطرح
قوله « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » وهو رسولها الذى بلغ عن الله منهجه ،
وكيف يكون الموقف إذا جاء وقال . أن أبلغتكم الموقف ولا عذر لهم لأننى أعلمتهم
به ، « وجئنا بك » يا محمد - صلى الله عليه وسلم « على هؤلاء » فهل المعنى
بـ « هؤلاء » هم الشهداء الذين هم الرسل أو على هؤلاء المكذبين لك ؟ وتكون أيضا
شهيذا على هؤلاء مثليا أنت شهيد على أمك ؟ إن كلا من الحالين يصح ، لماذا ؟ .

لأن الله جاء بكتابه المعجزة وفيه ما يشهد أن الرسل قد بلغوا أمهم ، فكان
الرسول حين سجن في كتبه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلغوا أمهم فهو
سيشهد أيضا . هم بلغوكم بدليل أن ربنا قال لى في كتاب المعجزة وفى المنهج .
ويكون رسونا شهيدا على هؤلاء المكذبين الذين أرس إليهم وهم أمة لدعوة فاعنى
هذا ، يصلح ، وكذلك يصلح المعنى الآخر . ولا يوجد معنى صحيح بطرد معنى صحيحا لى
كتاب الله ، وهذه هي عظمة القرآن . إن عظمه القرآن هي لى أنه يعطى إشعاعات
كثيرة مثل قص الماس ، فالماس غال ونفيس ، لأنه قاس ويكسر به وكل ذرة فيه لها
شعاع ، المعادن الأخرى لها إشعاع واحد ، لكن كل ذرة فى الماس لها إشعاع ؛
ولذلك يقولون إنه يضوى ويلاأ ، فكس ذراته تعطى إشعاعا .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : أن حال هؤلاء سيكون فصيحاً حين يأتي يوم العرض يوم القيامة ، ويقولون : إنا بلعناكم ، لو الحق سبحانه وتعالى عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم ، وبالنسبة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمة أو للأمم كلها ، فنحن أيضاً سنكون شهداء .

﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(س الآية ١٤٣ سورة البقرة ،

وهذه ميرة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن أمة محمد هي الأمة الوحيدة التي أمها الله هل أن يحملوا المهبج إلى أن تقوم الساعة ، هل يأتي أنبياء أبداً بعد رسول الله ، يقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » إذن فنحن بضم هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ على القرآن فقت يارسول الله : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ »

قال نعم إني أحب أن أسمع من غيري ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئت من كل أمة شهيد وجئت به على هؤلاء شهداء) فقال : حاك ، فإذا عينا تلرغان الدموع (١) .

فإذا كان الشهيد بكى من وقع الآية فكيف يكون حال المشهود عليه ؟ الشهيد الذي يشهد بكى من الآية ، نعم ! لك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبه رحة بأمة ، ولذلك قلنا إن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمة جميل ربه يعرض عليه أن يتولى أمر أمة ، بعد أن علم سبحانه مدى عنيت صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة

﴿ لَعَلَّكَ نَجِّعَ نَفْسَكَ إِلَّا يَسْكُوتُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الشعراء)

فامر أمته صلى الله عليه وسلم كال يلقفه جداً على الرضخ من أن الحق سبحانه قد أوصح له أنت عيبك البلاغ وليس عليك أن تهدي بالفعل ، وهو صلى الله عليه وسلم يعرف هذا إنما حرصه ورحمته بأمته جعله يحب أن يؤمنوا ، وعليه الصلاة والسلام خاف على أمته من موقف يشهد فيه عليهم خصم من سيشهد عليهم يوم الحشر فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن رسوله مشغول بأمر أمته قال له - لو شئت جعلت أمر أمتك إليك

وانظر إلى العظمة المحمدية والهمم عن الله ، والفضيلة ، فقال له . لا يارب أنت أرحم بهم مني

وكانه صلى الله عليه وسلم يقول للمحلق . « أتقتل مسألتهم في يدي وأما آخرهم ، إنما أنت رب وربهم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك ؟ لقد كان من المتصور أن يقول رسول الله . نعم أعطى أمر أمي لكنه صلى الله عليه وسلم قال . يارب أنت أرحم بهم مني فكيف يكون رد الرب عليه ؟ قال سبحانه : فلا أحزبك فيهم أبداً ، وسبحانه يعلم رحة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم بأمته

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم . « رب إني أصبأت كثيراً من الناس ممن تعني بإيهم مني . » وقول عيسى عليه السلام . « إن تعدبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال . « اللهم آمين آمين وبكى » فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وريك أعلمه فسله ما يبكيك ؟ فأتته جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله . « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل . إنا سرصيك في أمتك ولا نسوءك » (١)

« فكيف إذا جئت ، أي كيف يكون حال هؤلاء العصاة المكذبين . . » إذا جئت من كل أمة بشهيد ، أنه أفنى وبلغ عن الله مراده من خلقه . « وجئت بك من هؤلاء شهداء ؟ »

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿يَوْمَ يَذْرِبُوذَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرُّسُولَ
لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ٤٤

وساعة ترى « يومئذ » ونجد فيها هذا التنوين معصم أنه عوص عن شيء محذوف والمحدوف هنا أكثر من جملة ويصح المعنى : يوم إذ نهى من كل أمة بشهيد وتكون أنت عليهم شهيداً ، في هذا اليوم « يوذ الذين كفروا وعصوا الرسول » لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها ، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة ، كانوا يحسبون أن كلام الرسول مجرد كلام ينتهي ، فعندما بفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم ؟ « يوذ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض » وما معنى « تسوى بهم الأرض » ؟ كما نقول . مسوى بهلان الأرض ، أى تدرسه دوسة بحيث يكون في مسوى الأرض .

« ولا يكتُمون الله حديثاً » . فكيف لا يكتُمون الله حديثاً ؟ وهو قد قال في آية أخرى .

﴿ قَالِ احْفَظُوا فِيهِ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ٤٥

(سورة المؤمنون)

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر به مراحل : المرة يتكلمون ، ويكذبون ، فهم يكذبون عندما يقولون .

﴿ وَاللَّهُ رَئِيسَ مَا كَتَبَ مُشْرِكِينَ ﴾ ٤٦

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

وسيقولون عن الأصنام التي عصبوها .

﴿ مَا نَسْتَدْعُمُ إِلَّا لِئَنَّا يُؤْتِيَنا إِلَهُ زُلْفَى ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

إذن فقله : « ولا يكتمون الله حديثاً » دليل على أن الحديث مندفع ولا يقدر صاحبه أن يكتمه . فالكتم : أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه والواحد منهم في الآخرة : لا يقدر أن يكتم حديثاً ؛ لأن ذاتية النطق ليست في أداة النطق كما كان الأمر في الدنيا فقط ، بل سيحدثون أنفسهم وقد قدموا إقراراً بحطائهم ، وبالسستهم وبجوارحهم ؛ لأن النطق ليس باللسان فقط ، فاللسان يشهد ، والحنود تشهد ، واليدان تشهدان ، بل كل الجوارح تشهد .

إذن فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد ، لماذا ؟ ؛ لأن هناك ما سمي « ولاية الأقدار » ، ومعناها أن هناك قادراً ، وهناك مقصور عليه ولكن يقرب الصورة ، حسماً توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد وبعد ذلك قامت الكتيبة في مهمة ، والقانون العام في هذه المهمة : أن يعمل لهذا القائد قاذرية الأوامر وعلى الجنود طاعته ؛ وألا يجالوا الأوامر العسكرية ، فهذا أصدر هذا القائد أمراً نسب في فشل معركة ما ، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه ، ويسمونه الصابط الأعلى من الصابط الصغير ، فيكون للجنود معه كلام آخر ، إنهم يقولون أن يقولوا هو الذي قال لنا وبهذا أوامره .

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظه الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى فحينما خلق سبحانه الإنسان خلق حواراً منعته لإرادته ، وإرادته مكيمة حسب اختياره وإرادة الطائغ إطاعة أمر واحتساب نهى ، وإرادة العاصي على العكس ؛ لا يطيع الأمر ولا يتعجب انتهى عنه فواحد أراد أن يشرب الخمر ، فجله مشيت ، ولسانه نطق للرجل الذي يعطيه الكلام ، ويده امتدت وأحسب الكأس وشرب ، والحوار التي تقوم بهذه العملية هي خاضعة لقاذرية إرادته ، فقد خلقها ربا هكذا ، وبعد ذلك ، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر في الآخرة تقول له : يارب هو عمل بي كذا وكذا ، لماذا ؟ لأن قاذرية الإرادة منعت :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة صافات)

وليس لي ولا لأحد إرادة في الآخرة ، وبإدام ليس بي إرادة فإلذ نتكلم وتتعرف عمل بي كذا وكذا وكنت يارب مقهورة لقاذرية إرادته التي أعطيتها له فمجرد ما يريد

فأنا أنفذ . عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع . ويعترف النمل بسببه للملأ ، أو مدحه لأحر ، إذن فكل هذه ولاية القادرية من لإرادة على المقدورات من الجوارح لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب لقدرية للإرادة ؛ فلا يوجد أحد له إرادة . فكان الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كرهة؛ لذلك تفعل أوامر صاحبها وهي كارهة . فإذا ما انحست إرادته وحدث الفرصة فتقول ما حدث .

﴿ وَقَالُوا لِيُؤْذِنَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۖ فَالَوْ أَنصَبْنَا اللَّهُ إِلَيْكَ أَنْطَقَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض » ، لأن الكافر سيقول .

﴿ بَلِّغْتَنِي كُنْتُ رَبًّا ۖ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الباء)

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ

وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا

إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ

عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْعَائِلَةِ أَوْ

لَحَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا

طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَفُوًّا غَمُورًا ﴿٥٧﴾

هنا ينقلنا الحق من الأوامر ، من العبادات وعدم الإشراف بالله ، من التحسير من النعمة وثناء الناس وأنه سبحانه لا يطعم أحداً وأما كلنا سنجتمع أمامه يوم لا ظل ، لا طلة ، بعد ذلك أراد أن يصلنا به وصل العبادية التي تجعلك تعبر ولائك لله في كل يوم ، خمس مرات ، وسبحانه يريدك أن تقبل عليه بجماع عقلك وفكرك وروحك بحيث لا يغييب منك شيء .

هو سبحانه يقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ولم يقل : لا تصلوا وأنتم سكارى ؟ أى لا تقربوا الصلاة ولا تقوموا إليها وبجنتيها ، وفيه إشارة إلى ترك المسكرات ، فما معنى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »؟ معنى ذلك أنهم إذا كانوا لا يقربون الصلاة إذا ما شربوا الخمر ، فيكون تحريم المسكرات لم يأت به الشرع بعد ، فقد مر هذا الأمر على مراحل : لأن الدين حينما جاء ليواجه أمة كانت على فترة من الرسل أى بعدت صلتها بالرسل ، فيجىء إلى أمر العقائد فيتكلم فيها كلاماً حاسماً بأن لا مرجح له فيه ، فالإيمان بالله واحد وعدم الشرك بالله هذه أمور ليس فيها مراحل ، ولا هوادة فيها . لكن المسائل التي تتعلق بالعبادة ، فقد جاءت الأوامر فيها مرحلية . فلا يفسر ولا يكره العادة على غير معتادها بل يحاول أن يتدرج في المسائل الخاصة للعبادة مادام هناك شيء يقود إلى التعود

إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بمن يشرع لهم جعل في مسائل العادة والرقابة مرحليات ، فهذه مرحلة من المراحل « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، والصلاة هي . الأتوال والأعمال المعروفة المدعوة بالتكبير والتهنية بالسلم بشرائطها الخاصة ، هذه هي الصلاة ، اصطلاحاً في الإسلام وإن كانت الصلاة في المعنى اللغوي العام هي : مطلق الدعاء .

و« سكارى » جمع « سكران » وهو من شرب ما يستر عقله ، وأصل المسألة مأخوذة من السكر ما سد به النهر ، فالله حين ينساب يصحون سداً ، هذه السد يمنع تدفق الماء ، كذلك الخمر ساعة يشربها تمنع تدفق الفكر والعقل ، فأخذ من هذا المعنى ، « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » المفهوم أن الصلاة تأخذكم خمسة أوقات بقاء الله ، والسكر والخمار ، وهو ما يمحط من أثر السكر في النفس ، وما دام لن يقرب الصلاة وهو سكران فيمتنع في الأوقات المتعارفة بالنهار إذن فقد حملهم على أن

يفرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السكر ومداموا قد اعتادوا أن يتركوها طول النهار وحتى العشاء ، فيحصل الواحد منهم العشاء ثم يشرب ويصام إذن فقد مكث طوال النهار لم يشرب ، هذه مرحلة من المراحل ، وأوجد الحق سبحانه وتعالى في هذه المسئلة مرحليتين تتقبلها النفس البشرية فأول ما جاء ليحكلم عن الخمر قل :

﴿ وَمِمَّنْ تَمَرَّتِ الْحِيلُ وَالْأَعْيُبُ تَحْدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرَدَقًا حَسَتْ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

ويلاحظ هنا أن « اسكر » مقدم ، عن الرزق الموصوف بالحسن ، ففيه سكر وفيه رزق . كأنهم عندما كانوا يأكلون العنب أو البلح فهذا رزق ، ووصف الله الرزق بأنه حسن . لكنهم كانوا أيضا يأخذون العنب ويصنعون منه حمر ، فقدم ربما « السكر » لأنهم يفعلون ذلك فيه ، ولكنه لم يصفه بالحسن ، بل قال « تتحدلون منه سكرًا » ، لكن كلمة رزق وُصفت بالحسن .
بالله عندما نسمع « سكرًا وورقًا حسنًا » ألا نفهم أن كونه سكرًا يعنى غير حسن ، لأن مقابل الحسن : فيح . وكأنه قال : ومن نمرات الحيل والأعياب تتحدون منه سكرًا أى شربا قبيحا وورقًا حسنًا ، ولاهتمامكم أنتم بالسكر ، قدمه ، وبعد ذلك ماذا حدث ؟ عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يأمر بحكم تكون المقدمة له مثل الصبيحة ؛ فالصبيحة ليست حكمًا شرعيًا ، والصبيحة أن يبين لك وأنت تختار ، يقول الحق

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ

مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

هو سبحانه شرح القضية فقط وأنت حر في أن تختار فقال « قل فيها إثم كبير ومنافع للناس » ولكن الإثم أكبر من النفع ، فهل قال لنا ماذا يفعل ؟ لا ، لأنه يريد أن يستأنس العقول لترجع من نفعها للحكم ، وأن يصل الإنسان إلى الحكم بنفسه ، فسبحانه قال : « وإثمها أكبر من نفعها » ههنا الإثم أكبر من النفع فما مرجحات البدل ؟ مرجحات البدائل تظهر لك حين تعارن بين بديلين ثم تعرف أقل البدلين شرًا وأكثر البدلين خيرًا .

حين يقول الحق : « فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها » إذن هذه نصيحة ، ومادامت نصيحة فالخير أن يتبعها الإنسان ويستلمن الله على نصيحته . لكن لا حكم هنا ، فكل هناك ناس يشربون وناس لا يشربون ، وبعد ذلك حدثت قصة من جاء يصل وقرأ سورة الكافرون ولأن عقله قد سذ قال : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فوصلت المسألة ذروتها وهنا جاء الحكم فنحن لا نتدخل معك سواء سكرت أم لا ، لكن سكرك لا يصح أن يؤدي بك أن تكفر في الصلاة ، فلا تقرب الصلاة وأنت مخمور . هذا هي ، وأمر ، وتكليف « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، ومادام لا تقرب الصلاة ونحن سكارى فسناحد وقتنا لمتنع فيه ، إذن فيه إلف بالترك ، وبعد ذلك حدثت الحكاية التي طلبوا فيها أن يفتي الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر الخمر ، فدلوا للنبي : بين لنا في الخمر بياناً شامياً ، فمرل قوله الحق

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأُرْشُمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

إذن فقوله . « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، مرحلة من مراحل التلطف في تحريم الخمر ، فحرمها رمياً ، هذا الرمز هو الرقت الذي يلقي الإنسان فيه ربه ، إنه أوضح لك . اعلمها بعيداً ، لكن عندما تأتيني فعليك أن تأني بجماع فكرك وجماع عقلك ، « حتى تعلموا ما تقولون » فكان هذه أعطى حكماً . أن الذي يسكر لا يعرف ماذا يقول ، هذه واحدة ، ومادام لا يعرف ما يقوله ، إن كان في المسائل العادية فليقل ما يقول ، إنما في لعبادة وفي القرآن فلا يصح أن يصل إلى هذا الحد ، وعندما تصل إلى هذا الحد يتدخل ربا فيقول . « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »

ثم جاء بحكم آخر « ولا جأ إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا » ومعروف ما هي الجبابة : إنها لأثر الناتج من التقاء الرجل بالمرأة . ويقال : إنها البدة التي يعيب فيها العكر عن حاله ، وهذه لغة يسمونها « جماع اللدات » ، لأنها تعم في البدن تلك الرعشة المخصوصة التي تأخذ خلاصات الجسم ، ولذلك قيل : إنه نور عبيك ومنع سابق فأكثر منه أو أقل يعني أنا أعطيتك هذه المقبرة وأنت حر ونحن نغتسل لتعيد النشاط إلى النفس الشرية ، وليس لأحد شأن بهذه المسائل مادامت تتم في صوة

شريعة الله وشأنا في ذلك أن نأمر بأمر ربنا ونعتزل من الحباية سواء فهمنا
الحكمة من وراء ذلك أو لم نفهم

« ولا جساً إلا عابري سبيل » إذا كان المراء بالصلاة ، فلا تقربوا الصلاة ،
بابكر أو بالحباية ولم يقرب . « لا تصلوا » . والصلاة مكانها المسجد ، فقول . « لا
تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جساً » ، أى لا تقربوا
الصلاة ، والقرب عزيمة أن يكون ذهاباً للمسجد ، فكأنه يقول لا تذهب إلا إذا
كان المسجد لا طريق للماء إلا منه .

« وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أى كان عندكم عذر يمنع من الماء » (أو جاء أحد منكم
من العائط) ، و « لعائط » هو . الأرض الوحشية ، الهائطة قليلاً ، وكانوا يقصرون
فيها حاجاتهم ، وأصبح عليها على قضاء الحاجة ، وكل واحد مما يكفى عنها بأشياء
كثيرة فيقول واحد : أنا أريد أن أذهب إلى « بيت الماء » ويتساعل آخر أين « دورة
الماء ؟ » وفي هذا تلطف في الإنذار عن عملية تستغدرها النفس ؛ ولذلك نقول في
العبارة الشائعة : أنا ذاهب - أعمل رى الناس - يعنى أنا لست بدعاً أن أقتضى
حاجتى ، فكل الناس تعمل هذا .

فربما سبحانه وتعالى يقول . « أو جاء أحد منكم من العائط أو لا مستم الساء
فلم تحمدوا ماء فيمموها صعيداً طيباً » ومن رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ،
ومن لطف الحق بها أن التشريع جاء ليفعل عليه الإنسان ؛ لأنه تشريع فلا نقل فى
مثلاً أنا أتوصاً لكم أنظف نسي ولكننا نقول لك . هل توصاً لنظف نفسك وعندما
تفقد الماء تأق بتراب لتصفه عن وجهك ؟ فلا نقل فى النظافة أو كذا ، إنه استباحة
الصلاة بالشئ الذى فرضه الله ، فقال لى : توصاً فذن لم تحمد ماء فتيمم ، أيقظى من
الماء الذى ينظف إلى أن أصبح كفى بالتراب ثم المس بها وجهى ؟ نعم ، لأن
المسألة أمر من الله فهت علته أو لم تفهم ، ولذلك فالشئ عليه الصلاة والسلام
يقول « أعطيت خمسا لم يعطيهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر
وجعلت لى الأرض مسجداً طهوراً فأما رجل من أمى أدركته الصلاة فليصل وأحس
لى العائم ولم يحل لأحد قبل وأعطيت الشعاعة وكان كل من يبعث إلى قومه خاصة

ويبحث إلى الناس عامة (١).

« فليسوا صعيداً طيباً ، ، أى أن تكون وثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذب وكذا . . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خلف ويديل من الرضوء بحسب ، ففى الرضوء كنت أتمسض ، وكنت أستشقى ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أعسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسن وفى هذه الآية يوضح الحق : ملأمت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء آكأت للحدث الأصفر أم للجنازة ، إذن فيكمى أن تمسح بالوجه واليدين

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهي ضربة واحدة تلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ يقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال ضربة واحدة ، وبعضهم قال ، ضربتان وكلها تيسر وهذا الحقيق مناسب لكلمة العموم ، فيقول الحق : « إن الله كان عمواً غموراً » ولكن ماذا حدث ما ليذكر المعصرة ؟ لأنه عفر وسر عليها المشقة ن ضرورة الحدث عن الماء وسر ورحص لنا فى التيمم

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَبْذُلُوا السَّبِيلَ ۚ ﴾

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قصبة من نصايا الكون يومهد لقضية من قضايا العقائد التى تحرم نظام الكون فهو يحاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

بقوله . « ألم تر » والرؤية عمل العين - وعمل العين معلق بانكشاف الأحداث التي تتعرض لها العين - والشيء المرئي دليله معه ؛ لأن الشيء المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مطون ، أي كذب أم يصدق ؟ أما المرئي فدليله معه ؛ ولذلك قالوا : ليس مع العين عين ، أي أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل - أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذي تسمعه ليس كالشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال : دلت على أن فلاناً يبيع حطباً أبيض وأنت تراه

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية بقول « رأيت » ولذلك قالت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إسلام آخر قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا ما رأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب همراً ثم تقول لم حدثته من قبل « رأيت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « رأيت » ينظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « رأيت » على حقيقتها ، كما يقول له .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ① عَبْدًا إِذَا صَلَّى ② ﴾

(سورة العلق)

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « رأيت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتي بهيمة الاستعانة « رأيت » ؛ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من يهيئ إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل فمرة يكون الخبر غير تسمعه الأب ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستمع منه بـ « رأيت » لكي ينتظر منه الجواب . وبذلك يأتي الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه أكد أنواع اليقاز وأكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « رأيت » نقول : أكان ذلك مشهداً برسول الله رآه ، فتكون الرؤية على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلَّ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾

(سورة الفيل)

ويعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

محطوب رسول له لم يكن المشهد أمامه ، فـ ألم تر : ما يعنى أعلمت ، ولماذا عدل هنا عن أعلمت إلى قوله : ألم تر : ٩ . لأن الحق سبحانه وتعالى حين يحطوب رسول له بأمر منه فهو يوضح له . إن أخبرتك بشيء فأعلم أنى أصدق من عيبك ، فإذا قال سبحانه : ألم تر : فهذا يعنى أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحصل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعنى إلا الصدق ، إذن ف رؤية عيبك قد تحونك ؛ لأنك قد تكون غافلاً فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى مسبحرك بكل زوايا الحقيقة . إذن فإخبار الحق أوثق وأكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ٩ عِداً إِذَا صَلَّى ١٠ ﴾

(سورة العلق)

هذه مثلت الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَدَّرَ رَبُّكَ أَنْتَحِبَ الْمُحِبِّ ١١ ﴾

(سورة العلق)

كأنك تراهم الآن ، فـ ألم تر : تعنى كأن المشهد أمامك

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئى أو حاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من خالق أوثق الأخبار في تصديقه

و ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، لأهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشتركون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمراً مشهدهم بالسهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحينما أرسل الله محمداً جعله حتماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعنى : أن لنوة كالها ركب . وفي كل عصر من العصور يأتى من كل مقدار اتساع الخيلة ، وعلى مقدار التقاء لكائنين في الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى في المجمع ، ولكن الله علم أولاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سياتى في فترة رسالته ومبعده ينتظم ويضم كل قضايا الرمس إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهي ، وفوارق الخوارج فيه ستنتهي ، فحدث الخبر أن أدنى الشرق وأغلاء قسمه في أدنى العرب وأغلاء ، والخبر في الغرب تسمعه في الشرق . وانداء يوجد مره في أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد في أي بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فانداءت في المجتمع القديم لسر الاتصال كانت تنزل انحرافاً إقليمياً وكل داء في جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ؛ لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها لكن إذا التزم العلم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتي رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قصايا الداءات ستكون واحدة ونحن نرى الآن كل يوم معجبا ، كلما تحدثت حادثة هناك نجدنا عندنا

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة ونحن نتوحد الرسالة فلا يأتي رسول ليستدرك بعد ذلك ، فرسل الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أحل الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتي رسول حاتم ليكون عند أهل كل ديانة حنيفة تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كَثِيرٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ - وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال .

﴿ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَأَحْذَرْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ ءِصْرِي ۖ فَلَوْلَا اقْرَبْتُمَا قَالُوا فَاشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

إذن فرسل الله مشهود له من كل الرسل ، ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأهم معه على منهجه الذي نزل به . والدين يلتحمون بالإيمان بالسبب بواسطة لرسل السابقين ، إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخبرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتي رسول حاتم فتسوها يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الحاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم في كتبهم الدلالات والإشارات . إذن قاله أعطاهم نصيباً من الكتاب وانظروا إلى دقة الأداء القرآني « ألم تر » يا محمد « إلى الدين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن ماتهم شيء من الكتاب ؛ لأنه سبقول في آية أخرى :

﴿ وَنُزِّلَ الْحَاطِمُ ذِكْرًا بِهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة القلم)

وماداموا قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كسبية في العلم من الدين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ، كان المفروض بهم أن تكون آدائهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الحاتم ، وهذا كان معروف لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانوا يقولون لعبد الأوثان من العرب . نحن في انتظار النبي الحاتم الذي سربسه الله لسفكم إلى الإيمان به . فإذا ما سقناكم إلى الإيمان به وظلمتم على كمركم ، سفتلكم به قتل عاد وذرهم . إذن فهم معصمون بالإيمان بالسبب ، فقل لي إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فليأذ كفرو بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كمار قريش لم يقولوا . إنما أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل ، فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعنوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم يستمعوا بها ، فيقول الحق .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۖ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ

عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الخلق شهوداً على صدق الدعوة ، هر شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الغارقة :

﴿ قَلْبًا جَلَّةَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ولكن يجب أن نغتنم إلى أن الخلق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقيدة في الكون فيها لها مخاف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا أنت تفعل ذلك لشهوة في نفسك لكن الخلق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً في هذا الموقف . فليكن أن نغتنم أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ ولكي تعرف أنت ببنكارك ماذا قدمت للإيمان أنت نهيت أنك صدمت الإيمان لا . أنت أهتت ونصرت الإيمان لكن بتفصيل ! عليك وزر

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبي هو الذي توعدتنا به اليهود ، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ . لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظن عاصم أنه بقدر أن يطفىء نور الله ، لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون . ومثال لذلك عندما غيّر ربنا القبلة ووضع : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشوق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لعني . ولكن أنا سلووجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أنني حين أوجهك إلى الكعبة سيغيب السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ أَنَّى كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فهم يتساءلون : ما الذي جعلهم يتركون القبلة التي كانوا عليها ؟ فإن كانت قلة إبراهيم هي الكعبة فلماذا م يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم يقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يعل ويسجيل . ومن تخفيهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الخلق قال من قبل :

﴿ مَقُولُ السَّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعل الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام ، بما يدل على أن الكفر مظلم والكافر في ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكىء بحق وأصعب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن . « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قلبهم التي كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال . إننا سنقول كذا وكذا ، فهياً لا نقول كي يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسوا الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل العاجز)^(١) .

فالخلق سبحانه وتعالى بيّن : هؤلاء لو اتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المروء من لو اتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، ولينهم اقتصرنا في الشرع عن هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشتركون الضلالة ، ليس فقط في نفوسهم بل يريدون أن يضلوا غيرهم ، وهذه هي المرحلة الثانية ، فهناك من يقبل في دأته وهو حر ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذا كسر مركب . أنت ضللت ونهيت ، فلماذا تريد أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذي ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة في أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن ؟ »

إذن فلا أقل من أن يحاول جذب في صفة حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد ، وإذا رأيت مثلاً في بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتصاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسجبه للانحراف .

ولذلك يجب على المستقيمين أن يتنبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس من تركهم في طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ، لأنه يعز عليهم أنهم لا يفقدون على أنفسهم ويحز في نفوسهم أكثر أن يجحدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقولون . هب نكون كلنا معاً في المعصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر . فلنكن كلك كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا . والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنغرز في قلبه !! والحائن ساعة يرى الأمين تكون الرقبة حربة تزل في قلبه ، فيريد أن يكون الكل مثله . هذه معنى « يشتركون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وتستجدون لجراء في النار ، فلماذا تريدون أن تضلوا الناس ؟ إذن فيجب أن يتنبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزئ أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا أُمِرُوا بِأَمْرِ اللَّهِ تَنَادَوْا ﴿٢٩﴾ وَإِذَا أَنْقَلِبُوا إِلَيْنَا أَهْلِهِمْ أَنْقَلِبُوا فِيهِمْ ﴾

(سورة الطغفون)

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المتحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلي ، يقولون له : « خذنا على جاسحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ، لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هي الصورة التي نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضابطوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الطغفون)

والله سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالدين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فليأكم أن تياسوا أمام هؤلاء ، فليأكم أن تهزموا أمام هؤلاء ، لأنني سأنتقم عيئاً من هؤلاء ، وذلك يأتي يوم الأخرى ويقول الله بعد أن ينزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ نُؤَيِّبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الطغفون)

فالحق يتساءل ليأتى الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسحروا أنتم منهم ، واضمحكوا عليهم كما سحروا منكم في الدنيا .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أي أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حفظاً عما ذكروا به ، « ويشترون الصلاة » ، وساعة تسمع كلمة « يشتري » عرف أن هناك معلومة ومبادلة ، سلعة وثمن ، فيشترون الصلاة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول في آية أخرى :

﴿ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِأَلْهَدَى ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أي أنهم دفعوا أهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه بضع من يدن ، وب نشتره بأخذنا لنا . فحين تشتري سلعة بجنيه ، فالجنيه يضيع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول « اشترى الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى العطرة فكل واحد عنده هدى العطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعي ينتظر رسولاً لبئله عن الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور انعطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء في الكون تحده ، خلعة مستقيمة رتيبة ، ولا تتحلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تررعها نعطيك خيراً كثيراً . ألك قدرة على شيء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت نظراً عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأب من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجيء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجيء بالنعم موجودة ، إذن فهو قد طرأ عليها ، بالله مدام هو قد طرأ عليها ألا يكر من الذي أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يكر من الذي صنع له كل هذه النعم ، وصربنا من

قبل مثلاً بمن انقطعت به الوسائل وهو في الصحراء ولم يجد ماءً ولم يجد طعاماً، ثم يشس فنام، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام، بالله قبلها يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول في نفسه: من الذي أعد وأقام تلك المائدة؟ أنت - إذن - وارد على الكون بخيره كله، ولا أحد قال لك أنا الذي فعلته، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا، فلا بد أن تنتبه إلى أن له خالقاً.

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى، أكان معهم هدى فقدعموه وأخذوا الضلالة؟ نعم كان معهم هدى الفطرة، ولذلك حين سئل الإمام علي - كرم الله وجهه - : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك؟

قال: لو عرفت محمداً برى ما احتجت إلى رسول، إذن فلا يصلح أبصاً أن يقال لأحد: عرفت ربك بمحمد، لذلك قال علي كرم الله وجهه: ولكني عرفت ربي برى، وجاء محمد فبلغني مراد ربي مني إذن فقله: الذين اشتروا الضلالة بالهدى، ماذا فعلوا؟ بعروا هدى لفطرة واشتروا الضلالة، وهذا يقول الحق: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة؟

ولم يأت بـ «الهدى» هت، وهذا يدل على أن الفطرة انطمت عندهم انطماها بحيث لم يقدموا شيئاً للضلالة من الهدى.

ويريدون أن تفضلوا السبيل، أو الإرادة هي: أن يرجح الشخص المختار حكماً على حكم، ومثال ذلك: أنت أمامك جوربان مثلاً، فلك أن تختار واحداً منهما، لكن لو كان أمامك جورب واحد فلإرادتك لا ترجع. إن الإرادة ترجع اختياراً على اختيار، وما معنى «تفضلوا»؟ الضلال يطلق بإحلاقات متعددة، فحواها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك، فهل يحدث ذلك لأنك نسيت أو عرفت وتعمدت أن تتركه؟ فالهدى سى هذا الأمر معذور. لكن هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه نعد أن يتركه، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما في قول الحق

﴿أَنْ تَهْمِلَ إِحْدَهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾

فالضلال هنا نباد لكن هناك من يفضل لأنه يفقد المنهج الحق ويتشرف ويتطلع إليه لينبئه ، كما في قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ سَاءَ لَا فَهْمٍ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن المسائل متشعبة على الإنسان فبرى هذا وذاك ، فأوضح الحق لك لاتتعب نفسك لأن سأعطيك السبيل المستقيم إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً إنما لاتوصلك إلى الغاية ، وأحق سبحانه وتعالى حينها يعرض قصيدة إيمانية عطفية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التى يستعملها الناس فى الكوميديا ، ولذلك فما هو السبيل ؟ السبيل - عندنا - هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لا بد أن يعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع

نحن قلنا نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب ؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نمهد ونعبده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك لوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كى لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولا يعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجهرية ، فالطالب يريد أن يتعلم كى يكون موظفاً ، لكى يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكى يعمل كذا ، هذه هى الغايات الجهرية ، والذكى هو من لا يذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ؛ لأن الناس تختلف فى الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمس سنوات ، وآخر يعيش مئتين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلا بد أن ننظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، معنى للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعبد الناس يأن من أنها تعمل للغايات الدنيا ؛ لذلك نقول لكل إنسان .
انظر الغاية العليا التي سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فلما
ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والفرق في الغايات المحدودة ،
مثلاً : كنت تبيت ابنك ليتعلم من سن الحضنة ثم إلى الروضة ثم الابتدائي ثم
الإعدادي ثم الثانوي ثم التعليم العالي ثم يتخصص في مجال معين في التعليم
العالي ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش
بكله وعرقه، والأب يعمل لهذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يتعب
الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التي
لا تفلت ، فأنتم الآن تعيش في أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش
مع الحق .

إنك في الدنيا تعيش مع الأسباب التي خلقها لك الحق ، لكنك في الآخرة
ستكون مع الحق نفسه . أنت في الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش في الآخرة
بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنتم لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة
الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك في الدنيا فقد تصعد على رر في الحجرة
وباتيك فنجان نهوة ، أو تضغط على زر مياطيك الأكل ، ولكن قل لي مهما ارتقت
الحياة أ يوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشيء على مالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما
سيكون لنا في الآخرة ، إذن فهذه هي الغاية الحسنة ، ونحن نعيش في الدنيا مع
أسباب الله المحدودة لنا ، أما في الآخرة سوف نعيش مع الله ولذلك أوضح
سبحانه : سأعطي المؤمن والكافر الأسباب في الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد
نتاجاً ، وعندما يبحث في الكون وينظر أسرارته فالأسرار تتكشف له ؛ لأن الأسباب
خلقها الله من يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً لكن المسبب لا يذهب له إلا من
آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يحمها الله منه ،
﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِهـ

نَبْهًا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٥﴾

(سورة النور)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تلعب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا القوية ، مسجود لها قد تنهى قتل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء . ولذلك أحصى الله الموت وأسبابه ورمه كي يحصر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما يرغب فيه وفي آخر الأمر تنتهي المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الهباء لأنه لم يؤمن ببلسم ، هب أنه أحد الدب كلها عنده ، نقول له . سيأتيك الموت ، يعنى إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن يفارقك النعمة ، ولكن في الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارحك . هذه - إذن - هي العاية الحقة ، غاية العملاء . ومنعتك في دينك كما قلنا على قدر أساسك - أما منعتك في الآخرة فهي على قدر المسب ، وسبحانه لا يقاير قدره ولا أحد بماتله في فعله . ولعائل هو من ينظر إلى الغاية السعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت العاية ، والذي يجعل الناس تنصب في الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا العايات القوية ، ولذلك سبها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدنى من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحى هذا الاسم بأنها غاية وهناك بقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد العاية . وعندما تحدد العاية تحدد السبيل الذي يوصلك للعاية ، وهكذا تعرف أن هناك فرقاً بين واقع ودافع ، الشيء الدافع هو أن تنصب العاية أولاً وتحددتها ، فالتلميذ يجتهد كي يجمع ، ويسجع لكي يأخذ حظه في الحياة ، وهذه لعاية لابد أن نوحده في ذهنه قبل يتعلم ، وعندما يتصور السجاح ولده في ذهنه فهو يبدأ في المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى العاية وهي السجاح ، فالعاية موعان غاية دافعة ، وعاية واقعة ، فالعاية الدافعة تسوق الطريق ، والعاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن لذي يحدد العاية ؟ .

إن الذي يحدد غاية كل شيء هو من صمعه ، وغايتك أنت من الذي يحددها ؟ أنت تحدد العايات الدنيا ، أما العايات العليا فعليك أن تركها للأهل ليحددها وهو الله . ومادام هو سبحانه الذي يحددها لأنك صنعتها وحلقه ، لذلك مسأله . أنت سبحانه الذي تعلم موقعها فهي لنا الطريق الذي يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت العاية هي أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

أي ان سبيلكم انتم لا توصلكم إلى ، لأنكم حددتموها بعاياتكم ، أما أنا فقد

حددت السبيل بعائقي فمن أريد أن يصل إلى قطب نظر إلى طريقى . وكلمة « السبيل » ، وه الطريق ، كلها أمور حسية ، والحق بسعملها لنا ليدلنا على المعاني العقدية والمعاني المعنوية يوضحها - سبحانه - بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد في معترك طرق وتريد أن تصل إلى المطفة الفلابية . فانحرفك بمقدار المليمتر واحد في بداية الطريق ، يبعدك عن اهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تنزه ، وتمثل هذا بشيء بسيط جداً : كلما نركب القطارات ، ولقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأق بتحويلة لا تتجاوز اثنين من المليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق في القضيب الأصى ، وهذا ما يفعله « المحوّلجى » ، فيحرف لقطر لينتظم الخط ويصل إلى المحطة المطلوبة

ولمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة - رضى الله عنه - حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال - أى أن الإيمان هطرى - ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

« ينام الرجل النومة فتعوض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت - وهو اللسعة التى توجد أثراً على الجلد - ثم ينام الرجل النومة فتعوض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل » (والمجل هو أثر الحمرة التى تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب وربما فيه مياه - كحجر دخرجته على رجلك فتعط - أى اتسخ - فقرأ متبراً وليس به شيء) فيصح الناس يشايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال : « إن فى نبي قلات رجلاً أميناً » (١) .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولعد مر على زمان وما كنت أبان أيكم بايعت لئن كان مسلماً لجرده على دينه ،

(١) رواه البخارى وسلم والترمذى وابن ماجه واحد

ولش كان مصرانياً ليردنه على ساعيه - اى المحتسب - واما الان فما كنت اتابع محكم
إلا قلاتاً وعلاتاً .

إن الإيمان فطري . إن قصارى ما يعطيت هذا الإيمان الفطري أن وراء هذا الكون المدين قوة عظمى ؛ فالكون المعظم ، الرتيب ، الذي لا يدخل تحت طاعتك ولا تحب قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظم . والقوة اعطى القادرة التي وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وسكن صمت الكمال

لكن أعطيتك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أعطيت فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتي يقول : إن القوة التي تبحثون عنها ، واني آمنت بها إيماناً مجملًا اسمها « الله » . فلا بد أن تصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة ، ولكن الذي يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من مجردنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفاسة الجدل ، هذا الطريق الذي يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالتى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تعبد به الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها حزاء للعامل الحسن أو عقاباً على الفعل السيئ ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ . إنها لا تمنحك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يترك الناس على صواب الفعل ويمنع عن سوء الفعل ويملك سلطات الثواب والعقاب . والشمس لا تمنحك منهجاً تعطيه ، وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون إله . ووجود الرسل المبشرين عن الله دليل على صدق الدعوة . فالخلق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناك قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مراده ، ولذلك فعندما يأتي الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق .
أما من يحاول أن يحيط بعقله لحياته بدون الرسول فيقول له : أنت تصيب نفسك
وروحك بالتعب ولن تصل إلى شيء . ونضرب هذا المثل دائماً - والله المثل الأعلى -
هب أننا نجلس في غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن
المخلوس في الغرفة أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه مستخشف . فيقول قائل : إنه
رجل . . ويقول آخر . لا إنه امرأة . ويقول ثالث : لا إنه طفل . ويقول رابع
هذا بشير . ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس . إنه انقادم لنا بالفهوة .
ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف في تحديد من الطارق . وهكذا
الكون ، الكون وراء قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يقول اسم هذه القوة بعقله
أو مرادات هذه القوة بهذا بسبب الخلاف . ولكن حينها ترسل القوة عن نفسها
رسولاً فيقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كد ، هي ذلك جسم
للخلاف .

إن الذي أرهق الفلاسفة ووصل بعضهم إلى حاليذ التيه ، هو أن بعضهم لم
يكتب بتعقل القوة التي حققت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما هيأتها
ومراداتها ونقول إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصحح ، لأنهم بتلك النظرة
يظلمون في التيه ، ولكن البلاغ عن صديق رسول هو الذي يحسم هذه المسألة .
والحديث الذي رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم
المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذي يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة وينها .
احدوا من أن تتسلل الاسحرافات بومة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى
ثالثة أكبر ولوسع وشرحنا ذلك بمثل الاسحراف المقصود لقطارات السكك
الحديدية

إن قوله الحق سبحانه : « يشتركون الضلالة » ويريدون أن تضلوا السبل : كى لا ينحدروا - وحدهم - بالضللال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا محسن اعطن بأن لهم صلة بالسواء؛ لأنهم أتباع رسل ، سبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تضلوا السبل وينحدروا من نصيب الكتاب الذى عندهم وسيلة كى يصلوكم .

وفى عصرنا نجد أن أعدى أعداء أى عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم لأن عدوى الطاهر الكافر بجدهى وأنا وثق أنه يريد أن يدس لدى ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثل يأتى ليكلمنى فربما أخذ كلامه عن أنه مسلم ؛ ولذلك فمحضوم الإسلام يشوا أن يواجهوا الإسلام مواجعة صريحة ؛ وبذلك نجد العرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقى من الاستشراق بهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء يؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأ المسلم قد يقول . إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتمى هذا المؤلف بأن يدس فى الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارىء يثق به .

وعندما علموا أننا طمنا هذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا بثوبها فى مناهج تعليمنا ، وفى برامجنا ، وفى وسائل الإعلام ، وفى الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون محل ثقة ، ووجد لعرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسجون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن حصرمك انطاهرين أهون عليك من حصرمك المسويين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا رسا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعت لذللك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم يعيشون على هذه .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾

قد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم . لكن الله أعلم بالأعداء جميعاً ؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من روحك ، أو عداوة من أولادك أو كل هذه العداوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء في ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبين عداوتهم جميعاً ، لكن الله أعلم بهم وهم يحشون ؛ لذلك يقول . « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أي مخافة أن نقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلنا وكذا وكذا . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن ننتبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدنا : « وكفى بالله ولياً وحين يقول هذا ، فالقول يعني أنك لا تريد ولياً بعد ذلك ، كما يقولون . كفان فلان » أي أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول : لكن فلاناً عرفته نكماش عن كل ذلك ، أي لا يجوز لي أحد سواه ، لأنني أجد عنده الكفاية التي تكفي في كل حركة حياتي .

« وكفى بالله ولياً » . نعم كفى به ولياً لأن غيره من الشر إنما يكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب ولذلك يقول مطمئناً لنا .

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾

(سورة الطلاق)

و الولي دائماً هو من يليك مباشرة أي أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيراً » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضاً نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا يصرك ، لكن الله ولي ونصير ، فيدأت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينهنا : إياكم أن تقولوا إنما ملتصق

الصرة: عد أحد ، اصنعوا ما استطاعتم أن تصنعوه ثم اتركوا ما فوق
الاستطاعة إلى الله . ولذلك فخلق سبحانه وتعالى أوضح لنا : إياكم أن تتخذوا من
أعدائكم أولياء ، وإياكم أن تقبوا ؛ ماذا نفعل ونحن ضعفاء ، ونريد أن نكون في
حماية أحد ، وماذا نفعل في أعدائنا ؟ لا تقولوا ذلك ؛ لأن الله أعلمنا : أنا أنصركم
بالرعب بأن القى في قلوب أعدائكم الخوف فيهبوا من غير سب وفيهم قوة
وعلبة ، فإن لم يكن عندكم أسلحة فأنصركم بالرعب . وما دام سينصروا بالرعب
فهذه كافية ؛ لأنه ساعة ينصرون بالرعب ؛ يلقى عدوى سلاحه وأنا آخذه ؛ ولذلك
قال . اعملوا ما استطاعتم ، ولم يقل . أعدوا لحصومكم ما تحفون به النصر ،
فهو سبحانه قادر على أن يصربا بالرعب :

﴿ سَلِّقْ فِي قُورِ الدِّينِ كَفُّوْا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللّٰهِ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

وما دام القى في قلوب الذين كفروا الرعب فوسائلهم كلها تكون للمؤمنين وتنتهي
المسألة .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ
وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا
لِيَأْتِيَ الْبَسِيفَةُ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن
لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

تكلم الحق في سورة النساء عن الحق الاول وأوضح : أنتي خيفتكم من نفس واحدة وهي « آدم » وبعد ذلك خلقت منها زوجها ، ثم بثت منها رجالا كثير ونساء ، والبيت الكثير للرجال والنساء لتستديم اخلافة للإنسان ، لكن كيف يأتي ذلك ؟ أوضح سبحانه : أريد مجتمعاً قوياً ، وإياكم أن يضيع فيه اليقيم . وبعد ذلك ملامت أريد استدامة هذا الاستعلاف فلاحظ الأيتام نصيباً ، وتكلم - سبحانه - عن التركة ، ثم تكلم عن السهماء غير المؤتمنين على مالهم ، وبعد ذلك تكلم عن كريمة الزواج

إذن فكل هذه العملية ليبي لنا نظام حياة متكمل ، لأن الاخلافة في الأرض تقتضى دوام هذه الاخلافة بالتكاثر ، والتكاثر لا يؤدي مراده إلا إذا كان تكاثر أقوياء ، أما تكاثر الضعاف فهو لا ينفع فإن كان همكم ينهم لا بد أن تلاحظوه ، وإن كان فيكم سفيه لا يستطيع أن يدبر مانه فدبروا أنتم له ماله ، واجتهدوا لتركوا من حركة حياتكم للناس الذين سيأتون بعدكم إلى أن تقرى نفوسهم على الحركة وأوضح سبحانه مناج الميراث ، وأمر سبحانه : أن تزوجوا ، لكن للزواج شروطه وقد أوضحها ، ثم أعطى المنهج العام : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » ، ووضح هذه الأحكام كلها

وبعد ذلك ما الحكمة في أنه - سبحانه - يرجع بنا مرة ثانية لليهود ؟ الحق سبحانه وتعالى يوفى الأحكام ، وإلقاء الأحكام شيء وحل النفس على مراد الله في الأحكام شيء آخر ، فهو واضح لنا : أن هناك ناساً ستعلم الحكم لكنها لا تقدر أن تحمل نفسها عليه ، وإياكم أن تكونوا كذلك واعلموا أن هناك ناساً عندهم نصيب من الكتب أيضاً ، ويعلمون مثلكم تماماً ، إنما اشتروا الضلالة ، إذن بهر شرح لنا ، إنه الواقع الملموس ولا يأتي - سبحانه - بكلام آخرى أو إنشائي ، قد نقول : يحدث أو لا يحدث ، إنه يأتيك بأحداث من واقع الكون ، ويسها : إياكم أن تكونوا مثلهم ، فقال : « من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه » والتحريف أنك تأخذ باللفظ الذي يضمن معين : معنى خبير ، ومعنى شر ، ولكك تريد منه الشر ، مثل الذي يقول « السام عليكم والعياد بالله » هي في ظاهرها أنه يقول السلام عليكم ، لكنه يقول السام يعنى « الموت » ، إذن فعلى اللفظ ما يلحظ ملحظ الخير ، ولكن العدو يميله إلى الشر

ومثل هذا ما قالوه للنبي : « قالوا داعنا ، وهي من المراعاة ، لكنهم كانوا يأنحلونها من الرعونة ، فيأتى الأمر : أتوك الكلمة التى تحتل المعيين واقطع الطريق على الكلمة التى تحتل التوجيهين ، لأن المتكلم ، قد يريد بها خيراً وقد يريد بها شراً ، فمعنى تحريف الكلام أى أن الكلام يحتل كذا ويحتل كذا . والمثال على ذلك : الرجل الذى ذهب لحياط ليخيط له قباء^(١) . وكان الحياط كريم العين - أى له عين واحدة - فلم يسحب الرجل بخياطة القباء فقال : والله ملدعت أفصح هذا الثوب الذى ساطه لى أمام الناس فلا بد أن أقول فيه شعراً بفصحته فى الناس ، فقال :

خساط لى عمرر قباء لبت عينيه سواء

فقوله : لبت عينيه سواء يظهر ماذا ؟ . هل يا ترى يتمى له أن تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن فالكلام يحتل الخير والشر ، ومثلما حكوا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أن يسب سيدنا علياً - كرم الله وجهه وآله - وأن يلعنهم على المنبر .

فقال الخطيب : اعفنى

فقال الولاة : لا ، عزمت عليك إلا فعلت .

فقال له الخطيب : إن كنت عزمت على إلا سمعت ، فأسعد المبر وأقول . طلب منى فلان أن أسب علياً فقولوا معى يلعن الله

فقال له : لا تقل شيئاً . فقد مهم الولاة مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين .

والحق يقول : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . وأريد أن تنبيهوا إلى أن أسلوب القرآن يأتى فى بعض المواضع بالفاظ واحدة ، ولكنه يعدل عن عبارة

(١) القباء ثوب يلبس فوق الثياب وينمطن عليه أى يشد عليه حزام ، ولعله ما يسمى بالثعشان

إلى عبارة ، فيخيل لأصحاب النظرة السطحية أن الأمر تكرر ، ولكنه ليس كذلك ، مثلاً يقول مرة . « يشترى الضلالة بالهدى » ومرة لا يأى بالهدى كتمن للضلالة ويقول . « يشترى الضلالة » ، ولم يلتفتوا إلى أن الهدى لفطرة مطموس عندهم ها ، ومثال آخر هو قول الحق :

﴿ يَجْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَدِّ مَوَاضِيهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : « يجرفون الكلم من مواضعه » ، فكان المسألة لها أصل عندهم ، فالكلام المنزى من الله وضع - أولاً - وضعه الحقيقى ثم أزالوه وبدلوه ووضعوا مكانه كلاماً غيره مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحد مكانه .

أما قوله : « من بعد مواضعه » فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حسب أهوائهم بما اقتضته شهواتهم ، فكانه كانت له مواضع . وهو جدير بها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب المنقطع الذى لا موضع له ، مرة يبدلون كلام الله بكلام من عندهم ، ومرة أخرى يجرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم .

« ويقولون سمعت وعصينا » . فهم يقولون قولاً مسموعاً « سمعنا » ثم يقولون فى أنفسهم : « إنا عصينا » . لقولهم . « سمعنا وعصينا » فى بينهم « عصينا » ، إذن لقولهم « سمعنا » يعنى سماع أذن فقط . إنما « عصينا » فهى تعنى : عصيان التكليف ، وهم قالوا بالفعل سمعت جهراً وقالوا عصينا سراً أو هم قالوا : سمعنا ، وهم يضمرون المعصية ، « واسمع غير مسمع » ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُسمعكم ، بدليل أنكم قلتم : سمعنا ، فإذا تريدون بقولكم : اسمع ؟ هل تريدون أن يسمع منكم لأنه يقول كلاماً لا يعجبكم وستردون عليه ، أو أنتم تريدون استخدام كلمة تحمل وجهاً أخرى فتقبلونها إلى معانٍ لا تليق ، مثل قولكم : « غير مُسمع » ما يترك ، أو « غير مسمع » أى لا سمعت ، لأنهم يسمون له - معاذ الله - لسمعهم ، وقد تكون سبباً من قولهم . اسمع فلان فلانا إذا سبه وشتمه ، فالكلام محتمل .

« واسمع هير مسمع وراعنا لئاً بالسّتهم » لم يقولوا: « راعتنا » من الرعاية بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ ، لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و« ال » : هو قتل الشيء ، والقتل : توجيه شقي الحبل الذي نعتله عن الاستقامة ، وهذا القتل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا ؟ لأنهم يفهمون أنها تعطى قوة لهم

« لئاً بالسّتهم وطعننا في الدين » ، وما داموا يلون الكلام عن الاستقامة فهم يريسون شرّاً ، لأن الدين جاء استقامة ، فساعة يلويه أحد لماذا يريد ؟ إنه يريد « طعننا في الدين » ، « ولو أنهم قالوا سمعنا » ، وبدلاً من إضمار المعصية يقولون : « وأطعنا واسمع وانظرونا » بدلاً من « راعتنا » ، قد انظرونا لا نتحمل معنى سيئاً .

إذن فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يحجب أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حصونه يأتون بالالفاظ محتملة لدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لذلك يوضح : احذروا أن تقولوا الالفاظ التي يقولونها ، لأنهم يريدون فيها جانب الشر وعليكم أن تتعدوا عن الالفاظ التي يمكن أن تحول إلى شر . فلو قالوا سمعنا وأطعنا « واسمع وانظرونا لكان حيراً لهم وأقرم ولكن » ، وساعة تسمع كلمة « لكن » فلتعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريد المشرع ، لأنه يقول « ولو أنهم قالوا » ، لكنهم لم يقولوا ، إذن فالأمر جاء على خلاف مراد المشرع .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم » و« اللعن » هو : الطرد والإبعاد ، فهل نهي الله عنهم في لعنهم وطردهم ؟ لا هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن فلا يقول أحد : لماذا لعنهم الله وطردهم وما ذنبهم ؟ يقول : لا هو سبحانه لعنهم بسبب كفرهم ، إذن فالذي سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » وساعة تسمع معنى حديث « لا يؤمنون » ثم يأتي استثناء « إلا » ، فهو يشيئ بعض الحدث ، نقول مثلاً : لا يأكل إلا قليلاً ، كلمة « لا يأكل » نقت الأكل ، « وإلا قليلاً » أثبت بعض الأكل ، فهو سبحانه يقول « فلا يؤمنون إلا قليلاً » . والإيمان حدث يقتضي محذناً

هو . من آمن ، إذن ، فمتلى حدث وعمل الحدث ، ساعة تسمع استثناء تقول :
هذا الاستثناء صالح أن يكون للحدث ، وصالح أن يكون لفاعل الحدث ، كلمة
« فلا يؤمنون إلا قليلاً » تعني . فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ، لأنهم يؤمنون قليلاً
بالصلاة ، وبأنهم لا يعملون يوم السبت ، أما بقية مطلوبات الإيمان فليست في بالهم
ولا يزدونها ، أو فلا يؤمنون إلا قليلاً فقد يكون بعض منهم هو الذي يؤمن ، وهذا
صحيح عندما نقوله ، لأن بعضاً منهم آمن بالفعل ، ونجد أيضاً أنهم يؤمنون ببعض
الكتاب ويكفرون ببعض ، فيكون إيمانهم قليلاً بالحدث نفسه .

وهناك أناس منهم بعدما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلى القرآن ورأوا
صورته فوجدوه مثلها وُصف عندهم تماماً فأسو ، ولكن هل آمن كل يهود ، أو آمن
قليل منهم ؟ آمن قليل منهم مثل عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، إنما
عبد الله بن صوريا ، وكعب بن أسد ، وكعب بن الأشرف وغيرهم من اليهود فلم
يؤمنوا .

إذن فإن أردت أن بعضاً « قليلاً منهم » هو الذي آمن فهذا صحيح ، ويصح أيضاً
أن الكافرين منهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وفي ذلك تمييز من
الحق سبحانه وتعالى نسميه « صيانة الاحتمال » : لأن القرآن ساعة ينزل بمثل هذا
القول فمن الخائز . وهذا ما حدث . أن هناك أناساً من اليهود يكفرون في أنهم
يعتدون الإيمان برسول الله ، فلو قال : « فلا يؤمنون » فقط لكان من الصعب عليهم أن
يعلموا الإيمان . لكن عندما يقول : « إلا قليلاً » فالذي عنده فكرة عن الإيمان يعرف أن
الذي يخبر هذا الإشعار عالم بدعائل النصوص ، فصان بالاحتمال إعلان هؤلاء الغلة
للإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا
فَنَرُّدَّهَا عَلَىٰ آذَانِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ
السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾

نعلم أن كل التشريعات التي جاءت من السماء لا يوجد فيها تضارب ؛ فالشرع واحد ولن يشرع اليوم شريعة ثم يأتي رسول آخر يشرع شريعة أخرى جديدة . فأصول الأديان كلها التي جاء بها ركب الرسالات واحدة ، ولا تختلف إلا في بعض الأحكام التي تتطلبها ظروف العصور ، وفي التشريع الواحد تتطور الأحكام وخصوصاً ما يتعلق بالعادات . وما كان الله سبحانه وتعالى الرحيم بعبده يأتي لمساله من المسائل تعرض الناس فيها لعادة فتمكنت منهم تلك العادة ، وأصبحت تقودهم أن يفعلوها ثم يأتي ليهيئها بكلمة . لم تأت الكلمة الفصل إلا في العقيدة . لكن المسائل التي تحتاج إلى التعود فالحق يتطلب في أن يخرجها خروجاً ميسوراً ، بمعنى أنه يجعلها مرحليات كي لا توجد فجوة الانتقال .

ويمكن أن شبه فجوة الانتقال . مثلما يكون هناك من يدخن السجائر ، ويصل معدل تدخينه في اليوم مائة سيجارة ، فإذا قلنا له : اجعله خمسين سيجارة ، ثم ثلاثين ، وهكذا ، وبذلك نكون قد رزقنا عادته على بعض الزم ، وبدلاً من أن تكون المسافة بين السيجارة والسيجارة عشر دقائق أو نصف ساعة فلجعلها ساعة فنكون قد كسرنا جزءاً من الاعتماد ، وكذلك مرحليات الأمور الاجتماعية التي تنشأ من رتبة التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا الكتاب آمناً ي تزّلنا مصداقاً لما معكم ، فالحق يوضح : لم تأت بحاجة جديدة ، بل كلها هي عندهم . قد يقول قائل : مادامت بما عندهم فما لداعي لها ؟ . نقول : لأن هناك جديداً في أفضية العصر التي لم تكن موجودة عندهم ، والذي زاد هو معالجة تلك الأفضية الجديدة ،

ولكن أصل الإيمان بوجود القرآن المعجز الذي ينزل من السماء ، بالمعجزة ،
بالتوحيد ، والقضايا العقيدة ، كل هذه لا يوجد فيها خلاف .

« يا أيها الذين آمنوا الكتاب آمنوا » ، وكلمة « آوتوا الكتاب » إزام لهم بالحجة ،
وتعني : نحن لا نكلمكم بكلام لا تعرفونه ، لأنه يقول : « مصداقاً لما معكم » إنهم
يعلمون ما معهم جيد ، فكان من الواجب أن يقارنوا ويوازنوا ما جاءهم من حديد
على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عندهم ، بل وجدوه مصداقاً لما عندهم فقد انتهت
المسألة .

ثم انظر إلى التهديد « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو بلعنهم كما
لعنا أصحاب السبت » ، وكان أمر الله مفعولاً ، سبحانه ياديهم : بادروا ، كما
نقول مثلاً : « الحق نفسك وآمن » ويقول الحق . « من قبل أن نطمس وجوهاً
فنردها على أدبارها » . والطمس هو : المحو . فالشيء الذي طمس هو الذي عي
بعدما كان شيئاً عميزاً ، وكلمة « وجوه » وردت في القرآن بمعنى متعددة ، تنطلق مرة
في اليدين عن ما يواجه وهو « الوجه » كما في قوله .

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

وتطلق الكلمة مرة على الفصد والنية والوجهة ، قال تعالى :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

و « أسلم وجهه » تعني قصده ووجهته وبته .

إذن مرة يطلق الوجه على الوجه الذي به المواجهة ، ومرة يطلق على القصد ،
وما العلاقة بين الفصد والنية ، والوجه ؟ . لأن لإنسان إذا قصد شيئاً اتجه إليه
بوجهه ، وسار له . إذن فالوجه يطلق على هذه الجارحة « الوجه » ، ويطلق عن
القصد والنية . وما دام يطلق بإطلاقين فيطلق على الوجه المعروف فيها ، ويطلق على
القصد والنية التي نوجهنا فالاتان يصحان

وقوله: «نطمس وجوهاً» لأنه سبحانه أوصح: أنا مكرمكم وجعلت لكم سبب تميزكم، بشكلها، حواجب، وعيون، وأنفاً جيلاً، وقياماً، بحيث إنك لو أردت أن تخلق هذه الخلقة، لما استطعت، وسبحانه يعلن: أنا أقدر أن أطمس هذه الوجوه التي تميزكم، بحيث أردنا على الأدبار، فيكون الوجه مثل القفا، وتصح كقطعة اللحم، هذا إن أردنا بقوله: وجوهاً، الوجه الذي في البطن

وإن أردنا بالوجه «الفصد» نقول: الذين يشترون الصلاة، والذين يريدون أن تضلوا السبيل، والذين يحرفون للكلام عن مواضعه، والذين يقولون: «راينا»، والذين يقولون: «اسمع غير مسمع»، ليس لهم وجهة؟ وما وجهتهم في هذا الموقف وما قصدهم؟

إن قصدهم هو صرف أنفسهم وصرف الناس عن اتباع محمد، فكانه يقول لهم: يادروا وأمنوا قبل أن نطمس ونمحو قصدكم فلا يصل إلى انتهاء من صدكم عن الإيمان برسول الله، الحقوا أنفسكم قبل أن يحدث ذلك وبلغتكم ونطردكم من رحمتنا، ولذلك نجد سيدنا عبدالله بن سلام عندما سمع الآية، ذهب إلى رسول الله ويده على وجهه وقال: والله لقد خفت قبل أن أسمم أن يطمس وجهي.

وهذا دليل على أنه أمر بأن الذي قال هذا الكلام قادر على الإنقاذ وفي عهد سيدنا عمر - رضي الله عنه - نجد كعب الأحبار يذهب له، ولم تكن الآية قد بلغت، فلما بلغت ذهب إلى سيدنا عمر وهو واضح يده على وجهه حائفاً أن يطمس وجهه قبل أن يعلى إسلامه. وذلك دليل على يقينه من أن الذي قال هذا الكلام قادر على الإنقاذ.

وقد يقول قائل: ولكن منهم أناس لم يؤمنوا ولم يحدث لهم هذا لطمس. نقول: أمر قال سطمس الوجوه فقط؟ لا، بل قال أيضاً: «أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت» ويكفي أن هنالك أناساً اعتقدوا أن اللطمس قد يجيء وهم من وجوه أهل الكتاب ومن أحبارهم، فالذين آمنوا برسول الله من هؤلاء كانوا يعلمون كيد اليهود، سيدنا عبدالله بن سلام قبل أن يسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

أنا أحب أن أسلم ، ولكنني أخشى إن أسلمت أن يقول اليهود في شراً فقبل أن أسلم أسألم عنى ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار اليهود : ماذا تقولون في عبدالله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وعملنا وحبرنا ومجدوه ، فلما سمع ابن سلام منهم هذا الكلام قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقالوا : هو ابن كذا وابن كذا وسبوه ، فقال ابن سلام : يا رسول الله ألم أقل لك : إنهم قوم بهت^(١) .

لقد روى أن عبدالله بن سلام لما سمع بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر ، فقال له : إني سأثلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول شرائط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام : « أما أول شرائط الساعة فار تخرجهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزينة كبد الخوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزحته » فقال : أشهد أنك رسول الله حقا فقام ثم قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت فإن علموا بسلامي قبل أن تسألم عنى بهتوني عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أي رجل عبدالله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : رأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا آمناه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا شربنا وابن شربنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحترق قال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزل : « قل رأيتم إن كان من عند الله وكفرتكم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله »^(٢) .

« من قبل أن يطمس وجهها » فتردنا على أدبارها ، فإن أردنا طمس الوجه حقيقة ، فهو الأمر الذي خاف منه عبدالله بن سلام وكعب الأحمار ، هذا ذهب إلى رسول الله

(١) قوله بهت فلا فلا تأخذ بالباطل وانرى عليه الكذب ، واسم الفاعل بهت والجمع بهت مثل رسول

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي

وذاك ذهب إلى عمر ، وكل منها كان يمسك وجهه خشية أن يطمس ، إذن فقوله : « نطمس وجوهاً ، أي نجعلها مثل « الفخا » مجرد قطعة لحم من غير تغيير ، أو نحول بينهم وبين نصددهم أي لا يمكنهم من الوصول إلى ما يريدون من صددهم الناس عن الإيمان برسول الله . » من قبل أن نطمس وجوهاً مردداً على أديارها أو نلعنهم ، أو أن نطردهم من رحمتنا ومن ساحة إيماننا ، فيقول الحق .

﴿ نَحْتَمِ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

مداموا هم قد كفروا نقول لكل منهم . ألم تكن تريد أن تكفروا ؟ والله ميسر ذلك الختم على قلبك وسنعتك على هذه الحكاية أيضاً قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة البقرة)

فإذا كنت أنت تريد هذه فسنعطيك ما في نفسك « فرددها على أديارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » وسبحانه يحاطب اليهود ، واليهود يعرفون قصة السبت ويعرفون أنها واقعة حدثت ، وفرددهم الله وأهلكهم وبهم وأعد لهم عذاباً عظيماً إذن فهو لا يأتيهم بمسألة وعيد بدون رصيد ، لا ، فهذا وعيد يسبقه رصيد . . . أنتم - يا معشر يهود - تؤمنون به وتذكرونه ولت تاريج عندكم ، « كما لعنا أصحاب السبت » ، وقصة أصحاب السبت معروفة وإن كانت ساق في سورة أخرى ، وه السبت وهو السكون والراحة ، ومنه السبات أي النوم ، السبت بسبب يعنى سكن واستقر وارتاح

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ، واللعن قالوا فيه : إنه الطرد والإهانة ، وقلوا في معناه : إنه الإهلاك . والذين يحاولون أن يشككوا في مفهومات آيات القرآن يقولون . أنتم لا تفقهون عبد معنى واحد للكلمة ، إما أن يراد كذا ، وإما أن يراد كذا . نقول لهم : أنتم ليست لكم ملكة في اللغة حتى وإن تعلمتم اللغة فتعلمكم اللغة تعلم صعبة لا تعلم ملكة . وعلما الصعبة يعطيك القاعدة ولكن لا يعطيك قدرة وضع اللفظ في معناه الحقيقي ولا بيان المراد منه . واللعن - إذا كان

معناه الطرد - كان يجب أن نفهموا أن الطرد يقتضى طارداً ، ويقضى مطروداً ويقضى مطروداً منه .

ومن لذي يُطرد ؟ .

ومن لذي يُطرد ؟ .

وعن أى شيء يُطرد ؟ .

حين تأخذون المعنى على هذا الوضع لا تجدون غموضاً في أن تتعدد معاني الطرد . فهب أنك تجلس للأكل ثم جامك كذبك الذي تعثر به للحراسة ليحوم حول مائدتك ، ماذا تصنع له ؟ . تطرده عن المائدة ، ذلك طرد . وهب أن أبك مثلاً صبح شيئاً وصعدك صيوف فلردت أن تخرجه من المجلس وقلت له اذهب عند أمك ، هذا طرد .

وإذا كان ذنب الابن كبيراً ولك سيطرة فأنت قد تخرجه من البيت فلا يجلس فيه ، وهذا طرد . وإذا كان ذنب الابن لا يخلص فأنت تخرجه من العرية ، وهذا طرد . وإذا كان هناك إنسان قد أذنب ذنباً كبيراً وكنت صاحب قوة نافذة فأنت تخرجه من الحياة كلها فتكون قد أبعدته من الحياة كلها . إذن فكل ذلك طرد . فإن أردنا الخزي والهوان يتأتى اللعن ، وإن أردنا الإهلاك فقد هلك منهم الكثير في المعارك وبألوا الخزي والهوان ؛ لأننا سينا سادهم وبنانهم وقهرناهم ، وأهلكناهم ، وأخرجناهم من ديارهم إلى بلاد الشام وإلى أدرعات ، وأهلكهم الله بالموت . إذن فكل معاني الطرد تتأتى . فقد جاء بمس كل الذي حدث هم ، ولكنه يختلف باختلاف الطلرد ، وباختلاف المطرود ، وباختلاف المطرود منه .

وحين يقول الحق : « كما لعنا أصحاب السبت » فهذا يدل على أن اللعن له أشياء مختلفة ، أنا سأخذ منها لمن أصحاب السبت ، والسبت يوم من أيام الأسبوع ، أى وحدة زمنية في الأسبوع ، ونلاحظ أن بقية أيام الأسبوع السبعة فيها إشارات إلى العدد، يوم الأحد يعنى واحد ويوم الاثنين يعنى اثنين. وهكذا في الثلاثاء والأربعاء والخميس، فيه خمسة أيام بأعداد موجودة إلا يومين اثنين لم يؤثر فيها العدد : يوم « الجمعة » ،

ويوم « السبت » ، وهذان اللفظان أحدا معان غير العددية ، ولكنها بأخذن معنى العددية بالبعدية أو القبلية .

بمعنى عندما نقول مثلاً « الخميس » فيكون يوم الجمعة بمعنى « ستة » ، إنما لم يقل « ستة » وقال « الجمعة » ويوم « السبت » يكون سبعة ، إذن فأنت تستطيع أن تضع العدد البعدى بعد الأعداد : واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، لكننا نجد أن لها اسمين مختلفين ؛ لأن في كل واحد منها حدثاً علب العددية . « الجمعة » للاجتماع ، فتركنا كلمة « ستة » وأحلها بدلا منها « الجمعة » ، و« السبت » للسكون ، لأن مادتها في اللغة : سبت يسبت ، أى سكن وهذا ولم يتحرك ، مثل قول الحق

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سَأْتًا ۝١٠١ ﴾

(سورة البقرة)

أى مكوياً وهدوءاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد ابتلاء بعض خلقه ليَعْلَمَ منازلهم من الإيمان واليقين والانصياع لأوامر الحق ، يأى فيحرم حدثاً في زمن وهو مباح في غير ذلك الزمن ، فقد يحرم الصيد في أحد الأيام وكان مسموحاً بأن يصطادوا في كل يوم ، وكانوا يأتون بالسمك كزرق من البحر ، فجاء في هذا اليوم حصوفاً وقال لهم : لا تصطادوا في هذا اليوم ، أى أن يسكنوا عن الحركة ، هذا هو « السبت » بمعنى السكون ، و« أصحاب السبت » هم الجماعة الذين اجتمعوا على حادثة تتعلق بالسبت أو تتعلق بالسكون ، أى تتعلق بعدم العمل وبعدم الحركة ، وقصة أصحاب السبت شرحها الحق وتكلم عنها إجمالاً في سورة البقرة :

﴿ وَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ آَعْتَدُوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة البقرة)

وقوله هنا : كما لعنا أصحاب السبت ، لكن القصة بالتفصيل ذكرها الحق سبحانه وتعالى وقال مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنله الأمر ، والرسول هو الذى سأله الله أن يسأل ، والمستأولون هم أصحاب الحكاية وهم اليهود ، وحين

يطلب الحق خيراً مؤكداً من الأخبار ، قد يلقيه خيراً فيصدق أهل اليقين الذين يتقون في الله ويصدقونه ، وقد لا يتركه خيراً ، بل يأتي به في صيغة الاستفهام ، لأنه واثق أن المستفهم منه لا يجحد جواباً إلا الحق الذي يريده سبحانه وتعالى ، وعندما يقول ربنا نبيه :

﴿ وَسَأَلَهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِجَتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
(سورة الأعراف ١٦٣)

ذلك حدث لا يستطيعون إنكاره ، وكان من الممكن أن يقص الله الحدث من عنده ، ولكنه يريد أن يوثق الحدث توثيقاً لا يحتمل إنكار منكر ولا مكابرة مكابر ، فأوضح : أنا لا أقول عن الحدث ، ولكن يعمد أسألهم أنت عن هذه الحادثة سيكون جوابهم جواباً مطابقاً لما حدث ، لأنها مسألة واضحة لا تنكر .

« وأسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر » وكلمة « قرية » تأخذها من « القرى » ، والقرى هو أن تكرم واحداً مقبلاً عليك كصيف مثلاً ولكن ليس عندك ما تعطيه « قرى كاملاً » أي ما يقيم حياته لأيام أو شهور ، بل عندك « قرية واحدة » ، أي أكلة واحدة تكفيه لوجبة واحدة ، فإذا لم يكن لديك فانت تعطيه قرية واحدة - وجبة واحدة - فإن كانت البلد « أم القرى » . فيكون فيها حاجات كثيرة ، لو لأنها أعظم القرى شأنًا والقرية التي جاء ذكرها في سورة الأعراف يتم تعريفها بأنها : « حاصرة البحر » والحاصر هو العريب . فيقال : حصر فلان أي أصبح على مقربة مني ، و « الحاصرة » أبصار هي : التي إن طلعت فيها شيئاً وجدته ، كما قال شوقي - رحمه الله عليه :

ليل بجانبى كل شيء إذا حضر

فكذلك « الحصر » معناه : أن كل حاجة فيها موجودة ، أما البادية فحاجاتها تكون على قدر أهلها فقط ، ولذلك « حضر » ضد « بادية » وأخذوا منها « الحواصر » مثل العواصم الآن ، إذن فقوله : « حاصرة البحر » تأخذها بمعنى قرية

من البحر ، أو أنها هي البلد المتحضر على البحر ، أو الحمامة لأنواع الخير على البحر ، وهي التي كانت بين « مدين » و « الطور » واسمها « أيلة » .

وقصتهم : أن الله أراد أن ينليهم شيء وهو : تحريم الصيد في ذلك اليوم ، ومادامت « حاضرة البحر » ، فرزقهم على الصيد ، فقال : لاتصطادوا في هذا يوم ، ولكن الله حين يريد أن يحكم الإبلاء ليعلم علم إبراز لخلقهم مدى تغيزهم للإبلاء ، وإلا فهو عالم ماذا سيفعلون . فقال : لاتصطادوا في هذا اليوم . قد يقول قائل . لماذا حرم هذا الحدث في ذلك الرمز ؟ . نقول له أنت تريد أن تعلم من لله أن كل تحريم له مضارة ، نقول لك . لا ، فقد يكون تحريم ابتلاء واحتبار ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فَعَلَّمْنَا مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة البقرة)

« الطيبات » هي الحلال ، لكنهم هم فعلوا ما يستحقون عليه العقاب ، فقلنا لهم : مادمتم تجاوزتم حدودكم وأخذتم ما ليس حلالاً ، فجمعتهم حلالاً فلا بد أن أجعل من الحلال الذي هو لكم حراماً عليكم ، هذه مقابل تلك ، فلماذا اجترأت على محرم فأحللته ؟ وما دمت قد فعلت ذلك ولم ترتض تحليلى وتحريمى فإن سأخذ شيئاً من الذى كان حلالاً لك وأسرمك منه .

إذن فلا يتطلب من كل تحريم أن يكون فيه مضارة ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان له أصول ثابتة ، ولذلك يقول :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ

أَخْلَبَ عَلَى وُجُوهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١١ ﴾

(سورة الحج)

إذن فخلق لا يريد من الناس أن يعبدوه على حرف . . لى على طرف من الدين بل فى وسطه وقلبه . أى أنهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذى على طرف العسكر والجيش . . فإن أحسن بظفر وبصر وغيمة سكن واطمان ، وإلا تر وطار على وجهه . هو يريد منك إيماناً حقاً ، ولذلك فبعض الناس

يقول : سأزكى لأريد من مالى . نقول له : اخرج من مالك طنك أن مالك سيريد ، بل أنت تزكى لأن الله طلب منك أن تزكى . أما أن يزيد مالك فهذا شيء آخر ، فلعل الله يتلى إيمانك ويريد أن يرى : أنت مقبل على الحكم لأن الله قال ، أم لأنه سيعطيك ربحاً زائداً ؟ وسبحانه حين يعطى ربحاً زائداً ستركه أيضاً ، لكن هو يريد من يقبل على الحكم لأنه سبحانه قد قال

وقد حرم الحق سبحانه وتعالى عليهم الصيد يوم السبت بظلم منهم ، وكان من الجائز جداً ألا يكون هناك مغريات على المخالفة ، ولكنه أراد أن يلوهم بلاءً حقا فيأتى فى اليوم المحرم فيه الصيد ويكثر من السمك ، ترى السمكة ظاهرة مثل شراع المركب ، وهذا معناه إعراء بالمخالفة ، فلم لم يظهر السمك فى هذا اليوم فكانت المسألة عادية ، لكنهم حين ينظرون السمك وقد « شرع » مثل المراكب سابحا فى الماء ، « إدا تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا » يوم لا يستطيعون لائتائهم .

إذن فالابتلاء جاء من أكثر من زاوية : يوم سبتهم ثاق الحيتان شرعا ، وفى غير يوم السبت لائتاى ، وهذا الأمر يجعلهم فى حالة قلق . فلو كانوا على اليقين والإيمان لالتزموا بالأمر .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يحصمهم لتمحيص الدقيق ، فإذا هم فاعلون ؟ هم يريدون أن ينفذوا الأمر ، إما طمعهم المادى يصعب عليهم ألا يصطادوا هذا السمك الذى يأتيهم يوم السبت ، ولو أنهم وقفوا بعطاء الله فى المنع لنجحوا فى الاختيار . ذلك أن الحق قد يجعل فى المنع عطاء ، لكن من الذى يتنبه لذلك ؟

لم يقولوا : ما عند الله خير من هذا لسمك الشرع الذى يأتينا ويلفتنا . لكنهم احتالوا حيلاً ، مثلاً . صنعوا من الأسلاك والخيال « مصايد » و « جُجى » . و « ملاقف » يحجزون بها هذا السمك الشرع فى لئاء ثم يأتون فى اليوم التالى فيجذبونه بحبوسا ، وظنوا أنهم بذلك احتالوا على الله ولم يتفهموا معنى الصيد ، فالصيد هو جعل السمك فى حيارتك ، وما دمت قد عملت بحيث تتمكن من حيازة السمك فى أى وقت تكون قد اصطدت . إذن فهم يخنلون على الله ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَنَسْنَهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرَ إِذْ يَعْدُونَ فِي آسِنَاتٍ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبَقْتُمْ أُورُشَلَامَ وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ مِثْلُ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
(سورة الأعراف ١٦٣)

ومادام الواحد منهم يفسق ويحل بنفسه شيئاً حرمه ربنا عليه ، فيوضح له ربنا .
مادمت قد فعلت ذلك فسوف أحرم عليك شيئاً أحلته لك ، لأنك أعطيت لنفسك
حرية في أن تحل ما حرمت ، فأنا سأحرم ما أحللت لك .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعِدَةُ إِلَىٰ رَبِّكُم وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴾
(سورة الأعراف ١٦٤)

وهذا دليل على وجود عناصر خير فيها بينهم ، وقالت عناصر الخير : اتقوا الله .
فقال لهم آخرون : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، إذن فهناك ثلاث جماعات : جماعة
خالقوا ، وجماعة لوادوا أن يعظوهم كي لا يقعوا في المخالفة ، وجماعة لاموا من
يعظونهم وقالوا . دعوهم ليهلكهم الله أو يعذبهم . . . « الله مهلكهم أو معذبهم
عذاباً شديداً » ، فقالت الجماعة التي تعظ : نحن نريد بالوعظ أن يكون لنا عذر أمام
الله بأننا لم نسكت عن المنكر ونحن نعمل لأنفسنا . « قالوا معذرة إلى ربكم » وأيضا
فلعلهم يتقون ربهم بترك ما هم فيه من المعصية والفسق . فإذا حدث ؟ . يقول
الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ
نَافِيسٍ يَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ ﴾
(سورة الأعراف ١٦٥)

ومادام قد قال : « أنجينا » ، فهناك مقابلتها وهو « أهلكنا » ، إذن نجاء هنا
« اللعن » بمعنى الهلاك .

ويحتمل الحق الآية التي نحن بصدد حواطرها هنا : « وكان أمر الله مفعولاً » نعم
لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكامله ، لا يتحلف شيء في

وجوده عن أمره ، فلذا وعد بشيء فلا بد أن يحدث ، فأمر الله حير أوامر البشر ، فأوامر البشر هي التي تتخفف أحياناً سواء أكانت وعداً أم وعيداً ، لأنك قد تعد إنسان بخير ، ولكم ساحة أداء الخير لا نستطيعه ، فتكون قدرتك هي التي تحتاج إلى أداء الخير . أو توعده إنساناً وتهدده بشر ، وتعمل فيه كذا غداً ، وقد يأتيك غدا مرض يعمدك فلا تستطيع إنعاده وعيدك .

إذن فأت قد لا تستطيع إنفاذ شيء من وعيدك ولا شيء من وعيدك ؛ لأن قدرتك من الأعيار ، ومداامت قدرتك من الأعيار فقد توجد أو لا توجد . لكن الحق سبحانه وتعالى إذا قال بوعده أو قال بوعيد أيوجد شيء بغير هذا ؟ لا . إذن مساحة يقول ربنا بوعده أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث في الوعد ، أما في الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ما عدا الشرك بالله .

ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى يوزع الأحداث على الزمن ، فلا زمن يقيد ، لأنه يملك كل الزمن ، أما أنت كواحد من البشر فتتكلم عن الحدث حسب زمانه . فإن كان هناك حدث قد حصل قبل أن تتكلم أنت عنه ، فنقول : فعل « ماض » . أي أن الحدث قد وقع في زمن قبل زمن تكلمك ، وإن كان الحدث يقع في وقت تكلمك ، كان الفعل « مضارع » ، والمضارع صالح للحال والمستقبل ، تقول . فلان يأكل وذلك يعني أنه يأكل الآن وإن قلت : « سيأكل » - أي أنه سيأكل بعد قليل ، فإذا قلت عن أمر مستقبل إن هذا الأمر سيحدث ، أتملك أنت أن يحدث ؟ لا . إذن فالكلام منك على الاستقبال قد يكذب وقد يصدق ، لكن إذا قال الحق وأخبر عن أمر مستقبل وعبر عنه بالفعل الماضي فمعنى ذلك أنه حادث لا محالة ، ولذلك فالزمن عند ربنا ملغى .

وعندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(مر الآية ١ سورة النمل)

« أتى » هذه فعل ماض ، وقوله : « أن » يدل على أنه أمر قد حدث قبل أن يتكلم ، وقوله : « فلا تستعجلوه » دلّ على أنه لم يحدث ، فالذي يشكك في القرآن يقول . ما هذا الذي يقوله القرآن . ؟ يقول : « أن » وهو لم يأت ؟ . نقول له هذا الكلام عندك أنت . لكن إذا قال الله : إنه « أن » فهو آت لا محالة ، فالحكم

على الحدث المستقبل من الله على أنه أمر كائن كما يكون كائناً ماضياً ، مادام قال فلا راد لأمره . « ألى أمر الله » فهي بمعنى سيأتي . ولا يوجد قدره في خلقه بصرف مراده أو تعجزه عن أن يفعل .

وقوله سبحانه : « وكان أمر الله مفعولاً » جاء لأنه قال من قبل « أو نلعنهم » هذه مستقبل وقد يقول قائل : أن « نلعنهم » تعني أن اللعنة لم تأت وقد لا تحدث ، ويقول : لا ؛ لأن أمر الله كان مفعولاً ، فإياك أن تأخذ « لعن » هذه التي للمستقبل كي تطبقها عند ربنا ، لأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لك : أنت الذي عندك المستقبل ، والمستقبل قد يقع منك أو لا يقع ، لأنك لا تملك أسباب نفسك ، نقول : سأعمل الشيء الفلاني عدداً وقد يأتي عدو وتكون أنت غير موجود هذه واحدة ، أو نقول سأقابل فلانا . وفلان هذا قد لا يكون موجوداً فند يموت ، لو قد يتغير رأيك ويأتيك الشيء الذي كنت تطلبه قبل أن تتكلم مع ذلك الإنسان ، أو قد نقول : أنا سأنتقم من فلان ، وعندما يأتي وقت الانتقام يبدأ قلبك

إذن فانت لا تملك شيئاً من هذا ، فلا يصح أن تحدث : ولعلك تعلمنا الله الأدب مع الأحداث ومع الكون ومع المكون ، ونخرجنا عن أن نكون كذايين فيقول لرسوله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ عَدَاً ۚ إِلَّا أَن يَسَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢٢)

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

يعلمك الحق ذلك حتى لا تكون كذاياً ، فإن قلت : أنا فاعل ذلك عدداً ثم لا تفعله ، ولمدمت لا تفعله فتكون كذاياً مجترناً ، لأنك افترضت في نفسك القدرة على الوجود .

وكل حدث من الأحداث مثلها قلنا : يحتاج إلى « فاعل » ، ويحتاج إلى « مفعول » يقع عليه ، ويحتاج إلى « زمن » ويحتاج إلى « سبب » ، ويحتاج إلى « قدرة » تبرزه في المستقبل ، قل لي بالله عليك : ماذا تملكه من عناصر الفعل ؟

أنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا تملك السبب ، ولا تملك

القدرة ، ولا تملك شيئاً ، فليكن منك عليك أن تقول : « إن شاء الله » فإن لم يحدث
تقول : أنا قلت إن شاء الله وهو لم يشأ ، فتكون قد أخرجت من التبعة ، ولم تكن
كذاباً . إذن فقول الحق : « وكان أمر الله مفعولاً » لأنه قال : « أو نلعنهم » .
وه نلعن ، هذا فعل مضارع ويأتى من بعد ذلك ، فواحد قد يقول : إنه سبحانه قال :
سيلعن ، فهل ستحقق اللعنة ؟ نقول له : نعم ، لأنه قال : « وكان أمر الله
مفعولاً » . وكذلك ساعة تقرأ أو تقول : « وكان الله غفوراً رحيماً » . فعليك أن
تضيف : ولا يزال غفوراً رحيماً ، لأن صفة الرحمة لم توجد له ساعة وجد المرحوم ،
لا . بل معنى « رحيم » أنه سبحانه يرحم غيره والذي وجد ليتلقى رحمة سبحانه إنما
جاء بعد أزلية رحمة الله ومغفرته ، فسبحانه أرئى قديم . والصفة أرلية وقديمة بقدمه .
سبحانه قبل أن يوجد من يرحمه ، وهو لا تأتبه أغيار . وما دام سبحانه رحيماً قبل أن
يوجد مرحوماً له فإذا أوجد مرحوماً له ، أُنشئ له صفة أم تبقى ؟ إنها باقية دائماً فكان
الله ولا يزال غفوراً رحيماً ، « وكان أمر الله مفعولاً » نعم ، لأنه قد فعله بأسبابه وقد
يفعله بدون أسباب فالأمر متروك لمشيئته فلما أن يوجد الشيء من غير سبب أو يوجد
بسبب ، والشيء الموجود بالسبب مخوق بالسبب ، فسبحانه خلق الأسباب .

وبعد ذلك يتصل الحق سبحانه إلى قضية عقدية أساسية في صلة الإنسان بالحق
سبحانه وتعالى . يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا
عَظِيمًا ۝١٨﴾

هذه من أرحى الآيات في كتاب الله ، ولذلك فحينما مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما موجبات الإيمان ؟ أى ما الذى يعطينا الإيمان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »^(١)

ونحن نقول إن من يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية ، وإن كانت القوانين الوضعية لبس غرضها أن تؤكد قضايا ديمية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتفت منها أنها تؤكد القضايا الديمية أيضاً .
هب أن جماعة قاموا بحركة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة في نفع خاص له ، وواحد آخر استغل الحركة في أن تكون له لا للآخر ، أي ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظم يسيبها خيانة عظمى ، أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ولكنه يظلم الناس فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه وليس على الخيانة العظمى . إذن ففي قانون البشر أيضاً خيانة عظمى ، وفيه انحراف وهو الذي لا يتعرض للسيادة ، لكن أي حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له ، ونحن نعرف بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له . فانت تدخل حصن الأمان ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

« أشهد ألا إله إلا الله وأن رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاك منهما إلا دحر الجنة »^(٢) .

وأبوذر عندما قال للنبي في محادثة بينهما حول هذه الآية ، قال له : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قمت : وإن زن وإن سرق ؟ قال وإن زن وإن سرق ، قلت وإن زن وإن سرق ؟ قال وإن زن وإن سرق (ثلاثاً)

(١) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم

ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذر^(١)

لقد كان أبو ذر غيوراً عن حدود الله ، فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبي ذر ؛ هل هذه أحزنت أبا ذر ؟ لا ، لم تحزنه ، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبي ذر وهو مسرور ، لماذا ؟ لأنها فتحت باب رحمة الحق ، لأنه إذا لم يكن هذا فيما الفارق بين من اعتقدها وقيلها وبين من لم يقلها ؟ فلا بد أن يكون لها تمييز . وكل جريمة موجودة في الإسلام والحق سبحانه . قد جرمها - فهذا يعني أنها قد تحدث . مثال ذلك . . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(س الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا يعني أنه من الجائر أن يسرق المؤمن ، وكذلك قد يرى في غفلة من الغفلات ، وفي أسس الاستغفار يأتي البيان الواضح : من الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة ، الحج كفارة ، الصوم كفارة .
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر »^(٢) .

أي أن ربنا قد جعل أبراباً متعددة للمغفرة وللرحمة ، وهو سبحانه يقول : « إن الله لا يفرح أن يشرك به » وهذه المسألة ليست لصالحه إنما لصالحكم أنتم حتى لا تتعدد آله البشر في الشر ويهلك الإنسان ويشقى من كثرة الخسوع لكل من كان قويا عنه ، فأعفائك الله من هذا وأوضح لك . لا ، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخسوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه ، وفي ذلك راحة للمؤمن

إن الإيمان إذن يعلم العزة والكرامة ، وبدلاً من أن تتحى لكل مخلوق اسجد للذي خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله ، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة ، هل أنتم زدت له صفة ؟ لا . فهو بصفات الكمال أوجدكم وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم ، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً ، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم والترمذي

ما مصلحتها بالنسبة لله ؟ إن مصلحتها تكون للعبد فحسب .
ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يهتموا كل أسبوع مرة ؛
لأنك قد تصلى فرضاً فرضاً في مصعبك أو في مزرعتك أو في أي مكان ، إنما يوم
الجمعة لا بد أن تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذل لله بينك وبينه ،
تخضع وتسجد وتبكي بينك وبين الله ، لكنه يريد هذه الحكاية أمام الناس ، لئلا
كل من له سيادة وجاه يسجد ويخضع معك لله . وفي الملح ترى كل من له جاه ورياسة
يؤذي الناسك مثلك ، تقول بينك وبين نفسك أو تقول له . لقد استويت في
العبودية ، فلا يرتفع أحد على أحد ولا يدل له بل كلنا عبيد لله ونخضع له وحده .

إذن فالمسألة في مصلحة العبد ، « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ، لأنه لو غفر أن
يشرك به لتعدد الشركاء في الأرض ، وحين تعدد الشركاء في الأرض يكون لكل
واحد إله ، وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة ، لكن الخضوع لإله واحد تأمر
جميعاً بأوامره بحراً جميعاً . . فلا سيادة لأحد ولا عبودية لأحد عبد أحد ، لقول .
« إن الله لا يغفر أن يشرك به » . . هذا لمصلحتنا .
« ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

ودوى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال أن وحشي وهو قاتل سيدنا حمزة
في غزوة أحد ، أتى على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال . يا محمد أتيتك مستجير
فأجرتني حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير
جوار فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جوارى حتى نسمع كلام الله قال : فإني
أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وريت هل يقبل الله مني نوبة ؟ عصمت
رسول الله حتى نزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقُولُونَ النُّفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ
فِيهِمْ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْثِقَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مِثْقَالُ الْحَبْلِ
سَوَاطِينَهُمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ٧٧ ﴾

فتلاها عليه فقال أرى شرطا فلعن لا أعمل صالحا ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ إِنْ أَقَرَّ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝ ﴾

(سورة النساء)

مدعا به فتلا عليه قال : فلعن من لا يشاء ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ قُلْ يَسْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

سَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾

(سورة البر)

فقال نعم . الآن لا أرى شرطا فاسلم .

إذن فالمسألة كلها تلتقط من الخلق بخلافه ، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر ، ومادام الحق يقن تقنيات فمن الجائر أنها تحدث ، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها ، إياك أن تأتي سيرتها عنده مرة أخرى وتذكره بها وافرض أن واحدا شهد زور ، افرض أن واحد ارتكب ذنبا ، ثم استغفر الله منه وتب . إياك أن تقول له : يا شاهد الزور ، لأنه استغفر من يملك لمعرة ، فلا تجعله مذبا عندك . لأن الذي يملكها انتهت عنده المسألة

لماذا ؟ كيلا يبدل الناس معصية فعلت ، بل العكس ، إن أصحاب المعاصي الذين اسرفوا على أنفسهم يكوبون في نظر بعض الناس هيبي محقرين . ولذلك يقول إن الواحد منهم كلما لذته التوبة وبدم على ما فعل كُتبت له حسنة ، فعلى رهم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها ، وهذا هو السبب في أن الله يبدل سيئاتهم حسنات ، وعندما تعلم أن ربا يبدل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نعتذر المرفين على أنفسهم . بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا ، ولاجعل لهم أثرا رجيا في الرحلة والمعصية

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » رواه الامراء « هو الكذب المتعمد . لأن

هناك من يقول لك فضية على حسب اعتقاده ، ونكون هذه الفضية كاديه ، كان يقول لك : فلان رار علاناً بالامس .

هو قال ذلك حسب اعتقاده بأن قالوا له أو رأى أثراً للريرة ، على الرغم من أن مثل هذه الزيارة لم تحدث فيكون كذباً فقط ، أما الشرك فهو تعبد اكذب على الله وهذا يطلق عليه « افتري إثماً عظيماً » لأنه مخالف لوجدانية الفطرة ، كأن وجدانية الفطرة تقول : لا نقس إلا ما تعرفه فعلاً وأنت متأكد بل عليك ألا تخالف فطرتك متعمداً وتجعل الله شريكاً .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له إما أن تكون هذه الكلمة صادقة فستهي ، وإما ألا تكون صادقة - ولعياد بالله أي أن هناك أحداً آخر معه ، وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول : لا إله إلا أنا أسكت أم لم يسمع ؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً ، وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول : لا ، لا إله إلا أنا ، ويأتي بمعجزة أشد من معجزة الآخر ولم يحدث من ذلك شيء إذن فهذه لا تنفع وتلك لا تنفع ، فـ « لا إله إلا الله » حين يطلقها الله ويأتي بها رسول الله ويقول الله : أنا وحدي في الكون ولا شريك لي ، ولم يازعه في ذلك أحد فمسألة صادقة لله بالهداهة ولا جدال

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » والافتراء كما يكون في العمل وفي الكلام ويكون في الاعتقاد أيضاً . « إثم عظيم » ، وهذا يعني أن هناك إثماً غير عظيم ، « الإثم العظيم » هو الذي يحل قصة عقوبة واحدة في لكون تشمل الوجود كله هي أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عوداً على هؤلاء اليهود :

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَرِكِي

مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝١٩﴾

وتقدم أن أشرنا إلى قول الحق : « ألم تر » ، فإن كانت الصورة التي يحاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ماثية أمامه تكن الرؤية على حقيقتها ، وإن لم تكن ماثية أمامه وكان مراد الحق سبحانه أن يعلم بها وهي غير معاصرة لرؤياه فالحق يقول : « ألم تر » يعنى . ألم تعلم ، وكان العلم بالنسبة لخير الله يجب أن يكون أصديق عما تراه العين ؛ لأن العين قد تكذبه والبصر قد يحدعه ، « ألم تر إلى الذين يركون أنفسهم » و « التزكية » هي أولاً : التطهير من المعاييب وهذا يعنى سلب انتقيصه ، وبعد ذلك إيجاب كمالات زائدة فيها غناء ، والتزكية التي زكوا بها أنفسهم أنهم قالوا :

﴿ نَحْنُ أَسْتَوُاْ لِلّٰهِ وَاحْتَرَفُمْ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وجاء الرد عليهم في هذه القضية بقوله الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَرِّرٌ مِّنْ خَلْقٍ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

يعنى : إن كنتم أحباءه وأبنائه فلماذا يعذبكم ؟ إذن فهذه قضية باطلة ، ثم ما فائدة أن تقولوها ك ؟ أنتملك لكم شيئاً ؟ إذا كنتم تكذبونها على من يملك لكم كل شيء وهو الله - سبحانه - فما لنا نحن بكم ؟ والتزكية التي فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل وبراوا أنفسهم من العيوب وادعوا أنهم أبناء الله وهم ليسوا أبناء الله وليسوا أحباءه ، وقالوا أيضاً :

﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وتلك أيضاً قضية باطلة ، وهنا نسأل : هل إذا زكى الإنسان نفسه بحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟ . نقول : علينا أن نسأل : ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها الفخر تكميلاً ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة في أمر يحتم ذلك . مثاله : عندما تترك جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يهدف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة ، ثم قامت عاصفة ولا يقوى متوسط الموهبة على قيادتها. هنا يتقدم إنسان يفهم في قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول متوسط الموهبة : ايتعد عن القيادة فانا أكثر فهماً وكفاءة وقدرة منك على هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه تزكية

للنفس ، وهي مطلوبة ، لأن الوقت ليس وقت تجربة ، وهو يزكى نفسه بحق ، إذن
هناك فرق بين التركية بالباطل وبين التركية بالحق

وحسن معلم قصة سيدنا يوسف ، ونعلم قصة رؤيا الملك حيث رأى سبع بقرات
سود يأكلهن سبع عجايب !! وكان المعروض العكس ، انظر إلى المنحطية ، لأن
سير الخدب يتأكل سبع الخصب ، لكن من الذى يتجه إلى رموز الرؤيا . فتعبير
الرؤيا ليس علماً بل هبة من الله يمسحها لأناس ويجعلهم حباء في فم رموز - شعرة -
الرؤيا ، ودليل ذلك أن الملك قال هذه الرؤيا للناس فقالوا له : « أضغاث
أحلام » ، و « أضغاث » مرادها « صفت » وهو الخشيش المحلوط والمختل ،
لكنهم أصغروا فقالوا :

﴿ وَمَنْ نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يوسف)

لقد أنصروا في قولهم . لأن الذى يقول لك : لا أعلم فقد أتى ، فهناك مدخل .
لا أدري مريضك إلى أن تسأل سواه ، لكن إن قال لك أى جواب فستكتفى به
وتتروك ، إذن فمن قال لا أدري فقد أجاب . فهم عندما قالوا : أضغاث أحلام
قد احتالوا واحتاطوا لأنفسهم أيص وقابوا . « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ،
وكان الحق سبحانه وتعالى قد صنع الشهد ليوسف وهو في السجن عندما دخل عليه
الفنيان :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أُرْسِيْ عَصِيْرُ خَمْرٍ وَقَالَ الْآخَرُ

إِنِّي أُرْسِيْ خَمْلٌ فَوْقَ رَأْسِيْ خَبْرًا تَكْكُلُ أَصْبِرُ مِنْهُ نَيْقًا بِتَأْوِيلِهِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يوسف)

ما الذى جعل الفتين يعرفان أن يوسف اسجون هذا يعرف تأويل الأحلام ؟ لقد قالوا
وأوضحا العلة :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ومعنى ذلك أنها شهدا سمته وسلوكه ، وعرفا أنه إنسان مسالم ، فلما حَزَبَها واشتد عليهما أمرٌ يتعلق بذاتهما قالَا : لا يوجد أحسن من هذا الإنسان سِالَهُ ، وقلت ولا أزال أكررها : إن القيم هي القيم ، والصادق يحترم حقَّ عند الكذاب ، والذي لا يشرب الخمر يحترم حد من يشرب بدليل أنها عندما حَزَبَها أمر قالَا : « إنا نراك من المحسنين » .

وهل يحكم واحد على آخر أنه محسن إلا إذا كان عليه مقياس يعرف به الحسن ويميزه عن القبح ؟ وعندما قالَا ذلك الأمر لسيدا يوسف ، كان من الممكن أن يجيبها إلى تأويل رؤياهما ، ولكن هذه ليست مهمته ، بل فكر : لماذا لا يستعمل هو حاجتهما إليه لأمر يتعلق بشخصيهما ، وبعد ذلك ينفذ إلى مراده هو منها قبل أن ينفذ إلى مرادهما منه ، فهو نبى ومن سلالة أنبياء فأوضح لهما . ولماذا رأيتما من إحسانى ؟ إن عندى أشياء كثيرة .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكَ رِشَاقِيهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

فقد زكى نفسه ، لكن انظروا لماذا زكى نفسه ؟ هو يريد أن يأخذ يدهما إلى ربه هو ، بدليل أنه قال :

﴿ ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يوسف)

إذن فالتركية هنا مطلوبة ، وقد رَدَّها الله ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية لى ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثلى .

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك قال :

﴿ وَأَتَّعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

إذن فمن الممكن أن تكونوا مثل إذا ما تبعت هذا الطريق ، بعد ذلك قال لهم :

﴿أَرْبَبٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الحج)

أى إله واحد أحسن أم آفة متعددة ؟ فأنتم يا أصحاب الألهة المتعددة جئتم لصاحب الإله الواحد مع أن التعدد - فى الظاهر - يعطى القوة ، لكن هذا التعدد أعطى الضعف . لأنكم يا أصحاب الألهة المتعددة لجأتم إلى صاحب الإله الواحد

﴿أَرْبَبٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ٢٩ سورة يوسف)

إذن فهو زكى نفسه أمامها لكنى ياخذها إلى جانب من زكى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك عندما علم الملك قال : اتنوني به أستخلصه لنفسي ، ويكون مقرباً منى . ثم بعد ذلك جاءت سنون الجذب التى تنبأ بها أولاً فى تفسير الرؤيا ، وأشار عليهم بضرورة الادحار من سنين الخصب لسنين الجذب ، لقد كانت التجربة إخباراً لأبناء متحدث ، فلما وقعت علم أن المسألة ليست تجارب بل هى مسألة دقيقة . فقال للملك :

﴿أَجْعَلِي بَيْنَ نَرَّائِنِ الْأَرْضِ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إذن فقد زكى نفسه ، وجاء بالحليشة :

﴿إِنِّي حَصِيظٌ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

لأن هذه المسألة تحتاج حفظاً وعلماً ، فهى أمر غير حاضج للتجريب ، فيجرب واحد فيخيب ، ويجرب آخر فيخيب ، لا ، لأنها تحتاج حفظ وعلم ، ومثال ذلك أيضاً عندما كان النبی صلى الله عليه وسلم يقسم الغنائم ، قال له المنافقون : اعدل يا محمد ! فيقول لهم : والله إني لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، فهو يزكى نفسه ، إذن فمنى تكون لتركبة مطلوبة ؟ أولاً : أن تكون بحق ، وأن يكون لها هدف عند

من يعلم الزكوة وإلى من يعطيك الزكوة ويثنى عليك بما فيك وما أنت أهل له فتكون هذه زكوة صحيحة ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (٣١)

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

لأنك تزكي نفسك عند الذي سيعطى الجزاء وهو يعلم ، إذن فمن الحق أن يزكي الإسلام نفسه في غير المواقف التي يحتاج فيها الأمر إلى زكوة تكون لفائدة المسلمين لا لفائدة الخاصة ، والحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي اللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَسْأَلْ وَلَا يُطْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٣٢)

(سورة النساء)

إن الحق سبحانه وتعالى لا تخفى عليه حاية ، فمن الممكن أن واحداً يتصنع ويتكلف في نفسه مدة من الزمن ألامس ، لكن هناك أشياء أنت لا تدركها ، لكن ربنا عندما يزكي تكون زكوته عن علم وعن حيرة ، ومع ذلك لمحين يزكون أنفسهم ، أهذه تحت حسناتهم ؟ لا فعل الرغف من أنهم زكوا أنفسهم فالحق لم يأخذهم هكذا ، ووضع حسناتهم ولكنهم لا يظلمون فتيلاً ، وهذه مطلق العدالة .

ونعرف أن القرآن بول لسان عربي على نبي عربي ، والدين بالشريعة أولاً عرب ، ويعرف أن أغلب إجماعاته كانت متوافقة مع البيئة ، وكان عندهم « النخل » وهي الشجرة المفضلة لأنها شجرة لا يسقط ورقها ، وكل ما فيها له فائدة ، فلا يوجد شيء في النخلة إلا وفيه مائدة .

عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم ، حدثوني ما هي ؟ »

فوقع الناس في شجر البادية ووقع في نفسي أنها النخلة . قال عبد الله فاستحييت ، فقلوا : يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هي النحلة » قال عبدالله فحدثت أن بي وقع في نسي ، فقال : لأن تكون قلتها أحب لي من أن يكون لي كذا وكذا^(١) .

وبالنحلة فوائد كثيرة ، فكل ما تأخذ منها نجد له فائدة حتى الذهب حولها يحمل الحرير تأخذ وتصنع منه مكاني وليفاً ومقاطف ، ود كراسي . وحيثما يطلب سبحانه وتعالى مثلاً على شيء معنوي فهو يأتى بالشيء المحس في البيئة العربية

« ولا يظلمون قليلاً » وه الفتيل « من » العتلة ، ومن معناها : الشيء بين الأصابع ، فأنت حين تأخذ أصابعك منها كانت نظيفة يخرج بعض « الوساحات مثل العتلة » ، أو « الفتيل » هو : الخيط في شئ نواة البذرة ونواة الثمرة ، جاء سبحانه وتعالى في القرآن ثلاثة أشياء متصلة بالنواة .

بـ « الفتيل » هنا ، وجاء بـ « النقيير » : وهو النقرة الصغيرة في ظهر النواة وماخوذة من المنقار ، كأنها منقورة ، وجاء بـ « القطعير » : وهي القشرة التي تلب النواة ، مثل قشرة البيض الداخلية وهي قشرة باعنة ، إذ في النواة ثلاثة أشياء استخدمها الله . الفتيل و « النقيير » ، و « القطعير »

والحق يقول :

﴿ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة النساء)

إذن فالحق سبحانه وتعالى أخذ من النواة ثلاثة أشياء ويعطينا من الشيء المحس أمثالا يراها العرب في كل وقت أمامه ويأخذ الحق أيضا أمثالا من السماء فيأتيها بمثل : « الهلال » ، يقول في الهلال وهو صغير

﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَرِيبِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يس)

فبساطة البلع فيها شاربخ ، وفيها يد تحمل الشاربخ ، فهذا اسمه « العرجون » ، والعرجون عندما يكون جديداً يكون مستقيماً ، لكنه كلما

قَدُمَ يَشَى وَيَسْحَى ، فجاءهم من الهلال في لسياء وأعطاهم مثلاً له في الأرض
« كالعرجون القديم » ، والعرب قد أخذوا أمثلاً كثيرة ، لكن هناك حاجات قد
لا يُتَسَمَّ إليها مثل قول العرب :

وغاب ضوء قَمِيرٍ كنت أرفه مثل الفُلاَمَةِ قد قَدَّتْ من لُطْفَرٍ

فساعة نقص أظافرك نهدتها مقروسة . لكن هذه المسألة لا يتسبب لها كل واحد ، فهو
جاء شيء واضح وقال : « كالعرجون القديم » ، إذن فالحق سبحانه وتعالى حين
يعطى مثلاً لأمر معصي فهو يأتي من الأمر المحسن أمامك ليُقرَّبَ بك المعنى ، وعندما
تأكل التمرة ، لا تنتفت إلى الفتيلة عما يدل على أنها شيء نافع ، والنقير والقطمير
كذلك . إذن قربنا أخذ من المواة أمثلة ، وأخذ من النخلة أمثلة كي يقرب بنا
المعاني . « ولا يظلمون شيئا » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْقَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِمْ

إِنَّمَا مِينًا ۝٥٠﴾

وقول الحق « انظر » ، هي أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكل خطاب
لرسول الله هو خطاب لآله ، وعرفنا من قبل أن « الافتراء » : كذب متعمد
« يفكرون على الله الكذب » في قولهم عندما أرادوا أن يركبوا أنفسهم :

﴿ تَمَنَّا أَنْ نَشْتَرِيَ اللَّهَ وَأَحِبُّوا ۝٥١﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

وقولهم :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانً ۝٥٢﴾ (من الآية ١١١ سورة البقرة)

« انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً » ، لماذا ؟ لأنك إن تكذب على مثلك ممن قد يصدقك فهذا معقول ، لكن إن تكذب على إله فهذه قحة ، لذلك قال الحق : « وكفى به إثماً مبيناً » .

إذن فالكذب مطلقاً هو إثم و الكذب اللين : هو الكذب على الله ، والمهم أنه لم يفدك .
ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَبِيلًا ۚ ﴾

قوله : « أوتوا نصيباً من الكتاب » يعنى عندهم صلة وعلاقة بالسما والبرسل ، وبالكاتب المنزل من السماء على الرسل التي تحصل منهج الله ، ولو كانوا أناساً ليس لهم مثل هذا لكان كلامهم هذا معقولاً لانقطاع أسباب السماء عنهم . إنما هؤلاء عندهم نصيب من الكتاب ، وأولى مهيات الكتب السماوية أن تربط المخلوق بالخالق ، وربط المخلوق بالخالق هو ترتيب لقدرات المخلوق وتنميتها ، لأن أسباب الله في الكون قد تعزّ عليك ، وقد تغفر يدك منها . فإذا لم يكن لك إله تلجأ إليه عند عزوف الأسباب انهرت ، وربما فارقت حياتك متحرراً ، لكن المؤمن بالله ساعة تمتنع عنه أسبابه يقول : لا تهمني الأسباب ، لأن عندي المسبب .

إذن فالإيمان بالله يعطيك قوة والإيمان بالله يغفب المؤمنين على أرض صلبة ، فسيها عزّت أسبابك وانتهت فادكر المسبب . وحين تذكر المسبب تجدد آفاق حياتك

رحبة ، فالذين يتحرون إنما يفعلون ذلك لأن الأسباب صاقت عليهم ، وصدقوا أن
لامتنص من أنهم في عذاب لكن المزمّن يقول يارب ، ومجرد أنه يقول . يارب ،
فهذا قول يريجه حتى قل أن يجاب ؛ لأنه التمت إلى مسبب الأسباب حين عزّت عليه
الأسباب .

وساعة يلتفت إلى مسبب الأسباب عند امتناع الأسباب فهو يأخذ قوة الإيمان من
حيث لا يحتسب ، إليك بمجرد أنك قلت . يارب تجد نفسك قد ارتاح ؛ لأنك
وصلت كل كيانتك بالخالق ، وكيانتك مع ما هو مقهور لك ، ومع ما هو غير مقهور
لك والكيان نفسه سيأتى فى الآخرة ويشهد على الإنسان .

تشهد الأرجل والخلود وغيرهم من الأبعاد . لأنها فى الدنيا كانت مقهورة
لإرادتك ، أنا أقول ليدى . افعل كذا ، ولرجلى . اسعى لكذا ، وليساى . سب
فلاناً ، فالكه سخر الجوارح وأمرها . يا جوارح أنت خاضعة لإرادة صاحبك فى
الدنيا . لكن فى يوم القيامة أليكون لى إرادة على جوارحى ؟ لا ، ستمرد على
جوارحى :

﴿ وَقَالُوا لَبِئْسَ مَا لَنَا مِنْ شَهِيدٍ ط قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وتقول الجوارح لنا : أنتم استخدمتمونا فى الدنيا وحملتمونا أن نفعل أشياء نحن
نكرها ، فدعونا اليوم لنشهد ، إنها تخرج أسرارها ؛ لأن الملك الآن للواحد
القهار :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ط فَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير الله إرادة على الأبعاد .

إذن فالنصيب من الكتاب هو أول شيء يربط المخلوق بالخالق ، فإذا ارتبط

المخلوق بالخالق قويت أسبابه ، ويستقبل الأحداث بثبات ، ويأتيه فرج ربها ، وعندما يقرأ القرآن يجب أن نلتفت إلى اللقطات العقيدية فيه ، فقد عرفنا مثلاً : أن سيدنا موسى عندما أراد أن يأخذ بي إسرائيل من فرعون ويخرجهم ، وقل أن يصل بهم إلى البحر تبه هم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم ، وكان قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم ، فقال قوم موسى : **يَمَانًا بِالْأَسْبَابِ** :

﴿ إِنَّا لَمُدَّرُكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

بالله أحد يكذب هذه لقوله ١٩ لا ، ماذا قال موسى عليه السلام ؟ لم يقل مثلاً قال قومه ، ولكنه نظر للمسبب الأعلى فقال بلاء فيه

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهل تكذب مقوته ؟ لا لا تكذب ؛ لأنه لم يقل : « كَلَّا » اعتماداً على أسبابه وليس من يحيط أسبابه أن يخرج من مثل هذا الموقف ، بل قال : « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » ، هذه ثمره الإيمان ، فلما قال : « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » ، ماذا قال له الله ؟

قال له :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

لم يقل له : اهجم عليهم واعليهم ، لا بل قال : « أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ » ؛ كي يعطى الشيء ونقيضه ، ولنعرف أن مرادات الحق سبحانه وتعالى تعطى الشيء ونقيضه ، ولا أحد من البشر يقدر أن يصنع مثل ذلك ، فلما قال له : **أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ** ، ضرب موسى البحر بالعصا ، وكان موسى يعلم قانون الماء استطرافاً وسهولة ، لكن هاهي ذى المعجزة تتحقق :

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وه الطود ، هو الجبل ، والحبل فيه صلابة ، والماء فيه رخاوة . فكيف انتقلت الرخاوة إلى صلابة ؟ إن الماء مهمته الاستطراق ، أى لا يمكن أن توجد منطقة منخفضة والماء أعلاها ، بل لابد أن يفد منها ، وعندما أطاع موسى أمر الله أراد أن يطمش بأسباب الشر ، فأراد أن يصرّب البحر كي يعود البحر مثلي كان ؛ حتى لا يأتى قوم مرعون وراة فقال له ربنا .

﴿ وَأَتْرَكَ النَّحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى . اتركه كما هو على هيئته فأرا ساكنا ، لا ينى .ريد أن يخرّبهم ما يرون من اليسر لى البحر فيرلوا ، فأعيد الماء إلى استطراقه وأطبقه عليهم ، فأكون قد أنجيت وأهلكك بالشئ الواحد

يقول الحق : « الذين أرتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » وكيف ذلك ؟

بعد موقعة أحد جاء حُجَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، وأبو رافع . هؤلاء هم صناديد اليهود ، وأخذوا أيضاً سبعين من اليهود معهم ونزبوا على أهل مكة ، ونقصوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله . وبعد ذلك نزل كعب ابن الأشرف - زعيمهم - على أبى سفيان وقال له - نريد أن نتعاهد على أننا نقف أمام محمد فقال أبوسفيان . أنت صاحب كتاب ، وعندك تورا ، وعندك إيمان بالسما ، وعندك رسول ، ونحن ليس عندنا هذا ، و« محمد » يقول : إنه صاحب كتاب ورسول ، إذن فيسكننا علاقة الاتصال بالسما ، فما الذى يدريك أنك متفق معه علينا في هذه الحكاية ؟ إننا لا نؤمن بكرك ، ولئن صدق كلامك هذا إلا إذا جئت لأهتنا وأقمّت مراسم العبادة عندها مسجدت لها .

وه الجبت والطاغوت : هم صبيان بقرينى ، وذهب إليهما اليهود أصحاب التوراة الذين عندهم نصيب من الكتاب وحضعوا طمأ ، أو « الجبت » هو كل من يدعو لغير الله سواء أكان شيطناً أم كهناً أم ساحراً ، فإذا كان هذا هو « الجبت » فد « الطاغوت » من « طغى » وهو اسم مبالغة وليس « طاعياً » بل « طاغوت »

وهو لدى كليا أظلمته في ظلم ارتقى إلى ظلم أكثر . وسواء أكان الجبت والطاعوت صميم أم إلهين من الألهة التي يتبعونها ، المهم أن وفد اليهود خضعوا لهم وسجدوا ، لكي تصدق قريش عداة اليهود لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبعد ذلك سأل كعب بن الأشرف أبا سميان ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارق دين آبائه ، وقطع رحمه وتركهم وعر إلى المدينة ، ونحى على غير ذلك . نحى سقى الخبيث ، ونقرى الصيف ، وبعت لحاق - الأسير - ونصل الرحم ، ونعمر لييت ونطوف به . وعظم أبوسميان في أفعال قريش ! ، فقال الدين أوتوا الكتاب - لعداوتهم لمحمد - قالوا لأبي سميان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلا !

ويوضح ربك : يا محمد انظر لعجائبهم ؛ إهم أوتوا نصيا من الكتاب ، ومع ذلك فعداوتهم لك ووقوعهم أمام دينك وأمام النور الذي جئت به ، جعلهم يسون نصيبهم من الكتاب ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ وهم انقروا أنفسهم الذين كانوا يقولون للعرب قديماً : إنه سيأتى نبي منكم يتبعه ويقتلكم به قتل عاد وإرم . لكن هاهم أولاء يذهبون ويؤمنون بالطاغوت والحيت ، فهل عند مثل هؤلاء شيء من الدين ؟

إن الحق سبحانه يريد أن يطمش رسول الله بأن هؤلاء انعزلوا عن عدد السماء ، فإن نشب بينك وبينهم حرب أو خلاف فاعلم أن الله قد تخلى عنهم لأهم تركوا النصيب من الكتاب الذي أوتوه . ولياك أن يأتي في بانك أن هؤلاء أصحاب كتاب

إن الحق يطمش رسوله أنه سبحانه قد تخلى عنهم وإن الله ناصرك - يا محمد - فلا يفرك أهم أصحاب مال أو أصحاب علم أو أصحاب ثروات ، فكل هذا إلى رول ؛ لأن حظهم من السماء قد انقطع ؛ ولأن الشرك قد حازهم وملكهم وضمهم إليه وقد جعلوا العداوة لك والانصياع إلى الكفار الذين كانوا يستفتحون عليهم ، يبعثك ورسالتك ، ثمناً لأن يتركوا الإيمان

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ
لَهُ نَصِيرًا﴾ ٥٢

وقوله: «أولئك» هي اسم إشارة مكون من «أولاء» التي للجمع، ومن «الكاف» التي هي لخطاب رسول الله، ونعم - اسلمين - في طي حطاه عن الله عليه وسلم، «أولئك» هي للذين أوتوا نصيبا من الكتاب ويؤمنون بالغيب واطاعتوا ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أو «أولئك» لكل من اليهود والمشركون، ولأحدها إشارة هم جميعاً، في قوله تعالى: «أولئك الذين لعنهم الله» والنس «إما أن يكون «الطرد»، وإما أن يكون «الحرى» وإما أن يكون «الإهلاك».

وكيف يلحق الله الحرى بالكافرين؟ لأنك تجد المد الإسلامي كل يوم يردد، وهم تنافس أرضهم:

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ النَّاسَ الَّذِينَ آمَنُوا كَافِرِينَ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

«أولئك الذين لعنهم الله».. إذن المطارد هو الله، حين يكون المطارد مساوياً للمطرد، ربما صادق من يمينه، لكن إذا كان المطارد هو الله فلا معين للمطرد، ومن يلعن الله «أى من يطرده رباً» فلن تجد به نصيراً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مدام قد طرده سبحانه يدخل في روع الناس كلهم أن يتحلوا عنه لأى سبب من الأسباب فلا يصره أحد «أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد به نصيراً» ويقول الحق بعد ذلك.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ
نَصِيرًا﴾ ٥٣

فليأذا تريسون أن يديم ربنا عليكم هذه وأنتم في قمة البخل والشح ؟ لا يمكن أن يديمها عليكم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الفجر يوضح هذه العملية :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إذن فالنبي عبده نعمة يقول : (ربى أكرمن) ، والذى ليس عنده نعمة يقول : (ربى أهائن) ، فيقول الحق تعقياً على الفضيتين (كلا) .

ومعالم سبحانه يقول تعقياً على الفضيتين (كلا) فمعنى هذا أن كلا الطرفين كاذب ، فأنت تكذب يا من قلت : إن النعمة التى أخذتها دليل الإكرام ، وأنت كذاب أيضاً يا من قلت : عدم المال دليل الإهانة ، فلا إعطاء المال دليل الإكرام ، ولا سلب المال دليل الإهانة . وهى قضية غير صادقة وخاطئة من أساسها . وقال الحق فى حيثيات ذلك :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أى عندكم المال ولا تكرمون اليتيم ، إذن فهذا المال هو حجة عليكم ، فهو ليس إكراماً لكم بل سيعليكم به . ويضيف سبحانه .

﴿ وَلَا تَخْشَوْنَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فكيف يكون المال - إذن - إكراماً وهو مياتيك بمصيبة ؟ فقدمه أفضل ؛ فالمال الذى يرجد عند إنسان ولا يرمى حق الصعفاء فيه هو وبال وشر ؛ لأن الحق يقول :

﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا مَخَّلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ ﴾

(س الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

فإن بخلت كثيراً فستطوق بئس أشد ، ولذلك عندما يشتد عليه الغل يقول :
يا ليتني حفظت هذا الغل ، والحق يتساءل في الآية التي نحن بصدد خوارطها عنها لماذا
يتفقون مع معسكر الشرك ، ويتركون النصيب الذي أعطوه من الكتاب ، ويذهبون
ليقولوا للذين كفروا أنتم اهتدي من محمد سيلاً مع أنهم يعلمون بحكم ما عندهم
من نصيب الكتاب أن محمداً على حق .

لقد كانوا يحافظون على سيادتهم ، ومعسكر الشرك يحافظ على سيادته ، وتعلم أن
اليهود كانوا في المدينة من أصحاب الثروات ، وكانوا يعيشون على الربا ، وهم
أصحاب الحصون ، وأصحاب الزراعات وأصحاب العلم ، إذن فقد أخذوا كل
عناصر السيادة . وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تزلزلت كل هذه
المسائل من تحت أقدامهم ، وحرروا . وكذلك كفار قريش . كانت لهم السيادة على
كل الجزيرة ، فلا يستطيع أحد من أي قبيلة في الجزيرة أن يتعرض لقافلة قريش ؛
لأن القبائل تخلف من التعرض لهم ، ففي موسم الحج تذهب كل القبائل في حضان
قريش . والمهابة المألوفة لهم جاءت لهم من البيت الحرام الذي حفظه الله ورعاه
وهزم من أراد به سوء ورد كيده ودمره تدميراً تاماً . كي جاء في قول الحق سبحانه
وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْمِئِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّكُم فِيهِمْ قَبِيلَ ۚ ۝ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَائِفًا أُنْيَايِلَ ۚ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجْلٍ ۚ ۝ فَبَجَّعَهُمُ كَقَصَبٍ
مَّا كُورٍ ۚ ۝ ﴾

(سورة المِيل)

وعلة هذه العملية تأتي في السورة التالية ها ، وهي قوله سبحانه :

﴿ لَا يَلْنِفُ قُرَيْشٌ ۖ إِيَّائِهِمْ رِحْلَةَ الْإِنْسَاءِ وَالصَّبِيفِ ۚ ﴾

(سورة قريش)

فلولا أنه سبحانه جعل هذه اليت لعبادته لانتهى وانتهد منهم السيادة
فلا يقدرول أن يدهول إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف ؛ ولذلك يقول
سبحانه .

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الصَّبْتِ ۝١٤﴾

(سورة قريش)

سبحانه الذي جعل لهم السيادة والعز وهو .

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ حُوجٍ وَءَاتَاهُمْ مِنْ حَوْفٍ ۝١٥﴾

(سورة قريش)

وجاء لهم بثمرات كل شيء ، وآمنهم من خوف حين تسير فوافلهم في الشمال وفي
الجوب .

« أم هم نصيب من الملك » فإذا كان هم هذا النصيب ، فلا يأنون الناس بقبرا
أي لا يعطوهم الشيء التاف

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلٍ فَقَدْ أَتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝١٥﴾

والحد هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره
للرسالة ،

ولذلك قال بعض منهم :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إذن فالقرآن مقبول في نظرهم ، لكن الذي يحرمهم أنه نزل على محمد ، وهذا من تعجيلهم ، وهو مثل تعجيل من قالوا

﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاصْطَرَّ عَلَيْنَا حِجَارَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنعام)

لقد تمتموا الموت والقتل ربما بالحجارة من السماء ولم يتسنى اتباع الحق ، وهذا فمة التعجيل الدال على أنها عصبية مجبونة ، ولذلك يقول الحق :

﴿ اٰهُمْ يَقْسِمُوْنَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بِلَهُمْ مُّعِيشَتُهُمْ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الرحمن)

وسبحاته يؤكد لنا أنه يختص برحمته من يشاء ، فليأذا الحسد إذن ؟ إنهم يحصلون الناس أن جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أنهم استقبلوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم استقبالا عادلا يعني الإصاف لوجدوا أن كل ما جاء به هو كلام جميل . من يسمعه تتجمل به حياته . وكان مقتضى من آتاهم الله من فضله علما من الكتاب أن يشرروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعاهم إلى ذلك ما نزل عليهم في كتابهم وأن يكونوا أول المصدقين به ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل كذبوا وصدوا عن سبيله وفضلوا عليه الكافرين الوثنيين . فقالوا لهم أهدى من محمد سبيلا

واحق سبحانه وتعالى حين يفضل على بعض خلقه بخصوصيات يحب سبحانه أن تتمدى الخصوصيات إلى خلق الله : لأننا نعرف أن في كل خلق من خلق الله خصوصية مواهب ، فإذا ما تفضل المفضل بموهبته على الخلق تفضل بفيه الخلق عليه بمواهبهم ، إذن فقد أخذ مواهب الجميع حين يعطى الجميع

وهؤلاء قوم آتاهم الله نصيبا فبخلوا وضلوا ، وليتهم صرنا على أمر يتعلق بهم ، بل على الأمر الذي وصلهم بالإله ، وهو أنهم أصحاب كتاب عرفوا عن الله منهجه ،

وعرفوا عن الله ترتيب مواكب رسله ، فيريد الحق سبحانه أن يقول لهم : أنتم أوتيتم نصيباً من الكتاب فسم تودوا حقه ، وأيضاً أمكم لو ملكتم الملك فإنكم لن تودوا حقه ، ولن تعطوا أحداً منكم نقيراً وهو لفترة على طهر النواة ، ولذلك قال :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٢٣٢ ﴾

(سورة النساء)

إذن فلا هم في العسويات والقيم معطون ، ولا هم في الماديات معطون . فإذا كانوا قد يخلوا بما عندهم من القيم فهم أولى أن يخلوا بما عندهم من المادة ، وبذلك صاروا قوماً لا خير فيهم أبداً

ثم يوضح الحق . إذا كان هؤلاء قد أوتوا نصيباً من الكتاب يعرفهم سمات الرسول المفضل الخاتم فيما انذى منعه أن يؤمنوا به أولاً ويليسوه ؟ . لاشك أنه الحسد ، على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم جاء مصداقاً لما معهم ، إنهم لاشك حسدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحسد لا يتأتى إلا عن قس حاقده ، قلب متعرد على نعمة الله في خلقه ؛ لأن الحسد كما قالوا : هو أن تمنى زوال نعمة غيرك ، وبقابلة « الغبطة » وهي أن تمنى مثل ما لميرك ، فخيرك يظل بعمرة الله عليه ، ولكك تريد مثلها . وأنت إن أردت مثلها من الله فلا بد أن تنبطه ، والحق يقول .

﴿ مَا عِنْدَكَ يُنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۝٢٣٣ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الحبل)

ولذلك يجب أن يكون الناس في عطاء الله غير حاسدين وغير حاقدين . لكن بعض الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأشياء رغبة في أن يكون ذلك لهم وحدهم فإنك إن كان عندك كم من المال ثم اتصل بك قوم في حاجة فأعطيتهم منه ، ربما قال الآخرون ممن يرغبون في عطائك ويأملون في خيرك : إملك مستنقص بما عندك بقدر ما تعطى هؤلاء ؛ لأن ما عندك محدود ، ولكن هذا العطاء عن لا ينفد ما عنده ، إذن فيعطيك ويعطى الآخرون ولا ينقص مما عنده شيء .

إذن فالمبقة أمر بدني عند المؤمن ؛ لأنه يعلم أن عطاء الله لواحد لا يجمع أن

يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المحيط إذا غمس في البحر ، وذلك كما جاء في الحديث القدسي : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذ أدخل البحر^(١) .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم » ، فالحسد - كما عرفنا - هو : أن يتمنى إنسان زوال نعمة غيره ، هذا التمني معناه أنك تكره أن تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أن يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنت متمرداً على من يعطى النعم .

إن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو : رده لقدر الله في خلقه لله ، وثاني ما يصيبه أنه قبل أن يمال المحسود بشر منه ، فقلبه يحترق حقداً . ولذلك قالوا الحسد هو الذنب أو الجريمة التي تسبقها عقوبتها ؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد ، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة ؛ لأن الحقد يحرق قلبه وربما قال قائل : وما ذنب المحسود ؟ . ونقول : إن الله جعل في بعض خلقه ذاء يصيب الناس ، والحسد يصيبهم في نعمهم وفي عافيتهم . وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به ؟ هذه مثل تلك . فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمي نفسه به ، وليس له أن يستعمله في باطل .

وهب أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان شيئاً يكره النعمة عند غيره ، فلماذا لا يتذكر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أن يقرها بقوله : (ما شاء الله لا قوة إلا الله) . فلو قارنت كل نعمة عند غيرك بما شاء الله الذي لا قوة إلا به لرددت عن قلبك سم حقدك . إنك ساعه ترى نعمة عند غيرك وتفوق : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فأنت تتذكر أن الإنسان لم يعط نفسه أي نعمة . إنما ربت هو الذي أعطاه ، وسبحانه قادر على كل عطاء ، ومن الممكن أن يحسد الإنسان . لكن الذي يحد الحسد في نفسه ويريد أن يطفئه ، عليه أن يرد كل شيء إلى الله ، وما دام قد رد كل شيء إلى الله فقد عمل وفأيه لنفسه من أن يكون حاسداً . ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة ، والحق سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك في قوله سبحانه

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

(سورة الفلق)

إذن فمن الممكن أن يمتد قلب أى واحد منا بالحقده على نعمة وبعد ذلك يحدث منها حسد ، وعلى كل واحد منا أن يجمع نفسه من أن يدخل تيار الحقده على قلبه ، لأن تيار الحقده يحدث تغييراً كيميائياً فى تكوين الإنسان ، وهذا التعير الكيميائى هو الذى يسبب التعب للإنسان ، وما يدرينا أن هذا التوتر الكيميائى من النعمة عند غيره يجعل فى نفس الإنسان وفى مادته تفاعلات ، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاع يذهب للمحسود فيقتله ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

(سورة الفلق)

وعندما يستعيد بالله من شر الحاسد ألا يصيبك ، قد يصيبك ، ولكن استعانتك من شره معنى أنه إن أصابك فعليك أن تسترجع ، فتقول : وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وتعلم أن ذلك خير لك ، فإن أصابك فى نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خير ، فالحاسد إذا أصابك فى شيء من نعم الله عليك ، فالشر هو أن تحرم الثواب عليها !! فالمصاب هو من حرم الثواب ، فإذا جاءت مصيبة لأى واحد وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .. اللهم إني ربى وإني لا تحب لى إلا الخير لأن صنعتك ولم نجر على إلا الخير لكنى قد لا أستطيع أن أفهم ذلك الخير .

والمسلم إذا صنع ذلك فالله سبحانه وتعالى يبين له فيما بعد أنها كانت خيراً له ، فمن أصابه فى ولده وقال : من يلزمنى لعل ولدى الذى أماته الله كان سيئتنى فأكرم أو أسرق له وأخذ رشوة من أجله . لكن الله أحله منى وجمع عني ذلك الشر ، أو أن النعمة قد تلعينى ، وقد تجعلنى أنجر على الناس ، وقد تجعلنى أنطاول وأعتدى على الخلق ، فيقول لى ربي : امرحن قبلاً واحداً . وهكذا يرى أن المصائب لا بد أن يتوقع الخير وأن يسترجع وأن يقول : لا بد أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يقول قائل : نحن نقول :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْعَلَاقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ ۞ ﴾

وَمِنْ شَرِّ السَّعَاسَاتِ فِي الْعُقُودِ ① وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ② ﴿١﴾

(سورة الفلق)

نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يعطنا الله من شر الحاسدين ويحسدنا الحاسدون
أيضاً !

نقول له : أنت لم تفهم معنى قوله . « من شر حاسد إذا حسد » . إنك تفهمه
على أساس ألا يصيبك حسد ، لا . . . إن حسده قد يصيبك ، لكن عليك أن تعرف
قدر الله في تلك الإصابة وتقول : يارب ، نك أحريتها على خير عندك لي . فإن فعلت
ذلك فقد كفيت شر .

ونحن نعيش في عالم نرى فيه أنه كلما ارتقت الدنيا في العلم بين لنا رنا آيات في
كونه وفي أسرار الوجود تقرب بنا كثيراً من المعاني ، فالدين يصنعون الآن أسلحة
الفتك والتدمير ، كلما يلطف السلاح ويدق ولا يكون داخل تحت مرائي البصر ،
كان عبقاً ويختلف عن أسلحة الأرملة القديمة حيث كان الإنسان يرمي حجر
بحجر ، ثم حجر يرمي بحديد ، ثم صار في قدرة دولة أن تصنع قنبلة ذرية لا ينوب
أي فرد منها إلا قدر رأس مسبار لكها تقتل ، إذن فأصبح الفتك كلما لطفت - أي
دقت - عفت . ونرى الآن الأسلحة كلها بالإشعاع ، والإشعاع ليس جرمًا ، وعمل
الإشعاع نفاذ لكن لا يوجد له جرم ، وكما يقول الأطباء : نحرى العملية من غير أن
نسيل دماً بواسطة الأشعة ، ومثال ذلك أشعة الليزر ، إذن فكيف دق السلاح كان
عبياً وفتاكاً .

وهذا مثال بوصح ذلك لنعرض لك أدت أن تبني لك قصرًا في حلاء ، ثم مر
عليك صديق فقال : لماذا لم تصنع لنوافذ الدور الأول حديدًا ؟ تقول له : لماذا ؟
فيقول لك : ها سباع ودناب . فتضع الحديد لمنع الدناب ، وآخر يمر على قصرك
فيقول : إن فتحات الحديد واسعة وهنا توجد ثعابين كثيرة ، فتضيق الحديد . وثالث
يقول : هاك بعوض يلسع ويحمل الميكروبات . فتضع سلكاً عن اسوافد

إذن فكيف دق العدو كان عبياً فيحتاج احتياطاً أكثر ونحن نعلم أن الميكروب

الذى لا يرى يأتى فيفتك بالناس ، فالأفة التى تصيب الناس كلها لطعت ، - أى دقت وصفرت - عنت ، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أن يدفعها الإنسان قليلاً قليلاً ، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصغر ، هنا لا يستطيع الإنسان أن يدفعها وافتك الميكروبات هى التى تليق للدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض لا نعرف لها فيروساً ، بمعنى أن هذا الفيروس السبب للمرض صار دقيقاً جداً حتى عن معايير المجاهر .

إذن فيما لذى يجعلنا نضيق ذرعاً بأن نفكر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كيمائية الإنسان الحافد الحاسد الذى تشقيه النعمة ضد غيره . وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تنبج نشيء فتفتك به 11 م المانع من هذا ؟! إنا نعمل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أى شيء ، والأشعة هى من أفتك الأسلحة فى زماننا ، ولماذا لا نصدق أن كيمائية الحاسد عدم تبيج يتكون منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به ؟ ومثلها مثل أى نعمة يعمرها ربا عليك ، وبعد ذلك تستعملها فى الضرر . ومثال ذلك الرجل الذى عده بعض من المال ، ومع ذلك يفسى حقداً على حصومه . فيشتري مسدساً أو بندقية ليمتلهم ؛ به يأخذ النعمة ويعملها وسائل انتقام ، وهذا يأتى من هيجان العريزة الداخلية المدبرة لانتعالات الإنسان

إذن ههؤلاء القوم عندما جاء رسول الله مصداقاً بما عندهم ، ماالذى معهم أن يصدقوه ؟ لا شك أنهم حسدوه فى أن يأخذ هذه النعمة ، ونظروا إلى نعمة الرسالة على أب مزية للرسل ، وهل كان ذلك صحيحاً ؟ حقاً إنها مزية للرسل ولكها مع ذلك عملية نالة عليهم ، والناس فى كل الأمم - ماعدا الأنبياء - يورثون أولادهم ما لهم ، أما الأنبياء فلا يورثون أولادهم .

إنهم لم يأتوا ليأخذوا جاهاً ، أو ليستعملوا على الناس ، بل كلفوا بمحب جمة . إذن فأنتم تنظرون إلى السلطة التى أعطاكم الله إياها فى مسألة علم الدين وتجعلونها أداة للترف والرفاهية وللعنجهية وللعمطة ، وحين يحىء رسول لكى ينفذ عكم ويخلصكم من هذه لسيطرة ، ماذا تعملون ؟ أنتم تحزنون ؛ لأنكم أقمتم لأنفسكم سلطة زمنية ولم تجعلوا أنفسكم فى خدمة القيم ، وأحدثتم عظمة السيطرة فقط ، فلما جاء رسول يريد أن يزيل عكم هذه السيطرة قلتم : لا . لن تبعه . فإذا كنتم

تحسون النبي عليه الصلاة والسلام على الرسالة وجعلتموها مسألة يُدُلُّه الله بها أو أنها تعطيه سيطرة ، فلماذا الحسد على سيدنا محمد وقد أعطى الله سيدنا إبراهيم الملك ، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم الفرع الثامن من إبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام ؟ .

لقد كرم الله سبحانه الفرع الأول في إسحاق وحماء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كل هؤلاء قد كرموا ، وصعدوا يكرم سبحانه الفرع الثامن لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولا ، محزونون وتفنون هذا الموقف ؟

لمادا لا تنظرون إلى أن إسماعيل وفرجه آلى من ذرية إبراهيم ، ولماذا احترس الرسالة والنبوة نعمة مدللة ، ولم تنتهبوا إلى أنها عملية قاسية على الرسول ؟ لأن عليه أن يكون النموذج التطبيقي على نفسه وعلى آله ، ولا أحد من أهله يتمتع بذلك بل العكس ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول . (إنا معشر الأنبياء لا نورث) (١) .

ويتحرم صلى الله عليه وسلم آل بيته من الركاة . ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا : (إن الصدقة لاتنبى لآل محمد إنما هي أوساخ الناس) (٢)

وهكذا يرى أنه لم يكن يعمل لنفسه ولا لأولاده .

وينابيع الحق . فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً وه الكتاب ، هو المنهج الذي يبرل من السماء ، وه الحكمة ، هي الكلام الذي يقوله الرسول مفسراً به منهج الله ، ومع ذلك آتاهم الله الملك أيضاً فسيدنا يوسف صار أمياً على خزائن لأرض ، وأصبح عزيز مصر ، وسيدنا داود ، وسيدنا سليمان آتاهما الله الملك مع النبوة . إذن معية نبوة وفيه ملك ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطاه

(١) رواه أحمد

(٢) رواه مسلم

ربنا النبوة ولم يعطه الملك فما وجه الحسد منكم له ١٢ . ثم ماذا كان موقفكم من أنبيائكم الذين أعطاهم الله النبوة والملك ؟ يجيب الحق :

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِمَوَاسِمِهِمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى
بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥ ﴾

وقوله سبحانه: « فمنهم من آمن » . والمقصود الإيمان بما جاء في منهج إبراهيم والرسول الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك ، أو « منهم » أى من أهل الكتاب الذين نتكلم عنهم من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار مثلاً ، « ومنهم من صدَّ عنه » أى أن منهم من كفر بمنهج الله ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : « وكفى بجهنم سعيراً » فكان نتيجة الصد عن المنهج أنه لا يأتى بعده إلا العذاب بجهنم ليصلوا بنارها ، وتكون مسعرة عليهم حذاء على ما فعلوا .

وبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى موكب الرسل حينما أرسله الله عل تتابع و كونه ، جاء ليذكر الناس بالمنهج ، فالمنهج هو الأصل الأصيل في مهمة آدم ودريته ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد قال .

﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّاهُكُمْ مِّنْهُ هُدًى مِّنْ آتِيَةِ هَدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وينقل آدم إلى خريته معلوماته عن حركة الحياة وعن الحق وعن المنهج . إلا أن الله قدَّر الغفلة في خلقه عن منهجه ؛ بهذه المناهج تأتي دائماً ضد شهوات النفس الحمقاء العاجلة ، لكن لو نظرت إلى حقيقة المنهج الإلهي فأتت تمجده يعطى النفس شهوات لكنها مُعَلَّاة .

مثال ذلك عندما يقول :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وكل واحد عنده أشياء ومحتاج إليها ، لكنه يجد أعلاه المؤس يحتاج إليها أكثر منه فيؤثره على نفسه ، أهو يفضل من نفسه ؟ لا ؛ لكنه يعطى هذا الشيء القليل في الفانية كي يأخذه في الباقية ، فأخذ شهوة نفسه لكن شهوة معلاة ، والذي قتاله : غرض طرفك عن محارم خبرك . ظاهر هذا الأمر أننا نحسبه من شهوة يشتهيها ، لكننا ساعه نحسبك من شهوة تشتهيها في حرام الفانية ، نريد أن نحقق لك شهوة في حلال الخالدة . فأبها أحشق للجمال ؟ الذي ينظر بتفحص للمرأة الجميلة وهي تسير ، ثم الذي ينظر عينه عنها ؟ الأحشق للجمال هو الذي غرض بصره .

إن الدين لم يأت إلا ضد النفس الحمقاء التي تريد عاجل الأمر وإن كان تأنها . ويوضح له : كن للأجل ومعه ؛ لأنه يبقى فلا يتركك ولا تتركه ، أما أى شهوة تأخذها في هذه الدنيا فإما أن تتركها وإما أن تتركك ، لكن في الآخرة لا تتركها ولا تتركك .

لقد عرف الصالحون الورعون كيف يستفيدون ، لكن الآخرين هم الحمقى الذين لم يستفيدوا ، فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الحسرة تكون لمن أراح نفسه شهوة عاجلة ثم أحضها العذاب الأجل المقيم ، فهذه هي الحسرة لحقة ، فالدنيا دار الأغيار ، يلقى للإنسان فيها ما يؤله وما يسره ، وليس فيها دوام حل أبداً ؛ لأنها دنيا الأغيار ، ومادامت دنيا الأغيار فيكون كل شيء فيها متغيراً . . ومادام كل شيء فيها متغيراً . إذن فالذي في نعمة قد يصيبه شيء من الضر ، والذي في قوة قد يصيبه شيء من الضعف ، والذي في ضعف قد تأتبه قوة ، وإلا لو ظل الضعيف ضعيفاً وظل القوى قوياً لما كانت الدنيا أغياراً .

ولذلك يقولون : احذر أن تريد من الله أن يمت عليك نعمته كلها ؛ لأنها لو تمت لك النعمة كلها وأنت في دار الأغيار فانتظر الموت ؛ فتنام النعمة هو محمود لأعلى

منطقة في الجبل وأنت في دار الأغيار ، هه تظل على القمة ؟ لا ، بل لابد أن تنزل ، عليك أن تسرّ عندما تبلغ المساة ذروتها ، لأنه سبحانه وتعالى يوضح : إنكم لابد أن تأخذوا هذه الدنيا على أنها معبر ، والذي يتعب الناس أنهم لا يحدون الغاية البعيدة ، بل إنهم يحددون الغيات القريبة .

إن من حق بعض الناس أن يحزن الواحد منهم على مرقى حبيب أو قريب له ، ونحدها بالمنطق : ما غابتنا جميعاً ؟ إنها الموت ونعود إلى خالقنا . وهل عندما نعود إلى خالقنا نحزن ؟ لا ، بل يجب أن نسر ، لأننا في الدنيا مع الأسباب ، أما بعد أن ننقل إلى الآخرة فنكون مع المسبب . ففي الدنيا تكون مع النعمة وستصبح بعد ذلك مع المنعم ، بما يحزنك في هذا ؟ إن هذا يحزنك ساعة أن كنت مع النعمة ولم تراع المنعم ، لكن لو كنت مع النعمة وراعت المنعم لسرت أنك ذاهب للمنعم .

وإن كانت المسألة هي أن نصل إلى المنعم الحق وتكون في حضاته فلماذا الحزن إذن ؟ ومن الحق أن يحضر الناس لا تعامل الحق سبحانه وتعالى كما يعاملون أنفسهم .

هب أن إنساناً من غايته أن يخرج من أسوان إلى القاهرة ، إذن فالقاهرة هي الغاية . ثم جاء واحد وقال له : متعب سيراً على الأقدام ، وقال الآخر : أنا سأتى بخطايا حسنة نركبها . وقال ثالث : سأتى بعربة ، وقال رابع : سسافر بطائرة وقال خامس : سسافر بصروح ، إذن فكل وسيلة تقرب من الغاية تكون محمودة ، وملاامت غايتك أن نعود إلى الحق فلماذا نحزن عندما يموت واحد منا ؟ أنت - إذن - تحزن من نفسك ولا تحزن على من مات ، إن الذي يموت بعد أن يرى حق الله في الدنيا يكون مسروراً لأنه في حضرة الحق ومع المنعم ، وأنت مع النعمة الموقوتة إنه يسخر منك لأنك حزنت ، ويقول : انظر إلى الساذج الغافل ، كان يريدني أن أبقي مع الأسباب وأترك المسبب !

إنما نجد الدين يحزنون على أحبائهم لا يرونهم في المنام أبداً ، لأن الميت لا تأتى روحه لزيارة من حزن لأنه ذهب إلى المنعم ، وعلى الناس أن تدرك الغاية من الوجود

بأن تكون مع أسباب الحق في الدنيا ثم نصير مع الحق ، والموت هو النقطة التي تنفك من الأسباب إلى المسبب ، في الذي يحزنك في هذا ؟

نحن نقصر عليّ المسافة . بدلاً من أن تقابلك عثبت الطريق ، وقد تنجح أو لا تنجح ، وبعضهم يقول مات وهو صغير ولم ير الدنيا ، نقول لهم وهل هذه تكون خيراً له أو لا ؟ أنت مثلاً كبرت وقد تكون مقرباً للمعاصي ، فلعن الله أخذ الصغير حتى لا يعرضه للتجربة . صعب المسألة أمامك واجعلها حقيقة

عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤتم حقا قال : « نظر ما تقول ؟ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليل ، وأنظمت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يترادون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون^(١) فيها فقال : « يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثا »^(٢) .

ولما العبرة في سيدنا حذيفة - رضي الله عنه - حينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : كيف أصبحت ؟ أي كيف حالك الإيمان ؟ قال حذيفة : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها - أي أن الذهب تساوى مع الحصى ، هذه هي مسألة الدنيا - وأصاف حذيفة : وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة يحمون ، وإلى أهل النار في النار يمدحون

وساعة لا تعيب عن بال سيدنا الحارث صورة الآخرة ، فهو يسير في الحياة مستقيماً . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم » .

الحق سبحانه وتعالى حين يذكر لنا بعض الأحكام يذكر لنا أيضاً خبر بعض الناس الذين يتمردون على الأحكام ، ثم يذكرنا بحكاية الجنة والنار ؛ ولذلك يقول لنا :

(١) يتضاغون : يصيحون من الألم

(٢) رواه الطبراني

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلًّا
نُضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

و« نصليهم » من الاصطلاء ، قد يقول قائل : مادام يصل النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهي إلى عدم ، وحين ينتهي إلى عدم إذن فلا يوجد ألم ! ونقول : لتنبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا الأمر « كلما نصليتهم جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . إذن فالعذاب ليس كنار الدنيا ، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهي المسألة أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدي دائم مكرر « كلما نصليتهم جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . فإذا ما حترقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتى ، أمى عين الأولى أم غيرها ؟ وحسب أوضح ذلك . أب عندى يكون عندك حاتم مثلاً ، ثم تقول أنا صنعت من الخاتم خاتماً آخر ، فالمادة واحدة أيضاً ، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء ؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد « نمل » يتعبه ولا يقدر على آله . . وبعد ذلك يفعل فينام ، بمجرد أن ينام فلا ألم لكن عندما يسيقظ يألَم من جديد .

إذن فالألم ليس للعنصر بل للنفس الواعية ، بدليل أننا عندما ارتقينا في الطب ، قلنا إن النفس الواعية تستطيع أن تحذرنا بحيث يحدث الألم ولا تشعر به ، ويمنع « النمل » بالمشرط ولا يحس صاحبه بأى ألم وهكذا نجد أن الجلود ولأعضاء ليس لها شأن بالعذاب ، إنما هى موصلة للمعذب ، والمعذب هى النفس الواعية بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة . . تشهد الجلود والجوارح ، وستكون آله لتوصيل العذاب . . ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب

إنه نظام إلهي فلا تتعجبوا من القرآن ، فإن العلم كلها تقدم هداما إلى شيء من آيات الله في الكون . أنتم - الآن - تحذرون النفس الواعية وتشقون الحسد بالمشارط

كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم ، وعرفتم أن الألم ليس للعضو ، إنما الألم للنفس الواعية ، إذن فكل الجوارح هي آلات توصل الألم للنفس الواعية ، وتكون مسرورة ؛ لأن النفس الواعية تعذب ، وهذه يشبهون - مثلاً - بواحد عنده حكة ، في جلده ، فيهرش ، والهرش يسيل دمه فيكون مستلداً .

إذن فقوله : « كما نصبت جلودهم بدلهاهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب » أي أن الجلود تبدل وتنشأ جنود أخرى من نفس مافتها توصل لعذاب للنفس الواعية ، وهكذا

« إن الدين كفروا بآيات سوف نصليهم ناراً كلها نصبت جلودهم بدلهاهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب » . نحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أنزل كتاباً هو القرآن ، وجعله معجزة ومهجا ، وهذه هي الميزة التي امتز بها الإسلام - مبعج الإسلام هو عين المعجزة ، وكل رسول من الرسل كان منهجه شيئاً ومعجزة كانت شيئاً آخر

إن سيدنا موسى منهجه النوراة ومعجزة : العصا ، وسيدنا عيسى منهجه الإنجيل ، ومعجزة : إبراء الأكف والأبرص بإذن الله ، لكن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت القرآن ؛ لأن دينه سيكون الامتداد النهائي لآخر الدنيا ، ولذلك جسد الله منهجه هو عين معجزة ، ستكون المعجزة دليلاً على صدق المبعج في أى وقت ، ولا يستطيع واحد من أتباع أى نبى سابق على رسول الله أن يقول : إن معجزة الرسول الذى أتبعه هي منهجه ؛ لأن معجزات الرسل السابقين على رسول الله كانت عمليات كونية انتهت مثل عود كبريت احترق ، فمن رآه رآه وانتهى ، لكن المسلم يستطيع أن يقف ويعلم عمل ، فيه : إن محمداً رسول الله وصادق ، وتلك معجزة . فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية بقاءً أبدياً ، ومتصلة به أبداً . أما معجزة كل رسول سبق رسول الله فقد أدت مهنتها لى رآها وانتهت ، وانفصلت معجزة كل رسول سابق على رسول الله عن منهجه

والمبعج القرآن فيه أحكام ، والأحكام معناها : افعل كذا ، ولا تفعل كذا . وهي واصحة كل الوضوح منذ أن أنزل الله القرآن على رسوله وحتى تقوم الساعة . ومن فعل مطلوب الأحكام بئاب ، ومن لم يفعله يعاقب . وكل الناس سواسية في مطلوب لأحكام إلى أن تقوم الساعة

أما آيات الله الكونية التي لا تتأثر . . فأى فائدة للإنسان إن عرفها أو لم يعرفها : فقد طمرها الله وسترها في القرآن مع إشارة إليها ، لأن اسفل المعاصر لرسول الكتاب لم يكن قادراً على استيعابها في زمن الرسالة . ولو أن القرآن جاء دية واضحة نفوس . إن الأرض كروية ومدور ، بالله ماذا كان المعاصرون لرسول الله يقولون ؟ إن معصاً من البشر الآن يكذبون ذلك ، هي بالك بالبشر المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الدين لو قال لهم رسول الله ذلك لانصرفوا عن اتباع ما جاء به لقد كانوا يستفيدون من كروية الأرض ، مثلما يستفيد منها الفلاح أو الدوي ، ومثلما يستفيد الناس الآن الذين لم يدوروا الكهراء برؤية التليفزيون وصوت الصباح الكهربائي وغير ذلك من الاستخدمات ، دون معرفة علمية بتفاصيل ذلك ، إن الشمس تسطح على الدنيا فتبخر الماء من الأنهار والمحيطات والبحار بصير سحاباً ، ثم ينزل المطر من السحاب . وكل هذه آيات الكونية لم يعط الله أسرارها إلا بقدر ما تنفع العقول ، وترك في كتابه ما يدل على ما يمكن أن تنتهي إليه العقول الطموحة بالبحث العلمي .

وعندما نتعرف نحن - المسلمين - على اكتشاف علمي جديد في الكون ، نقول . إن القرآن قد أشار له ، لكن قبل ذلك لا يصح أن نقول ذلك حتى لا يكذب الناس هذا الكتاب المعجز ، فسبحانه القائل :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُحِيطُوا بِهَا وَلَا يَتْلُوهُمْ تَأْوِيلُهَا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

لو أن القرآن قال : إن كل شيء في الوجود يتكاثر . وفيه موجب وفيه سالب ، ذكر وأنثى ، أكانوا يصدقون ذلك ؟ لا ، لأنهم كانوا لا يعرفون الذكر والأنثى إلا في الرجل والمرأة ، ويعرفون ذلك في الحيوانات ، وأيضاً في بعض النباتات مثل النخل ، لكن هناك نباتات كثيرة لا يعرفون حكاية التكاثر فيها ، ومثال ذلك القمح الذي نزرعه ونأكله ، وكذلك الذرة ، لم يكونوا عارفين بأن عنصر الذكورة يوجد في « الشواشي » العليا في كوز الذرة وأن الهواء يضرب تلك الشواشي فتزول منها حبوب اللقاح فخرج الحب ، ولذلك نجد الزارع الذكي هو الذي يفتح « كوز الذرة » من أعلاه قليلاً حتى يتيح لحبوب اللقاح أن تصل إلى مرقعها . وقد يفتح الملاح أحد « كيزان الذرة » ليجد حبة ميتة وسط الحبوب المتراصة ويكتشف أنها حبة ليس لها محيط أي لم تنضج بحبوب اللقاح وهو ما يقولون عنه في الريف « منة عجوز » .

إذن فكل نكاثرة ذكورة وأنوثة ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦)

(سورة نحل)

وكن يعرف الأرواح في الأرض ، ثم عرفناها في السات ، وجاء الحق بـ « ما لا يعلمون » ، يتدخل كل شيء ، وتكشف الموحب والسالب في الكهرباء ، وصربا يعرف أن كل كائن فيه ذكر وأنثى ، وكلها تقدم العلم فهو يشرح الآيات الكونية

ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلفة برسالة محمد لم يشأ أن يجعل نواميسه في الكون واضحة صريحة حتى لا تقف العقول فيها وتعجز عن فهمها ، وخاصة أن الكتاب واجه أمة أمية ؛ ليست لها ثقافة . وهب أنه وجه العالم المعاصر ، إن هناك قصايا في الكون لا يعلمها العالم المعاصر ، فلو أن القرآن تعرض لها بصراحة لكنت سبباً من الأسباب التي تصرف الناس عن الكتاب . والقرآن جاء كتاب منهج ، والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج ، علم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يعوق عن المنهج ، لكنه ترك في الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله ، وكل يوم يكتشف العقل البشري أشياء ، وهذا الاكتشاف لا يأتي من فراغ ، بل يأتي من أشياء موجودة

إذن فلو رجعت أدق أفضية العلم التي يصل إليها العقل المعاصر ، وسببتها في الكون لرجعت إلى الأمر الديني . فلا يوجد صاحب عقل ابتكر أو جاء بحاجة جديدة ، إنما هو أعمل عقله في موجود فاستبطن من مقدمات الموجود قصة معلومة ، ثم أصبحت القصة المعلومة مقدمة معلومة ليستبطن منها من يحى بعد ذلك . ولذلك فالعلماء عادة قوم بغيبهم طابع التهذيب عندما يقولون : اكتشفنا الأمر الفلاني ، يعني كأنه كان موجوداً .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى لنا فكره نقرب لنا الفهم ، فحين عندما كنا نتعلم الهندسة مثلاً ؛ عرفنا أن الهندسة مكونة من نظريات ، تبدأ من نظرية « واحد » ،

وتنتهى إلى ما لا نهاية ، وحين جاء لنا مدرس ليبرهن لنا على نظرية « مائة » ، استخدم في البرهان على ذلك النظرية التسع والتسعين ، وعندما كان يبرهن على النظرية « التسع والتسعين » استعمل ما قبلها .

إذن فكل برهان على نظرية يستند إلى ما قبلها ، والعقل انواعى المفكر المستنيط هو الذى يرتب المقدمات ويستخلص منها النتائج . وكل شيء في الكون يشترك فيه كل الناس . لكن العمل الذى يرتب ويستنيط يحيل إليه وإلى الناس أنه جاء بجديد ، وهو لم يأت بجديد . بن ولّد من الموجود حديداً ، مثل ذلك الطفل عندما يولد من أبويه ، هل هما جاءا به من عدم ؟ لا ، بل جاء الولد من تزواج ، وعندما سلسل الأمر يصل إلى آدم ، فمن الذى جاء بآدم ؟ . إنه الله

إذن فالبنهيات التى في الكون هي خيرة كل علم نقضى وهي من صبح الله الذى أنقذ كل شيء صعباً ، وكل نظرية مهما كانت معقدة في الكون منشؤها من الأمر البسيط ، مثال ذلك البخار ؛ عندما اكتشفوه وقيل أن يسيروا به الآلات ماذا حدث ؟ كان هناك من يجلس فالتفت فوجد الإناء الذى به الماء يعل ثم وجد غطاء الإناء يرتفع ويحمض ، وعندما تعرف عن السر ، اكتشف أن كل بحر يستطيع أن يعطى قوة دافعة ، وبذلك بدأ عصر البحار . إذن فهو ذكى ، وقد أخذ اكتشافه من بديهية موجودة في الكون ، فلماذا أن معز وتقول . إن العقل هو الذى اخترع ، ولكن العقل عمل بالجهود في مظاهرات الله في الوجود ، ورتب ورتب ثم أخرج الاكتشاف

لذلك فعندما يتكر العقل الشرى شيئاً جديداً نقول له : أنت لم تتكر ، بل اكتشفت فقط ، والحق سبحانه وتعالى يترك هذه العملية في الوجود . ويقول :

﴿ سَرَّيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ فِي الْأَفَاقِ وَإِنَّ أَنْعَمَ بِهِمْ حَقٌّ يَقْبَلُونَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة صافات)

والبشرية عندما تكتشف شيئاً جديداً ، نقول لهم : القرآن مسها وجاء بها ، فيقولون : حجباً هل فعل القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً ، على الرغم من أنه نزل

ليحاطب أمة أمية ، وجاء على لسان رسول أمي . نعم .

والآية التي نحن بصددها فيها هذا

﴿ كَلَّمَ نَصِيجَتَ جُلُودِهِمْ بَدَلَتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل ، ونظرية « الحس » - كما يعرف - شملت العناء الماديين ، وأرادوا أن يحرروا كيف يحس ؟ منهم من قال : نحن نحس بالمخ . نقول لهم . لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها ، بدليل أنه عندما ياتي واحد أمام عيني ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقلبا يصل أصبعه أحلق عيني أي أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحس . وبعض العلماء قال : إن الإحساس يتم عن طريق التحاق الشوكى والحركة العكسية ، ثم انتهى إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد ، بدليل أنك عندما تأخذ حقة في العضل ، فالحقة فيها إبرة ، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد ، وبعد ذلك لا نحس

إذن فمركز الإحساس في الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ، بدليل أن ربنا أوضح أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فأنا أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس : « كلما نصيجت جلودهم » أي صارت محترقة احتراقاً تاماً وتعطلت عن الإحساس بالألم ، أتيتهم بجلد آخر لأديم عليهم للعذاب ؛ لأنه هو الذي سيوصل للنفس الواعية متألم ، إدى الآية مست قضية علمية معنوية ، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة في الإحساس تقول : يا بني آدم عجل الإحساس عندكم الجلد ، لما فهموا شيئاً . لكنه تركها لتصبح في العقول على مهل .

« كلما نصيجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب » فتكون علة التبديل للجلود التي أحرقت بجلود جديدة كي يدوم العذاب وبدل الحق الآية : « إن الله كان عزيزاً حكيماً » والعزيز . هو الذي لا يَنْقلب ولا تغدر أن تحاطب من أنه يبرمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تُلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة

ساعتين فما يصبرون أن يحترق جندى وننتهى للسألة !! نقول له : لا. إن الذى يعدبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم. فالسألة ليست مسألة جبروت يستعمله ، لا هو يستعمل جبروته بعدالة .

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان ، لم ينس للقابل لى يكون البيان للفليتين : غاية الملتزم وغاية المنحرف . ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ
فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلًا ٥٧ ﴾

وفى هذه الآية يصف الحق ثواب العتة المقابلة للعنة لسابقة وهم الذين آمنوا ، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إذن فامة سيفنا محمد هى أقرب الأمم إلى لقاء الله . فالأمم من أيام آدم أخذت رسماً طويلاً ، لكننا نحن المسلمين نرى ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :
« يَبْقَتْ أُنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » (١) .

ولذلك لم يقل الحق فى هذه الآية : سوف ندخلهم . بل قال : « سندخلهم » ، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه « سوف » لأنها بعيدة ، أو أن هذا كناية وإشارة من الله لإمهال الكفار ليهزبوا ، وعندما يقرب لنا سبحانه للسألة فإنه يقرىبا بالطاعة ، السألة ليست بعيدة ، بل قريبة ، لذلك يعبر عنها : « سندخلهم جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

إن كلمة « الجنة » مأخوذة من « الحس » ، والستر ، و« الجنة » هي الستان الذي به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التي تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للمعبون فقط ، أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقنيات وفيها كل شيء ، فهو تستر من أن تلتصق إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذي عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن من عنده حاجة تكفيه فقد استر عن بقية الوجود ، والحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة عن شيء هو الآن عنا غيب ، وسيصير بإذن الله وبمشيئة مشهداً ، ونحن نعرف أن لجنة بها كل ما نتمناه النفس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل :

« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »^(١) مصداق ذلك في كتاب الله « فلا تعلم نفس ما أُعطِيَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » كانوا يعملون ،

ونعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه . . فقال « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » ، والعين حين ترى تكون محدودة ، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية ، لأنه يسمع عن رأى ، إنه يسمع فوق ما رأى ، إذن فدائرة الإدراكات تأتي أولاً : بأن يرى الإنسان ، ثم بأن يسمع ، وهو يسمع أكثر مما يرى ، وعلى سبيل المثال قد أرى أسوان لكني أسمع عن أمريكا ، فدائرة السماع أوسع

وبعد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا خطر على قلب بشر » أي أن ما في الجنة أكبر من التحيلات ، إذن فكم صفة هت للجنة ؟ الأولى قوله : ما لا عين رأت والعين مهما رأت فدائرتها محدودة ، والثانية : قوله : ولا أذن سمعت والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً . والثالثة : قوله : ولا خطر على قلب بشر وهذا أوسع من التحيلات ، فإذا كنت با حق سبحانه وتعالى في الجنة : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فبأي الألفاظ ياربي تؤدي لنا هذه الأشياء ، والألفاظ اللغة إنما وصفت لمعانٍ معروفة ، وما دمت ستأق بحاجة لم ترها عين ، ولم تسمعها أذن ولم تخطر على قلب بشر ، فأى الألفاظ ستؤدي هذه المعاني ؟

لقد أوضح صلى الله عليه وسلم : أنه لا توجد الفاظ ، لأن المعنى يُعرف أولاً ثم يوضع له اللفظ ، فكل لفظ وضع في اللغة معروف أن له معنى ، لكن ما دامت الجنة هذه لم تراها عين ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فلا توجد كلمات تعبر عنها ، لذلك لم يقل صلى الله عليه وسلم : إن الجنة هكذا بل قال : « مثل الجنة » أما الجنة نفسها ، فليس في لغتنا ألفاظ تؤدي هذه المعاني ، وحيث إن هذه المعاني لا رأتها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر ، لذلك فليس في لغة البشر ما يعطينا صورة من الجنة ، وأوضح الحق سبحانه : سأختار أمراً هو أحسن ما عندكم وأعطيتكم به مثلاً فقال :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ تَعْمِيرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَمَلٍ مُصْنًى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

وسبحر يرى الأنهار ، والحق بطمئنت عنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سبوح منها الصفة التي قد تعكر هويتها ؛ فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة ، يقول : « أنهار من ماء غير آسن » ، إذن فهو يعطيني اسماً موجوداً وهو النهر ، وكلنا نعرفه ، لكنه يوضح : أنا سأترجم من الأكداد التي تراها في النهر الحوادث في الحياة الدنيا ، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجرى في شق بين شاطئين لكن أنهار الجنة ستبقى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجورة بالقدرة . وستجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه .

إن العربي كان يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه في القرب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعي وإلى حيث تسافر ، وعندما كان العربي يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزن في القرب ، ويحده متغير الطعم لكن لا يجد غيره ؛ لذلك يوضح الحق : سأعطيتكم أنهاراً من لبن في الجنة لم يتغير طعمه ، ثم يقول : « وأنهار من نحر » وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا ، لأنه يقول :

« مثل . . . ولم يقل الحقيقة فقال . أنهار من حر لكها خر و لذة للشاربين » ، وخر الدنيا لا بشرها الناس بلذة ، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خر . . فهو يسكبه في فمه مرة واحدة ! ليس كما تشرب أنت كوباً من ماءجو وتلذذ به ، إنه يأخذ دهنه واحدة ليقلل مرعة مروره على مذاقاته لأنه لادع ومحمض ؛ وتقتال العقول وتفسدها . لكن خر الأخيرة لا اغتيال فيها للعقول .

إذن فحين يعطى الحق مثلاً للجنة . . فهو ينهى عن المثل الشوائب ، ولدلت وجد الأمثال تنوع في هذا المجال ؛ فالعرب عندما كان يمشى في احاحرة ، ويمجد شجرة « نبق » ويقال لها : « سدر » كان يعتبره واحة يستريح عندها ، ويمجد عليها النبق الحميل ، فهو يجد يده ليأكل منها لكنه قد يجد شوكاً فيعادي الشوك ، وفي بعض الأحيان تشكه شوكه ، وعندما لا يجد في هذا انشجر شوكا يقول : هنا « سدر مخضوض » أى شجرة نبق لا شوك فيها ، والحق يأتي بكل الألفاظ التى فى الدين ويغيرها عن جنة الأخيرة .

« وأنهار من صسل مصفى » وكان العرب يأخذون العسل من الجبال فالجبل يصنع خلاياه داخل شقوق الجبال ، وعندما كانوا يفرحون العسل من الجبال يجهون فيه رملاً وحصى ، فأوضح الحق : ما يعكس عليت العسل هنا فى الدنيا أنا أصعبه لك هناك ، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضاً ، ولماذا مثل ؟ . لأنه مادام نعيم الجنة « لا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر عن قلب بشر » . فكون لذة لبشر كلها لا تؤدى ما فيها . لكنه - سبحانه - يعطينا صورة مقربة ، ويضرب الله المثل بالصورة المقربة للأشياء التى تتعالى عن افهم لبقربها من العقل ، ومثال ذلك عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتويز الله للكون ، وليس لنور الله الدائق ، بل لتويز الله للكون ، فيقول :

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يعطينا مثلاً مقرباً لأن لعنتك ليس فيها الأعطاط التى تؤدى الحقيقة ، ولذلك يقول :

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

(من الآية ١٠١ سورة التوبة)

ومادامت جنات ففيها شجر ملفف وعالٍ ، ونحن نعرف أن الشجر لا بد أن يكون في منطقة فيها مياه ، لذلك قال « تجري من تحتها الأنهار » ، ومرة يقول . « تجري تحتها الأنهار » لأن ما يجري تحتها قد يكون آباراً من مكان آخر ، ويكون منبعها من مكان بعيد وتجري الأنهار تحت جنتك ، وقد تظن أن بإمكان صاحب النعم أن يسدّها على جنتك ، فيشرح الحق لاهي جاءت من تحتها مباشرة .

ويقول الحق عن أهل الجنة : « خالدين فيها » وهو سبحانه وتعالى يجاطب قوماً شهدوا بعض النعيم في ديارهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يرولون عن النعمة ، فقال سبحانه عن جنة الآخرة : « خالدين فيها أبداً » فلا هي تزول عنهم ولا هم يرحزون عنها .

ويعطينا سبحانه أيضاً صورة من اسعيم الذي يوجد عندنا في الدنيا لكنه يزول أيضاً أو يزول من عنده . « وهم فيها أزواج مطهرة » وأزواج جمع « زوج » ، وعندما يصف الحق سبحانه وتعالى جمعا فهو يأتي في الصفة بجمع أيضاً مثل قوله :

﴿وَقَدُورٌ رَاسِبَاتٍ﴾

(من الآية ١٣ سورة مآ)

لأن « قدور » جمع « قدر » ، ولم يقل هنا . « أزواج مطهرات » وجاء بها مفردة لأن الرجل في الدنيا قد يتزوج بأكثر من واحدة فيشأ بين الزوجات التعددات ظلال الشقاق فكأنهن متنافرات ، فقال : « هن كلهن سيكون أزواجا على صورة واحد » من الصهر . وليس في أي منهن ما يعكر صفو الأزواج كما يكون الأمر في الدنيا ، ولا يقول واحد : « كيف تفصل المرأة أن يكون لها ضرة في الآخرة ؟ » لأن الحق سبحانه نزع من الصدور كل ما كان يكدر صفو النفوس في الدنيا فقال .

﴿وَرَعَامًا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ عَنِّي﴾

(من الآية ٤٣ سورة الاعراف)

إذن فكأنهم - وإن تعددن - في سياق واحد من الظهر مما لا يعكر صفو لزوج ،
إنه يعجبك شكلها ، مستعجبك ، أخلاقها ليس فيها عيب ولا نقص مما كان يوجد في
الدنيا إنها مطهرة من ذلك كله . إذن فهو يعطيك خلاصة ما يمكن أن يتصور من
النعم في الأرواح .

ويكمل الحق : « ويدخلهم ظلاً ظليلاً » ولغة العرب إذا أرادت أن تؤكد معنى
فهي تأتي بالتوكيد من اللفظ نفسه ، فيقول العرب مثلاً : « هذا ليل ليل » أي ليل
حالك ، وعندما يبالغ في « الظل » يقول : « ظليل » . وما هو « الظل » ؟ . « الظل »
هو : انحسار الشمس عن مكان كانت فيه أو لم تدحله الشمس أصلاً كأن يكون
الإنسان داخل كهف أو غار مثلاً .

إن كلمة ظل ظليل يعرفها الذين يعيشون في الصحراء ، فساعة يرى الإنسان
هناك شجرة فهو يجلس تحتها ويسمع بظلالها ، والظل نفسه قد يكون ظليلاً ، مثال
ذلك « الخيام المكيفة » التي يصنعونها الآن ، وتكون من طبقتين : الطبقة الأولى
تعرض للشمس فتحمّل السخونة ، والطبقة الثانية تحجز السخونة ، ويسمون هذا
السقف « السقف المزوج » . ويوجد خاصة في الأماكن العالية ، لأن الشقة على
سبيل المثال التي تعلوها أدوار تكون محمية ، لكن الشقق الموجودة في آخر دور
خصوصاً في البلاد الحارة تكون السخونة فيها صعبة وشديدة ؛ لذلك يصنعون سقفاً
فوق السقف ، وبذلك يكون الظل نفسه في ظل .

ولذا الإنسان يسعد بالظل تحت شجرة أكثر من سعادته بالظل في جدار ؟ لأن
الظل في جدار مكون من طبقة واحدة ، صحيح أنه يمنع عنا الشمس لكنه أيضاً
يحجب الهواء ، لكن الجلوس في ظل الشجرة يتميز بأن كل ورقة من أوراق الشجرة
فوقها ورقة ، وأوراقها بعضها فوق بعض ، وكل ورقة في ظل الورقة الأعلى ولأن
كل ورقة خفيفة لذلك يداعبها الهواء ، فتحجب عن الجالس تحت الشجرة حرارة
الشمس ، وتمطيه هواء أيضاً ، هذا هو معنى قوله : « ظلاً ظليلاً » .

ولذلك فعندما أراد الشاعر أن يصف الروضة قال

وفانا لفحة الرمضاء وإد
نزلنا دوحه صحننا عليا
وأرشمنا على ظمأ زلالاً
يصد الشمس أن واجهتنا
مقله مضاعف العيث العميم
حسو المرصعات على العظيم
ألد من المدامه لنلديم
فيحجبها ويأدن للسم

والشاعر هنا يصف الموقف حين يسير الإنسان في صحراء ثم يبرل في واد به دوح
وهذا الدوح يحو على الإنسان حو الأم على طفلها في من العظام . وأنه قد سقاها
من مائه ما يلد . ونصد الشمس عنهم الأشجار الكثيفة ولكن السيم يمر بين أوراق
الشجر . وهكذا نفهم أن كلمة : ظل ظليل ، أي أن الظل في ذاته مطلق

وبعد أن تكلم الحق عن العايات التي تنتظر الصنفين من خلقه : الصنف الذي
يتأى على منيح الله ، والصنف الذي يتطامن لمنهج الله : الصنف الأول أهد له الله
النار التي تشوى جلوده ويبدله جلوداً غيرها ليدوق العذاب ، والصنف المؤمن الذي
أهد الله به الجنة ذات المواضع المذكورة . وعندما يجعل العاية واضحة في ذهنا من
الكلام عن النار والكلام عن الجنة يلفتنا إلى حكم جديد : لأن النفس تكون كارهة
لنار وعبة للجنة ، وعندما يأتي حكم جديد تتعلق النفس به وتعهده : لأنها قريبة
العهد ، بالترهيب من النار والترغيب في الجنة ، فيجعل الحق هذا الأمر مرة تليلاً لما
تقدم ، ومرة أخرى يجعده تمهيداً لما يأتي : كي تستقبل الأحكام الجديدة في ذهنت
وتتضح لك العاية التي تنتظر من الزم ، والعاية التي تنتظر من اسرف .

وعندما يأتي الحكم والعاية متضحة في الذهن ومهيئة للإنسان فالتكليف يوضع في
بؤرة الشعور : لأن هناك حاجات كثيرة تعلمها النفس البشرية ، ورحمة الله بالخلق
أن هذا الرأس الذي فيه حافظة ، وفيه ذاكرة ، وفيه مخيلة ، لا يقدر أن يستوعب
كل المعلومات في بؤرة الشعور مرة واحدة ، ولا يمكن أن يجيء لك معنى جديد إلا إذا
ترشح المعنى الذي كنت مشغولاً به في ذهنك قليلاً عن بؤرة الشعور وذهب إلى
حاشية الشعور ، فمن بقي المعنى في مكانه هلن يأتي لك خاطر جديد

إذن بؤرة الشعور هي التي فيها ما أنت الآن بصدده فلا يمكن أن تتداخل الأفكار في البؤرة الشعرية ، ولذلك عندما تريد أن تستدعي حاجة في بؤرة الشعور . فللمعانى تتداعى كى تأتى بما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور . وساعة يأتى ما تريده في بؤرة الشعور يذهب الخاطر الأول .

إياك أن تظن أن العقل البشرى يستطيع أن يواجه في بؤرة الشعور كل المعلومات ، لا . ممن رحمة الله أنه وضع لشعورك نظاما تخزن فيه معلوماتك ، ولذلك فأنت قد تتذكر حاجة من عشر سنوات ، فإذا كانت قد ذهبت من فكرك فكيف تذكرتها ؟ إذن فهي موجودة لكنها موجودة في الحواشي البعيدة للشعور . . وعندما تداعت المعانى خرجت الخاطرة أو الحادثة إلى بؤرة الشعور ؛ ثم تؤدي مهمتها وتذهب ؛ وتأتى أخرى في بؤرة الشعور .

إن هذا الذهن الشرى فيه قوة وطلاقة يحترق فيها الأحداث ، وعلى الرغم من ذلك تختلف قدرات الناس ، فهناك من يحفظ قصيدة من عشر مرات ، وهناك ذهن يحفظ من مرتين ، وهناك من يحفظ من ثلاث مرات . إن الذهن كآلة التصوير « الفونوغراف » يلتقط من مرة واحدة ، والمهم فقط أن تكون بؤرة شعورك خالية ساعة الالتقاط . فإن كانت بؤرة شعورك خالية من غيرها تنتقلها .

أنت تكرر القصيدة لو لآية أو الكلمة كى تحفظها ؛ لأنك لو قدرت أن تجعل بؤرة شعورك مع النص لحفظت النص مباشرة ، لكنك لا تحفظ النص ؛ لأن هناك خواطر تأتيك فتعطل التركيز ، وتكون بؤرة الشعور مشغولة بسواها فلا تستطيع أن تحفظ المعنومة الجديدة ، فتكرر الحفظ إلى أن تصافى كل جزئية من جزئيات الشعر أو القصيدة أو الآية خلوا بؤرة الشعور ؛ لذلك يقولون : هناك طالب يحفظ ببطء ، وآخر يحفظ بسرعة ، إن السى يقدر أن يركز ذاكرته لما هو بصدده ، فذهنه يلتقط ما يقرأ من مرة واحدة أما الذى لا يركز فإن حفظه يكون بطيئا

وأضرب هذا المثل ، وقد يكون أغليتنا مرّ به ، وخصوصاً من تعرض للعلم وللامتحانات ؛ هب أنك طالب فى امتحان ، وبعد ذلك فى الجرس لتدخل مكان

الامتحان ، ثم جاء زميل لك وقال لك : القطعة الفلانية سيأتى منها سؤال ، وأنت لم تكن قد ذاكرتها ، ها تحطف أى كتاب وتقرؤها بإمعان ، فهل وأنت فى هذه الحالة تفكر فى ماذا ستأكل على العشاء ؟ أو تفكر فى من كان معك بالأمس ؟ لا ، لأن الوقت ضيق ولن يتركز فكرك إلا فى هذه القطعة التى تقرأها ثم تدخل الامتحان فتجد سؤالاً فى القطعة التى ذاكرتها من دقائق ولمدة قصيرة فتضع الإجابة الصحيحة ، وقد لا يعرفها من ذاكرها لمدة شهر ، لأنه ذاكرها وبانه مشغول ، أما أنت فتضع إجابة السؤال كما يجب لأنك ذاكرتها وليس فى ذهنك غيرها ، لأن الوقت ضيق وكانت بؤرة شعورك محصورة فيها .

ومثال آخر : نجد تلميذاً من التلاميذ يشكر من عدم فهمه من أستاذه لكن هناك تلميذ آخر يفهم ، والتلميذ الذى لا يفهم هو من انصرف ذهنه عنه فى أثناء الشرح فى مسألة بعيدة عن العلم الذى يدرسه ، وعندما يحىء درس جديد ، فهو يقابها بمعلومات لا بد أن تستقر وتبقى على معلومات سابقة كان ذهنه مشغولاً عنها ، فلما شرح المدرس الدرس الجديد ، قال التلميذ الذى لا يفهم : ماذا يقول هذا المدرس ؟ لكن التلميذ المتفهم له والذى يربط المعلومات بعضها ببعض ، يفهم ما يقوله المدرس ، ولذلك فالأستاذ الجيد لا بد أن يثير الانتباهات دائماً لطلابه ، بمعنى أن يعاجلهم ، يقول مثلاً كم حملة ثم يقول للتلميذ قم ، ماذا قلت الآن ؟ فيجس كل تلميذ وهو غرصة أن يسأل ، فيحاف أن يخرجه الأستاذ ، فينتبه للمدرس ويعمل بؤرة شعوره مع المدرس دائماً .

فالخلق سبحانه وتعالى بعدما تكلم عن النار وعص الجنة وجعل هذا الأمر مستقراً فى بؤرة شعورهم يزل الأحكام بعد ذلك ، ولذلك نجد دائماً بعد أن يذكر سبحانه الجنة والنار بآى بعدها بأهيات الأحكام التى إذا فعلوها مالوا الجنة ولتعلوا عن النار . فبعدما شحنت بؤرة الشعور بالجنة والنار بالغاية المنفرة والعابة المرعبة ، ها يأتى الحكم ، فيقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا

وَإِذَا أَحْكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ
نِعَمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا ﴿٥٨﴾

وقوله سبحانه : « أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَعْيُنِهَا » ، أوجز الله فيها كل تكاليف
السماء لأهل الأرض ، لأن الأمانات هي الأمانة لعليا وهي الإيمان بالله ، والأمانة
التي تتعلق ببني الحس ، والأمانة التي على النفس لكل الأجناس

ومعنى الأمانة هو : ما يكون لميرك عندك من حقوق وأنت أمين عليها ، إن شئت
فعلتها ، وإن شئت لم تفعلها ، أنت تقول : أنا أودعت عند فلان أمانة ، هذه الأمانة
لركائز لا يصال له كانت أمانة ، لأن هناك دليلاً ، ولركان ما أودعته عند ذلك
الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة ، فالأمانة : أن تودع عنده شيئاً ، وضميره هو
الحكم ، إن شاء أقر بما عنده لك حين نطلبه ، وإن شاء لم يقر به ، قال الحق :

﴿ إِنَّا مَرَّضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(سورة الاحزاب)

فما هي الأمانة التي عرصت على السموات والأرض والجبال فأبت أن تحملها ثم
حملها الإنسان ، وعلة تحملها لها أنه كان ظلوماً جهولاً ؟ إن الكون كما نعلم فيه
أجناس ، أعضاها الجهاد ، وأوسطها النبات ، وأهل من الأوسط الحيوان ثم الإنسان ،
والإنسان هو سيد هذه الأجناس لأنها تخدمه جميعها ، لكن الجهاد والنبات والحيوان
لا اختيار لأي منها في أن يفعل أو لا يفعل ، وإنما كل جنس منها قد خلق لشيء
ليؤديه ، ولا اختيار له في أن يمتنع عن الأداء .

الأرض والسموات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة أو أن تحمل أمانة وتكون
المسألة فيها راجعة إلى اختيارها إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل . واشفقت
الأرض والسموات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء

الأمانة . فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمل الأمانة أن يؤديها ، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه ، فربما خائنه نفسه وجعلته لا يقر بها . لقد احتاطت السماوات والأرض والجبال وقالوا : لا نريد هذه الأمانة ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك ، نطيع أو نعصى ، وإنما يارب يريد أن نكون مسحورين لما تحب دون اختيار لنا . فسلمت الأرض والسماوات والجبال ، لكن الإنسان بما فيه من فكر يرجع الاختيار بين البدائل قال . أنا أقبلها وإن فكرى سيخطط لأدائها . ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمله الأمانة إلى حالة أدائه لها .

ومثال ذلك : من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغاً من المال كإمانة عندك ، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك ، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك ، فقد غر بك ظروف فتصرف شيئاً من المال ، أو أن تكون - والعهد بالله - قد خربت ذمتك .

إذن فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء وإن ملك نفسه وقت الأخذ ، فالذين يحتاطون يقولون . أبعد عنا تحمل الأمانة ، فلا نريد أن نحمل لك شيئاً ولكن الإنسان قبل تحمل الأمانة ؛ لأنه « كان ظلوماً جهولاً » ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء ، إذن فالأمانة التي عرضت عن السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هي أمانة الاختيار التي يترب عليها التكليف من الله

إن التكليف محصور في « افعل » و « لا تفعل » ، فإن شئت فعلت في « افعل » ، وإن شئت لم تفعل في « لا تفعل » ، وإن شئت العكس ، ومعنى ذلك أن الأمانة في هذا المعنى مقصورة على ما طلبه الله من الإنسان وقت العرض . لكنها لم تتعرض للأمانات التي توجد بيننا ، والأمانة كذلك هي ما يتعلق بذمتك بحق غيرك ، لذلك فحين يعطى إنسان إنساناً شيئاً يصير الأخذ مؤمناً فإن شاء أدى وإن شاء لم يؤد .

لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان ، وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذي أعطاه الله للناس أمانة فهو الذي علمك علماً وأعطاك بك وبعد ذلك قال لك : أدّه لي . كمثل من يكون مأموناً على مال ؟

نقول للعالم : العلم ليس من صدك حتى تعطيه لغيرك وبعد ذلك يرد لك ولكن الله يجازيك عليه ثواباً وكذلك في الحلم والشجاعة ، ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا في المال ، لكن في بقية الأشياء : نقول لك : أنت أمين عليها أمام خالقك ، وقد أمنتك ربنا على هذه الأشياء كي تؤديها إلى من لا يعلم ، فأنت على قدرة وأمرك : أعطها لمن لا يقدر ، وأمنتك على علم وأوضح لك : أعطه لمن لا علم له ..

إذن فما الذي أعطتك هذه الأمانة ؟ الله . فليس ضرورياً أن تكون الأمانة من صاحبها الذي أعطاكها لك لتردها إليه ، فالأمانة : ما تصير مأموناً عليه بمن خلق أو من خوفي ، فأدعها ، والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهلكك للتكليف من الله حين كلفك أمانة عندك ، وأهلكك في المواهب المختلفة أمانة عندك ، فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ولا بد أن يؤديها وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة . فربنا أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فكر ، وأعطى ثالثاً قوة حلم ، وأعطى رابعاً علماً . كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله في خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدي كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين .

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحداً ، والأمانة في التكليف التي كلفك الله بها : لأنها أمانة لغيرك عندك ، وأمانة عندك لغيرك . فحين يكلفك الله بالأسرق ، يكون قد كلف الناس كلهم ألا يسرقوك .

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك ، فإن أهميت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذي يحيط بك لأمانة التي عنده ، وهكذا تكون الأمانة هي . أداء حق في دعائك لغيرك

وقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قيل نزلت في عثمان ابن طلحة ابن أبي طلحة وكان سادن - خديم - الكعبة وحين دخل رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى على بن أبي طالب - رضي الله عنه - يده وأخذ منه وفتح ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فترلت هذه الآية فأمر أن يردّه إلى عثمان - رضي الله عنه - ويعتذر له فقال عثمان لعل : أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق ، فقال لقد أنزل الله عليك قرآناً وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان وهبط جبريل وأحبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة في أولاد عثمان أبداً .

وهذا ويقابل الأمانة شيء بعد ذلك اسمه العدل ، فلو أدى كل واحد ما لغيره هذه من حق لما احتجنا إلى عدل ، فالعدل إنما ينشأ من خصومة وتقاض ، والتقاضي معناه : أن واحداً أنكر حق غيره فلو أدى كل واحد ما من ذمته من حق لغيره لما وجد تقاض ، ولما وجدت خصومة فلا ضرورة إلى العدل حينئذ .

ولكن الحق الذي خلق الخلق وعلم الأغيار فيهم قدر أن بعض الناس يفعل عن هذه القضية وينشأ منها أن الإنسان قد لا يعطي الحق الذي في ذمته لغيره ، ففقد سببانه بشيء آخر اسمه «العدل» . ولر أن المسألة الأولى انتهت لما احتجنا للعدل .

إذن فالعدل هو علاج للمغفلة التي تصيب البشر من الأعيار التي تطرا على نفوسهم ، فثناء الله أن يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، في الأولى لم يقل : إذا أتمتم فأدوا ، لا . بل قال . « إن الله يأمركم أن تزودوا » . فإذا حدثت منكم غفلة عن هذه فيما الذي يحمي هذه المسألة ؟ ها يأتي العدل وهو أن تقضى بحق في ذمة غيرك لغيره ، أي ليس في ذمتك أنت ، لأنك تحكم كي ترجح مسألة ونضع الأمر في نصابه .

وبذلك نعرف أن مطلوبات أداء الأمانة تكون في شيء عندك تؤديه لغيرك ، لكن مطلوبات العدل : تكون في أشياء في ذمة غيرك لغيرك . ولذلك قال الحق : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وكما أن آية أداء الأمانة عامة ، كان لا بد أن تكون آية لعدل عامة أيضاً

إن قوله تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إن كل إنسان مطالب بالعدل ، فلر كبت محكما من طرف قوم ورضوا بك أن تحكم فاحكم بالعدل حتى ولو كان الحكم في الأمور التي تتعلق بها التكريم والشرف والمهبة ، فليس ضرورياً أن يكون الحكم بالعدل في أمر له قيمة مادية ، مثلاً : سيدنا الإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - يرى غلامين يتحاكيان إلى ابنه الحسن ، ليحكم بينهما أي الخطيئ أجمل من الآخر ، وهذه مسألة قد ينظرها الناس على أنها مسألة تافهة لكنها مادامت شغلت العفول وأراد كل واحد منهما أن يكون خطئه أجمل ، ملاهد أن يكون الحكم بالعدل . فقال الإمام عن لابنه الحسن : يا بني انظر كيف تقضي ، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

إن هذا يعطينا صورة في دقة العدل حتى ولو كان الأمر صغيراً . وفي مباريات كرة القدم نجد الحكم الذي يقول هذه اللعبة تحتسب هدفاً أو لا تحتسب ، هذا الحكم يحتاج إلى مهارة لأنه سيفترق عليها فوز فريق أو هزيمته ، بدليل أنك حتى وأنت تراقب الكرة ثم وجدت الحكم لم يحتسب خطأ تثار عليه .

وهنا أتساءل : لماذا طبقت قانون الجدل في اللعب ، ثم تركتم الجدل بدون قانون ؟ وهذا مما يحدث . نحن ننقل قوانين الجدل إلى اللعب ، وترك الجدل في بعض الأحيان بدون قانون ، ولو اعتنينا بهذه كما اعتنينا بتلك . لتساوت الأمور ، فالعدل إذن هو حق في ذمة غير لغير حتى ولو كانت مبراة في اللعب ، وملازم الأمر قد شغل طرفين ، وجعل بينهما تراعا وخلافاً وتسابقاً فعملبك أن تنهى هذا الخلاف بالعدل .

ويتابع الحق : « إن الله نعماً يعظكم به ، ونعماً ، يعي نعم ما يعظكم به الله ، أي لا يوجد أفضل من هذه العظة التي هي : أداء الأمانة والحكم بالعدل ، بهذا تستقيم حركة الحياة . فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف ، وإذا أدوا عدالة الحكم فإن كان هناك خلاف ينتهي . وقال العلماء : إذا علم المجتمع أن عدلاً يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرى ذلك ظالماً على أن يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم : فلان ظلم ولم يحاكم ، فيجري ذلك الظالم أن يزيد في ظلمه ، لكن ساعة

يرى النفس أحداً يأخذ حق غيره ثم جاء المحاكم فردعه ، ورد الحق لصاحبه فلن يظلم أحد أحداً .

وسبحانه في أمره هذا لا حاجة له في أن تفعلوا أو لا تفعلوا ، نهى أشياء لا تؤثر عنده في شيء ، إنما هي في مصالحكم انتم بعضكم مع بعض ، واحسن ألوان الأمر هو ما لا يعود على الأمر سائلة ، لأن الأمر إذا ما كان فيه عود بالفائدة على الأمر قد يشكك في الأمر لكن أن تامر بأمر ليس لك فيه فائدة فهذا قمة العدل . وقد يوجد إنسان يأمر بما لا فائدة له فيه ، لكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة ، والأمور هنا يختلف لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مصححة في الأمر ، هذه واحدة ، وأيضاً فهو - سبحانه - واسع العلم والحكمة ؛ لذلك كانت هذه العظة مقبولة جداً ، وهي نعمة من الله ولما ما عداها فبنست العظة ، لأن الله لا يتنعم بأمره هذا وهو مأمون على العباد جميعاً ، والثانية ، أنه قد يوجد غير لا يتنعم بالأمر ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة فلا نعمت العظة منه ، فتوبه : « إن الله بما » يعني . نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن تحكموا بالعدل .

ونلاحظ الأداء البياني في القرآن في قوله : « تؤدوا » هذه للجراحة ، وهذا يعني أن كل واحد مطالب بهذا الحكم أولاً ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، فيكون كل واحد مطالباً بالحكم أيضاً ، كأن مهمتكم الاعانة ليست مقصورة على أن تصونوا حقوقكم بينكم وبين أنفسكم ، لا ، فأنتم مكلفون بأن تصونوا الحقوق بين الناس والناس ولر لم يكونوا مؤمنين

إن قوله : « وإذا حكمتم بين الناس » يفهم منها أيضاً حماية حقوق من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن بدين الإسلام ، لأن الحق جل وعلا يريد منا أن نؤدي الأمانة إلى « أهلها » ، ولم يقل « أهلها » المؤمنين أو الكافرين .

إن كلمة « الناس » هذه تدل على عدالة الأمر من إله هو رب للجميع ، فسبحانه هو الذي استدعى الإنسان للعنفا ، والإنسان منه مؤمن ومنه كافر . لكن أحداً لا يخرج عن نطاق الربوبية لله ، غرباً يرب ويبرح كل إنسان - مؤمناً كان أو كافراً - هو يرزق الجميع ولذلك أمر الكون . يا كوني أعط من فعل الأسباب للنهاية من

المسيات إن كان مؤمناً أو كافراً وهذا هو عطلة الربوبية ، إنه - سبحانه - رزق الإنسان وسخر الأشياء له ، فهو لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن والكافر ، فكل ذلك طلب منا أن نؤدى الامانة للمؤمن والكافر ، وطلب منا أن نعدل بين المؤمن والكافر .

ولما فى الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فقد حدث أن طعمة ابن أبيرق ، أحد بنى ظفر سرق درعاً^(١) من جوار له اسمه قتادة بن النعمان ، فى جراب دقيق والاثان مسليان ، إلا أن مناعه الحق لم يتركب الجريمة ضيقة منها ظن اساعها ، مثلما نقول . « الجريمة لا تفيد » ، فوضع الدرع المسروقة فى جراب كان فيه دقيق ، فجعل الدقيق يتثر من حرق فى الجراب وهو يسير من بيت قتادة بن النعمان ونحاً الدرع عند يهودى اسمه « زيد بن السمين » ، فلما ظن قتادة بن النعمان لصياغ الدرع قال : سرق الدرع سرق الدرع . فتبعوا الأثر فوجدوه إلى بيت طعمة ابن أبيرق ، فحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه . فتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند اليهودى « زيد بن السمين » فقال اليهودى دمهها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود ، ورفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بنو ظفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا واقتضح ويرى اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فأمر الله عليه حكمه الفصل :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَافِيينَ حَصِيًّا ۝ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَلَا تَحْدِثْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا ۝

أَيْمًا ۝﴾ (سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائئين واستغفر الله إن كان هذا الخطأ قد جال برأسك بأن ترفع رأس مسلم على يهودى ، لأن الحق أولى من المسلم ، فإقدام هو قبل

(١) الدرع : هو القميص من حلائك من الحديد مطاوعة تلبس وثابة من الخشب بالسلاح

أن يموت فلا يجادل عنه ، ولماذا طلب بنو ظفر التخاصي عن جرعة مسلم والصابغها يهودى ؟ أهتخفون من الناس ولا يستخفون من الله ؟ وانقص أن هذه برأهم عند الناس . أتبرئهم عند الله ؟ ويقول في آية أخرى :

﴿ مَا أَنْتُمْ مَنزِلَةٌ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَسَّ يَجِدُلُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » لابد أن تأخذ على أنه مطلب تكفي من الله للمسلمين حتى يشيع في كل الناس ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم ، ولما يشمل أيضا ما بين المؤمنين والكافرين ، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله .

« إن الله مما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » وحين ترون تدليل آية بصفتين من صفات الحق أو باسمين من أسماء الحق ، فلا بد أن تعلموا أن بين الصفتين أو بين الاسمين وبين متعلق الآية علاقة ، وهنا يعلمنا الحق أنه سميع وبصير . بعد أداء الأمانة ، والحكم بالعدل بين الناس ، لأن الرسول شرح ذلك حين أمر من يقضي بين الناس أن يسوى بين الخصمين في لحظه ولفظه أي لا ينظر لواحد دون الثاني ، ولا يكرم واحداً دون الآخر ، فیسوى بين الاثنين ومادام يسوى بين الاثنين ، فلا بد أن تكون النظرة واحدة ، والألفاظ واحدة .

روى أن يهوديا حاصم سيدنا عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فتحدى أمير المؤمنين عليا فقال : « فب يا أبا الحسن » فبدأ الغضب على علي رضي الله عنه ، فقال له عمر : « أكرهت أن يسوى بينك وبين خصمك في مجلس القضاء ؟ فقال علي رضي الله عنه : لا . ولكني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب فتاديتني بكينتي ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي »

إذن فحين يقول عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري : « آس بين الناس في مجلسك ووجهك »^(١)

(١) من كتاب سيدنا عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري بعد تكليبه بالقضاء

فلا بد أن يقوم بتلك التسوية كل حاكم أو محكم بين خصمين فلا يميز ولا يرفع
خصماً على خصمه .

وهذا يحتمل عمل العين وهذا يحتاج إلى بصير ، واللفظ يحتاج إلى أذن تسمع ،
أى إلى سميع ، فقال : « إن الله كان سميعاً بصيراً » . لماذا قدم سبحانه هنا سميعاً
على بصير ؟ لأن ما يُسمع فيه تعبير واضح . أما لتطيرة فلا يعرفها إلا من يلاحظ أنه
ينظر بحان وإكبار ، وهل وجدت له سبحانه صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه ،
وهل وجدت له صفة البصر بعد أن وجد ما يبصره ؟ أو أن صفة السمع أزلية قديمة
قبل أن يخلق خلقاً يسمع منه ، وأن صفة البصر أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً يبصر
أفعالهم ؟ إنه سبحانه قديم أولاً ، موجود قبل كل موجود . وصفاته قديمة بقدمه

إذن فيه فرق بين أن تقول : سميع وبصير ، وسماع ومبصر ، فإثبات تكون سميعاً
إذا وجد بالفعل من يُسمع ، إذن فما معنى كلمة « سميع » ؟ أن يكون المدرك على
صفة يجب أن تدرك المسموع إن وجد المسموع وإن لم يوجد المسموع فهو ليس سميعاً
فقط ، إنما هو سميع ، وكذلك بصير

وأضرب المثل - والله لأشأن الأهل ، وهو منزّه عن كل تشبيه - الشاعر الذى يقول
القصيدة ، إنه قبلما يقول القصيدة كان شاعراً فى ذاته وقال القصيدة بوجود ملكة
الشعر فى ذاته . والحق سبحانه وتعالى « غفر » قبل أن يخلق الخلق ، أى أنه على
صفة تدرك الأمر إن وجد . . وهو غفار قبل أن يوجد الخلق ويرتكبوا ما يغفره ، وهو
« سميع بصير » أولاً . أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يبصر ويشأ منهم
ما يسمع .

ويقول الحق بعد ذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥١﴾

هذه الآية كثر كلامنا فيها ، وفي كل مناسبة من المناسبات جاء الكلام عنها ، ولكن عليّ أيضاً أن معيد بشيء من الإيجاز ما سبق أن قلناه فيها ، الله سبحانه وتعالى يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ولماذا أطيع الله وأطيع الرسول ؟ لأن فيه الحثيثات المقدمة ، فأنت عندما ترى حكماً من القاضي تجد أن هناك حثيثات لحكم أي التبرير القانوني للمعقولة أو للبراءة ، فيقول القاضي : يا أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا . هذه هي الحثيثات . و« الحثيثات » مأخوذة من . حيث إنه حدث كذا فحكمنا بكذا . أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا ، إذن فحثيثات الحكم معناها : التبريرات التي تدل على سند الحكم لمن حكم .

هنا يقول سبحانه « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » وهل الحق سبحانه وتعالى قال : يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ؟ لا لم يقل ذلك ، لقد قال « يا أيها الذين آمنوا » . إذن مما دمت قد آمنت بالله إنها حكماً حالقاً عالمياً مكلّفاً فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلقاً أناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلقاً الناس أن يؤمنوا به . ومن يؤمن يقول له : أطعني مادمت قد آمنت بي .

إذن فحثيثة الطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم نشأت من الإيمان بالله وبالرسول . وهذه عدالة كاملة ؛ لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به . سبحانه - مكلّفاً ، آمن به أمراً ، أما الذي لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلي ، ولذلك نجد كل تكليف يصدر بقوله سبحانه « يا أيها الذين آمنوا » .

إن حثيثة إطاعة الله وإطاعة الرسول هي : الإيمان به ، هذه هي الحثيثة الإيمانية الأولى ، أما إن جال ذهنك لتترك سر الطاعة ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : لياكم أن تقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولاً فإن انتفعت بها أخذتموها

وإن لم تقتنعوا بها تركتموها ، لا إن مثل هذا التصرف معه أنك شككت في الحكم بل عليك أن تقبل عن تنفيذ أحكامه ، لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم لكن هل ذلك يمنع عقلك من أن يقول ليفهم الحكمة ؟

نقول لك أنت قد تفهم بعض الحكمة ، ولكن ليست كل الحكمة ، لأن كيالات حكمة الله لا تنتهي ، فقد تعرف حزناً من الحكمة وعبرك يعرف جزءاً آخر ، ولذلك قالوا إن الفرق بين أمر البشر للبشر ، وأمر الله للمؤمنين به شيء يسير جداً هو . أمر الله للبشر تسببه العلة وهي أنك آمننت به ، أما أمر البشر للبشر فأنت تقول لمن يأمرك : أتعني لماذا أفعل هذه ؟ ، لأن عقلك ليس أرقى من عقل فأنت لا تصنع شيئاً إلا إذا اقتنعت به وتكون التجارب قد أثبتت لك أصالة رأى من تسمع له وأنه لن يخطئك .

وهكذا نرى أن طاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ، فنحن طيع الله لأننا آمننا به وحيثما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، نطهر هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصالحه ؟ فإذا قلنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا ، إذن فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ، لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه ، وسبحانه قد خلقك دون أن يكون لك حق الخلق عنه ، خلقك بقدرته ، وأمنك لاستيفاء حياتك بقيومته ، فحين يطلب منك الإله الذي يتصف بتلك الكيالات شيء فهو يطلبه لصالحك ، كما نرى لدى إنسان من الشر - وهو المثل الأعلى - يعني بصعته ويجب أن تكون صمته متميزة ، وكذلك الحق سبحانه وتعالى يريد أن يباهي بهذا الخلق . ويباهي بهذا الخلق ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير لا . بل بالمحبة لأمر الله وأن نعمل بسلوكنا : نحن معك يا ربنا . وإلا فأنت - أيها الإنسان - قد تختار أن تكون عاصياً . وما حدث ههنا أن تكون عاصياً ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبة لأنه ، كما نعرف - هناك فرق بين من يقهر بقدرته ومن يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت محب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك .

مسألة قال الحق : « أطعوا الله » معناها : أنه لم يطلب منا شططاً ، وكيف نطيع الله ؟ . إن نطيعه في كل أمر ، وهل أمر الله خلقه منفردين ؟ . لا ، بل أمرهم كأمره

وكجاعة ، وأعطاهم الإيمان الفطري الذي يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقتة .
وعنه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعمل لمن يعطيها ؛ إذن
فلا بد أن يوجد مُبلِّغ . ولذلك فأننا نرى أن بعض الفلاسفة قد جانبوا الصواب
عندما قالوا : إن العقل كاف في إدراك الدين . وأقول لهم لا . العقل كاف في
إدراك من ملين به ، ولكن العقل لا يأتي لنا بكيفية الدين ومنهجه .

لذلك لا بد من بلاغ عنه يقول : اعملوا كذا وكذا وكذا ، يقول هؤلاء
الفلاسفة : إن العقل كاف في استنباط وجود قوة وراء هذا الكون ، أما شكل هذه
القوة ، واسمها ومذا ترهب ، فلا أحد يعرف ذلك إلا أن يوجد مبلغ عن هذه القوة ،
ولا بد أن تكون القوة التي أمست بها بعطرتك قد أرسلت من يقول : اسمه كذا ،
ومطلوبه كذا ، إذن نقوله : « أطيعوا الله » يلزم منها إطاعة الرسول .

وبعد ذلك قال : « وأولى الأمر » ، وهو أولى الأمر هنا لم يتكرر لهم الفهم ، فلم
يقبل : « أطيعوا أولى الأمر » ليعلم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن
الطاعتين طاعة الله وطاعة الرسول ، ونعلم أن الطاعة تأكل في أساليب القرآن
بثلاثة أساليب : « أطيعوا الله والرسول » و « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، وأطيعوا
الرسول فقط . إذن فتلاثة أساليب في الطاعة :

الأسلوب الأول : أطيعوا الله والرسول ، فأمر الطاعة واحد والمطاع هو الله
والرسول

والأسلوب الثاني : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .

والأسلوب الثالث : أطيعوا الرسول ، نعم فالتكليفات يأمر بها الحق سبحانه
وتأكد بحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فعله أو تقريره ، وهنا
تكون الطاعة في الأمر لله والرسول ، أو أن الحق قد أمر إجمالاً والرسول عين
تفصيلاً ؛ فقد أصعنا الله في الإجمال وأصعنا الرسول في التفصيل فتكون الطاعة لله ،
وتكون الطاعة للرسول ، أو إن كان هناك أمر م يتكلم فيه الله وتكلم الرسول فقط .
ويثبت ذلك بقول الحق .

﴿ مِنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة النساء)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَشْكُرُ الرَّسُولَ فَعُذُّوهُ وَمَا يَنْكُرُ عَنْهُ فَأَتَّبُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فهذه تثبت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ملاحظ في التشريع :
ملحظ بشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له أو أن الله قد شرع إجمالاً ، والرسول عين تفصيلاً . والأمثلة على ذلك أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الركاة ، وهذه تكليفات قالها ربنا ؛ والرسول يوضحها - النصاب كذا ، والسهم كذا ، إذن فنحن نطيع ربنا في الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول في الأمر التفصيل ، أو أن الأمر لم يتكلم فيه الله حكماً ، وإنما جاء من الرسول تنويع من الله ، ولذلك فإن قال لك أي إنسان عن أي حكم من الأحكام : هات دليلاً من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقل له : دليل أي أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق :

﴿ وَمَا أَشْكُرُ الرَّسُولَ فَعُذُّوهُ وَمَا يَنْكُرُ عَنْهُ فَأَتَّبُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

هذا دليل كل أمر تكليفي صدر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد يقول قائل : هناك تارق بين الأمر الثابت بالسنة والفرص نقول : لا تخلط بين سنة وهي الأمر الذي إن فعلت تثاب وإن لم تفعله لا تعاقب ، والفرص الذي يجب على المكلف أن يفعله ، فإن تركه أثم وعوقب على الترك . وهذا امرض جاء به الحق وأنته بالدليل كالصلوات الخمس وعند الركعت في كل صلاة ، فالدليل في الفرص ثابت بالسنة وهذا ما يسمى سية الدليل ؛ وهناك فرق بين سية الحكم كأن يصل المسلم قبل الظهر ركعتين وقبل الصبح ركعتين وفرضية الحكم كصلاة الصبح والظهر . . إذن ففيه فرق بين الشيء الذي إن فعلته تثاب عليه وإن لم تفعله لا تعاقب عليه والشيء الذي يفرض عليك أدائه ، فإن تركته أثمت وعوقبت ، وأما سية الدليل فهي شرح ما جاءت به الفروض شرحاً تطبيقياً لاتباعه المسلمون .

لما الأمر بطاعة أولى الأمر فقد جاءت بالمعطف على المطاع دون أمر بالطاعة ، مما يدل على أن طاعة أولى الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفي ذلك عصمة للمجتمع الإيماني من الأحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستغلوا الناس بقول الله . « وأولى الأمر » ويدعون أن طاعتهم واجبة ، يقول الواحد منهم : أأستأمر بأمر ؟ . فبرد العلماء . نعم أنت أولى أمر ولكنك معطوف على المطاع ولم يتكرر لك أمر بالطاعة ، فدل ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين . فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هي « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبد الملك حينما قال له : أأستأمر بالأمر وقد قال الله : « وأولى الأمر » . قال : ويجب أن يعطى أيضاً إلى أمها مرحمت في قوله سبحانه . « فإن تارعتهم في شيء فردوه إلى الله والرسول » إذن والحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومطالب بالعدل ، ومطالب أيضاً أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله . فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط .

« فإن تارعتهم في شيء فردوه إلى الله والرسول » إذن والتنازع لابد من أن يكون في قضية داخلية في نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون له مرء يهي هذا التنازع « فردوه إلى الله والرسول » إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء ، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم تذهب إلى العلماء ليسوا له حكم الله في هذه المسألة ، إذن فإن أريد بـ « أول الأمر » الحاكم ، نقول له : « فردوه إلى الله والرسول » أي على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول ، والحجة في ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يحرّمونه عن الدين . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب ما ذلك ، يريد أن يهي مسألة التنازع ، لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربة ، هذا يقول بكذا وذلك يقول بكذا ، فلا بد أن نرده إلى مرء أهل ، والحق يقول .

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّكَ الَّذِينَ يَسْتَفْظُونَ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

إذن فقد يكون المراد بأولي الأمر « العلماء »

يقول : إن الآية الأولى عامة وهي التي جاءت بها طاعة ولي الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التي تخص الاستنباط يكون المقصود بأولي الأمر هم العلماء

و أولوا الأمر في القضية الأولى التي عندما يتنازع معهم في أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفيذية ، أما سلطة العلماء فهي تشريعية إيمانية .

« فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » إذن فالذي لا يفعل ذلك يجازف بأن يدخل في دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر - ابتداءً في تلقى الحكم ، وإيماناً باليوم الآخر - لتلقى الجراء على مخاضة الحكم ، فالحق م يجعل الدنيا دار الجراء .

وسبب الخس في حتم الآية : « ذلك خير وأحسن تأويلاً » أي في ذلك خير للحكام وللمحكومين معاً ؛ لأن الخير هو أن يقدر الإنسان ما يتفقه في الدنيا والآخرة ، وكل شهوة من الشهوات إن فُترت معها فلن تنعكس سوى لحظة ثم يأتي منها الشر .

والتأويل هو : أن ترجع الأمر إلى حكمه الحقيقي ، من « آء » بتول إذا رجع . « وأحسن تأويلاً » تعني أحسن مَرَجاً وأحمد معية وأجمل عاقبة ؛ لأنك إن حرصت بما تريد على مصالح دنياك ، فما ترجع إليه سيكون فيه شرك إذن فالأحسن لك أن تفعل ما يجعلك من أهل الجنة ، أو « وأحسن تأويلاً » في الاستنباط ، لأن العلماء سيأخذونه من منطلق مفهوم قول الله وقول الرسول ، وأنت ستأخذها بهواك ، وفهمك من الله بمنحك من لشطط ومن الخطأ .

فإن كنتم تريدون الخير فلاحظوا الخير في كل أحيائه وأوقاته ، ولا ينظر الإنسان إلى الخير ساعة يؤدي له ما في هواه ، ولكن لينظر إلى الخير الذي لا يأتي بعده شر . وإذا ما نظرنا تاريخ الكثير من الحكام ووجدناهم قد أسروا على انتقادهم في حياتهم بما فرضوه من القهر والبطش ، فلما ماتوا ظهرت العيوب ، وظهرت الحملات ، إن الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمع من حكم قبله . فالذي حكم قبله كمم الأفواه وكسر الأقلام ، وبعدما انتهى ، طالت الألسنة وكتبت الأعلام ، فيجب أن

نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائي ، فمن استطاع أن يحصى نفسه في حياته بسطوته وجبروته لا يستطيع أن يحصى ثلثيته وسميته . إنه بعد أن انتهت السطوة والجبروت قيل فيه ما قيل ، ونحن مازلنا في الدنيا ولم نذهب إلى الآخرة بعد ، فلذا كان هذا هو جزاء الخلق . فما شكل جزاء الحق إذن ؟

« ذلك خبر وأحسن تأويلاً ، أي مرجعاً وعاقبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا
أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا
إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ١٠ ﴾

نعرف أن « ألم تر » تعني : ألم تعلم ، إن كان المعلوم قد سبق الحديث عنه ، أو إن كان المعلوم ظاهراً حادثاً بحيث تراه ، وتعرف أن الحق صيرب « ألم تر » في كثير من القضايا التي لم يدركها المخاطب وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهذا على أن ما يقول الله - وإن كان خبراً عما مضى - يجب أن تؤمن به بإمكان ما مرئى لك الآن ، لأن الله أوتق في الصدق من عينه ، فعينك قد تخدعك ، لكن حاشا أن يخدعنا الله .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » والمراد هم المنافقون وبعض من أهل الكتاب الذين زعموا الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم « والزعم » مطية الكذب ، فهم « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك »

وهو القرآن : « وما أنزل من قبلك » ، وهو التوراة والإنجيل وه يريدون « بعد ادعاء الإيمان » : « ان يتحاكموا إلى الطاغوت » ، والتحاكم إلى شيء هو . الاستئانة أو اللجوء إلى ذلك لشيء لينهى قضية الخلاف . فعندما نقول : « تحاكمنا إلى فلان » ، فمعنى قولنا هذا : أنت سببت من آثار الخلاف من شحناه وبغضه ، ونريد أن نتفق إلى أن نتحاكم ، ولا يتفق الخصمان أن يتحاكما إلى شيء إلا إذا كان الطرفان قد أجهدهما الخصام ، فهما مختلفان على قضية ، وأصاب التبع كلاً منهما

يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » وه الطاغوت : كما عرفنا - هو الشخص الذى تريد الطاعة طغياناً ، فهناك طاغى أى ظالم ، ولما رأى الناس تحافه استمروا واستساع الظلم مصداقاً لقول الحق :

﴿ قَاتَسَعَفَ قَوْمُهُ فَاَطَاعُوهُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الزخرف)

وهذا اسمه « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . والطاغوت يطلق على المعتنى الكثير الطغيان سواء أكان أناباً يُعبدون من دون الله ولهم تشريعات ويأمرون وينهون ، أم كان الشيطان الذى يُغوى الناس ، أم كان حاكماً جباراً يخاف الناس شره ، وأبى مظهر من تلك المظاهر يعتبر طاغوتاً وقالوا : لعظ الطاغوت يستوى فيه الواحد والثنى والجمع فنقول : رجل طاغوت ، ورجلان طاغوت ، ورجال طاغوت ، بأتى للجمع كقوله الحق :

﴿ أَقْبَهُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ مِصْرُ الطَّاغُوتِ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

وبأن للمفرد كقوله الحق :

﴿ وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النساء)

إذن مرة بأتى للجمع ومرة بأتى للمفرد ، وفى كل حكم قرأى قد نجد سبباً

مخصوصاً نزل من أجله الحكم ، فلا يصح أن نقول : إن حكماً نزل لقضية معينة ولا يُعنى إلى غيرها ، هو يُعنى إلى غيرها إذا اشترك معها في الأسباب والظروف ، فالعبرة بمضمون الموضوع لا بخصوص السبب .

لقد نزلت هذه الآية في قضية منافق اسمه « بشر » . حدثت خلاف بينه وبين يهودي ، وأراد اليهودي أن يتحاكم إلى رسول الله ، وأراد المنافق أن يتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » ، وكان اليهودي واثقاً أن الحق له ولم يطلب التحاكم إلى النبي حباً فيه ، بل حباً في عدله ، ولذلك آثر من يعدل ، فطلب حكم رسول الله ، أما المنافق الذي يعلن إسلامه ويعلن ويخفى كفره فهو الذي قال : « نذهب إلى كعب بن الأشرف الطاغوت ، وهذه نعطينا حيثة لصدق رسول الله في البلاغ عن الله في قوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكون اليهودي يريد أن يتحاكم إلى رسول الله ، فهذه تدل على ثقته في أن رسول الله لن يضيع عنده الحق ، ولم يطلب التحاكم إلى كبير من كبار اليهود مثل « كعب بن الأشرف » ، لأنه يعرف أنه يرتضى .

ويحتمل الحق الآية : « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » فهنا حين يتحاكم إلى الطاغوت وهو « كعب بن الأشرف » ؛ وبعد ذلك يتقضى لمن ليس له حق ، سيخسر مثل هذا الحكم كل من به رغبة في الظلم أن يظلم ، ويذهب له ليتحاكم إليه ! فالضلال البعيد جاء هنا لأن الظلم سيتسلسل ، فيكون على القاضي غير العادل وذر كل قضية يحكم فيها بالباطل ، هذا هو معنى « الضلال البعيد » ، وليت الضلال يقتصر عليهم ، ولكن الضلال سيكون محمداً

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى

الرَّسُولَ رَأَيْتَ الْمُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُّوكَ

وعندما نسمع قول الحق : « تعالوا » ، فهذا يعنى مداء بمعنى اقبلوا ، ولكن كلمة « اقبلو » تعنى الإقبال على المساوى لك ، أما كلمة « تعالوا » فهي تعنى الإقبال على الأعلى . فكان لغضابا البشر تشريعاً هابطاً ، لأنه من صناعة العقل البشرى ، وصناعة العقل البشرى فى قوانين صيانة المجتمعات . على فرض أننا أثبتنا حسن نياتهم وإخلاصهم - تكون على قدر مستوياتهم فى الاستنباط واستقراء الأحداث .

لكن التشريع حياً يأتى من الله يكون عالياً ، لأنه - سبحانه - لا تغيب عنه جرثومة مهما صغرت ، لكن انتقن البشرى بوضع لحالة راضية وتأتى أحداث بعدها تستوجب تعديله ، وتعديل القانون معناه أن الأحداث قد أثبتت قصور القانون وأنه قانون غير مستوعب للجديد ، وهذا ناتج من أن أحداثاً حدثت لم تكن فى بال من نفس لصيانة المجتمع ، وكان ذهن مشرع القانون الوضعى قاصراً عنها ، كما أن تعديل أى قانون لا يحدث إلا بعد أن يرى المشرع الآثار الضارة فى المجتمع ، تلك الآثار التى نشأت من قانونه الأول ، وضبطت أحداث الحياة ضغطاً كبيراً ليعيدوا فى الأحكام والقوانين

أما تشريع الله فهو يحمى المجتمع من أن تقع هذه الأحداث من البداية ، هذا هو العارق بين تشريع وضعى بشرى جاء ليقدمنا من الأحداث ، وتشريع ربانى لم يبق من تلك الأحداث . فالتشريع البشرى كممثل الطب العلاجى . أما التشريع السماوى فهو كالطب الوقائى ، والوقاية خير من العلاج .

لذلك جاء الحق سبحانه وعالى بالتشريعات التى نفينا ونحميها من شر الأحداث ، أى أنه يمنع عن الإنسان الضرر قبل أن يوجد ، وبذلك تتحقق رحمته سبحانه لطائفة من الشر من أن نعصم الأحداث ، بينما نجد للقانون الوضعى ضحايا ، فيرق قلب المشرعين بعد رؤية هؤلاء الضحايا ليضعوا التعديل لأحكام وصنعوها من قبل ،

هـي القانون الرضعى نجد بشراً يقع عليهم عبء الظلم لأنه قانون لا يستوعب
صيانة الإنسان صيانة شاملة ، وبعد حين من الزمن يتدخل المشرعون لتعديل
قوانينهم ، وإلى أن يتم التقيين يقع الشرقي دائرة العيب وعدم الحصول على العدل
أما الخالق سبحانه فقد برأ وخلق صنيعة وهو أعلم بها ؛ لذلك لم يعين أحداً على
حساب أحد ؛ فوضع تشريعاته السوادية ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَبَرَّلْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِمَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الإسراء)

« شماء » إذا وجد الداء من غفلة نظراً عليها ، « ورحة » وذلك حتى لا يأتي
الداء الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى
الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » . إنه - سبحانه - يصنع من الأحداث
ما يعصدهم فيصرفون بما يكشف بدهم ، وبعد ذلك يحطهم الرسول ويعرف
عهم المجتمع أنهم منافقون

وهم « يصدون عنك صدوداً » أى يمرضون عنك يا رسول الله لأنهم منافقون ، وكل
منافق عنده قسيتان قضية لسانية وقضية قلبية ؛ فهو باللسان يعلن إيمانه بالله ورسوله
الله ، وفي قلبه تمارض ملكاته عكس المؤمن أو الكافر ، فالمؤمن ملكاته متساندة ،
لأن قلبه انعقد عن الإيمان ويقود انسجام الملكات إلى الهدى ، والكافر أيضاً ملكاته
متساندة ؛ لأنه قال : إنه لم يؤمن ويقوده انسجام ملكاته إلى الضلال ، لكن المنافق يبعثر
ملكاته ! ملكة هنا وملكة هناك ، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار ،
الكافر منطقي مع نفسه ، فلم يعلن الإيمان ؛ لأن قلبه لم يقتنع ، وكان من المعك أن
يقول كلمة الإيمان لكن لسانه لا يرضى أن ينطق عكس ما في القلب ، وعداوته للإسلام
واصحة أما المنافق فيقول باللسان : أعلن كلمة الإيمان ظاهراً ؛ كي أفتد من هذا
الإعلان إلى أهواي وأن تطبق عن أحكام الإسلام فأنتمتع بأحكام الإسلام ، وأنا من
صميم ناسي إن وجدت فرصة صد الإسلام فسأنهزها . ولذلك يقول الحق

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَى اللَّهِ مُقِيمُونَ ﴾

قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٢٤﴾

والمنافقون يواجهون تساؤلاً : ماذا ذهبتم للطاعوت ليحكم بينكم وتركتم رسول الله ؟ فقالوا : نحن أردنا إحساناً ، وأن نرفق بك فلا تنهب نفسك بمشكلاتنا ، نريد أن نوفق ترفيقاً جيداً عنك كيلا نصيبك لمائل فتشق عليك ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا على حكمك ، وهم يقولون هـد بعد أن انقصحوا أمام الناس .

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة » والمصيبة هي الأمر يطرأ على الإنسان بما يصرفه في غمّه ، ولأنهم منافقون فهم يريدون أن يكون هذا الاتفاق مكتوماً ، فإذا جاءت حادثه لتقصصهم صارت مصيبة عن الرعم من أن الحادثة في واقعها ليست مصيبة فعندما تعرف المنافقون ويظهرهم أمام أنفسهم وأمام الناس فحين نكهي أنفسنا شرهم . وهم يريدون بالاتفاق أموراً لأفسهم .

وهكذا يكون الكشف لتعاقبهم مصيبة بالنسبة لهم ، هم يريدون اتفاق نفعاً لهم ، فيه يستفيدون من أحكام الإسلام وأجرائها وتطبيقها عليهم ، وعندما ينفضح ثفاقهم يشعرون بالمصيبة ، مثلهم كمثل لدى دهب ليسرق ، ثم فوجيء وهو داخل المكان ليسرق أن الشرطة موجودة لتقبض عليه ، وهذا في الواقع نعمة لأنها تصرب على أيدي المجرم العايب ، لكنها بالنسبة له مصيبة .

وعندما تحدث هؤلاء المنافقين مصيبة فهم يخلفون بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة ثفاقهم . ويقولون أن يحتلوا عما حدث ، يخلمون بالله زهم بالذهاب إلى الطاعوت وأردوا الإحسان والتوفيق بينهم وبين خصومهم . لكن الحق يعلم ما يخفون وما يهشون

فيقول سبحانه :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾

وماهيك يعلم الله ، ولذلك يقول ربنا :

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِئْسَ لَهُمْ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

يعنى . نحن لو شئنا أن نقول لك من هم لقنا لك وذلكاك عليهم حتى تعرفهم
بأعينهم ، ولكن الله متر عليهم إبقاء عليهم لعلمهم يتوبون ، ولتعرفهم من فحوى
كلامهم واسلوبهم .

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم » لقد ذهبوا ليتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد
ذهبوا إلى هناك لعلمهم أنهم ليسوا على حق ، ولأنهم إن ذهبوا إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فسبحكم بالحق ، والحق بضلالتهم وضلالتهم ، فهل كانوا بالفعل
يريدون إحسانا ونوفاً ، أو كانوا لا يريدون الحق ؟ لقد أرادوا الحكم المزور .

لذلك يلى الأمر من الحق لرسوله : « فأعرض عنهم » : لأنك إن عاقبتهم فقد
أخذت منهم حقا ، والله يريد أن يبنى حقا ليقتص - سبحانه - لك منهم ،
وأعرض أيضا عنهم لأننا نريد أن يظهر منهم في كل فترة شيئا نعلم المجتمع الإيمانى
الليظة إلى أن هناك أناسا مدسوسين بينهم ، لذلك لا بد من الحذر والتدبر كما أنك
إذا أعرضت عنهم أسقطتهم من حساب دعوتك .

« وعظهم » أى قل لهم . استحووا عن أفعالكم . « وقل لهم أن أنفهم قولا
بليغا » أى قل لهم قولا يبلغ الغاية من النفس البشرية ويبلغ الغاية من الوعظ ، أى

يوعدهم الوعيد الذي يخيفهم كي يطلع من أنفسهم مبلغاً ، أو « قل لهم في أنفسهم ، أي اوضح لهم ما يسرون ؟ كي يعرفوا أن الله مطلعك على ما في أنفسهم فيستحوا من فعلهم ولا يفعلوه ، قل لهم ذلك بدون أن تفصحهم أمام الناس ؛ لأن عدم فصحهم أمام الناس يجعل فيهم شيئاً من الحياء ، وأيضاً لأن العظة تكون ذات أثر طيب إذا كان الوعظ في حلوة مع الموعوظ فيناجيه ولا يعصحه ، ففصح الموعوظ أمام الناس ربما أثار فيه خربة العناد ، لكن عندما تعظه في السر يعرف أنك لا تزال به رحيماً ، ولا تزال تعامله بالرفق والحسنى .

« وعظهم وقل لهم في أنفسهم » ، إنك لو فعلت ذلك علناً فستعطى الأسرة لعبرك أن يعمل الله قد أطلعك على ما في قلوب هؤلاء من الكفر أم غيرك فلا يطعم الله على عيب ولو رمى أحداً بذنب أو كمر قلعه لا يصادف الحق والواقع وتشرعنا يقول لنا :
« ندروا الحدود بالشبهات »

والتطبيق لهذا التشريع نجده عندما يتم القبض عن سارق ، لكن هناك شبهة في الاتهام ، هذه الشبهة يجب أن تفسر في صالح المتهم ، ونذكر الحد لوجود شبهة ؛ فليس من مصلحة المسلمين أن يقول كل يوم : « إننا قطعنا يد سارق أو رجماً زانية . » لكن إذا اقتضت الجرائم وليس في ارتكابها شبهة والمساءلة واضحة فلا بد أن نضرب على أيدي المجرمين . فنحن نذكر الحد بالشبهة حتى لا ندفع ضرراً أو نبال من يرى ، ونطبق الحد حتى يرتدع كل من تسول له نفسه أمراً محرماً حتى لا يرتكب الأمر المحرم . وعندما يقام الحد في أي بيئة ، فإنه لا يقام إلا لفترة قليلة وتراجع بعدها الجرائم ، ولا يرى أحد سارقاً أو زانية

إذن فقول الله . « وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ، يعني . قل لهم ما يهددهم عهدياً يصل إلى أعماق نفوسهم ، أو « قل لهم في أنفسهم » بأن تكشف مستورات عيوبهم أو قل لهم في أنفسهم بهلك وبينهم ؛ لأن هذا أدعى إلى أن يتقبلوه منك ولا يورم صدورهم ويشرب فيهم خربة العناد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾

انغرس من إرسال الحق للرسول هو أن يعلم الناس شرع الله المتمثل في المنهج ، وأن يتبعهم إلى دين الحق . والمنهج يحمل قواعد هي : افعل ، ولا تفعل ، وما لا يرد فيه « افعل ولا تفعل » من أمور الحياة للإنسان حر في اختيار ما يلائمه . وأى رسول لا يأتي بتكليفات من داته ، بل إن التكليفات تأتي بإذن الله . وهو لا يطاع إلا بإذن من الله . فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء بطاعة الله إلا أن يفرض من الله في أمور أخرى ، وقد فرض الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله الحق :

﴿ وَمَا تَشْكُرُ الرَّسُولَ فَعْدُوهُ وَمَا يَشْكُرُهُ فَاسْتَبُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالمؤمنون برساله محمد صلى الله عليه وسلم - إذن - عليهم طاعة الرسول في إطار ما قوضه الله والله أدن له أن يشرع .

ويتابع الحق : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » وظلم النفس أن تحقق لها شهوة عاجلة لتورثها شقاء دائماً . وظلم النفس أنقى أنواع الظلم ، فمن المعلوم أن يظلم الإنسان غيره ، أما أن يظلم نفسه فليس معقولاً . وأى عاصٍ يترك واجباً تكليفياً ويقبل على أمر منهى عنه ، قد بطل في ظاهر الأمر أنه يحقق لنفسه متعة ، بينما هو يظلم نفسه ظلماً قاسياً ، فالله يترك الصلاة ويتكاسل أو يشرب الخمر أو يرتكب أى معصية يقول لـ : أنت ظلمت نفسك ، لأنك طئنت أنك تحقق لنفسك متعة بينما أورتها

الرجل مؤمناً وعسى كافراً ، أو عيسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا» (١) .

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، وظلم النفس أيضاً بأن يرفع الإنسان أمره إلى الطاغوت مثلاً ، لكن عندما يرفع الإنسان أمره للحاكم ، لا نعرف أيعكم لنا أم لا ، وقد يهبطه الله ساعة الحكم .

إن قوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله ، فاستغفروا من الله » إلىك يا رسول الله ، فأول مرتبة أن يرجعوا عما فعلوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ، لأن الذنب بالنسبة لعدم مجيئهم للرسول قبل أن يتعلق بالرسول تعلق بمن بعث الرسول ، ولذلك يقولون : إهانة الرسول تكون إهانة للبرسل ، صحيح أن عدم ذهابهم للرسول هو أمر متعلق بالرسول ولكن إذا صعدته فجدته متعلقاً بمن بعث الرسول وهو الله ، لأن الرسول لم يأت بشيء من عنده ، وبعد أن تطيب نفس الرسول فيستغفر الله لهم ، إذن قلوا : يجيئون ، وثانياً : يستغفرون الله وثالثاً : يستغفر لهم الرسول

وبعد ذلك يقول سبحانه : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » إذن هو جلدان الله تواباً رحيماً مشروط بعودتهم للرسول بدلاً من الإعراض عنه ثم أن يستغفروا الله ، لأن الله ما أرسل من رسول إلا ليطاع بإذنه ، فعندما تخلف معه لا تفعل : إنني اختلفت مع الرسول ، لا . إنك إن اختلفت معه تكون قد اختلفت مع من أرسله وعليك أن تستغفر الله .

ولو أنك استغفرت الله دون ترضية الرسول فليس يقبل الله ذلك منك . فلا يقدر أحد أبداً أن يصلح ما بينه وبين الله من وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

وحين يفعلون ذلك من المجيء إلى الرسول واستغفارهم الله واستغفار الرسول لهم سيجدون الله تواباً رحيماً ، وكلمة « تواب » مبالغة في التوبة فتشير إلى أن ذنبهم كبير .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ويحسم أن الأغيار تأتي في خواطرهم وفي نفوسهم وأن شهواتهم قد تستيقظ في بعض الأوقات فتتغلب إلى بعض الذنوب ، ولأنه رب رحيم بين لنا ما يحص كل هذه العلة ، فإذا أذنب العبد ذنباً لربه الرحيم يتركه هكذا للذنب ؟ لا إنه سبحانه شرع له العودة إليه ، لأن الله يحب أن يتوب عنه ويرجع إليه وإن غفل عنه صيته

إن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نزيل عنا آثار المعاصي ، فقال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فإلاج من هذه أن يجيئك لأنهم غفلوا عن أنك تنطق وتبلغ من قبل الحق في التشريع وفي الحكم ، وبعد المعية يستمعرون الله ويستعمر لهم الرسول ، تأييداً لاستغفارهم الله ، حيث يجدون الله سواباً رحياً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَصَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

إذن لا بد أن مستقبل الإيمان بالإقبال عن كل ما جاء به رسول الله ، فإساعة حكم المناقون غير يرغب إعلانهم للإسلام جاء الحكم بحرجهم من دائرة الإيمان ، وعلى المؤمنين أن يتعظوا بذلك .

ولنحظ في قول الحق : « فلا وربك » وجود « لا » نافية ، وأنه - سبحانه - أقسم بقوله . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » ، ويعلم أن المناقون قد دعوا فحكموا غير رسول الله ، مع أنهم شاهدون بأنه رسول الله فكيف يشهدون أنه رسول الله ، ثم يحكمون غيره ولا يرضون بقضائه ؟ ونفك قصة يحكم الحق فيها

يقول . لا . هذه لا تكون أبداً . إذن فـ لا « النافية جاءت هنا لتنفى إيمانهم وشهادتهم أنه رسول الله ؛ لأنهم حكموا غيره . فإذا ثبت أنهم شهدوا أنه رسول الله ثم ذهبوا لغيره ليقضي بينهم إذا حدث هذا فحكمنا في القضية هو : لا يكون هم أبداً شرف شهادة أنه رسول الله .

وبعد ذلك أقسم الحق فقال « وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ونحن الخلق لا نقسم إلا بالله ، لكنه سبحانه له أن يقسم بما شاء على ما يشاء ، يقسم بالمادة الجبلية :

﴿ وَالْعُورِ ۝ ﴾

(سورة العور)

ويقسم بالذاريات .

﴿ وَالذَّارِيَّتِ ذَرَوًا ۝ ﴾

(سورة الذاريات)

والذاريات هي الرياح ، ويقسم بالنبات :

﴿ وَأَنْبِئِ وَأَرْيُوتَ ۝ ﴾

(سورة النبين)

ويقسم باللائكة .

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ ﴾

(سورة الصافات)

ولكنك إن نظرت إلى الإنس فلن تجد أقسم بأحد من سيد هذا الكون وهو الإنسان إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بحياته فقال :

﴿ لَعَنُوكُمْ إِنَّمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَتَمَثَّلُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

والعمرى . يعنى . وحياتك يا محمد انهم فى سكرتهم يعمهون ، اى هم فى غوايتهم وضلالهم يتحيرون فلا يبتدون إلى الحق ، وأقسم الله بعد ذلك بنفسه ، فقال :

﴿ قُورَبِ اَسْمَاءِ وَالْاَرْضِ اِنَّهُ لَخَقٌّ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الداريات)

وساعة يقول : « قورب السماء والأرض » فلا بد أن يأتي برهوبيته لخلق عظيم
 براه نحن ، ولذلك قال

﴿ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ اَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾

(س الآية ٥٧ سورة غافر)

يعنى إذا فكرت أيها الإنسان فى خلق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خلق
 الناس .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون
 حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليل
 على أن محمداً عليه الصلاة والسلام ذو منزلة عالية ، إياكم أن تظنوا أنه حين قال
 « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » أن محمداً قد دخل فى الناس ، إنه
 سبحانه يوضح . لا ، سأقسم به كما أقسمت بالسماء والأرض . « قوربك
 لنشلتهم » ، ولماذا يقسم برب السماء والأرض ؛ لأن الرب له قدرة عظيمة هائلة ،
 فهو يخلق ويرى ، ويتعهد ويؤدب

إن خلق السماوات والأرض يكفى فيها الخلق وبأموس الكون والتسخير . لكن
 عندما يخلق محمداً ، فلا يريد الخلق والإعبد فقط ، بل يريد تربية فيها ارتفاعات النبوة مكشلة
 فيقول له : قوربك الذى خلقك ، والذى سراك ، والذى رباك ، والذى أملاك لأن
 تكون غير خلق الله وأن تكون خاتم الرسل ، ولأن تكون رحمة الله للعالمين ، بقسم
 بهذا كله فيقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » أبعد
 ما يدخل سبحانه فيها هذه المهابة بالقسم برب رسول الله تقول : لا نحكم محمداً
 ومنهجه فى حياته ؟

إذن قوله . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وتحكم كل ماديها مثل « الحكم » « التحكيم » « الحكمة » « التحكم » وكل هذا مأخوذ من الحكمة وهي حديقة اللحام الذي يوضع في فم الفرس يمنعه به صاحبه أن يثرد ، ويحكم فيه يميناً ويساراً ، فكذلك « الحكمة » تعوق كل واحد عن شروده في أخذ حق غيره ، فالتحكيم والحكم ، والحكمة ، كلها توحى بأن تضع الشيء في موضعه الصحيح .

وكلمة « شجر » مأخوذة من مائة (الشين والجيم والراء) وإذا رأيتها فافهم أنها مأخوذة من الشجر الذي تعرفه . وهناك نباتات لا تلتصق ببعضها ، وهناك نباتات تكبر فيلتصق بعضها ببعض فتشابهك ، كما ترى مثلاً شجراً متشابكاً في بعضه ، وتداخلت الأغصان مع بعضها بحيث لا تستطيع أيها الناظر أن تقول : إن هذه ورقة هذه الشجرة أو ورقة تلك الشجرة . وإذا ما أشرنا وكأنا من نوع واحد لا نقدر أن نقول : إن هذه الثمرة من هذه الشجرة ، ولا هذه الثمرة من تلك الشجرة ، أي إن الأمر قد اختلط .

« وشجر بينهم » أي قام نزاع واختلاط في أمر ، فأنت تذهب لتفصل هذه الشجرة عن تلك ، وهذه الثمرة عن تلك الثمرة ، وساعة ترى أشجاراً من نوع واحد ، وتداخلت مع بعضها واختلطت ، لا يعينك إن كنت جاني الثمرة أن تكون هذه الثمرة التي قطعتها من هنا أو من هناك ، فأنت تأخذ الثمرة حيث وجدت ، لا يعينك أن تكون من هذه أو من تلك ، وإن كنت تستظل تحت شجر لا يعينك أن تعرف هل جاء هذا الظل من ورق هذه الشجرة أو من تلك الشجرة ، فهذه فائدة اختلاط المتساوي ، لكن إذا أردت ورقة شجرة من نوع معين فانتقيها لأنني أريدها لأمر خاص

والخلق كلهم متساوون فكان يجب إن احتلطوا أن تكون المسألة مشاعاً بينهم ، لكن طبيعة النفس الشح ، فتنازعوا ، ولذلك بالناسي لذكرى يقول للمتخاصمين : أتريدان أن أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فيفزعان ويقولان : أهلك خير من العدل ؟ يقول : نعم إنه الفضل ، فهادمت المسألة أخوة واحده ، والخير عندك كالخير عندي فلا نزاع ، أما إذا حدث الشجر فلا بد من الفصل

ومن الذي يفصل ٩. إنه سيدنا رسول الله يحكم قول الحق : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . . . فالإيمان ليس قولة تقال فحسب وإنما هو قولة لها وظيفة ، فإن تقول : لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله فلا بد أن لهذا القول وظيفة ، وأن تحكيم حركة حياتك على ضوء هذا القول ، فلا معبود إلا الله ، ولا أمر إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا مشرع إلا الله ، فهي ليست كلمة تقولها فقط ! وينتهي الأمر ، ثم عندما يأتيك أمر يحتاج إلى تطبيقها تفر منه . « فلا وربك لا يؤمنون » بمنهج الإسلام « حتى يحكموك » فهذا هو التطبيق « فيما شجر بينهم » ولا يصح أن يحكموك صورياً ، بل لا بد أن يحكموك برضا في التحكيم ، « ثم لا يجادلوا في أنفسهم حرجاً » أي ضيقاً « بما قضيت » . فعندما يحكم رسول الله لا تتوانوا عن حكمه ، ولا تصيغوا به « ويسلموا تسليماً » أي يذعنوا إذعائاً .

إذن فالإيمان لا يتمثل في قول يقال وإنما في توظيف ذلك القول . بأن تلجأ إليه في العمليات الحركية في الحياة ، « فلا وربك لا يؤمنون » حتى يترجم الإيمان إلى قضية واقعية انتخار الحق لها أعنف ساعات الخرج في النفس البشرية وهي ساعة الخصومة التي تولد اللد وامل عن الحق ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجادلوا في أنفسهم حرجاً » لأنه قد يجد حرجاً ولا يتكلم

ونظروا إلى الثلاثة : الأولى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » ، هذه واحدة ، « فاستغفروا الله » هذه هي الثانية ، « واستغفر لهم الرسول » هذه هي الثالثة ، هذه محصلات الذنوب ، والذي يدخلك في حظيرة الإيمان ثلاثة أيضاً : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هذه هي الأولى ، « ثم لا يجادلوا في أنفسهم حرجاً بما قضيت » هذه هي الثانية ، « ويسلموا تسليماً » هذه هي الثالثة . إذن فالقولان في رسول الله صلى الله عليه وسلم . دخول في حظيرة إيمان ، ومخرج من غل ثقب .

وهما وقف لا أبالغ إذا قلت : إنها شغلني أكثر من عشر سنين ، هذه الوقفة حول قول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لرجلوا الله تواباً رحيماً » ذلك يلرب تمحيص من حاصر رسولك صلى الله عليه

وسلم ، فما بال الذين لم يعاصروه ؟ فأين المحصن الذي يقابل هذا لمن لم يعاصر
حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والرسول إنما جاء للناس جميعاً ، فكيف يوجد
محصن لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من هذا
التمحص ؟

هذه مسألة ظلت في ذهني ولا أجد لها جواباً ، إلا أن قلت : لقد ثبت عندى
وعند بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مطمئناً للزمين في كافة
المصور :

(حياتى خير لكم فليحدثنكم ويحدثكم فليذا أنا مت كانت وفانى خيراً لكم فغرض
على أهلكم فإن رأيت خيراً حدث الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم)^(١)

انظر إلى التطمين في قوله صلى الله عليه وسلم :

(نعرض على أهلكم فإن رأيت خيراً حدث الله ، وإن رأيت غير ذلك استغفرت
لكم)^(٢) .

لاستغفر الرسول لنا موجود . إذن فما بقى منها إلا أن نستغفر الله ، وما بقى إلا
« جاموك » أى يحيون لستك ولما تركت منها فصل الله عليه وسلم هو القائل :

(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى ولن يتفرقا حتى يردا على
الحوض)^(٣) .

فكيف كان الأحياء يحيونهم ، فمن نجيء إلى حكمه وسنته وتشريعهم ، وهو يستغفر
لنا جميعاً ، إذن فهذه متبوية ، فبقى أن نستغفر الله قائلين : نستغفر الله العظيم الذى
لا إله إلا هو الخالق القيوم ونسب إليه . . فضل ذلك إن شاء الله

(١) رواه ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلًا ودر السوطى له بالحسن .

(٢) رواه ابن سعد .

(٣) رواه الحاكم عن أبي هريرة .

وقوله سبحانه وتعالى : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » أي لا يجدوا حرجاً عندما يذعنون لأي حكم تكفيهم أو حكم قضائي ، والحكم التكفيهم نعرفه في . افعل ولا تفعل ، أما الحكم القضائي فهو عندما يتنازع اثنان في شيء وهذا يقتضي أن يقبل الحكم في النزاع إذا ما صدر عن رسول الله أو عن منجه . إذن فلا بد أن نسلم تسلياً في الاثنين : في الحكم التكفيهم ، وفي الحكم القضائي .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَذَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ
أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ
أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَمَدَدٌ
تَنْبِيئًا ۝ ٦٦ ﴾

وهنا يسألي الحق بين الأمر بقتل النفس والأمر بالإخراج من الديار ، فالقتل خروج الروح من الجسد بقوة قسرية غير الموت الطبيعي ، والإخراج من الديار هو الترحيل القسري بقوة قسرية خارج الأرض التي يعيش فيها الإنسان ، إذن فعملية القتل قسرية لعملية الإخراج من الديار ، فإذ يقتل الإنسان فهو يتألم ، وساعة يخرج من وطنه فهو يتألم ، وكلاهما شاق على الإنسان ، ويأتى الحق بهذين الحكمين اللذين سبقا في قوم موسى عليه السلام ، فالحق يقول

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنِّي عَلَىٰ ظَنٍّ أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا لَكُمْ
بِرُءُوسِهِمْ فَاذْكُرُوا أَنفُسَكُمْ ۝

(من الآية ٥٤ سورة البقرة)

ويقول : إن قوم موسى عندما سمعوا هذا الحكم قام سبعون ألفاً منهم بقتل أنفسهم ، ونعلم أيضاً أن قوم موسى أخرجوا من ديارهم وذهبوا في التيه يقول سبحانه وتعالى :

قَالَ لِمَآءُ عَصْرَةٍ عَلَيْهِمْ أَذِيعِينَ سَآءَ يَنْبِئُونَ فِي الْأَرْضِ

(من الآية ٢٦ سورة التوبة)

أى لا تدخلونها ولا يملكونها . والحق هنا بوضع : أن الإسلام لم يأت بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التى كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التى رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بد أن يضيحها . ومن لطف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فبيدنا عبدالله ابن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر ، وثابت بن قيس ، كل هؤلاء قالوا : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا ، وقال سيدنا عمر : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك . إذن فهذا لطف ، إنه يربى لهم . لو كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى . ماذا كانوا يفعلون ؟ لكن ربنا استجاب لدعائهم :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا

حَاقَّةٌ لَّنَا بِهِ ﴾

(من الآية ٧٨٦ سورة البقرة)

لقد استجب الحق لهم ، لكن ماذا كان يحدث منكم لو كتب عليكم ذلك ؟ وسبب هذه الحكاية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ابن عمه اسمه « الزبير بن العوام » وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك واحد آخر اسمه « حاطب بن أبى بلتعنة » كانا فى المدينة ، ومن زار المدينة المنورة يجد هناك منطقة اسمها « الحجرة » وأرضها من حجارة سوداء كأنها محروقة ، وفيها بعض « الحيطان » أى : البساتين ، لأنهم يسمون البستان « حائطاً » ، فقد كانوا يخافون من طغيان السيل فينبون حول الأرض المزروعة حائطاً ، يرد عنها صف السيل ويحدد الحيزة فيها ، فكان حاطب بن أبى بلتعنة أرض زراعية منخفضة من أرض الزبير بن العوام ، فالسيل يأتى أولاً من عند

أرض الربير ثم يتزل إلى أرض حاطب ، ونعلم أن الأمطار تزل متفرقة في مكان ثم يتجمع الماء في جدول صغير يسمونه « شراح » ومنه يروون بساتينهم .

فلما جاء السيل وأرادوا أن يرووا بساتينهم حدث خلاف بين الربير بن الحوام وحاطب بن أبي بلتعة ، فأرض الربير تعلو أرض حاطب ، وحاطب يريد أن يمر المياه لأرضه أولاً ثم يروي الربير أرضه بعد ذلك . فلما لحاكها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم للربير فقد كان الحق معه ، ولم يكن الرسول ليلوى الحق لمجرد القرابة . فمن الناس من يحكم بالظلم ليشهر بين الناس بالعدل ، فقد يتحاسنم أنه مع واحد آخر ويطعن مع ابنه ، فلكيلا يقول الناس : إنه جامل ابنه . يحكم على ابنه ! وهذا ليس عدلاً ، فالعدل أن تحكم بالحق ثم تطلب من ابنك أن يتناول من حقه ليصبح عطاؤه لغيره فضلاً . فالشجاعة هي أن تحكم بالحق ، وهلك شجاعة أقرى وهي أن تحكم بالحق وإن كان من نفسك ، لا الحق أهز من نفسك .

ونص هذه الواقعة كما أوردها الإمام البخاري في صحيحه بسنده قال : « حدثنا أبو اليان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عروة بن الربير أن الربير كان يحدث أنه خاسم رجلاً من الأنصار قد شهد بئراً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شرح من الحرة كان يسليان به كلامها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للربير : اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك ، فغضب الأنصاري ، فقال : يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق ثم احبس حتى يلع الجدار فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيثئذ للربير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الربير برأى فيه سعة له وللأنصاري ، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى للربير حقه في صريح الحكم ، قال عروة : قال الربير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك » فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ^(١) .

فلما حكم رسول الله للزبير بأن يسقى رده ثم يرسل الماء إلى جاره لم يعجب ذلك

(١) رواه البخاري في الصحيح ومسلم في الفضائل ، والترمذي في الأحكام والسنن في النضة وابن ماجه في المقدمة

حاطب بن أبي بلتعة ، فقال : لأن كان ابن عمك ، والعربي يقول الكلمة ويفرك
لنباهة السامع أن يستنبط الباقي ، وكأنه يعنى . حكمت له لأنه ابن عمك . ولرى
شقيقه ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة عذمه أن ابن أبي بلتعة لم
يقصر عدالة الحق والحكم . وكان كثير من الناس ممن كانوا يتصيدون للإسلام
يقولون : هو قد حكم أولاً أن يروى الزبير ثم يطلق الماء لحاطب ، فلما عصب
حاطب بن أبي بلتعة قال له : اسق يا زبير واستوف حقتك ، ونخذ من الماء ما يكفيك
ثم أرسله بخارك ، فقالوا : لماذا حكم أولاً بأن يسقى ثم يرسل الماء إلى جاره ثم عدل
في الحكم ؟

انسان لم تفهم أن أرض الربير عالية بينما أرض حاطب منخفضة ، وانتم إذا
نظرتكم إلى أى واد ، تهدون الخضرة والخصب في بطن لوادى وليس في السمع ، لأن
الماء وإن جاء من الأرض العالية سينزل إلى الأرض المنخفضة ، وإذا رويت المنخفض
أولاً وأعطيته لا يصيب العالي شيء .

إذن فالحكم الأول كان مبيناً على التيسير والفصل من الزبير ، والحكم الثانى جاء
مبيناً عن العدل ، ورسول الله بالحكم الثانى - وهو أن يسترق الزبير حقاً ويأخذ من
الماء ما يكفيه - كأنه قال له : سنعدل معك بعدما كنا نجاملك ، فقال الحق سبحانه
وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً »

وإذا كان هذا هو الأمر فكيف لو فمنا بهم مثلاً فعل الرسول من الأمم السابقة ؟
عندما أمرهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم ، هذا الحكم م بعده إلا عدد قليل
منهم وهم الثابتون في الإيمان . وهكذا نعلم أن الحق لم يحل الأمة من محتلين ملزمين
يؤدون أمر الله كما يجب .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ، ولو فرغنا أن الله قال . اقلوا أنفسكم أو
أخرجوا من دياركم ثم بعد ذلك فعلوه لوجدوا في ذلك الخير مما كان في باعهم ، لأن
الناس يجب أن تعطين إلى أن تسأل نفسها ما غاية المؤمن حين يؤمن بالله ؟ وما غاية
هذا الإيمان ؟

أنت في ذمتك تعيش مع أسباب الله المخلوقة لك ، وحيث تنتقل إلى الله تعيش مع المسبب ، فما الذي يحزبك عندما قال لك : اقتل نفسك ؟ إنه قال لك : اقتل نفسك لماذا ؟ لأنك تنتقل للمسبب ونحوها دون تعب .

إن الحكم من الله هو ارتقاء بالإنسان ، ونحو في حياتنا الدنيا نجد من يدق الجرس فيأتيه الطعام ، ويدق الجرس فيأتيه الشاي ، ويدق الجرس فيأتيه الحلوى . لكن لا يمكن أن ترتقى الدنيا إلى أن يوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشيء ببال الإنسان وجد الشيء أمامه ، فلا يدق جرساً ولا يجهد نفسه ، فبالله الذي يعيش في الأسباب ثم يريد أن ننقله إلى أن يعيش مع المسبب ، فهل هذه تمزقه ؟ لا ؛ لأنهم سيجدون خيراً أكثر .

إنك : لو قارنت الأمر لوجدت الدين عمرها بالنسبة لك مظلون ، ومملود ، ونعيمك على قدر إمكاناتك . لكنك حين تنتقل إلى لقاء الله لا تكون محدوداً ، لا بعمرِكَ ولا بإمكاناتك بل تعيش رمزاً ليس له حدود ، وتنعم فيه على قدر سعة فضل الله .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تبيّناً » . وهذا الخبر أشدّ تبيّناً لعبدهم ؛ لأن من يرويه يتقنون حكم الله . فلا بد أنهم وثقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم . إذن فهو يثبت من بعدهم . أو المعنى : لو أنهم فعلوا ما أمروا به من اتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به لأنه الذي لا ينطق عن هوى لكان ذلك خيراً لهم في دنياهم وأخراهم وأقوى وأشدّ تبيّناً واستقراراً للإيمان في قلوبهم وأبعد عن الاضطراب فيه .

﴿ وَإِذَا لَا تَيْسَرُ لَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿١٧﴾

فهم إذا فعلوا ما يوعظون به ، « وإذا لا تيسر لهم من لدنا أجراً عظيماً » وساعة تسمع

« من لدننا » اعرف أنها ليست من شأن ولا فعل الخلق بل من تفضل الخالق
فالخلق سبحانه وتعالى يرسل لنا منهجه بوساطة الرسل ، لكنه يرضع أن بعضاً من
الناس منحهم عطقاً وأعطاهم من لدننا علماً ، فهو القائل :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾

(سورة الكهف)

أى أن العلم الذى أعطاه الله لذلك العبد لم يعلّمه موسى ، وعطاء الله للعلم
خاضع لمشيئته ، ونعرف من قبل أن الحسنات والأعمال لها نظام ، فمن يعمل خيراً
يتأخذ مقابله كذا حسنة ، ولكن هناك أعمال حسنتها من غير حساب وتجارى عليها
الحق بمضله هو . واضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نحن نجد ذلك متمثلاً لنا
فى كثير من تصرفاتنا ، تقول لابتك مثلاً : يا بنى كم أجرك عندى من هذا العمل ؟
فيقول لك . مائة جنيه . فضول له : هذه مائة هى أجرك ، وفوقها خسون من عندى
أنا ، ماذا تعنى « من عندى أنا » هذه ؟ إنها تعنى أنه مبلغ ليس له دخل بأجر
العمل

« ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم » لقد عرفنا من قبل أن هناك فرقاً بين
القتل والموت ، صحيح أن كليهما فيه إذهاب للحياة ، لكن الموت إذهاب للحياة
بدون نقض البنية للجسم ، ولكن القتل إذهاب للحياة بنقض البنية كأن يكسر
إنسان رأس إنسان آخر ، أو يطلق رصاصه توقف قلبه ، وهذا هدم للبنية ، والروح
لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات ، والروح لم تذهب أولاً . بن إن البنية هدمت أولاً .
فلم نعد صالحة لسكنى الروح ، والمثل المعروف هو مصباح الكهرباء : إنك إن
رميت عليه حجراً صغيراً ، يكسر وينطفئ النور برغم أن الكهرباء موجودة لكنها
لا تعطى نوراً إلا فى وعاء له مواصفات خاصة ، فإذا ذهبت هذه المواصفات الخاصة
يذهب النور ، فتأتى بمصباح جديد له المواصفات الخاصة الصالحة فتجد النور قد
جاء .

وكذلك الروح لا تسكن إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإن جئت لهذه
المواصفات الخاصة وسببها المخ ، وصيرته خربة قاسية ، فقد نقضت البنية ، وفى
هذه الحالة تغادر الروح الجسد لأنه غير صالح لها ، لكن الموت يأتى من غير نقض

للبنية ، ومصدق ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَمَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْفَلَيْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

أى أن هناك امرين : هناك موت ، وهناك قتل ، فالموت هو سلب الحياة ، والقتل هو سلب الحياة ، ولكن القتل سلب الحياة بعد نقص البنية التى تسكن فيها الروح ، ويختلف عن الموت لأن الموت هو خروج الروح دون قتل ، ولذلك يقولون : مات حى نفسه ، أى مات على فراشه ولم يحدث له أى شيء .

والذى يقتل في الشهادة يقول فيه ربنا :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من يقتل في سبيل الله قد امتثل لأمر الله فسوف يجد فضلاً أكثر ، فكيف يكون جزاء من يقتل نفسه امتثالاً لأمر ربه ؟ إن امتحان النفس يكون بالنفس ، وليس امتحان النفس بالعدو . وما الميزة في سيدنا إبراهيم ؟ هل قال له الحق : أنا ساميت ولدك ؟ أقال له إن واحداً آخر سيقتل ابنك ؟ لا ، بل قال له : ادبعه أنت . وهذه هي ارتقاء قتل النفس ، فيقضى الحق إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم . إذن فإذا جاء الأمر بأن يقتل الإنسان نفسه فلا بد أن هناك مرتبة أهل . ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد مثيبتاً ، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيماً . ويقول الحق بعد ذلك .

ونحن أمام أمرين : إما أن يقتلوا ، وإما أن يخرجوا من ديارهم ، فقلوه :
« ولهديناهم صراطاً مستقيماً » لمن ؟ للذي قُتل أم لمن خرج ؟ هر قول لمن أخرج من
دياره لأنه مازال على قيد الحياة

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ ﴾

والفعل هنا : يطع ، والمطاع هو : الله والرسول ، أى أن هذا الأمر تشريع الله
مع تطبيق رسوله ، أى بالكتاب والسنة ، وساعة تجدد الرسول معطوفاً على الحق بدون
تكرير الفعل فاعلم أن المسألة واحدة . . . أى ليس لكل واحد منها أمر ، بل هو أمر
واحد ، قول من الله وتطبيق من الرسول لأنه القدوة والأسوة ، ولذلك يقول الحق في
الفعل لواحد :

﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ ۚ وَمَا تَقْصُوا إِلَّا أَنْ أُغْنِيَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
مِنْ فَضْلِهِ قُلْ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ ﴾

فما أغناهم الله غنىً ياسبه وأغناهم الرسول غنىً ينسبه فالفعل هنا واحد . فالغنى
هنا من الله ورسوله ، لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامثالاً لأمره ، فتكون
المسألة واحدة

هناك قضية تعرض لها لكتاب وهي قضية قد نشغل كثيراً من الناس الذين
عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مجلسه صلى الله عليه وسلم لا يُصد

عنه قادم ، بأق يجلس حيث ينتهي به المجلس ، فالذي يريد النبي دائماً يستمر في جلوسه ، والذي يريد أن يراه كل فترة يأق كلي أراد ذلك وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الصبر عنه ، فأنه يوماً ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه ، وعُرف الحزن في وجهه ، فسأله النبي قائلاً : ما بك يا ثوبان ؟ فقال والله ما بي مرض ولا علة ، ولكني أحبك وأشتاق إليك ، وقد علمت أن في الدنيا أراك وقتها أريد ، لكنك في الآخرة ستلعب أنت في عليين مع النبيين ، وإن دخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فلذلك حين لا أراك أبداً

وهذه الحديث كما رواه ابن جرير - بسنده - عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو محزون - فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا ملان مالي أراك محزوناً ، ؟ فقال : يا نبي الله شيء فكرت فيه فقال : « ما هو ؟ قال : نحن نعدرك عليك ونروح نظرك إلى وجهك ونجالسك ، وغدا تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - شيئاً فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » . فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه بفرسه^(١) . »

وكيف تأتي هذه على البال ؟ إنه إنسان مشغول بجميته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفكر : هل مستدوم له هذه لنعمة ؟ وتفكر في الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ستعلو كل المنازل . وثوبان يريد أن يطعمش على أن نعمة مشاهدته للنبي صلى الله عليه وسلم لن تنتهي ولن تروى منه ، إنه يراه في الدنيا ، وبعد ذلك ماذا يحدث في الآخرة . فإما أن يدخل الجنة أولاً يدخلها ، إن لم يدخل الجنة فدن يراه أبداً . وإن دخل الجنة والنبي في مرتبة ومكانة عالية . فماذا يفعل ؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله سبحانه وتعالى بلطف بمثل هذا المحب الذي شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين ، فيقول الحق سبحانه وتعالى نطمئنا هؤلاء . « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع النبي المطيعون

« مع الذين أنعم الله عليهم من البين والصدّيقين والشهداء وأنصالحين وحسن أولئك رفيقا » والمسألة جاءت خاصة بثوبان ، بعد أن نبه الأذهان إلى قصبة قد تشغل بال المعين لرسول الله ، فأتت مع من أحيت ، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان ، لقد كان كلام ثوبان سبباً في الفتح والتطهير لكل الصدّيقين والشهداء والصالحين وهي أصناف نستوعب كل المؤمنين ، فأبو بكر الصدّيق صدّيقٌ لماذا ؟ لأنه هو : المبالغ في تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ، ولا يعرض هذا القول للتماعش أو التسؤل : أي هذه تنفع أو لا تنفع ؟ فعندما قالوا لسيدنا أبي بكر إن صاحبك يدعى أنه أتى بيت المقدس وعاد في ليلة ومضى مصرّب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إن كان قال ذلك لقد صدق

لم يحمل صدقه إلا بـ « إن كان قد قال ذلك » ، فهذا هو الصدّيق الحق ، فكلمنا قال محمد شيقا صدقه أبو بكر ، وأبو بكر - رضوان الله عليه - لم ينتظر حتى يزل القرآن مصدقا للرسول - صلى الله عليه وسلم - بل بمجرد أن قال صلى الله عليه وسلم : إني رسول . قال أبو بكر . نعم . إذن فهو صدّيق .

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سَبَقُوا إلى الإسلام : لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول ، هم جربوا النبي عليه الصلاة والسلام ، وعرفوه ، مثلاً تحدث بالرسالة ، صدقوه عن العود ، لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول ، ومثال ذلك : سيدتنا حديجة - رضوان الله عليها - ماذا قالت عندما قال لها النبي : إنه يأتي كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رؤيا رؤيا من الجن يعني

فقال حديجة « كلا والله ما يخريك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » (١) . وهذا أول استنباط فقهى في الإسلام .

هذا هو معنى « مع البين والصدّيقين » ، « والشهداء » هم الذين قتلوا في سبيل الله ، لكن على المؤمن حين يقاتل في سبيل الله ألا يقول : أنا أريد أن أموت شهيداً . ويلقى بنفسه إلى التهلكة ، إليك أن تنهضها هكذا ، فأنت تدافع عن رسالة ولا بد أن تقتل عدوك بدون أنك تمكته من أن يقتلك ، لأن تمكته من قتلك ، يفقد المسلمين

مقاتلاً . فكما أن الشهداء هم فصل ؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل .
فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق ، وهذه لا يشتها إلا الشهداء .

لكن هل يمكن أن نصبح جميعاً شهداء ؟ ومن يعمل صبيح الله إلى الباقي ؟ إذن
فتحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب ، فهذا له مهمة وهذا له مهمة ، ولذلك
كانت « التنية » وهي أن يظهر رغبته عن الإسلام ويولي الكفار ظاهراً وقلبه مطمئن
بالعداوة لهم انتظاراً لمرور المانع وذلك استبقاء لحياته كي يدفع ويجاهد في سبيل
الله . وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين في أن الإنسان إذا قتل في سبيل
الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خير ، هذا يشته الشهيد . ولذلك فالحن سبحانه
وتعالى عندما تلتقيهم عرفة الشهادة يرسم ما هم مقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ
يسمونها من لم يقبل على الشهادة ، فهناك من يقول « هي يا رباح الجنة » ويقول
كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كي يسمع من خلفه ، ومفرد شهداء ، إما شهيد
وهو الذي قتل في سبيل الله ، وإما هي جمع شاهد ، فيكون الشهداء هم الذين
يشهدون عند الله أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول الله أنه بلغهم .

والمعاني كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئاً يقول به وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى
الاثنين . من يقتل في سبيل الله ، ومن يبقى يلدن قتل في سبيل الله ؛ لأن الأول
يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد ، والثاني يعطيه بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد
أيضاً :

﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

وه الصالحون ، والصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية في
الأرض . لكل شيء يؤدي نفعاً يتركه على حاله ، وإن أراد أن يزيد في النافع فليرق
النفع منه ، فمثلاً : الماء ينزل من السماء ، وبعد ذلك يكون جداول ، ويسير في
الوديان ، ويختصه الأرض فيخرج عيوناً ، فعندما يرى عيناً للمياه فهو يتركها
ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح عن صلاحه ، وهناك آخر يرقى النفع من تلك
النعمة فيسح حولها كي يحافظ عليها . إذن فهذا قد أصلح بأن زاد في صلاحه .

وهناك ثالث يقول - بدلاً من أن يأتي الناس من أماكنهم متعين بدوابهم ليحصلوا الماء في القرب أو على رؤوس الجبال ، لماذا لا أستخدم العقل البشري في الارتقاء بحكمة الناس لنقل الماء إلى الناس في أماكنهم ، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليحده ما يريد . ومن فعل ذلك يسر على الناس ، فيكون مصلحاً بأن جاء إلى الصالح في ذاته فزاده صلاحاً .

ويحتم الحق الآية بقوله : « وحس أولئك رفيقاً » وه أولئك « تعني النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا توجد رفقة أفضل من هذه ، والرفيق هو : المرافق لك دائماً في الإقامة وفي السفر ، ولذلك يقولون «خذ الرفيق قبل الطريق ، فقد تنعرض في الطريق لشعاب وعراقيل ، لأنك خرجت عن رتبة هادتك فغدا الرفيق قبل الطريق . وعرف أن الأصل في المسائل الممنوعة : كلها منقولة من الحسيات ، وفي يد الإنسان يوجد المرفق .. يقول الحق :

﴿ تَأْتِيهِمْ سُرَاتُكَ وَأُخْرُوكُمْ وَأَيُّدِيكَ إِلَى أَعْيُنِهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النمل)

وساعة يكون الواحد مرهقاً ورأسه متعباً يكثر على مرفقه ليسترخ ، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يكثر على مرفقه أيضاً . إذن فالمادة كلها مأخوذة من الرفق ، فالرفيق مأخوذ من الرفق وه المرافق ، مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه ، وفي كل بيت توجد مرافق وهي مكان إحداء الطعام وكذلك حوزة المياه ، وفي الريف تريد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التي تخدم الفلاح ، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم ، ومكان الأكل ، وقد يربط الفقير حماله في زاوية من الحجرة ، لكن هنالما يكون ميسور الحال فهو يمد يده بالمرافق المكتملة . أي يكون في المنزل مطبخ مستقل ، ومحل لفضاء الساحة ، وحظيرة مستقلة للمواشي ، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل ، وهذه كلها اسمها « مرافق » لأنها تريح كل الناس .

إذن لقوله . « وحس أولئك رفيقاً » مأخوذة من الرفق وهو . إدخال اليسر ، والأنس ، والراحة ، ويكون هذا الإنسان الذي أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين ،

والصديقين ، والشهداء ، والصلحيين .

وقد يقول قائل . كيف يجتمع كل هؤلاء في منزلة واحدة ، على الرغم من اختلاف أعيانهم في الدنيا ، أليس الله هو القائل :

﴿ وَأَنْ تُبَيِّنَ لِلنَّاسِ إِنْ لَا مَسْعَىٰ لَهُمْ ﴾ (٢١)

(سورة النجم)

ويقول : مادام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول ، أليس ذلك من سعيه ؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هي من سعى العبد ؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين ؛ لأن عمل الإنسان موسعيه ، ويصبح من حقه أن يكون في معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصلحيين . وقد تكون الصلحة تكريماً لهم جميعاً ليأمنوا بالصلحة ، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله .

﴿ وَزَعَمْنَا فِي مَدُنٍ مِّنْ غَلِيٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

فساعة يرى واحد منزلة في الآخرة لعمل من آخر ، إياك أن تظن أنه يقول . مررتي أعلى من هذا ؛ لأنه مادام قد ترك الأسباب في الدنيا وعاش مع مسبب الأسباب ، فهو من حبه الله يجب كل من سمع كلام ربه في الدنيا فيقول لكل عب الله : أنت تستحق منزلتك ، ويفرح لمن منزلته أعلى منه

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرة ، بعضهم يجب أن يصبح فقط ، وبعضهم يجب العلم للذات العلم ، وعندما يجد عشاق العلم تلميذاً نجيباً ، أيكرهونه أم يحبونه ؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويمرحون به ويقولون : هذا هو الأول علي ؛ لأنه لا يجب نفسه بل يجب الآخرين ، فكذلك المؤمن الذي يكون في منزلة بالجنة ويرى غيره في منزلة أعلى ، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة ، لا . لأنه من حب لربه وتقديره له يجب من كان طامعاً لله ويفرح له ، مثله مثل التلميذ الذي ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حقد . وهكذا بعد أن الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها لا نخدش قول الحق : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ .

وهناك بحث آخر في قوله الحق « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .
« واللام » تفيد الملك والحق ، كقولنا : ليس لك عندي إلا كذا . أي أن هذا
حقك ، فقوله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » أي هي حق للمؤمن وقد حددت
العدل في الحق ولم تحدد الفضل ، ولذلك قال بعدها .

﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

فالفضل من الله يستمد حيثية من سعى الإنسان ، فقوله « وأن ليس للإنسان
إلا ما سعى » حددت الحق الذي لك والذي ترجيه عدالة التكليف ، لكن ربنا لم
يقبل . إن هذا العطاء لله من الحق والعدل . بل هو من الفضل ، والفضل من الله
هو مناط فرح المؤمن ؛ لأنك مهما عملت في التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله ،
ولذلك أوضح سبحانه لنا نسبها . أنا كلنكم وقد نعملون ونجتهدون ، لكن
لا نفرحوا بما سيجمعه هذا العمل من حسنات ، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم
ربكم من فضله قال سبحانه .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢٨٦)

(سورة بقره)

وذلك الفضل من الله يرد على من يقول : كيف يحيى « ثوبان » أو من دون
« ثوبان » ويكون في الجنة مع السيبين والصديقين والشهداء ومع الصالحين ، ونقول :
لأنه لو لم تكن منزلته آدمي لما كان في ذلك تفضل ، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته
له ولرسوله فوق كل طاعة ، أما حبه لله وللرسول ، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله
له . وما توفيقه إلا بالله . والفضل هو مناط فرح المؤمن ، « ذلك الفضل من الله
وكفى بالله عليما » . ونحن نرضى ونفرح ونكفى بعلم الله ؛ لأنه سبحانه يرتب
أحكامه على علم شامل ومحيط ، ويعرف صدق الحب القلبي وصدق الوداعة ؛

وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه في المنزلة .

وبعد أن أقر الحق لنا داخلية وطينا الإيمان ، ونجمعا الإسلامى بالأصول التى ذكرها ، وهى : أن تؤدى الأمانات ، وإذا أديت الأمانات فلن يحتاج إلى أن نتقاضى ، وإذا عفل بعضنا ولم يزد أمانة ، وحدث نزاع فسيأتى الحكم بالعدل . وبعد ذلك نحتكم فى كل أمورنا إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتكم إلى الطواغيت ، وهاتى لى مجتمعنا إيمانيا واحدا يؤدى الأمانة ولا يشعر بالاطمئنان .

وعرفنا أن الأمانة هى حق لعبرك فى دعوتك أنت تؤديه ، وكل ما عداك غير . وأنت غير بالسببة لكل ما عداك ، فتكون كلها مسألة فى الخير المستطرق للناس جميعا ، وإذا حدثت عملة يأتى العدل . والعدل يحتاج حكما ، وعندما نأتى لنحكم نحتكم لله ولرسول ، وإياك أن تنحاكم إلى الطواغيت . وكان كعب بن الأشرف ، يمثل الطواغيت سابقا ، والآن أيضا يوجد من هم مثل كعب بن الأشرف . بل هلك طراغيت كثيرة .

إنك إذا رأيت خللاً فى العالم الإسلامى ناعلم أن هناك خللاً فى تطبيق التكليف الإسلامى ، فكيف نستقيم لنا الأمور ونحن بعيدون عن منبع تكاليف الإسلام المكتملة ؟ ولو استقيمت الأمور لكانت شهادة بأن هذا المسج لا ضرورة له . لكن إذا حدث شيء فهذا دليل صدق التكليف .

وبعد أن طماننا على المصير الآخرى مع النبيين والصديقين والشهداء لوصح سبحانه : لاحظوا أن كل رسالة غير تأتى من السماء إلى الأرض ما جاءت إلا لمحاربة فساد وقضاء على فساد طام فى الأرض ؛ لأن النفس الشرية إما أن يكون لها وازع من نفسها بحيث إنها قد تم مرة بمعية ثم توبخ نفسها وتعود إلى المنهج ، فتكون مناعتها ذاتية ، وإما أن المناعة ليست ذاتية فى النفس بل ذاتية فى البيئة ، فمثلاً نجد واحداً لا يقدر على نفسه لكنه يجد واحداً آخر يقول له : « هذا صيب » وهذا يعنى أن البيئة ملازال فيها خير ، وكانت الأمم السابقة قد دخلت من المناعة وصارت على هيئة ومسلك واحد وهو ما يصوره الحق بقوله :

﴿ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ مِنْكُمْ مَحْجُوزًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة النجم)

إذن فقد فسدت مناعة الدلت ، ولا توجد مناعة في المجتمع ، فتدخل - إذن - السماء لكن الحق فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وميزها على غيرها من الأمم لأن مناعتها دائماً في ذوات أفرادها فإن لم تكن في ذوات الأفراد ففي المجموع ، فلا يمكن أن يخلو المجتمع الإيمان من فرد يقول : لا . ولذلك لن يأتي رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . بلو كانت ستحدث طامة ولقد بها المجتمع ولا نجد فيه من يقول : لا . لكان ولا يد أن يأتي رسول ، لكن محمداً كان خاتم النبيين لأن الله سبحانه وتعالى فضل أمة محمد بأن جعل وارثها دائماً إما من ذاتها بحيث يرد كل فرد نفسه وتكون نفسه لواءة ، وأما مناعة في المجتمع وكل واحد فيه يوصي ، وكل واحد يوصي ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ② لَكْفِيرٌ ③ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ④ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ⑤ ﴾

﴿ وَالصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ⑤ ﴾

(سورة العصر)

تواصوا لماذا ؟ لأن النفس البشرية أغيار ، فقد تهيج نفس لأحرج عن المحج مرة ؛ فواحد آخر ينهاي ، وأنا أردتها به وأهديه وأرشدني إلى الصراط المستقيم ، وواحد آخر أخطأ فانا أقول له وأنها . إذن فقلوه . « وتواصوا » يعني : ليكن كل واحد منكم موصياً وموصى . فكلما ينظر بعض ويلاحظه ؛ من ضعف في شيء يجد من يقوّمه ، فلا ينعدم أن يوجد في الأمة المحمدية موصي بالخير وموصى أيضاً بالخير ، وتوجد في النفس الواحدة أن موصي في موقف وموصى في موقف آخر ؛ بحيث لا ينأى إن وصاه غيره ؛ لأنه كان يوصي بالأس ، وكما قالوا : « رحم الله امرأً أمضى إلى غيره » .

وبعد أن استكمل الحق بناء البيئة الإيمانية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصرتم أئمة آخر الأمم . فهو سبحانه بطمئنتنا على أن الشر لا يطعم عندنا وستبقى فينا مناعة إيمانية حتى وإن لم يلتزم قوم ليلتزم آخرون . وإن لم يلتزم الإنسان في كل

تصرفاته ، فسلّم في البعض وترك البعض ، ولو لم تتدخل السماء بمنهج نويم لصار العالم متعباً . وكيف ينعيب العالم ؟ إن العالم ينعيب إذا تعطلت فيه مناهج الحق الذي استخلفنا في الأرض . فتطفي مظاهر الجبروت والقوة على مظاهر الضعف . ويتحكم في كل إنسان هواء .

وفي عالمنا المعاصر يرى حق في الأمم التي لا تؤمن بدين لا تترك شعوبها لحوى أفرادها ، بل ينصرون الحياة بشريعات قد تصعب ، ووضعب الأمم غير المتدينة لنفسها نظماً يحجز حوى النفس ، ونقول لهم . أنتم عملتم على قدر فكريكم ، وعلى قدر علمكم بخصال البشر ، وعلى قدر علمكم بالطبائع وأنتم تجهتم في هذه ؟ لأنكم تقنون لشيء لم تخلقوه بشيء لم تصنعوه .

وأصل الضيق : أن تقنن لشيء صنعه ، كما قلنا : إن الذي يضع برنامج الصيانة لأي آلة هو من صنع الآلة ، فالذي صنع التلفزيون أترك الجرار يضع للتلفزيون برنامج الصيانة ؟ لا ، فمن صنع التلفزيون هو الذي يضع قانون صيانه ، فما بالنا بالذي خلقنا ؟ إنه هو الذي يضع قانون صيانه : بـ : اعمل ولا تفعل ، فأنتم يا بشر تتحكمون في أشياء بأهواء بعض الناس وتقولون : اعمل هذه ولا تفعل هذه ، فعل أي أساس عرفتم ضرور المحالقات ؟ هل خلقتم أنتم أنفس وتعرفون ملكاتها ؟ لا . بدليل أنكم تعدلون قوانينكم ، ويحدث التعديل . كما قلنا . لأن المشرع يتبين خطأ فيستدرك الخطأ ، والمشرع البشري يحطر لأنه يقنن لما لم يصنع ، فإذا كنا لا نريد أن يظهر خطأ فلتترك التقنين لمن صنع وهو الله .

والتاريخ البشري يؤكد أن الفساد يطم عندما يتعطل منهج السماء ، والسماء تتدخل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المتصنون بالشعر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر عليهم هذه الهيئة والسيطرة والفهر والجبروت والانتفاع بالشعر ، بل يجاربون رسالات السماء ، ويلفتنا الحق إلى أن أهل الشر والناس المنفتحين من مناهج السماء وغير المتدينين ، سيبيون لكم متاعب ، فبعدما توطنون أنفسكم التوطن الإيمان اتبهوا إلى خصومكم وإلى أعدائكم في الله لقد قال الحق سبحانه وتعالى في هذه القضية :

﴿بَنَاتُهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾

لا يقال لك : خذ حذرك إلا إذا كان هناك عدو يترصد بك ؛ فكلمة : خذ حذرك ؛ هذه دليل على أن هذا الحذر مثل السلاح ، مثلما يقولون : خذ بندقيتك ، خذ سيفك ، خذ عصاك ، فكان هذه الة تستند بها في مواجهة خصومك ولحائط لكائدهم ، ولا تنتظر إلى أن تغير عليك المكائد ، بل عليك أن تجهز نفسك قبل ذلك على احتمال أن توجد غفلة منك ، هذا هو معنى أخذ الحذر ، ولذلك يقول الحق :

﴿وَأَعْلَوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَنْتَلِفْتُمْ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذا معنى : إياك أن تنتظر حتى يترجموا عداءهم لك إلى عدوان ؛ لأنهم سيجعلونك فلا توجد عندك فرصة زمنية كي تواجههم فلا بد لكم أيها المؤمنون من أخذ الحذر لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج السماء أن يسيطر على الأرض . فحين يسيطر منهج السماء على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس . ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر فلن يجنوا لهم فرصة سيئة .

و فافعلوا ثبات أو انصرفوا جميعاً ؛ أى لتكون النفرة منكم على مقدور ما لديكم من الحذر ، وثبات ؛ جمع ثبة وهى الطائفة أى انصرفوا سرية بعد سرية وجميعاً ؛ أى انصرفوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يبيح من انصراف . فإن هاجمنا فصيلة أو سرية ، ففعل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التى تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لخدمة عامة فنحن ننفر جميعاً . ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغياراً قد ثاب في نفوسهم مع كونهم مؤمنين . فقد تخور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِنُوحٍ هُمْ آبَاؤُنَا فَأَمِّتْ لَنَا
مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، وماداموا هم الذين قد طلبوا القتال فلا بد
أن يفرحوا حين يأتي لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده بذلك قال
لهم .

﴿ هَلْ صَبَّيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

فأوضح لهم الحق أن فكروا جيدا أنكم طلبتم لقتال وإياكم ألا تقاتلوا عندما
نكتب عليكم هذا القتال لأنني لم أفرضه ابتداءً ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم ، ولأن
الكلام مازال نظريا فقد قالوا متسائلين :

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأُتْبِعْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد نعجوا واستنكروا ألا يقاتلوا في سبيل الله ، خصوصاً أنهم يملكون السبب
الذي يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن ماذا حدث عندما
كتب الحق عليهم القتال ؟

﴿ قُولُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال وبقيت القلة المؤمنة وكانت مقدمات هؤلاء
المتحيرين من القتال هي قولهم رداً على توبيخهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم
حالات ملكاً فقالوا :

﴿ أَلَنْ يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عِلْبًا وَنَحْنُ أَكْبَرُ الْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة في استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السر في اصطفاء طالوت ، فهو قوى والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم ، والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ، فقال سبحانه :

﴿ إِنْ أَلَّفَ بَيْنَ يَدَيْهِ سُلَيْمًا وَمِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِنْ آلِ مُوسَىٰ أَلَفَّا وَمَا لَكُم بِهِنَّ مِنْ عِلْمٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يمحضهم ليختار القوى من الضعيف فقال لهم طالوت :

﴿ إِنْ أَلَّفَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَهْرًا مِمَّنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا

مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بَيْنَهُ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ذَلِكَ جَاوِزُهُ هُوَ وَالَّذِينَ

آمَنُوا بِهِمْ قُلُوبًا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

والشمحيص هنا ليعرف من منهم يقدر على نفسه وليختبر قوة التحمل عند كل فرد مقاتل ، وليس مسموحاً بالشرب من ذلك النهر إلا غرقة يد . فشربوا من النهر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق أن يصفىهم تصفية جديدة ، وعندما رأوا جيش جالوت قالوا :

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وما الضرورة في كل هذه التصفيات ؟ لقد أراد الله ألا يتجبل الدفاع عن منهجه إلا المؤمنون حقاً ، وهم من قالوا :

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ قَلَبَتْ فِعْهَ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

لذا ، أعطانا ربنا هذه الصورة من التخصيصات ؟ كي نفهم أن النفس البشرية حين تواجه بالحكم نظرياً ما موقف ، وحين تواجهه به تطبيقياً ما موقف ولو بالكلام ، وحين تواجهه به فعلياً يكون ما موقف ، وعلى كل حال فقليل من قليل من قليل هم الذين نصرهم الله . إذن فبريد سبحانه أن يرى في نفوسنا أنه جل وعلا هو الذي يجزم ، وهو الذي يغلب مصداقاً لقوله الحق .

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة التوبة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا قلت لكم انصروا ثبات أو انصروا جميعاً واحملوا أن النفس البشرية هي بعينها النفس البشرية ، وستعرض للذبذبة حين تواجه الحكم للتطبيق ، ولذلك يأتي هنا بقوله الحق

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطِغَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾

فساعة ندعو إنساناً منكم للحرب قد يطمئ وتخاذل ، مثلما قال في آية أخرى :

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائِمُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قَدْ أَتَيْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وه « اتألفتم » تعني : أن هناك من يتأفل أي يتزل إلى الأرض بنفسه ، وعلينا أن نفرق بين من يتزل بجاذبية الأرض فقط ، وبين من يساعد الجاذبية في نزله ، فمعنى « اتأفل » أي ناطقاً ، وركب ، وهذا دليل على أنه يريد أن يتحادل ، وهؤلاء لم يتأفلوا فحسب بل إمام أقسموا على ذلك . ومتهم من كان يثبط ويثبط عن غيره عن الغزو كالمسلمين عبدالله بن أبي .

« وإن منكم لمن ليبطئن » فافهمو وحلوا هذه المناقعة ضد من يعرق رحف المسح قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة تكون قد هرفت قوتنا وأعددنا أنفسنا على أساس المقاتلين الأشداء لا على من يتأطلون ويتأفلون ، فهلاك من يفرح ببقائه حياً عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم ، فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : « وإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . لقد تراخي ويقي ، وعندما تأتيهم المصيبة من قتل ، أو من هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أنني لست معهم .

إذن تثاقفه وتحلفه وتأخره عن الجهاد ، كان عن قصد وإصرار في نفسه . وهذه نعمة التجميع فهو مخالف لربما وعلى الرغم من ذلك يقول . أنعم الله عليّ ، مثله كمثل الذي يسرق ويقول ستر الله عليّ ، وهذه لمحة من لم يفهم المسح الإيماني ، فيقول : « قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً » إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيداً ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين إن من قال ذلك دخل في الشرك ، فالمصيبة في نظره إما قتل وإما هزيمة ثم ماذا يكون موقف المتحادل المتأفل المتباطئ عند الغيبة أو انتصر ؟ يقول الحق

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فِتْنَةٌ فَمِنْ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن

لَمْ تَكُنْ يَلْتَنِيكُمْ وَيَيْنُهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾

إذن فالعلة في قوله : يا ليتني كنت معهم ليست رجوعاً عما كان في نفسه أولاً ، بل هو تحسر أن فاته العزيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية في الآية تعطينا لفظة إيمانية ، فيقول : « ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

والجملة الاعتراضية هي قوله : « كأن لم تكن بينكم وبينه مودة » . كان المودة الإيمانية ليس لها ثمن عنده ، فلو كان ما أدنى تقدير لكان عليه ألا يقول في البداية : أجمع الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولكان مع المقاتلين المسلمين ، لكنه يورث في انقور والعزيمة فقط ، ويتعد عن المسلمين إذا ما أصابته الهزيمة أو استشهد عدد منهم .

وبذلك يكشف لنا الحق موقف المتخاذلين ويوضح لنا : إياكم أن تتأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثبات أو حين تنفرون جميعاً . واعلموا أن فيكم مخدلين وفيكم مبطلين وفيكم متقلبين ، لا يهمهم إلا أن يأخذوا حظاً من الغنائم ، ولذلك يحملون الله أن هزمت ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائم ويتمنونها إن انتصرتهم ولم يكونوا معكم ، إياكم أن تتأثروا بهذا وقد أعطيتهم هذه المناعة حتى لا تفاجأوا بموقعهم منكم وتكونوا حل بصيرة منهم . والمناعات ما هي إلا تربية الجسم ، إن كانت ساعة مادية ، أو تربية في المعاني ، إن حدث مكروه فأنك تمهلك فكرة عنه لتبني رد فعلك على أساس ذلك .

ونحن عندما يهاجمنا مرض نأث بميكروب امرض نفسه على هيئة خاملة ونطعم به المريض ، ونملك بلدك ونشعر الجسم أن فيه مناعة ، فإذا ما جاء الميكروب مهاجماً الجسم على هيئة نشيطة ، فتوى المقاومة في الجسم تتعاكس معه وتحاصر الميكروب ، فكان إعطاه حق المناعة تربية وتنشيط لقوى المقاومة في الجسم ، وقد أودعها الله في

دعك كى تؤدى مهمتها ، كذلك فى المعاني يومض الحق لكم : سيكون منكم من يفعل كذا وكذا ، حتى تعلوا أنفسكم لاستقبال هذه الأشياء إعداداً ولا تفاحلون به ؛ لأنكم إن لوجتكم به فقد تهاون . فليأكم أن تتأثروا بهذا

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٦ ﴾

ومادة : « شرى » ومادة « اشترى » كلها تدل على التبادل والتخاوض ، فانت تقول : أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم ؛ أى أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم ، وشرى ثانى أيضاً بمعنى باع مثل قول الحق :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَأَوْا بِهِ مِنَ الظَّالِمِينَ ٧٧ ﴾

(سورة يوسف)

والجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام فى الحب كانوا فيه من الزاهدين وبعد ذلك باعوه بثمن بخر ، إذن « شرى » من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع ومعنى الشراء ؛ لأن البيع والمشتري يتبادلان فى القيمة ، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع ، فلم يكن هناك نقد متداول ، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر ، فواحد يشتري التمر وآخر يشتري الحب ، والذي جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال .

وما الفرق بين السلع والمال ؟. السلعة هى رزق مباشر والمال رزق غير مباشر .

فانت مثلاً تاكل رعيك الخبز وثمره خمس غروش ، لكني بوعندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفاً ولا تجد ، أينفعك جبل الذهب ؟ لا . إذن فالرغيف رزق مباشر ، لأنك ستأكله ، أما الذهب فهو رزق غير مباشر ، لأنك تشتري به ما تنتفع به . وبذلك نستطيع ان نحدد المسألة ، فالسلعة المستفاد منها مباشرة هي رزق مباشر ، تدفع ثمنها بما لا تنتفع به مباشرة ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء . وأنتم تعلمون أن البائع يعطي سلعة ويأخذ ثمنها ، والشاري يعطي ثمنها ويأخذ سلعة ، والحق يقول ها :

﴿ فَلْيُقِشْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

فالؤمن هنا يعطي الدنيا ليأخذ الآخرة التي تتمثل في الجنة والجزاء ، ومزلة الشهداء ، ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿ إِنْ أَنْتُمْ شَرَيْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتُمْ أَبْهَتْ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وقال بعدها :

﴿ فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْسِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

تلك هي الصفقة التي يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا في حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطي شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول في آية أخرى :

﴿ بِرَّحُونِ يَحْتَرُونَ أَنْ يُشْرَوْا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة طه)

ها ايها التجار ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشيء الذي تعطيه بالشيء الذي تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذي يجب أن يضمن به في سبيل الآخر ؟ .

والحق قد وصف الحياة بأنها « الدنيا » ولا يوجد وصف أدنى من هذا ، فأوضح
المسألة : إنك ستعطي الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذي تأخذه فوق الذي تعطيه
فالصيغة - إذن - واضحة ، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية ، ولا تقل كم عمر الدنيا ،
لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن ، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد .
هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإن دامت لتبقى فما تقضى أنا ؟ ..

إذن قيمة الدنيا هي : مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظهرون ، وعمل
للرضم من ارتفاع متوسطات الأعمار في القرن العشرين ، فالبعض يقول : متوسط
الأعمار في أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة ، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ
طفلاً ، أو فتى ، أو رجلاً ، أو شيخاً .

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو : مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها
مع الآخرين ، وإنما قارنها بوجودها معك أنت ، وحب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين
عاماً على سبيل المثال ، ستجد أن تعمك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود .

والإنسان ما يظل يُرى إلى أن يبلغ الحُلُم . فإذا ما بلغ الحُلُم وأصبحت له حياة
داتية ، أي أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للأم ، بينما في طفولته كان كل اهتمامه على
أمرته ، أبوه يأمره باللبس فيلبسه ، ويلبسه فيأكله ، ويوجهه فيوجهه ، لكن حينما
توجد له داتية خاصة يقول لأبيه : هذا اللون لا يعجبني ! والأكل هذا لا يعجبني !
هذه الكلية لن أذهب إليها ولا توجد للإنسان داتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من
العمر يستطيع أن ينسل مثله ، فإذا ما أصبح كذلك نقول له : هذا هو النضج ،
وهو الذي يجعل لك قيمة داتية .

إنك إذا زرعت شجرة بطيح . فانت ترعاها سقياً وتنظيها وتسميداً ، وهي
مزالمت صغيرة وتعهدها كي لا تخرج مشوهة ، حتى تنضج ، وساعة تنضج يكون
الشمل الشاغل قد انتقل من الشجرة إلى الثمرة « الطيحة » ، فيقال صار لها داتية ،
لأنك إن شققتها لتأكلها تجد « اللب » قد نضج ، وإن زرعتها فأن منه شجرة
أخرى .

ولكن إذا ما قطفت الثمرة قبل النضج فانت قد تجرد « اللب » أبيض لم ينضج بعد ، فلا تصلح تلك البذور لأن تنمو وتثمر مثلها ، وإذا كان « اللب » نصفه أبيض ونصفه أسود ، فهي لم تنضج تماماً ، أما إذا وجدت « لبها » أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار ، وتجود الحلاوة متمشية مع نضج البذرة ، فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الخلق أكل الثمرة قبل أن تنضج البذور ولا تقطع النوع ، لذلك لم يجعل ربنا حلاوة للثمرة إلا بعد أن تنضج البذور ، وكذلك الإنسان ، والحق يقول .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَقِيمُوا كَمَا اسْتَقَدَّتْ الدِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة التوبة)

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه ينمو ويرتفع في البيت ويرى هذه وهذه ، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته نعلمه أن يستأذن ، وحين يكون الإنسان بهذا الشكل نصير له ذاتية ، ولنغرس فيه عدداً من السنين تبلغ حوالي الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل إن شاء سيقتصر في التعلّم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويمنع ، ثم لسأل كم سنة سيتمتع ؟ سنجعلها عدداً قليلاً من السنوات .

إذن فالحياة محدودة ، والمتعة فيها على قدر إمكانياته ، فقد يسكن في شقة من حجرتين أو في شقة مكونة من ثلاث حجرات ، أو في منزل خاص صغير أو حتى في قصر ، وقد يركب سيارة أو يمشي على قدميه ، باختصار على قدر إمكانياته ، أما في الآخرة فالموقف مختلف تماماً ، سيسلم معه إلى حياة عمرها غير محدود ، فإن قارت المخلوق بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متينة والعميم فيها على قدر سعة فضل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، لتكون هذه هي الصعقة الرابعة التي لا تبور .

ولماذا يدخل الله العبد في عملية البيع هذه ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصعقة لتدخل في عملية البيع التي تجهدك إن لم تقتل أو تقتل في سبيل الله لابد أن يوضح لك كيمية انقياد التي تأخذ بها المرء في الآخرة ، ولن تأخذ هذا

الفوز بالكلام فقط ، ولكن انظر إلى المنهج الذي سيقاوم من أجله ، إنه تأسيس المجتمع الذي يؤدي كل امرئ فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويخفي جسده من كدهم وتعبهم ، وهلت مجتمعا لا يؤمن بالله وقل : يا أيها الناس يريد أن يؤدي كل واحد منكم الأمانة التي عنده ، تريد أن نحكم بالعدل ، فسمرح أهل هذا المجتمع .

إذن فلنكن نحمل المجتمع لا بد أن تؤدي الأمانة وأن نقيم العدالة ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهنا واحداً فلا نشرك ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين .

قل لي بالله عليك : لو لم يكن هذا ديننا من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أمتك أعدل من هذا ؟

إن مثل هذا المنهج الذي يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه . وقل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه . هذا هو المجتمع الذي سيقاومون من أجله ، واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شيء إنما يقاس برص النهاية له ، فإن قتلت فقد نصرت المدة للوصول إلى النهاية ، فتصل إلى الجنة ، والحق هو الذي يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيفرقون في الحزن نقول لهم ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه النهاية ، فلماذا المرق في الحزن إذن ؟ .

والحق سبحانه وتعالى يكافئ من يقتل في سبيل الله بحياة في عالم الغيب ويهب رزقاً أيضاً . وبعض من الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد سيجدونه حياً يرقق . ويقول لهم : إن الحق لم يقل : إن الشهداء أحياء عندكم ، بل أحياء عنده في عالم الغيب . والحق سبحانه يطلب من الذي اقتنع بالإسلام أن ينشره ، وأن يعبد المسلمون بين أنفسهم لتصلح أمورهم ، وأن يواجهوا أصحاب الشر الذي لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة .

ولم تأمر السماء بقتال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول من

السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم يبيع قومه برسالته ، فإن آمنوا معها ونصحت وإن لم يؤمنوا تتدخل السماء بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق ، فالرسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان يبلغ ، والسماء تعاقب من لم يؤمن . وما وجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال ، مثل بني إسرائيل ، قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَيَّءَ إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ أَتَبَعْتُكَ
مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذي يُبَيَّن المبدأ ويشر المنهج لإعلاء كلمة الله ، وسيطرة الخلافة الأمية الإيمانية على الأرض ، لم يشرع إلا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الله لم يأمر خفياً على خلق إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد جعلها أمينة . فأنتم أمناء أن تتولوا عن اسماء تأديب المحالف ، وبذلك أنعدتم المسترعى العالى فى المنهج والمستوى العالى فى الرسالة . وأكرم الله نبيه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنفال)

فجاء القتال وحارب المسلمون - وهم ضعفاء - المجتمعات الماسدة القوية . والشاعر يقول :

فتوى على الضلال مقبم وقطيع من لضعاف يُمارى

هذا القتال لو لم يجرع به دين ، ألا تقوم به الأمم التى لا دين لها لإصلاح أمرها ؟ إنها تقاتل ، فلماذا يكون مباحاً منهم أن يقاتلوا حتى يفرروا مبادئهم ، وعندما يأمر الدين لشرع القتال يقولون - لا . هذا دين سيف

نقول لهم : بالله لماذا إذن تحارب الشعوب ؟ أنت تهم شعوباً تتحارب وتجد ظلمها بحارب ظلمها آخر ، فإذا ما وجد عدل ليزحزح ظلمها نقف فى طريقه ؟ لا . وذلك حتى

نعرف أن المسألة مسألة رسالة من السماء لا طغيان بوابت اجتماعوا أو بينوا مؤامرة لصنع انقلاب يسيطرون به على الناس .

لقد جاء الإسلام وأمن به الضعاف الدين لا يملكون أن يقاتلوا ، فلم يكن باستطاعتهم أن يجموا حتى أنفسهم ؛ ذلك حتى يعرف أن الحق مدعة يأق ، يأق حادة لا من قوى بل يأق من ضعيف نعب كثيراً كي يثبت الإيمان ، والإسلام ندى وده به رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة لكنه لم ينتصر كدين ولم يطلع إلا من المدينة . فمكة بلد محمد وفيها قبيلته قريش التي ألعب السيادة على الجزيرة كلها ولا أحد يستطيع أن يقرب منها بعدوان ، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجحزب أو إلى الشمال .

إن أى قبيلة تخاف أن تتعرض لها في الطريق ، لأن القبائل متاق إلى قريش في موسم الحج ، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش ، فلو أن الإسلام الذي صاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر في مكة ربما قالوا : قبيلة عشقت السيادة ، ودانت لها أمة العرب فما المانع من أن نطمح في أن يدين لها العالم كله ؟

وأراد الحق أن تكون قريش هي أول من يضطهد رسول الله ويكرهه ، والضعاف هم الذين يتبعونه ، وبعد ذلك يأتي النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من المدينة ، تشهد الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصية لمحمد ، ولم تخلق العصية لمحمد الإيمان بمحمد ، وما هوذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله سبحانه

﴿ سَيَبْرُهُ الْجَمْعُ وَيَذُرُّ الدَّبَرُ ﴾

(سورة القمر)

فيقول : أى جمع هذا ونعم لا نقدر أن نحصى أنفسنا ؟ ويقول الحق :

﴿ سَنَسِيرُ عَلَى أَعْقَابِهِمْ ۝ ١١ ﴾

(سورة القلم)

فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أن ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتي موقعة « بدر » فتثبت له صدق هذا ، والمجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أن يقال إن هناك مقدمات لذلك بحيث نستنتج النتيجة ؛ فالمقدمات لا توحى بأى نصر ، لكن ربما هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضرب عن أنفه وتركته الضربة علامة على أنفه ؛ لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً ، وهذا يدلنا على اختيار المبادئ .

إنك تجد أن الذى يؤمن بالمبادئ هو الذى يضحي أولاً ، يدفع ماله وقد يدفع حياته ، بأن يخرج منها ، وقد يدفع نفسه فيقتل ، كل ذلك من أجل المبدأ ، لكن الأمر يختلف مع المبادئ الباطنة ؛ فقبل أن يدخلها واحد نجده يأخذ الثمن . ومن يروجون للمبادئ الباطنة يقولون من يعررون به : خذا مالاً وعش واستمتع ، واشتر أحسن الثياب .

أما أصحاب مبدأ الحق فهم الفقراء الذين يدفعون الثمن ، ولهم الحق أن يدفعوا الثمن لأن الثمن غال ، لكن في الباطل لا يعرفون مثمناً . ولذى ينظر لمبدأ من المبادئ الهدامة ، يرى كيف يعيش قادتها ، ببسمة الرعية تحيا في بؤس ، فيقول . أما أحد الثمن مقدماً فالأمر يختلف مع المؤمنين ، فهم الذين يدفعون الثمن . ليسمحوا بالجزاء في الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى حين يشرح القتال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بشره أولاً دفاعاً ، كانوا يطلبون من رسول الله ، يقولون : يا رسول الله ، إنك لنا نقاتل على قدر جهتنا ، فيقول « اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال » (١) .

وبعد ذلك يؤمر بالقتال كي يدفع عن الخلية الإسلامية بعدما ذهبوا إلى المدينة ، ونعلم أن القتال عملية ضرورية في الحياة . فالحق سبحانه هو الغافل :

﴿ وَلَوْلَا دَعْوَةُ اللَّهِ آلِ نَسْرٍ بِعَقْمِهِمْ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

وهو القاتل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُوكٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أُمَّمٌ اللَّهُ كَثِيرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

إذن فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضروري واقعي . وحين يعطب على الإسلام أمر القتال ، يقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغي هي التي تحول دون تطبيق منهج من مناهج العدالة المعروفة ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها . ولو لم يكن العدل قائماً من السماء لما كان هناك منهج صالح يحكم الناس ، فإذا أراد الله أن يصنع العدل بمنهج أمره هو ، فلماذا يأتي من يقف في الطريق ويقول للرسول : أنت جئت لكي ترغم الناس أن يؤمنوا بمنهجك ؟ !

وبوضوح الحق مسيرة الرسول أنه جاء لكي يثبت كرامة الإنسان فهو سيد الأجناس التي تحيط به ، فالحياد مسحر ، والنبات مسحر ، والحيوان مسحر ، وليس لأى منهم حرية في أن يقول : امض ولا تفعل ، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان ، فالخلق هو المقاتل من أمانة الاختيار .

﴿ فَأَبَيْنَا أَنْ يَحْمِلَهَا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأحزاب)

إذن فبأي شيء تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس ؟ فغير عليهم بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

ومثال ذلك : هناك مكان نريد أن نذهب إليه ، فيوضح لك إنسان : لا يوجد إلا هذا الطريق ، فهل تفكر أن تذهب عن طريق آخر ؟ طبعاً لا ، إذن فالعقل لا يعمل له إلا الاختيار بين البديلات ، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له . وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا تضمن له حرية الاختيار أم بقيد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التي أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مسخراً مكرهاً ؛ ولذلك فللكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر .

ومدحت تقول : إن العقل هو الذي يختار بين البديلات ، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً ، فإن كان في الإنسان عطب كأن يكون مجنوناً ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجوداً لكنه لم يهيج بعد نقول أيضاً : لا اختيار .

إذن فلا بد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين البديلات ، ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجوداً فهو مجنون فلا تكليف له . والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل ، تكن أعفاه الله أن يسأله أحد عن شيء ، فيفعل ما يعين دون سؤال ، فلا تكليف مجنون ، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج ، وكذلك لا تكليف من قبل البوع .

إذن فالإسلام جاء ليحمي كرامة الإنسان في حرية الاختيار ، ويعرض عليك أمر الإيمان ، فالذي حمل السيف ، لم يجعله ليحبر أحداً على الإيمان ، إنما ليرد كيد من أرادوا قهر الناس ، والجزية إنما فرضت لإعفاء غير المسلمين من مسئولية القتال ، ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس في البلاد التي فتحها لم وجدنا أتباع أي دين في البلاد التي دخلها الإسلام . وهذه شهادة للمسلمين .

إن الإسلام لم يحن ليقرض ديناً وإنما جاء ليحمي حرية اختيار الدين ، والذين يقولون: إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم : افهموا جيداً ، لقد كان المؤمنون الأوائل صعباً وطلوا على الصنف مدة طويلة ، والبلاد التي فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير المسلمين ، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمي حرية الاختيار .

﴿ قَسَّ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ثم نأني لنقطة أخرى وهي أن الإسلام لم يأخذ الجزية إلا لأن غير المسلم سيستمتع

بكل خيرات بلاد الإسلام ، والمسلم يدافع وأيضا يدفع الزكاة والخراج . إذن
فالمسألة عدالة منهج ، وعل ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيُتَنَلَّ أَوْ يَطْلُبْ مَنَافٍ نُّزِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧١ ﴾

(سورة النساء)

فالمقاتل إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء ، ومبجأه حينها يقول : « فليقاتل في
سبيل الله » فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً في غير سبيل الله ، كأن يقتل الرجل حبة ،
أو ليعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائماً حسب نيته ، ولذلك تساءل بعض
الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ويكون
شهيداً . إذن فالمقاتل مرة يكون في سبيل الله ، ومرة يكون في سبيل النفس ، ومرة
يكون في سبيل الشيطان .

يقول الحق : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أي
يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة ، « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلِبْ فسوف
نؤتيه أجراً عظيماً »

إذن فالذي يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أن يقتل من الأعداء ، وإما إن
ينتصر ، وهذه هي القضية الجدلية التي تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ،
والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنين : إما أن
أقتل فأصبح شهيداً أحد حياة أفضل من هذه الحياة ، وإما أن أنتصر عليك ، فلماذا
تترهبون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤس يتق أنه فائر بكل شيء ؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من
حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والخالدان على سواء من الخبر .

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم ، وشهادة لهذا الدين بأنه
صحيح ، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنماً بالدين ، فكل واحد يعمل

لحياته ونفسه ، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نعمة حتى في الدين ، ولذلك يقولون : لا تكن أنانياً رخيصاً بل عليك أن تكون أنانياً غالياً ، والدين هو ممارسة لأنانية عليا .

ونضرب هذا المثل - وفيه المثل الأعلى - الذي ليس معه إلا جنيه وهو يحتاج إليه ثم رأى واحداً في حاجة ماسة ، فيقول المؤمن لنفسه : لقد أكلت ، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد فلاحظه الجيب

بالله أمر يجب أن أتخذ الجنيه من نفسه ؟ لا ، بل هو يجب نفسه ، لكنها أنانية عليا ؛ أنانية معلة . وسبق أن قلنا : إن الذي يجلس ويرى امرأة جميلة فتطس عنه أمره يختلف عن واحد آخر « يخلق » ويخلق وينظر إليها بشدة ، فأيهما يجب الجمال أكثر ؟ إن الذي عصى بصره هو من يجب الجمال أكثر ، لأنه لا يريد لها لحظة فقط ، بل يريد لها مستديمة

فما يالنا بالذي يبيع الدنيا ويقتل في سبيل الله ويأخذ الآخرة التي ليس فيها قتل أو أى شيء مكثر ؟ إذن فهذه أنانية عليا ، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النعمية ، لكنها نفعية علي وليست نعمة رخيصة أو قصيرة المدى ، فوجعلنا يبيع الرخيص بالثمن الغلى .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقاتلون في سبيل الله وعرض عليه منظرهم وهو في ليلة الإسراء والمعراج ، رأى صلى الله عليه وسلم جماعة يرددون ويحصلون بعد البذر مباشرة ؛ لأن الذي قتل في سبيل الله إنما فعل ذلك إحلاء لكلمة الله ، فلا ينتهي نفعه أبداً للخير الذي بذله ، وحياته مستمرة في حياة الملايين ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يعذب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ، وهرقنا أن كل مؤمن يقاتل في سبيل الله إنما يقر للمسكر الكفر ما جاء به الحق في قوله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَشَإِلَاحِدَى الْحَسَنِينَ وَتَعْزِزُونَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ

بِعَذَابٍ مِنْ عَذَابِهِ أَوْ يَأْتِيَا فَرَضُوا إِنْ مَعَكُمْ مَتْرُيُونَ ﴾ (٦٠)

(سورة فتوة)

فَالْمُؤْمِنُ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُقْتَلَ وَيَكُونَ شَهِيداً ، وَإِمَّا أَنْ يَغْشَى مَعْسَكَرَ الْكُفْرِ . وَهُوَ يَتَرَصَّصُ بِالْكَافِرِينَ أَنْ يُصِيبَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ ذَاكَ فَاَلْمُؤْمِنُونَ رَاحِبُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَالْكَافِرُونَ خَاسِرُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

«وَالْمَعْرَى» نَبْلُ أَنْ يَبْذُرَ بِهِ اللَّهُ وَكَانَ مُتَشَكِّكاً قَالِ .

لُحِطْطَمَ الْإِيَّامُ حَقٌّ كَأَنَّا زَجَّاجٌ وَلَكِنْ لَا يُعْلَدُ لَنَا سَكٌّ

فَقَالُوا: إِنَّهُ يَنْكُرُ الْبَعْثَ ، فَمَادَامَ قَدْ جَاءَ بِمَثَلٍ يَقُولُ فِيهِ إِنَّ الْإِنْسَانَ كَالزَّجَّاجِ إِنْ تَحْطُمُ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَمِيلَهُ إِلَى سَبْرَتِهِ الْأُولَى ، قَالَ ذَلِكَ أَيَّامُ تَكْبِيرِ الْمَكْرِ ، وَهَذِهِ تَأْتِي فِي أَيَّامِ انْخِرَافٍ ، ثُمَّ جَاءَتِ الْأَحْدَاثُ لُطُوفُهُ وَتَضَرَّبَ فِي فِكْرِهِ وَيَتَهَيَّأُ إِلَى الْإِيمَانِ . لَكِنْ أَكَانَ ضَالِماً أَنْ يَعْرِشَ حَقِّ يَوْمٍ ؟ فَمِلَازِذُ لَمْ يَخْلُصْ نَفْسَهُ مِنْ مَرَارَةِ تَجَرُّبَةِ الشُّكِّ ؟ وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ آمَنَ قَالَ : «هَئِنَذَا أَمُوتُ عَلَى عَهْدَةِ عَجَائِزِ أَهْلِ بَيْسَابُورِ . رَبَّنَا حَقٌّ وَرَبَّنَا سَمِيعٌ وَرَبَّنَا بَصِيرٌ» وَقَالَ .

زَعَمَ النُّجُومُ وَالطَّيِّبُ كَلَاماً لَا نَحْشُرُ الْأَجْسَادَ قُلْتَ إِلَيْكُمَا
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

أَيُّ إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا عَلَى أَنَّهُ لَا بَعْثَ وَقَمْتُ أَمَّا بِالْأَعْمَالِ الْعَلِيَّةِ فِي الدُّنْيَا ، فَمِلَازِذُ أَكُونُ قَدْ خَسِرْتُ ؟ إِنِّي لَنْ أَلْحَسَ شَيْئاً ، وَإِنْ صَحَّ قَوْلِي وَفُوجِئْتُمْ بِالْآخِرَةِ وَالْبَعْثِ فَأَنَا الَّذِي يَكْسِبُ وَالْخُسْرَانِ وَالْيَوَارِ وَالْعَذَابَ عَلَيْكُمَا ، إِذْ ذَاكَ فَلَمَّا كَانَ إِنْ لَمْ يَنْفَعْنِي فَلَنْ يَضُرَّنِي ، وَكَلَامُكُمَا حَقٌّ لَوْ صَحَّ - وَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ وَلَا سَلِيدٍ - مِنْ يَضُرَّنِي .

وَالْحَقُّ يَقُولُ : «وَمَنْ يَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُهْتَلِ أَوْ يَنْتَلِبْ يُسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» وَسَمِعْتُهُ عَنَّا يَطِيلُ أَمَدُ الْعَطَاءِ . انْظُرُوا هَذِهِ الْأَدَاءَ الْفَرَّانِيَّ الْآنَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ هُوَ اللَّهُ ، وَلَسَرُ كَيْفِيَّةِ تَرْتِيبِ فَعْلٍ عَلَى فَعْلٍ ، مَحِينٌ أَفْوَى لَكَ : «أَحْضُرْنِي أَكْرَمَكَ» ، فَبِمَجْرَدِ الْحَضَرِ يَحْدِثُ الْإِكْرَامُ ، وَلَكِنْ إِنْ قُلْتَ لَكَ . «إِنْ حَضَرْتُ إِلَيَّ فَسَأَكْرَمَكَ» ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الزَّمَانَ يَمْتَدُّ قَلِيلاً ، فَلَنْ تَكْرَمَ مِنْ فَوْرٍ أَنْ تَأْتِي بَلْ أَنْتَ تَحْضُرُ عِنْدِي وَبَعْدَ ذَلِكَ تَأْخُذُ تَحِيَّتَكَ ، وَبِأَتِيكَ الْإِكْرَامَ بَعْدَ قَلِيلٍ

وإن أردت أنا أن أطيل لزم أكثر غلى أقول : « إن حضرت إلى سوف أكرمك » . إذن فتحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجراء على الفعل : جزء يأتي من فور حصول الشرط ، وجراء يأتي بعد زمن يسير تؤديه « السين » ، وجزء يأتي بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ولم يقل الحق : من يقاتل في سبيل الله تؤيه أجراً عظيماً ، ولم يقل : فسؤيه أجراً عظيماً ، ولكنه قال : « سوف تؤيه أجراً عظيماً » وهذا القول سيبقى اليوم القيامة ، لذلك كان لابد أن تأتي « سوف » هنا ، وهذا دليل على أنه جزء موصول لا مقطوع ولا ممنوع

وهكذا يرى إحكام الأداء القرآن ، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته ، يأتي بأساليب كثيرة : مرة يأتي بأسلوب الجمع ، ونحن نقول ، كما علمونا في النحو . « ألون للتعظيم » كما في قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الْمَذْكُورِ وَإِنَّا لَهُ لَحَنِيطُونَ ﴾

(سورة الحجر)

لم يقل : أنا أنزلت . . فكل شيء يكون نتيجة فعل من أفعال الله . تأتيه « بون التعظيم » ، لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً خلقه من منعة أو من نعم ، يريد صفات كثيرة : قدرة للإبراز ، وعلماً لترتيب النعمة ، وتديراً وحكمة ، وبسطاً ، فيقول هنا : « تؤيه » ، لأن الصفات تتكاثف لتعمل الخير ، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل . سبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق .

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنَا آخِزْتُكَ فَاسْمَعْ لِمَا يُوحَى ﴾

(سورة طه)

فساعة يتكلم سبحانه من ذاته فهو يتكلم بالوحدانية ، ولا تقل بالافراد تأدياً مع الله فليس له شريك أو مثيل ، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتي بالجمع فيقول : « نحن » وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، مثلها حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اَلَمْ تَرَ اَنَّ اِلٰهَ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذْنَا بِهِ نَمْرٰتٍ مُّخْتَلِفًا اَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

لقد جاء سبحانه في صدر الآية بـ « أنزل » وكان يناسبها أن يأتي بعدها « أخرج » ، لكنه قال : « فأخرجنا به نمرات مختلفا ألوانها » فلماذا هذه « مفردة » وبذلك « جمع » ؟ لأنه ساعة قال : « أنزلنا من السماء ماء » لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل في إنزال المطر ، لكن ساعة أن أنزل المطر ، نجد واحداً قد حرث الأرض ، وثانياً بدر ، وثالثاً روي الأرض ، وكل ذلك من أسباب خلقه ، فلم يضم الله خلقه فقال : « أنزل من السماء ماء » ثم بعد ذلك : أنا وخصي بما أبدعهم ومسخهم فأخرجنا به نمرات مختلفاً ألوانها ، إذن فلا بد أن نتنبه إلى دلالة الكلمة حين تأتي بالمفرد وحين تأتي بالجمع .

وقوله سبحانه : « نؤتيه أجراً عظيماً » بلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة . فالطفل عندما يصفح أحراً لا تكون صفعته في قوة الشب أو قوة الرجل ، فإذا كان الذي يعطى الأجر مثيلاً لك فسيمطيك أجراً على قدره ، لكن إذا كان من يعطى هو ربنا ، فسيمطى الأجر على قدره ، ولا بد أن يكون عظيماً ، والأجر هو الشيء المقابل للمتعمة .

وهناك فرق بين الأجر والنس ؛ فالنم مقابل العين ، أما الأجر فهو مقابل المفعة ، أما اشترت هذه ، فهذا يعني أن دفعت ثمناً ، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن أخذته لأنفع به فقط ، وجراء الحق لمن يقتل في سبيل الله أهو أجر أم ثمن ؟ ، وتلفتت هنا أن الحق قد أوضح : أنا لم أئس من قتل ، بل نظرت بعمله ، فأخذت أثر عمله ، وأعطيت « أجراً عظيماً »

ويعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن
لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

والآية تبدأ بالتعجيب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال في سبيل الله كان لا بد أن يصير هذا القتال متسقاً مع القطرة الإنسانية ، ونحن نقول في حياتنا العادية . وما لك لا تفعل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار علم الفعل مستغرباً وعجيباً . فالقتال في سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطي نتائج رائعة ، فالذي لا يفعله يصح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق . « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله » أي لإعلاء كلمة الله ، ومرة بأن القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذي أودى بسبب دينه . ويكون ذلك أيضاً لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين » أي أن لقتال يكون في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين ، وفي ذلك ستارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل في سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين في سبيل تخليصهم من العذاب ، لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب ، فهنا دليل على قوة الإيمان ، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك في أسلوب نصيب : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين » فكان منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهنا مسألة تحتاج إلى بحث

وساعة يطرح رسا مثل هذه القضية يطرحها هل أساس أن كل الناس يستوعون
عد رؤيتها في أنها تكون متاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل في العقل ،
فليقولوا لنا إذن ، كيف يكفرون بربنا ؟

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال » وكلمة
« المستضعفين » يأتي بعدها « من الرجال » والمفروض في الرجل القوة ، وهذا يلفتنا
إلى الطرف الذي جعل الرجل مستضعفاً ، ومن يأتي بعده أشد ضعفاً .
« المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية
الظالم أهلها وجعل لنا من لذنك ولياً واجعل لنا من لذنك نصيراً » فقد بلغ من
اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، والقرية
هي « مكة » .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصية تمكنهم
من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم مبعوضون من أن
يهاجروا ، وظلوا على دينهم ، قصاروا مستضعفين . رجالاً ونساءً وولداناً ،
فلاضطهاد الذي أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق
للمؤمنين : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء
والولدان »

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ . قالوا : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم
أهلها واجعل لنا من لذنك ولياً » وعبارة لدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا من سبيل
منهم أناس وثقوا في أنه سوف يأتيهم ولي يلى أمرهم من المسلمين ، فكانها لوحت لنا
بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان

لقد جعل الله لهم من لديه خبر ولى وخير ناصر وهو محمد - صلى الله عليه وسلم -
فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم « سلمة بن هشام » لم يستطع الهجرة ، ومنهم « الوليد بن الوليد » و« عياض بن أبي ربيعة » ، و« أبو جندب بن سهيل بن عمرو » .
وسيدنا ابن عباس - رضي الله عنه - قال : لقد كنت أنا وأمي من هؤلاء المستضعفين من النساء والنولدان ، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرهم ، لذلك يحسن الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين ويبيح الحمية فيهم ليفاتلوا في سبيلهم ، فظلم الكافرين لهم خرس لا يفرق بين الرجال والنساء والنولدان في العذاب .

« الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ ٧٦

وعرفت أن الطاغوت هو : ابليس والمسرف في الطغيان ، ويطلق على المفرد وعلى اللثنى ، وعلى الجمع : فتقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ ﴾

إنّ فالطاغوت يطلق على المفرد وعلى المتخى وعلى الجمع ، وهل الطاغوت هو الشيطان ؟ . يصح . أهو اظالم الجبار الذى يظنه التسليم له بالظلم ؟ يصح ، أهو الذى يفرض الشرّ على الناس فيقتلوا شرّه ؟ يصح ، وكل تلك الألوام اسمها « الطاغوت » .

والأسلوب القرأى يتنوع فإما مرة ليقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيِ التَّقْطَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

وانظر للمقابلة ها : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » ، هنا « أمروا » و« كفروا » وهنا أيضا في « سبيل الله » و« في سبيل الطاغوت » هذه مقابل تلك . لكنى نعرف عبارات التى يشرها ربنا سبحانه وتعالى هلأت أن ندرك فيها الخططة الإعجازية ، قال في هذه الآية : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا » مقابلات ، لأن الكافر مفهوم أنه طاغوت ، ولكن : إذا ذكرت في الثانية مقابلا لمحدوب من الأولى ، أو حدثت من الأولى مقابلا من الثانية ، هذا يسمونه في الأسلوب البياني احتباكا كيف ؟

ها هوذا قوله سبحانه وتعالى : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة » لى تقاتل في سبيل الطاغوت ، ويقابلها الفئة التى تقاتل في سبيل الله ولا بد أن تكون مؤمنة .

إذن فالكلام كله مسجع ، فقال : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة » وترك صمتها كمؤمنة وقال : « تقاتل في سبيل الله » وسنعرف على الفور أنها مؤمنة ، وربنا يحرك عقولنا كى لا يعطيا المسائل بوضوح مطلق بل لعمل فكرى ، كى لا يكون هناك تكرار ، ولكنى نعرف أنه إذا قال : « لى سبيل الله » يعنى مؤمن ، وإذا قال : « في سبيل الطاغوت » يكون كافرا .

ويتابع الحق : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . أى نصراء الشيطان الذين ينفخون في مبادله ، والذين يتصرفون وسوسته في نفوسهم ليوزعوها على الناس ، هؤلاء هم

أولياء الشيطان ؛ لأن الشيطان - كما نعرف - حياً حدث الحوار بينه وبين مخالفه .
قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢)

(من الآية ٨٢ سورة ص)

لكنه عرف حدوده ولزمها فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(سورة ص)

أى أن من تريد أنت يارب لا أقدر أما عليه . وهذه تدلنا على أن المعركة ليست بين إبليس وبين الله ، فتعالى الله أن يدخل معه أحد في معركة ، بل المعركة بين إبليس وبين الخالق من الخلق ، فعندما قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » دلّ على أنه عرف كيف يُقسم ويخلف ؛ لأن ربنا لو أراد الناس كلهم مؤمنين لما قدر الشيطان أن يقرب من أحد ، لكن ربنا عزيز عن خلقه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن هنا دخل الشيطان ، فالشيطان قد دخل من عزتك على خلقك سبحانه لأنك لو كنت تريدهم كلهم مؤمنين لما استطاع الشيطان شيئاً ، بدليل قوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » أى أنا لا أقدر عليهم . ودلّ قسم الشيطان أنه درس ومنتبه لمسألة دخوله على العباد فقال :

﴿ لَا أَقْدِرَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذ فالشيطان لم يأت على الصراط الموحى ؛ لأن الذى يسير على الصراط الموحى والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً ، فهو مريب للشيطان ، ويحبته على مهنته ، فيكون وليه . فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنجى ، وهم نصراء الشيطان .

والحق بأمرنا : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . هؤلاء الذين بينهم وبين الشيطان ولاء ، هذا ينصر ذاك ، وذاك ينصر هذا ، وطمعنا الحق على ذلك فيقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ؛ لأن الشيطان عندما يكيد سيكون كيداً في مقابل كيد

ربه ، فلا بد أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله ، وليس للشيطان سلطان يقهر قلب الإنسان على فعل ، ولا يستطيع أن يرغمك على أن تفعل ، وليس له حجة يفتنك بها .

والفرق بين من يكره القلب - قالبك - ، أنك تفعل الفعل وأنت تكرهه . كأن يهدئك ويتوعدك إنسان ويمسك لك مسدساً ويقول لك : اسجد لي - مثلاً - إذن فقد قهر قلبك . لكن هل يقدر أن ينهر قلبك ليقول : « أحيى » ؟ لا يمكن . إذن فالتعجب يستطيع أن يكره القلب لكنه لا يقدر أن يفهر القلب ، فالذي يقهر القلب هو الحجة والبرهان ، بذلك يقتنع أن يفعل الفعل وليس مرغماً عليه . إذن فالأول يكون قوة ، والثاني يكون حجة .

والحق سبحانه وتعالى بوضح لنا . اعرفوا أن هذا الشيطان ضعيف جداً ، فهو لا يملك قوة أن يرغمك فإذا أخواك تستطيع أن تقول له : لن أفعل . ولا يستطيع أن يأتي لقبك ويقول لك : لا بد أن تفعل ويمسكك على الفخ قهراً منك . فليس هذه حجة يفتنك بها لتفعل ، فهو ضعيف ، فلماذا تطيعونه إذن ؟ . إنكم تطيعونه من خملتكم وحبكم للمشهوة ، والشيطان لا يقهر قلبكم ، ولا يفهر قلبكم . بن يكتفى أن يشير لكم !! ، ولذلك سيقول الشيطان في حجته يوم القيامة على الخلق

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أي لم يكن لي عليكم سلطان : لا سلطان قدرة أرغمكم على فعلكم بالقلب ، ولا سلطان حجة أرغمكم على أن تفعلوا بالقلب ، أي أنتم لمعطون وليس في شأن ، إذن فكيد الشيطان ضعيف . والكيد : كما تعرف - هو : محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك من يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك من يريد أن يفسدها بحيث إذا أمسكت به يقول لك : لم أفعل شيئاً ، لأنه يفعل الخطأ في الخفاء . وفسد الحال بالاحتيال . والكيد لا يقبل عليه إلا الضعيف .

إن القوي هو من يواجهه من يكيد له ، فالذي يدس السم للإنسان آخر في الفهرة

- مثلاً - هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ، لأنه لا يقدر أن يواجهه ، أما القوى فهو يتأهب على فعل ذلك ، وحتى الذي يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له أنت خائف ، أنت أثبت بجرائك على قتله أنك لا تطيق حمايته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضي أن تقول : أبقيه وأيا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إِذْ نَكِيدُ الشَّيْطَانُ جَاءَ ضَعِيفاً لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ قُوَّةَ يَقْهَرُ بِهَا قَالِباً ، وَلَا يَمْلِكُ حُجَّةَ يَقْهَرُ بِهَا قَلْباً لِيَضْعُكَ ، فَهُوَ يَشِيرُ لَكَ بِإِحْتِيَالٍ وَأَنْتَ تَأْتِيهِ : وَلَا يَحْتَالُ إِلَّا الضَّعِيفُ . وَكَلِمَا كَانَ ضَعِيفاً كَانَ كِيدُهُ أَكْثَرَ ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ مَثَلًا : الْمَرْءُ أَقْوَى مِنَ الرَّجُلِ لِأَنَّهُ رَمَا يَقُولُ :

﴿ اِنْ كَيْدُكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ويقول لهم : ما دام كيدهن عظيما ، إذن فضعفهن أعظم ، ولا فليأذا تكيد ؟ .
ولذلك يبرز الشاعر العربي هذا المعنى فيقول :

وَضَعِيفَةٌ فَلِذَا أَصَابَتْ فَرَسَةً قَتَلَتْ كَذَلِكَ قِدْرَةُ الضَّعِيفَاءِ

لأن الضعيف ساعة يمكك خصمة مرة . وتمكنه الظروف منه ، يقول : لن أتركه لأنني لو تركته فسيفعل بي كذا وكذا . لكن القوي حينما يمكك بخصمه ، يقول : أتركه وإن فعل شيئاً آخر أمسكه وأضربه على رأسه ، إذن فإن كان الكيد حليفاً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ أُولَٰئِكَ يُصْلَوْنَ فِيهَا وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾
وَمَا تُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ

يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا لَرَسُولِ اللَّهِ
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ
الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا ﴿٣٧﴾

نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعني . إن كانت مرتبة في رتبها ،
فلما أن تأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مرتبة فمعها : لم تعلم ،
ولكن العلم بإخبار الله أصديق من العلم . ونحن يقول الحق : « كفوا أيديكم »
لا بد أن تكون بواحد من الأيدي موجودة ، فليس يقال لواحد لم يده يده : كتب يده .
والكلام هنا في القتال . فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه
وتعالى جاء في المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال ، إذن فقد قيل لهم : « كفوا
أيديكم » لأن بواحد من الأيدي للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا : دعنا
يا رسول الله بقتل ، وإما معاً بأن تهاوا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كتب
عليهم القتال » دل هذا القول على وجود رمتين بصدد هذه الآية : زمن قيل لهم
كفوا أيديكم ، وزمن كتب عليهم القتال ، فمنهم من هذه أنه كتب هلك بواحد لئلا
اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا: دعنا بقتلهم . ابن
عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكاً للرسول لكان قد أمرهم بمجرد
أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي
صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا سيدي الله ، كنا في حزة ، ونحن مشركون ،
فلما آمننا صرنا أدلة قال . « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى
المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأمر الله « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا
أيديكم » (١) .

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه النسائي وخلفه

راجع أصلاً وشرح أحاديثه ، أحمد عمر هاشم نائب رئيس جمعية الأهرام .

وهذا دليل على أنه متصور أمر السماء . وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال ، فلما كتب عليهم القتال تخلص البعض منه مصداقاً لقول الحق : « فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يحشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فلهاذا هذه الخشية وهم مؤمنون : هل هذا يعني أنهم خافوا الناس أو رجعوا في الإيمان ؟ كما طلب بعض من بني إسرائيل القتال .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجْرِ لَكُم آيَاتَ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ صَبَّيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَا تُنْفِلُوا قَالُوا وَرَمَلَا أَلَا تُنْفِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُنْزِلْنَا مِنْ دُونِ آبَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

(سورة التوبة)

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقي ، قد يندب في نفوسهم الخوف والحلوف ، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتي على المؤمن ، فإدام الإنسان ليس رسولا ولا معصوما فلا تقل : فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا ، لأن فلانا هذا لم يدع أنه معصوم ، ولذلك يصح أن تأتي منه الأخطاء ، وتأثبه خواطر نفسه ، وتأثبه هواجس في رأسه ، ويقف أحيانا موقف الضعيف ، ولذلك عندما يقول لك واحد : فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا ، قل له : وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون ؟ وما داموا غير معصومين فقد يتأثر منهم هذا

والله يقول : « إذا فريق منهم » وهذا يعني أنهم ليسوا سواء ، وفريق منهم أضعف ، وفريق آخر بقي على شدته وصلابته في إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف ، ثم انظر أدب الأداء . لم يقل : فلان أو فلان . بل قال : « إذا فريق منهم » وهذا يستدعي أن يبحث كل إنسان في نفسه ، وهذه عملية أراد بها الحق السر للعبد ، وما دام السر قد جاء من الرب ، فلنعلم أن ربنا أغير على عبده من نفسه ، ولذلك نقول دائما : ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه : تكريم للناس جميعا .

وهب أن الله أطلعك على غيب الناس أحب أن يُطلع الناس على عيبك ١٩ لا ،
إذن قانت عندما ترى أن ربنا قد ستر عيبك عن الناس وستر عيب الناس عنك
فاعرف أن هذه نعمة ورحمة ، لأن الإنسان ابن أغيار ، فيصح أن واحداً أساء إليك
في نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك ، وأنت أيضاً تريد أن تتخلص منه وتكرمه ، فلو
أطلعك الله عن ما في قلبك ، أو أطلعك على ما في قلبه لكنت معركة يهرج فيه كل
سكنا كرامة الآخر ، لكن ربنا ستر عيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقهم

وأنت أيضاً أيها العبد قد تعصيه ويجب أن يستر عليك ، ويامر الآخرين
ألا يتقصوا أخبار معصيتك له . بالله أيوجد رب مثل هذا الرب ؟ شيء عجيب ؛
فقد تكون عاصياً له ويجب أن يستر عليك ، ويامر غيرك : إياكم أن تتبعوا عورات
الناس ، فقد يكون عندهم بعض الحياء ، ويكونون مستترين في أسياهم وملايسهم
لماذا ؟ حتى لا يعقلوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم .

إذن فالحق يرحم المجتمع ، ولكن الخيبة من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا
الغيب ويبحثوا عن يكشف لهم الطالع . ونقول لمن يفعل ذلك . يا رجل لقد ستر
الله الغيب عنك نعمة منه عليك ، فاجعله مستورا كما أراد الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو
أشد خشية » والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل ، ويخاف من الموت ، لأنه
سيأخذه إلى جزاء العمل الذي عمله في الدنيا . ولذلك نجد أحد الصحابة يقول :
أكره الحق .

فتساءل صحابي آخر : كيف تكره الحق ؟ قال : أكره الموت ومن منا يحبه !

ولماذا يخشى الناس القتال ؟ لأن الله حين يُميت ، يُميت بدون هدم بنية ، ولكن
الأعداء في القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به ، لكن إن استعصر العبد
أجره على هذه الخلة فهو عليه المسألة .

« إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كنيت علينا

القتال ، وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال ، كي نعرف أن النفس البشرية حين تكون مجأى عن الشيء تتمناه ، وعندما يأتيها تعارضه .

« وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستهزام ؟ يوضح الله لنا ذلك : إنهم يقولون : يلرب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء ، وقد لا يقرر عليه في ساعة الخوف من لقاء المعارك ؟ لذلك طبعوا أن يؤجل الله ذلك وإن يحسبهم يموتون حفظ أنوفهم لا بيد العدو ، وكلمة « إلى أجل قريب » توضح أن كل واحد منهم يعي تماماً أنه سيموت حتماً ، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهي حياته بالقتل

ولماذا تطلبون التأخير ؟ أحباً في الدنيا ومتاعها ؟ ويأت جواب الحق : « قل متاع الدنيا قليل ، ولا يصح أن تحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا ، فكلكم ستموتون ، وكل منا يجازيه ربنا على عمله ، أما الذي يُقتل في سبيل الله فيسبجازه على عمله فوراً ، ويعطيه حياة أخرى مقبل الموت لأنه سيأخذ الشهادة ، ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول : « قل متاع الدنيا قليل » إن قارنته بما يعمل إليه ادراء من ثواب عظيم إن قتل في الحرب جهداً في سبيل الله . قال بعضهم : إذا كان لا مفر من الموت ، فلماذا لا نذهب لنقاتل في سبيل الله ، فإن قتلنا فليكن موتنا بشئ رائد من عملنا ، إذن فهذا تريب وتسمية للمائدة ، ولذلك قل الحكيم .

وسو أن الحياة تبقى لحى لعدونا أضلنا الشجعان

أي أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فيها هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم في الحرب ، لكن المسألة ليست كذلك ، والشاعر العربي يقول :

ألا أيها الراجري احضر الرغى وأن أشهد الذات هل أنت مخلدى
والنتى يقول :

أرى كلنا يعى الحياة لنفسه حربها عليها مستهما بها صبا
فحب الجمان النفس ورثه النقى وحب الشجاع النفس أوردته لحربا

إذن فالاثناان مجهان نفسيهما ، لكن هناك فرق بين الحب الأحن والحب الأعنى .

وعندما ننظر إلى إجمالى السياق فى الآية نجد أن الحق سبحانه يربى - فى صدر الإسلام - الأمة المزمعة تربية إيجابية لا تنحصر لعصبة الجاهلية ولا لحمة النصر ، فترى من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاصطهاد أحبوا أن يقاتلوا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأتى الله بالقتال ، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة ، لأن الإسلام جاء وفى نفوس العرب حمة وعصية وعزة وأمانة ، فكلها أميج واحد منهم فى شئ فرع إلى سيفه وإلى قبيلته وشئها حرباً ، فيريد الله سبحانه أن يستل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبة والغضب للحمية ، ولراد أن يجعل الغضب كله لله .

وحينما جاء الإذن بالقتال ، جاء لا ليعرض على الناس عقيدة ، ولا ليكرههم على إسلام ، وإنما جاء ليحمى النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذى يريد أن يجعل الأضعف تبعاً له ، فلراد سبحانه أن يمرر الاختيار فى الإنسان فكان القتال حفاظاً على كرامة الإنسان أن يكون تبعاً فى العقيدة لغيره ، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً ، فمن استجاب له فمرحباً به ، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه . وهذا يدل على أن الإسلام دين مع التسلط على عقائد الناس ، وضمن لهم الحرية فى أن يختاروا ما يحسون من العقائد بعد أن بين لهم الرشيد من الغى .

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور المواطن الإنسانية التى تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصوراً طيباً . بين لنا أن الطبع الإنسانى يعالج بالتربية ، ولهذا نجد أن بعض من الدين طلبوا القتال خائفوا : وإذا عريق منهم يحشون النفس كخشية الله أو أشد خشية .

إذن هناك فرق بين نظرية أن نقاتل ، وأن نحوض القتال بالفعل ، لذلك نجد أن منهم من خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يقتلوا ، وانقل كما تعلمون هدم بنى ، ولكن الموت حثف الألف هو الذى يسحب به الله الروح الإنسانية ، دون

هدم بيعة أو نقض لها وأيضاً فالقتال يكون مظنة القتل ، والخوف من القتال مظنة التراخي في الأجل ، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل ، لكن الموت حتم الأنف علمه صد الله في ذلك قالوا : «ربما لم كتبت علينا القتال» .

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية ، وسبحانه يريد أن يبريء المؤمن أن يكون قتاله للحمية ، لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية ؛ لتكون كلمة الله هي العليا حتى ولو كان المحالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف .

واحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك ؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه حتما شرسا في تثبيت قاعدة الاختيار الإيماني في البشر ، فقال الحق لرسوله صل الله عليه وسلم : «إن قالوا لك ذلك» قل متاع الدنيا قليل ، فالحرص من أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل لموت بعد أجل قريب يعني أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر ، فأوضح الحق : لا ، ضمعوا مقياسا تقيسون به الجدوى ، فسبحانه قال :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وبه شراء وبيع . وأيضاً قال سبحانه في الصفة الإيمانية :

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَةٍ مُّجْتَمِعَةٍ مِّنْ دَلَائِلِ الْبَیْرِ﴾

(من الآية ١٠ سورة الصف)

إذن فافهم يعامدا بملحظ النعمة الإنسانية ، واللبق ، الفطن ، الذكي هو الذي يتجر في الصفة الرابعة أو المضمومة أو التي تكون جذراها والفائدة منها أكثر من سواها . فلو أننا قارنا الدنيا ، لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد في عمر الفرد ؛ لأن الدنيا تطول في الزمن ، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها ، لا بمقدار أعمار الآخرين ، فإن دامت للأخريين طويلا ، فما دخل انفراد في ذلك ؟

إذن فالدنيا بالنسبة لفرد هي زمن محدود ، والله يبشر المؤمن الذي يقتل في سببه أنه يأخذ من الصفة زمنا غير محدود . وأيضاً فالبقاء في الدنيا بدون قتل وإلى أن

يموت الواحد حتف أنفه ، هو بقاء مظلون وغير متيقن . ونحن نرى من يموت طملاً أو شاباً أو كهلاً . أما الآخرة فهي غير محدودة وهي متيقنة

إن النعيم في الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد في تحقيق النعيم . وأما النعيم في الآخرة فيكون على المقدار الذي أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته . فإن قارنا صفة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة .

إذن فالحق يسمى فينا قيمة لصفة الإيمان ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية ، أو ليستبدله ، فالدين إنما جاء ليريب للمؤمن التضحية ونسبها له

ومثال ذلك عندما سمع الدين واحداً أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضاً كل الآخرين أن يسرقوا من أى واحد ، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له ، ونحن بمنع الواحد عن فعل خطأ في حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا في حقهم . فإذا قال الدين لواحد لا تمد عيبك إلى محارم غيرك ، ففى هذا القول ما يوصى كل غيري الدنيا : لا تمدوا أعيانكم إلى محارم فلان ، فالكسب العظيم . إذن - يعود على الفرد

وقول الحق : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » يوضح لنا عظمة الصفة الإيمانية ، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل في قوله : « ولا تظلمون قتلاً » ونعرف أن القتل هو ما قتل من الأقدار حينها يدعك الإنسان كفيه معاً ، فويخرج نالهما كالمثلة ، أو القنيل هو القنلة في بطن النواة ، أى لا نظلم حتى في الشيء النافه . والعدالة هنا بمشروطها ، لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها ، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر

وهكذا لا تزهق العدالة مؤمناً لأنها تأتى بفضلها ، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر ، وتجب الحسنة عند الله في ميزان العدالة بما أحسن من الفضل ، فلا يقولون واحد : إن هناك عدلاً من الله بدون فضل .

إذن يقول الحق : « ولا تظلمون قليلاً » هو بضميمة الفصل إلى العدل ولذلك نحن ندعو الله قائلين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، لأن مجرد العدل قد يمتعنا . وندعو الله : وبالإحسان لا بالميزان ، لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب وندعو الله : وبالجبر لا بالحسب ، والجبر هو أن يجبرنا الله ، وهكذا نرى أن قوله الحق : « ولا تظلمون قليلاً » بلاغ من الحق لنا أننا منعدين معكم بالفصل فنكون السيئة واحدة ، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر .

وقوله الحق : « ولا تظلمون قليلاً » يعنى فيما نضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل وسبحانه يريد أن يطمئن على أن قضاي الإيمان يجب أن يحاط عليها ، فإياك أن تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء ، إنما فضل الله هو لى سيعطيك الجزاء . يقول الحق :

عَلَّمْ قُلُوبَهُمْ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ هَدَاكَ قَلْبَهُمْ حَوْماً هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

(سورة يونس)

والفضل هو الذى يفرح قلب المؤمن . ثم يأتى الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قائلها المادفون حينها حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد ، ثم قتل من قتل من المسلمين ، فقال المادفون : « لو كانوا عدداً ما ماتوا وما قتلوا » فهموا أن العدة عندهم حصن لهم من الموت ، وأن الذهاب إلى القتال هو الذى يجيب الموت ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان وسميه الطرف

إن الذين درسوا « الطرف » فى المحو يقولون : « طرف زمان أو ظرف مكان » ، فكل حدث من الأحداث لابد أن يوجد له زمان ومكان والزمان فى الموت منهم والمكان فى الموت أيضاً منهم ، فطرف حدث الموت زماناً أو مكاناً مبهم ، ونحن نرى الله شيئاً ، فلا تظنوا أنه يريد أن يحبه ويغضبه علينا ، بل الحق بيهم الأمر ليوضحه أوضح بيان ، فالإيهام من عنده أوضح بيان ، كيف ؟ .

إنه سبحانه حين يجهنا برمن الموت ويغضبه عليه فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت فى أى لحظة ، وهل هناك بيان أوضح من هذا ؟ . فحين جهنا برمن الموت فهو لم يمع عنا معرفة زمة ، ولكنه أشاع زمة فى كل زمن ، فلا أحد يقادر على

الاحتياط من زمن الموت ، وكذلك الحال في مكان الموت
وها هو الحق بقول .

﴿ أَتَيْنَا تَكُونُوا بِذِكْرِكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ
مُسَيَّرَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ قُلْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

حَدِيثًا ٧٨ ﴿

والحق ها يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال : « أئنا نكربوا بذكركم الموت
ولو كنتم في بروج مشيدة » فالمعنى البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من
الموت - مكاناً - عليه أن يعي جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند طرف
ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فاعدية سواء في معسكر الكفر أو في معسكر الإيمان
لن تمنع حدوث الموت .

والمعندية - كما نعلم - تعطى طرف المكان فلطافة تجعل الموت تخترق أى مكان
وزمان مادام الحق قد قضى به . وأعداء الإنسان في عاقبته وفي حياته كثيرون ، لكن
إن نظرنا إليها في العنف سجدها تتناسب مع اللطف . فكلمة لطف عند الإنسان
دفع ، كان عيفاً ، وكلما كان ضيقاً كان أقل عنفاً فالتقى له سخامة قد يهول
الإنسان ويفزعها ، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه . لكن متى يكون العدو صعباً ؟
يكون العدو صعباً كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك . فيتسلل إلى الإنسان

ومثال ذلك : هب أن واحداً بنى بيتاً في خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع

أساس البيت فقول لصاحب البيت : إنك لم تحط لخل هذا المكان ، فهو يمتلئ
بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديداً على النوافذ التي في الدور الأول ، وذلك
حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة .

ويضع صاحب البيت حديداً على نوافذ الدور الأول . ويحيى واحد ثان ويقول
له : لقد هاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد ،
ويصل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين . ويحيى ثالث لربارة صاحب البيت
فيقول : إنني أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب
هذه المنطقة ؟ . إنه ذباب سام . وهنا يضع صاحب البيت سلكاً على النوافذ .
ويحيى واحد رابع فيقول لصاحب البيت : في هذه المنطقة حشرات أقل حجماً من
الذباب وأكثر عفاً من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك التي تضعه
على نوافذك ، يخلع صاحب البيت السلك للملق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب
سلك آخر فتحاته أكثر خيفاً بحيث لا يمر منه هذه الحشرات . إذن فعدوك كلها لطف
ونق من الإدراك كان حقيقياً .

ولذلك فأعطر الميكروبات التي تسلل إلى الإنسان ، ولا يدري الإنسان كيف
دخلت إلى جسمه ولا كيف طرقت جلده ، ولا يعرف إصابتها بها إلا بعد أن تمر مدة
التبريق الخاصة بها وتظهر بجسده الآمها ومتاعبها . إنها تدخل جسم الإنسان دون
أن يدري ولا يعرف لذلك زمناً أو مكاناً

ريفتنا سبحانه إلى أن الشيء عندنا كلها لطف ازداد عنماً ، ولا نعلمه المداخل .
فما بالكم بالموت وهو اللطف من كل هذا ، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبداً .

وما قبل الموت ؟ . إنه الحياة حيث توجد الروح في الجسد . وما كنه الروح ؟
لا يعرف أحد كنه لروح على الرغم من أنه يحملها في نفسه ، ولا أحد يعرف أين
تكون الروح أو ما شكلها ، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها .

وعندما يقضها الله فإن الحياة تنتهي . والحق هو الذي جعل لدحي روحاً ،
وعندما ينصحبها فيه تأتي الحياة .

إن الحق - سبحانه - يلعبنا ويتنته إلى ذلك فيترك في بعض ماديتنا أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المحاهر أن يعرفوا كتبها وحقيقتها ، فنحن لا نعرف - مثلاً - الفيروس المسبب لبعض الأمراض .

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحاً يهبها حياة ، فلماذا لا نتصور أن للموت حقيقة ، فإذا مات تسلسل للإنسان قلبه يسلب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الملك :

﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴾

(الآية ١ وجزء من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرٌ دقيق للغاية يناسب دقة الصانع . ووصف الحق أمر الموت والحياة في سورة الملك وقدم لنا الموت على الحياة ، مع أننا في ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتي أولاً ثم يأتي الموت . لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة . فالحياة تعطى للإنسان ذاتيةً ليستقبل بها الأسباب المخلوقة ، فيحرث الأرض أو يباشر في الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويضع به السمع والبصر ، فيظن أن الحياة هي المخلوقة أولاً .

يبهنا ويوضح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلت قبليها ما يتقص الحياة ، فيفوقنا عن نفسه . « الذي خلق الموت والحياة » وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسي الشريف الذي يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وبأى الحق سبحانه بالموت في صورة كش ويدبجه .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يؤذن بالموت يوم النجاة ، فيوقف عن الصراط ، فيقال : يا أهل الجنة فليطعموا حائفين وجيئين أن يخرجوا من مكثهم الذي هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا .

نعم زُنَّا ، هذا الموتُ ، ثم يُقال : يا أهل النار ، فبطلعون فرحين مستبشرين ، أن يفرحوا من مكانهم الذي هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط ، ثم يقال للمريقين « كلاهما »^(١) « خلود فيها تجدون لا موت فيه أبد »^(٢) .

وتجسيد الموت في صورة كبش معناه أن للموت كسوة . ويعلمنا الله أنه يقضى عن الموت ، فنجيا في خلود بلا موت . ويشه الناس الذين كفروا وظنوا أن الدين قتلوا في سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا . نقول لهم : العندية عندكم لا تمح الموت ولو كان من دنا أجله وحان حينه يسكن في بروج مشيدة لأدركه الموت

إن الأداء اقترأ بشوع ، فهناك من الأداء ما تفهمه من الألفاظ ، وهناك ما تفهمه من المعنى الأسلوبى للقرآن ، لأنه خطب الرب ، فالشرف فيها بينهم يتحاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية ، لكن عندما يخاطب الحق الخلق فسيبغاه بمخاطب كل ملكات النفس . ولذلك نجد طملاً صغيراً يحفظ القرآن ويمتدح بالسرور ، فيأله واحد من الكبار ، ما الذي يسرك في حفظ القرآن ؟ فيجيب الصغير : إنني أحسن بالانسجام وكفى . هو لا يعرف لماذا يحسن بالانسجام من سجع القرآن أو حفظه ، فالتحدث هو الله ، وسبغاه بقدرته وجمال كياله يخاطب كل الملكات النفسية .

وسبغاه وتعالى بقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت » أى أينما توجدوا يدرككم الموت . وكلمة « يدرككم » دليل على أن الإنسان عندما يذب فيه الروح يطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها في الزمن الذى قدره الله . وكلمة « يدرك » توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرت ، فلا أحد منكم إلا هو مُفْرَك » ، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهم أرسل إليك وإنما حمرك هو بقدر سفره إليك » .

(١) كلمة (كلاهما) هكذا جاءت بالأصل ، والمرووف في القاعد « عليهما » ، لأن الكلمة تركبت لتجوز ، ولعمد

عمل لغة من يلزم المعنى الألف

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢٤ ص ٢٠٤

وهكذا نعرف أن قوله الحق : « يسركم » يدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجري وراء روحه حتى يدركها .

ويقول الحق . « ولو كنتم في بروج مشيدة » . وعندما يبحث في الحروف الأصلية لمادة كلمة « البروج » نستطيع أن نرى المعنى العام لها والحروف الأصلية في هذه الكلمة هي « الباء » و « الراء » و « الجيم » وكلها تدل على الارتفاع والظهور

فيقال : « هذه امرأة فيها برّج » أى أن عيونها واسعة وتمتلئ قدراً كبيراً من وجهها وتكون واضحة ، فالبرّج هو الاتساع والظهور .

والأبراج عادة كان بناؤها مرتفعاً كحصون وقلاع بنيت من الأسمنت والحديد . والمقصود من « مشيدة » أى أنها بروج تم بناؤها بإحكام ، فالشيء قد يكون عالياً ولكنه قد يكون هشاً . أما الشيء المشيد فهو من « الشيد » وهو « الحصن » ، ومن « الشيد » وهو « الارتفاع » ، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أصابعها وأجزاءها بالحصن لها مرتفعة متماسكة .

إنك إذا رأيت جماعاً وقوبل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطى أحاداً . فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه : أخرجوا كتبكم . فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه . وعلى ذلك يكون القيس فلربى كل إنسان لنفسه برجاً مشيداً بلحامه الموت .

والجمع مقصود أيضاً : أى لو كنتم جميعاً معتمدين ببرج محاط ببرج آخر وثالث ورابع ، كأنه حصن محصن فالحصون في بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع . وبذلك تحمى الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون . والموت يدرك البشر ولو كانوا في برج محاط ببرج وكلا المصين يوصح قدرة الحق في إنفاذ أمره بالموت .

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة في الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس

من الظلمات إلى النور ، لأن الدين هو نور طارىء على ظلمة ، والذين يعيشون في الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعرّب في الآخرين . وعندما جاء الدين مرّ بعضهم من عبىء النور ، لأن النور يحرمهم من لذات الضلال ، ولأن النور يوضح الرؤية .

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه لى بالموت لىؤدى حاجتين : الحاجة الأولى : أن من يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحجاب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساهة بسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ، لأنه ذاهب إلى الجزاء

والحاجة الثانية : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشه ولا يستعد له ويخاف أن يلقى ربه . إذن فكلمة (الموت) تعطى الرغب والرهب . فصاحب الإيمان ساهة بسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاع الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربي .

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمن بالله تلك القضية . وغير يستحضرون هذه القضية يرون عليهم كل مصاب في عزيز ، فالإنسان مادام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذى راح منه إما مؤمن وأما غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ؛ لأن الله عجل به ليرى حبه ، فإن حزنت لمقد قريب مؤمن فانت تحزن على نفسك . وإن كان الذى ذهب إلى ربه غير مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره . إذن الموت راحة ، والذى عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رغب ، أما الكافر فهو خائف ، وهذا رهب .

ولذلك نص الحق أن يميز الإنسان على ميت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : « أئني نكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

ويتابع الحق : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله قبال هؤلاء الضوم لا يكادون يفقهون حديثاً » . ومثل هذا الكلام ألقى بمن ؟

الذي يقول عن المحسنة إنها من عند الله فهو يؤمن بالله وعلمه لكلمة لها من ذمته تصور . والآية لا تريد هذا الصنف من الناس ولكن بعضهم يريد أن يفرق بين محمد وربه . فينسب الخير والمحسنة لله ، وينسب الشر والسيئة لمحمد ، وعلى هذا فالذين قالوا مثل هذا الكلام إما أن يكونوا من المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم وولاءهم لرسول الله وفي قلوبهم الكفر ، وإما أن يكونوا من بعض أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعترفون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء وأولئك ينظرون إلى الأمر الذي فيه غير على أسس أنه من عند الله ، ويلقون اتهاماً باطلاً لرسول الله أنه مسئول عن الشرور التي تحدث مع . كأنهم يريدون أن يقيموا انعزالاً بين محمد وربه .

لا . فسبحانه لا ينبغي لهم ذلك ؛ فقد أنزل قرآناً يتلى إلى أبد الأبدين :

﴿ مِنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَوَاسِلَكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۝ ﴾

(سورة السجدة)

والحق يقول :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ۝ ﴾

(من الآية ٣١ سورة آل عمران)

فلا أحد يحبك أن يصح مضارة بين محمد وربه ؛ لأن محمداً رسول من عند الله مبلغ لقوب الله ومهجه ، وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى لا يرضى عن عبد يستغفر الله فقط ، ولكن لا بد أن يذهب العبد ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله ، فلا أحد يمكنه أن يقيم صلحاً مع الله من وراء محمد رسول الله ، فلا تفرقوا بين أمر الله وأمر رسول الله ، ومن يريد أن يصح مضارة بين الله ورسوله بأن يقول عن المحسنة إنها من عند الله ، وأن السيئة من عند محمد ، فهذا قول خامس

ما حكاية هذا القول ؟ إنهم إن ذهبوا إلى حرب فغنموا قالوا : « إن الله أسعدنا بالمنائم » . وإن هُزموا قالوا : « إن محمداً هو الذي أوقع بنا امرئاً » ، وكأن لمحمد تصرفاً دون تصرف الله . فإياك أن تُخضع بمن يحاول أن يعزّل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه .

إن محمداً قد بعثه الله وأنزل عليه القرآن .

وكان رسول الله حين نزلت الدعوة يأمل أن يستجيب له القوم الذين يؤمنون بالله وهم أهل الكتاب . وكانوا أقرب إلى قلبه من القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم أشركون ، وكان هناك معسكران : معسكر الفرس ، ومعسكر الروم ، وكان معسكر الفرس بعيد النذر - معاد الله - أما معسكر الروم فهو يؤمن بالله وبالكتب السابقة على رسول الله ولكنه كافر بمحمد .

والذي يؤمن بالله كان قريباً إلى قلب محمد عن كفر بالله ، وهذا دليل على أن عصية محمد قد أتت له من الله . وقد يتصرف المعنى إلى اليهود . فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من المصادفة أن تقل ثمارهم ومزارعهم ، فقالوا : « مرادنا وثأرنا في نقص منذ قدم هذا الرجل . وهل كان ذلك الأمر مصادفة أو أننا نجد به تعليلًا ماديًا ؟ »

فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنكروه بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وسلب مجيئه منهم السلطة الزمنية التي كانت لهم لأنهم كانوا أهل مال ، ويتعاملون بانربا ويشيرون العصبية ، ويتأخرون من أجل أن نطل لهم السيادة ، وهم أهل علم بالكتاب وحاولوا التجلوة بكلمات الله . فكانت لهم السيادة من ثلاث جهات . علمياً ومالياً ومنهجياً .

وعندما جاء الإسلام ألف بين الأوس والخزرج فبازت أسلحتهم وضاعت منهم السلطة التي صمعوها بالفرقة ، وضاعت منهم سيادة المال ، لأن الإسلام حرم الربا ، وصاعت منهم سيادة المنهج لأن الإسلام كشف تحريفهم للكتاب وأنزل الله كتاباً - وهو القرآن - غير قابل للتحريف .

وهكذا انتهت وسائل السيطرة ، لذلك وقعوا في الحزن وانشغلوا بهذا الهم وكان الواحد من اليهود لا يسارر الآخر من اليهود ولا يتناجوه إلا في أمر محمد ومادامت هذه المسألة قد شغلتهم إلى هذه الدرجة فلا بد أنها قد شغلتهم عن الرعاة والاهتمام بها .

هم انشغلوا عن الأسباب فكانت النتيجة هي ما حدث . ولكنهم حاولوا إلصاق ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا الأمر الحادث لهم ، وإما أن يكون تفسير ذلك هو أن السماء أرادت لهم عقاباً لأنهم حاولوا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك شغل وقتهم عن الأخذ بالأسباب وإما أن يكون ذلك من آفة سيادية فليإذا لم يلتفتوا إلى أن دين محمد هو المنقذ لهم مما هم فيه ؟

لقد كانوا يستعززون به لكنهم لم يؤمنوا به (فلما جلداهم ما عرفوا كفروا به) فنزل بهم أكثر من عقاب فالذين كانوا يتعاملون مع اليهود بالرياء امتنعوا عن ذلك ، وكذلك نقصت الزروع والثمر .

إذن فالمسألة جاءتهم بنقص من الأموال ؛ فقالوا ما قاله الله عما أورده الحق هل ألتستهم : « وإن نصيبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن نصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله » . أى كل من الحسنة والسيئة من عند الله . وما الحسنة وما السيئة ؟

الحسنة هي الظفر والعنيفة والسراء والرحاء والخصب . والسيئة هي المزعجة والمقتل والضراء والبؤس والجلب . هذا ما فهموه ، ونحن - المؤمنون - نفهم الحسنة فهماً دقيقاً ؛ فالحسنة في الشرع هي ما يأمر به الله ، والسيئة هي ما ينهى عنه الله ؛ بدليل أن المؤمن قد يصاب في عزيز لديه ثم يقف موقفاً إيمانياً في استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزني لن يرد ، فالأفضل أن أكسب به الجنة » . ويزيد على ذلك : « يكتمى عزاء الأجر عليه ، فانا لم أكن سأخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذي سأأخذه في صبري على مصيبي فيه » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا بقوله : إياك أن تظن أن الحسنة هي

ما تستطيع نفسك ، أو أن السيئة هي ما تشتمر منها نفسك ، لا ، فالمصائب في حُرْم
الشرع هو من حُرْم الثواب . ولذلك جاء القول : « قل كل من عند الله ، أي أن
الحسنة والسيئة من عند الله

وهل يصنع الله سيئة ؟ ونقول : نستغفر الله ، فالسيئة في نظر الإنسان والحسنة في
نظر الإنسان ، وكلها من عند الله ، ولكن إذا نسبنا الفعل إلى الله فكل ما يصدر عنه
حسن ، واختار المقاييس الصحيحة هو الذي يتعب . وعندما نحاول أن نحسب مثل
تلك الأمور بحساب الكمبيوتر تستقيم لنا النتائج .

ومثال ذلك : تلميذ أهمل في المذاكرة وفي حضور الدرس لذلك فهو يرسب آخر
العام ، ولكنه ينظر إلى الرسوب على أنه سيئة ، ولكنها في عرف الحق صموماً حسنة .
فنجاح مثل ذلك الخائب ضياع لمقاييس الاجتهاد ولا ذاك أحد ولا نعصر العلم .
وحينما وضع الله قانون أن من لا يستدكر يرسب ، فهذا إحياء للحسنة في آلاف
غيره ، ويكون الراسب نموذجاً واضحاً وواضحاً وتطبيقاً ، وخاصةً لسنة الكون .
وكذلك الذي لم يزرع أوصه أو تكامل عن آخرت أو أهمل الري ، فهو يأتي يوم
الحصاد ولا يؤتي ثماراً وهذا أمر سيئ بالنسبة له ، أما بالنسبة لقضية الحق الكونية في
ذاتها فهي حسنة ؛ لأن ذلك يدفع كل واحد إلى عدم إهمال أي سبب من الأسباب ؛
فالمصائب نتيجة عمله بفساد المصيبة على أنها سيئة ؛ لأن فيها مساة وإضراراً به ،
ولكن لو قاس مسها له بما فعله لوجد أن ذلك هو سنة الله ومن ثم لسنة الله تبديلاً .

وحين يضع الحق سبحانه وتعالى سنناً في كونه فالذي يأخذ بالأسباب يعطيه ،
ويحرم سبحانه من لا يأخذ بالأسباب .

وعندما نقيس الأمور بهذا المقياس نرى الناجح هو المجتهد ، والتكامل هو
الراسب ، والنتيجة كلها من عند الله تقيناً كويلاً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض أقوال طرف فإن كان مفراً بما فيه يتركه من غير
تعليق عليه ، وإن كانت قضية باطلة يكر عليها بالحجة ليطلعها ويحضرها .

وهذا يلعبنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن نلب قضايا الخصوم لعلنا بحيث لا نعرفها ، ولكنه يعرض قضية الخصوم عرساً ثم يكر عليها بالنقد ليرى - كما قلنا - المناعة الإيمانية ، حتى لا تفاجئ قضية كفرية عقيدة إيمانية ؛ فسبحانه يعرض قضايا الكفار ويوضح لنا : سيفولون كذا فقولوا لهم كذا ..

مثال ذلك : عندما قالوا : إن الله اتخذ ولداً قال الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

فهو سبحانه يعرض قضايا الخصوم ؛ لأن الذي يحاول أن يلب قضية الخصوم يكون مشفقاً منها ، لكن من يعرضها بنبه عقل السامع إليها ليبتليها ويقول : « ما هي دى نقاط الضعف فى هذه القضية » ..

وحينئذ قالوا : « وإن نصهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن نصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » أرادوا بهذا القول أن يصنعوا مضادة بين الله ورسوله ، فأوضح الحق سبحانه ؛ قل لهم يا محمد « كل من عند الله » ، وتبلى دقة الحق سبحانه فى أنه جعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكيلاً فى البلاغ عنه ، وكان من الممكن أن يسوق الحق القضية بدون « قل » .

لكنه سبحانه أراد فى هذه أن يوسط رسوله صلى الله عليه وسلم فى أنه يقول : « قل كل من عند الله » . و « كل » تعنى : كلاً من الحسنة ومن السيئة . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قضايا الوجود تتسق مع نظرة الإيمان .

ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء فى أفعال العباد ، وتساءلوا : هل يفعل العبد أى عمل بنفسه ، أو أن الله هو الذى يجرى على عباد الأفعال ؟ فإذا كان العبد هو الذى يفعل الفعل فمس العدالة أن يطفى الثواب أو العذاب جزاء ما قدم . وإذا كان الله هو الذى يجرى كل الأفعال فلماذا يعذبه الله ؟ ودخل العلماء فى متاهة كبيرة

وهنا نقول : يجب أن تفهم أن الحق حينها خلق الكون جعل فيه سناً ، ومن

عجيب الأمر أن السن تتنظم وتشمل وتضم المؤمن والكافر عما يدل على أنه لا أحد في كون الله أولى برؤية الله من الآخر ، بحق الذين لا يؤمنون بالله أدخلهم الحق في ربوبيته فلمر الأسباب التي خلقها استجيب لمن يخدمك وأعطيه المسببات ولا تلتصق إلى أنه مؤمن أو كافر لأنني أنا الذي حقته وأوجدته في الكون ، ومادمت أنا الذي أوجدته في الكون فلا بد أن أنكفل بكل ما يقيم حياته ، وأنا سأعرض منهجي ، وأقول لعبادي . أنا أحب هذا الفعل وأنا أكره هذا الفعل فمن يؤمن في سيكون له وصح آخر ، سيكون عبداً لله .

إذن والله بالالوهية مناط التكليف لمن يؤمن به ، والرب باربوية مناط الخلق والورق وقيومية الاقنيات بلخلق جميعا ، لكل العباد ، فالسن والنواميس الكونية تخدم الكل ، بدليل أن بعض السن كانت تحب أن تتمرد لأنها عصبية إيمانية لله . عندما ترى الله يعطي بعضاً من عباده وهم غير مؤمنين به

فالس والنواميس كجسد لله مجدها متلينة على ابن آدم من عدم شكره لله ، لكن الحق يوضح للخلق المسخر : هم خلق وأنا الذي استدعيتهم للوجود . فصنع الحق نواميس للكون تؤدي مهمتها للمؤمن وللکافر جميعا ، ثم أنزل سبحانه تكليفاً بواسطة الرسل . يوضح . أنا أحب كذا وأكره كذا فالذي يحبى يعمل بتكليفى . إذن فمناط الربوبية غير مناط الالوهية .

مناط الربوبية خلق من عدم وإعداد من عدم . ومناط الالوهية طاعة ، والطاعة تقتضى أمراً ونهياً فكل ما كان من مدلول الأمر والنهى - الذى هو التكليف - فهذه مطلوبات الالوهية

وكل ما كان من مطلوبات السن الكونية فهو من مناط الربوبية . والس الكونية لا تختلف أبداً فمثلا الذى يريد أن ينجح في مادة من المواد في مدرسة ما . لا بد أن يحصل على خمسين بالمائة من مجموع الدرجات . ومن يريد أن ينجح في مادة أخرى لا بد أن يحصل على أربعين بالمائة . وحين تنطبق هذه الشروط على طالب ما . فهل هذا الطالب هو الذى أنجح نفسه أو أن القاتون هو الذى أعطاه النجاح ؟

إن القانون هو الذي أعطاه لنجاح . وصحيح أن القانون لم يقل للطالب وهو يكتب الإجابة : إن مستوى إجابته سيحقق له درجات النجاح ، إنه قد بذل جهداً في التحصيل الدراسي ، وحقق له هذا الجهد النجاح في نطاق ما تم تقديره . فالقانون لا ينجح أحداً ، ولا ينسب في رموب أحد ، ولكن الطالب الذي يبذل جهداً ينجح ، والطالب الذي لا يبذل جهداً يرسب . وعلى ذلك فكل شيء في الوجود له قانونه

إن اليد المخلوقة لله ، لو نظرنا إلى حركتها ، لا نعرف كيف تزاوول مهمتها . وعندما يرفع أحدنا شيئاً من الأرض لا أحد فينا - غالباً - يعرف العضلات التي تتحرك لتحمل هذا الشيء . والذي فعل حقيقة هو الله - واليد سواء أعمل الإنسان بها خيراً ، أم شراً ، فالفاعل الحقيقي لكل فعل هو الله . وقلم الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد ، أو لصفع واحد آخر ، فاليد صالحة للمهمتين . وعندما يوجه الإنسان يده للصنع فهو يأخذ عقاباً ، وعندما يوجهها للسلام يأخذ ثواباً

صحيح أن الإنسان ليس له دخل في العمل ذاته ولكن له دخل في توجيه الطاقة الصالحة للعمل ، فالثواب أو العقوبة ليست للمعمل ولكن لتوجيه الطاقة . ولسكين - كمثال آخر - يذبح بها الإنسان الدجاجة ، أو يطعم بها إنساناً ، وهي لا تعصى توجيه الإنسان إن ذبح الدجاجة ، ولا تعصاه إن طعم إنساناً .

والحق قد خلق قانوناً للسكين أن تذبح ، والإنسان يقوم بتوجيه الألة التي خلفها الله صالحة لأن تذبح إلى الذبيح ، سواء أكان الذبيح فيها حرم الله ، أم فيها أحل ، إذن فالفعل هو الفاعل لكل شيء . ومادام الفعل في نطاق أوامر المكلف صاحب السنن فهو الذي يقوم بكل فعل .

وعندما تدقق النظر تجد أن كل فعل من عند الله ، وليس للإنسان سوى توجيه الطاقة ، فالشاب الذي يذاكر دروسه ، لم يخلق عقله ولا خلق عينيه اللتين يقرأ بهما ، ولكن عقله صالح أن يفكر في الأمر الحسن الصالح ، أو أن يفكر في الأمر الرديء ، وعينه صالحة لأن ينظر بهما في جملة هزلية أو ينظر بهما في كتاب .

إذن فهو ساحة بفعل هذا أو بفعل ذلك هل يفعل ذلك من وراء ربه ؟ لا ، إنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق سوى توجيه الطاقة التي خلقها الله صالحة لأن تفعل هذا وتفعل ذلك .

إذن فتوابك وعقابك يكونان على توجيه الطاقة الفاعلة إلى الأمر الصالح أو الأمر السيئ . فعندما يقول ربنا : « كل من عند الله » نقول : هذا حق وصدق ؛ فالذي أهمل في زراعة أرضه ولم يسمدها أو لم يروها وأصابه جلد فهذا نتيجة عدم توجيهه الطاقة المخلوقة لله في مجاها الصحيح .

لكن عندما يمتنع المطر فلا عمل في ذلك للإنسان . فالنواميس الكونية صنعها الله . ومن يأخذ بأسبابها تعطه وإن أصابت الإنسان سيئة في إطار هذه فهي من عند الإنسان ؛ لأنه لم يأخذ بالأسباب .

وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضاً على الجماعة ؛ فالذي يلعب المير ويؤتي له الخراب والسمار ، هذا من نفسه ؛ لأنه تلقى الأوامر من الحق بالألا يمارس تلك الألعاب . وأي أمة اشتكت من ضيق الأرض الزراعية وضيق لوزق فهذا بسبب الأمة نفسها ؛ لأن الفائمين بالأمر كان عليهم العمل لتنمية الموارد بالسببة لمر السكان

والذي يتعبنا ويرهقنا أنا نتحمل غملة أجيال ، فتجمعت المشكلات فوق رءوس جيل واحد . ولو أن كل جيل سبق قام بمسئولته لكانت مهمة الأجيال الخلفية أقل تعباً . فهدامت لدينا أرض صالحة لأن تثبت كان علينا أن نعدّها ونستغل المياه الجوفية في زراعتها . فالمسألة إنك كسل من أجيال سابقة . ومادام هناك مخزون في المياه الجوفية كان يجب أن نعمل العقل لنستبسط أسرار الله في الكون . فليس من الضروري أن يتزل المطر ، لأن الحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ نَزِيلٌ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الرمر)

وجعل الله للمياه مسارب في الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحوازة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه لمتشرة في مسطحات كبيرة للتبخر . لقد أحصى الله جزءاً من المياه في الأرض لصالح الإنسان . وفي البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليل على أن الحق وضع قانون تقطير المياه العذبة لتكون صالحة للشرب والري .

وكننا نعرف قانون التبخر . فعندما نأخذ بكوب من المياه ونشره على سطح حجرة مساحتها خمسة وعشرون متراً مربعاً فللمياه تبخر بسرعة . لكن لو تركنا كمية المياه نفسها في كوب الزجاج فلن تنقص إلا قليلاً قليلاً للعناية . إذن فكيف زاده المسطح ، كان البحر أسرع . وأراد الحق أن تكون ثلاثة أرباع اليابسة من المياه ، لأن الماء أصل كل شيء حي . وجعل بعضها من الماء المالح حتى لا تأكل ولا تتغير ، وتوجد هذه المياه في مساحة متسعة حتى تبخر وتنزل مطراً ، فما يجري في الوديان يجري ، والمتبقى من المياه يصنع له الحق مسارب في الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستعمله الإنسان ذكاه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالحق خلق لنا كل ما يمكن أن يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَنَى فِيهَا قُدْرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ١١ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَئِنَّ ١٢ ﴾

(سورة فصلت)

فليأكل أن تقولوا : إن السكان سيولدون عن القوت الذي في الأرض ، ولكن اعترفوا بخمول القدرات الإبداعية للاستنباط . فبعد أن يقول الله : « وقدر فيها أقواتها » فلا قول يصلى من بعد قول الله « وهب أن موظفاً - وظه المثل الأعلى - جاء في أول الشهر بتموين الشهر كله ووضع في مخزن البيت ، وجاء ظهر اليوم ولم يجد زوجته قد أعدت العشاء ، فماذا يحدث ؟ إنه يقص . ولقد وضع ربنا أقواتنا مخزونة

في الأرض ، ونحن لا نعمل بالقدر الكافي هل استنباط الخير منها . وسبحانه يوضح لنا : إن الإنسان إن لم يستمد بالنواميس التي خلقها الله له ، ولم ينمذ التكاليف أمراً ونهياً فلسوف يتعب الإنسان نفسه ؛ فتكون معيشته ضنكاً . سبحانه يقول :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١١﴾

سَكَّانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١١﴾

(سورة الشعراء)

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله . والكفر في المعنى العام هو ألا تشكر النعمة الله . وعندما نؤمن النظر بدقة لنرى قانون ربط لسبب بالمسببات ، وربط السنن الكونية بالكون والمكون له نجد أشياء عجيبة ، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغداً من كل مكان إذن فالقرية هي مكان السكر ، وليس مكان السكن فقط هو الذي فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكان كل مكين في بقعه ؛ له بقع حالية في مكين آخر نخدمه . وتلك القرية كفرت بأنعم الله .

والكفر في معناه ابواضح هو السر ، والقرية التي كفرت بأنعم الله هي التي سترت نعمة الله ، فنعمة الله موجوده ولكن البشر لذين في تلك القرية هم اللذين ستروا هذه النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض .

أر أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستبطنوها وستروها عن الخلق ، وفساد الكون إنما يأتي من هذين الأمرين :

أى أن هناك أمماً متخلفة ، كسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض . لو أن هناك أمماً أخرى تملك الثراء والخير وترويه في البحر حتى لا يذهب إلى الأسماك المتخلفة . والحروب الذي يلمسه في علاقات العالم ببعضه البعض يقول لنا : إن العالم هو القرية التي ضرب الله بها المثل :

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ أُمَمٌ مَطْمَئِنَّةٌ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذْنَفَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

ولمعرفة الأداء القرآني ، ن قوله - « فأذنفها الله لباس الجوع » ، ونعلم أن الذي يُداني هو الطعام ، والطعم يكون باللسان وحده ، أما اللباس فيعم كل الجسم ، والحق هنا يعطى الإدافة ولا يكون الدائق هو القم فقط بل كل الجسم ، فالقم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يدوق الجوع أيضاً

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية في مجالاتها التي حددها الله ، وعندما تنظم هذه السنن في حركتها فهي تعطي النتائج للإنسان ولو بعد حين ، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين يعمق يقولون . إن الأمراض الوراثية التي تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجترأهم عن أشياء مخالفة منهج السماء ، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجة السيرة من بعد ذلك ، وكذلك لأمة والجماعة .

لكن المسائل التي يقف فيها العقل فقط هي المصائب التي تصيب النفس بغير حملهم . وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال ، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل ، فالشيء الذي له مقدمات من أسباب تكاسل الإنسان عنها ، ثم أصابته كلفة فهذا من صن الإنسان في نفسه . أما الأشياء التي تأتي قدرية فهذا أمر مختلف . فإذا كان هبتنا قد وضع للإنسان أسباباً كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له : افعل ذلك حتى يحدث كذا ، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا . فعل الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكون في الكون ، ليلفت سبحانه الإنسان دائماً على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة ، فيحدث شيء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان - ما سبب ذلك ؟ ولماذا ؟ ومثال ذلك

الزلازل أو البركان أو السيل اجارف والرياح العاصف ، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها ، وهي أحداث نقول للإنسان :

بأن المسائل في الكون فيها رتبة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية بضرع إليها دائي لنسلم .

وجاءت بعض مدارس الفلسفة في ألمانيا - مثلاً - وقالت . إن وجود الشر في الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل ، ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أخرج ولا مشوه . وقالت مدرسة أخرى في العصر نفسه : لا . إن رتبة النظام في الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله لخرق القانون والشموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الساموس .

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام في الكون كدليل للكفر ، ومدرسة أخرى أنصتت الشواذ في الكون كدليل على الكفر . وكل من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر

ونقول لهم كلاهما غيبي ؛ الذي يريد منكم النظام سبباً لوجود إله حكيم ، والذي يريد الشذوذ سبباً لوجود إله قادر ، هذان لأمران موجودان في الكون ، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم مصنفين .

انظر إلى النظام في الكون الأعلى ؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهزم الكون كله . انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم ، إنها خاضعة لنظام محكم . فبما من تريد النظام دليلاً على حكمة مكون ، فالنظام موجود ، وبما من تريد الشذوذ دليلاً على أن هناك إلهاً يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة . والشذوذ إنما يتأتى من الأفراد ، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة ، فالذي يولد بعين واحدة مبصرة منجد مئات الملايين يمتلكوا البصر كاملاً .

لكن عندما يلقي الشذوذ في نظام الكون وحركة الأفلاك فالذي يحدث هو دمار للعالم .

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة بقول له . انظر إلى الفلك الأعلى .
ومن يريد الشدوذ دليلاً على أن هناك قوة تتحكم في ميكانيكة العالم بقول له . هذا
موجود ، ولكن الشدوذ موجود في الأفراد . فإن شد فرد فلا يعطب بقية الأفراد .

ونعرف - أيضاً - أن رتبة النعمة قد تلهي الإنسان عن المنعم فالإنسان منا يظل
لدة طويلة وأسانيه سليمة فلا يتذكر مسألة أسانيه ، لكن إن آله خرس واحد فهو
يتذكر أن له خرساً ، وكذلك إن آله إحدى عينيه ، أو إذا آله كُتبت فهو يجرى إلى
الطبيب . وهذه أمور لافتة حتى تُخرج الإنسان من رتبة النعمة عليه ليتذكر المنعم
بالنعمة . وعندما نرى إنساناً أكرمته الله بفقدان البصر ، فالواحد منا يقول . الحمد
لله . وعسك الإنسان ما عيبه مخافة أن نذهب بمركدك عندما نرى أبرص أو أعرج ،
وهذه هي وسائل إيضاح في الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة .

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التي تصيب الإنسان فرداً ، أو تصيب الأمة كمجموع
فنحن نجد ما قلعت يدها ، لأنها صنعت شيئاً يخالف انتوجه . فإن كان هناك
شيء خارج عن قدرة الإنسان فمنه نقول : هذه هي حكمة المكون حتى يلفتنا إلى
أنه المنعم . وهذا نرى الشواهد في الخلقة قلة لا كثرة ، ويموض الله من أصيب بشدوذ
في شيء بدوام ملكة في شيء آخر . ولذلك يقول الشاعر :

عميت جنياً والدكاه من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موثلاً
وعاب ضياء العبر للعقل رافداً لعلم إذا ما ضيع الناس حصلاً

وضربت المثل مرة بيهوفن الموسيقار العالمى الذى أطرب العالم بسفونياته . . إنه
كان أصم .

ولذلك نحن نسمع في لجنة العامة . كل ذى عامة جبار . فإذا كان الله قد جعله
وصيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعوضه بموهبة أخرى
ويلفت الناس فيها إلى صاحب الموهبة فيرون فضل الله عليه أيضاً . إذن فالمصائب
التي تحدث وليس للإنسان دخل فيها هي الملحظ الذى يجب أن نسته . وهذه هي
مكونات الحكمة كي يلتفت الإنسان دائماً إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود ولا تزال يده في الكون . فإذا حدثت حادثة فلا بد أن يلتصق لها حكمة . والحكمة خرق وخروج من النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها : « تعطى » .

ولذلك سمجرات بعض الرسل من هذا اللون ، فطبيعة النار أنها تحرق ، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام . أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجى إبراهيم من النار ؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مكث خصومه من أن يمسخوه . وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به ، وأشعلوا النار وأججوها . كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأخذ بفهامته لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتطرط مطراً يطفىء النار . لا فقد أراد الله النار ناراً متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفئ النار ، وأن يلقوه في النار ، وبعد ذلك يوضح الحق :

أما أزاول سلطان في الناموس ، لأن خالق الناموس وأعظمه متى شئت ، « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » أما لو حدثت المسألة الأولى وانطلقت النار ، لقانوا : آه لو لم تنطفئ النار ، وآه لو لم يزل الماء على النار

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوى الخصم فعندما تحدث أحداث لا دخل للإنسان فيها يقول : دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا في الكون . فميكانيكية الكون تحير العقول ، لأنها مصبوغة بدقة ، ولكنها لم تفلت من يد ربنا . ولذلك ترى في بعض الأحياء رياحاً عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئاً على الإطلاق . ومعنى ذلك أن الفترات تراكمت وتراكمت حتى صارت جداراً ، ويحدث ذلك معها حاولت الأجهزة العلمية التحكم في ذلك أو منعه .

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لدعة تقول : لقد كرمتك بالعقل ولكنني لم أدع لك كل النعم . فقد يوجد صاحب خريزة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان .

وعندما يحدث زلزال في منطقة ما ، فأول ما يخرج من المكان هي الحمير ، وهذا
لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآخِذٌ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَقَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العلق)

فهذا ما رأيت حدثا في الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه ، فلتعلم
أن الله فيه حكمة حتى ينفثنا إلى المكون الأعلى ، وحتى لا يظن أحد أن لميكانيكية
الكون رتبة ، إنما هي نظام يجره الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته

ولذلك يقولون : إن العقل الإلكتروني لا يخطئ ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة
ألا يخطئ ، لأنه كما تملؤه وتمد بالمعلومات سيخرج لك هذه المعلومات . ليس له
خيار في شيء . أما العقل البشري فهو قادر على الاستباط والاستكشاف وعدم ذكر
بعض المعلومات التي قد نمر . هذه هي العظمة .

ويقول بعضهم - كمثال آخر - إن المورد الصناعي لا يذبل ، يقول : إن عيبه أنه
لا يذبل لأن الذبول حيوية ، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه ، وأنه مجرد فقط .

وساعة يجري الحق سبحانه وتعالى شيئا في كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن
يلفت الكون إلى بقاء الفيومية العليا ولقدرة الإلهية في الكون ، حتى لا يعتز
بميكانيكية الكون . ولذلك يعرض القرآن بهيئة من هذه الأشياء ، إذا أخذتها
بحكم العقل فهو لا يقبلها ، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها في منتهى العقل .
مثال ذلك : سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح ، ما الذي حدث ؟ .

قال لعبد الصالح .

﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الكهف)

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له :

﴿ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ ۖ خُبْرًا ۝٦٨﴾

(سورة الكهف)

فيقول سيدنا موسى وهو من أولى العزم من الرسل :

﴿ قَالَ سَتَحَدِّثُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ حَدِيثًا بَاطِلًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾

(سورة الكهف)

فيحرق العبد الصالح السفينة وخرق السفينة في السطحية الفهمية شرًا ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعبد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابر ، عن الرعم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة ، فقال للعبد الصالح :

﴿ أَتَرَقَّبُ لِنُفْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝٧٠﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

لقد شك سيدنا موسى في ظاهر الأمر ، ولكن عندما يدرك الحكمة يهدأ حين الخير فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأحدها الملك الظالم الذي ياتخذ كل سفينة صالحة وسليمة عصياً

﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧١﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم ، وبالحرق لسفينة ستظل لأصحابها ، لأن بها عطايا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك . إذن ، كل شيء يجري على غير ما تشتهي سطحية الفهم البشري فلنعلم أنها ما دامت ليست من أحد ، وهي من المكون الأعلى فوراها حكمة .

وهو يوجد أكثر بشاعة من القتل ؟ لقد قتل العبد الصالح غلاماً . ما الحكمة في ذلك ؟ . إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً في فساد دين أبيه وعمله عن الكلب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يظنى .

ويقول قائل - وما ذنب الولد ؟ نقول : أنت لا تفهم الأمور ، لقد ذهب إلى الحق بدون تجرية في أن يطيع أو يعصى الله ، ذهب إلى رحمة الله مباشرة ، وهذا أفصل له . وكان في ذلك القتل للولد رحمة لوالديه ، فالشيء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس يكون الإنسان هو الذي فعل الضر بنفسه . . . وكذلك الأمة حين تخالف ناموساً شرعياً أو كونياً . لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلا بد أن الله فيها حكمة . وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم . فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستصعما أهلها أي طلبا من أهلها طعاماً :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا ۖ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ولم يطلب أي منها نقوداً ، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام لهاكلاء . وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان .

فقالوا لها : لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لكلاً . ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه ، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح : لماذا لا تأخذ منهم أجراً ؟

وأخيراً بوضح العبد الصالح لسيدنا موسى :

﴿ وَأَمَّا الْخِطَابُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسَخِّرَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا صَعِلْتُمْ عَنِ أَمْرِ ذَٰلِكَ تُلْوِيلٌ مَّا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴾ (٨٦)

(سورة الكهف)

فأهل القرية اللثام الذين طُلب منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز لعلاميين . فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية . إذن ، فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذي فعل الضر بنفسه ، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يتق بحكمة من يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شيء يصيبه بالراحة .

إن صاحب الإيمان يلتقي الأحداث بقلب قوى . فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه ، وإن كانت من ربه فهو يلتق بحكمة ربه . قل كل من عبد الله ، وهذا إيصاح لك حتى تفهم أن أى فعل هو من عند الله . فليس للإنسان فى الطاقة أى قاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية .

ومادام كل من عند الله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه فيقول سبحانه : « فإني هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » كأن منطق العقل والمكر يقودان إلى ضرورة الفهم . وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم . ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمراً يستوعبه العقل . وأحق يقول : « لا يكادون يفقهون حديثاً » وسأعني نقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم . أما عندما نقول . لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم .

والقول الثانى هو الأكثر بلاغة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

فإن جرت عليك سنة كريمة حيراً من الله ، أما إن أصابتك سيئة فبى لك فيه دخل فهي من نفسك . كأن المسألة قسماً : شئ لك فيه دخل ، وشئ لا دخل لك فيه . ولا بد أن تعتبره حسنة لأنه يقيم قضية عقديّة لى الكون

فاللؤمن بين لوم نفسه على مصيبة بما له فيه دخل ، وثقة بحكمة من يجرى ما لا دخل له فيه وهو الله . سبحانه . « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

سبئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا .

ومن هو الرسول ؟

الرسول مبلغ عمن أرسله إلى من أرسل إليه . وما دام رسولا مبلغا عن الله تعالى شيء يحدث منه فهو من الله

وعندما يقول الحق : « وكفى بالله شهيدا » أي لا يضرك يا محمد أن يقولوا : إن ما أصابهم من سبئة فمن عندك ؛ لأنه يكفئك أن يكون الله في صلبك ؛ لأنهم لا يملكون حل ما يقولون جزاء ، وربك هو الذي يملك الجزاء وهو يشهد لك بأنك صادق في التبليغ عنه وأنت لم تحدث منك سبئة كما قالوا .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى

فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

والطاعة للرسول هي طاعة الله ، وذلك أمر منطقي ؛ لأنه رسول ، فمن أطاع الرسول فطاعته طاعة الله ؛ لأن الرسول إنما يبلغ عمن أرسله .

ولذلك ففي المسائل الدلالية التي كان يفعلها سيدنا رسول الله كبشر وبعد ذلك يطرحها قضية من عنده كبشر ، وعندما يثبت عدم صحتها يعطينا رسول الله مثالا عن أماته .

فمن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يُلْفَحُونَ ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شيئا ، فمر بهم ، فقال : مَالِغُولِكُمْ ؟ قالوا قلت : كذا وكذا ، قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »^(١)

(١) رواه أحمد وابن ماجه وسلم واللفظ به

أى فى المسائل الخاضعة للتجربة فى المحمل والتى لا تدخل للنساء فيها . أما الأمور الخاضعة لنواميس الكون فلا يتركها للعباد . ومن العجيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتصرف فى شيء لم يكن الله فيه حكم مسبق ويعتد له الله بينه وبين نفسه فمحمد هو الذى يبلغنا بهذا التعديل لنشهد - واقعا - أنه صادق فى البلاغ عن الله ولو كان حل نفسه . وجاءت هذه الآية الكريمة بعد قول الحق سبحانه :

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ نَبِيًّا﴾

(من الآية ٢٩ سورة النساء)

والرسول - كما نعلم - هو من بلغ عن الله شرعه الذى يريد أن يحكم به حركة حياة الخليفة فى الأرض وهو الإنسان . وإذا ما نظرنا إلى المائة المأخوذة من الرأى والسبب واللام وجدنا الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾

(من الآية ٥١ سورة الحج)

إذن فالرسول قد يكون رسولاً بالمعنى المفهوم لنا ، وقد يكون نبياً ، كلاهما مرسل من الله . ولكن الفارق أن الرسول يحىء بشرع يؤمر به ؛ ويؤمر هو - أيضا - بنبيه للناس ليعملوا به ، ولكن النبى إنما يرسله الله ليؤكد سلوكاً نموذجياً للدين الذى سبقه ؛ فهو مرسل كالمسوة سلوكية . ولكن الرسول على إطلاقه الاصطلاحي يأتى بجميع جديد قد يختلف فى الفروع من المنهج الذى سبقه . وكلاهما رسول ؛ هذا يحىء بسلوك والسلوك يطبقه ، والنبى يأتى بالسلوك فقط يطبقه ليكون نموذجاً لمنهج سبقه به رسول .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل ، وجعل خاتم الرسل سيدنا محمداً بمعنى ذلك أن رسالته صلى الله عليه وسلم ستكون رسالة لا استدراك للنساء عليها ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رسالة لا استدراك للنساء عليها ، فكيف يعقل أن تكون رسالته موضوعاً لاستدراك البشر عليها ؟

٢٠

فإمام الله قد ختم به الرسالة ، وأمر عليه قوله : اليوم أكملت لكم دينكم

وأنتم عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، إذن فلم يعد للسماء استدراك على هذه الرسالة ، فكيف يأتي بعد ذلك إنسان معاصر أو غير معاصر ليقول . لا ، إننا نريد أن نستدرك كذا أو نقول : الحكم كذا أو هذا الحكم لا يلائم العصر إذا كان الله لم يجعل للسماء استدراكاً على الرسالة لأن الله أكملها وأنما فكيف يسوغ للبشر أن يكونوا مستدركين على الرسالة ؟ .

إن الرسول حين يضاف ، يضاف مرة إلى الله ، ويضاف مرة إلى المرسل إليهم ، لأنه واسطة الاتصال بين المرسل والمرسل إليه ، فإن أردت الإضافة بمعنى « من » الابتدائية ، تقول : رسول الله ، أي رسول من الله ، وإن أردت اللغاية من الرسالة تقول : رسول إلى الناس أو رسول للناس ، إذن فالإضافة تأتي مرة بمعنى « من » وتأتي مرة بمعنى « اللام » ، وتأتي مرة بمعنى « إلى » .

وأمر الرسالة ضروري بالنسبة للبشر ، لأن الإنسان إذا ما استقرى وتتبع الوجود كله بمطرقته وبمقوله السليم من غير أن يجيء له رسول ، فإنه يهتدي بفطرقته إلى أن ذلك الكون لا يمكن أن يكون إلا عن مكنون له قدرة تناسب هذه الصفة المحكومة بالبدية . ولا بد أن يكون قيوماً لأنه مدنا دائماً بالأشياء ، لكن أنعرف بالعقل ما تريد هذه القدرة ؟ نحن ننتهي فقط إلى أن وراء الكون قوة ، هذه القوة لها من القدرة والحكمة والعلم والإرادة وصفات الكمال ما يجعلها تخلق هذا الكون العجيب على تلك الصورة البديعة ذات الهندسة الدقيقة ، وهذا الكون له غاية . أمكن - إذن - للعقل أن يضع اسماً لهذه القوة ؟ . فكونها قوة يستلزم أن يكون لها قدرة وحكمة ، لكن لا نعرف اسمها ، فكان ولا بد أن يجيء رسول ، هذا الرسول يعطى للناس جواب ما شغلهم وهو : ما القوة التي خلقت هذا الكون وجعلته بهذه الصفة العجيبة .

ويقف العقل هنا وقفة ، فمتدا يأتى الرسول ويقول : أنا أدلكم على هذه القوة اسماً ومطلرباً ، كان يجب على الخلق أن يعرفوا آدابهم له ، لأنه سيحل لهم ذلك اللفظ الذي رأوه بأنفسهم وأوقعهم في الحيرة - المؤمن منهم والكافر يؤس بهذا - لأنه يجد نفسه في كون تخدمه فيه أجناس أقوى منه ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ،

واحسان لا تدخل تحت طاقته ولا تحت قدرته وتصنع له اشياء لا يفهم عقله كيف تعمل ، فكان الواجب أن يؤمن

لقد صربنا مثلاً وقلنا : لو أن إنساناً وقعت به طائفة أو انقطع به طريق في صحراء ، وليس معه زاد ولا ماء ، وبعد ذلك جلس فعليه الرم خام ، ثم استيقظ فوجد مائدة منصوبة فيها أطيب الطعام وفيها الشراب الساتع . بالله قولوا ل : ألا يشتمل عمله بالمكر فيمن جاء بالأطعمة قبل أن يتناول منها شيئاً ؟ لذلك كان من الواجب قبل أن نتفع بهذه الاشياء أن نلفت دهنا : من الذي صنع هذه الصنعة ؟ ومع ذلك تركنا الله فترة حتى يفكر ، حتى إذا جاء رسول يقول : القوة التي تبحت بها بمفلك هذه اسمها كذا ومطلوبها منك كذا ، وأنت كائن ومخلوق لها أولاً وإليها تعود أخيراً

وخلاصة المسألة أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الخلق أحد لهم مائدة الكون ، وفيها الأجناس التي تخدمه - كما قلنا - : سلسلة الأجناس وخدمتها تجعلك تتعجب وتتساءل : كيف يخدمني الأقوى مني ؟

الشمس التي لا تدخل تحت قدرتي ، والقمر الذي لا أستطيع أن أتناوله ، والريح التي لا أملك السيطرة عليها ، والأرض التي لا أستطيع أن أتناغم معها ، كيف تؤدي لي هذه الخدمات ؟ لا بد أن يكون هناك من هو أقوى مني ومنها هو الذي سحرها لخدمتي . وهل رأيت شيئاً من هذه الاشياء امتنع أن يؤدي لك الخدمة أو نفص منها شيئاً ؟ لم يحدث ، لأنها مسخرة ، فإذا جاء رسول من الله ليحمل لنا لرح هذه الحياة ويدسا على موجدتها ، كان يجب أن نفتح له آذاننا ونسمعه ، فإذا ما قال لي . الذي خلق لك الكون هو الله ، والذي خلقك هو الله وهو صانعك ، وأرسلني بمنهج لك كي تؤدي مهمتك كما ينبغي بأفعل كذا ولا تفعل كذا ، وأنت صائر إليه لبحاسبك حل ما فعلت ، وهذا المنهج هو خلاصة الأديان كلها .

ولذلك يكون معنى الرسول ضرورياً وبعد ذلك يؤيده سبحانه بمعجزة تثبت صلفه ، ومادام قد أرسله بالمنهج الذي هو افعل ولا تفعل ، فهذا يعني أن تطيع هذا الرسول ، ويقول ربنا في آية أخرى .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٦٤ سورة النساء)

أى ليست الطاعة ذاتية له ، إنما الطاعة صادرة من الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتميز عن سائر الرسل ، لأن معجزته التى تزيد صدقه فى بلاعه عن الله هى عين كتاب منهجه فى الأصول ، وكل الرسل كانت على غير ذلك . كان الرسول يأتى بمعجزة ويأتى بكتاب منهج ، العصا واليد البيضاء كانت لموسى هذه معجزته ؛ ولكن منهجه فى « التوراة » ، إذن فالمعجزة منفصلة عن المنهج .

سيدنا عيسى معجزته مثلاً : أنه يبرئ الأكمه والأبرص ، لكن كتاب منهجه « الإنجيل » ، إلا سيدنا رسول الله فإن معجزته وهى القرآن هى عين منهجه ، لأن الله أراد بلدين اختام ألا تفصل فيه المعجزة عن المنهج .

إن معجزات الرسل السابقين على رسول الله من رآها يؤمن بها ، والذي لم يرها يسمع خبراً عنها ، وإن كان واثقاً من أخبره بصدقه ، وإن لم يكن واثقاً - لأنها ليست أمامه - فلا يصدقه ، ولولا أن الله اختبرنا بهذه المعجزات فى القرآن لكان من الممكن أن نكف فيها .

أما معجزته صلى الله عليه وسلم فباقية بقاء منهجه ، ويستطيع كل مسلم أن يقول فى آخر عمر الدنيا : محمد رسول الله وتلك معجزته ، أما أخبره من الرسل فلا يأتى أحد ويقول . فلان رسول الله وتلك معجزته ، لأنها حدثت وانتهت ، أما القرآن فهو بلى بقاء الرسالة والكور .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يأتى بالبلاغ عن الله فليخلق بيننا . أنا أرسلت الرسول ليطاع . والمنطق أن يقول القرآن : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ؛ لأن الرسول جاء مبلغاً عن الله ، فلباشرك هو رسول الله ، وعرفنا من قبل أنه إذا ما توارد أمر الطاعة من الله مع أمر مع رسول طيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول تفصيلاً ، فطيع الله فى الأمر الإجمالى وطيع الرسول فى الأمر التفصيلي ، وإذا كان الله لم يحى بحكم لا يجعل

ولا مفصل ، فقد جاء التشريع من الرسول بالتفويض الذي فوض الله فيه رسوله بقوله :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

(من الآية ٧ سورة المائدة)

فالرسول الوحيد الذي أمناه الله تعريفاً في التشريع هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل ارسـل بلغوا عن الله ولم يبلغ واحد منهم عن نفسه شيئاً إلا سيدنا رسول الله ، فقد فوضه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » - إذن فالرسول مهمة داخلية في إطار القرآن أيضاً ، ومثال ذلك في حياتنا نجد من يقول لموظف : إن الموظف الذي يغيب خمسة عشر يوماً في قانون الدولة يفصلونه ، فيأتي موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذي تقوله من فصل الموظف غير دستوري .

نقول له : إن الدستور قال في هذه المسألة : وتؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين في هذا المجال ، إذن فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً يطبق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكل بنود قانون العاملين تدخل في التفويض الذي نص عليه في الدستور للهيئات أو لجان التي تضع التشريعات الفرعية ، فكذاك إذا قيل لك : هات دليلاً من القرآن على أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وأن العجر ركعتان ، وأن الظهر أربع ركعات ، وأن العشاء أربع ركعات ، هات دليلاً من القرآن على هذه ، تقول : دليل من القرآن « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول صلى الله عليه وسلم كى يضمن سلامة المسج من هذه التحريفات التي يفترونها يقول .

« لَا أَتَيْنَ أَحَدَكُمْ مَكَّةَ عَلَى لَرِيكَتِهِ ، يَأْتِيهِ أَمْرٌ مَّا أَمَرْتُ بِهِ ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ ، فَيَقُولُ : لَا أُعْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَتْبَعُهُ » .

وفي رواية أخرى : عن المقدم بن معلى كـرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ألا هل عصي رجلٌ يتلّفه الحديثُ غنى وهو متكىء على أريكته ، فيقول : بيتنا وبهتكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحلّناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله ،^(١) .

أورى هذا الحديث عن الرسول كى تعرفوا غباء انقائون بهذا ، ولنقل لهم : قولكم هذا دليل على صدق الرسول ، بالله فلو لم يأت واحد بمثل قولكم بأنه لا يوجد إلا القرآن ، بالله ماذا كنا نقول للمحدثين الذين رويوا حديث رسول الله ، ولو لم يقولوا هذا لقلنا : النبى قال : يتكرّر رجل على أريكته ويتحدث ، ولم يتكلم أحد بما يخالف هذا الكلام . إذن توجد هؤلاء دليل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما دام الله قد أرسنه صلى الله عليه وسلم منه إلى خلقه فيكون مع هذه الرسالة الطاعة والطاعة هي : الاستجابة للطلب . وأنواع الطلب كما يقول الذين يشتغلون في البلاء والنحر كثيرة ، فمرة تسمى شيئاً مستحيلاً مثل قول القائل : ليت الكواكب تنسوي فأنظّمها

ليت الكواكب نددو لي فأنظّمها
صعود مدح فما أرضى لكم تلمس
والكواكب لن تنزل بطيئة الخلال . أو كفون الشاعر .

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشب
هذا لون من الطلب يدل على أن الطلب محبوب ، لكنه لا يقع وقد يقع ، وكذلك الاستعظام طلب شيء لأنك تستفهم عن شيء كقولك لن تزوره : مَنْ عندك ؟ . وأما أن نطلب شيئاً ليعمل فهذا هو الأمر ، لو تطلب شيئاً ليجتنب فهذا هو النهى ، فتكون الطاعة هي . أن نجيب طالباً إلى ما طلب .

والطالب إما أن يطلب بأمر لفعله وإما بنهى ليجتنبه . وإذا أطلقت الطاعة إطلاقاً عاماً فهي لا تنصرف إلا لطاعة العبد لربه ، وبعد ذلك نقول . الولد أطاع أباه ، الطالب أطاع أستاذه ، العامل أطاع معلمه ، فهذه طاعة مضافة إلى مطاع ،

(١) رواه الترمذى في العلم واللفظ له ، ورواه أحمد وابن ماجه .

لكن إن أطلقت كلمة الطاعة فهي تنصرف إلى طاعة العبد لله ، وهذه أسلم أنواع الطاعات^١ ، لذا^٢ .

لأن أمر كل أمر ، أو نهى كل نهي ، قد يشكك فيه أنه أمرٌ بكذا ليعود عليه بالفائدة ، أو نهىٌ عن كذا ليعود عليه بالفائدة ، لكن إذا كان الذي طلب منك هو في حق عملك ومن انتهائك ، فهذه مسألة لا يكون فيها شبهة ، والذي يشكك الإنسان في الطاعة هو المخالفة أن يكون الطالب قد طلب أمراً يعود عليه بالمنفعة ، أو نهى عن أمر يعود على لئامه بالمنفعة أو يدفع عنه مصرة . لكن إذا كان الطالب له كل صفات الكمال المطلق قبل أن توجد أنت ، فوجودك وعملك وعدم عملك لا يعود عليه بشيء ، فتكون هذه هي أسلم أنواع الطاعة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصي الله »^(١) .

إن المنافقين هم الذين يتبعهم وجود نور لأنهم ألفوا الحياة في ظلام ، ويرغبهم وجود عدل ؛ لأنهم استمروا الحياة في الظلام ، لذلك فهم يحاولون أن يتصيدوا شيئاً ليقفوا في أمر هذه الدعوة ، فقالوا : أما سمعتم لصاحبكم . إنه قارب الشرك .. يقول : لا تعبدوا إلا الله ومع ذلك يريد أن يجعل من نفسه رباً له حب وله طاعة

وينزل الحق على رسوله قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

إذن فالطاعة هنا ليست ذاتية للرسول ، لأنها إما بلاغ من الله في النص الجزئي ، وإما بلاغ من الله في التفويض الكل ، وعادامت بلاغاً من الله في التفويض الكل فيكون الله قد أمّنه أن يشرع : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ما هو مقابل الطاعة ؟ . إنه التوكل والعصيان ، ورأينا الناس تنقسم تجاه الرسول إلى قسمين : قسم يطعونه في « افعل ولا تفعل » ، وما لم يرد فيه : « افعل »

(١) رواه ابن أبي سلمة ، ورواه البخاري وسلم

ولا تفعل ، ، فهو يدخل في حكم المباحات ، إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ، فالذين يستجيبون للرسول أى يطيعونه فى ، الفعل ولا تفعل ، هم من أقبلوا على النجى . والذين لا يطيعونه فقد ، تولوا ، أى أعرضوا وصدا .

انظروا إلى الحق سبحانه وتعالى كيف يحصى نفسه الرسول فيقول سبحانه ، ومن تول لها أرسلناك عليهم حفياً ، فإلى يتول ولا يطيع الرسول ، فالحق لم يرسلك يا محمد لترغمهم على الإيمان .

وهناك فرق بين ، أرسلناك لهم ، أو ، أرسلناك إليهم ، ، و ، أرسلناك عليهم ، . فـ ، أرسلناك لهم ، تعنى أنك تبلغ فقط ، إنما ، عليهم ، فهى تعنى لتحملهم على كذا ، أى يجب أن تتب يا محمد إذا أرسلناك للناس - لا على الناس - لتبلغهم ، فمن شاء فليطع ومن شاء فليحص ، فلا تهجد نفسك ونظن أننا أرسلناك عليهم لترغمهم على أن يؤمنوا ، فتكلف نفسك أمراً ما كلفك الله به :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهُمْ نَفْسٌ وَلكِنْ أَفْهَى يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٢٧٢ سورة البقرة)

والحق يقول أيضاً :

﴿ قَدْ كَرِهَ إِيمَانُ أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ ۝ ﴾

(سورة النازية)

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

« جبار » يعنى تخبرهم على أن يطيعوا . فالإجبار يتناقى مع التكليف ويتناقى مع دخول الإيمان طواعية ويتناقى مع الاختيار . « فما أرسلناك عليهم حفياً » والحفياً هو : الحافظ ببالغة ، نقول مثلاً : هذا حافظ مال فلان ، وهذا حافظ مال الناس جميعاً يعنى عنده مبالغة فى الحفظ ، إذن فالمبالغة جاءت فى تكرير الحدث فهو يحفظ

لذلك الإنسان ولغيره . والحق يؤكد ذلك لمصلحته صل الله عليه وسلم ، لأنه سبحانه بين لنا شغل رسول الله بأمته ، وأنه يجب أن يكونوا جميعاً مؤمنين ملتزمين مطيعين ، ولذلك يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٤٦﴾

(سورة الشعراء)

إنهم لا يؤمنون ، فيوضح له سبحانه : أرح نفسك ، فعليك البلاغ فقط . وهكذا يحفف الله مهمة الرسول .

ويجد أغلب عتبات الله لرسول الله ، لا لأنه خالف ، ولكن لأنه شغل نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة ، مثل من ينيرون قصة ابن أم مكتوم ، فيقولون . السبي أعظم ، ولذلك قرعه الله وروحه .

نقول لهم : كان الرسول يرحب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون ، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمناً ويريد أن يستعهم ، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه ! لكن النبي صل الله عليه وسلم ترك السهل وذهب للصعب ، فكانه سبحانه يتساءل : لماذا أتيت نفسك ؟ وما عليك ألا يزكي ، أي ما الذي يجعلك تنكب ، إذن فهو يلومه لمصلحته لا لأنه خالف

فكان الحق سبحانه وتعالى حينها يقول لرسوله صل الله عليه وسلم : « فما أرسلتك عليهم حفيظاً » ، ثم قاله لينخف عن الرسول . إذن الحفيظ هو الذي يحافظ على من يلفقه أمر الله وأن يكون سائراً على منهج الله . إن أراد أن ينصرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون في التكليف أو لا يدخلون .

إذن فالحفيظ هو المهيم والمسيطر ، كما قال في الآيات الأخرى . والمسيطر أو الجبار هو الذي يحملهم على الإيمان . . والكلام في الطاعة المقصودة لله . وأن تنفذ جوارحك ما يأمر به سبحانه فيها تسمعه أنك ما يتلقى به لسانك ، وليست الطاعة أن تقول : يا رسول الله نحن طائعون ، وبعد ذلك تحاول أن تخدش هذه الطاعة بأن

تجعلها طاعة لسان وليست طاعة جوارح . فطاعة اللسان دون الجوارح غير محسوبة من الإيمان .

ولهذا يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَنَقُولُكَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ
بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴾

هنا يوضح الحق لرسوله : ستعرض لطائفة من أمة الدعوة وهم الذين أمرك الله أن تدعوهم إلى الدخول في الإسلام ، - أما أمة الإجابة لهم الذين استجابوا لله وللرسول وأمنوا فعلا - إن هؤلاء يقولون لك حين تأمرهم بشيء أو تطلب منهم شيئا أمرا أو نهيا : « يقولون طاعة » يعنى : أمرنا وشأننا طاعة ، أى أمرك مطاع ، « فإذا برروا من عندك بيئت طائفة منهم غير الذى تقول » ، ويقال : برر أى خرج لبراء ، والبراز هى : الأرض انقضاء الواسعة ، ولذلك يقول المقاتل من يتحداه البرزلى ، أى اخرج من الكى أو الحصن ، وكان العرب سابقا لا يقضون حاجتهم في بيوتهم ، فإذا ما أرادوا قضاء حاجتهم ذهبوا إلى الخلاء البعيد ، وجاء من هذه الكلمة لفظ يؤدي قضاء الحاجة في الخلاء .

« فإذا برروا من عندك » أى اخرجوا ، فهم يديرون أمر الطاعة التى أمروا بها في ربهم فوجدونها شاقة ، فيبيتون أن يخالفوا ، ونعرف أن كلمة « بيئت » تعنى المأوى الذى يؤوى الإنسان . ولحس أوقات الإيواء هو الليل ، فسموا البيت الذى نسكنه « مبيتا » لأننا نبيت عادة في البيت المقيم في مكان والمكون من حجرات ، والمستور ، ويقولون . هذا الأمر بيئت بليل ، أى دبروه في الليل ، وهل المراد ألا يبيتوا في

النهار ؟ لا ، لكن اشألع أن يبتوا في ليل . يفعلون ذلك وهم يعبدون عن الأعون ، فيديرون جيداً ، وإن كان المقصود هو التبييت في ظلام فهذا المعنى يصلح أيضاً ، وإن كان سراً فالمعنى يصح أيضاً .

إذن فالأصل في التبييت إنما يكون في البيت . والأصل أن تكون البيوتة ليلاً ، ومدار المادة كلها الاستخفاء ، فإذا بُيت في ظلام يقول إنه بُيت بليل ، وإذا بُيت سراً نقول : بُيت بليل أيضاً .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول » أي إنهم إذا ما خرجوا يبتوا أمراً غير الذي تقول ، فهم يعلنون الطاعة باللسان بينما يكون سلوكهم على العكس من ذلك ، فسلوكهم هو العصيان أو « طاعة » غير الذي تقولها . فإن قلت : افعلوا فلن يفعلوا ، وإن قلت : لا تفعلوا فهم يفعلون عكس ما تأمر به . إنهم يطيعون أمراءهم وشياطينهم .

« ويقولون طاعة فإذا برروا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول » يعني قالت طائفة : أمرنا وشأننا طاعة لما تقول ، أو أطيعناك طاعة ولكنهم يبتون غير ما تقول فهم إذن على معصية « والله يكتب ما يبتون » وسبحانه يكتب نتيجة عليه ، وجاء بكلمة « يكتب » حتى يعلموا أن أفعالهم مسجلة عليهم بحيث يستطيعون عند عرض كتابهم عليهم أن يقرأوا ما كتب فيه ، فلم يكن مكتوباً فقد يقولون : لا لم يحدث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من هذه الطائفة ، لأنها تستبطن أمر الدهوة ، لذلك بوضح الحق : إنك لن تنصر بمن أرسلت إليهم وإنما تنصر بمن أرسلك ، فإليك أن يقال ذلك من هزيمتك أو يتعلها نحو الدعوة . فإذا حدث من طائفة منهم هذا فـ « أعرض عنهم » أي لا تقاضهم في أمر من هذه الأمور ودعمهم ودع الانتقام لي ، لأنني سأنصرك على الرغم من مخالفتهم لك ، والله إلى أمر الله الذي أرسلك .

ونعلم أن المصلحة في كل الرسائل إنما تكون عند من أرسل ، ولكن المرسل إليه قد تنصبه الدهوة الجديدة ، لأنها ستخرجه عن هوى نفسه ، وستزمت طيشه ، فالذي أرسلك يا محمد هو الضامن لك في أن تنجح دهنك

« فاعرض عنهم ونوكل حل الله وكفى بالله كيلاً » لماذا ؟ لأن الذين يؤمنون بك محدودو القدرة ، وحدهودو الحيلة ، وحدهودو العدة ، ولكن الذي أرسلك يستطيع أن يجعل من عدد خصومك ومن عُدَّة خصومك جنوداً لك ، ويهرك من حيث لا تحسب . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى بدأ قضية الإسلام وكان المؤمنون بها قلة ، فلو جعلهم كثرة لقاتلوا : كثرة لو اجتمعت على ظلم لنجحت ، ولكن عندما تكون قلة وتنتجج ، فهذا حال طيب ويشير على أنك لست منصوراً بهؤلاء وإنما أنت منصور عند الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ٨٢

وإذا سمعت كلمة « أفلا » فاعلم أن الأسلوب يفرع من لا يستعمل المادة التي بعده . « أفلا يتذكرون القرآن » أي كان الواجب عليهم أن يتذكروا القرآن ، فهناك شيء اسمه « التدبر » ، وشيء اسمه « التذكر » ، ثالث اسمه « التذكر » ، ورابع اسمه « العلم » ، وخامس اسمه « التأمل » ، ووردت كل هذه الأساليب في القرآن ، « أفلا يعلمون » ، « أفلا يحفلون » ، « أفلا يتذكرون » ، « أفلا تتذكرون » . هي إذن تدبر ، تفكر ، تذكر ، وتمش ، وعلم .

وحين يأتي مخاطبك يطلب منك أن تستحضر كلمة « تدبر » ، فمعنى هذا أنه واثق من أنك لو أصلت عقلك إحصالاً قوياً لوصلت إلى الحقيقة المطلوبة ، لكن الذي يريد أن يثبثك لا يبه فيك وسائل الضيق ، مثل التاجر الذي تدخل عنده لتشتري قميصاً ، فيعرض قميصه ، ويريد أن يثبت لك أنه قميص طبيعي وقوي وليس صناعياً ، فيبته لك ويحاول أن يمزقه فلا يتمزق ، إنه يثبت فيك الحواس الناقلة ، وإذا نيه فيك الحواس الناقلة فمعنى ذلك : أنه واثق من أن إعمال الحواس الناقلة في

صالح ما ادمه ، ولو كان قياشه ليس في صالح ما ادمه لحاول خداعك ، لكنه يقول لك : انظر جيدا وجرب .

والحق يقول : « أفلا يتدبرون القرآن » والتدبر هو كل أمر يحرص على العقل له فيه عمل ففكر فيه لتتظرن دليل صدقه ، هذه أول مرحلة ، فإذا ما علمت دليل صدقه فانظر التهمة التي تعود عليك لو لم تعطلها ، و« تدبر » تعني أن تنظر إلى أديار الأشياء وأعطائها ، فالرسول يبلغك : الإله واحد ، يبحث في الأدلة بفكره ، فإذا ما انتهت إليها أمنت بأن هالك إلهاً واحداً . وإليك أن تقول إنها مسألة رفاية أو سفسطة ، لأنك عندما تنظر العاقبة ماذا ستكون لو لم تؤمن بالإله الواحد . سيكون جزاءك النار .

إذن فتدبرت تعني : نظرت في أديار الأشياء وحاولت أن ترى المواقف التي تحدث منها ، وهذه مرحلة بعد التفكير . فالتفكير مطلوب أن تتذكر ما عرفت من قبل إن طرأ عليك نسيان . فالتفكير يأتي أولاً وبعد ذلك يأتي التدبر . ولنت بقول « مثلاً - لايتك : لكي يكون مستهلك عالما وتكون مهندسا أو طبيباً عليك أن تذاكر ولتجهد ، ففكر الولد في أن يكون ذا مكانة مثل المصنفين في المهن المختلفة في المجتمع ، ويبلل الجهد .

إذن فأول مرحلة هي : التفكير ، والثانية هي : التدبر ، فإذا غفلت نقول لك : تذكر ما لكزت فيه وانتهيت إليه وتدبر العاقبة ، هذه كلها عمليات عقلية . فالتفكير يبدأ بالعقل ، والعقل ينظر أيضا في العاقبة ثم تعمل الحافظة لتذكرك بما فات وبما كان في بؤرة الشعور ثم انتقل إلى حاشية الشعور ، فإذا كنت قد تعطلت الأمر لدانك يقال . عقلك . فإن فهمت ما عقله غيرك فقد علمت ما عقله فلان .

إذن فليس ضروريا أن تكون قد انتهيت إلى العلم بعقلك ، بل أنت أخذت حصيلة تعقل غيرك ، ولذلك عندما ينشئ ربا عن واحد العلم فإنه قد نفى عنه التعقل من باب أولى ، ذلك أن العلم يعني لفترته على تعقل قدرات غيره ، دون الوصول إلى قوانينها وقواعدها وأصولها ، إنه فحسب بعلم كيف يستفيد وينتفع بها ، وفي حياتنا اليومية نجد أن الأمي يتسبح بالتليفزيون ويتسبح بالكهرباء ، أي انتفع بعلم غيره . لكنه لا يتعقل قدرات ذلك العالم . إذن فدائرة العلم أوسع ، لأنك تعرف بعقلك أنت . أما في دائرة العلم فإنك تعلم وتفهم ما عقله سواك .

ولذلك فعندما يأتي ربنا ليعرض هذه القضية يقول :

﴿وَذَاقِلْ لَهُمْ أَتَعُوا مَا أَرْسَلَ اللَّهُ فَتَأْوِيلُ نَتِيعِ مَا تَعِبَ عَلَيْهِ ءَابَاءَهُمْ أَوْ لَوْ
كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(سورة البقرة)

وفي المعنى نفسه يأتي في آية أخرى عندما يقول لهم :

﴿وَإِذْ قَبِلَ فَهُمْ تَنَآوَوْا إِلَيْنَا مَّا أَرْسَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَهَدَنَا
عَلَيْهِ ءَابَاؤُنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

(سورة المائدة)

في الآية الأولى قال سبحانه : « لا يعقلون » لأنهم قالوا : « بل نتبع ما آلفينا عليه
آباءنا » بدون طرد لغيره ، وفي الثانية قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » بإصرار
على رفض غيره والخضوع لسواه ، فقال : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا
ولا يهتدون » ، وسبحانه هنا نفى عن آباؤهم العلم الذي هو أوسع من نفي التعقل ،
لأن نفي التعقل يعنى نفي القدرة على الاستنباط . لكنه لا ينفي أن يتفهم الإنسان بما
استنبط غيره

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .. »
والحق سبحانه وتعالى حينها يحث المستمعين للاستماع إلى كلامه وخاصة المخالفين
لمشجته أن يتدبروا القرآن ، معناه أنه يجب منهم أن يعملوا عقولهم فيها يسمعون ، لأن
الحق يعلم أنهم لو عملوا عقولهم فيها يسمعون لانتبهوا إلى قضية الحق بسوء جدال ،
ولكن الذي يجعلهم في مواقف يعلنون الطاعة « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم
غير الذي تقول » ، إن هذا دليل على أنهم لم يتدبروا القرآن ، وقوله الحق : « أفلا
يتدبرون » تأتي بعد تلك الآية ، كأنها جاءت ودليلها يسبقها ، فهم لو تدبروا القرآن
لعلموا أن الرسول صادق في البلاغ عن الله وأن هذا كلام حق .

وبالله حين يبيتون في نرسهم أو يبيتون بليل غير الذي قالوه لرسول الله ، فمن
الذي قال لرسول الله : « إنهم يبيتوا هذا » ١٩

إذن فلو تدبروا مثل هذه لعلموا أن الذي أخبر رسول الله بسرائرهم ونجوتهم ومكرهم إنما هو الله ، إذن رسول الله صادق في التبليغ عن الله ، ومقدام رسول الله صادق في التبليغ عن الله ، فتعود للآية الأولى : من يبع الرسول فقد أطاع الله ، وكل الأبيات يخدم بعضها بعضاً ، فالقرآن حين نزل باللسان العربي شاء الله ألا يجعل كل مستمع له من العرب يؤمن به أولاً ، لأنهم لو آمنوا به جميعاً أولاً لقالوا : إيمانهم بالقرآن جعلهم يتغاضون عن محدى القرآن هم . لكن يظل قوم من بلواجهين بالقرآن على كفرهم ، والكافر في حاجة إلى أن يُفَارَصَ ويُعَارَضَ . فإذا ما وجد القرآن قد تحداه أن يأتي بمثله ، وتحده مرة أن يأتي بعشر سور من مثله ، وتحده بأن يأتي بأقصر سورة من مثله ، هذا هو التحدي للكافر . ألا يبيح فيه هذا التحدي هزيمة المعاد ؟ ولم يقل منهم أحد كلمة ، فما معنى ذلك ؟ معناه . أنهم مقتنعون بأنه

لا يمكن أن يصلوا لذلك واستمروا على كفرهم وكانوا يجهلون ويقولون ما يقولون . ومع ذلك فالقرآن يمر عليهم ولا يجهلون فيه استدراكاً .

كان من الممكن أن يقولوا . إن محمداً يقول القرآن معجز وبلغ وقد أخطأ في كذا وكذا . ولو كانوا مؤمنين لأحسوا ذلك ، لكنهم كفارون والكافر همه أن يشيع لى خطأ من القرآن ، وبعد ذلك يأتي قوم ليست لهم ملكة العربية ولا فصاحة العربية ، ليضولوا إن القرآن فيه غشائيات ! فكيف يأتي لهم ذلك وليس عندهم ملكة العربية ، ولعنهم لغة مصوغة ، وليس لهم ملكة فصاحة ، فكيف يقولون . إن القرآن فيه غشائيات ؟ لقد كان العرب الكافرون أولى بذلك ، فقد كانت عندهم ملكة وفصاحة وكانوا معاصرين لرسول القرآن ، وهم كفارون بما جاء به محمد ولم يقولوا إن في القرآن اختلافاً !! هذا دليل على أن المستشرقين الذين ادعوا ذلك يعانون من نقص في اللغة .

ونقول لهم : لقد تعرض القرآن لأشياء أثبت فصاحته وبلاغته عند القوم الذين نزل لهم أولاً . فمنهم من سيحملون مبع الدعوة ، ثم حل القرآن معجزات أخرى لغير الأمم العربية ، فمعجزة القرآن ليست فصاحة فقط ، وإلا لقال واحد هو أحجز العرب ، فما شأن العجم والرومان ؟ ونقول له : أكل الإصحاح كان في أسلوبه ؟ لا ، الإصحاح في أشياء تتفق فيها جميع اللسان في الدنيا : لأنه يأتي لثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة خصومه لم يبارح الحرية إلا في رحلة

التجارة للشام ، ولم يثبت أنه جلس إلى معلم ، وكنههم يعرف هذا ، حتى الخلطة التي اضطلوا فيها ، جاء ربنا بها ضدكم فقال :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَلَّا يُخَوِّفَ لِسَانَ الْعِزِّ بِالْحَقِّ إِلَيْهِ أَتَعْجَبُونَ ۚ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة النحل)

يقصدون به : « بشر » هذا غلاماً كان لحوطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه ، أو غلاماً آخر رومياً أو سلبان الفارسي ، فأوضح الحق : تعطلوا جيداً ، فمحمد لم يجلس إلى معلم ، ولم يذهب في رحلات . وبعد ذلك جاء القرآن تحدياً لا بالنطق ولا باللغة ولا بالمصاحبة ولا بالبيان نصب ، بل بالأمر الشامل لكل القول وهو كتاب الكون . ووقائعه وأحداثه التي يشترك فيه كل الناس

والكون . كما نعرف - له حجب ، فالأمر الماضي حجاب به الزمن الماضي والذي كان يمشي أيامه بعرفه ، والذي لم يكن في أبله لا يعرفه ، إذن فأحداث الماضي حجبها الزمن الماضي ، وأحداث المستقبل حجبها المستقبل لأنها لم تقع بعد . والحاضر أماناً ، فجعل له حاجزاً هو المكان ، فبأن القرآن في أساليبه يخرق كل هذه الحجب ، ثم يتخطى كل سبيل المثال ويقول :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مَوْسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة القصص)

وسبحانه يقول

﴿ وَمَا كُنْتَ ثَالِثًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة القصص)

وسبحانه يقول

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ يُرَاقِبُ الْمُتَطَلِّلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النكث)

وكل « ما كنت » في القرآن ثابراً بأخبار عن أشياء حدثت في الماضي . بالله لو كانوا يعلمون أنه علم أو جلس إلى معلم ، أكانوا يسكتون ؟ طبعاً لا ، لأن هناك كفاراً أرادوا أي ثغرة لينفذوا منها ، وبعد ذلك يلقى القرآن لحجاب الزمن المستقبل ويخرقه ، يحدث ذلك والمسمون لا يقدرّون أن يحسموا أنفسهم فيقول الحق :

﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٥٤ ﴾

(سورة القمر)

حتى أن عمر بن الخطاب يقول : أي جمع هذا ؟ وينزل القرآن آيات تنزل وتسجل وتحفظ . . وتأتي غزوة « بدر » ويهزم الجمع هزلاً . وتنزل آية أخرى في الوليد ابن المغيرة الحبار المقترى :

﴿ سَيَسْمُرُ عَلَى أَنْظُرِهِمْ ٥٥ ﴾

(سورة النجم)

ويتساءل بعضهم : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتي غزوة « بدر » فينظرون أنه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمّة وعلامة عليه ، فمن الذي خرق حجاب الزمن للمستقبل ؟ إنه الله . وليس محمداً ، فإذا تدبرتم المسائل حتى التدبر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مبلغ للقرآن ، وأن الذي قال القرآن هو الإله الذي ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له ، وبأي القرآن فيقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فَاغْفِرْ لَنَا رَبُّنَا إِنَّا نَحْنُ الْغَافِلُونَ ٥٦ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هم قالوا في أنفسهم ولم يسمع لهم أحد ، ثم ينزل القرآن فيحبر بما قلوه في أنفسهم . . فإذا يقولون إني ؟ وهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي أخبر رسول الله بما قالوا في أنفسهم . . فهذه الآية « أفلا يتدبرون القرآن » جاءت بعد « فإذا برزوا من عندك بيت عائشة منهم خير الذي تقول » ، إذن فقد فضحوا ، فلو كانوا يتدبرون لعلموا أن الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق هو الذي أخبر بما يتدبروا ، والذين لا يفهمون اللغة يطبقون لوحاً باختلاف توهموا أنه موجود بالقرآن ، يقولون : إن الحدث الواحد المنسوب إلى فاعل واحد لا ينفى مرة وبث مرة أخرى ، فإن نفيته لا تثبته ، وإن أثبته لا تنفيه ، لكن القرآن به هذا .

ومحيى لهم ذلك في قول الحق

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

(من الآية ١٧ سورة النمل)

« ما رميت » هو رمى « الرمي » ، « إذ رميت » أثبت « الرمي » وجاء القرآن بالفعل وهو « رميت » ، والماعل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف ثبت الفعل مرة ومعناه مرة في آية واحدة ؟ ونقول لهم : لأنكم ليس عندكم ملكة العربية قلتم هذا لكلام ، أما من عنده ملكة العربية وهي أصيلة وسليقة وطبيعة رسجية فيه ، فقد سمع الآية ولم يقل مثل هذا الكلام ، مما يدل على أنه فهم مؤداها

ثم لماذا نبتعد ونقول من أيام الجاهلية ، لنأخذ من حياتنا اليومية مثلاً ، أنت إذا ما جئت مثلاً لولدك وقلت له : ذاكر لأن الامتحان قد قرب ، وأنا جالس معك لأرى هل ستذاكر أو لا ، فيأخذ الولد كتابه ويجلس إلى مكتبه وبعد ذلك يفتح الكتاب ويقلب الأوراق ويبرز رأسه . وبعد مدة تقول له : تعال انظر ماذا ذاكرت . فتمسك الكتاب ونسأله سؤالا فيها ذاكر .. فلا يجيب ، فنقول له : ذاكرت وما ذاكرت . أى أنك فعلت شكية المذاكرة ، ولا حصيلة لك في موضوع المذاكرة .

قولك : « ذاكرت » هو أثبتت للفعل ، وقولك : « وما ذاكرت » هو رمى للفعل . فإذا جاء فعل من فاعل واحد مثبت مرة ومعنى مرة من كلام البلع . فاعلم أن جهة الإثبات غير جهة النفي .

وقوله الحق . « وما رميت إذ رميت » فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاء إلى المعركة أخذ حذفة من الخصى ، وجاء ورمى بها جيش العدو .

إذن فالعملية الشكلية قام بها النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن الرسول الله قدرة أن يرسل الخصى إلى كل جيش العدو ؟ إن هذه ليست في طاقته ، فنقول الحق . « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . أنت أخذت شكلية الرمي ، أما موضوعية الرمي فهي الله سبحانه وتعالى .

ويأت مثلاً في آية أخرى يقول

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

وهذا نرى . ثم يقول بعدها مباشرة :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الروم)

وتسألون أيقول : « لا يعلمون » . . ثم يقول : « يعلمون » بعدها مباشرة ؟
نعم فهم لا يعلمون العلم المفيد ، رقبته : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » أنهم
لا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها . فإذا جاء فعل فثبت مرة ونفى مرة أخرى
فلا بد أن الجهة منكفة .

مثال ذلك هو قول الحق :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول القرآن في موقع آخر :

﴿ وَفَقَّهَهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ ﴾

(سورة الصافات)

ومعناها أنهم سيُسألون . ونقول . اجعلوا عندكم ملكة الحريية ، ألا يسأل
الأستاذ تلميذه . إذن فالسؤال قد يقع من العالم ليُعلم ما عند المسئول ويُفَرِّقُ به ،
وليس ليُعلم العالم ما عند المسئول ، وعندما يقول ربنا : « وفقههم إنهم
مسئولون » . . فإياكم أن يذهب ظنكم إلى أن الله يسأل لأنه لا يعلم ، وإنا يسأل
ليقرر لكم لتكون حجة الإلزام أقوى من حجة الاختيار . إذن فإن رأيت شيئاً نرى ،
وأنبت في مرة أخرى فاعلم أن الجهة منكفة . وحينئذ نتكلم عن إعجاز القرآن نجده
يقول :

﴿ وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَاءَهُمْ مِّنْ إِنَّمَا تَحْنُ تَزُكُّرُ وَإِنَّمَا ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الانعام)

وجاء في الآية الثانية وقال ربنا .

﴿ تَحْنُ تَزُكُّرُ وَإِنَّمَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قد يقول من لا يملك مسكة اللغة : فأيهما بليغة ؟ إن كانت الأولى فالثانية ليست بليغة ، وإن كانت الثانية فالأولى ليست بليغة .

نقول له : أنت أخذت عجز كل آية فقط . وهليك أن تأخذ عجز كل آية مع صدرها . صحيح أن عجز الآية مختلف ، لأنه يقول في الأولى : « نحن نرزقكم وإياهم » وفي الثانية يقول : « نحن نرزقهم وإياكم » . ولكن هل صدر الآية متحد ؟ لا ، فصدر كل آية مختلف ، لأنه قال : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . فكان الإملاق موجود . . . حاصل ، لذلك شغل المخاطب برزقه قبل أن يشغل برزق ولده . . . ويخاف أن يأتي له الولد فلا يجد ما يطعمه . لأنه هو نفسه فقير . فطمثته الله على رزقه أولاً ثم بعد ذلك طعمته على رزق من سيأتي : « نحن نرزقكم وإياهم » . لكن في الآية الثانية لم يقل ذلك . بل قال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » . كأنه يخاف أن يفقد ماله ويصير فقيراً عندما يأتي الولد ، ومادام قد قال : « خشية إملاق » فهذا يعني أن الإملاق غير موجود ، ولكنه يخاف الإملاق إن جاء الولد ، يخاف أن يأتيه الولد فيأتيه الفقر معه ، فأوضح الحق له : لا تخف فسيأتي الولد برزقه . « نحن نرزقهم وإياكم » إذن إن نظرت إلى الآية حبرها مع صدرها . . . تجد العلاقة مكتملة ، ويحاول بعضهم أن يجد متعلداً بلطعن في بلاغة القرآن فيتساءل لماذا يقول الحق في آية في القرآن :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفي سورة ثانية يقول :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ۝٦٠ ﴾

(سورة الشورى)

ونقول لهم . أنتم لم تفهموا الآيات على حقيقتها . ففي الآية الأولى يقول : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » أي في المصائب التي لا غريم لك فيها . ومادام ليس لك غريم فيها . . . لماذا تفعل ؟ لكن إذا كان لك غريم وتخصم فقد تتحرك نفسك بأن تنتقم من . ولذلك فانتبه لقوله الحق : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » يناسب الموقف الذي لا يوجد فيه غريم ، وفي

الآية الثانية : « إن ذلك لمن حرم الأمور » فالآية تناسب الموقف الذي فيه حريم لأنك ستصبر على المحسوبة وعلى من جعلها من حريم ، لأنك كلما رأيته تهب نفسك وهذا يحتاج لتأكيد الصبر بقوة ، وتلك هي كلمات المستشرقين الذين يريدون الطعن في القرآن ويقولون لنا : أنتم تنظرون للقرآن بفداسة لكم لو نظرتهم إليه بتفحص لوجدتم أن فيه اختلافات كثيرة ، نقول لهم . قولوا لنا المظالمات ، ونحن ردنا على هذا في كتابنا خواطرنا من القرآن ، ومنهم من يقول لك مثلاً القرآن عندما تعرض لقضية خلق السموات والأرض جاءت كل الآيات لتؤكد أن الله سبحانه خلقها في ستة أيام .. لكنهم يقولون عندما نذهب إلى آيات التخصيل في قوله .

﴿ قُلْ أَشْكُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١١ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاكَ لِلْعَالَمِينَ ١٢ ثُمَّ أَسْرَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٣ فَصَبَّهِنَّ سَبْعَ مَعْنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٤ ﴾

(سورة فصلت)

نجدها ثانية أيام فقالوا : هذا خلاف . نقول لهم : أنتم لم تفهموا فسبحانه حين قال . « قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض » ، فهل تكلم بما تستقيم به الحياة على الأرض ؟ إنه عندما تكلم عن الأرض يقول : « قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجهلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها » ، لهذه تكون قمة الأرض لأنه يتكلم عن الأرض .. « وجعل فيها » أي الأرض .. « رواسي من فوقها ويلك فيها وقدر فيها أقواتها » .. وكل ذلك في الأرض .. إذن والمرحلة الثانية مرحلة تنمية خلق الأرض فسبحانه خلق الأرض كحرم أولاً ، وبعد ذلك جعل فيها الرواسي وجعل فيها الأقوات ويلك فيها . في كم يوماً ؟ في أربعة أيام فكان اليومين الأولين دخلاً في الأربعة ، لأن هذه تنمية خلق الأرض .

والله المثل الأعلى ، مثلما تقول : سرت من هنا إلى الإسماعيلية في ساعة ، وإلى بورسعيد في ساعتين ، تقولك . إلى بورسعيد في ساعتين ، يعني أن الساعة لأولى ثم حسابها ، إذن فهؤلاء المستشرقون لم ينهضوا معطيات القرآن ؛ لذلك يقول سبحانه : « أهلا يتدبرون القرآن » فإن وجدت شيئا ظاهريا يثير تساؤلا في القرآن فأعمل عقلك ، وأعمل فكرك كي تعرف أن التناقض في فهمك أنت وليس التناقض في القرآن ؛ لأنه من عند من إذا نص واقعا قصه عن حقيقته ، وعد من لا ينيب شيء عنه ، لا حجاب الزمن الماضي ، ولا حجاب الزمن المستقبل ، ولا حجاب المكان ، ولا حجاب المكان « أهلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ، فالقرآن كتاب كبير به أربع عشرة ومائة سورة ، بالله هاتوا أي أديب من الأدباء كي يكتب هذا ، ثم انظروا في مصاحته ، إنكم ستجدونه قويا في ناحية وضعها في ناحية أخرى ، وبعد ذلك قد تجدونه أنحل بالمعنى ، وقال كلمتين هما ثم جاء بما ينقصها بعد ذلك ! مثل فعل أبو العلاء المعري عندما قال :

نحططنا الأيام حتى كأنما زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك
وكان أيام قوله هذا: ينكر البحث .

وعندما رجع إلى صوابه بعد ذلك قال :

زعم اسجهم والطيب كلامها لا نخر الأجساد قلت إليكما
إلا صبح قولكما فليست بخاسر أو صبح قولى فاتخسار عليكما

إذن فالتناقض يأتي مع صاحب الأغير الذي كان له رأى أولاً ثم عدته التجربة أو الواقع إلى رأى آخر . لكن ربما سبحانه وتعالى لا يتغير ومعلومه لا يتغير فهو الحق ، إذن فالتناقض يأتي إما من واحد يكذب ؛ لأن الواقع لم يحكمه ، وإما من واحد هو في ذاته متغير ، فرأى رأيا ثم عدل عنه ، فيكون متغير . لكن الحق سبحانه وتعالى لا يتغير . ويقول على الواقع الحق . « أهلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

والواقع أيضاً أننا نجد كل قضية قرآنية تعرض كنص من نصوص القرآن أنزله الله على رسوله . . هذه القضية القرآنية في كون له تغيرات ، والتغيرات بعضها يكون من

مؤمن بالقرآن ، وبعضها يكون من غير مؤمن بالقرآن ، فهل رآيت قضية قرآنية ثم جاءت قضية لكون حتى من غير المؤمنين تكذيبها ؟ لا ، هم في الغرب مثلاً بعد الحرب العالمية الأولى احترقوا أسطوانة تحطيم أجوهر الفرد والجرم الذي لا يتجزأ . . وكانت تلك أول مرحلة في تفتيت الذرة ، ونجد القرآن يصرب المثل بالذرة ، وأنها أصغر شيء في قوله سبحانه

﴿ قَدْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ ﴾

(سورة الزلزلة)

وضع العلماء أيديهم على قلوبهم لأن الذرة قد تفتت فوجد ما هو أصغر من الذرة !! ووجدنا من قرأ القرآن . . وقال : إن القرآن نزل في عصر كان أصغر شيء فيه « الذرة » عند العرب القديم ، والله يعلم ألا أن العلم سيطمع ويرتقى ويقت الذرة ، فقال :

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ ﴾

(سورة سبا)

لقد تدبر صاحب هذا القول القرآن وفهم عن الله الذي تتساوى عنده الأمانة ، والمستقبل مثل الماضي ، ليس عنده عزم مستقبل وعلم حاصر وعلم ماضٍ ، وأوضح لنا : أن هناك ما هو أصغر من الذرة . فلو قفتموا المعتت منها لوجدنا في القرآن له رصيذاً .

تعالوا للفضايا الاجتماعية مثلاً . نحمدوا أي قضية قرآنية يجتمع لها حصرم القرآن ليجدوا مطعماً ، فنجد من لم يفهموا من المسلمين يبرون وراءهم ويقولون . هذه الأمور لم تعد ملائمة للعصر ، ثم نجد أعداء الإسلام يواجهُون بظروف لا يجدون حلاً لمشكلاتهم إلا ما جاء في القرآن .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

مثال آخر : بعض الناس يقولون : هناك اختلاف في الفراءات .. مثل قوله تعالى :

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ① ﴾

(سورة الفاتحة)

ويقول . هناك من يقرأها « ملك يوم الدين » .. لكن هناك ما يسمى « تريب الفاتحة » لأن كلمة « مالك » وكلمة « ملك » معناهما واحد ، والقرآن كيف يكون من عند خير الله ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان » - أي القرآن - « من عند غير الله ، غير الله كان يأتي بقرآن ! لا . إنما القرآن لا يأتي إلا من الله سبحانه وتعالى ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »

إن قوله سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » تكريم للإنسان ، فكان الإنسان قد خلقه الله ليقبل الأشياء يفكر لو استعمله استعمالاً حقيقياً لانتهي إلى مطلوبات الحق ، وهذه شهادة للإنسان ، فكان الإنسان مزود بآلة فكرية . هذه الآلة الفكرية لو استعملها لوصل إلى حقائق الأشياء ، والحق لا يربد منا إلا أن نعمل هذه الآلة : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » فالقرآن كلام الله ، وكلام الله صفة ، وصفة الكامل كاملة ، والاختلاف يناقض الكمال . فمعنى الاختلاف أنك تمجد آية تختلف مع آية أخرى ، فكان الذي قال هذه نسي أنه قالها !! وبعد ذلك جاء بأمر يناقضها ، ولو كان عنده كمال لعرف ما قال أولاً كي لا يخالفه ثانياً ..

إذن فلا تضلرب ولا اختلاف في القرآن ، لأنه من عند الله .

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا
بِهِمْ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ

لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعَتُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٧﴾

الحق سبحانه وتعالى يرى الأمة الإسلامية على أسلوب يفسس ويؤمس لهم سرية حركتهم وخاصة أنهم قوم مقبلون على صراع عيف ولهم خصوم أشداء ، فيريهم على أن يعالجوا أمورهم بالحكمة لمواجهة الجواسيس . فيقول : « وإذا جاءهم أمر » أي إذا جاءهم خبر أمر من الأمور يتعلق بالقوم المؤمنين أو بخصومهم ، وعلى سبيل المثال : يسمعون أن النبي عليه الصلاة والسلام سيخرج في سرية إلى المنطقة العلانية ، وقبيلة فلان تنتظره كي تنضم إليه ، وعندما يسمع الصعاف المتفكرون هذا الخبر يذيعونه . فيحتاط لخصوم المحاصرة القبيلة التي وعدت الرسول أن تقاتل معه كي لا تخرج ، أو يقولون مثلاً : إن النبي سيخرج ليفس كذا فليدعوا أيضاً هذا الخبر ! فأوضح لهم الحق : لا تفعلوا ذلك في أي خبر يتعلق بكم كجماعة ارتبطت بمنهج وتريد لهذا المنهج أن يسيطر ، لأن هذا المنهج له خصوم .

ليأكم أن تسمعوا أمراً من أمور فتذيعوه قبل أن تعرضوه على القائد وعلى من رأى القائد أنهم أهل المشورة فيه ، فقول : « وإذا جاءهم أمر من الأمن » يقصد به أن المسألة تكون في صالحهم (أو الخوف) أي من علومهم (أدعوا به) .

كلمة « أذاعه » غير كلمة « أذاع به » ، و « أذاعه » يعني « قاله » ، أما « أذاع به » فهي دليل على أنه يقول الخبر لكل من يقابله ، وكان الخبر بداته هو الذي يذيع نفسه ، هناك أمر تحكيه وتنتهي المسألة ، أما « أذاع به » فكان الإذاعة مصاحبة للخبر وملازمة له تنشره وتخرجه من طى حدود إلى طى غير حدود . أو من آذان محترم خصوصية الخبر إلى آذان تتعقب الخبر ، ثم يقول : « ولو رددوه إلى الرسول » فالرسول أو من يحددهم الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين لهم حق الفصل فيما يقال وما لا يقال : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » والاستنباط مأخوذ من « البَط » وهو ظهور الشيء بعد غيائه ، واستنبط أي استخرج الماء مجتهداً في ذلك والبَط هو أول مياه تخرج عند حفر الشر فنقت الكلمة من المحسات في الماء إلى المعنويات في

الأخبار وصرنا نستخدم الكلمة في المعاني ، وكذلك في العلوم . مثلاً تعطى الطالب مثلاً قهرياً هندسياً ، ونعطيه معطياته ، ثم يأخذ الطالب المعطيات ويقول بما أن كذا - كذا . . ينشأ منه كذا ، فهو يستبطن من موجود معدوماً .

وها يوضح الحق لهم : إذا سمعتم أمراً يتعلق بالآس أو أمراً يتعلق بالخوف ، فليأكم أن تذيعوه قل أن تعرضوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعرضوه على أولياء الأمر الذين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم بعض السلطة فيه ؛ لأنهم هم الذين يستبطنون هذا يقال أو لا يقال .

ويقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » كأنهم أذاعوا بعض أحداث حدثت ، لكنهم نجوا منها بفصل من الله سبحانه وتعالى وبعض إلهاماته فكان مما أذاعوا به ما حدث عندما عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم - العزم على أن يذهب إلى مكة فأنجحاً . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد عزوة ورى بعيرها . أى أنه لا يقول الوجهة الحقيقية كي يأخذ الخصوم على غره ، وعندما يأخذ الخصوم على غره يكومون بعير إعداد ، فيكون ذلك داعياً على فقدانهم قدرة المقاومة .

وانظروا إلى الرحمة فيما حدث في غزوة الفتح ، فقد أمر رسول الله المسلمين بالتجهيز لغزو مكة حتى إذا ما أبصر أهل مكة أن رسول الله جاء لهم بحدود لا قبل لهم بها ، يسكنون ويسلمون فلا يحاربون وذلك رحمة بهم . وكان « حاطب بن أبى بلنعة » قد سمع بهذه الحكاية فكتب كتاباً لفريش بمكة ، وأخذته امرأة وركبت بعيرها وسارت . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى ومن معه وقال لهم : إن هناك امرأة في روضة خاخ معها كتاب من حاطب بن أبى بلنعة إلى فريش يخبرهم بقومنا إلى مكة ، فذهبوا إلى الطعينة فأنكرت ، فهدمها صيدت على وأخرج من عقاصها - أى من خفاثر شعرها - الكتاب ، وإذا هو كتاب من حاطب بن أبى بلنعة إلى فريش ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال له : أهذا كتابك ؟ قال . نعم يا رسول الله ، فقال : وما ذلك إلى هذا ؟ قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن الله ناصرك ، وأن كتابي لن يقدم ولن يؤخر . وأنا رجل

ملصق في قريش ولم أكن من أنفسهم ليس لي بها عصبية ولي بين أظهرهم ولد وأهل فأحببت أن أتقدم إلى قريش بيد تكون لي عندهم يحسون بها قرابتي وما فعلت ذلك كخرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال له النبي : قد صدقت .

إدراك الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبني القصدية الإيمانية وخاصة ما يتعلق بأمر المؤمن مع أعدائهم على الصلح ، ولا يستقيم الأمر أن يعشَى ويدبغ كل واحد الكلام الذي يسمعه ، بل يجب أن يردوا هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر لأنهم هم الذين يستطيعون ما يناسب ظرفهم من الأشياء ، ربما أدبوا لكم في قولها ، أو أدبوا بغيرها إذ كان أمر الحرب والخداع فيها يستدعي ذلك وهذا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى وإن كان قد ضمن النصر والغلبة لهم وأوضح . أن الوكيل وأنا الذي أنصر ولا تهاومهم ، إلا أنه سبحانه يريد أن يأخذ المؤمنين بالأسباب . ويكفيهم به على أنه هو الناصر . .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعثم الشيطان إلا قليلاً » وهذا يدل على أن هذه المسألة قد حدثت منهم ولكن فضل الله هو الذي سندهم وحفظهم فلم يجعل لهذه المسألة مئة أو عافة فيما يسوؤهم . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعثم الشيطان إلا قليلاً » ويعرف أنه كلما جاء فعل من الأفعال وجاء بعده استثناء . فنحن ننظر: هل هذا الاستثناء من الفاعل أو من الفعل ؟ وهنا نجد قوله الحق : « لا تبعثم الشيطان إلا قليلاً » فهل كان اساع الشيطان قليلاً أي اتبع الشيطان قلة وكثيرون لم يتبعوا الشيطان فهل نظرت إلى القلة في الحدث أو في المحدث للحدث ؟ . فإن نظرت إلى القلة في الحدث فيكون : لا تبعثم الشيطان إلا اتباعاً قليلاً يمتثلون فيه بأمر المطرة ، وإن أردت القلة في المحدث « لا تبعثم الشيطان إلا قليلاً » أي إلا نفراً قليلاً منكم سمعت فطرتهم فلا يتبعون الشيطان

فقد ثبت أن يوماً قبل أن يرسل ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا ليحكروا فيها أمر الجاهلية من عبادة الأوثان والأصنام ، علم يرفهم ذلك ، ولم يعجبهم ، فمنهم من صدَّ عن ذلك نهائياً ، ومنهم من ذهب ليلتمس هذا العلم من مصادرة في البلاد الأخرى ، فهذا « زيد بن عمرو بن نفيل » ، وهذا « ورقة بن

نوفل ، الذي لم يصدق كل ما عرض عليه ، ودمية بن أبي الصلت ، ، ودنس بن ساعدة ، كل هؤلاء بطرهم اعتدوا إلى أن هذه الأشياء التي كانت عليها الجماهير لا تصح ولا يستقيم أن يكون عليها لعرب هؤلاء كانوا قلة وكانوا يسمون بالحنفاء والكثير منهم كان يعد الأصنام ثم أكرمهم الله ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن يقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أي لأن الحق سبحانه وتعالى بفضله ورحمته لن يدع مجالاً للشيطان في بعض الأشياء . بل يوضح أمر الشيطان مع المنافقين . فإذا ما نضح أمر الشيطان مع المنافقين أخذكم إلى جانب الحق بعيداً عن الشيطان ، فتكون هذه العملية من فضل الله ورحمته . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه مخاطباً سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ
وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ ٨٤

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مبة عن شيء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ آتَاهُ خَاقِبَرُهُ ٧١ ﴾

(سورة حس)

ومعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سبب فيها بعدها ، ويسمونها « فاء السببية » .

فما الذي كان قبل هذه الآية لتترتب عليه السببية في قول الله سبحانه لسيدنا رسول الله : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » نقول : مادام الأمر جاء « فقاتل » ، فعلينا أن نبحت عن أهات القتال المتقدمة ، ألم يقل قبل هذه الآية :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
مَيِّتًا أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٤ ﴾

(سورة النساء)

والآية الثانية :

﴿ وَمَالِكُمْ لَا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

إذن أمر القتال موجود من الله من ؟ لرسول الله ، والرسول يبلغ هذا الأمر للمؤمنين به ، والرسول يسمعه من الله مرة واحدة ، لذلك فإنه صلى الله عليه وسلم أول من يصدق أمر الله في قوله : « فليقاتل في سبيل الله » . ثم ينقلها إلى المؤمنين ، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله في هذا الأمر فالرسول هو أول من فعل بالقرآن فإذا قال الحق :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

أو عندما يقول له الحق :

﴿ وَمَالِكُمْ لَا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول من فعل بأمر الله ، فإذا جاءه الأمر فعليه أن يلزم نفسه أولاً به ، وإن لم يستمع إليه أحد وإن لم يؤمن به أحد أو لم يتبعه أحد ، وهذا دليل على أنه واثق من الذي قاله له : « ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله » ومادام صلى الله عليه وسلم هو أول من فعل فعليه أولاً نفسه ، لأنه صلى الله

عليه وسلم بإقباله على القتال وحده ، إنما يدل من سمح القرآن هي أن الرسول الذي نزل عليه هذا القرآن ، أول مصدق ، ومحمد بن يحيى نفسه قبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا ، يقاتل هو وحده . ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق - رضوان الله عليه - حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وحدثت لردة من بعض العرب ، وأصرَّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقاتل المرتدين وقال : لو منعمون قتال بعير كانوا يؤمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لجالدهم عية بالسيف . وهاون بعض الصحابة أن يثنى أبا بكر الصديق عن عزمه فقال : والله لو عصت يميني أن تقاتلهم لقاتلتهم بشمالى .

إذن فنقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فقاتل في سبيل الله » يشها إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المُلح . وبإتمام الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع من الله ، فهو ملزم بتطبيق العمل أولاً ، وبعد ذلك يبيخ الرسول المؤمنين ، فمن استمع إليه عمل فعله

وقول الحق : « لا تكلف إلا نفسك » هو تكليف بالفعل لا بالبلاغ فقط ، فالرسول يبيخ ، لكن أن يعمل المؤمنون ما يلزمهم به عن الله أولاً يفعلوا فقد ليس من شأنه ولا هو مكلف به . ولكن على الرسول أن يلزم ويكلف نفسه ليقاتل في سبيل الله . « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » .

أمعنى ذلك أن يترك الرسول الذين آمنوا به لنفوسهم ؟ لا . فالحق قد أوضح : عليك أيضاً أن تحرضهم على القتال فلا تتركهم لنفوسهم : « وحرّض المؤمنين على الله أن يكف بأس الذين كفروا » ومعنى « حرص » مأخوذ من « حَرَصَ » وهو ما به إرالة العوائق وما يظف الأيدي والدلائس مما يرين عليها ويعلوها من الوسخ والدنس ، فعليك يا رسول الله أن نظف في أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا ، وصيك أن تفحص عنهم اموالهم وتربل العوائق التي تمنعهم أن يقاتلوا .

« وحرّض المؤمنين على الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، وكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسوله : إنك لا تنصر بالكثرة المؤمنة بك ، ولكن المؤمنين هم

ستر لهد الله في النصر ، فالنصر منه سبحانه :

﴿ رَمَا أَنْصُرُوا لَأَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وورود كلمة « بأس » في الآية التي نحن بصددتها ، يراد بها القوة والشدة في الحرب ، ويراد بها المكيدة ، ويراد بها هزيمة الأعداء . فكلمة « بأس » فيها معاني متعددة . والحق يبلغ رسوله . إنك يا محمد لا تكلف إلا نفسك وإليك أن يخطر على بشرتك : كيف أقاتل هؤلاء وحدي . فإن القوم المؤمنين معك وإذا ما دخلوا القتال فهم لا ينصرونك ولكنهم يسترون يد الله في النصر .

﴿ فَتَنَلُوهُمْ بِحُدُودِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ولماذا لا يتصر الله المؤمنين وارسلوا مباشرة دون قتال لعبرهم من الكفار والشركيين ؟ . لأن النصر لو جاء بسبب غيبى من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد شئت . . ولكن الحق يريد أن يظهر أن اقلية المؤمنة هي التي غلبت ، فاللؤمن يقبل على الأسباب ولا يسعى السبب ، فحيثما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط في « حين » ، وقال بعضهم . لن نهزم عن قلة فنحن كثير ، ها ذاق المسموم طعم الهزيمة أولاً ، وبعد أن أعطاهم الحق الدرس التأديبي أولاً . . نصرهم ثانياً . والحق يقول

﴿ وَيَوْمَ حُشِنَ إِذْ أُنْجَسَتْ كَثُورُكُمْ فَلَمْ تُقِرَّ حُكْمَ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

وهذا نفت للمؤمنين أن يكونوا مع الأسباب وتذكروا السبب دائماً ؛ لأن الأسباب إنما تأتي فقط لإثبات أن الله مع المؤمنين فلو أن المؤمنين انصروا بأي سبب غيبى آخر لقال الأعداء : إن هذا الذي حدث هو ناتج ظاهرة طبيعية . والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية في الخصوم ما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام . فلم يهرد الحق بمجرد إتقاد سيدنا إبراهيم من النار ؛ لأن الأمر لو كان كذلك لما مكّن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه . . ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء سيدنا

إبراهيم : آه لو كنا قد أمسكنا به ، ولكن ذلك فرصة لكفرهم

ولكن الحق يجعلهم يسكون بإبراهيم عليه السلام : وَتَرَكَ النَّارَ تَنَاجِحَ ، ويقطع
سبحانه الأسباب :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٥٧ ﴾

(سورة الانبياء)

هذه هي النكاية ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير
المادية المحسنة ، لوجد خصوم إبراهيم المحارج لتبرير هزيمتهم

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله : يا محمد أنا الذي أرسلتك ، ولم
أُكَلِّكْ إلى نصرة من يؤمن بك ، وإنما قادر على نصرك وحدك بدون شيء ، ولكن
أردت لأمتك التي آمنت بك أن ينالها مَنُ الإيمان بك فيستشهد بعضها ، فتثاب
الأمة ، وتتصمر فتعلو وترتفع هامتها على العرب ، فلو كان الأمر مقصوراً على نصر رسول
الله لنصره الله دون حرب أو جهاد

وقول الحق سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد
تنكيلاً » أي أنه سبحانه قادر على أن يوقف ويجمع حرب وكيد الكافرين فيطله
ويهزمهم . وهذا ما حدث ، فبعد موقعة « أحد » التي ماعت نهايتها ولا يستطيع أحد
أن يحدد مَن المنتصر فيها ومن المهزوم ، لأن رسول الله قد انتصر أولاً ، ثم خالف
الرملة أمر رسول الله ، فحدث خلل في صفوف الحفاتيون المسلمين ، ولكن لم يبق
المحاربون من قريش في مكان المعركة ، وأيضاً لم يتجاوزوها إلى داخل المدينة ،
ولذلك لم تنته معركة أحد بنصر أحد . وبعد ذلك هددوا بأن الميعاد في بدر الصغرى
في العام القادم .

ومر العام ، وجاء الميعاد ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج ، فلما
طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم ، ولم يطمع إلا سبعون رجلاً ، وخرجوا إلى
المكان المحدد . وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف ، ونفذ الله الرعب في قلب أبي سفيان
وقومه فلم يخرجوا . إذن قريباً نادر أن يكف بأس الذين كفروا ، فقد أقام رسول الله

في المكان ، وجلس مع المفتلين وكان معهم تجارة وباعوها وضم المسلمون الكثير من هذه التجارة

« عسى الله أن يكف بأس الدين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » وكلمة « عسى » في اللغة تأخذ أوصافاً متعددة ، فـ « عسى » معناها في اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أن يجيء فلان . أي : أرجو أن يجيء فلان أو قول واحد مخاطباً صاحبه له : عسى أن يأتيك فلان بحير . وهذا رجاء أن يأتي فلان إلى فلان ببعض الخير ، وقد يأتي فلان بالخير وقد لا يأتي ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أن أتيتك أنا بخير هنا يكون الرجاء أكثر قوة ؛ لأن الرجاء في الأولى في يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو في يد المتحدث . لكن أبيض المتحدث أن توجد له القوة والوجود حتى يأتي بالخير لمن يتحدث إليه ؟ .

إنه صحيح يوى ذلك وبك لا يضمن أن توجد عنده القدرة .

وإذا قال قائل : عسى الله أن يأتيك بالفرج . هذه هي الأوهل في الرجاء . لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟ . قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله لا لما يريد من يرجو أو المرجو له . أما عندما يقول الحق عن نفسه . « عسى الله أن يكف بأس الدين كفروا » فهذا هو القول البالغ لنهايات كل الرجاءات فـ « عسى » بمراحلها المختلفة تبلغ قممها عندما يقول الحق ذلك .

وهكذا نرى مراحل « عسى » أن يقول قائل : عسى أن يفعل لك فلان خيراً هذه مرحلة أولى في الرجاء ، وأن يقول قائل : عسى أن أتيتك أنا بحير . هذه مرحلة أقوى في الرجاء ، فقد يجب الإنسان أن يأتي بالخير لكن قد تأتي له ظروف تمنعه عن ذلك . وأن يقول قائل : عسى الله أن يفعل كذا ، هذه مرحلة أكثر قوة ؛ لأن الخير فيها منسوب إلى القوة العليا ، لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه

والأنوى على الإطلاق هو أن يقول الله عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس

الذين كفروا « وعسى » بالسبب لله رجاء محقق لأنه إبطاء من الله عز وجل بالإبطاء منه واجب لتحقيقه لأنه - سبحانه - هو الذي يحنا ويدفعنا إلى الطمع في فضله لأنه كريم ، وهو القاتل سبحانه . « وعسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » لأن أصحاب البأس من المخلق هم أهل الأهوار ، والقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فتخلخل عظمه أما واهب العمل وواهب القوى لحفته فهو القادر على أن يفعل فهو الأشد بأساً وهو سبحانه أشد تنكيلاً .

وساعة يسمع الإنسان أى شيء من مادة « نكل » فعلية أن يعرف أنها مأخوذة من « النكل » وهو انقيد . وعندما يوقع الحاكم - مثلاً - العذاب على مرتكب الجريمة ، والشخص الذي يرى هذا العذاب يضاف من ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فكان الحاكم قد قيدهم بالعذاب لئلا يأول بهرم أن يفعلوا مثل فعله . ولذلك يقال على ألسنة الحكام : سأجعل من فلان نكالا . أى أن الفاعل سيعذب فلاناً ، بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثله أبداً خوفاً من أن تنزل به لعقوبة التي نزلت ولحققت بمن فعل الجريمة

إذن فالتنكيل والنكال واليكل كلها راجعة إلى القيد لئلا يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة ، أو قيد مع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة التي فعلها أولاً ، أو أن هذا القيد وهو العذاب الذي عوقب به مرتكب الجريمة يكون مثلاً أمام الناس بحذرهم من الوقوع فيها كي لا تتألم عقوبتها ونكالها

إن الحق سبحانه وتعالى حين خلق المخلوق ووزع عليهم فضل المواهب فلا يوجد واحد قد جمع كل المواهب ؛ لأن فكر الإنسان وطاقته ورمه وظروفه شاء الله أن تختلف وشاء سبحانه ألا يجعل الإنسان موهوباً في كل مجال ، وحين يوزع الله على كل عبد جزءاً من المواهب ويعطى العبد الآخر جزءاً آخر حتى يتكامل العباد معاً فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين ، والله يريد منا مجتمعاً متسانداً متكافلاً متكامللاً ، فيما أفقده أنا أجده عند غيري . فتجد برهما في الهندسة وعندما يصاب هذا المهندس البارع بأنم فهو يطلب طبيباً ، والطبيب الذي يريد بناء عيادة يطلبها من المهندس . وكلاهما يطلب مشورة المحامي في كتابة العقود ، وكل هؤلاء في حاجة إلى من يقيم البناء ، والذين يقيمون

البناء من مهن متعددة أخرى يحتاج بعضهم إلى بعض .

إذن لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده ، ولو أن هلك واحدٌ يستطيع كل ذلك ما احتاج إلى أحد ، ولو حدث ذلك لكان لتفكك في المجتمع . ولذلك جاء قول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَلَمَّذَ بَعْضُهُم بَعْضًا تَحَرُّيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

والناس حين تنظر لتفضيل الله لبعض الناس على بعض درجات ينظرون إلى ذلك في مجال المال فقط . . ونقول لمن يظن ذلك - أنت تخطئ ، فإن فضل الله في القوة والحسم فهذه رفعة ، وإن فضلك في العلم فذلك رفعة أبصاً ، وإن فضلك في الحلم فهذه رفعة ، إن تفضيل الحق لك في أي مجال هو رفعة لك ، فأنت كمعد تكون مفضلاً ؛ ومفضلاً عليك .

إذن محيي يقول الحق : «ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات» قد يال إنسان : أي بعض مرفوع وأي بعض مرفوع عليه ؟ ويقول كل واحد مرفوع بموهبته ، وغيره مرفوع عليه بموهبته .

ومن انقصور أن ننظر إلى التفضيل في مجال المال فقط ، فلا يصح أن ننظر إلى هذه المروية وحده ولكن لننظر من كل الزوايا . وعندما ننظر في الزوايا جميعها نجد الفرد مرفوعاً في شيء ، ومرفوعاً عليه في أشياء ، وكل منا مسخر لغيره . إذن فعندما خلق الله العباد جعل كلاً منهم مسخراً للآخر ، وما دام الأمر كذلك ، فيجب ألا يُترك الفرد في البيئة الإيمانية لذاً ، بل على كل ذي موهبة بتقديمها غيره أن يقدم هذه الموهبة . فبعد أن كان فذاً - أي فرداً - يصير شافعاً . والشافع - كما نعلم - هو ضم شيء إلى مثله ، فم ضم إلى غيره ليصير روحاً فهو شافع بحلاف الوتر فإنه الواحد

فإذا كان الواحد من موهوباً فليضم موهبته للثاني ، حتى يصبح الاثنان شافعاً ، وبذلك ينطبق عليه قول الحق .

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا
وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾

وما هي الشفاعة الحسنة ؟ الذين من الرفيع يعرفون مسألة « الشفاعة » في العرف . يقال : فلان أخذ هذه الأرض بالشفعة . أى أنه بعد أن كان يملك قطعة واحدة من الأرض ، اشترى قطعة الأرض المجاورة لتتضم لأرضه ، فبدلاً من أن تكون له أرض واحدة صارت له أرضان .

وعندما يأتى واحد لشراء أرض ما ، فالجار صاحب الأرض المجاورة يقول : أنا أدخل بالشفعة ، أى أنه الأولى بملكية الأرض إذن فبمعنى يشفع ، هو من يقوم بتعددية أثر الموهبة منه إلى غيره من إخوته المؤمنين ولهذا فإنه يكون له نصيب منها .

والشفاعة الحسنة هي التوسط بانقول في وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو آخروية أو إلى الخلاص من مضرة وتكون بلا مقابل . إذن فكل واحد هذه موهبة عليه أن يضم نفسه لغير الموهوب ، فبعد أن كان فرداً في ذاته صار شفعاً . ولذلك يقال : فلان يشفع لى عند فلان ، أى أنه سيضم صوته لصوت المستعين به . ولحق سبحانه وتعالى فيها يرويه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قال لسيدنا داود : إن الرجل ليحمل العمل الواحد أحكمه به في الجنة

أى أن رجلاً واحداً يؤدي عملاً ما ، فيعطيه الله فضلاً بأن يقوم بتوزيع الأماكن على الأفراد في الجنة ، وكأنه وكيل في الجنة ، أى أنه لا يأخذ منزلاً له فقط ، ولكنه يتصرف في إعطاء المنزل أيضاً ، فتساءل داود : يارب ومن ذلك ؟ قال سبحانه : مؤمن يسعى في حاجة أخيه يجب أن يفضيها قضيت أو لم تقض

قال صلى الله عليه وسلم : « من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً له من

اعتكفه عشر سين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بيته وبيته السار
ثلاثة خندق أبعد مما بين الخافقين (١) .

ذلك لأن العبد الذي سعى في قضاء حاجة أخيه يكون قد أدى حق نعمة الله فيها
تفضل به عليه ، ويكون من أثر ذلك أنه لا يسخط أو يحقد غير الواجد للموهبة على
ذی الموهبة . وبذلك فسحاته يريل الحقد من نفس غير الموهوب على ذی الموهبة ؛
فغير الموهوب يقول : إن موهبة فلان تنفني أنا كذلك ، فيحبّ بقاءها عنه وغائها
لديه .

ويقول الحق : « من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها » ثم يأتي الحق
بالمقابل ، فهو سبحانه لا يشرع للأخيار فقط ، ولكنه يضع الترغيب للأخيار ويضع
الترهيب للأشرار ، فيقول : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » .

ولر المخالفة والفارق بين كلمة « النصيب » وكلمة « الكفل » . كلمة
« النصيب » تأتي بمعنى الخير كثيراً . فعندما يقول واحد . أنت لك في مالي نصيب .
هذا القول يصلح لأي نسبة من المال . أما كلمة « كفل » فهي جزء على قدر السببة
فقط . وهذا هو فضل من الله ، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، وهذا نصيب
كبير . ومن جاء بالسببة فلا يجزى إلا مثلها .

وهذه الآية قد جاءت بعد تحريض الرسول للمؤمنين على القتال ، أي أنك
يا رسول الله مطالب بأن تقسم لك أناساً يقاتلون معك ، فتلك شفاعة حسنة سوف
ينالون منها نصيباً كبيراً وثواباً جزيلاً .

أما قول الحق : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » أي يكون له جزء
منها ، أي يصبه شزم السببة ، أما الجزء الكبير على الحسنة فيدفع إلى إشاعة مواهب
الناس لكل الناس . ومادامت مواهب الناس مشاعة لكل الناس فالجميع يكون
متسانداً لا متعادداً ، ويصير الكل متعاوناً صلب القلب ، فساعة يرى واحد النعمة
عد أخيه يقول : « سباني يوم يسعى لي فيه خير هذه النعمة »

ولذلك قلنا : إن الذي يجب أن نسرع إليه نعم غيره فليحب النعم عند أصحابها . فإنك أيها المؤمن إن أحيت نعمة عند صاحبها جاءك خيرها وأنت جالس . وإذا ما حُرمت من آثار نعمة وهبها الله لغيرك عليك فراجع قلبك في مسألة حبك للنعمة عنده ، فقد تجرد نفسك مصاباً بشيء من الغيرة منها أو كراهاً للنعمة عنده ، فتصير النعمة وكأنها في غيره على صاحبها ، ونقول لنكأه لها : « إنك لن تفرقني ولن تنال خيرى » .

ويحتم الحق الآية : « وكان الله على كل شيء مُقْتِناً » جاء هذا القول بعد الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة ، وفي ذلك تنبيه لكل العباد . إياكم أن يظن أحدكم أن هناك شيئاً مهما صغر يغفل من حساب الله ، فلا في الحسنة سيغفلت شيء ، ولا في السيئة سيضيع شيء . وأخذت كلمة « مُقْتِناً » من العباد أبحاثاً مستقيمة . فعالم قال في معناها : إن الحق شهيد ، وقال آخر : « إن الحق حسيب » ، وقال ثالث : إن « مُقْتِناً » معناها « مانع القوت » ورابع قال : « إنه حميظ » وخامس قال : « إنه رقيب » .

ونقول لهم جميعاً : لا داعي للخلاف في هذه المسألة ، فهناك فرق بين تفسير النمط بلازم من لوائمه وقد تمتد اللوازم ، فكل معنى من هذه المعاني قد يكون صحيحاً ، ولكن المعنى الجامع هو الذي يكون من مادة الكلمة داعياً . و« مُقْتِناً » من « قاتنه » أى أعطاه القوت ، وإذا ما أعطاهم القوت ؟ ليحافظ على حياتهم ، فهو مقيت بمعنى أنه يعطيهم ما يحفظ حياتهم ، ومعناها أيضاً : المحافظ عليهم فهو الحميظ . وبما أنه سبحانه يعطى القوت ليظل الإنسان حياً ، فهو مشاهد له فلا يغيب المخلوق عن خالفه لحظة ، وبما أنه يعطى القوت للإنسان على قدر حاجته فهو حسيب . وبما أنه يرقب سلوك الإنسان فهو بجاريه .

إذن كل هذه المعاني متداخلة ومتلازمة ، لذلك لا نقول اختلف العلماء في هذا المعنى ، ولكن لنقل إن كل عالم لاحظ ملحطاً في الكلمة ، فالذى لاحظ القوت الأصل عن صواب ، فلا يعطى القوت الأصل إلا المراقب لعباده دائماً ، فهو شهيد ، ولا يعطى أحداً قوتاً إلا إذا كان قائماً عن شأته فهو حسيب . وسبحانه لا يُقْتِ

الإنسان فقط ولكن يقيت كل خلقه ، فهو يقيت الحيوان ويلهمه أن يأكل حسماً معيناً من الطعام ولا يأكل الصنف الآخر

إننا إذا رأينا العلماء ينظرون إلى « مقيت » من زوايا مختلفة فهم جميعاً على صواب ، سواء من جعلها من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من احساب ، وكل واحد إنما نظر إلى لازم من لوازم كلمة « مقيت » وسبحانه يقيت كل شيء ، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجمادات والنبات .

ونجد علماء النبات يشرحون ذلك ؛ فمن نزرع النبات ، وتمتص جذور النبات العناصر الغذائية من الأرض ، وقبل أن يصبح للنبات جذور ، فهو يأخذ غذاءه من فلقن الحبة التي تصم الغذاء إلى أن يست لها جذر ، وبعد أن يكبر حذر النبات فالملقتان تصيران إلى ورقتين ، ومسحبه على كل شيء مقيت ، ويقول العلماء من بعد ذلك : إن الغذاء قد امتصه النبات بحاصية الأنابيب الشعرية . أي أن النبات يمتص الغذاء من التربة بواسطة الجذور الرفيعة التي تمتص الماء المذاب فيه عناصر الغذاء . وفتحة الأنوية في الأنابيب الشعرية لا تسع إلا مقدار اشعرة ، وعندما توضع في الإناء فالسائل يصعد فيها ويرتفع الماء عن مستوى الخوض ، وعندما تتوازي صفوف الهواء على مستويات الماء فالماء لا يصعد .

ومثال ذلك : عندما نأخذ ماء ملون ونضعه في إناء ، ونضع في الإناء الأنابيب الشعرية ، فالسائل الملون يصعد إلى الأنابيب الشعرية ، ولا تأخذ أنبوية مادة من السائل ، وتترك مادة بل كل الأنابيب تأخذ المادة نفسها لكن شعيرات النبات تأخذ من الأرض الشيء الصالح لها وتترك الشيء غير الصالح . وهو ما يقول عنه علماء النبات « ذلك هو الانتخاب الطبيعي » . ومعنى الانتخاب هو الاختيار ، والاختيار يقتضى عقلاً يفكر ويرجع ، والنبات لا عقل له ، ولذلك كان يجب أن يقولوا إنه « الانتخاب الإلهي » ، فالطبيعة لا عقل لها ولكن يديرها حكيم له مطلق العلم والحكمة والقيومية .

وسبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يُسْقِ بِمَآوٍ رَّحِدٍ وَيَمْنَعُ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرحمن)

فالطفل يأخذ المادة المناسبة للحريضة ، والقصب يأخذ المادة التي تصنع حلأوته ، والرمان يأخذ المادة الحمضية . هذا هو الانتخاب الإلهي .

« وكان الله على كل شيء مُّقْتَباً » وساعة تسمع « كان الله » فبإمكانك أن تتصور أن له « كان » هنا ملحظاً في الزمن ، فعندما نقول بالنسبة للبشر « كان زيد غيباً » فزيد من الأغيار وقد يذهب ثراؤه لكن عندما نقول « كان الله » فإننا نقول « كان الله ومارال » ، لأن الذي كان ويتغير هو من تتركه الأغيار . وسبحانه هو الذي يُغَيِّرُ ولا يَتَغَيَّرُ ، وموجود منذ الأزل وإلى الأبد . وحين أوضح لنا سبحانه الشفاعة وأمرنا أن نعصى الواحد ما مواهه إلى غيره فذلك حق تساند قدرات المجتمع لأنه يربب الفائدة للمعبد المؤمن ويرببها للجميع

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيٍّ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٤٦﴾

الحق هنا يريد أن يربب معنى الحياة فما معنى : « حَيِّتُمْ » ؟ الكلام السطحي الأولى فيها : إذا حيَّيك واحد وقال لك : « السلام عليكم » فعليك أن ترد السلام . وكان العرب قديماً يقولون : حيَّيك الله . ويعد أن جاء الإسلام جعل التحية في اللقاء هي السلام .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأحزاب)

أو كما قال الحق في موقع آخر :

﴿ قَاتِلُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ حَيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة التوبة)

ولنفهم معنى كلمة « حياك » ، مادة الكلمة هي « الحاء » ، وه الياءان ، ومنها كلمة « حياء » ، التي معنا حياتنا . والحياة إذا نظرنا إليها قد تأخذ معنى سطحياً عند الناس وهو ما نشأ عنه الحس الحركي وهي أول ظاهرة فيها ، وبعد ذلك في الحيوان ، وإن ارتفعت في الفهم نجد أن كلمة « الحياء » تنظم كل أجناس الوجود حتى الجناد ، لكن الإنسان لا يتعرف إلى الحياة إلا في المظهر الحسي والحركي ، ولكن لكل كائن حياة تناسبه .

وعندما كانوا يعلموننا في المدارس علم المغناطيسية كنا نرى تجربة المغناطيس ونأتي بقضيب مغناطيسي ، ثم نأتي ببرادة الحديد ، ونسير به في اتجاه واحد وذلك حتى نرتب الجزيئات ترتيباً يتناسب مع اتجاه المغناطيسية في القضيب الحديدي . هذا القضيب الذي مراد مادة جامدة في نظرنا ، ولكن توجد فيها ذرات دون إدراك الإنسان تتكيف بحركة خاصة بها ، ويُعاد ترتيب السالب منها والموجب ولا توجد قدرة عند المشاهد لها كي يدرك حركتها .

وحق يفرها المدرسون إلى ذهن التلاميذ ، جاءوا بأبوية رجالية ووصعوا فيها برادة الحديد وجامعوا بالقضيب للمغناطيس ومرروه بجانب البرادة ، فرأى التلاميذ البرادة وهي تتقافز إلى أن تستقر ، وهذا يتعلم التلاميذ أن برادة الحديد غير المغنطة عندما يمر عليها القضيب المغناطيس في اتجاه واحد فلزتها ترتب على أساس واضح ، حتى تصبح مغنطة .

وهذا دليل الحس ، فقد انقلبت السوالب في جهة والموجبات في جهة . فالقضيب المغناطيسي له حركة ولكننا لا ندرك حسه ولا حركته لأننا لا نملك المقاييس اللازمة لذلك .

ومثال آخر : لنفترض أننا نتحرك وجاءت حائرة من أعلانا والتقطت صورة لنا .

وعندما يأخذون الصورة من قريب ، فهم يرون الحركة ، لكن كلما ابتعدت الطائرة فبحر لا ترى الحركة حتى تصبح نقطة بعيدة وكأنها ثابتة . وهي ليست ثابتة ، وإنما هي متحركة بصورة دقيقة جداً للدرجة أنها لا تدرك . فكل شيء - إذن - فيه حياة خاصة تناسبه ، وكل شيء له الحس والحركة الخاصة به . وعندما تأتي للقرآن ، ترى كيف عالج هذه القضية فيقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

استثنى القول وجه الله . أى ذاته ، فكل شيء ما عداه هالك .

ومعنى « هالك » أى ليس فيه حياة ، وما دام كل شيء يهلك فهذا دليل أن كل شيء حياة ، حتى يأتي لإدراك الحق أن تذهب الحياة من كل شيء إلا وجهه سبحانه ، وقد يتساءل إنسان ومن الذى قال : إن كلمة « هالك » تعنى ليس فيه حياة ؟ . نقول : إن القرآن حين يتعرض لقضية لا يقسم العلوم إلى أنواع ولكنه يضع فى كل آية جزئية تشرح لنا ما يخص علينا فى جزئية أخرى كى نفهم أن القرآن متكامل ، فيقول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنعام)

فيكون الهلاك ضد الحياة

وبحسب إذا ما نظرنا إلى الصناعات التى نصنعها ، وليكن البلاستيك مثلاً ، إنما نصنع منه ألوان للفصيل أو للخلافه ، وأول ما يشتريه للاستعمال يجعله زاهى اللون ، وبعد استعماله لفترة يروى عنه البريق ويصبح شاحب اللون ، فما الذى حدث له ؟ . لقد تغير . ما الذى أحدث التغير ؟ . يقال : الاستعمال وأشعة الشمس وغير ذلك . إذن فيه حس لأنه تأثر وحركة لأنه تغير ، وكذلك الأحجار الكريمة والمرمر والرخام وغيرها يقربون صمرها بمئات السنين وأحياناً بالآلاف السنين ، وكلها طال عمرها تغير لونها من الحياة والتضخلات .

وعندما لمسك ورقة ونصعها تحت المجهر فإننا نرى عدداً هائلاً من الغرف الصغيرة ، ولا حصر لهذه الغرف ، ويقول المؤمن :

﴿ فَنَبَارِكُ اللَّهَ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكل شيء في الوجود له حياة تناسبه ، إذ استقرتها وتبعثها بدقة واستطعت أن توجد الآلات التي تستبطن والتي تساعد على الإدراك فإنك ترى الحركة وتشاهدها بالحواس .

إلا أن الحياة بالنسبة لأرقى الأجاس - وهو الإنسان - المتفح بكل كائن حي في الوجود ، هذه حياة تنتهي في ميعاد مجهول بالنسبة للإنسان معلوم بالنسبة لله وأراد الله أن يكلفه تكليفاً إن استمع إليه ونقله فهو سبحانه يعطيه حياة لا تنتهي وعندما نقيس الحياة التي لا تنتهي بالحياة التي تنتهي ، فأي منها جذيرة بأن تسمى حياة ؟ إنها الحياة الأخرى التي لا تنتهي ، وبذلك يقول الحق :

﴿ رَأَيْتُ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهَا أَحْسَنُ مِنْ الدَّارِ الْأُولَىٰ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

هذه هي الحياة الحقة ، وإلا فما قيمة هذه الحياة الدنيا التي تهدك فيها الآفات والالام والاضطرابات والأسقام والأمراض ، وبعد ذلك تنتهي ، فيوضح الحق : خذ حياة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فهذه هي الحياة حقاً ، ولذلك فالحق عندما تعرض هذه المسألة أوضح : إياكم أن تعتقدوا أن هذه الحياة الدنيا هي التي أريدها لكم ، أنا أريد لكم حياة أخد من هذه ، ولذلك قال :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هو مخاطبهم إذن فهم أحياء بالقانون المتعارف عليه ، وأنهم إن لم يستجيبوا إلى ما دعاهم إليه الحق والرسول لن يأخذوا لوناً أرقى من الحياة ، وهي حياة لا تهددها الآفات ولا لاثقال ولا الأمراض ولا العناء ، إنها الحياة الحقة ، ولذلك بسميها الحق

«الروح» لأنها تحرك الجسم وتعطيه حياة وإن كانت تنتهي فيقول :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

هذه أولى مراحل الحياة الممنوحة للمؤمن والكافر .

ويسمى سبحانه الحياة الأكبر منها والتي لا تنتهي يسميها الحق (روحاً) أيضاً :

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

وهذه هي التي سوف تعطى الحياة الأولى . الأولى اسمها «روح» تعطى حياة ثانية . والثانية هي «روح» أيضاً ، إنها ما لوحي الله به ، لأن الناس إذا عملوا به ينجون حياة دائمة خالية من الشقاء والكلل . إذن فقله : «إذا دعاكم لما يحييكم» هي دعوة إلى الحياة الخالدة ، والحياة الأبدية السعيدة في الآخرة مرهونة بأن يلتزم الإنسان منهج الله في حياته ، وإن كانت منتهية .

والحياة الدنيا يرى الإنسان فيها الأخيار والأسقام والمهيجات ، فإذا جاء له من يطمئنه ومن ينمى عنه القلق والخوف فكأنه يحسن حياته . وكلمة «حياك الله» أو «السلام عليكم» تعني : «كن آمناً مطمئناً» وإلا فما قيمة الحياة بدون أمن واطمئنان ؟

إذن فكلمة «حياك الله» أو «السلام عليكم» أي الأمان والاطمئنان لك . فانت لا تعرف هل يحيى القادم إليك بخير أو بشر ، لكن ساعة يقول : «السلام عليكم» فقد يجعل بهذه التحية الأمان في قلب المتلقي به ويشعر بقيمة حياته .

إذن فقله الحق : «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها» يعنى : إذا ربيتم حياتكم بالتحية التي هي السلام والتي تضمن الأمن والاطمئنان عليكم رد التحية فكلمة «تحية» إعطاء لقيمة الحياة ، وكذلك كلمة «حيوا» أي أعط من أمامك شيئاً من الحياة المستقرة الأمنة المطمئنة . فالحياة بدون أمن وبدون اطمئنان ، كلا حياة .

والشاعر العربي يقول :

ليس من مات فاستراح يميت
إلها الميت ميت الأحياء

فقول الحق : « وإذا حييتم » أى أنه إذا ربيتم حياتكم وبوركتكم بالأمن والسلام « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى عليكم أن تردوها إما بالتحية مثلها وإما بأفضل منها . والعلماء عندما جاؤوا ليتكلموا عن هذا ، قصروا المسألة على تحيات اللقاء . فمن قال لك : السلام عليكم ، فقل له : وعليكم السلام ورحمة الله . أى أنك تزيد عليه .

عن سليمان العارسي قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : وعليك فقال له الرجل : يا رسول الله - بأى أنت وأبى - لك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عن ، فقال : إنك لم تدع لنا شيئاً قال الله تعالى . « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فرددناها عليكم » (١) .

وعندما تكلم العلماء في مسألة السلام ، صنفوا لها فقالوا : الماشي يسلم على القاعد . والراكب يسلم على الماشي ، والصغير يسلم على الكبير . والمبصر يسلم على الكفيف . والقليل يسلم على الكثير . وكل خطاب موجه للمؤمنين ينتظم ويشمل ذكورهم وإناثهم إلا أن يكون الحكم مما يخص النساء .

وهنا يقول الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ألتساءة تحية ؟ نعم ، لمن تحية ، المرأة تحيى المرأة ، والمرأة تحيى زوجها ، والمرأة تحيى محرمها ، والمرأة العجوز التى لا إربة فيها تبدأ التحية وتردها ، أما المرأة الشابة فهي لا تبدأ أحداً بالسلام ولا ترد السلام لا تبدأ بالسلام إلا إذا كان معها مثلها ، لأنهم

يقولون : للمرأة عن المرأة حين أكثر من ألف رجل ، أى أن المرأة تحرم المرأة أكثر من ألف رجل ، فعندما تكون معها مثلها تحفظها ، ولذلك يقال : إن المرأة إن بدأت بالسلام أو ردت لسلام فذلك حرام ، وإذا بدأها واحد بالسلام أو رد عليها السلام فذلك مكروه . لماذا ؟ لأن بدءه له إثارة ، ولكنه إذا بدأ هو بالسلام فليس ضرورياً أن تستجيب . فإن كان معها أحد أو جماعة تؤمن عليها فلا حرج من أن ترد السلام .

وقالوا : وإذا كان الذى يلقى السلام ويبدأ به غير مؤمن ؟ انبى عليه الصلاة والسلام أوضح أنهم يلورن في الكلام ، فإذا قالوا لكم . « السلام » فقولوا : وعليكم . وذلك معنى إن قالوها كلمة طيبة لها معنى طيب فأعلاها وعليهم مثلها ، وإن كانت كلمة خبيثة كفوهم . « السام عليكم » يقولوا : « وعليكم » ؛ لأن السام معناها الموت ، فليكن يستهزئوا بكم ، قولوا وعليكم . وبعض العلماء قال : المقصود بـ « فحيوا بأحسن منها » أى بالنسبة للمؤمن ، وإلا ردوها بالنسبة للكافر .

لكن أنتك هي التحية فقط ؟ إذا كان الذى حياك يقول وأنتك يقول ، فكيف لا تحلر من يؤمن بالقول تفاناً ، يظهر لك الأمن ثم يقول : السلام عليكم ، ومعه الصبر ؟ . كما أن الحق علمنا أن ترد التحية بمثلها لأن نفس الفضايا من قولية إلى فعلية هي المحك والأساس ، فإذا حياك إنسان بحبر عنده فعل المسلم أن يقدم التحية بحبر منها ، وإن لم يستطع فليرد على الأقل بمثلها ، وعندما يرد الإنسان بمثلها يصح التكارم بين الناس إن لم يزد فهو لم ينقص ، ويكون الخير متنامياً ، فإذا قدم إنسان خيراً لإنسان آخر ، ورد عليه بعمل أفضل منه ، ففى ذلك تمام للخير ، وإن لم يستطع فليرد بمثل العمل وبذلك لا ينقص من خيره ، فيكون خير كل إنسان محجوراً حل نصه ؛ لأنه مادام سيعطى التحية ويأخذ حل قدر ما يعطى ، لكانه لم ينقص من خيره شيئاً .

واحق سبحانه وتعالى حين بسخى النفس في أن تعطى أكثر مما حبيت به ، فهذا بين أن المؤمن في البيئة الإيمانية إنما يتكاثر خيره ، لأنه كلما فعل خصلة خير فهو تعود عليه بالخير . ولذلك هناك أناس كثيرون إذا أرادت حراً من أحد ، أعطته خيراً

يناسب قدرها ، ليعطى هو خيراً يناسب قدره ، وهذه تحدث كثيراً خصوصاً مع الملوك ، ومثال ذلك : كان المواطن السعودي يقول للملك عبدالعزيز آل سعود : أريد أن تشرب القهوة هندي ، ويذهب الملك عبدالعزيز آل سعود ليشرب القهوة ، ويؤدى لصاحب الدعوة خدمة تعادل القهوة مليون مرة ، فكل من يحى الملك يرد عليه التحية بأكثر منها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وجاءت كلمة « أو ردوها » من أجل أن يطمئن من قدم تحية أنه سيجد رد تحيته أو أكثر منها .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى خلفه المؤمنين به يتكلمون ، فهو يصعبها في الحسب ، لذلك يقول سبحانه : « إن الله كان على كل شيء حسيباً ، والحساب لا ينتهى عند أن يرد المؤمن التحية أو يؤدى خيراً منها ، ولكن هنالك جزاء أعلى وأفضل عند مليك مقتدر .

وفي تناولنا لمسألة التحية عَلِمْنَا أن كلمة التحية وهى « السلام عليكم » معناها أمان واطمئنان ، والأمان والاطمئنان كلاهما يعطى للحياة بهجة ، فالحيوة بدون أمن أو اطمئنان ليس لها قيمة . فكان إشاعة السلام بقولنا : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » تجعل المجتمع مجتمعاً صفائياً ، ومادام المجتمع كله مجتمعاً صفائياً ، فخير أى واحد يكون عند الآخر . ويتعدى ذلك إلى أن يطلب المؤمن خير الله لأخيه المؤمن .

إن الإنسان حين يصعد التحية بعد قوله : « السلام عليكم » بإضافة « ورحمة الله وبركاته » فهو يربط النفس البشرية برباط إيمان بالحق سبحانه وتعالى وبذلك تذكر ونسى أن الخلق عيال الله ، وسبحانه يجب أن يكون خلفه منسجمين بالعلاقات الطيبة فيما بينهم ، وعندما يكون الخلق على علاقة طيبة بعضهم مع بعض فسبحانه يعطيهم من خيره أكثر وأكثر .

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » إن الله كان على كل شيء حسيباً ، ومن الطبيعي أن نفهم أن رد التحية يعنى أن نقول : تحية مثل التى قالها ناء ، فالرد ليس

مقصوداً به أن نرد التحية نفسها ، ولكننا نقول مثلها . فالضمير مبهم ويوضحه مرجعه .

مثال ذلك أن تقول : « لفيت رجلاً فأكرمته » هنا الضمير مبهم ويوضحه مرجعه ، مثال آخر « تصدقت بدينهم وبصمه » فهل معنى ذلك أنني تصدقت بدينهم ثم استرددته ونسبته لسمي وتصدقت بصمه ؟ لا ، إن معنى ذلك هو أنني تصدقت بدينهم ، وبصف مثل الدينهم ، فإذا قال الحق : « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أي ردوا التحية بأفضل منها أو بمثل التي تلقاها ، فإذا ما قبل لك : « السلام عليكم » قل « وعليكم السلام » .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ المؤمنين : لا تظنوا أيها المؤمنون أني بخلقكم لكم وإعطائي لكم حرية الاختيار في الإيمان أو في الفعل أو في الترك إياكم أن تظنوا أني لا أحاسبكم بل سأجازيكم بالثواب على الطاعة وبالعقاب على المعصية ، فحين أمركم بفعل ، فمعناه أنني خلقتكم صالحين أن تعملوا ، وحين أنهاكم عن فعل فمعناه أنني خلقتكم صالحين ألا تفعلوا

إذن فعندما يأتي أمر ، فمعنى هذا أن الذي خلقتني علم أولاً بصلاحي لتفعل هذا الفعل أو علم تنقيده . أي صلاحي أن أطيع وأن أعصى ، إذن فهناك فعل بقول الحق للمعصية : « افعله » ، وفعل بقول له فيه : « لا تفعله » ، والمحاللات والمعاصي إنما تنشأ من نقل « الفعل » إلى مجال « لا تفعل » ، ومن نقل « لا تفعل » في مجال « افعل » ، هذا هو معنى المعصية والحازم لا يأخذ الاختيار الممنوح له ليحقق شهواته بوساطة هذا الاختيار ، بل لا بد أن يصعب بجانب الاختيار أنه مردود إلى من أعطاه الاختيار .

وحين تعلم أيها العبد أنك مردود وراجع ومعيذك إلى من أعطاك الاختيار وأنه سوف يجازيك ، فإليك لن تنقل أمراً من مجال « لا تفعل » إلى مجال « افعل » ، أو من مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » . فلو أخذت الاختيار لترجع نفسك لحظة وهي مانية ، فكيف تتعبد نفسك في الباقية ؟ فإن أردت أن تكون حازماً وحاقلاً فلا تفعل ذلك ، فالؤمن يمتلك الكياسة والمطنة فلا يقبض على مثل هذا .

ويعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (٨٧)

وهذا يعني : أنه لا يوجد إله آخر سائر ليتدخل وينهي للسائل من خلف ظهر الخالق الأعلى سبحانه . « الله لا إله إلا هو » ليس هناك إله سواي ، لا تشريع يرسم صلاح أبشر إلا تشريعي وسترجعون إلي ، وليس هناك واحد يقول : « افعل » « ولا تفعل » ، والآخر يقول بالعكس ، إنه إله واحد ، والأمر منه بـ « افعل » هو الأمر الوحيد الصالح للإنسان . والنهي منه بـ « لا تفعل » هو النهي الوحيد الذي يجب حل العاقل أن يتجنبه ، ولذلك تجده يقول .

﴿ قُلْ يَكُفِّرُونَ ① لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ
③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ
دِينِي ⑥ ﴾

(سورة الكافرون)

إنه سبحانه يوضح : ليس هناك مطابقة بين دینین ، دین للکافرین ، ودین للمؤمنین ، لا ، بل هو دین ومنهج واحد صالح للإنسان هو منهج التوحيد جاءت به الرسل جميعها وحتم بالإسلام الذي لا دين بعده ، ولذلك جاء بعدها مباشرة .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① ﴾

(سورة النصر)

ويقال بعد ذلك بسورة المسد :

﴿ تَنْتَ بَدَأَ أَيُّ هَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَبْعَ مَرَّاتٍ نَارًا ③ ﴾

قَاتَ مَبِّ ⑤ وَأَمْرًا ⑥ ثُمَّ حَمَلَهُ الْحَطَبُ ⑦ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑧ ﴿٥﴾

(سورة المسد)

أما كان أبو طب يعذر أن يقول بعدها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ كان يقدر ، ولو قد لها لشكك في هذه الآية ، ولما ألوا : إنه لن يصل باراً ذات لب . إن هذا الأمر كان له فيه احتيار ، ولم يوبقه الله إلى أن يقوها ولو بفاقاً ، لماذا ؟ لأن الحق قال بعد هذه الآية مباشرة :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾

(سورة الإخلاص)

أي قل ليس هناك إله آخر يرد أمره سبحانه وتعالى : « الله لا إله إلا هو ليجمعكم إلى يوم القيمة » . وكلمة « يجمع » تعني أنه يخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعاً ، ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعني « ليجمعكم » أي ليحشرنكم من قبوركم لتتقى جزاء يوم القيمة .

لماذا جاء هذا القول ؟ جاء لكي يتحصصه العقل ، فلا يأخذ أنفلات نفسه من منج الله إلا بملاحظة الجزاء على الأعمال من المنج ، فلو أخذ نفسه منفلاً عن منج الله بدون أن يقدر الجزاء لكان أحمق وأحرق .

ولذلك قلنا . إن الدين يسرون على أنفسهم في المعصية لا يستحضرون أمام عيوشهم الخراء على المعصية . ولذلك يقولون : كل الجرائم إنما تتم في غفلة صاحبها من الجزاء ، فالجرم يرتكب جريته وهو مقدر السلامة بنفسه ، والسارق يذهب إلى السرقة وهو مقدر السلامة ، لكن لو وضع في ذهنه أنه من الممكن أن يتم القبض عليه لما فعلها أبداً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح إياك يا من تريد - بالاختيار الذي أعطيتك لك - الانحراف عن منهجي ألا تفكر الجزاء على هذه المخالفة . بل عليك أن تأخذها قضية واضحة ، واسأل كم ستعطيك المعصية من نفع وكم سيعطيك الله من خير على الطاعة ، وصع الاثنان في كفتي ميزان ، فالذي يعطيك الخير الأبقى أفعله ، وابتمد عما لا يعطيك الخير بل إنه يوقعك في الشقاء والشر .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ويوم القيامة هو اليوم الذى قال فيه الحق

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ①

(سورة الطنئين)

ولماذا يوم القيامة ؟ لأن آخر مظهر من مظاهر دين الناس أنهم حين يموتون ينامون ، وهذا ما نراه ، وبعد ذلك ندخله إلى القبر ولا نعرف كيف يأتى قائماً من نومه إلا بقول الحق : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » .

أى يجب أن يكون الإيمان بيوم القيامة لا شك فيه ؛ لأنك لو قدرت أن العالم الذى خلقه الله مختار ، إن شاء فعل الخير وإن شاء فعل الشر ، وهو - سبحانه - رود العباد بالمعصية ، وجعل لهم الاختيار ، وأنه - سبحانه - هو القادر على الجمع يوم القيامة لو قدرت هذا لا متنبها طلبه الله منك .

ونصرب هذا المثل لا للشبيه ، ولكن للتقريب - والله المثل الأعلى - الوالد يعطى ابنه جنيتها ويقول به : اشتر ما تريد ، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئاً معيذاً فسأكتفك ، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كأوراق اللعب أو غيرها فسأعاقبك .

ساعة أعطى الوالد ابنه القوة الشرائية وقال له : انزل اشتر ما تريد ، والابن ساعة اشترى أوراق اللعب هل هذا الشراء قد تم قهراً عن أبيه ؟ لا ؛ لأن الأب هو من أعطاه الاختيار ، لكن الابن فعل فعلاً غير محبوب لأبيه .

فما باننا بالعبد عندما يعطيه الحق الاختيار ؟ ولو أراد الله الناس جميعاً على هداية لجعلهم كالملائكة ، ولما جرؤ ولا قدر أحد أن يفعل معصية . فالمعصية عندما يرتكب المعصية إنما يفعلها لأن الله خلقه الاختيار . ولذلك فعندما يقول واحد : كل فعل من الله ، هو صادق . ولماذا يتعجب مرتكب المعصية مع أنه يوجه آلة الاختيار إلى ما تصلىح له ؟ ويقول إنه وجهها مخالفاً لأمر الله ، فالسكين للذبح ، إن دُبت بها دجلة لما استحق الذابح هل ذلك عقاباً ، لكن لو ذبحنا بها إنساناً لوقعنا في محذور يشبهه الحق بقتل الناس جميعاً فالذى جاء بالسكين إلى المنزل هل نقول له : « أنت أتيت بأداة الجرمية » ؟ لا ؛ لأنه جاء بأداة صالحة لأن تكون أداة للذبح ما يحل ذبحه أو أداة

لجريمة . إذن فحتى المختار لم يفعل اختياره إلا من ياطن أن الله خلقه مختاراً .

لكن هل الزمه الحق سبحانه وتعالى بأن يفعل المعصية ؟ لا ، فسبحانه أوضح لك : هذا لا أحبه ، وهذا أحبه . واختيارك له مجال . ولك أن تختار الشيء الذي يأتى بالنفع ولا يأتى بالضرر أو أن تختار عكس ذلك .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » هذا خبر من الله والكلام الخبري عندنا يشمل الصدق والكذب لذاته ، لكن لأن الخبر من الله فهو صادق . أما الكلام في ذاته فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وبذلك يذيل الحق الآية بما يلي : « ومن صدق من الله حديثاً ، وهل الصدق فيه تفاضل ؟ . ليس في الصدق تفاضل ، فمعنى الصدق مطابقة الكلام للواقع ، فالإنسان قبل أن يتكلم وهو عاقل ، يدبر المسألة التي يريد الكلام فيها ليحمل العقل فيها ، وبعد هذا ينطق بالكلام .

إذن نفى الكلام نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية . فعندما يقول واحد : « زيد مجتهد » هو قبل أن يقول ذلك جاء في ذهنه أنه مجتهد ، وهذه هي « النسبة الذهنية » ، وعندما يطلقها صاحبها تكون « نسبة كلامية » ، ولكن هل صحيح أن هناك واحداً اسمه « زيد » وأنه مجتهد ؟ . إن طابقت النسبة الواقعية كلاً من النسبة الذهنية والنسبة الكلامية يكون الكلام صدقاً . وإن لم يكن هناك أحد اسمه زيد ولا هو « مجتهد » لا تتطابق النسبة الخارجية الواقعية مع النسبتين « الذهنية » والكلامية ، فيكون الكلام كذباً . فالصدق يقتضى أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، أى مع النسبة الخارجية الحاصلة .

ولماذا يكذب الكذاب إذن ؟ . لمحقق لنفسه نفعاً يموّنه ولا يحققه الصدق في نظره أو يدفع عنه ضرراً . مثال ذلك : يكسر الابن شيئاً في المنزل كمنضدة قالاب يقول لابه : هل كسرت هذه المنضدة ؟ وينكر الابن : لا لم أكسرها . هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضرراً وهو الإفلات من العقاب ، لأنه يعلم أن الصدق قد يسبب له عقاباً . ولا يحمله على الكذب إلا ثبوت مضره قد نصيه من الصدق قبلجأ إلى الكذب . ويقول كلاماً يخالف الواقع .

إذن هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عن نفسه ضرراً . والذي ينفع الإنسان لا بد أن يكون أقوى منه . وكذلك الذي يضره . لكن بالنسبة لله لا يوجد من يسبب له سبحانه نفعاً أو ضرراً . إذن فلماذا قال الله فقله الصدق ، لأن الأسباب التي تدفع إلى الكذب هو - سبحانه - مزره عنها

وإذا كان الحق يعطينا الكلام الذي يوضح لنا واقع الحياة ويعطينا الكلام الذي لا يدخل في واقع حياتنا ويصف لنا الغيب الذي لا يدخل في نطاق ما نراه ، إذن فهو يكلمنا كثيراً

فقله الحق . « ومن أصدق من الله حديثاً » مؤكداً بالنسبة لك . وأفضل لتفصيلها لا تأتي للتمييز بين كلام صادق وكلام أصدق ، ولكن لمعرفة أن كلام الله لنا كثير . فالتكثير هنا إنما يعني من ناحية كثرة الكلام ، لا من ناحية أن هناك كلاماً صادقاً وكلاماً أصدق .

والتفاوت قد يوجد في الصدق أيضاً ، كيف ؟ لنفرض أن إنساناً رأى حادثة يقتل فيها إنسان إنساناً آخر ، فيشهد الشاهد بأنه رأى الدم يتدفق من القتل إثر التعام القاتل به ، ولكن هناك شاهد آخر يروي كل التفاصيل التي بدأت من قبل المشاجرة بين القاتل والقتيل إلى أن صار هناك قاتل وقتيل . وهكذا نجد أن الشاهد الثاني أشمل في الصدق من الشاهد الأول ، صحيح أن الشاهد الأول قال شهادة صادقة ، لكن شهادة الشاهد الثاني أشمل في القضية نفسها .

إذن فقله الحق . « ومن أصدق من الله حديثاً » أي أن الحق هو الأصدق بمعنى أن إخباره لنا جاء بالشمول الكامل ، وهو صدق لا تفاوت فيه ، فالصدق هو مطابقة السمة الكلامية للواقع ، ومادام هو كذلك فليس هناك صادق وأصدق ، ولكن أفضل التفصيل تأتي في « أصدق » باعتبار أن كمية الصدق الصادرة لا حدود لها وأنه سبحانه يعلم الأشياء على وفق ما هي عليه أي شمول كامل . وخلفه إن حدث منهم صدق في شيء فقد يحدث منهم الكذب في شيء آخر . فقد نقول فيه تعلم أنها صدق ، ولكنها في الواقع لا تكون صدقاً .

مثلاً ، فقد يقول قائل : رار فلان فلاناً بالأمس . هو اعتقد ذلك لأنه رأى حجرة الاستقبال في بيت فلان مضاءة فسأل عن انزافه فقبل له : « فلان » فهو يروى خبر هذه الريارة على وفق ما يعتقد ، ولا يقال : إن القائل قد كذب .

إنما يجب أن نفرق بين « الخبر » وبين « المخبر » ، كيف ؟ . إذا قلنا : « زيد مجتهد » ، أي وجد واحد اسمه زيد وعجته بالعمل ؟ . هذا اسمه الواقع . وهل أنت تعتقد هذا ؟ . إذن فالإنسان هنا يحتاج إلى أمرين : معرفة وجود الشيء ، واعتقاد الشيء ، وبذلك يكون الخبر صادقاً والمخبر صادقاً أيضاً .

وامرض أنك أخبرت أن زيداً مجتهد بناءً على أن أحداً قد أخبرك بذلك ولكنه لم يكن كذلك ، أنت هنا صادق وفق اعتقادك . لكن الخبر غير صادق في الواقع . إذن فبإفرق بين صدق الخبر وصدق المخبر . فإذا التقى الاعتقاد بالواقع صدق الخبر وصدق المخبر . وإذا كان الخبر موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق كموقف المناظرين الذين قال الحق فيهم :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّحُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

هذه القضية واقعة صادقة وأعلنوا هم ذلك ، ولكن الحق أصاب

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِّحِينَ لَكَذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

فالقضية صادقة ولكنهم كاذبون ، لأنهم قالوها بلا اقتناع فكانوا كاذبين . والدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد . إذن فصديق المخبر أن يطابق الكلام الاعتقاد . والتكذيب واضح في قولهم : « نشهد » ، وليس في قول القول وهو : إنك برسول الله ، فالشهادة تقتضي أن يوافق اللسان القلب .

ولذلك عندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم اللغة العربية .. فيفهم بالسطحية هذه الآية فهياً خاطئاً :

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَمِيقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ بِأَنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ بِشَهِيدٍ عَلَى الْمُتَمِيعِينَ كُذِّبُوا﴾

(سورة التوبة)

فكيف يشهد الله أنهم كاذبون ، على الرغم من أنه سبحانه يعلم مثلها شهد
النافقون ؟ . ولقد إن الخبر هنا لم يكن كذباً ، ولم يقل الحق ما يكذب الخبر ، لكنه
أوضح صدق الخبر وكذب النافقين في شهادتهم لأنهم يظهرون غير ما يبطنون
ويعتقدون ، فالتكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر أن محمداً رسول الله .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله
حديثاً »

إن المؤمن يعتقد أن يوم القيامة لا شك فيه ، يوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد
شك فيه ؛ لأنه لو كان هناك ريب نكان الذين الحرموا في الحياة الدنيا ولغوا في
أعراض أساس وأخذوا أموالهم وعائلاتهم في الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا ،
ويكون الطيبون والأحيار قد عاشوا في سذاجة . فالمنطق يقتضي أنه مادام قد وجد
أناس قد ظلموا واعتدوا ، وأناس اعتدوا عليهم ، فلا بد أن يكون هناك حساب .
ولا يكون هناك حساب إلا إذا انتهت حكاية المرات ، بالإحياء والحشر والخروج إلى
لقاء الله . ودليل هذا من الجاحدين أنفسهم ، كيف ؟ .

نحرم نعرف أن المجتمعات غير المتنبية يضع قانها القوانين التي تكفل حماية حركة
المجتمع . هم يضعون مثل هذه القوانين ، ومن يخالفها يتم حسابه وعقابه فإذا
كان العقاب يمنع المجاهرة بالحرمة ، فهذا يكون الموقف ؟ إن الماهر إذن هو من يفتح
في الإدارة عن عيون قادة هذا المجتمع ، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب .

إن هذه المجتمعات المتحدة تضع القوانين لحماية نفسها ، فإذا تعمل هذه
المجتمعات في الذين ستروا أنفسهم ؟ . هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن
يعاقبوا ، وكان يجب أن تقولوا أنهم إن هناك مكدراً آخر ودوراً أخرى يتم فيها عقاب
من أفلت منا فأنت أيها المصدق قد قننت لمن خالف تقنينك عقوبة وهذا إن وقعت

عليه عينك ، وقبضت عليه يدك ، فما قولك ميس لم تقع عليه عينك ولم تقبض عليه يدك ؟

إذن فنحن أهل الإيمان عندما نقول للملحد : إننا نكمل لك تفكيرك الناقص ونقول لكل الخلق : إنكم إن عَمِيتُمْ عَلَى بَضَاءِ الْأَرْضِ فَلَنْ تَقْمُوا عَلَى قِصَاءِ السَّهْلِ الذي لا تحفى عليه خافية . إذن فغير المؤمن يمتنع تأخذ منه الدليل على ضرورة المنهج . وعلى غير المؤمن بالمنهج أن يشكر أهل الإيمان ؛ لأننا نحن أهل الإيمان قد أكملنا له نقصاً في تقرير البشر ، وهذا لحماية المجتمع من الكيد بالجرمة والستر بالمخالفة .

« ومن أصدق من الله حديثاً » أى لا أحد أصدق من الله في الحديث . « أصدق » جاءت كأفعل تفضيل لا لأن هناك صدقاً يعطوه صدق أصدق ، بل لصدق واحد ؛ لأنه مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ولكن « أصدق » هنا لكثرة الحديث الذي حدثنا الله به عما شهد من عالم الملك وما لا نشهد من عالم الملكوت ، فإن تحدث الناس فلنما يتحدثون في عالم الملك الذي يدركونه بحواسهم ، ولكن الله إذا حدثنا سبحانه يحدثنا عن عالم الملكوت أيضاً ، فالله أصدق حديثاً ؛ لأنه أكثر من حدث .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾

كل جملة سبقتها « فاء » فمن اللازم أن يكون هناك سبب ومبب ، علة ومعلول ، مقدمات ونتيجة ، وكل الأشياء التي تكلم الحق بها سبحانه وتعالى فيها

يتعلق بمشروعية القتال للمؤمنين ليحملوا المنهج إلى الناس ، ويكون الناس - بعد
سماحهم بالمنهج - أحراراً فيما يختارون . إذن فالقتل لم يشرع لفرض منهج ، إنما شرع
لفرض حرية اختيار المنهج ، بدليل قول الحق :

﴿ لَا إِسْكَرَاءَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ أَلْبَاسُهُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وهل ذلك للإسلام لا يعرض الدين ، ولكنه جاء ليفرض حرية الاختيار في الدين ، فالقرى التي يعرق اختيار الفرد لدينه ، يقف الإسلام أمامها لترفع تسلطها عن الذين تبسط سلطاتها عليهم ثم يترك الناس أحراراً يعترفون ما يشاؤون ، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام بالسيف ، ظل فيها بعض القوم على دينائهم فلو أن القتال شرع لفرض دين لما وجدنا في بلد مفتوح بالسيف واحداً على غير دين الإسلام .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال في مواقع متعددة من سورة النساء ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿فَقِيلَ وَمَا لَكُم مِّن مَّيْلِ إِلَى اللَّهِ تَكُونُونَ أَنفُسُكُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ إِنتِلَالُ الْيَوْمِ الْقِيَامِ أَذْنَبْتُمْ كُفْرًا﴾ ﴿٥١﴾

(سورة الفاء)

شرع الحق سبحانه وتعالى قضية استهلامية هـ ، فيها معنى الإنكار وفيها معنى التبريح وذلك شائع في كل الأساليب التي تنفق معها في القرآن الكريم . فإذا سمعت كلمة «فإنك لا تفعل كذا» ، فكان قياس العقل يقتضي أن تفعل ، والمعجب ألا تفعل . ولا يمكن أن يأتي هذا الأسلوب إلا إذا كان يستنكر أنك فعلت شيئا كان ينبغي ألا تفعله أو أنك تركت شيئا كان عليك أن تفعل به .

فأجاب يقول للابن مثلاً : « مالك لا تذكر وقد قرب الامتحان ؟ » كأن منطق العقل يفرض على الابن ان كان قد اهل فيها مضى من العلم ، فما كان يصح للابن ان يهمل قبل الامتحان ، وهذا امر يلحق بالقياس العقل ، فكأن التشريع والقرآن مخاطبان المؤمنين الا يقبلوا على أي فعل إلا بعد ترجيح الاختيار فيه بالحجة القائمة

عليه ، فلا يصح أن يقدم المزمع من أى عمل بدون تفكير ، ولا يصح أن يترك المزمع أى عمل دون أن يعرف لماذا لم يعمل ، فكان أسلوب « ما لكم » ، و « ما لك » مثل قول أولاد سيدنا يعقوب :

﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا عَلَىٰ يُوْسُفَ ﴾

(من الآية ١١ سورة يوسف)

ما معنى فوهم هذا ؟ معناه : أى حجة لك ؟ أبان في أن نحرمتنا من أن نكون مؤمنين على يوسف نستصحبه في خروجنا . فكان القياس عندهم أنهم إخوة ، وأهم عصبه ، ولا يصح أن يخاف أبوهم على يوسف لا منهم ولا من شيء آخر يهدد يوسف ، لأنهم جماعة كثيرة قوية . وكذلك قول الحق :

﴿ لَمَّا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠)

(سورة الانشقاق)

أى أن القياس يقتضى أن يؤمنوا . وقوله الحق .

﴿ قَالَهُمْ هِنَا التَّذَكُّرَةُ مُعْرِضِينَ ﴾ (١٩) كَأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَعَمِّرُونَ ﴿٢٠﴾ قَرَّتْ مِنْ قَبْرِهِمْ ﴿٢١﴾

(سورة المدثر)

كان القياس ألا يعرضوا عن التذكرة . إذن فأسلوب « هاله » ، و « هالته » و « هالهم » ، و « هالكم » كله يدل على أن عمل المزمع يجب أن يستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع . أما أن يعمل الأفعال جزافاً بدون تفكير في حيثيات فعلها ، أو في حيثيات عدم فعلها فهذا ليس عمل العاقلين .

إذن فعمل العاقل أنه قبل أن يقبل على الفعل ينظر البدائل التي يختار منها الفعل ، فالتلميذ إن كان أمامه اللعب وأمامه الاستذكار ، ويعرف أنه بعد اللعب إلى رسوب ، وبعد الرسوب إلى مستقبل غير كريم ، فإذا اختار الاجتهاد فهو يعرف أن بعد الاجتهاد نجاح ، وبعد النجاح مستقبل كريم . فواجب التلميذ - إذن - أن يبدل قدره من الجهد ليتفوق . وكل عمل من الأعمال يجب أن يقارنه الإنسان بالنتيجة التي يأتي بها وبترجيح الفعل الذي له فائدة على الأعمال التي لا تحقق الهدف المرجو .

والآية هنا تقول : « فإلکم فی المنافقین فتنین » كان القياس يقتضى ألا نكون في فتنين ، بل يجب أن تكون فئة واحدة وكلمة « فئة » تعني جماعة ، والجماعة تعني أفراداً قد انضم بعضهم إلى بعض على رغم اختلاف الأهواء بين هؤلاء الأفراد وعلى رغم اختلاف الآراء ، إلا أنهم في الإيمان يجمعهم هوى واحد ، هو هوى الدين ، ولذلك قال لرسول :

(لا يؤمر أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) (١) .

فالمسبب للاختلاف هو أن كل واحد له هوى مختلف ولا يجمعهم هوى الدين والاعتصام بحبل الله المتين . وما حكاية المنافقين وكيف انقسم المؤمنون في شأنهم ليكونوا فتنين ؟

والفئة - كما عرفنا - هي الجماعة ، ولكن ليس مطلقاً جماعة ، فلا يقول عن جماعة يسرون في الطريق لا يجمعهم هدف ولا غاية : منهم فئة « عاقلة » أو الطائفة هم جماعة من البشر تجمع هدف ؛ لأن معنى « فئة » أنه يرجع ويضم بعضهم إلى بعض في الأمر الواحد الذي يجمعهم ، وكذلك معنى « الطائفة » فهم يطوفون حول شيء واحد والحق يقول : « فما لكم في المنافقين فتنين » هذا لفت وتبیه من الحق بأن نره عقولنا أن نكون في لأمر الواحد منقسمين إلى رأيين ، وحسباً إذا ما كنا مجتمعين على إيمان بإله واحد ومنهج واحد . والمنافقون - كما يعرف - هم الذين يظهرون الإيمان ويصطنون الكفر .

إننا نعرف أن كل المصوبات يؤخذ بها أسماء من الحسيات ؛ لأن الإدراك الحسى هو أول وسيلة لإدراك القلب ، وبعد ذلك تأتي المعاني . وعندما تأتي لكلمة « منافقين » نجد أنها مأخوذة من أمر حسى كان يشهده العرب في بيئهم ، حيث يعيش حيوان اسمه « اليربوع » مثله مثل الغار والضب . واليربوع مشهور بالكر والخداع ، ولكي يأمن الحيرانات لقي نهاجه فإنه يبنى لنفسه جحرين ، أو جحوراً متعقدة ، ويفر من الحيوان المهاجم إلى جحر ما ، ويحاول الحيوان المهاجم أن يتظره عند فوهة هذا

(١) رواه البغوي في شرح السنة ، وابن أبي حاتم في السنة ، والشيخ الحدي في كبر المعاني ، والخطيب البغدادي في

الجحر ، فيتركه اليربوع إلى فتحة أخرى ، كأن اليربوع قد خطط وأحد لنفسه منافذ حتى ينفذ ، فهو يصنع فتحة يدخل فيها في الجحر ، وفتحة ثانية وثالثة ، وذلك حتى يخرج من أى فتحة منها ، وكذلك المنافق .

ونعرف أن المسائل الإيجابية أو العنصرية حل ثلاثة أشكال . فهناك المؤمن وهو الذي يقول لسانه ويعتقد بقلبه وهو يحيا بملكاته منسجمة تماماً . وهناك الكافر وهو الذي لا يعتقد ولا يدين بالإسلام ولا يقول لسانه غير ما يعتقد ، وملكاته منسجمة أيضاً ، وإن كان يتطهر جراً كفره في الآخرة ؛ فملكاته منسجمة - لكن - إلى غاية ضارة ، وهي عاية الكفر . أما « المنافق » فهو الذي يعتقد الكفر ويعتقد عليه قلبه لكن لسانه يقول عكس ذلك ، وملكاته غير منسجمة ؛ فلسانه قد قال عكس ما في قلبه ؛ لذلك يحيا موزعاً وقلعاً ، يريد أن يأخذ غير الإيمان وحير الكفر ، هذا هو المنافق

وهناك جماعة - في تاريخ الإسلام - حيا رأوا انتصار المسلمين في غزوة بدر ، قالوا لأنفسهم : « الربيع في جانب المسلمين ، ولا نأمن أنهم بعد انتصار بدر وقتل صناديد قريش وحصولهم على كل هذه لعائم أن يأتوا إلينا » ، هذه الجماعة حاولت النفاق وادعت الإسلام وهم بمكة ، حتى إذا دخل المسلمون مكة يكونون قد حصنوا أنفسهم . لو هم جماعة ذهبوا إلى المدينة مهاجرين ، ولم يصبروا على مرارة الهجرة والحياة بعيداً عن الوطن والأهل والمال ، ففكروا في هذه الأمور ، وأرادوا العودة عن الدين والرجوع إلى مكة ، وقاموا للمؤمنين في المدينة : « نحن لنا أموال في مكة وستذهب لاستردادها ونعود » .

وبلغ المسلمون الخبر وانقسم المسلمون إلى قسمين : قسم يقول : نقاتلهم ، وقسم يقول : لا نقاتلهم . الدين يقولون : « نقاتلهم » دفعهم إلى ذلك حمية الإيمان . والدين يقولون : « لا نقاتلهم » ، قالوا : هذه الجماعة أظهرت الإيمان ، ولم نشق عن قلوبهم ، وربما قالو ذلك عطفاً عليهم لصلوات أو أوصار .

فجاء القرآن ليحسم مسألة انقسام المسلمين إلى قسمين ، ويحسم أمر الاختلاف

وعندما يأتي القرآن ليحسم فهذا معناه أن رب القرآن صرح بجهود الإيمان على عبده ، وساعة يرى أي خلل فيهم فسيحاربه بحسم المسألة ، فقال : « فإياكم في المنافقين فتيين » .

والخطاب موجه للجماعة المسلمة ، فقوله : « فإياكم » يعني أنهم مترددون على هدف واحد ، وقوله : « فتيين » تعيد أنهم مختلفون .

إذن « فتيين » تناقض الخطاب الذي بدأه الحق بـ « فإياكم » ، كان المطلوب من المتلقى للقرآن أن يفكر المعنى كالآتي : فإياكم افترقتم في المنافقين إلى فتيين ؟ إذن فهذا أسلوب توبيخي وتهديدي ولا يصح أن يحدث مثل هذا الأمر ، فهل ينصب هذا الكلام على كل المحاطين ؟ نظر ، هل القرآن مع من قال : « نقتل المنافقين » أو مع من قال بغير ذلك ؟ فإن كان مع الفئة الأولى فهو لا يؤنب هذه الفئة بل يكرمها ، إن القرآن مع هذه الفئة التي تدعو إلى قتال المنافقين وليس مع الفئة الثانية ، لذلك فهو يؤنبها ، ويوبخها . والأسلوب حين يكون توبيخاً لمن يرى رأياً ، فهو تكريم لمن يرى الرأي المقابل ، ويكون صاحب للرأي المكرم غير داخل في التوبيخ ، لأن الحق أعطاه الحيثية التي ترفع رأسه .

والحق يقول : « فإياكم في المنافقين » أي إن الحق يقول . أي حجة لكم في أن تفرقوا في أمر المنافقين إلى فتيين ، والقياس يقتضي أن تدرسوا المسألة دراسة عقلية ، دراسة إيمانية لتنتهوا إلى أنه يجب أن تكونوا على رأي واحد ، ومعنى الإنكار هو : لا حجة لكم أيها المؤمنون في أن تنقسموا إلى فتيين .

ويقول الحق : « والله أركسهم بما كسبوا » وساعة تسمع كلمة « أركسهم » ماذا نستفيد منها حتى ولو لم نعرف معنى الكلمة ؟ نستفيد أن الحق قد وضعهم في منزلة غير لائقة ونشعر أن الأسلوب قد حل بكسبهم وجعل مقدمهم مؤخرهم أي أنهم انقلبوا حتى ولو لم نفهم المادة المأخوذة منها الكلمة ، وهذا من إيماءات الأسلوب القرآني ، إيماءات اللفظ ، وانسجامت حرومه .

« والله أركسهم بما كسبوا » و « أركسهم » مأخوذة من « ركسهم » ومعناها

« ردهم » . كأنهم كانوا عن شيء ثم تركوه ثم ردهم الله إلى الشيء الأول ، وهم كانوا كفلاً أولاً ، ثم آمنوا ، ثم أركسهم ، لكن هل الله أركسهم نعتاً عليهم أو قهراً ؟ لا ؛ فهذا حدث « بما كسبوا » ، وذلك حتى لا يدخل أحد بنا في متاهة السؤال ولماذا يعاقبهم الله ويوبخهم مادام هو سبحانه الذي فعل فيهم هذا ؛ لذلك قال لما الحق . إنه أركسهم بما كسبوا . وه أركسهم ؛ مادته مأخوذة من شيء اسمه « الرُكس » - بفتح الراء - وهو رد الشيء مقلوباً ومنه « الرُكس » بكسر الراء وهو الرجيع الذي يرجع من معدة الإنسان قبل أن يتمثل الطعام مثله نقول : « إنه فلاناً خمت نفسه عليه » أو « فلان يرجع ما في بطنه » .

وعندما سطر إلى هذه العملية نجد أن الطعام الذي يشتهي الإنسان ويحبه وقيل عليه ويأكله بلذة ، وتنتظر عيونه إليه باشتهاء ، ويده تقطع الطعام بلذة ويمضغ الطعام بلذة ، هذا الطعام بمجرد مضغه مع بعضه ينزل في المعدة وتصف إلى العصارات المهضمة ، فإذا رجع فإنه في هذه الحالة يكون غير مقبول الرائحة ، بل إن الإنسان لو هضم الطعام وأحد منه المفيد وأخرج الباقي بعد ذلك ، فرائحة الفضلات الطبيعية ليست أسوأ من رائحة الطعام لو رجع بدون قئيل . فلو رأيت إنساناً يقصى حاجة وأحرى يتقيا الطعام ، فالنفس تنفر من الذي يتقيا أكثر مما تنفر من الذي يقصى حاجته ؛ لأن « الترجيع » يخرج طعاماً خرج من شهوة المضغ والاستمتاع . ولم يصل إلى مسألة التمثيل

ولذلك سمع المثل « كل ما فعت اللسان صار نكاح » . وه الرُكس هو الرجيع الذي يرجعه الإنسان بعد الطعام قبل أن يتمثله . فالطعام بعد أن يتمثل ويخرج من المكان المخصص له يصح رؤا ، وعاطفا وبراراً . والحق سبحانه وتعالى قد جاء بالكلمة التي يصفهم : « والله أركسهم » أي أنهم ارتدوا من قبل أن يتمتعوا بل شيء من الإيمان .

هذا هو التعبير القرآني الذي جاء بالعبارة التي تؤدي هذا المعنى ، وتؤدي إلى نفرتنا منهم ، فيكون الإركاس هو الرد ، وهل هو مطلق الرد ، أو رد له كيفية ؟ هو رد بإهانة أيضاً ، كيف ؟ لأن الشيء إن كان قوامه أن يقف رأسياً ، يكون الرُكس أن نجعل رأسه في مكان قدمه وقدمه في مكان رأسه . وعلى ذلك فالرد ليس رداً عادي بل إنه

رد جعل المردود مُرَوِّا . وإن كانت استقامة الأمر على لامتداد الطولي ، يكون
الركس بأن تأتي بما في الخلف إلى الأمام ، وبما في الأمام إلى الخلف ، فتقلب له
كيانه . وتعكس حاله .

والقرآن يصف لكافرين والمنافقين :

﴿ ثُمَّ نَكِرُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنبياء)

لماذا ، لأن الرأس مَبْنِيٌّ على القامة والحامه والارتدع . هذا الرأس يُجْعَلُ مكان
القدم ، والقدم يكون محل الرأس . إذن ففوله : « والله أركسهم » أى لم يردهم
مطلق الرد ، بل رَدَّهم ردا مهيا ، رداً يعلب أوضاعهم

« والله أركسهم بما كسبوا » إذن فلا يقولن أحد : مادام الله قد أركسهم فما
دبيهم ؟ إن الله قد أركسهم « بما كسبوا » ، فهم كانوا فاعلين لا منفعلين .

وإليكم هذا المثل - والله المثل الأعلى - حين نضع المدرسة أو الجامعة درجات
للتجاح في كل مادة . تهجد مادة يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة ستين في المائة
وأخرى على سبعين في المائة ، ويدخل التلاميذ الامتحان ، وعندما يرصّب أحدهم
لا يقال : إن المدرسة قد جعلته يرصّب ، صحيح هي أرسبته ولكن وفق القوانين التي
وضعتها المدرسة أو الجامعة من قبل أن يدخل التلميذ الامتحان ، ولأنه لم يبدل العهد
الكافي للتجاح ، فقد أرسب نفسه .

إذن ، فذاك لم يأت بالركس ورماء عليهم . بل هم الذين كسبوا كسباً جعل قضية
السنة الكونية هي التي تؤدي بهم إلى الركب ، مثلهم مثل التلميذ الذي لم يستذكر
فلم يُجِبْ في الامتحان ، فلا بدل عن هذا التلميذ : إن المدرسة أرسبته . ولكنه هو
الذي أرسب نفسه .

ولذلك عندما يقال : الله هو الذي أضلهم ، فما ذنبهم ؟ هذه هي القضية التي
يقول بها السرفون حل أنفسهم . ولهذا نقول هذه الآية « والله أركسهم بما
كسبوا » وكذلك أصل الله الضالين بضلهم ، كيف ؟ .

سعى عرفا أن الهداية تأتي بمعينين ، هداية الدلالة وهداية المعونة ، ويأتى المسرفون على أنفسهم الذين يودون أن تكون قضية الدين كاذبة - والعياذ بالله - لأن قضية الدين عندما تكون صدقاً فإن الدين أمرنا على أنفسهم يتبعون أهم ذاهبون إلى دهاء وأمر منكر شاق عليهم ؛ لذلك نجد الواحد منهم يضحك في محاولة عدم التصديق ، والدخول إلى متاهات بصنعها الفهم السطحي للدين . ولذلك نجد المناقشات التي يباشرها ندد على أنها مناقشات المسرف على نفسه ، فيقول الواحد منهم : مادام الله هو الذى كتب عن كل شيء فلماذا يعذبني وهو الذى كتب على المعاصي ؟

نقول له : ولماذا آمنت في هذا الموقف بالذات أن الله هو الذى كتب ؟ ، وما دمت قد آمنت بأن الله هو الذى كتب فلماذا لا تؤمن به وترتضى أحكام منهجه ؟ . ولكن الواحد منهم يحاول أن يقف وقفة ليست عقلية ، فالوقفة العقلية الصحيحة تقتضى أن تأتى بالقضية المقابلة وهى أن الله إذا كان قد كتب على العبد الطاعة فلماذا يشبهه ؟ . لماذا تنسى قضية الطاعة والثواب عليها ؟ ؛ لأنه يعرف أنها القضية التى تجلب الخير ، ووقف في القضية المقابلة التى تأتى بالشر ، ولا يقول هذا القول إلا مسرف على نفسه . ولا يرى متزاماً بمسح الإيمان يقول مثل هذه القضية ، فالمؤمن يجب أن تسير الأمور على صورة منهج الله ، ولذلك أنا إلى الآن - وليساعثنى الله وليعفروا - أتعجب من أن العلماء الذين سموهم جعلوا من هذه المسألة محل خلاف . وقالوا : معزلة وأهل سنة (!!)

المسألة كنها يجب أن نعلم على أساس أن الإسلام دين فطرة ، وم يأتى للعلاصة فقط ، إنه جاء للعقل العطري ، وزاعى لشارة في الإسلام كالفيسوف ، ومن يكتسب الشارع أو يمسح الأحذية مسلولى حرم الفلسفة أو الحقوق ؛ لأن الإيمان لم يأت لطائفة خاصة ، ولكن المنهج قد جاء للجميع ، ولا بد أن نكون أدلته واضحة للجميع ، فعندما يقال لنا : إن الله يعلم كل شيء فيك ، لا يدخل معك في متاهة ، هو - سبحانه - يقول لك .

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٣)

(سورة الملك)

فالذى صنع الكرسي - والله المثل الأعلى - ألا يعرف أن الكرسي مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب « زان » أو « أرو » أو « عجه » ، وأن المسبار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسبار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسي أى صنف من الخراف استعمل فى لصق أجزاء الكرسي ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسي بها

إذن فقول الحق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » لا يحتاج إلى جدال . ولذلك نجد التجار الذى يرغب أن تكون مصنعة مكشوفة واضحة بقول للمشتري :

سوف أصنع لك الكرسي من خشب الران وعليك أن تمر يوماً لترى مراحل فعله

وببدأ صناعة الكرسي مرحلة مرحلة تحت إشراف الزبون . وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرحل . وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكون الفسقاط وهو بيت يتخذ من الشجر . وقد جاء سبحانه بما يدحض أى جدل ، ويدون الدخول فى أية مهارات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وقال : جاء الحق بهذا القول الفصل :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٧١)

(سورة تلك)

هو يعلم وهذا أمر سهل عليه ، ولذلك أتعجب كيف أدخل هؤلاء العلماء هذه المسألة فى مناهة فلسفية ، فالإسلام دين العطرة .

ولذلك نجد العلماء الذين ناقشو هذه المسألة - جزاهم الله خيراً - جاءوا فى آخر مطافهم ، وقالوا :

نهاية إنعدام العقول يقال
وأكثر سعى المللين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وأنا أريد أن أعرف ماذا تقدمت الفلسفة النظرية للعالم من خير ؟ . لقد انقصت عنها الفلسفة المادية ودخلت المعص وأخرجوا لنا الابتكارات التي انتفع بها الخلق . لماذا فعلت الفلسفة النظرية ؟ . لا شيء . ونقول : جاء الإسلام بالعقيدة القطرية ، ومعنى العقيدة القطرية أن الناس فيها سواء ، فالأدلة العقلية تقتضي الموضح لمن تعلم ولم يعلم .

والفلاسفة هم الذين قالوا : بأدلة الغاية وأدلة العناية وأدلة القصد . لكن البدوى الذى سار فى الصحراء وجد بحر البعير ووجد الرمل وعليه أثر قدم ، فقال : إذا كانت البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟ . هو لم يدخل فى فلسفة أو متاعه مثلاً دخل الفلاسفة مع بعضهم فى مشاهد عقلية وحلها اليسوى فى جهة واحدة وكذلك نجد واحداً من الناس يسأل واحداً من أهل الإشراف : ألا تشفق على الله ؟ . فيقول له إنما يشفق على غائب ، ومنى غاب الله حتى يشفق إليه ١٢ .

لذلك نقول من اختلفوا فى أمر رد الله هؤلاء : نريد أن نكرم عقولكم وننظر لماذا اختلفتم فى هذه الحكاية « أركسهم بما كسبوا » .

نقول مع حسن الظن بهم ، إن كل واحد منهم تعصب لصفة من صفات الحق ، فواحد منهم يقول : « الله خالق كل شيء » . فنقول له : أنت قد تعصبت لصفة القدرة وطلقتها فى الحق .

وجاء ثانياً وقال : ولكن الله عادل . ولا يمكن أن يخلق فى الكافر كفره ثم يعذبه عليه . إنه متمصّب لصفة العدل . وكل منهما ذاعب إلى صفة واحدة من صفات الحق . وتنبأ الاثنان أن هذه الصفات إنما هى لذاته - تعالى - فسبحانه قادر وعادل معاً . فلا هذه تملك منه ولا تلك .

ونقول لمن يقول : إنه الله خالق كل شيء وخالق كل فعل . ما الفعل ؟ . العمل هو توجيه جارحة لإحداث حدث ، فاللوى يمسح وجهه بيديه يوجه يديه لوجهه حتى يمسحه ، وهذا الفعل لا يفعله صاحب العمل ، ودليلنا على ذلك الإنسان الآلى

نضغط على أكثر من زر لتحقيق هذا الفعل ، هذا الإنسان الآلى حتى يتحرك حركة واحدة لا بد من ضغط وتحريك عدد آخر من القرى . لكن الإنسان حتى لمس وجهه بيديه اكتفى بأنه بمجرد أن أراد مسح الوجه باليد مسح الوجه . فهل أمسك من لمس وجهه بشئ وضغط عليه ليمسح وجهه ؟ .

إنه بمجرد أن أراد فعل وسائل جرافة التراب يحرك عدداً من الأذرع الحديدية حتى يحرك الجرافة إلى أسفل ، ثم حركة أخرى ليمسح كباشة التراب ، وحركة تقيص أسنان الكباشنة وحركة أخرى ترفع التراب ، كل ذلك من أجل أن يرفع التراب من مكان ما إلى مكان آخر ، والواحد منا بمجرد أن يريد أن لمس وجهه فهو لمس وجهه ولا يعرف أى عضلات تحركت ، فمن المسمى فعل كل ذلك ؟ . إنه الله .

فيا من تتعصب لصفة القدرة . فانه هو الذى فعل والعبد هو الذى وجه الطاقة التى تفعل فانه فإذا كانت إلى غير مراد الله يصير العبد عاصياً ، وإن وجهها إلى مراد الله فيكون طائعاً ، ويكون له الكسب فقط ، فالذى يقتل واحداً ، هو لم يقتله ، لأنه لم يقل له : « كن قتيلاً » فيكون قتيلاً ، ولكن القاتل يأتى بسكين أو سيف أو مسدس ويرتكب فعل القتل . فإذلة القتل هى التى قامت بالفعل ، والقاتل إنما أخذ الآلة الصالحة لفعل ما ولغيره ، فوجهها لذلك الفعل . فيا من تريد العدل ، إن الله بعدل على العصبية ، لأن الإنسان استعمل أداة مخلوقة للمع ولعنده ، فجعلها تؤدى فعلاً غير مراد الله أى لا يرضى عنه الله ولا يجبه ، ومع ذلك فانه هو الفاعل لكل شئ .

ونعرج إلى الآية التى نحن بصدد خراطنا عنها : « في لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » وما دام هو سبحانه الذى أركسهم بما كسبوا ، وأنتم مؤمنون بالله فلا بد أن يكون الرأى فيهم واحداً ، لذلك يتساءل الحق . « أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ » وسبحانه لا يريد أن يقدم لهم العثر ، إنما يريد أن يظهر لهم هدايته سبحانه وهى هداية لا تنأى لهم ، لأنه قد أضلهم فأبى لهم الهداية . فليإذا يقف جانب من المؤمنين في صميمهم ؟ .

لأن الله حين يهدى فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء يوضح القوائيم الموصحة

للهداية أو الصلال ونحو إن سمعنا « أن الله هدى » يفهمها على معنيين : المعنى الأول أنه « دل » ، والمعنى الثاني أنه « أعان ومكن » . « دل » تكون بمعنى « دل » ، وهدى تكون بمعنى « أعان » . وسبق أن قلنا : إذا كان هناك إنسان يمشي في الطريق ويريد الاتجاه إلى الإسكندرية وهو لا يعرف الطريق الموصل . فيسأل شرطى المرور فيشير الشرطى : هذا هو الطريق الموصل إلى الإسكندرية. إن الشرطى هدى هذا الإنسان ودله على الطريق ، لكنه لم يجعل الإنسان على أن يسير في الطريق ، فإذا ما صدق المسافر قول الشرطى وقال له : إني أشكرك وأكثر الله من خيرك والحمد لله أننى وجدتك ، فلولا وجودك لتعبت ، هنا يقول الشرطى : أنت رجل طيب والطريق إلى الإسكندرية به « مطب » وعقبة ، ساركب معك حتى أدلك على مكان هذه العقبة . وبذلك يتجاوز الشرطى مرحلة « الدلالة » إلى مرحلة « المعونة » وسبحانه أوصح : ساعدى الناس جميعاً وأرشدهم وأدبهم ، فالذى يقبل على الإيمان بى ساعاونه على ذلك .

ولذلك يقول :

﴿ وَأَمَّا تَرْدُ فَهَدَيْنَهُمْ فَلَسَجَبُوا أَلَمْ يَكُنْ عَلَى الْهُدَى ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

وه هديتاهم « هنا بمعنى « دللهم » فقط ، أما أن يسلكوا سبيل الهداية أو لا فالأمر متروك لهم . والهداية - إذن - ترد بمعنى الدلالة ، وترد بمعنى لإعانة . والحق يمين من ؟ يعين من آمن به ولكن من يكفر به لا يعينه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

وكذلك :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

إذن فله هدايتان : هداية عم الناس بها جميعاً وهى هداية الدلالة ، وأخرى تخص بها من جاءه مؤمناً به ، وهى هداية « المعونة » . ولذلك قال الحق للرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهذا القول فيه نفى الهداية عن الرسول ، وهو سبحانه المائل أيضاً

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

وليس من المقول أن ينفي الحق الهداية عن الرسول ثم يشتتها له . ونمهم من ذلك : إنك يا رسول الله تدل على الحق ، ولكنك لا تعين عليه . والله هدى الناس جميعاً فدلهم على طريق الخير . فمن آمن به وأقبل عليه يسر له الأمر .

وبذلك نكون قد عرفنا تلمهاً معنى قوله الحق : « والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً » . فالذي يضل الله هو من اكسب ما يوجب أن يضل فلا تجد له سبيلاً . وكان من الممكن أن يقول الله : أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلا تستطيعون أن تهدوه ، ولكن الأبلغ هرما بوصفه سبحانه لك - أنتم لا تستطيعون هداية هذا المكتسب للضلال ، ذلك أنه لا يوجد سبيل حتى تهدوه إليه . فالسبيل هو الممتنع وليس الهداية فقط .

والسبيل هو الطريق الذي يعطيك حقاً في الهداية . فإذا ما امتنع السبيل لماذا تفعل ؟ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً في أن ينقض هذا القرار ، أى لا حاجة له على الإطلاق . ولذلك أخذنا للمعنيين هنا ، فالذين يناقشون يظهرون الإيمان مرة ويتقلبون إلى الكفر مرة ، هم ينكرون الإيمان بقلوبهم والذي يقولون بالستهم هو الإسلام ، أما الإيمان فلما يدخل في قلوبهم .

وما هو الأعر على النفس الشرية ؟ مكونات القلب أم مقولة اللسان ؟
الأعز هو مكونات القلب . وماداموا هم لا يؤمنون بقلوبهم ويقولون فقط بالستهم ، فالمعينة داخلهم معقودة على الكفر ، ومادامت العقيدة معقودة على الكفر فهم لا يريدون أن يأتوا إلى صف الإيمان ، ولكنهم يريدون جر المؤمنين إلى معسكر الكفر ، لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذُوَا لَو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن
تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٨٩ ﴾

وهذا ودوا ، صميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين ،
وحكم الله في صالح الفئة التي أرادت أن تقف معهم موقف القوة والبطش
واجبروت ، فقال سبحانه وتعالى تعليلاً لنفاقهم : « وذو لو تكفرون كما كفروا » ثم
إن نفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره ،
لأنهم كافرون بقلوبهم ، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين
به ، فيحاولون أن يظهرُوا أنهم مسلمون ليحافظوا لنصرة الإسلام وذيوعه ، فهم في
كرب وتعب ، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيراً من الأفكار في رؤوسهم يقولون
نعلم أمام المسلمين أنت مسلمون ، وعلو أمام الكافرين أنا كافرون .

وما الذي أجالهم إلى هذا الحال ، وقد كانوا قديماً على وثيرة واحدة ، ألسنهم مع
قلوبهم قبل أن يحيى الإسلام ؟ إذن فالذي يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسي
ويخرجهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضريهم ومستقبلهم هو أن تنتهي
قضية الإسلام ، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون . بل يصير الكل
كافراً .

« وذو لو تكفرون كما كفروا » والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له
جميع الجوارح إن قلرت ، فإداموا يودون أن يكون المسلمون كافرين ، إذن سيقعون
في سبيل انتصار المسلمين ، وسيضعون العقبات التي تحقق مطلوبات قلوبهم . لذلك
فاحذروهم ، سأفصح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وحائثات
أمرهم وعائات الستم

« ودوا لو تكفرون » ونعرف أن كلمة « الكفر » تعني « الستر » ، فالفعل « كفر » معناه « ستر » . ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق في داته هو أنه لا يمكن أبداً أن يعطسه خصومه ، فاللفظ الذي جاء ليحدد المضاد لله هو عينه دليل على الإيمان بالله فعندما نقول : « كفر بالله » أي « ستر وجوده » ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود ، ولذلك نجد أن لفظ « الكفر » نفسه دليل على الإيمان ، فلفظ « الكفر » في ذاته تعني إيماناً موجوداً بإمامه صاحبه نفسه أن ينطويه ويستره « ودوا لو تكفرون كما كفروا » وهذا القول جاء بعد أن قال الحق :

﴿ مَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

ويدل عن أسم يوصفون مرة بالمتنافرين ويوصفون مرة بالكافرين . وسبهم الله في آية بـ « المنافقين » ويصفهم الحق في هذه الآية بأنهم كفروا « ودوا لو تكفرون كما كفروا » والكفر الذي يحى ، وصفه هو يدل على مكنون القلب ، فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام ، لكن الباطنيات لم يأخذوها ، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار في الآخرة ، وإن كانوا في الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . لكن الله يعاملهم في الآخرة معاملة الكافرين ، ويريد عليها أنهم في الدرك الأسفل من النار .

إذن فأصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يحملون لسانهم مع قلوبهم في الخهر بالباطل ، وإن كان عندهم ضعف يحملون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق . وهذه العملية ليست مريجة في كلا الموقعين . فالمرجح لهم ألا توجد للحق طائفة . لذلك يقول سبحانه وصفاً لحقيقة مشاعرهم : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكبدون سواء » . فهم يتمشون بإزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد ، مثلاً نقول مفيش حد أحسن من حد .

مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين في مصلحة حكومية ، ويكون من بينهم واحد مختلس لو لا يؤدي عمله على الشكل الراجي المطلوب ، لذلك فهو لا يجب أن يؤدي الآخرون أعمالهم بمتنهى الإتقان ، ويريدهم فاسدين ، ويحاول أن يفرجهم

بالفساد حتى يكونوا مثله ، كى لا يظهره أمام نفسه بمظهر النقيصة وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم .

ومن العجيب أننا نعد الذى يسرق يحترم الأمين ، وكثيرا ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هالك كميناً ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضح عنده المسرقات كأمانة .

وقول الحق عن أمية المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم « فتكونون سواء » . وهذه شهادة في أن صاحب الباطل يجب من صاحب الحق أن يكون معه لأنه حين يجده في الحق ، فصاحب الباطل يحترق نفسه ، وقد حدثت المعجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كفروا به وعذبوا صحبته ، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعاً . فما هوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يجر من مكة ويخلف « علياً » كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التي عنده .

هم كذبه في الرسالة ، ولكنه الأمين باعترافهم جميعاً ، لذلك لودعوا عنه الأمانات إذن فصاحب الفضيلة يحترم حتى عند صاحب الرذيلة وحتى نتعرف تماماً على هذا المعنى ، فلنفترض أن إنساناً وقع في مشكلة ، سبب أحداً من الناس وربع المعتدى عليه دعوى قضائية على هذا المعتدى الذي سبه ، ولهذا المعتدى صديق عزيز ، استشهد به المعتدى عليه ، يقول للمعتدى : أتشهد على ؟ وينهب الصديق إلى المحكمة ليقول : « لا أقول صديقى مثل هذا السباب » . وما شهد الصديق لصديقه شهادة زور . ولنفترض أن هذا المعتدى قد تاب وأتاب وصار من الأتقياء ، وجعله الناس حكماً بينهم ، وجاء له الصديق الذي شهد الزور من أجله ليشهد أمامه ، فهل يقبل شهادته ؟ طبعاً لا .

إذن صاحب الفضيلة يحترم حتى عند صاحب الرذيلة ، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ ، فهو يسعى إلى إصلاله ، وينطبق على ذلك قول الحق : « ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء » ومدام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا ينزكوا المؤمنون على إيمانهم ، لأجل أن يأخذوهم إلى صف الكفر . وهم بذلك كمتنافقين كمل قلوب غير مخلصين لصف الإيمان . وهم

لا يقفون من الإيمان موقف الحياد ، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة
« ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء » وفي هذا تحذير واضح للمؤمنين هو :
إياكم أن تأمومهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم

ويصدر الحق الحكم في هذه القضية بمنتهى الوضوح : « فلا تتحدوا منهم أولياء »
أي إياكم أن تتخللوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة ، لأن الله سبحانه فصيح
لكم دخال نفوسهم ، وهذه المسألة ليست خربة لازب ، فإن أب الواحد صهم
وأتاب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يرده الله ، فسبحانه وتعالى لا يضلهم أحدا
لمجرد أنه ارتكب الذنب ، لأنه الحق غفور ورحيم ، فإدام قد عاد الإنسان إلى
الصواب ويعد عن الخطأ ، فعمل المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص ،
والكراهية لا تتعد حد أحد لأنه أخطأ ، لأن الكراهية تكون للعمل الخطأ ، وليست
موجهة ضد الإنسان المخلوق لله ، فإن أفلحوا عن الخطأ ، فهم مقبولون من
المؤمنين .

وهاهنا قاتل زيد بن الخطاب ير أمام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال له
بعض الناس هاهنا قاتل أخيك زيد فيقول عمر بن الخطاب . وماذا أفعل به وقد
هداه الله للإسلام 19

وهكذا نرى أن الكراهية لم تنمذ إلى ذات القاتل ، ولكن الكره يكون للفعل ،
فإن أفلحت الذات عن الفعل فالذات لها مكانها . وهكذا يصدر الحكم الرباني .
« فلا تتحدوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » .

والهجرة في سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن
أهله ، ويذهب إلى حياة التشف والتب والمشفة ، وفي هذا ما يكفر عنه ، ويتعرف
المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وأن له الأوان أن يدخل في حوزة
الإيمان . فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان . ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا
الدواب عن الأفعال . لماذا ؟ لأن الدواب في ذاتها لا تستحق أن تكره ، وإنما يكره
فعل الدواب إن كان قبيحا سيئا .

وحين نقرأ القرآن نجد به عرض مثل هذه المسألة ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحى الله بأن يصنع السفينة ، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرون منه فيقول لهم سيدنا نوح : منسخر منكم غداً كي تسخروا مني ، ويأتى له ابن ليس على ما بهجه ، فيدعوه نوح إلى النجى فيقول الابن - « لا » . ويركب برح السفينة ويقول الله : لقد وعدتني أن تنجيني أن وأهل

وما يوضح الحق صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك ، ولكن ما الذى جعلك تعتبر بيت من أهلك ، إن الدواب عند الأنبياء لا نسب لها ، إنما نسب الأنبياء الأهل

﴿ إِنَّكُمْ عَلَىٰ عَمَلٍ غَيْرٍ مُّسْتَلِحِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن العمل هو الذى يتم تقيمه ولذلك يقول الحق : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » والمهجرة من « هجر » ، وهجر ، يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عن ود إلى ود ، أو عن خصلة إلى خصلة ، والذى يهاجر عادة يتجنى على من « هجر » ، لتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى في كتابه عندما يأتى بالحديث يأتى به هاجر ، ولم يأت بالحادث « هجر » ، فالله صلى الله عليه وسلم لم يهاجر مكة . ولكنه هاجر منها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجون منك ما خرجت » (١) .

فالمهجرة جاءت ، لأن أهل مكة هجروه أولاً ، فاضطر أن يهاجر . وه هاجر ، على وزن « فاص » . والمتنى يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدر

ألا تفارقهم فإلراحلون هم

ولذلك جاء الحق بالمهجرة على صيغة المعدلة . لقد كرهوا دعوتى واستجاب الرسول للكراهية فهاجر .

ويوضح سبحانه أن الذي يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم ، ألا يتحد المزمون منهم أولياء هو : أن يهاجروا في سبيل الله ؛ لأن ذلك هو حيشه صلب الإيمان . فلهاجر يحيا عيشة صعبة . وقد عاش المهاجرون هل قبض الله من خبر الأنصار ، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق . إذن فمن ينضم إلى ذلك للوكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفر عما بدر منه . فليست الهجرة مجرد هجرة ، ولكنها هجرة في سبيل الله .

ولذلك يرى القاعدة الايمانية في الحديث اسبوى . « إنما الأصحاب بالباب وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دينا يصيبها أو امرأة يتكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) .

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن عاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان . لكن ماذا لو تولى المنافقون ؟ « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » والأخذ إذا جاء في مقام النزاع فمعناه الأسر وقتلهم في ساحة القتال أمر واجب ، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء ؛ لأن الواحد من المنافقين يكون حسيبة على المؤمنين ، ويحاول أن يهرق أمور وأحوال المسلمين ، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن ينفع منه العدو إلى المسلمين . ويستमित لهمرف ما يبيت المسلمون للكافرين

والتخاذ التولى أو النصير عن نعلم أنه لا يجب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشكك في صلب بصيرة الإنسان الذي يتولى ويود غير المسلمين المخلصين فحين يرى الواحد منا إنساناً آخر لا يحبه ويكيد المكائد ، وعندما يراكم تتق فيه وتحسن إليه ، يقول هذا الكفرة : هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما في قلبه لما فعل ذلك . فلماذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون عن ما هم عليه من عاق لقال للمنافقون : إن المسلمين فاقدو البصيرة وهم لا يعلمون ما في قلوبهم ؛ لذلك يبرالحق بصيرة المؤمنين حتى لا نأخذ رأياً من المنافقين ينال منا

وقد يقول المنافقون : إن هؤلاء المسلمين ليس لهم رب يصبرهم ، فلماذا يدعون

أن لهم إلهاً ؟ . لو كان لهم إله لبحرهم بما في نفوسنا . ونجد هذا المضحح لهم عندما يقول الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة النحل)

وعلم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سيلذكونها فيما بعد . فمن هؤلاء من سيكون سيفاً للإسلام بعد أن كان سيفاً على الإسلام ؛ فقد ادعاهم الله ليكون بعض منهم سيفاً للإسلام ، فيها هوذا ابن الوليد يبتدى ، وها هو ذا عمرو بن العاص ، وها هو ذا حكرمة بن أبي جهل ، هؤلاء سيكونون سيوفاً للإسلام ، ولا يظن منهم أحد أنه ستر يكون نفسه عن الله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة النحل)

هذا اللون قد أدى أمرين

الأمر الأول : أوضح أن هناك رباً مطلعاً على خائنة الأعين وشعايا الصدور .
والأمر الثاني : أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفاً للإسلام وسيخرج من دبتهم قادة يحملون الدعوة لله . ولذلك سجد النبي صلى الله عليه وسلم وقد حاده جبريل وقال له : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فتاداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثي ربك إليك لتأمرني بأمرك بما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيش^(١) . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(٢) .

وقد حدث ذلك . إن أسلوب معاملة المخافقين بحجده الله في هذه الآية بما يلي هم قوم الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يدعى الإسلام وينمون أن يكون

(١) الأخشيش : هما جبلان بمكة أبو قيس ، والذي يذنيه وهو قتيبان

(٢) روى البخاري ومسلم

المؤمنون على شاكلتهم ، فذلك لا يتخذ المسلم ولها من المنافقين ولا نصيراً .
ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تسع له ، أما إن تولى المنافق وأعرض عن ذلك . فأسلوب المعاملة يكون كما يحده الله . « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وياً ولا نصيراً » لكن بعد أن يُطلق هذا الأمر توجد عفة في تنبيهه ، إنها عفة الأحلاف والعهود والمواثيق التي كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل ، وكانت هذه العهود تلخص في أن الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم . ولذلك يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف

إن الحق يوضح لنا . لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه ، لأن الإسلام دين الوفاء بالعهود ، وقد أعطيت بعض القبائل عهوداً بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل في حمايتهم ، وكذلك الذي يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومع التسلط عليه .

لذلك قال الحق في هذا الاستثناء :

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ
يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَتَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّ لُوكُمْ فَلَمْ يُقْتَلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ
السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝﴾

والآية تبدأ باستفراك حتى لا تفتح مجالاً لإغضاب من كان للإسلام تعاهد معهم وتعاهد ، فالذين يصلون ويلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين تحالف أو ميثاق

لا ينطبق عليهم ما جاء في الآية السابقة وهو الأخذ والقتل .

مثال ذلك ما حدث من عهد بين المسلمين وهلال بن عويمر الأسلمي على الأبحنة ولا يعيوا عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله الجوار مثل الذي لهلال . والاستثناء يشتم أيضاً من جئوا إلى المسلمين ، فمن ذهب من المنافقين إلى من عاهد المسلمون فهو يحصل على الأمان ، وكذلك يؤمن الرسول من جاءه من المنافقين وكان من الأسباب ما يجعله يطلب حماية الرسول والإسلام : فعل الرغم من نفاقه يؤمنه الإسلام .

« أوجاعوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، كأن يقول الواحد منهم : أنا لا أقدر أن أقاتلكم ، ولا أقدر أن أقاتل قومي فأعقر في هذا واقبني معكم . هؤلاء يقتلهم الرسول لأنهم أقروا بما هم فيه من ضيق ، فهم لا يستطيعون التصرف لا أمام المسلمين فيعلنون الإيمان ، ولا أمام الكافرين فيعلنون في معسكر الكفر . ولا يستطيعون أن يتخلوا موقفاً حاسماً حازماً بين المسلمين والكافرين ، فهم يقررون بضعفهم ، ويعترفون به .

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم » ، فما الذي يجعلهم يلودون إلى قوم يتحالفون مع المسلمين بميثاق حتى يحنوا فيهم ؟ أو يقررون أن صدورهم صلبة وأنهم غير قادرين على التصرف ، ويعلمون : لا يستطيع أن يقاتلكم ولا أن يقاتل قوماً . ويوضح الحق : أنا فعلت هذا وألقيت الرعب في قلوبهم ، ولو شئت لسلطتهم وجراتهم عليكم ، وقاتلوكم ، إذن فسبحانه بنصرنا بالرعب وجمع قناهم لنا .

« فإن اعتزبوكم فلم يقاتلوكم وألفوا إليكم السالم فما جعل الله لكم عليهم سيلاً » .

إن اعتزبوكم ولم يقاتلوكم وألفوا السالم واعتزفوا بأنهم لا يملكون طاقة اختار بين قتال المسلمين أو قتال قومهم ، فليس لكم أيها المسلمون حجة أن تعتدوا عليهم ، فالاعتداء عليهم في مثل هذه الحالة ينهى الله عنه .

وعين الحق لا تقتصر على ما نعرف ، ولكنها تتعدى إلى أفق التفاصيل ، فهي عين لا ترى ما عرفناه فقط ولكنها تكشف لنا الحجب التي لا نعرفها ، فيقول سبحانه :

﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا
قَوْمَهُمْ كُلَّ مَارَدٍ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ
يَعْتَرِلَوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَٰمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ
فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّشْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكَ
جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ٥١ ﴾

تبدأ هذه الآية بفعل يتحدث عن المستقبل : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم » . معنى ذلك أن المسلمين لحظة نزول هذه الآية لم يكونوا قد وجدوا مثل هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم الحق ، ولو لم يحدث للمعاصرين لتزول القرآن أن وجدوا مثل هؤلاء ماذا كانوا يقولون عن هذا الخبر ؟ لو لم يحسوا مثل هؤلاء القوم لتشككوا في القرآن . وسبيلنا يوضح أن عين معكم ، وعين لكم ، أخبرتكم بما حدث واختلفتم فيه ، وأخبركم بما لم يصل إل آذانكم وعلمكم فلا تختلفوا فيه ، وهذا دليل على أنكم في رعاية رب صابغ .

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم » وهؤلاء القوم هم قوم من بني أسد وخطفان ، وكانوا على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، وكانوا أيضاً يقابلون الكفار فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أي معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار « أركسوا فيها » أي فشلوا في الاختبار ، فعاصروهم الإيمان لم تقو بعد ، وما زالوا في حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما في

أعياقهم ازدادت حيرتهم فالفتنة هي اختبار ، وليست الفتنة شيئاً مضموماً ، وعندما يقال : إن فلاناً في فتنة فعل المؤمن أن يدعو له بالنجاح فيها ، فالفتنة ليست مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسان في الفتنة

ونعلم أن الفتنة مأخوذة من الأمر الحسي ، فتنة الذهب وكذلك الحديد : فتنة الذهب هي صهر الذهب في البوتقة حتى ينصهر ، فتلطفوا كالزبد كل العناصر الشائبة المختلطة بالذهب ، وكذلك الحديد ، يتم صهره حتى تنصلب الذرات المتهاسكة بعضها عن بعض . ويطفو الحث

ونعرف أن الحديد أنواع : فالحديد الرهر شوائبه ظاهرة فيه وسهل الكسر . بينما نجد الحديد الصلب بلا حيث فهو صلب وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن العريية المختلطة به . ونقلت كلمة « الفتنة » من المحسات إلى المعاني ، وصارت الفتنة هي الاختبار الذي ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهي ليست صلبة في ذاتها ، ولكنها صلبة لمن يرسب فيها .

وهكذا كان تنبؤ القرآن الذي يخبر المسلمين بأمر قوم على حدودهم ، نجعلهم الفتنة لا يثوون على الإيمان ، أي فكلما دعاهم قومهم إلى الشرك وقتل المسلمين ردوا على أعقابهم وانقلبوا على رءوسهم أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرًا من كل عدو عليكم ، وشرح القرآن كيفية سلوك المؤمنين تجاه هؤلاء المرتكسين والمنقلبين في الفتنة : « فإن لم يمتزلوكم وبلغوا إليكم السلم ويكفروا أيديهم فخطوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولوكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » ونلاحظ أن الحق أمر بتأمين من لجأوا بضعفهم على الرغم من نفاقهم إما إلى المسلمين وإما إلى حلفاء المسلمين حين قال في الآية السابقة :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَكُمْ عَهْدٌ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

وهذا إتصاف وتنبه إلهي من الحق ألا يسمع أحد صوت حفيظته ويفترس قوماً ضعفاء أما الذين يحاولون التمرد والاستسلام لصوت الكفر وإيقاع الأذى بالمسلمين ، ولم يلقوا بالسلم للمسلمين ويكفروا أيديهم عنهم ، هؤلاء يأن فيهم الأمر الإلهي :

خدوهم واقتلوهم . وجعل الله للمسلمين على هؤلاء السلطان المين . والسلطان كما نعرف هو القوة ، والقوة تأخذ لوتين : هناك قوة تقهر الإنسان على الفعل كأن يأتي واحد ويأمر إنساناً بالوقوف فيقف ، وكأن يأمر القوي الضعيف بالسجود فيسجد . وهذا سلطان القوة الذي يقهر القلب ، لكنه لا يقدر على قهر القلب أبداً . والسلطان الثاني هو سلطان الحجة ، وقوة المنطق وقوة الأداء والأدلة التي تقنع الإنسان أن يفعل .

والفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسان على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاعتناع . والسلطان المين الذي جعله الله لمؤمنين على المنافقين الذين يقاتلون المؤمنين ، هذا السلطان يمكن لكم أيها المسلمون قوة تعملون بها ما تريدون من هؤلاء ماداموا حاولوا القتل والحاق الأذى بالمسلمين ، فالعزم والعدل هو أخذهم بالعنف .

وحق فيهم معنى السلطان جيداً فلتتذكر الجدل الذي سيحدث في الآخرة بين الشيطان والذين اتبعوا الشيطان ، سنجد الشيطان يقول : لقد أغويتكم ، هذا صحيح ، وأنتم اتبعتموني ، فأنتم المسئولون عن ذلك ، فلم يكن لي عليكم من سلطان قوة أو سلطان إقناع :

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وبعد أن تكلم الحق عن القتل ومشروعيته ، وقاتل المنافقين ، وقاتل الآخرين . نجد الكلام يصل إلى موضوع القتل . فلو صبح لهم : المسألة أي أنا الذي عملت البنيان الأدمى ، والحياة أنا التي أحبها ، وليس من السهل لبني البيان أن يحرض على حسمه ، إنما أنا أحرض على هدم هؤلاء الذين يقاتلونكم ؛ لكي يسلم باقي البنيان لكم ، وإياكم أن تهترئوا على بيانات الناس ، فملعون من يهدم بيان الله ؛ فأنص التي خلقها الله ، إياك أن تقترب من ناحيتها إلا بحقها وذلك بأن اجتبرأت على حدود الله ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الحياة وهو الذي يأخذ الحياة ، وحياة الناس ليست ملكاً لهم ؛ فحياة الإنسان نفسه ليست ملكاً لنفسه ، ولذلك فمن يقتل واحداً ، عُذْوَانِ دُونَ حَقِّ نَفْسٍ مِنْهُ ، وأما إن كان ذلك قد فعل خطأ فنأخذ منه الدية ،

وتنتهي المسألة . لكن قاتل نفسه حرم عليه الجنة

إذن فقبيل أن يقول لي : لا تقتل غيرك قال لي : إياك وأن تقتل نفسك . إذن نسبحانه ليس بغيره فقط على الناس منك ، بل يغار عليك أيضاً من نفسك ، ولذلك فحين شرع سبحانه القصاص في القتل شرعه ليحميك لا ليجرئك على أن تقتل ، أما عندما يأمر سبحانه . أن من قتل يُقتل . فهو يقسط ويعدن ، والقصد من هذا الحفاظ على حياتين ؛ لأنك إن علمت أنك إن قتلته قُتِلت لا تقتل . ومادمت لا تقتل فقد حيت حياتين حياة من كنت سخطه وحياتك من أن يُقتص منك وهذا هو معنى قوله :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

إذن فالذي يحاسب ويقول : هذه بشاعة وكذا وكذا نقول له : الذي يشرع القصاص أريد أن يقتل ؟ لا ، بل يريد أن يحمي حياتك ؛ لأن القاتل عندما يعلم أنه إن قتل يُقتل فلا يقتل ، ومادام لا يقتل نكون قد حافظنا على حياته وحياته الآخر . إذن فقوله : ﴿ ولکم فی القصاص حياة ﴾ قول صدق .

وعندما تكلم الحق عن القتال والقتل بيننا . إياكم وأن تجزئوا بسبب هذه المسائل على دماء الناس ولا على حياتهم ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن القتل المحظور في الإيمان والإسلام ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً
وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ
كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ

رَقِيبَةً مُّؤْمِنَةً ۚ وَإِن كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ مِّشْقٌ فِدْيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۚ مُّؤْمِنَةٌ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُّتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٦٢﴾

جاء هذا القول بعد أن تكلم سبحانه عن القتال لتثبيت أمر الدعوة ، ولما كان القتال يتطلب قتل نفس مؤمنة نفساً كافرة ، ناسب ذلك أن يتكلم الحق سبحانه عن القتل .

والقتل - كما نعلم - محاولة إزهاق روح الحى بنقض بنيته والحى وإن لم ينقض بنيته حين يأتي أجله يموت إذن ينقض البنية من الإنسان الذى يريد أن يحمى على إنسان عمل حياته إنهاء الحياة ، فلا يظن ظان أن القاتل الذى أراد أن ينقض بنية شخص يملك أن ينهى حياته ، ولكنه يصادف انقضاء الحياة ، فالذى ينهى الحياة هو الحق سبحانه وتعالى . ولذلك قلنا : إن الجزء إنما وقع على القاتل لا لأنه أمدت القتل ولكن لأن القاتل تعجب في أمر استأثر الله وحده به ، والقتل ميت بأجله ، فالحق سبحانه وتعالى هو الذى استخلف الإنسان في الكون ، والاستخلاف شرحه الحق في قوله :

﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

قاله هو الذى جعل الإنسان خليفة في الكون ليعمر هذا الكون ، وهمازة الكون تنشأ بالتكبير في الارتقاء والصالح في الكون ، فالصالح تتركه صالحاً ، وإن استطاع أن يربد في صلاحه فللفعل .

الأرض - على سبيل المثال - تبت الزرع ، وإن لم يزرعها الإنسان فهو يحد زرعاً

خارجاً منها ، والحق يريد من الإنسان أن ينسى في الأرض هذه الخاصية قبائل الإنسان بالثور ويحرق الأرض ويوزعها . فهذا يزيد الأمر الصالح صلاحاً . وهذا كله فرع وجود الحياة .

إذن فالاستخلاف في الأرض لإعمارها يتطلب حياة واستيقاظ حياة للخليفة . ومادام استيقاظ الحياة أمراً ضرورياً فلا تثنى أيها الخليفة لخليفة آخر مثلك لنهي حياته فتمتلل إحياءه للأرض واستثماره لها . فالقتال إنما شرع للمؤمنين ضد الكافرين ؛ لأن حركة الكافرين في الحياة حركات مفسدة ، وحرمة الفلسفة دائمة مقدم عن جلب المصلحة . فالذي يفسد الحياة يقاتله المؤمنون كي ينهي الحياة فيه ، ويُخلص الحياة من معوق فيها .

إذن فيريد الحق أن تكون الحياة لمن تصلح الأرض بحياته . والكافرون يعيشون في الأرض فساداً ، ويعيشون على غير منهج ، ويأخذون خير الضعيف ليصبروا هم به أقوياء ، فشرع الله القتال إما ليؤمنوا ويحضروا للمنهج ، وإما ليخلص الحياة من شرهم . فإذا ما وجه الإنسان القتل لمؤمن - وهو في ذاته صالح للاستثمار في الحياة - يكون قد جنى على الحياة ، وأيضاً لو قتل الإنسان نفسه يكون قد جنى على الحياة كذلك ، لماذا ؟ لأنه أفقد الحياة واحداً كان من الممكن أن يعمر بحركته الأرض .

فإن اجتراً على حياته أو على حياة سواء فلا بد أن تؤذيه . كيف ؟ قال سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَلْهَبُوا سَبِيلَهُمْ مِثْلَهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة بقره)

والتشريع الإسلامي وضع للقاتل من سبق إصرار وترصد عقاباً هو القتل . وبذلك يحرم التشريع الحياة ولا ينسى القتل ، بل يمنع القتل . إذن ، فالحدود والقصاصات إنما وضعت لتمطي الحياة سعة في مقوماتها لا تضيقها في هذه المقومات ، والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن القتال المشروع أراد أن يوضح لنا : إياكم أن تتعدوا بهذه المسألة ، وتستعموا القتال في غير الأمر المشروع ، فلذا ما اجتراً إنسان على إنسان لنهي حياته في غير حرب إيمانية شرعية فلماذا يكون الموقف ؟

يقول التشريع : إنه يقتل ، وكان يجب أن يكون في بالك ألا تحترق على إرهاب حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك ، ولكن إن أنت فعلت خطأ نتج عنه الأثر وهو القتل . فهاذا يكون الأمر ؟ هناك منحل لك وهو القتل وأنت القاتل ولكن لم تكن تقصده ، هما - إذن - أمران : عدم القصد في ارتكاب القتل الخطأ ، والأمر الثانى هو حدوث القتل .

يقول التشريع في هذه المسألة : إن القاتل بدون قصد قد ألحق حياة إنسان ، وحياة هذا الإنسان لها ارتباطات شتى في بيئته الإيمانية العامة ، وله ارتباطاته ببيئته الأهلية الخاصة كمائلته ، العائلة له أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع ، فكم دائرة إذن ؟ دائرة إيمانية عامة ، ودائرة الأهل في حوزتها الواسع ، ودائرة الأسرة ، ودائرة خصوصية الأسرة في الأصل والفرع . وسين نرى حياة إنسان في البيئة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيئة بتقصص واحد مؤمن خاضع لمشيئة الله ومقيد في حركته ، لأن الدائرة الإيمانية فيها نفع عام .

لكن الدائرة الأهلية يكون فيها نفع خاص قليلاً والدائرة الأسرية نجد أن نفعه فيها كان خاصاً بشكل ما ، وفي الأصل والفرع نجد نفعاً مهماً وخاصاً جداً . إذن فهذا القتل يشمل تفريعاً لبيئة عامة وبيئة أسرة وبيئة أصل وفرع .

ولذلك أريد أن نلاحظوا في أحداث الحياة شيئاً يمر علينا جميعاً ، ولعل كثيراً منا لا يلتفت إليه ، مع أنه كثير الحدوث ، مثلاً : إذا كنا جالسين في مجتمع وجاء واحد وقال : « فلان مات » ، رقى هذا المجتمع أناس يعرفونه معرفة عامة . وآخرون يعرفونه معرفة خاصة ولهم به صلة ، وأناس من أهله ، وفيه والد الميت أو بنته ، انظروا إلى أثر النعى أو الخبر في وجوه القوم ، فكل واحد سينفعل بالقدر الذى يصله ويربطه بمن مات . فواحد يقول : « يرحمه الله » ، وثانى يتسائل بفرح . « كيف حدث ذلك » ؟ وثالث يبكى بكاء مرّاً ، ورابع يبكى جوارياً ليرى الميت . الخبر واحد فلماذا يتعدد أثر وصلات الانفعالات ، ولماذا لم يكن الانفعال واحداً ؟

نقول : إن الانفعال إنما نشأ قهراً بعملية لا شعورية على مقدار نفع المفيد لمن ينقل لونه ، فالذى كان يلتقى به يوماً ويسيراً في أحوال من متباعدة يقول : « رحمه

الله . ولذى كان مجالسه كل عند يفكر في ذكرباته معه ، وحتى نصل إلى أولاده فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف أنفعاله عن المخرج حديثاً أو الذى يدرس ، أو الفتى الصغيرة التى مازالت تتلقى التعليم ، هؤلاء الأولاد يختلف تلقىهم للخبر بأنفعالات شتى ، فالابن الذى له أسرة وله مكن يتلقى الخبر بأنفعال مختلف عن الابن الذى مازال في الدراسة ، وأنفعال الابنة التى تزوجت ولها أسرة يختلف عن أنفعال الابنة التى مازالت لم تجهز بعد .

إذن فالأنفعال يحدث على مقدار النفع ، ولذلك قد نجدنا على صديق أكثر مما نجدنا على شقيق وقالوا : من أحب إليك ، أخوك أم صديقك ؟ قال : النافع إذن تلقى خبر انتهاء الحياة يكون مختلفاً ، فالخزن عليه والأسف لفراقه إنما يكون على قدر إشاعة نفعه في المجتمع .

فالذى نجد المجتمع كله هاكجا وثلثا وحزينا لفراقه كان نافعاً للمجتمع كله ، والذى تبكى عليه أسرته فقط نقول : إنه كان عن قدر نفعه لأسرته وأولاده ، وقد يموت واحد ولا يحس أحد أن الكون قد نقص . وهذا هو السبب في أنهم أرادوا أن يجعلوا لكل واحد وصفاً . وقالوا : إن لوطن الناس على قدر مهمتهم . فواحد ليس له وطن إلا نفسه فقط ؛ يرى كل شيء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد حتى ولو كانوا أولاده .

وهناك واحد يكون وطنه أسرته يعمل على قدر نفعها ، وواحد يكون وطنه عائلته وقرية ، وواحد وطنه أمته وواحد وطنه العالم كله . إذن فعندما يضع المجتمع في واحد فالحرة تأتي على قدر وطنه ، وعندما يفاجأ الناس بواحد يقتل عن طريق الخطأ فالفاعل معذور . ولكن عذره لم يمنع أن تعدى فعله وأن الآخر قد قتل ؟ فالأثر قد حصل ، ونحدث الحرة للأقرب له في الانتفاع ، ولأن القتل خطأ فلن يتم النقص من القتلى ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته ؛ لأن هناك قاعدة تقول : « بسط النفع وقبض الضرر » .

إنك ساعة ترى شيئاً سيفعلك فإن النفس تنبسط ، وعندما ترى شيئاً مبغضك فإن النفس تنقبض . وعندما يأتي للإنسان خبر موت عزيز عليه فإن نفسه تنقبض ، وساعة يأتيه من بعد ذلك خبر وهو حصوله على جزء من دية القتل فالنفس تنبسط ، وبذلك يتم علاج الأثر الحادث عن القتل الخطأ .

والدية بحكم الشرع تأتي من العاقلة ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والمروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم وهم بذلك يفرعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاورة في الدية . كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التي صعبها انحراف بعلاج هو وقاية من رد الفعل فيحقق التوازن في المجتمع . فمن يفس خطأ لا يقتص منه المجتمع ولكن هناك الدية ومن أجل إشاعة المسؤولية فالقاتل لا يدفعها ، ولكن تدفعها العاقلة ؛ لأن العاقلة إذا ما علمت أن من يجبي من أهلها جناية رأيا مستحتمل معه قايها يعلم أفرادها فن صيانة حقوق غيرهم ؛ لأن كل واحد منها سيدفع ، وبذلك يحدث التوازن في المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نستبعد أن يقتل مؤمن مؤمناً إلا عن خطأ ، فلا يستقيم أن يحدث ذلك هذا فيقول : « وما كان يؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومعنى هذا أن مثل هذا القتل لا يصح أن يحدث من قصد ؛ لأن اللصمة - بضم اللام - الإيمانية تجمع هذا . لكن إن حدث هذا في العلاج ؟ . « وما كان المؤمن أن يقتل مؤمناً ، إلا خطأ ومن قتل مؤث خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » .

ولا يذكر سبحانه هنا القصاص ، فالقصاص قد تقدم في سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَأَلَّا تَنَافُوا فِي الْقَتْلِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والقصاص حق الولي فله أن يعفو أو أن يأخذ الدية ، كأن يقول : عفوت عن القصاص إلى الآية . ويجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص . فالقصاص حق الولي ، وأحد حق الله . ولو أن يتنازل في القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ولكنها حق لله

إذن فالقتل الخطأ قال فيه « فتحرير رقبة مؤمنة » وهنا قد نسأل : وماذا يستعيد أهل المحبي عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة ؟ . هل يعود ذلك على أهل القتل بسط في النفع ؟ . قد لا تفيدهم في شيء ، لكنها تفيد المجتمع ؛ لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمة هو مملوك لسيده ، والسيد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون

العبد حرّاً فهو حر الحركة ؛ فحركة العبد مع السيد محدودة ، وفي حريته حركة مفيدة للمجتمع .

إذن فانقبض الذي حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط في حرية واحد كان محكوماً في حركته فنقول له : انطلق في حركتك لتخدم كل مجتمعك . ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التي جعلها الإسلام لذلك .

وبعد هذا القول « ودية مسلمة إلى أهله » لكي تصنع البسط في نفوس أهله ليخفف القبض نتيجة خسر القتل . ولذلك نجد أسرة قد طمعت في أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن في ذلك شيئاً من السلوى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مرهوداً فيها لقالوا : « نحن لا نريد ذلك » ، ولكن ذلك لا يحدث .

وبعد ذلك نجد الذي فقد حياة حبيب لا يظل في حالة حزن ليفقد حياة نفسه ، فهي الواقع يكرن الحزن من الحزين على نفسه بمقدار ما فات عليه من نفع عندما قُتل له القاتل ، والحزين إنما حزن لأن القاتل كان يثرى حياته ، فلما مات صارت حياة النفع منه بلا إثراء .

ولو رأينا إنساناً يحزن لفقد واحد وقتلنا له احتفظ بجثمانه لمدة أسبوع لترتوي من أشواقك إليه ، وبعد ذلك تأخذ منك لندفنه أيرضى ؟ لن يرعى أبداً بذلك . أو يقول للحزين : « ن نقدم لك طعاماً لمدة أسبوع لأنك في حالة حزن هنا لن يوافق الحزين ، وزوجة الفقيد تذرف حينها الدمع وتبكي عليه لكنها تأكل وتشرب .

إذن فالمسألة يجب أن تكون واضحة لاستقبال أقضية الحق وهي أقضية لا تنفص نواويس الله في الكون . وبعد ذلك يريد الحق أن يشيع التعاطف بين الناس ، فإذا قال أهل القاتل لأهل القاتل : نحن لا نريد دية ، لأن مصيبتكم في القاتل مثل مصيبتنا فيه ، وكلنا إغوة في الذي يجري في المجتمع ؟ الذي يحدث من النفع هو أصعاب أصعاب ما تؤذي الدية ، إذن فهذا تريبب للدية ، فساعة يعرف الطفل في العائلة أنه

كان مطلوباً منهم دية لأن أباه قد قُتل ، وعما أهل القنيل فلم يأخذوا الدية ، هذا الطفل سيعرف عندما يُشَبُّ ويعقل الأمور أن كل حير عند أسرته ناتج من هذا العفو وهذه الحقة ، فيحدث الود .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يربب إشاعة المودة والصفاء والتضحية . فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فيسمع ، وإن لم يأخذها فهو يتنفع أكثر ، لذلك يقول الحق : « ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا » .

وهذا ما يحدث إذا ما قتل مؤمن مؤمناً خطأ في بيئة إيمانية ، ولكن ما الذي يحدث عندما يتم قتل مؤمن لواحد من قوم أعداء والمقتول مؤمن ويحش بين الكفار ؟ . ها نحن أولاء نرى عدالة التشريع الإلهي ، وحتى يزداد يقيناً بأن الله هو رب الجميع ؛ لذلك قال الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن » أي كان للمقتول من قوم في حالة عداء مع المسلمين فهو لا يستحق الدية ، لأنه يحيا في قوم كافرين .

هكذا نجد التشريع هذا قد شرع ثلاث حالات : شرع لواحد في البيئة الإيمانية ، وشرع لواحد مؤمن في قوم هم أعداء للمؤمنين ، وشرع لواحد قد قُتل وهو من قوم متحالفين مع المسلمين . وكل واحدة لها حكم ، والحكم في حالة أن يكون القنيل من قوم بينهم وبين المسلمين عداء وهو مؤمن ، فتحرير ربة مؤمنة ، وذلك لتعويض الإيمان فيطلق عبد كان محدود الحركة لأن هناك من مات وانتهت حركته ، وفي هذا تعويض للمجتمع عندما تشيع حركة العبد . وماذا نفعل في الدية ؟ . لا يأخذون الدية ، لأن الدية موروثة ، وهم من الكفار وليس بين الكفار والمسلمين توارث أي فليس هنا دية

وعندما ننظر إلى قول الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم » نجد أن كلمة « عدو » مفردة في ذاتها ، ولكنها تشمل كل القوم ، وفي اللغة نقول : « هو عدو » و « هما عدو » و « هم عدو » وإن تنوعت عدائهم فهم أعداء ، ولكن عندما يتحد مصير العداء فهم عدو واحد . والحق يقول : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير ربة مؤمنة » ولم يورد سبحانه هنا الدية لأن القوم على عداء للإسلام فلا دية لهم ؛ لأنه لا توارث .

ويقول الحق : « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق دية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » فإذا أعطى المسلمون قوما عهداً من العهود فلا بد من الوفاء . هذا الوفاء يقتضى تسليم دية لأهله ؛ لأن هذا احترام للعهد ، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم . . . والدية - كما تعلم - تدفعها العاقلة ، ويقول الحق في بيان حق الله في أمر القتل خطأ : « وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » أى فمن لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشراؤها فصيام الشهرين بكل أيامها ، فلا يفصل بينها إلا فاصل معذر كأن يكون القاتل - دون قصد - على مرض أو على سفر . ويجوز أن ينتهى المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم .

ولماذا هذا التتابع الحكيم ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل هذه المسألة شاغلة لذهن القاتل ، ومداامت تشغل ذهنه فالصيام لا بد أن يكون متتابعاً ، فلولم يكن الصيام متتابعاً لأصاب القاتل غفلة . « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله »

ولماذا قال الحق : « توبة من الله » ؟ . والتوبة - كما نعرف - قد تكون من العبد فنقول : « تاب العبد » .

وقد نُسند التوبة إلى الحق فيقال : « تاب الله عليه » ومراحل التوبة ثلاث . حين يشرع الله التوبة يقول : تاب الله على العباد فشرع لهم التوبة فلا أحد يتوب إلا من باطل أن الله شرع التوبة ؛ لأنه لو لم يشرع الله التوبة لتراكمت على العباد الذنوب والخطايا .

وتشريع التوبة هو تضيق شديد لتوزيع الشر ، فلولم يشرع الله التوبة لكان كل من ارتكب ذنباً يميث في الأرض بالفساد . فعين شرع الله التوبة عصم للمجتمع من الأضرار . فلأنه شرع التوبة ، فهو - سبحانه - يتوب ، هذه هي المرحلة الأولى . ومادام الله قد شرع التوبة فللذنوب يتوب ، هذه هي المرحلة الثانية ، وساعة شرع الله للتوبة ويتوب الذنوب فالتوبة قبل التوبة ، هذه هي المرحلة الثالثة

وهكذا يرى دقة القرآن حين قال :

﴿ ثُمَّ نَابَ عَلَيْهِمْ يُتُوبُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ويعد أن يتوبوا فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

إذن فالتوبة الأولى من الله تشريع والتوبة الثانية من الله قبول ، والوسط بينهما هي توبة الإنسان .

ويذيل الحق الآية : « توبة من الله وكان الله علياً حكيماً » فسبحانه يشرع التشريع الذي يحمل النفوس تحمياً في مناخ طبيعي وفي تكوينها الطبيعي ، فلو تصورنا أن إنساناً قد قُتل خطأ وتركنا أهل القتل بلا ترضية فلن يستفيد المجتمع الإيماني من قتله .

إذن فالعلم من الله بالنفس البشرية جعل من قتل شخصاً يفقد المجتمع الإيماني بتحرير رقبة ، فيزيد المجتمع إنساناً حراً يتحرك حركة إيمانية ، لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة في الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة ، لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرها عاماً . وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لنتنرها عن كل مفرق في منتهى قتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا تجمع عليهم مصيبتين القتل الذي قام به أصلهم أو فرعهم ، لأن ذلك - لاشك - سيصيبهم بالقزع والحلوف والاشفاق على من جنى منهم . وأن يشتركوا في تحمل الدية . وذلك العمل ناشئ من حكمة . فإذا كان الذي يضيع الأشياء في موضعها هو حائلها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور .

وفي المجال المبررى نجد أن أية آلة من الآلات - على سبيل المثال - مكوّنة من خمسين قطعة ، وكل قطعة ترتبط بالأخرى بمسامير أو حير ذلك ، ومادامت كل قطعة في مكانها فالآلة تسير سيراً حسناً ، أما إذا توقفت الآلة فإننا نستدعي المهندس ليضع كل قطعة في مكانها ، وكل شيء حين يكون في موضعه فالآلة تمشي باستقامة ، وكل حركة في الوجود مبنية على الحكمة لا ينشأ عنها فساد ، فالفساد إنما ينشأ من حركات

نحدث بدون أن تكون على حكمة . والحكمة مقولة بالتشكيك ، فهناك حكيم وهناك

أحكم . وقديماً - على سبيل المثال - كنا نرى الأسلاك الكهربائية دون عوازل فكان يحدث منها « ماس » كهربائي . وعندما اكتشفنا العوازل استخدمناها وعدلنا من نصيبتها للأشياء . وكنا نجد الأسلاك في السيارة - مثلاً - ذات لون وحجم واحد ، فكان يحدث الارتباك عند الإصلاح ، لكن عندما تمت صيانة كل سلك بلون معين ، سهل هذا عملية الإصلاح .

فالحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، لها بالتالي حين يكون من يضع الشيء في موضعه هو خالقها ؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك .

إذا ما رأينا خللاً في مجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقص حكمة الله . وعندما نبحث عن العطب سوف نجده ، تماماً مثلما تبحث عن العطب في أي آلة وتأتي لها بالمهندس الذي يصنعها . ويجب أن نرده إلى من خلق المجتمع ، ونبحث عن علاج الخلل بحكم من أحكام الله . ولذلك أرشدنا الحق إلى أننا إن اختلفنا في شيء فلنرده إلى الله وإلى الرسول حتى لا نضل في تبع

وبعد ذلك بتكلم الحق عن القتل العمد ، وقد يقول قائل : أما كان يجب أن يحذرننا الله من القتل العمد أولاً ؟ ونقول : الحق لو تكلم عن القتل العمد أولاً لكان ذلك موحياً أنه يحدث أولاً ، ولكن الحق يوضح : لا يصح أن تأل هذه على خيال المؤمن .

ورسائل سائل : لماذا لم يقل الحق : « وما كان لمسلم » ونقول : يجب أن نتبه إلى أن الحق نادى المؤمن لأن الإيمان عمل قلبي ، ولهذا كان النداء للمؤمنين ولم يكن النداء للمسلمين ، لأن الإسلام أمر ظاهري ، فقد يقتل إنسان يتظاهر بالإسلام إنساناً مؤمناً . لهذا نادى الحق بالنداء الذي يشعل المظهر والجوهر وهو الإيمان .

وحين يشرع الحق فلا بد أن يأتي بالجراء والعقاب للذي يقتل عمداً وهو يقول :

وَمَنْ يَقْسُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَنَجَزَآؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾

وانتقل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن مختلف من القتل الخطأ الذي لا يدري به
القاتل إلا بعد أن يقع . وجراء القاتل عمداً لمؤمن هو جهم ، وليس له كفارة أبداً .
هكذا يشع الحق لنا جريمة القتل المعمد . لأن التعمد يعني أن القاتل قد عاش في
فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال في القانون « قتل عمد مع سبق الإصرار » . أي أن
القاتل قد عاش القتل في تحمله ثم فعله ، وكان المقروض في العزة التي يرتب فيها
القتل أن يرجعه وازعه الدين ، وهذا يعني أن الله قد غاب عن باله ملة التحضير
للجريمة ، ومادام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فوجاه الله في باله لتراجع ،
ومادام الإنسان قد غاب بالله عن الله والله يفنيه عن رحمته

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقالوا لى سبب هذه الآية :
 إن واحداً اسمه بَقِيسُ بن خُصابة كان له أخ اسمه هشام ، فرجدا أحياه مقتولاً فى بنى
 النجار ، وهم قوم من الأنصار بالمدينة فلما وجد هشاماً قتلاً ذهب بَقِيس إلى سيدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخير ، فأرسل معه رجلاً من بنى فهر وكتب
 إليهم أن يدفعوا إلى بَقِيس قاتل أخيه ، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلاً ،
 ولكننا مؤدى الدية فأعطوه مائة من الأبل ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة فعدا بَقِيس
 على المهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتداً وجعل يشد :

قتلت به فهراً وحملت عقله
حلت به وترى وأحركت ثوري

فلما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أهدر دمه . ومعنى « أهدر دمه » أباح دمه ، أي أن من يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الصبح فوجد

« مقيس » متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمى بها ، فلمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب : جزاء جهنم ، خلود في النار ، غضب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكأن جهنم ليست كل العذاب ، ففيه عذاب وفيه خلود في النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستعيد بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض من أن هناك ألواناً متعددة من العذاب . وفي الحيلة يرى إنساناً يتم حبسه فظن أن الحبس هو كل شيء ، ولكن عندما وصل إلى عمسا ما يحدث في الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشر من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل هذا القاتل توبة ؟ واختلف العلماء في ذلك ، فعالم يقول : لا توبة لقتل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك توبة . وجاء سيدنا ابن عباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله : ألتقاتل عمداً توبة ؟ قال بن عباس : لا . وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن عباس . ألتقاتل عمداً توبة ؟ فقال ابن عباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم .

قال ابن عباس : سأل أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سأل ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول كرهته والثاني لم أقطعه من رحمة ربه .

وكيف فرق ابن عباس بين الحالتين ؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التي يسألها الله على الملقى . مساحة بوجد النبي صلى الله عليه وسلم في صحابته يسأله واحد قائلاً : « أي الإسلام خير » ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من أُرِيت ومن لم تعرف »^(١) ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما

يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم . . ويسأله عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : أى الأفعال أفضل ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : الصلاة على ميفاتها . قلت . ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك ^(١) .

ونعرف أن آية القتل الحمد تتطلب المزيد من التكرار حول نصها « مجزؤه جهنم خالداً فيها » . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأيد . . بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهى ؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لما وصف الحق المكث فى النار مرة بقوله .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة آل عمران)

ومرة أخرى بقوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الباق)

هذا القول يدل على أن لفظ التأيد فى « أبداً » فيه ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأيد . وإذا الحمد القولان فى أن الخلود على إطلاقه يفيد التأيد ، وأن « خالدين فيها أبداً » تفيد التأيد أيضاً ، معنى ذلك أن اللفظ « أبداً » لم يأت بشىء زائد . والقرآن كلام الله ، وكلام الله منزله عن العبث أو التكرار . إذن لا بد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طويلاً لا ينتهى ، وعلى ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن يحكم وله معنى . ثم إن كلمة « خالدين » حين وردت فى القرآن لما ننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى نحد النار :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقٍ وَسَمِيذٌ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيَقِي

النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَنَسِيقٌ ﴿١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة هود)

فكان الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود «إلا ما شاء ربك» والاستثناء لا بد له من زمن ، فلا تأخذ الخلود بمعنى التأيد ، ولكن الخلود هو زمن طويل ، وكذلك يقول في خلود الجنة :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُجِّدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٥٨﴾﴾ .

(سورة مود)

وقوله الحق : «إلا ما شاء ربك» تفيد أن الخلود عندهم ينتهى . مادام هناك استثناء ؛ فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مشى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأييداً .

وعلياً أن تناول الآيات بهذه الروح ، وفي هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد في العصر العباسي هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المتسبين إلى العلم : «كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد» وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلو على صفات الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأى ، ويحكى عنه نيس بن أنس هذه الحكاية : كنت في مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول : «يؤتى في يوم القيامة يقال لى : لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له» قال فقرأت الآية : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإتهام الذى جاءه أو الرقبا الذى لونها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفنى بالآ توبة لقاتل العمد ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة ؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب في ذلك .

نفوس ذلك لتعرف أن الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل دى علم علياً . . ولكن عمراً ذكر ما جاء في قول الحق : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» . وقال نيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين ساء ، فقلت له . لو كنت معك لقلت كما قلت «فجزاءه جهنم خالداً فيها» وقلت أيضاً :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

قال قيس : فوافقه ما رآه على عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تعيد هذه ؟ . تفيد ألا تأخذ كلمة «خالدين فيها» بمعنى التأيد الذي لا نهاية له ؛ لأن الله قد استثنى من الخلود في آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه « شبه العمد » أي أنه لا عمد ولا خطأ ، كان يأتى إنسان إنساناً آخر ويضربه بالآلة لا تقتل عادة فيموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بالآلة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الآلة التي لا تقتل عالياً ، وقال العلماء : اقتل معه لا به ، فلا قصاص ، ولكن فيه دية

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحاً كقتل المسلمين الكافرين في الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك بيننا . يجب أن تحتاطوا في هذه المسألة احتياطاً لتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ

كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيا أيها المؤمنون حين تضربون في سبيل الله فتبوءوا وتبوءوا فلا تعمل سيئوكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تثبوا . « ولا تقولوا لم ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعاني ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه ، وسبحانه يذأه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، والخطاب الإيمان حشية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا صرستم فتبينوا » ، ولكنه قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا صرستم في سبيل الله فتبينوا » فهو يطلب المؤمنين به يحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، وماداموا قد آمنوا فعليه اتباع ما يطلبه الله . فحشية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصله الحكم ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : « ما العنة » أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك في مناعة . ولا يزال تكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تعلو في أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شيء ، ولذلك يقول : الشيء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .

ونرى لأن المسرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب خمر ، وعندما يجلل الأطماء للكشف عن كبد شارب الخمر - على سبيل المثال - نهجه قد تليف ، وأن أي جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع من شرب الخمر لهذا امتنع ؟ . لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قائلها له مجوسياً ، فهل كان امتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهي ؟ . لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى في الأشياء غير الضرورية ، فمن الذي قال : إن الله لا يحرم إلا الشيء الضار ؟ إنه

قد يحرم أمراً تأديباً للإنسان . وضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد الزوج يقول لزوجته : إليك أن تعطى ابناً بعضاً من الحلوى التي أحضرتها . هو يحرم عن ابنه الحلوى لالأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول :

﴿ قَيِّلَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة البقرة)

فالذي يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمه الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدير في كثير من الأوقات حكمته في الأحكام حتى يرى الإنسان وجهاً من الوجوه اللا نهائية لحكمة الله التي خفيت عليه . فيقول الإنسان : أنا كنت أقف في حكمة كذا ، ثم بينت لي الأحداث والأيام صدق الله فيما قال . وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلم بها .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا ، والإيمان هو الخشية ، يا من آمنتم بي إنما قلاداً حكماً » اسمع مني ما أريد منكم ، « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله ، والصرب - كما نعرف - هو انفعال المواجهة هل شيء آخر يعنف وقوة » وقوله :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة النساء)

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولذا الضرب في الأرض ؟ . لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فحين يحسن أن يخرجوا خيراتها ، يقومون بحراثتها حتى يبيحوها ، ويرموا بالبذور ، وبعد ذلك الرى . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هي عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة نحتاج إلى شدة ومكاسمة ، والحق يقول :

﴿ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الزمل)

ومادامت المسألة ضرباً في الأرض فهي نحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة

ولذلك يقال : الأرض تحب من يهبها بالعزق والحراث . وكلما اشتدت حركة الإنسان في الأرض أخرجت له خيراً . والضرب في سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا

﴿ وَأَعِزُّوا نَفْسَكُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالإعداد هو أمر يسبق للمعركة ، وكيف يتم الإعداد ؟ .

أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد المُنَد . والعند تحتاج إلى بحث في عناصر الأرض ، وبحث في الصناعات المختلفة لاختار الأنفل منها . وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان ايبحت والصنعة . ولذلك يقال في الأثر الصالح :

« إن السهم الواحد في سبيل الله يفخر الله به لأربعة » .

لماذا ؟ . لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذي يتم منه صناعة السهم وصقه ، وهناك إنسان وضع للسهم الريش حتى يطيئه إلى الأمام ، وهناك واضح النبل ، وهناك من يرمى السهم بالقوس .

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً ، فيقول : « إذا ضربتم في سبيل الله فتبوا » ويعرف أن الضرب في سبيل الله لا يكون في ساعة الجهاد فقط ، ولكن في كل أحوال الحياة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . « تبيينوا » تعني ألا تأخذوا الأمور بظواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تبينتم وتأكدتم حتى لا يهيب المؤمنون قوماً بظلم .

ولهذا الأمر قصة ، كان هناك رجل اسمه « محلم بن جثامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأصبط الأشجعي » إحسن - أي شيء - من البغضاء . وبعد ذلك كان « محلم » في سرية ، وهي بعض من الجند المحدود العدد وصاحب « عامراً الأشجعي » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلم » فقال « محلم » : « إن عامراً قد أسلم ليهرب مني . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله

صل الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تتبين ؟ ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنه يقول : « السلام عليكم » لينفذ نفسه من القتل ؟

فقال « عَلم » : استخفى لي يا رسول الله

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استخفى لي يا رسول الله .. فرسول الله ببصيرته الإيمانية يعرف على الفور حال طالب الاستنفار ، فإن قال رسول الله غفر الله لك ، فهو يعلم أنه كان مذنوباً ، وإن لم يقل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « عَلم » و« علم » إحاطة وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعلم : « لا علم الله لك » ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإحتقار والخصاء هي التي جعلته لا يدقق في أمر « علم »

وقال الرواة . ومات علم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلمنكته الأرض . فاجاموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : (إن الأرض تقل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين يدي جبل وألقوا عليه الحجارة)^(١) .

وعندما كانت تأتي آية مخالفة لنواميس الدنيا الممهمة للناس فالسبي يريد ألا يفتن الناس في هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبي . . انكسفت الشمس . وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبه قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته فإذا رأيتهم فصلوا وادعوا الله »^(٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخاري

لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابنه إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت لأرمس « محلم » حتى لا يفتن أحد ولا يقولن أحد- إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يعظ الناس حتى لا يعودوا لتلها ، ولو لم يقل ذلك ، فهذا كان يحدث ٩ . قد تحدث هزة قليلة في جزئية وظن الناس وقالوا : إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، ولكان أبوجهل في حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور في وضعها الصحيح ، لذلك قال : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يعظ القوم ألا يعودوا^(١) .

يا أيها الذين آمنوا إذا صرستم في سبيل الله فتيثوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً .

وعلى ذكر ذلك قال لي أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا (فتيثوا) بدل من (فتيثوا) في قوله الحق

﴿ إِن جَاءَكَ فَاسْتَقِْ ظَهْرًا فَتَيْثُوا ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وأقول هذه قراءة من القراءات ، والمعاني دائماً مطلقة ، فـ « تين » معناها « طلب البيان ليتثبت » . وعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل ، وهذا حال غير حالنا ، حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مشتبهة بالصورة . فـ « الباء » تشابه مع كل من : « الياء » ، « النون » ، « الدال » ، « التاء » ، « الهمزة » ، ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفي ، وكانوا يقرأون من ملكة العربية ومن

تلقى واتباع للوحى ، ولذلك « تبيو » من تتكون ؟ تتكون من : ال «فاء» ولم يحدث فيها خلاف ، وال «تاء» وبقية الحروف هي ال «باء» وال «ياء» وال «نون» .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تثبوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تينوا » ، إنه خلاف لى النقط . ولو حذفنا النقط لقرأناها على أكثر من صورة ، والذي تبعه فى ذلك هو ما ورد عن الوحى الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاءوا بشخص م يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرا ما فيه فقال . (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة)

ولم يحدث خلاف فى ال « صاء » ولكن حدث خلاف فى ال « باء » فهي صالحة لتكون باء أو نون ، وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عينا » وقراءة هذه الآية لى قراءة « حفص » :

﴿ مِصْبَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ مِصْبَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد حفظ القرآن قال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيعية ، واتباع للوحى الذى نزل به جبريل - عليه السلام - من عند الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتسمع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا . أن لقراءة الصحيحة أركانها هي :

- ١ - أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .
- ٢ - أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .
- ٣ - أن يصح إستدعاها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطريق يقضى متواتر لا يحتمل الشك .

وهذه الصوائط نظمها صاحب طيبة الشرف فقال :

وكل ما رافق وجهه نحر وكان للرسم احتيالا يحوى
وصح إسدا مر القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وقوله تعالى :

﴿ قَالِ مَذَابِ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَسَاءَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

هذه هي قراءة « حنص » وقرا الحسن . (قال عذابي أصيب به من أساء) .

صحيح أن كلمة « أساء » وهي من الإساءة فيها مسح آخر للمعنى ، لكن
القراءة الأخرى لم تبعث بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقرأ مرة « فتبينوا » ومرة
تقرأ « فتبينوا » ، سواء في هذه الآية التي نحن بصددنا ، أو في الآية التي يقول فيها
الحق :

﴿ إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِمَا فَتَبَيَّنُوا ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وه التبين ، القصد منه التثبت ، والتبين يقتضى الدكاء والعطنة فيرى ملامح إيمان
من ألقى إليه بالسلام :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَ الْبِكْرِ السَّلَامَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

فالمسلم يجب أن يعطى كيلا يأخذ إساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبي يحزم
الأمر مع أسامة بن زيد الذي قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له
النبي صلى الله عليه وسلم : (فكيف بلا إله إلا الله . هل شغقت عن قلبه) ؟

ويقول أسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمى نفسه من الموت . وتكون
الإجابة : هل شغقت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله ؟ فليقول : لا إله إلا الله ،
حرمة .

وقد روى أن الذي نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثامة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضي الله عنهما « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » وقال : كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخلوا غنيمته ، فأنزل الله في ذلك : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً »^(١)

وأهل العلم بالله يقولون : سحابة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد يعير حق

وجاء في بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك مما رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجعلهم قد تفرقوا وبقي رجل له ما كثر لم يرج ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأمرى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قسموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال : ادعوا لي المقداد . يا مقداد أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ قال : فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله »^(٢) .

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » ود ألقى إليكم السلام » يعني حادكم مستسلماً ، أو قال تحية المسلمين ، وليس من حق أحد أن يلقي الاتهام بعدم الإيمان حل من جاء مسلماً ، أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فنعلم أنها في المعنى اللغوي : كل ما يعرض ويذول وليس له دوام أو استقرار أو ثبات . ونحن البشر أعراض ؛ لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون ؛ لأن

(١) رواه البخاري

(٢) رواه البراء

الكون لا يتم بناؤه على الإنسان ؛ فالكون كله انذى نراه هو عرض وسيأتى يوم
ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقياً ، هنا
تكون الصحة عرضاً وكذلك المرض ، وكذلك السمنة والنحافة ، ولون البشرة إذا
ما لوحته الشمس قد يتغير من أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر وكل شيء
يمكن أن يذهب في الإنسان ويحىء هو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان
جوهرًا بالنسبة له . فإذا قسمنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ؛
فهذا أمر سبى ، ولا فكل شيء عرض ، وكل شيء رائل ويبقى وجه ربك
فوالجلال والإكرام .

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا »
وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيها يملكه لذى يلقى السلام ، وقد
يكون عرض الحياة الدنيا - هنا - هو كبرياء نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان يهينه
ويبه إحن أو بغضاء

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض في « الحياة الدنيا » نفهم - إذن - أنه
عرض فيما لا قيمة له . ولذلك نجد أشعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن
لفقدان شيء كان عنده ، وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أى
للذهاب عن الدنيا فيقول :

نفسى القى تلك الأثياله ذاهبة

فكيف آسى على شيء لها دهب

وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « ديبا » على أساس الاشتقاق ، فهي
من : الدبو ، ومقبلة « العلو » ومقبيل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يُقرم عرض الحياة
الدب لتفويهم الصحيح فهو يملك الدكاء والحكمة والفطنة ؛ لذلك لا يأخذ هذا
العرض من صيقلته عندما يلقى إليه بالسلام ؛ لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ
الحياة الدنيا بمن حلقها . والمعاقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطونها من صاحب
الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان مثله ، فالحياة الدنيا لا تنفعه ؛ بلليل أنه معرض
للموت .

« تبتعون عرض الحياة الدنيا بعد الله مغنم كثيرة » ولحق سبحانه وتعالى ساعة يحطّب النمس البشرية التي خلقها ، ويعلم تعلقها بالأشياء التي تنعمها أو تطيل نعمها ، مثال ذلك : أنّ الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غذاءه ، وتكون سعادته أكثر إذا امتلك الغذاء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة واطمئناناً عندما يملك في مخزن طعامه ما يقيه شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر شرفاً عندما يملك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويحب امتداد حياته في غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا يكون له أولاد ، فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يمتدح أن تكون حياته موصولة في ابنه ، وإن جاء لابه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر ؛ لأن ذكره يوجد في جيلين . ويقول لمثل هذا الإنسان لفرض أنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة ، ألا نشيء ولذك على الصلاح حتى يدعو لك ؟

ولذلك يفاجئ الحق النمس البشرية التي تهفو إلى المغنم ، ويكشفها أمام صاحبها ، فيأت بالحكم الذي يظهر الخواطر التي تحول في النمس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يحرم دخول المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خبايا النفوس ، لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادي يبيعون فيه البضائع التي يعيشون من ريعها وبيعها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام ، يعلم أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَا تَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَذَا ۖ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وقبل أن يمول أهل الحرم في أنفسهم . وكيف نعيش ونصرف بصالحنا ؟ ، يابح سبحانه :

﴿ وَإِنْ حَقَمْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وبذلك يكشف الحق أمام النحوس خواطرها الدمية ؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذي سيحدث في أذهان سامعيه ؛ فهو خالفهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق !

وقوله الحق : « تتفون عرض الحياة الدنيا » ينطبق في كل عصر وفي كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : « فبئس الله منازلهم كثيرة » . فسبحانه الرزاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس لماكنهم ومساكنهم بلوحات ننية مكتوب عليها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة النمل)

وكذلك قول الحق :

﴿ تَتَنَقَّوْنَ عَرَصَ الْحَبَةِ الدُّنْيَا فَبِئْسَ اللَّهُ مَعَامُكُمْ كَثِيرَةً ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النمل)

لعل ذلك يمس قلوب من يلهم الأمر ، فيلتموا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وفي هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترحموا ماصيبهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذي يلقي السلام بأنه مارال كافراً ولا يفكر أن الذي ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار ؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام ؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين . وكان المسلمون الأوائل فئة مستقلة تدارى إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يحزىء على التفتيش على السوايا ؟ إذن فمثلياً حدث لكم قدروه لإخوانكم

« كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » والحق بين عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشى عزيز الجانب ولا يمرؤ واحد أن يوجه إليه أى شيء . ويأتى سبحانه هنا بكلمة « فتيبوا » مرة أخرى بعد أن قالها في صدر الآية . وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر في

المسألة الاقتصادية ، وما هوذا عهد سبحانه كلمة « تبيينوا » ، لقد جاءت أولاً كتمهيد للحيثية ، وهي قوله : « تبيينوا عرض الحياة الدنيا » وتأني هاهنا نتيجة للحيثية « فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن غلاء ، لكنه غير بكن ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يمتدح أحداً أنه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليغفلنا في نظام الحياة ، بل خبقنا وأعطانا المنهج لتكون نمودجاً ، ويرى الناس جميعاً أن الذي يحيا في رحاب المنهج تدن له الدنيا .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » . كان الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمراً غير حقيقى ، لأن الذى تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحبيب ، ويعلم المسألة من أولها إلى آخرها . فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يفتله لأنه لم يؤسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبعضاء ، وعليه أن يعرف أن الله عليهم بما فى النفوس .

ويريد الحق أن يثبت المؤمن من نفسه حين يوجهها إلى قتل أحد يشك فى إسلامه أو فى إيمانه ، وحسه من النيقى أن يبدله صاحبه بالسلام ، ويذكر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستحقون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فإذا كنتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، وثقوا تمام الثقة أن الله عليهم خير ، لا يجوز عليه - سبحانه - ولا يخفى عليه أن يدس أحدكم الآخر النفسية ليبرر قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .

وبعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، وبعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن لمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بن تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية فى الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سيساعدنا فى اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى أحكم فى الآية رقم ٩٢ من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد في
سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه :

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ السَّجِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٥﴾

ولهذه الآية قصة . . راقنا من الخواطر من هذه القصة يتطلب بقطة نعلمنا كيف يخاطب
الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابة وحى رسول
الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللحاف^(١) ومن العظام ومن صدور
الصحابه ، حدثنا فقال :

- كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعشيت السكينة - وهذه كانت دائماً تسبق
نزول الوحي على رسول الله - فوقع فخذه على فخذي حتى خشيت أن ترصه .

أى أن فخذه رسول الله كانت ثقيلة .

والوحي ساعة كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما كان يصنع في كياومة
رسول الله تأثيراً مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه ؛ لأن
الدابة كانت تنط تحته فإذا كانت فخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه

(١) اللحاف : حبل من ليف رقيق ، واحد لحاف .

زيد بن ثابت ، فلابد أن يشعر سيدنا زيد بثقل فخذ رسول الله وقد جاءه الوحي .
قال زيد : خشيت أن ترخص فحده فخذى - أى تصيها بالثَّق اشديد أو الكسر
فلي سرى عنه قال اكتب « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، فقال سيدنا ابن أم
مكتوم ، وكان - كما علم - صرير مكفوف البصر قال : فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين
يا رسول الله ؟

إسما اليفطة الإيمانية من ابن أم مكتوم ، لأنه فهم موقعه من هذا القول ، ومن أنه
لا يستطيع اجهاد ، وعلم أنه إن كانت الآية منتظلة على هذا فليس يكون مستويا مع
من جاهد ، ولهذا قال قوله اليفطة . فكيف بمن لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فأخذت رسول الله السكينة ثانية ، ثم سرى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الصرر والمجاهدون في سبيل الله » .

فكانها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم - ولغائل أن
يقول وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يتلقى كلمة من
الله أن يتدبر ويتبين موقعه من هذه الكلمة ؛ فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم
فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يعلمنا كيف مستحضر دورنا من أية قصة سمعها
وحسبنا سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقعه من هذه الآية ، وهذا ما يريد الحق من
حلقه .

وقال زيد بن ثابت : فكتبها .

إنه المقة في أداء زيد بن ثابت لتدلنا على صدق الرواية ، فحين يكتب أولاً
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ألا تلتصق كلمة « والمجاهدون »
بكلمة « المؤمنين » فإذا زاد الحق سبحانه وتعالى « غير أولى الصرر » فلين تكتب ؟

كأن زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب « غير أولى الصرر »
بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « المجاهدون » . قال سيدنا زيد بن ثابت . لقد

نزلت « غير أولى الضرر » وحده، وكأى أطر إلى ملحقها عند صدع الكتف - فقد كانوا يكسبون على أكتاف العظم - والكتف التي كتب عليها سيدنا زيد بن ثابت كانت مشرقة وكانت هذه علامة بها .

ويريد الحق بذلك أن يبه المؤمنين إلى أنهم حين يتلوهون كتاب الله يجب أن يتلقوه بيقظة إيمانية بحيث لا تسمع آذانهم إلا ما يمر على عقوبهم أولاً ليضعهم كل مؤمن موضعها ، وتغر الآية على قلوبهم ثانية لتستقر في ذاتهم حقيقة .

كذلك كانت قصة زيد بن ثابت وابن أم مكتوم والوحى في هذه الآية . « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » .

وهناك حالات يأتي لأجل فلا يصلح له فاعل واحد بل لابد له من اثنين . . مثال ذلك عندما نقول : شارك زيد وعمر . وعندما نصف لاعبي الكرة ، نجد من يتلقف الكرة واحداً بعد الآخر ، فنقول : تلقف اللاعبون الكرة رجلاً بعد رجل .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى » فهذا يدل على أن هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما خير المساوي للآخر ؟ كلاهما لا يتساوى مع الآخر ، ولذلك يكون الاثنان في الإعراب « فاعلاً » ، فلا يساوي المجاهدون القاعدين ولا يساوي القاعدون المجاهدين ، لأن كلا منهما فاعل ومفعول .

وعندما نقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » ، فم هو مقابل « القاعدين » في الآية الكريمة ؟ إنه « المجاهدون » ، لكن لمقابل في الهيئة لعادية للـ « القاعدين » هو « القائمون » ، ومقابل « المجاهدين » هو « غير المجاهدين » . وبذلك كان من الممكن القول : لا يستوى القاعدون والقائمون ، أو أن يقال : لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين . هما الحكمة في معنى « القاعدين والمجاهدين » ؟

إن الحق يريد أن يبين أنه في بداية الإسلام كان كل مؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جدياً في حالة تأهب ، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا النداء فوراً ، فالمسلم لم يكن في حالة استرخاء ، بل في تأهب وكأنه واقف دائماً ليلسى

النداء ، وكأن القاعد هو الذي ليس من صفوف المؤمنين ، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من حير معاش الناس لم رجل أمسك عن غرسه في سبيل الله بطير على منته ، كلما سمع هبة أو فزع طار إليها ينشئ القتل واموت مظاته ، أو رجل في غيبة في رأس شحفة من هذه الشحف ، أو بطن ولد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في حير »^(١)

فإن لم يكن المؤمن متأهياً فهو قاعد ، والقاعد - كما نعرف - هو ضد القائم .
والحق يقول :

﴿ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ يَوْمَ تَعْرَوْنَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النساء)

من هذا القول نعرف أن المقابل للقيام هو القعود .

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنى محدداً ، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس ، ولكن الدقة تقتضي أن نعرف أن القعود يكون عن قيام ، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع ، فيقال : كن مضطجماً فجلس ، وكان قائماً فقام .

وعندما يقول الحق هنا : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » فالقعود مقابل القيام ، فكان المجاهد حالته انقيام دائماً ، وهو لا يتنظر إلى أن يقوم ، لكنه في انتباه واستعداد . ويوسع الحديث الشريف الدائرة في مسئوليات المجاهد فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد وعلى صهوة القوس وممسك باللعام حتى لا تدمه أية مدحاة

وهي كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد . لا ، ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية مستورة ، فيظهرها بشكل واضح لكل الأنهام .

ونحن نقول للطلاب : « إن من يستذكر يجمع ومن لا يستذكر يرسب » وهذه

(١) رواه مسلم في الإمارة وابن ماجه في الفتن ورواه أحمد (ولا يخفى) في المصنف عند حضور العدو (ولا الفزعة) من النهوض إلى العدو (ولا الشحفة) من أهل الجبل

مسألة بديية ، لكننا نقولها حتى نجعلها واضحة في بؤرة شعور التلميذ فليمتح لمسئوليائه .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً في زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟ لا ، ولكن الحق يريدنا قصة إيمانية في بلاغ إيمان من الله . وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستوون مع المجاهدين فيقول : « غير أولى الضرر » . والضرر هو الذي يفسد الشيء مثل المرض ، وهذا ما بوضحه قوله الحق :

﴿ لَيْسَ عَلَى الصُّمَّمَا وَلَا عَلَى الْمَرَمَّنَّ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لَهُ وَرَسُولُهُ مَا عَلَى الْمُخَصَّيْنَنَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ ٩٦ ﴾
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ٩٧

(سورة التوبة)

فالضعف ضرر أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية ، والمرضى ضرر ، والذين لا يجدون ما لا ينفقون منه ، ولا الذين يبحثون لرسول الله فلا يكون بحوزة الرسول دواب تحملهم ، فيصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حرنًا لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ٩٧ ﴾

(سورة التوبة)

لقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . وكلمة « تولوا » هنا لها معنى كبير ، فلم يقل الحق إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولي ، هم لا يدمعون أمام

السي ، ولكنهم يدمعون في حالة توليهم ، وهذا انفعال يصح من فرط التأثر ، لأنهم لا يشتركون في القتال . وكلمة « تفيض » تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها ، فهم لا يسطعون ذلك ، لكن الانفعال يغمرهم ، لأن الذي يتصنع ذلك يقوم بعصير عصبه ويذل جهداً للمرأة ، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم لتفيض أعينهم من الدمع .

وهناك آية أخرى حدد فيها الحق الحالات التي لا يطالب فيها المؤمن بالقتال :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يَطْعِ أُمَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفتح)

هؤلاء - إذن - هم أولو الضرر .

« لا يستوى الفاعلون من المؤمنين غير أول الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » وما داموا لا يستورون ممن الذي فيهم يكون هو الأفضل ؟ .

فلنك ما توضحه بقية الآية التي تحمل المقولة الإيمانية الواضحة : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » . وسبحانه وعد الاثنين بالحسنى الإيمانية ؛ لأن كلا منهما مؤمن ، ولكن للمجاهد درجة على القاعد . وإن تساءل أحد : ولماذا وعد الله القاعد من أولى الضرر بالحسنى ؟ وهنا أقول : علينا أن نتبه وأن نحس الفهم والتدبر عندنا نقرأ القرآن ؛ لأن الذي أصبته آفة فتاله منها ضرر ، فصبر لحكم الله في نفسه ، ألا يأخذ ثواباً عن هذه ؟ .

لقد أخذ الثواب ولابد - إذن - أن يعطى الحق من لم يأخذ ثواباً مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر حتى يكون الجميع في الاستطراق الإيمان سواء . لذلك يقول سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

والحسنى في أولى الضرر أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التي أصابته ، والذي لم يصب بضرر سيأخذ ثواب الجهاد ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا الحسنى من الله .

«وكلا وعد الله الحسنى وفصل الله المجاهدين على الفاعدين أجراً عظيماً» .

وسبحانه يضع أجراً جديداً للقائم مجاهداً على القاعد ، ففي صدر الآية جاء
«درجته» أعلى للقائم مجاهداً ، وهنا «أجر عظيم» ما تفسر هذا الأجر
العظيم ؟ التفسير يحىء في قوله :

﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

فوسبحانه قد أعطى لأولى الضرر درجة ، وفصل المجاهد في سبيل الله على القاعد
من غير أولى الضرر درجات عدة وساعة سمع كلمة «درجة» فهي المنزلة ،
والمنزلة لا تكفى فقط للإيضاح لشمل للمعنى ، ولكن هي المنزلة الارتفاعية أما إن
كان التغير إلى منازل أخرى أقل وأدى ، فنحن نقول : «درجات» ولا نقول
«درجات» .

ولكن هل الدرجات هي لكل المجاهدين ؟ لا ، لأننا لا بد أن نلاحظ الفرق بين
الخروج من الوطن وترك الأهل للجهاد ، وعملية الجهاد في ذاتها ، فعملية الجهاد في
ذاتها تحتاج إلى همه إيمانية ، وبذلك جاء الحق بنص في سورة التوبة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا
مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَرْتَبًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَّخِذُونَ مِنْ عَدُوِّ
نَبِيلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ مَمْلٌ صَالِحٌ إِذْ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَا
يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيُخْرِجَهُمْ

﴿ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة التوبة)

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتعلموا عن الجهاد مع رسول الله ، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشدة واشتة ، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا ، لأن الشراب كبير ، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح ، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح ، ولا يسبرون في مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح . ولا يتألمون من عدوتهم إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً ، فسيبغونه بجزى بأحسن ما كانوا يعملون .

ونام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية بسبع درجات ، فواحد ينال الدرجات جميعاً . وآخر أصابه ظمأ فقط فمال درجة الظمأ ، وآخر أصابه نصب فأخذ درجة النصب أي التعب ، وثالث أصابه محصة ، ورابع جمع ثلاث درجات ، وخامس جمع كل الدرجات .

وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجد أنها : للإصابة بالظمأ ، النصب . أي التعب . الجوع ، ولا يظأون موطئ يغيظ الكفار أي لا يتألمون في مكان يتمكن به المسلمون منهم ويستطون سلطانهم عليهم ، والمقصود الحصن الحصين عند الكفار ، السيل : التتكيل بالعدو ، العتقة الصخرة أو الكيرة ، وقطع أي واد في سبيل الله ، وهذه هي الدرجات السبع التي يجزي الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها ، كما فسرنا العلماء ، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة ، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد . فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات . وعندما نقرأ الآيتين معاً .

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا رَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿ ٩٥ ﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿ ٩٦ ﴾

(سورة النساء)

نجد أن الله يُرْعَفُ المؤمنين في أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هي العليا . فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيماني ، لأنه عندما قد تفع نفسه بالإيمان فلم لا ينضم إلى ركب من ينفع سواء بالإيمان ؟ . ويريد الله أن يعبر كل من من الإيمان قلبه ، وحتى ولو كان موجوداً في مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من الصف الكفار حوله ولمخرج متصفاً إلى إخوته المؤمنين . ويشيع الإيمان لسواء ويعبر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه . ولكن هناك من قالوا : نحن ضعاف غير قادرين على الهجرة أو القتال في سبيل الله . فيأتي القرآن بقطع العذر لأي إنسان يتخلف عن ركب الجهاد في سبيل الله وسبيل نصرته دين الله لميقول الحق .

﴿ ٩٧ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿ ٩٨ ﴾

هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم المشاركة في الجهاد وهذا ما يحدث لهم عندما تقص الملائكة أرواحهم . و « التوفى » معناه « القبض » ؛ فيقال : « توفيت ذنبى » أى قبضته مستوفياً . ويقال : « توفى الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً والقبض له أمر أعلى ، وهو الحق . ومن بعد ذلك هناك موكل عام هو « عزرائيل » ملك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة . فإذا نسبت الوفاة فهي تنسب مرة لله ، فالله يتوفى . لأنه الأمر الأعلى ، وتنسب الوفاة للملائكة في قوله .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وتنسب الوفاة إلى عزرائيل .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

وإذا ما أطلق الحق هذه الأساليب الثلاثة في وصف عملية الوفاة فهل هذا اختلاف وتناقض وتضارب في أساليب القرآن ؟ لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التي صنعها الله ، فهو الأمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يطلق الأمر لجنوده ، وفي حياتنا ما يشرح لنا هذا المثل - وقته المثل الأعلى - فالتلميذ قد يذهب إلى المدرسة بعد امتحان آخر العام ويعود إلى بيته قاتلاً - لقد وجدت نفسي راسباً ، والسبب في ذلك هم المدرسون الذين قصدوا عدم إيجابي .

ويرد عليه والده : المدرسون لم يفعلوا ذلك ، ولكن اللوائح لقي وتضمنتها الوزارة لصحيح لامتحانات هي التي جعلت راسب . ويرد التلميذ : لقد جعلني الناظر راسباً وهذا قول صحيح ؛ لأن الناظر يطبق القوانين التي يحكم بمقتضاها على الطالب أن يكون ناجحاً أو راسباً . وقد يقول التلميذ : إن وزير التربية والتعليم هو من جعلني راسباً . وهذا أيضاً صحيح ؛ لأن الوزير يرسم مع معاونيه الخطوط الأساسية التي يتم حساب درجات كل تلميذ عليها ، فإذا قال التلميذ : لقد جعلني الدولة راسباً ، فهو قول صحيح ؛ لأنه فهم تسلسل التقنين إلى مراحل العلو المختلفة ، وأي حلقة من هذه الحلقات تصلح أن تكون هاعلاً ومن هنا نفهم أن الحق سبحانه حين يقول :

﴿ اللَّهُ يَتَوَلَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الزمر)

فهذا قول صحيح ، مثل قوله سبحانه :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومثل قوله سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنعام)

كل هذه الأقوال صحيحة ، لأنها تتعلق بمذارج الأمر

« إن الذين تولواهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، والظلم هو أن تأتى لغبر ذى الحق وتعطيه ما تأخذ من ذى الحق ، والعلم يقتضى ظناً ومظلوماً وأمر واقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتتوفاه الملائكة على ذلك ؟ لابد أنهم فعلوا ما يستحق ذلك . فساعة تأتى للإنسان الشخصية المعنوية الإيمانية بعد أن آمن بالله وآمن بالمنهج ، ثم تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه صراعاً بين أمرين : مسئولية الشخصية الإيمانية التى تقبل بها المنهج من الله ، ووازع النفس التى تلح عليه بالانحراف . ويدور ما هو أشبه باخوار بين المسئولية الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف . وعندما تتعلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطعنة وسعيدة ، ويقول لنفسه . إنك إن طاوعت وازع الانحراف تكن قد حققت شهوة عاجلة مستكوى بها فى آخر الأمر ، وأنت برفضك للشهوة تكون قد أنصفت نفسك . ولو طاوعت شهوتك العاجلة تكون قد ظلمت نفسك .

ومثل ذلك يحدث فى حياتنا العديدة . عندما تدلل الأم ابنتها بطلب مه والده الاستدكار ويحاول أن يردعه ليقوم بمسئوليته الدراسية ، إن هذه الأم تغلظ ابنتها ، وكذلك يعطيا الحق فكرة عن الصراع بين الشخصية الإيمانية والنفس الانحرافية التى تريد الهوى فقط فيقول :

﴿ وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْ الْآخَرِ قَالَ لَا أُنتَبِذُ قَالَ إِيْمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴾

(سورة المائدة)

هنا يقول هبيل لقابيل :

- ولماذا تفضلنى ؟ . إني لست أنا الذى تقبل القربان ولكن الذى تقبله هو الله فما ذنبى ؟ .

وباقى بعد ذلك الحوار :

﴿ لَئِنْ سَأَلْتَهُ لِمَ بَدَّلْتُ بَأْسِي إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّكَ أَكْثَرُ فَتَنَ أَهْلَيْنِ ﴾ (٣٨)

(سورة النمل)

ولفتت إلى هذا القول الحكيم :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِي ﴾

(من الآية ٣٠ سورة النمل)

كان هناك صراعاً في نفس قابيل بين أمرين « اقبل ، ولا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » ، والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .

وتغلبت النفس الشهوانية عندما طوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت شجرة العصب صار من النادمين ، ثم بدأت الحشرات تظهر وتتصح . وبعث الله عرباً يبحث ويحفر في الأرض ليوارى جثة غراب آخر . هنا قال قابيل :

﴿ أَتَجَرَّتُ أَنْ أَكُونُ مِثْلَ هَٰذَا الْعُرَابِ فَأُورَىٰ سَوْدَةً أَوْحَىٰ ﴾

(من الآية ٣١ سورة النمل)

وهكذا نرى أن ظلم النفس هو أن يخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتميها للنفع العاجل الذي لا حلود له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

« إن الدين توفاهم بالملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كتم » إذن فالملائكة تسأل ظالمى أنفسهم . « فيم كنتم » أى في أى شيء كنتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتضريح أى لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلاً فعل إخوانكم وماجرتم وأنفسهم لموتك الإيمان ومركب الجهاد ؟ ، ولماذا ظلمتم في أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون العبك ؟ وتكون إجابة

الذين ظلموا أنفسهم : وقالوا كنا مستضعفين في الأرض ، وبالله عندما يحكى
لن الله هذه الصورة التي تحدث يوم القيامة فهل سيكون عندما وقت للاستفادة
منها ؟ طبعاً لا ؛ لأنه لن يكون لنا قدرة الاستدراك لنصحح الخطأ .

واحق حين يقص عليها هذا الشهد فذلك من لطفه بها ، وتبىه لكل ما :
احذروا أن يأق موقف ويحدث فيه ما أوضحت لكم ولن يستطيع أحد أن يستدرك
الحياة ليصح العمل الطيب . وعلى كل منكم أن يبحث أمر نفسه الآن .

« إن الذين نواهم الملائكة ظلالي أنفسهم قالوا فيم كتمت قالوا كنا مستضعفين في
الأرض ، وكلمة « كنا مستضعفين في الأرض » تفيد أن نوماً استضعفهم ، أى أنهم
لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبل إليها ، ونعافوا على أموالهم
وديارهم ، والقوم الذين استضعفهم قالوا لهم : إن حرجتم لا تأخذوا شيئاً من
أموالكم هذه هي بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا
الكلام لا يليق ولا ينفع ، تقول الملائكة : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا
فيها » .

وكان هذا تبىه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها ،
لأن الذى يمسكه مكانه وماله دون الله إنما هو من وضع وربط يفينه بالأسباب أما
الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شيء فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو
المسبب وهو مانع ومعطى الأسباب .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وهذا القول عن لسان الملائكة قادم
من العائون الأعلى ، فقد خلق الحق الخلق جميعاً وأسكنهم في الأرض ، وهذه
الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضيق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان من ظلمه وجبروته وعثره قد صبح تحديداً للمكان ، فلا ينتقل
إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات التي تحول دون
الانتقال من مكان إلى مكان ، فذلك مناقضة لقضية الخلافة في الأرض ؛ لأن الخلافة
لم توزع كل جماعة على أرض ما ولكن الإنسان ، كل إنسان خليفة في الأرض كل
الأرض ، مصداقاً لقول الحق :

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾

(سورة النمل)

فقد جعل الله الأرض متصعة مسخرة مذلة للإنسان ، والأرض هي أى أرض ، ولأنام هم كل لأنام . وإن لم يتبه لعالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل العالم في فساد وشفاء . فالذى يجعل الحياة في الأرض فسدة هو خروج بعض الآراء التي تقول : إن الكثافة السكانية تمنع أن نجد الطعام سكان بلد ما . يقولون ذلك في حين أن أرضاً أخرى تحتاج إلى أيدي عاملة ، ولذلك نجد أن البشرية أمام وضع مقلوب ، فأرض في بلاد تحتاج إلى أناس ، وأناس في بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تتيح المسألة فتأخذ الأرض التي بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التي لا أرض فيها . وهذا الضحيج الذي يعلو الكون سببه أنه يوجد في كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما صاق مكان يأسان فله أن يذهب إلى مكان آخر ، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن يتقص هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة في الأرض بغير شروطها ، فالذي يفسد الأمر في الأرض أن الإنسان الخليفة في الأرض نسي أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً في الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً في الكون فهذا هو الفساد .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِيينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَاعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَزْكَىٰ أَرْضُ اللَّهِ وَبِيعَةً قَتَلْنَا فِيهَا قَالُوا لَكَ مَاؤُنْهُمْ حَهِمَّ رِسَاءُ مَعِينًا﴾

(سورة النمل)

إذن ، فإن أقام الإنسان حل ضميم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه يرى الأرض التي تسعه فيها في حاله فعلية أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير ؛ لأن الله قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة ، أما الذين سوف يتنجون من هذا المقاب ومن تصيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم من يقول عنهم الحق في الآية التالية :

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾

وعلياً أن يعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى » ومستضعف حقيقى ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له وجعل من نفسه ضعيفاً ، هذا هو « مستضعف دعوى »

أما « المستضعف الحقيقى » فهو من هؤلاء الذين يمددهم الحق .

وإلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .

هل الولد من الولدان يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً ؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب ، وكذلك النساء ؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمى نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها من زوج أو محرم لها ، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التحيف من الملائكة ؛ لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وهذه دقة في الأداء القرآنى ، فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيال ، والاحتيال هو إعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد تكون القوة ضعيفة ولكن بالاحتيال قد يوسع الإنسان من فرص القوة . ومثال ذلك : إنسان حين يريد أن يحمل صخرة ، قد لا يستطيع ذلك بيديه ، لكنه أن يأخذ بقضيب من الحديد ويصنع منه عتلة ويضع تحت العتلة حيلة ، ليخرج الصخرة ، هذه هي حيلة من الحيل . وكذلك السقالات التي بنى عليها ، إنها حيلة .

والذي قام ببناء الهرم ، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟ لقد فعل ذلك

بالحيلة ، والذي جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد على العشرة الأمتار ، ثم نقلها وأقامها . إنه فعل ذلك بالحيلة ، فالحيلة هو فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه ، كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة . وكانت معرفة الطرق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة في زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المقازات والمناهات ، وحينها قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير في مثل هذه الأرض بلا دليل .

ولنتظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ

عَفُوًّا غَفُورًا ۝١٩﴾

« فاولئك ، إشارة إلى من جاء ذكرهم في الآية السابقة هذه الآية :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَظْفِعِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

سَبِيلًا ۝٢٠﴾

(سورة النساء)

ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال :

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ ۝٢١﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فاولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء به « عسى » ليحثهم على رجاء أن يغفو الله عنهم ، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث . ونعرف أن « عسى » للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتي بعدها أمر محبوب نحب أن يقع .

فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول : عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان :

عسى أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذي يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته ، لذلك فعليه أن يقول : عسى الله أن يفعل كذا ، وفي هذا اعتماد على مطلق القوة . وإذا كان الله هو الذي يقول : « عسى الله أن يعفو عنهم » ، فهذا إطماع من كريم قادر .

وبعد أن يذكر لنا القصة التي تحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل في أرض ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض إيمانية إسلامية سواها ، ومع ذلك فالذي يضع في نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معانٍ عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا
كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ
وِرَسُولِهِ ثُمَّ يَتَزَكَّى الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾

فالذي يهاجر في سبيل الله سجد السعة إن كان قد وضع في نفسه العملية الإيمانية . وفي البداية كان المسلمون يهاجرون إلى الحبشة ، لأنهم لم يكونوا آمنين في مكة على دينهم .

ولذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط الله له كونه واستعرض قضية العدالة في الكون ، فلم يقبل النبي إلا أن يذهب المهاجرون إلى الحبشة . ولا بد أن الحق قد أعلمه أن الحبشة في ذلك الزمان هي أرض بلافتة .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختار النبي أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية في الجنوب أو في الشمال ؟

لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبائلها ، فكل القبائل تخرج عند قريش ولم تكن هناك أى بيئة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش . ولذلك استعرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد جميعاً إلى أن أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، والعملة في الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكان العدل في ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان . وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار إيمان . وعلمنا أن نعرف نحن الذين نعيش في هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)^(١) .

وهناك هجرة باقية لنا وهي الحج ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يضيق الأحكام فيه على الذهاب إلى المسجد ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه الإنسان حرية أداء الفروض الدينية ، كل هذه هجرات إلى الله . والنية في هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط في طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس ما يشغلهم في هذا الزمان هو سعة العيش .

وها هو ذا الإمام على - كرم الله وجهه - يقول : عجبت للقوم يستوثقون فيما ضُبح بالبناء للمفعول - لهم ويتركون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والمعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا :

﴿ وَمَنْ يَتَأَخَّرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

(سورة النساء)

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله ، والشاعر يقول :
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقد يقول الإنسان : إننى أطلب سعة الرزق بالهجرة ، ونقول : أنت تبحث عن وظيفة لها شكل العمل وباطنها هو الكسل لأنك فى مجال حياتك تجد أعمالاً كثيرة .

ونجد بعضاً ممن يطلبون سعة الرزق يريد الواحد منهم أن يجلس على مكتب ويقبض مرتباً ، بينما يبحث المجتمع عن العامل الفنى بصعوبة ، كأن الذين يبحثون عن سعة الرزق يريدون هذه السعة مع الكسل ، لا مع بذل الجهد .

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً » وساعة تقرأ كلمة « مراغم » تعرف أنها تفتح المجال أمام المستضعفين الذين يستغلهم الجبارون . ومادة « مراغم » هى « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرغام » أى « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أى أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه . وما دام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر ، فمعناه أن الثانى كان يريد أن يستأذنه وأراد أن يرغمه على شيء ، لكنه رغب فى وفعل ما يريد .

وعندما يرى الإنسان جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعاتده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانة هذا الأنف فى التراب ، ويقال فى المثل الشعبى : أريد أن أكرس أنف فلان .

وعندما يهاجر من كان مستضعفاً ويعانى من الذلة فى بلده ، سيجد أرضاً يثر فيها على ما يرغم أنف عدوه . فيقول العدو : يرغم أنى ضيقت عليه راح إلى أحسن مما كنت أتوقع . ويرغم الإنسان بهجرته أنف الجبارين .

وكلمة « مراغم » هى اسم مفعول ، وتعنى مكاناً إذا ما وصلت إليه ترغم أنف خصمك الذى كان يستضعفك ، فهل هناك أفضل من هذا ؟